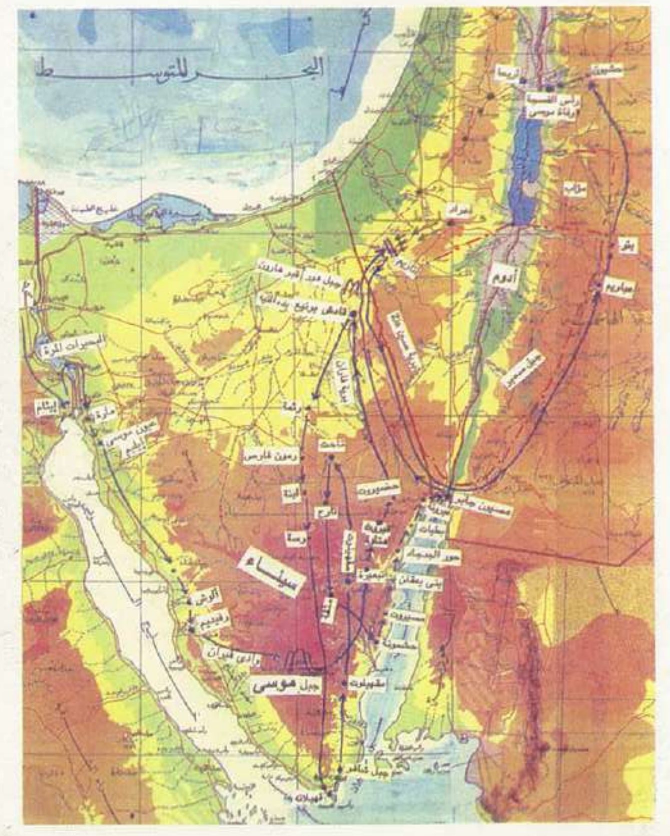
مُوسَىٰ وهَارُون

عليهما السلام

من هو فرعون موسى؟



قصص الأنبياء والتاريخ

الجزء الرابع

تأليف دكتور

رشدي البدراوي

الاستاذ بجامعة القاهرة



قصص الأنبياء والتاريخ

الجزء الرابع

موسى وهارون

عليهما السلام

تأليف دكتور

رشدي البدراوي

الاستاذ بجامعة القاهرة

١٩٩٨

تنويـــه

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الجزء أيضا تكمله لما سبق من أجزاء سلسلة **«قصص الأنبياء والتاريخ»** ولذلك جعل ترقيم الصفحات تاليا لآخر صفحة من الجزء الثالث.

ويرجع كبر حجم هذا الجزء لأن قصة «موسى وهـارون» عليهما السلام من أطول القصص. كما أن التصدى لمشكلة **«من هو فرعون موسى»** استتبعه إدراج فصل عن الرعامسة. وكان لابد من إدراج فصل آخر عن آثار رمسيس الثانى – إذ المرجح أنه هو فرعون موسى – لإيجاد إثبات على ادعائه الألوهية وكذلك لبيان الدمار الذى أصاب آثاره تحقيقا لقوله تعالى «ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون». ولشرح معنى «فرعون ذى الأوتاد». ولعلنا بذلك نكون قد وضعنا حداً للجدل الكثير الذى أثير حول هذا الموضوع.

كذلك يجيب هذا الجزء على أسئلة أخرى مثل: من هو هامان؟ من هـو مؤمن آل فرعون؟ من هى زوجة فرعون التى آمنت؟ من هـو قارون؟ أين كان عبور بنى إسرائيل وغرق الفرعون؟ ماهى الآية فى مومياء رمسيس الثانى؟ أين كان اللقاء مع الخضر؟ أين سار بنو إسرائيل فى سيناء سواء قبل التيه وأثناءه وبعده؟ كل ذلك موضح على الخرائط الجغرافية خطوة بخطوة بالإضافة إلى عشرات الصور الفوتوغرافية مما يجعل القارئ يشعر وكأنه قد عايش بنفسه هذه الأحداث التاريخية.

وسيتبع – إن شاء الله – الجزء الخامس وبه قصة داود وسليمان عليهما السلام وباقى أنبياء بنى إسرائيل.

وأرجو من الله العون والتوفيق

حتى تستكمل الأجزاء الباقية،،

المؤلـــف

أكتـوبـــر ١٩٩٨

شكـــر

يشكر المؤلف أصحاب المراجع التالية لإتاحة الفرصة لاقتباس بعض الأشكال الواردة فى مؤلفاتهم – ومعظمها صور فوتوغرافية للآثار – على الوجة التالى :

- كتاب رمسيس ووقته – إيمانويل ڤيلكوڤسكى : شكل ١٢١ .
- كتاب رمسيس العظيم – Rita Freed – الأشـكـال : ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦ ب ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٤٢ ، ١٤٦، ١٤٩ ، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٠، ١٨١، ١٨٦، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩ ، ٢٣٠، ٢٤٤، ٢٤٥ .
- أطلس مصر القديمة، ج. بينز و ج. مالك: ١٦٦، ١٧٤، ٢٨٩، ٢٩٠ .
- فرعون المنتصر . كتشن : ١٧٠ .
- القاموس الجديد للكتاب المقدس . م. أونجر : ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٧٥، ٢٩٠ .
- أطلس تاريخ الإسلام . د. حسين مؤنس : ٢٨٧ ، ٢٨٨.



محتويات الجزء الرابع

الفصل الأول

من هو فرعون موسى ؟

من الطبيعي – وقد خصصنا هذا الجزء لقصة موسى عليه السلام – أن يتطرق البحث إلى هذا الموضوع الشائك: من هو فرعون موسى؟ . وقد اختلفت الآراء في تحديد اسم هذا الفرعون اختلافا كبيرا. وسنذكر في هذا الفصل مختلف الآراء التي قيلت في هذا الشأن . مذكرين بأن بعض هذه الآراء لم يوضع بقصد بيان الحقيقة أو بحثا عنها بل وضع لهدف سياسي وإن كان قد غُلِّف بما قد يبدو للقارىء بأنه حقائق تاريخية. كذلك فإن بعض النظريات التي وضعت اعتمد أصحابها على حادثة معينة وبنوا عليها نظريتهم. وراحوا يحاولون تفسير الأحداث كلها حسب نظريتهم هذه وُيلوون الحقائق أو يختلقون أحداثا ليؤيدوا بها وجهة نظرهم. ولا يخفى قصور هذه النظريات التي يجوز تسميتها بالنظريات «أحادية النظرة» إذ هي تنظر إلى الأحداث من زاوية واحدة وتتجاهل الجوانب الأخرى. ومن هنا تعددت الآراء ولم تصل إلى نتيجة مرضية.

ولما كان المنهج في هذه السلسلة **«قصص الأنبياء والتاريخ»** هو النظرة الشاملة وربط القصص الديني بالأحداث التاريخية. ومن هذا المنطلق رأينا أن الطريق السليم للوصول إلى الحقيقة في هذا الشأن هو تحديد بعض النقاط الأساسية من قصة موسى عليه السلام يجب أن تستوفيها النظرية المقترحة وكذلك تحديد صفات هذا الفرعون مما جاء عنه في الكتب المقدسة وعلى رأسها بالطبع القرآن الكريم. صحيح أن القرآن الكريم هو كتاب هداية وإيمان. ركَّز عند سرد القصص على الجانب الإيماني والعبرة التي تستقى منها . ولكنه في نفس الوقت إذا أشار إلى حدث معين أو واقعة معينة فقوله هو القول الحق الذي لا يمكن التغاضي عنه أو إيراد ما يتعارض معه. وما سكت عنه القرآن الكريم لا بأس من أن نبحث عما ورد في التوراة بشأنه. مدركين ما قد أصاب بعض نصوصها من تحريف وتبديل وهو ما ذكرناه في الجزء الأول ص٣ – إذ التوراة التي بين أيدينا هي في حقيقتها سيرة موسى عليه السلام وقد مزج كاتبو التوراة بين ما أوحي إليه من الله وبين أحاديثه الشخصية. مضافا إليها تفسيراتهم لبعض الأحداث. واعتمادا على هذه الإضافات الأخيرة فإننا لانرى بأسا من التجاوز عن معلومة تاريخية وردت في التوراة إذا ارتأينا أنها تتعارض مع حقائق أخرى أو أنها تقف حجر عثرة في سبيل نظرية متكاملة.

وأخيرا فإن هناك ملحوظة جديرة بالذكر. وهي صمت الآثار المصرية التام عن هذا الموضوع الخطير – موضوع بني إسرائيل وموسى – مع ماهو معروف عن الكتابات المصرية

– على جدران المعابد والآثار – من دقتها في تسجيل الأحداث. ويعلل «سميث» سكوت الآثار المصرية عن قصة الخروج – أى خروج بنى إسرائيل من مصر – بأنها من وجهة النظر المصرية الفرعونية لا تزيد عن كونها فرار مجموعة من العبيد من سادتهم المصريين. وما كانت هذه بالحادثة التى تسجل على جدران المعابد أو التى تقام لها الآثار لتسجيلها. (J.W. Smith God & man in Early Israel. p38.) كما أنه من المؤكد أن هذه التسجيلات لم تكن – كما نقول بلغة عصرنا – صحافة حرة تسجل الأحداث كما وقعت – بل لابد كانت تحت رقابة صارمة من الفراعين. فلا تسجِّل إلا مايسمح به الفراعين أنفسهم ويكون فيه تمجيد لهم. ولما كان الفراعنة يدَّعون أنهم من نسل الآلهة فليس من المتصوَّر أن تُسجل على المعابد دعوة موسى لإله أكبر هو رب العالمين. كما أنه من غير المعقول تسجيل فشل الفرعون فى منع خروج بنى إسرائيل فضلا عن غرقه أثناء مطاردتهم. إذ أنها أحداث يجب فرض تعتيم إعلامى كامل عليها وعلى كل ما يتعلق بها والعمل على محوها من ذاكرة الأمة. وهو أمر غير مستغرب. بل ويحدث فى أيامنا هذه. وكم من حقائق عملت الرقابة والمخابرات على إخفائها عن الشعوب !

وإزاء تعدد الآراء فى تحديد شخصية من هو فرعون موسى. فقد وجدنا أن الأسلوب الأمثل الواجب اتباعه هو وضع النقاط الأساسية الثابتة ثبوتا لا يرقى إليه الشك ثم عرض النظريات المختلفة – واحدة تلو الأخرى – على هذه النقاط الأساسية. وإذا لم تكن تستوفيها تم استبعادها حتى نصل إلى النظرية التى تستوفى هذه النقاط الأساسية – كلها – أو أكبر عدد منها فتكون هى النظرية الصحيحة.

وفى رأينا أن هذه **النقاط الأساسية هى:**

١ – **تسخير بنى إسرائيل** هو أول هذه النقاط – وهو أمر ثابت بالقرآن الكريم

«إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم. يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم. إنه كان من المفسدين». (٤ – القصص)

كما ورد أيضا فى التوراة. إذ ذُكر كنبوءة لإبراهيم عليه السلام: فقال لأبرام اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم ويُستعبدون لهم فيُذلونهم أربع مائة سنة (تكوين ١٥ : ١٣). كما ذكر عدة مرات فى سفر الخروج: فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف. ومرَّروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبِن وفى كل عمل فى الحقل. كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عنفا (خروج ١ : ١٤).

ولابد للنظرية التى توضع أن توضِّح لم كان هذا التسخير والتعذيب. فلا يكفى القول بأن بنى إسرائيل كانوا مقربين من الهكسوس ليكون ذلك سببا فى هذا التعذيب. فكم من جالية بقيت فى دولة بعد إجلاء المحتل عنها ولم ينزل بها مثل هذا التنكيل أو بعضه.

٢ - **تمسك الفرعون بعدم خروج بنى إسرائيل من مصر**، وليس الأمر رغبة فى تسخيرهم فى المبانى والإنشاءات، فالمصريون بسواعدهم بنوا الأهرامات - أكثر من مائة- وبنوا المعابد الضخمة ومئات المدن وأقربها عهدا مدينة أخيتاتون، ومابناء مدينتى بى رعمسيس وفيثوم إلا قطرة من بحر !! ولا بد من تقديم تفسير كاف لإصرار الفرعون على عدم خروج بنى إسرائيل من مصر بالرغم مما نزل به من ضربات من جراء ذلك.

٣ - **الالتقاط من النهر** : إن موسى هو من بنى إسرائيل، وبنو إسرائيل كانوا يقيمون فى أرض جاسان شرق الدلتا (الجزء الثالث ص ٥١٧). وألقى فى النهر ليلتقطه آل فرعون. فيجب أن يكون موقع الإلتقاط شمالى موقع الإلقاء لأن التيار يمشى من الجنوب إلى الشمال. سواء كان الالتقاط من مجرى النهر ذاته أو من إحدى الترع المتفرعة منه.

٤ - **عند فرار موسى من مصر** بعد قتل المصرى لماذا لم يذهب إلى أرض فلسطين وكان بها فلول من بقايا الهكسوس. كما كان بها «العابيرو» وهم يمتون بصلة ما إلى بنى إسرائيل وكان من الطبيعى أن يلجأ إليهم. فلماذ فضل الذهاب إلى أرض مدين !

٥ - كثير من النظريات التى قُدمت أهملت إظهار **معجزتى العصا واليد** فى اللقاء الأول بين موسى وفرعون ثم تحدِّى السحرة بعد ذلك. وكذلك أهملت إظهار باقى الآيات التسع مع أنها أمور ثابتة فى كل الكتب المقدسة.

٦ - فرعون موسى وُصف فى القرآن الكريم بأنه «**فرعون ذو الأوتاد**» ويجب تقديم تفسير مقنع لهذا الوصف.

٧ - **فرعون موسى ادعى الألوهية**: «فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى». (٢٣ - ٢٤ - النازعات) وهو ادعاء فعلى للألوهية. ويجب على النظرية أن تقدِّم إثباتا لهذا ولا يكفى أن يقال إنه نسب نفسه للآلهة. فجميع الفراعين بدءا من الأسرة الخامسة كانوا يدَّعون أنهم من نسل الآلهة.

٨ - **فرعون موسى غرق أثناء مطاردته لبنى إسرائيل**. والعبرة تكون أبلغ لو أن الفرعون الذى غرق يكون هو نفسه فرعون التسخير. عما إذا مات فرعون التسخير ميتة طبيعية وكان الغرق من نصيب خَلَفه. فإذا اتسعت حياة أحد الفراعين بحيث تشمل الأمرين معا كان فى ذلك غنى عن افتراض فرعونين.

٩ - حبذا لو أوضحت النظرية أن دماراً ما قد حاق بالآثار التى أقامها هذا الفرعون أكثر مما أصاب آثار غيره من الفراعين. لينطبق عليه قوله تعالى: «**ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون**». (١٣٧ - الأعراف)

١٠ - وأخيرا يجب أن تتضمن النظرية تفسيرا لقوله تعالى: «**فاليوم ننجيك ببدنك لتكون**

لمن خلفك آية». (٩٢ - يونس). إذ أن لدينا مومياوات كثير من الفراعين. والآية لتمامها واكتمال الهدف منها - لابد أن تكون واضحة محددة. فأى المومياوات هى الخاصة بفرعون موسى؟ وهل فيها شيئ يمكن اعتباره آية؟

لاشك أن القارىء يوافق على أن هذه هى النقاط اللازم توافرها فى أى نظرية توضع لبيان من هو فرعون موسى. والآن نستعرض مختلف النظريات التى قُدِّمت ونرى مدى تحقيقها لهذه النقاط.

١ - أحمس الأول هو فرعون موسى:

يزعم المؤرخ اليهودى يوسيفيوس (يوسف) بن متى. الذى عاش فى القرن الأول الميلادى أن مانيتو - المؤرخ المصرى الذى كتب تاريخ مصر القديم حوالى عام ٢٨٠ ق.م - قد ذكر أن العابيرو (أو الخابيرو) هم أنفسهم العبرانيون أى بنو إسرائيل وهم أيضا الهكسوس الذين حكموا مصر! وأن طرد الهكسوس من مصر بواسطة أحمس هو نفسه خروج بنى إسرائيل من مصر. وبالتالى فإن أحمس هو فرعون موسى! وما دمنا لا نستطيع الرجوع إلى كتاب مانيتو الذى فقد فى حريق مكتبة الاسكندرية عام ٤٨ق.م فلا نستطيع التأكد من صدق هذا القول. بل ويساورنا الشك فى صحته إذ الهدف السياسى من وراء هذا الزعم واضح إذ هو يرمى إلى القول بأن الهكسوس - الذين هم بنو إسرائيل - قد حكموا مصر فترة طويلة من الزمن (من ١٧٨٠ق.م حتى ١٥٧٥ ق.م أى ٢٠٥ عاما - انظر الجزء الثالث ص ٥٤٠) ومن ثم يحق لليهود الادعاء بأن لهم حقوقا تاريخية فى أجزاء من أرض مصر. وقد تبنى هذا الرأى عدد من المؤرخين جلهم من اليهود أو المشايعين لهم.

والثابت تاريخيا هو أن أول قدوم لبنى إسرائيل - كفئة متميزة ومستقلة فى معيشتها عن المصريين - كان عند مجيء يعقوب وبنيه بدعوة من يوسف الصدِّيق الذى كان نائبا للملك خيان ملك الهكسوس (الجزء الثالث . ص ٥١٣) وأسكنهم أرض جاسان (ص ٥١٧). وهذا ينفى نفيا قاطعا أن بنى إسرائيل هم أنفسهم الهكسوس. إذ هم قد وفدوا عليهم. واحتفى به الهكسوس إكراما لنائب الملك «يوسف» ولأنهم أهل بداوة مثلهم ورأوا فيهم سندا يعينهم فيما لو ثار المصريون ضدهم. وعند خروج الهكسوس من مصر خرجت معهم طائفة قليلة من بنى إسرائيل ارتبطت مصالحهم معهم وسموا «العابيرو» (ص ٥٤٠) ولكن الغالبية العظمى من بنى إسرائيل بقوا فى مصر بعد طرد الهكسوس. وسنعود إلى شرح علاقة العابيرو ببنى إسرائيل فى مصر فيما بعد (ص ٧٩٧). كذلك فإن هذه النظرية تتعارض مع ماهو ثابت من تسخير بنى إسرائيل بواسط المصريين. إذ لو كانوا هم الهكسوس - حكام البلاد - فأنَّى يقع عليهم مثل ذلك؟ والثابت أنهم - أيام المجاعة كانوا يتنعَّمون بينما المصريون يعانون قسوتها واضطروا لبيع أراضيهم لملك الهكسوس (ص ٥٣٢). كذلك فإن هذه النظرية تتعارض مع ماهو معروف من

أن فرعون موسى كان يتمسك ببقاء بنى إسرائيل فى مصر بالرغم مما أتى به موسى من آيات. فهل كان أحمس يتمسك ببقاء الهكسوس المحتلين بلاده؟. سبب آخر ذلك أن أحمس كان يحكم من طيبة فى أقصى جنوب مصر فى حين أن بنى إسرائيل كانوا يعيشون فى أرض جوشن شرقى الدلتا فكيف يتأتى لأم موسى أن تلقيه فى النهر فيلتقطه آل فرعون القاطنين على بعد ألف كيلو متر إلى الجنوب!

لهذه الأسباب يمكننا باطمئنان استبعاد الرأى القائل بأن أحمس هو فرعون موسى.

٢ - أحمس هو فرعون التسخير وتحتمس الأول هو فرعون الخروج :

قائل هذا الرأى هو الدكتور محمد وصفى فى كتابه: (الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل. ص ١٥٦). ويرى أن أحمس هو الذى عذب بنى إسرائيل واضطهدهم وله مبرراته السياسية والاجتماعية والحربية والوطنية. فيقول إن أحمس هو محرر مصر من المحتلين الهكسوس الذين كانوا غزاة من الشرق فكان من الطبيعى أن يعمل على القضاء على العناصر الموالية لهم أو على الأقل أن يسلبهم سلطانهم الذى كانوا قد وصلوا إليه بواسطة «يوسف» وبرضاء ملوك الهكسوس. فكان يذبح أبناءهم حتى لا يكبروا فيصبحوا قوة تعمل على هدم مابناه من تحرير بلاده من الأجانب وكان يستعمل بنى إسرائيل فى بناء المدن فلم يكن من السياسة أن يبيدهم كلهم. ويقول إن بنى إسرائيل ظلوا فى التعذيب منذ أن تولى أحمس الحكم فى عام ١٥٨٠ ق.م. وأن موسى ولد سنة ١٥٧١. ويقول إن موسى عاصر ثلاثة فراعين هم بالترتيب:

أحمس مدة ١٤ عاما .

أمنحتب الأول مدة ١٦ عاما .

ثم تحتمس الأول مدة ٣٩ عاما .

وأن موسى لما قتل المصرى كان عمره ٦١ عاما وتغرب فى أرض مدين ٨ سنوات ثم عاد وعمره ٦٩ عاما ودعا الفرعون سنة واحدة ثم كان الخروج. وهذا الرأى يتعارض مع عدة حقائق تاريخية.

١ - كيف التقط أحمس موسى من النهر وأحمس كان يحكم من طيبة فى الجنوب.

٢ - إن سنة واحدة بين عودة موسى من أرض مدين والخروج لا تتسع لإظهار الآيات التسع الثابتة فى الكتب المقدسة.

٣ - إن تحتمس الأول ابن امرأة من دم غير ملكى (هى الملكة سنى سونب) وكان سنده فى الوصول إلى العرش هو زواجه من أخت له تجرى فى عروقها الدماء الملكية من ناحية الأب

والأم. ولعله كان يشعر بنقص من هذه الناحية فحاول أن يزجي لنفسه ألقابا ملكية فأطلق على نفسه « ملك من ابن ملك » محاولا بذلك الانتساب إلى سلسلة الفراعين ذوى الحق الشرعى (د. نجيب ميخائيل إبراهيم. مصر والشرق الأدنى القديم. جـ٢ ص٢٣). ولما كان الأمر كذلك، وبالكاد وصل إلى العرش فإنه لم يكن ليتجاوز ذلك ويدّعى الألوهية كما هو ثابت فى حق فرعون موسى.

٤ – لم يَرِد أن تحتمس الأول مات ميتة فجائية أو غير طبيعية، بل مات ميتة عادية وخلفه ابنه تحتمس الثانى مستندا إلى زواجه من الوريثة الشرعية «حتشبسوت».

كل هذه النقاط توجب رفض هذه النظرية أيضا.

٣ – تحتمس الثانى هو فرعون موسى :

وهذا الرأى قال به ج دى ميسلى (J.de Micelli, 1960) الذى يدعى أنه توصل إلى تحديد زمن الخروج بهامش تقريبى يصل إلى يوم واحد وهو ٩ أبريل عام ١٤٩٥ ق.م! وهذا من خلال حساب التقويمات. وعلى ذلك يكون تحتمس الثانى – وكان ملكا فى هذا التاريخ – هو فرعون الخروج. ومما أورده تأييدا لنظريته أن مومياء تحتمس الثانى مكتوب عليها وصف لأورام جلدية. وبما أن واحدا من ضربات مصر التى تذكرها التوراة هى طفح جلدى فهذا فى رأيه دليل مادى على أن تحتمس الثانى هو فرعون الخروج! وفى رأينا أن هذا مثال للنظريات «أحادية النظرة» إذ تأخذ من حدث واحد أساسا لنظرية مع تجاهل باقى الأحداث ومدى توافقها مع هذا الافتراض حتى أن موريس بوكاى الذى ذكر هذا الرأى (دراسة الكتب المقدسة. ص٢٥٩) وصفه بأنه من أغرب الفروض وقال إنه لا يأخذ فى اعتباره مطلقا الأمور الأخرى فى رواية التوراة وخاصة بناء مدينة بى رعمسيس. تلك الإشارة التى تبطل كل فرض عن تحديد الخروج قبل أن يكون أحد الرعامسة قد ملك مصر.

أما فيما يتعلق بأورام تحتمس الثانى الجلدية فإن ابنه – تحتمس الثالث وحفيده أمنحتب الثانى كانا أيضا مصابين بأورام جلدية يمكن مشاهدتها على مومياواتهم بمتحف القاهرة. ويحدث هذا فى الأورام العصبية الليفية المتعددة التى تصيب الجلد (Multiple neuro fibromatosis) والمعروفة بظهورها فى أكثر من جيل فى العائلة.

٤ – تحتمس الثالث هو فرعون الخروج :

ومعتنقو هذه الفرضية يعتمدون على فقرة فى التوراة تقول: وكان فى السنة الـ ٤٨٠ لخروج بنى إسرائيل من مصر فى السنة الرابعة لملك سليمان على بنى إسرائيل فى شهر زيو هو الشهر الثانى أنه بنى البيت للرب (ملوك أول ٦:١). ولما كان حكم سليمان قد بدأ عام ٩٧٠ ق.م. فالعام الرابع هو ٩٦٦ ق.م فإذا أضفنا إليها الـ ٤٨٠ سنة لعاد ذلك بنا إلى عام ١٤٤٦ ق.م أى فى أواخر حكم تحتمس الثالث (١٤٦٨ – ١٤٣٦ ق.م.).

والحقيقة أن فترة الـ ٤٨٠ عاما هذه قد أثارت جدلا كثيرا وسببت بلبلة فى حساب الأزمنة. وهى تختلف فى بعض ترجمات التوراة عما جاء فى ترجمات أخرى. فمنها ما يجعلها ٤٤٠ سنة فقط. ومنهم من يزيدها إلى ٥٨٠ عاما! وعلى هذا يرى كثيرون أن هذا الرقم كان تخمينا من أحد كتبة التوراة لأن هناك ١٢ جيلا تقع بين الخروج وبين بناء هيكل سليمان وافترض واضع هذا الرقم لكل جيل ٤٠ عاما فيكون ١٢×٤٠= ٤٨٠. ولو افترضنا لكل جيل ٢٥ عاما بافتراض أن الأبناء سيتزوجون فى سن الخامسة والعشرين وهو افتراض معقول لكان ١٢×٢٥= ٣٠٠ وهذا يقودنا إلى تاريخ للخروج فى عام ١٢٧٠ ق.م. أثناء حكم رمسيس الثانى.

ومعتنقو الفرضية أن تحتمس الثالث هو فرعون موسى يقولون إن موسى انتشلته من الماء الملكة حتشبسوت عام ١٥٢٧ ق.م. وأنه تربى فى حاشيتها وبلاطها. ولما تولى تحتمس الثالث العرش – ولما هو معروف عنه من عداوة لحتشبسوت فإن موسى خشى غضبته وفر من مصر. ثم عاد وكان الخروج فى عام ١٤٤٧ ق.م. وهذا الرأى يتعارض مع كثير من الحقائق مثل أن فرار موسى من مصر كان بسبب قتله للمصرى. كما أنه فى عهد تحتمس الثالث كان النفوذ المصرى قويا فى فلسطين إذ أن تحتمس الثالث أسس إمبراطورية واسعة وطيدة الأركان واستمر النفوذ المصرى قويا فى منطقة الشرق الأدنى وفى فلسطين بالذات أثناء حكم من خلفه من الفراعين: أمنحتب الثانى ٢٣ عاما – تحتمس الرابع ٨ أعوام – أمنحتب الثالث ٣٧ عاما أى لمدة ٦٨ عاما. فلم يكن باستطاعة بنى إسرائيل بعد فترة التيه أن يضعوا قدما واحدة فى أرض فلسطين. وحتى إن كان النفوذ المصرى قد ضعف قليلا أيام حكم أخناتون فإنه عاد ثانية بعد انتهاء ثورته الدينية وبلغ أوجه ثانية أيام سيتى ورمسيس الثانى.

زد على ذلك أن تحتمس الثالث لم يدَّع الألوهية بعكس فرعون موسى الذى قال **«أنا ربكم الأعلى»**. كان تحتمس الثالث على درجة عالية من الأخلاق والتواضع. يقول عن نفسه: إنى لم أنطق بكلمة مبالغ فيها ابتغاء الفخر بما عملته فأقول إنى فعلت شيئا دون أن يفعله جلالتى. ولم آت بعمل فيه مظنَّة. وقد فعلت ذلك لوالدى الإله آمون لأنه يعرف مافى السماء ويعلم مافى الأرض ويرى كل العالم فى طرفة عين (سليم حسن. مصر القديمة. جـ٤ ص ٥١١). وكان تحتمس الثالث رجل حرب قضى كثيرا من سنوات عمره فى ميادين القتال وليس أدل على تواضعه من أنه لم يُرجع الفضل فى انتصاراته إلى مهارته وبسالته بل أرجعها كلها إلى تأييد إلهه آمون كما تشهد بذلك اللوحة التى أمر بإقامتها فى معبد الكرنك وكتب عليها قصيدة على لسان الإله آمون مخاطبا ابنه تحتمس الثالث فيقول له (مع اختصارها):

إن قلبى ينشرح لمجيئك الميمون إلى معبدى. ويداى تمنحان أعضاءك الحماية والحياة. إنى أمنحك القوة والنصر على كل البلاد الجميلة. وإنى أُمكِّن مجدك والخوف منك فى كل البلاد. والرعب منك يمتد إلى عمد السماء الأربعة. إنى أجعل احترامك عظيما فى كل الأجسام.

وعظماء جميع البلاد الأجنبية جميعهم فى قبضتك، وإنى بنفسى أمدّ يدى وأصطادهم لك وأربط الأسرى بعشرات الألوف. إنى أجعل الأعداء يسقطون تحت نعليك فتطأ الثائرين. كما أمنحك الأرض طولا وعرضا فأهالى المغرب وأهالى المشرق تحت سلطتك. إنك تخترق كل البلاد الأجنبية بقلب منشرح، وأينما حللتَ فليس هناك من مهاجم، وإنى مرشدك ولذلك تصل إليهم. وعندما يسمعون نداء إعلان الحرب يلجأون إلى الجحور. لقد أرسلت رعب جلالتك سارياً فى قلوبهم. والصل الذى على جبهتك يحرقهم بلهيبه ويقطع رؤوس الأسيويين ولا يفلت منه أحد بل يسقطون. إنى أجعل انتصاراتك تنتشر فى الخارج فى كل البلاد. لقد عملت على كبت من يقوم بغارات ومن يقترب منك. لقد حضرتُ لأجعلك تتمكن من أن تدوس بالقدم عظماء فينيقيا ولأجعلك تشتت شملهم تحت قدميك. لقد حضرت لأمكنك من أن تطأ أولئك الذين فى آسيا. وتضرب رؤساء عامو. لقد حضرت لأجعلك تطأ بالقدم الأرض الشرقية ولأجعلهم يشاهدون جلالتك مثل النجم الذى ينشر لهيبه كالنار. لقد حضرت لأجعلك تتمكن من أن تطأ الأرض الغربية. وهؤلاء الذين فى وسط المحيط فى الجزر وأن تطأ اللوبيين. لقد حضرتُ لأجعلك تطأ أقصى حدود الأرض.

يا أيها الثور القوى الذى يسطع فى طيبة. «تحتمس» المخلد الذى عمل لى كل ماتتوق إليه نفسى. لقد أقمتَ لى مسكنا وهو عمل سيبقى إلى الأبد. وجعلته أطول وأعرض مما كان عليه من قبل. إنى لأثبتك على العرش مدة آلاف آلاف السنين حتى ترعى الأحياء إلى الأبد.

وهذه القصيدة تبين تواضع تحتمس الثالث واعترافه بفضل الإله «آمون» عليه فى انتصاراته. فهو ليس ذلك المتكبِّر. المتجبر. مدَّعى الألوهية. كما هو الحال مع فرعون موسى.

٥ – أمنحتب الثانى هو فرعون الخروج :

وهو تحوير بسيط فى الفرضية السابقة إذ يزيد من فترة غياب موسى ويجعله يعود أثناء حكم أمنحتب الثانى. وهذا الرأى قال به دانييل روبس Daniel Rops فى كتابه شعب التوراة Le peuple de la Bible . ولسنا فى حاجة للإطالة فى نقض هذه الفرضية إذ هى واهية كسابقتها.

٦ – أخناتون هو نفسه موسى ! :

وهذه إحدى الفرضيات «أحادية النظرة» إذ مادام أخناتون دعا إلى التوحيد وموسى كان أيضا يدعو إلى التوحيد فهما شخص واحد!! وقائل هذا الرأى الغريب هو الأستاذ أحمد عثمان وهو مصرى سافر إلى إنجلترا عام ١٩٦٤ ودرس المصريات وأقام هناك. وألف كتابين: مضمون الأول أن يويا المصرى هو نفسه «يوسف» عليه السلام. والثانى نشره عام ١٩٨٩ شرح فيه نظريته من أن أخناتون هو نفسه موسى عليه السلام واختار له عنوانا جذابا هو: Moses, Pharaoh of Egypt. The mystery of Akhenaten resolved. وبالرغم من وضوح

فساد هذا الزعم فلا بأس من إيراد التصور الذى أورده كاتبه لبيان كيف يجنح الخيال بالبعض فيجعلهم يضعون تصورات غاية فى الغرابة ويجعلنا نتساءل عن الدافع وراء كل هذا الافتعال.

يقول صاحب هذه الفرضية إن موسى قد أمضى طفولته فى شرق الدلتا حيث تأثر بمعتقدات بنى إسرائيل عن الإله وتشبع بها. ثم عاد إلى طيبة عاصمة مصر ومركز عبادة آمون وكان والده أمنحتب الثالث قد تدهورت صحته. وكان موسى هو الابن الثانى لأمنحتب الثالث من الملكة «تى» التى يقول إنها نصف مصرية ونصف إسرائيلية! وأن الابن الأول لأمنحتب الثالث قد اختفى بطريقة غامضة. ومن هنا تخوفت الأم أن يصيب ابنها الثانى الذى هو موسى – مكروه من كهنة آمون. ويرى أن كهنة آمون خافوا مغبة اعتلاء العرش شخص غير نقى الدماء المصرية تماما أما وأبا. ورأى أمنحتب الثالث مايتهدد العرش من غضب كهنة آمون فشايعهم فى عدم تولى هؤلاء الأبناء العرش بل وأوحى إلى القابلات بقتل ابن الملكة إن كان ذكرا. ولما وُلد الابن الثانى – الذى هو موسى – ألقته أمه فى النهر حيث سار به التيار من طيبة إلى أرض جوشن حتى التقطته أسرة من بنى إسرائيل وتربى معها وتأثر بأفكار الإسرائيليين التوحيدية ولما ضعفت صحة أمنحتب الثالث استدعت الملكة «تى» ابنها من الأسرة الإسرائيلية التى التقطته. ولكى تكسبه صفة لولاية العرش زوجته من أخته غير الشقيقة «نفرتيتى» فهى ابنة امنحتب الثالث من زوجة مصرية وتولى موسى عرش مصر باسم أمنحتب الرابع ثم قام بثورته الدينية. وأعلن عن فكر التوحيد وحرّم عبادة آمون وجميع الآلهة الأخرى. وتآمر عليه كهنة آمون. وأخبره الكاهن «آى» بالمؤامرة ونصحه بالهرب إلى سيناء وتولى توت عنخ أمون العرش ثم الكاهن «آى» ثم «حورمحب» ثم بدأت الأسرة التاسعة عشرة وتولى رمسيس الأول العرش. وهنا عاد موسى ليطالب بحقه فى العرش. ولما لم يفلح فى ذلك طلب من رمسيس الأول أن يسمح له بخروج بنى إسرائيل من مصر تحت إمرته.

وهذه الفرضية المغرقة فى الخيال مبنية على لخبطة الأوراق وقلب الأوضاع. فالأب المصرى هو الذى يوحى بقتل ابنه أو يوافق الكهنة على فعلهم. والأم المصرية ألقت ابنها فى النهر. والتيار يسير به حوالى ١٠٠٠ كم من طيبة حتى أرض جوشن. وأسرة إسرائيلية هى التى تلتقطه وتتبناه. والفرعون – الذى هو أخناتون – يهرب من مصر ثم يعود ليطالب بالعرش!

والهدف السياسى وراء كل هذا الافتعال غير خاف. فمادام موسى هو أخناتون. وأخناتون حكم مصر ١٧ سنة فإن لبنى إسرائيل حقوقا فى مصر. ليس لأن موسى عاش بها. بل لأنه حكمها!!

٧ – توت عنخ آمون هو فرعون موسى :

القائل بهذا الرأى هو العالم اليهودى سيجموند فرويد الذى ادعى أيضا أن موسى مصرى وليس من بنى إسرائيل وأن الديانة الموسوية مستقاة من عقيدة أخناتون (سيجموند فرويد –

موسى مصريا – ترجمة محمد العزب موسى). يقول: إن موسى كان أحد الأمراء المصريين المقربين من أخناتون ولكن لما حدثت الردّة بعد أخناتون تم استبعاد موسى. ولما انهار أمله فى حكم بلاده أراد أن يوجد لنفسه دورا ما كزعيم. فتزعم بنى إسرائيل وأعطاهم دينا جديدا استقاه من عقيدة أخناتون التوحيدية. ثم قاد بنى إسرائيل للخروج من مصر خروجا سلميا – ليس فيه مطاردة – إلى أرض فلسطين التى كان النفوذ المصرى قد انحسر عنها أيام أخناتون لانشغاله بأفكاره الدينية. وكان الخروج فى عهد توت عنخ آمون. ويقول چون ويلسون المؤيد لهذه النظرية إن موسى انتهز فرصة الضعف الذى ساد أخريات أيام أخناتون وعهد خليفتيه الضعيفين: «سمنخ كارع» و «توت عنخ آمون» ونجح فى الخروج ببنى إسرائيل من مصر وذلك بأن خادعوا الفرعون وهربوا إلى صحراء سيناء. ويوافق على هذه الفرضية آرثر ويجال (تاريخ مصر القديمة. باريس. ص ١٤٦. A. Weigal, 1986) ويحدد تاريخ الخروج بالعام ١٣٤٦ ق.م ويرى أنه تم فى آخر عهد توت عنخ آمون. كذلك يرى المؤرخ ويتش (حضارة الشرق الأدنى. ص٨٨. E.H. Weech) أن موسى وقد أمضى طفولته وصباه وشبابه فى قصر أخناتون. فقد عرف هذه العقيدة وآمن بها . فاستقى منها الديانة التى أعطاها لبنى إسرائيل.

وهذه النظرية أيضا تتجاهل حقائق تاريخية كثيرة مثل سابقتها:

١ – أن موسى من بنى إسرائيل وليس مصريا – وإن كان قد تربى فى قصر الفرعون.

٢ – تتجاهل التعذيب الذى نزل ببنى إسرائيل. إذ أن طبيعة أخناتون المسالمة لا تتفق مع ذلك. فضلا عن بُعد مكان إقامتهم فى شرق الدلتا عن العاصمة التى عاش فيها أخناتون. طيبة فى أول أيامه ثم بعد ذلك فى عاصمته الجديدة فى تل العمارنة.

٣ – مما لا يعقل أن يقبل شعب أن ينصِّب على نفسه زعيما وقائدا من جنس آخر. إلا أن يكون مفروضا عليهم بالقوة – أو ارتضوه حتى يخرج بهم من مصر وما إن يتم لهم الخروج حتى يكون من الطبيعى أن ينتقضوا عليه برئيس من بنى جنسهم.

٤ – إن التوحيد كان عقيدة بنى إسرائيل أخذاً عن يعقوب أبيهم وإبراهيم جدهم والأخناتونية وإن كانت فى نظر المصريين توحيداً إلا أنها فى نظر بنى إسرائيل رِدّة عن التوحيد لتجسيدها الإله فى قرص الشمس (الجزء الثالث ص٥٨٥).

٥ – تدعى هذه النظرية أن الخروج تم بسلام وبدون مطاردة فى حين أن الثابت فى الكتب المقدسة هو أن الفرعون الذى طارد موسى قد مات غرقا . وقد أثبت الفحص الطبى لجثة توت عنخ آمون أنه مات مقتولا بضربة على الرأس (جـ٣. ص ٥٩٢).

٦ – لو كان بنو إسرائيل قد خرجوا من مصر فى عهد توت عنخ آمون واستقروا فى فلسطين لكان حرياً بحور محب وسيتى الأول أو رمسيس الثانى القضاء عليهم فى حملاتهم

لاسترداد النفوذ المصرى فى منطقة الشرق الأدنى أو على الأقل كانوا قد أخضعوا الولايات اليهودية فى فلسطين للنفوذ المصرى، الأمر الذى لم يتحدث به أحد. ولم يحدث أصلا إذ أن بنى إسرائيل لم يكونوا قد خرجوا بعد من مصر. ولما رأى فرويد المعارضة الشديدة لنظريته هذه تراجع عنها وقال إنه من المحتمل أن موسى قد عاش فى عصر لاحق لأخناتون وتوت عنخ آمون!!

ويحق لنا أن نتساءل: كيف يتأتى لعالم مثل فرويد أن يقول بهذا الرأى، وتزول الغرابة إذا علمنا هويته اليهودية. إذ مادام موسى مصريا فإن لبنى إسرائيل حقوقا تاريخية فى مصر! وهذا هو الهدف السياسى الذى يرمى إليه كما فعل سلفه يوسف ابن متى عندما زعم أن الهكسوس الذين حكموا مصر هم أنفسهم بنو إسرائيل.

٨ – حور محب وأربعة فراعين آخرين. أي خمسة !!

يقول نيكولاس جريمال (Nicolos Grimal, A History of Ancient Egypt 1997, Blackwell, P 259) إن موسى تلقى تعليمه فى سنواته الأولى فى قصر الفرعون حورمحب ورمسيس الأول، ثم عرف أنه من بنى إسرائيل وانضم إليهم فى عهد «سيتى الأول»، ثم فر من مصر إلى مدين بعد مقتل المصرى، ثم كان تلقيه الوحى والرسالة والأمر بالعودة إلى مصر فى السنوات الأولى من حكم رمسيس الثانى، ثم هو يوافق على ما يقوله كثير من المؤرخين من أن فرعون الخروج هو مرنبتاح.

ولو فرضنا أن حور محب قد تبنى موسى فى منتصف مدة حكمه ورباه ١٣ عاما يضاف إليها سنتان مدة حكم رمسيس الأول + ٢٠ عاما سيتى الأول + ٦٧ عاما مدة حكم رمسيس الثانى + ١٠ سنوات حكم مرنبتاح فيكون عمر موسى عند الخروج ببنى إسرائيل هو ١١٢ عاما فإذا أضفنا إليها سنوات سيناء ثم التيه ٤٠ عاما ثم المسيرة حول أرض أدوم لبلغ عمر موسى عند وفاته حوالى ١٧٠ عاما فى حين أن عمر موسى لم يزد عن ١٢٠ عاما.

٩ – رمسيس الثانى هو فرعون موسى :

وأصحاب هذا الرأى كثيرون، منهم: أولبرايت – إيسفلت – روكسى – أونجر – الأب ديفو R.P. de Vaux . ويتفق هذا الرأى مع حقيقة مكان معيشة بنى إسرائيل فى أرض جاسان وعاصمة رمسيس الثانى الجديدة فى الشمال التى تتيح إلتقاط موسى من النهر. كما تحقق تسخير بنى إسرائيل فى بناء مدينتى بى رعمسيس وفيثوم المذكورتين فى التوراة. وأكثر ما يثير الدهشة هو أن الأب ديفو – وهو مدير مدرسة الكتاب المقدس ويؤمن بأن الفرعون قد مات غرقا وهو يطارد الهاربين، ثم يعود فيقول إن الخروج قد حدث فى النصف الأول من حكم رمسيس الثانى، مع أن غرق الفرعون يعنى نهاية حكمه لا منتصفه. والحقيقة أن هذه النظرية –

أن فرعون موسى هو رمسيس الثانى – تتفق مع كثير من النقاط التى يجب توافرها فى ذلك الفرعون. إلا أن عدة عقبات حالت دون القبول التام لهذه النظرية:

١ – العقبة الأولى من التوراة: وهو ما جاء بسفر الخروج ٢٣:٢ «وحدث فى تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات» إذ معناها أن الفرعون (رمسيس الثانى) قد مات وتولى ابنه «مرنبتاح» العرش. وفى رأينا أنهم اضطروا لهذا القول لسببين.

أ – أن يتمشى ذلك مع عمر موسى الذى قرروه فى إصحاح ٧ خروج: ٧: وكان موسى ابن ثمانين سنة وهارون ابن ثلاث وثمانين سنة حينما كلَّما فرعون. ولما كان موسى قد فر من مصر وعمره ٤٥ سنة كان معنى ذلك أنه أمضى فى مدين ٣٥ سنه. وهى مدة طويلة جداً لا يستقيم معها أن يفكر موسى بعد ذلك فى العودة إلى مصر. ويكون بنو إسرائيل فى هذه الفترة قد نسوا بطلهم ولا يعود لهم الحماس لقيادته لهم بعد أن غاب عنهم هذه الفترة الطويلة.

ب – أنهم أيضا قالوا بموت الملك حتى يتمشى مع ماجاء بالإصحاح خروج ١٩:٤ «وقال الرب لموسى فى مديان. اذهب ارجع إلى مصر لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك» والواقع أن كلمة «جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك» لا تعنى فرعون بقدر ما تعنى أهل المصرى القتيل. فهم الذين كانوا يطلبون نفس موسى وكان الفرعون ينفذ طلبهم بالثأر لهم والأخذ بدمهم. فلما ماتوا لم يعد لدى الفرعون دافع قوى. وفى رأينا أن الفقرة ٢٣ من الاصحاح ٢ خروج كانت «وحدث فى تلك الأيام أن القوم الذين كانوا يطلبون نفس موسى ماتوا» وليس «ملك مصر مات».

٢ – العقبة الثانية من الآثار المصرية وهى اللوحة المعروفه باسم «لوح إسرائيل» أو «لوح مرنبتاح» والذى كتب على الأرجح فى العام ١٢٢٠ ق.م وفيه يقول مرنبتاح إنه قد أباد بذرة إسرائيل من فلسطين. ولما كان الخروج قد حدث فى العام ١٢٢٥ ق.م. فهذا لا يترك فترة بين الخروج من مصر ودخول أرض فلسطين سوى ٥ سنوات. وهذا ما جعل كثيراً من المؤرخين – وخاصة الإسلاميين يرفضون الرأى القائل بأن رمسيس الثانى هو فرعون الخروج لأن القرآن الكريم ينص صراحة وبوضوح على أن فترة التيه هى أربعون سنة. ولم يتصد أحد لتفسير ماجاء بلوح مرنبتاح تفسيرا يسمح بفترة التيه وهى أربعون سنة. كما لم يفطنوا إلى ماقد يكون فى هذا اللوح من مبالغة. وهو أمر مألوف لدى الفراعين عند تسجيلهم لما قاموا به من أعمال وخاصة نتائج حروبهم. بل تشبثوا بحرفية ماجاء فى هذا اللوح وسنناقش ذلك بتفصيل أكثر فيما بعد.

٣ – كذلك كان من الاعتراضات التى أثيرت ضد نظرية أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى قولهم إن فرعون موسى ادعى الألوهية فى حين أن رمسيس الثانى كان يؤمن بأربعة آلهة هم «آمون ورع وبتاح وسوتخ». وسمى فرق جيشه الأربع فى معركة قادش بأسماء هذه

الآلهة (الدكتور محمد وصفى. الارتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل. ص ١٥٤). ويمكن الرد على هذه النقطة بأن معركة قادش كانت فى السنة الخامسة من حكم رمسيس الثانى. فى حين أن عودة موسى لمصر كانت فى السنة ٦٢ من الحكم أى بعد معركة قادش بـ ٥٧ عاما وهى فترة طويلة من الحكم المطلق والمديح المستمر من وزرائه ورجال البلاط ومن الشعب. وتمجيد لأفعاله ولابد أن كل ذلك قد أحدث أثره. وخاصة أنه كان عنده نزعة تعاظمية منذ صغره فكان أن نتج عن ذلك شعور بالكمال وظن نفسه مخلداً كالآلهة وانتهى به الأمر أن ادعى الألوهية.

٤ – وكان آخر الاعتراضات التى أثيرت ضد هذه النظرية ما هو معروف من أن رمسيس الثانى كان له مالا يقل عن مائة ولد مابين ذكر وأنثى. إذ لم يستطيعوا التوفيق بين ذلك وما ورد فى القرآن الكريم من أن فرعون موسى لم يكن له ولد فاضطر إلى تبنى موسى **«عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً»**.. وفهموا من هذه الآية أن فرعون موسى كان عقيما. وسنشرح فيما بعد (ص ٧٠٢) أن التبنى لم يكن بسبب عقم الفرعون أو عقم نسائه. بل كان حرمانا مؤقتا من الولد بوفاة الأبناء وهم صغار حتى تنفذ إرادة الله فى تبنى الفرعون لموسى. ثم بعد ذلك زالت هذه «اللعنة» وعاش أبناؤه حتى بلغوا أكثر من مائة. وقد ثبت أن رمسيس الثانى – فى العشر سنوات الأولى بعد زواجه – كان أبناؤه يموتون وهم رُضَّع. وهذا هو سبب قبوله لتبنى موسى.

المهم أن أصحاب نظرية أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى لم يستطيعوا الدفاع عن رأيهم فكان أن رضخوا لافتراض آخر هو :

١٠ – رمسيس الثانى فرعون التسخير ومرنبتاح فرعون الخروج :

وأصحاب هذا الرأى يعتقدون أن خروج بنى إسرائيل من مصر كان خروجا سلميا ليس فيه مطاردة. وأن مرنبتاح تعقبهم بعد أنْ وصلوا فعلا إلى فلسطين. ويعبر عن هذا الرأى ما يراه «چان يويوت» (مصر الفرعونية. مترجم. القاهرة ١٩٦٦ ص ٤٠) من أن بنى إسرائيل انتهزوا فرصة انشغال جيش مصر فى صد غزوة الليبيين لحدود مصر الغربية فى السنة الخامسة من حكم مرنبتاح فهربوا من مصر. ثم بعد أن فرغ مرنبتاح من حربه مع الليبيين جرد حملة إلى فلسطين وأباد بنى إسرائيل هناك.

ويعتمد أصحاب هذه النظرية على عدة نقاط:

١ – ما ورد فى التوراة (خروج ٢:٢٣) من أن ملك مصر قد مات. أى أن رمسيس الثانى مات وتولى الحكم بعده ابنه مرنبتاح. وقد ذكرنا فى الصفحة السابقة أن المفهوم الآخر الوارد فى الإصحاح ٤:٩ هو الأقرب للصحة وأن من مات حقيقة هم أقارب المصرى الذى قتله موسى لا الفرعون.

٢ – كذلك قالوا إن مرنبتاح هو القائل: **«ألم نربك فينا وليدا»** مشيرا بذلك إلى والده رمسيس الثانى الذى ربى موسى. وإن كان يُرَدُّ على ذلك بالسؤال: ولم لا يكون رمسيس الثانى نفسه هو قائلها؟ ويكون هو الذى يمن على موسى بحق الربابة. كما أن الأكثر إيلاما للنفس والأدعى إلى الحزن هو أن يرى من كان يربيه ويرجو المنفعة من ورائه «عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً» هو نفسه الذى كان سببا فى هلاكه فكأنه التقطه ليكون له عدوا وحزنا. كما قرر القرآن الكريم: **«فالتقطة آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا. إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين»** (٨ – القصص) وبالرغم من كل أسباب الحيطة والحذر الذى اتخذها رمسيس الثانى دفعا للنبوءة فقد تحققت النبوءة وكان هلاك الفرعون وجنوده. **«ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون»**. وهذا أبلغ فى العبرة من أن يكون الذى سخر وتكبر وتجبَّر قد مات فى سريره ميتة طبيعية فى حين يكون الغرق من نصيب ابنه. وخاصة أن مدة حكم رمسيس الثانى الطويلة تسمح بوقوع كل الأحداث فى عهده. وتكون الآية بلفظ البحر لجثته تمثيلا به لأفعاله **«فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية»** (٩٢ – يونس).

٣ – إلا أن السند الأساسى لهذه النظرية هو اللوح المسمى **«لوح مرنبتاح»** أو **«لوح إسرائيل»**. وقد ذكرناه باختصار فى سياق الاعتراضات التى أثيرت ضد نظرية رمسيس الثانى فرعونا للتسخير والخروج معا. ومن المناسب أن نتوسع قليلا فى ذكر شيىء عن هذا اللوح مادام هو السند الأساسى لنظرية «مرنبتاح فرعون الخروج».

هذا اللوح عبارة عن لوحة تذكارية منقوشة على الجرانيت الأسود (شكل ١٢١) مكتوب عليها قصيدة تسجل انتصار مرنبتاح على الليبيين. واللوح محفوظ بالمتحف المصرى. ومن يريد القصيدة كاملة يمكنه الرجوع إلى كتاب مصر القديمة (سليم حسن) جـ٧ ص٩٦. والقصيدة فى مجموعها فخار بالنصر العظيم الذى أحرزه الملك على الليبيين فى السنة الخامسة من حكمه وبه نجت مصر من خطر عظيم. والقصيدة تزخر بالاستعارات والتشبيهات المختارة مما أسبغ عليها صورة أدبية أكثر من أن تكون وثيقة تاريخية خالصة. وقد وصف فيها الشاعر هزيمة الأعداء بمهارة والأعمال الجسام التى قام بها «مرنبتاح». للذود عن حياض بلاده وتخليصها من غارات الليبيين وكسر شوكتهم. ولم يفته أن يصف الفرعون بالعدل والاستقامة فيقول: فهو يعطى كل ذى حق حقه. فالثروة تتدفق على الرجل الصالح. أما المجرم فلن يتمتع بغنيمة ما. ثم ينتقل الشاعر إلى وصف السلام والطمأنينة والرخاء التى سادت البلاد بعد هذا الانتصار فيقول: فحتى الحيوان قد ترك جائلا بدون راع فى حين أن أصحابها يروحون ويغدون مغنيين. وليس هناك صياح قوم متوجعين. وفى ختام القصيدة يُعدِّد الشاعر القبائل والأقاليم التى أخضعها مرنبتاح وهذا نصها – لأن هذا الجزء هو بيت القصيد:

شكل ١٢١ – لوح مرنبتاح أو « لوح إسرائيل » .

ويقول الرؤساء المطروحين أرضا: السلام! ولم يعد يرفع واحد من بين قبائل البدو تسعة الأقواس رأسه (وهذا اسم قديم لجيران مصر المعادين لها).

«التحنو» قد خربت (إحدى القبائل التى كانت تسكن ليبيا).

وبلاد «خاتى» قد أصبحت مسالمة.

وأزيلت «عسقلان».

و«جازر» قبض عليها.

و«ينوم» أصبحت لا شيىء.

وإسرائيل خربت وليس لها بذر.

و«خارو» أصبحت أرملة لمصر.

وكل الأراضى قد وجدت السلم.

وكل من ذهب جائلا أخضعه ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ابن «رع» محبوب «آمون» ابن الشمس «مرنبتاح» منشرح بالصدق.

معطى الحياة مثل «رع» كل يوم.

وأهمية هذه القصيدة فى نظر المؤرخين هى ذكر قوم بنى إسرائيل وبخاصة لأنها المرة الأولى والوحيدة التى يأتى فيها ذكرهم بالاسم فى الآثار المصرية. ولما كان بنو إسرائيل قد بدأوا إقامتهم بمصر أيام يوسف ولم يذكر عن ذلك شيىء فى الآثار المصرية. فإن ذكر اسمهم هنا لابد له علاقة بخروجهم من مصر. وقد اختلف العلماء حول مايفهم من هذه العبارة.

فبعضهم مثل بترى (Petrie, Israel in Egypt, p.35) يرى أن إسرائيل كانوا فى الوقت الذى كتبت فيه هذه اللوحة فى فلسطين.

أما الأستاذ ناڤيل (Naville, Archeology of the Old Testament) فيرى أن اللوحة تدل على أن بنى إسرائيل قد خرجوا من مصر قبل «مرنبتاح» أو فى أوائل حكمه. ولكن هذا الافتراض الأخير يتنافى مع الحقيقة المؤكدة وهى أن فرعون الخروج غرق أثناء مطاردته لبنى إسرائيل. فلا يمكن أن يكون الخروج حدث فى أوائل حكم مرنبتاح بل يكون قد حدث فى أواخر حكم رمسيس الثانى الذى غرق أثناء مطاردتهم. وهكذا نرى أن لوح مرنبتاح الذى اتخذوه دليلا لمعارضة نظرية – رمسيس الثانى هو فرعون الخروج – فى الحقيقة هو دليل على صحتها. نقطة ثانية يقولها ناڤيل ذلك أنه لا يعتقد أن الإشارة إلى سوريا فى اللوحة تشير إلى حرب حقيقية وقعت فى سوريا. والحقيقة أنه لا يوجد مايدل على أن مرنبتاح قد قاد أو سيَّر حملة إلى سوريا. كما أن ما ذُكر من أن «بلاد» خاتى» أصبحت مسالمة – هو – كما يقال – من قبيل

تحصيل الحاصل لأنها كانت مسالمة منذ المعاهدة التى وقعها والده رمسيس الثانى مع ملكها ويكون ذكر ذلك على أنه من أعمال مرنبتاح هو مبالغة من مبالغات الفراعين التى اشتهروا بها عند تدوين سجل أعمالهم. ولعله أراد الإشارة إلى أنه لم يهمل الجبهة الشرقية وكانت له فيها انتصارات كما أحرز الانتصارات فى الغرب على الليبيين.

ويذكر سليم حسن عالم المصريات (مصر القديمة. جـ٧ ص١١١) أن علماء الآثار واللغة قد ترجموا الجملة التى وردت عن إسرائيل **«وليس لها بذر»** على وجهين بعضهم قال إن محاصيلهم قد ذهبت أو ليس لهم غلة. والأصح الوجه الآخر كما قال برستد: وإسرائيل قد أقفروا وبذرتهم قد انقطعت أو كما قال نافيل: وإسرائيل قد مُحى وبذرته لا وجود لها. والواقع أن كلمة «بذرة» تدل على «الخَلَف». وفى الدول العربية للآن نجد أنهم يستعملون كلمة «بذرة» بمعنى «النسل» أو «الأولاد». وسؤال شائع لديهم: كيف حال البذور؟ ويقال لمن لا نسل له «لقد انقطعت بذرته».

كذلك ذكر العالم سليم حسن أن جميع البلاد التى ذكرت: خاتى – جازر – عسقلان وغيرها ألحق بكل منها رسم مخصص يدل على أنها بلاد أجنبية أما اسم إسرائيل فقد كان الاسم الوحيد الذى استثنى من هذا الرسم وهو ما يعنى أنه لم يكن لبنى إسرائيل فى ذلك الوقت «أرض محددة» وكان الرسم الذى ألحق باسم إسرائيل هو صورة رجل وإمرأة دلالة على أنهم مجرد جمع من الناس وليسوا «دولة» مما يدل على أن الشاعر الذى تغنى بانتصار «مرنبتاح» وصاغ هذا النشيد كان يعنى أن بنى إسرائيل يومئذ لم يكن لهم مكان محدد فى أرض فلسطين. ولا سبيل إلى التشكيك فى طريقة كتابة القصيدة بما يقال من احتمال خطأ الكاتب المصرى القديم وسهوه. فقد كان واعيا لما يكتب وأورد أسماء الشعوب والبلاد الأجنبية فى ذلك النص ١٩ (تسعة عشر) مرة لم يغفل رسم رمز الأرض الأجنبية فى واحدة منها سواء ماسبق اسم إسرائيل أو ما ورد بعده. ويخلص من ذلك إلى أن أنشودة النصر هذه تشير إلى طائفة من «بنى إسرائيل» كانت فى بعض بقاع فلسطين أو تخومها حين خرج مرنبتاح لقمع ثورة هناك. وهذا يعنى أنهم قد خرجوا من مصر قبل عهده. كما يرى الدكتور عبد العزيز صالح (الشرق الأدنى القديم جـ١ ص٢٥٥) أن لوح مرنبتاح قد اعتبر «إسرائيل» من «نزلاء» فلسطين ولم يذكر تتبعه لهم من مصر وذلك يعنى أنهم دخلوا فلسطين قبل عهده أى أنهم خرجوا من مصر قبل عهده أى فى أواخر عصر رمسيس الثانى.

وهنا تبرز مشكلة سنوات التيه. إذ الثابت دينيا أن بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر لم يتوجهوا مباشرة إلى فلسطين بل أمضوا أربعين سنة فى التيه فى سيناء ثم بعد ذلك توجهوا إلى أرض فلسطين. فإذا افترضنا سنة قبل التيه وسنة بعده للإعداد لدخول الأرض لكان المجموع ٤٢ سنة وفى أثنائها كان قد توفى ستة من الفراعنة :

مرنبتاح	....	حكم	١٠	سنة
سيتى الثانى	..	..	٦	سنة
آمنموس	..	..	١	سنة بوصاية باى
سابتاح مرنبتاح	..	..	٦	سنة
الملكة تاوسرة	..	حكمت	٨	سنة
ست نخت	..	حكم	١	سنة
			٤٢	سنة

أى أن بنى إسرائيل لما بدأوا دخول أرض فلسطين كان رمسيس الثالث هو فرعون مصر. أما قبل ذلك فلم يكن لهم وجود فى فلسطين. فكيف يحق لمرنبتاح أن يذكر فى أنشودة النصر: «وإسرائيل خربت وليس لها بذر» أو كما ترجمت: وقد أبدت بذرة إسرائيل؟

بعض العلماء الذين يتمسكون بنظرية «مرنبتاح فرعون الخروج» يُسقطون سنوات التيه من حسابهم وينكرونها ويقولون إن بنى إسرائيل توجهوا لفسلطين بعد خروجهم من مصر فى آخر حكم رمسيس الثانى وأن مرنبتاح قد طاردهم هناك و«أباد بذرتهم فعلا». ويستدلون على قوة النفوذ المصرى فى فلسطين أيام حكم مرنبتاح بعثور الأثريين على إناء مكسور عليه كتابة مصرية لأحد جباة الضرائب المصريين فى بلدة «لخيش» فى فلسطين وقد سجَّل فيها تسلمه لشحنة من القمح فى السنة الرابعة من حكم مرنبتاح. كما يرى البعض (د. محمد بيومى مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، جـ٣ ص٥٠٠) أن السيادة المصرية على فلسطين فى ذلك الوقت كانت من القوة بحيث لا تتيح لجموع بنى إسرائيل – غير المسلحين بأى أسلحة – دخول أرض فلسطين أصلا فلا محل للقول بأن بنى إسرائيل كانوا قد استقروا فى فلسطين لبعض الوقت ثم ذهب مرنبتاح وأباد بذرتهم وأعاد النفوذ المصرى إلى فلسطين ثانية.

ويَجُبّ هذا كله أن سنوات التيه ثابتة لورودها فى القرآن الكريم وفى التوراة أيضا فلا محل لإسقاطها أو إنكارها، ومادام الأمر كذلك كيف تسنى لمرنبتاح أن يذكر فى اللوح أنه أباد بذرة إسرائيل فى حين أنهم كانوا لايزالون فى التيه فى سيناء؟ والجواب هو فى أحد **الاحتمالات التالية:**

١ – أنه ذهب إلى فلسطين ووجد بعضا من «العابيرو» – وهم كما ذكرنا أقرباء لبنى إسرائيل وفرع منهم – فأبادهم، وظن أو ادعى أنه أباد بنى إسرائيل.

٢ – أنه ذهب إلى فلسطين ولم يجد بنى إسرائيل وبحث عنهم فى أنحاء فلسطين فلم يجدهم فاعتقد أنهم هلكوا فى الصحراء ونسب هلاكهم إلى نفسه.

٣ – الاحتمال الثالث هو أن مرنبتاح لم يقد أو يرسل حملة إلى فلسطين إطلاقا، وأنه كما نسب السلام مع «خاتى» لنفسه فقد أراد أن يؤكد أنه لم يقل عن سلفه فى اهتمامه بأملاك مصر فى آسيا، فكان أن ضمّن نصره على الليبيين نصرا فى الشرق أيضا، فأضاف خاتى وجازر وعسقلان وبالمثل كانت إضافته لاسم إسرائيل وكان ذلك أسهل إذ أنهم لم يكونوا دولة بل قوما بدون أرض كما هو واضح من طريقة ذكرهم فى «لوح إسرائيل».

٤ – ويقول الدكتور محمد بيومى مهران (مصر والشرق الأدنى القديم جـ٣ ص٥٠٦): إن لوح مرنبتاح قد حدد البعض تاريخ كتابته بالعام الخامس من حكم مرنبتاح، وحملة مرنبتاح على سوريا كانت فى العام الثالث لحكمه وبما أن الثابت أن الفرعون قد غرق أثناء مطاردته لبنى إسرائيل كان معنى ذلك أن هذا اللوح قد كتب بعد غرق الفرعون وكتبه خَلَفه تخليدا لذكرى انتصاره على الليبيين، وأضاف إليهم «بذرة إسرائيل قد أبيدت» كنوع من الافتخار الكاذب إذ كيف يتأتى للفرعون وقد غرق أثناء مطاردتهم أن يدعى أنه أبادهم؟

ومادام الافتخار الكاذب قد وُضع فى الاحتمالات فلماذا لا يكون كاتب اللوح هو مرنبتاح نفسه لا خلفه، وأنه هو صاحب الافتخار الكاذب ويكون فرعون الخروج هو رمسيس الثانى وهو الذى غرق أثناء مطاردته لبنى إسرائيل.

مما سبق نرى أن لوح إسرائيل أو لوح مرنبتاح – وهو السند الأكبر لنظرية أن مرنبتاح هو فرعون الخروج تأكد عدم صدق الفقرة الواردة به والمتعلقة ببنى إسرائيل **ويصبح هذا اللوح فى حقيقته دليلا على أن الخروج تم قبل عصر مرنبتاح**، وقد أشار جيمس بيكى – عالم الآثار الشهير – إلى ذلك إشارة مقتضية بقوله – وإن مركز مرنبتاح كفرعون الخروج قد اهتز بسبب كشف لوحة النصر أى لوح إسرائيل – (الآثار المصرية فى وادى النيل جـ٣ ص١٧١).

وبالرغم من كل ذلك فإن هذه النظرية – مرنبتاح هو فرعون الخروج – تلقى قبولاً واسعا لدى علماء الآثار المصريين والأجانب على السواء، وبلغ التعصب ببعض مؤيدى هذه النظرية إلى حد أن ينكروا غرق الفرعون الذى خرج بنو إسرائيل فى عهده، فنرى الدكتور سليم حسن (مصر القديمة جـ٧ ص١٣٥) يقول: والواقع أنه لا يمكن للإنسان أن يتصور غرق الفرعون وعربته فى ماء ضحضاح لايزيد عمقه عن قدمين أو ثلاثة، بل المعقول أن خيل الفرعون وعرباته قد ساخت فى الأوحال وسقط بعض ركابها وهذا يفسر ماجاء فى سفر الخروج ١٤:٢٥، وخلع بكر مركباتهم حتى ساقوها بثقلة، ويستمر قائلا: هذا فضلا عن أن ماجاء فى القرآن الكريم لا يُشعر بأن الفرعون الذى عاصر موسى وطارده قد غرق ومات، بل على العكس نجّاه الله ببدنه ليكون آية للناس على قدرة الخالق، والتعبير «فاليوم ننجيك ببدنك» تعادل التعبير العامى «خلُص بجلده»!! وهذا منتهى التعسف فى تفسير آى القرآن الكريم، إذ أن آيات القرآن الكريم تؤكد

بصراحة ووضوح غرق الفرعون هو وجنوده. كما أن مكان الغرق لم يكن قدمين أو ثلاثة كما يدّعون بل كان «كل فرق كالطود العظيم».

هناك دليل «أخير يستند إليه أصحاب نظرية «مرنبتاح فرعون الخروج» هو ما يشير إليه عالم الآثار «سايس» إذ يقول إن الآثار المصرية تحصر حادثة الخروج فى حكم الفرعون مرنبتاح ولدينا بين الأوراق البردية المحفوظة فى المتحف البريطانى وثيقة تعرف **بورقة «أنسطاسى السادسة»** وتشمل خطابا من كاتب الملك مرنبتاح كتبه لرئيسه يقول فيه إن بعض بدو «شاسو» – أدوم – قد سُمح لهم حسب التعليمات التى لديه أن يجتازوا الحصن الذى فى إقليم سكوث (تل المسخوطة) فى وادى طميلات ليُتاح لهم رعى ماشيتهم بالقرب من بتوم. ونص الخطاب كالآتى: أمر آخر ياسيدى. لقد انتهينا من ملاحظة مرور قبائل «شاسو».. التابعين «لأدوم» من حصن «مرنبتاح حتب حرماعت» له الحياة والفلاح والصحة فى «سكوث» نحو برك «بتوم» لأجل أن يطعموهم ويطعموا قطعانهم فى ضياع الفرعون له الحياة والفلاح والصحة وهو الشمس الطيبة لكل أرض مصر.. (مصر القديمة. سليم حسن. جـ٦ ص٥٨٨).

وتدل وثائق أخرى على أن الحراسة فى هذا الوادى كانت شديدة إلى حد بعيد. وكذلك كانت المراقبة عظيمة على الطريق الرئيسية إلى آسيا فى قلعة «سيلة» (تل أبو صيفة الحالى) إذ وصل إلينا أجزاء من يوميات موظف فى إحدى المدن الواقعة على حدود فلسطين فى عهد مرنبتاح دوِن فيها أسماء المبعوثين والأعمال التى كُلِّفوا أداءها ممن يجتازون هذا الحصن فى طريقهم إلى فلسطين. وكان المرور منه محرمًا فى عهد رمسيس الثانى إلا لمن كان لديه تصريح بالخروج. ويقول الأستاذ «سايس». وهذا الخطاب «ورقة أنسطاسى السادسة» كتب فى السنة الثامنة من حكم مرنبتاح. ومن البدهى أن هذا لا يمكن أن يحدث إذا كان بنو إسرائيل لايزالون يقيمون فى أرض «جوشن». وعلى ذلك فلابد أن واقعة الخروج قد حدثت فى وقت ما قبل هذا التاريخ. وهذا يجعل تاريخ الخروج على أية حال قريبا من تاريخ نقش اللوحة. أى أنه يستنتج أن هذا الخطاب يؤيد أن الخروج حدث فى عهد مرنبتاح فى السنة الخامسة من حكمه. ولكنه يختم استنتاجه قائلا عن زمن الخروج: بل يجوز أن يتقدم عن هذا التاريخ.

ومن المؤكد أن الخروج – استنتاجا من هذا الخطاب يتقدم عن هذا التاريخ إذ أن وسائل الاتصالات فى ذلك الزمن كانت بطيئة. فإذا فرضنا أن الخروج حدث فى زمن ما. فقد يمر عام قبل أن تدرى الدول المجاورة التى تقع خارج النفوذ المصرى – بخروج بنى إسرائيل من مصر. وقد يمر عام آخر حتى يتأكد أنهم قد خرجوا من مصر إلى غير رجعة. وقد يمر عام ثالث إلى أن يقرر رؤساء «آدوم» إرسال بعثة إلى فرعون مصر ليسمح لرعاتهم بالرعى فى الأرض التى كان يقطنها بنو إسرائيل ويمر وقت آخر قبل أن يدرس الفرعون الموضوع مع مستشاريه والتحقق من أن هؤلاء الرعاة ليسوا جواسيس أو أعوان لدولة أجنبية تخطط لغزو مصر. فإذا

وضعنا مجموع هذه الأوقات فى الاعتبار لعاد بنا زمن الخروج إلى أول عصر مرنبتاح أى آخر عصر رمسيس الثانى.

وهكذا يتضح لنا أن هذا الدليل الأخير «ورقة أنسطاسى السادسة» تشير أيضا إلى أن مرنبتاح ليس هو فرعون الخروج.

من هذا نخلص إلى أن كل الاعتراضات التى أثيرت ضد نظرية أن رمسيس الثانى هو فرعون الخروج وعلى أساسها افترضوا أن مرنبتاح هو فرعون الخروج – هذه الاعتراضات بعد تفنيدها انقلبت إلى اعتراضات على نظرية مرنبتاح نفسها وأصبحت دلائل على صحة الرأى القائل بأن رمسيس الثانى هو فرعون التسخير وفرعون الخروج معاً. وهذا يؤيد ماذهبنا إليه فى ص٦٦٩– من أن أصحاب هذه النظرية لم يستطيعوا أو بالأحرى لم يجتهدوا فى الدفاع عنها.

لقد حاولت هذه الدراسة الإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه. وتمحيص الأدلة المقدمة على أوجهها المختلفة وأصبح الميزان الآن يميل لصالح النظرية التى تقول إن **رمسيس الثانى هو فرعون التسخير وفرعون الخروج أيضا**. وإن كان البعض قد يرى فيما ذكر بعض الإطالة فما ذلك إلا لاقتناعنا بأن تحديد شخصية هذا الفرعون سيساعد على إبراز جوانب جديدة فى قصة موسى عليه السلام كما أنه أثناء سرد القصة – ستتضح للقارىء أدلة أخرى – مستمدة من القرآن الكريم – تؤكد أن رمسيس الثانى هو – بلا شك – فرعون موسى ويكون فى ذلك نهاية للجدل الطويل الذى دار حول هذا الموضوع.

مثال ذلك ملخص قصة هذا الفرعون التى وردت فى سورة النازعات:

«هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالوادِ المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى. فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى». (١٥ – ٢٦ – النازعات)

فالفرعون طغى بأن سخر وعذب واستعبد بنى إسرائيل وذبح أبناءهم. فذهب إليه موسى وأراه معجزات كثيرة عبَّر عنها جميعا بلفظ الآية الكبرى. فكذب الفرعونُ وراح يدعى لنفسه الألوهيه فنكَّل به الله فى الدنيا بالإغراق فى البحر وفى الآخرة له عذاب النار. والضمير فى **«فأخذه»** عائد إلى **«فرعون»** الذى طغى. فهو فرعون واحد من أول الأمر إلى آخره. ونفس هذا المعنى يفهم من هذه الآيات من سورة الدخان:

«ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم. أن أدُّوا إليَّ عباد الله إنى لكم رسول أمين. وأن لا تعلو على الله إنى آتيكم بسلطان مبين. وإنى عُذت بربى وربكم أن ترجمون. وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون. فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون. فأسرِ بعبادى ليلا إنكم متّبعون. واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون. كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونَعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين. فما بكت عليهم السماء وما كانوا مُنظرين. ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين. من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين».

(١٧ - ٣١ - الدخان)

والآن لنبدأ فصلا عن الرعامسة وبنى إسرائيل.

الفصل الثانى

الرعامسة وبنو إسرائيل

كنا – قبل قصة شعيب عليه السلام – فى الجزء الثالث ص٥٩٢، قد وقفنا عند موت حورمحب وانتهاء حكم الأسرة الثامنة عشرة، والتى بدأت عهدها بتحرير مصر من الهكسوس (ص٥٣٦) ومطاردتهم فى فلسطين، ثم تطلع ملوك مصر إلى أرض فلسطين والشام وأدركوا الغنم الذى يأتى من الاستيلاء عليها . ومن ثَمَّ وُضِعت نواة الإمبراطورية المصرية فى الشام وأرض كنعان، ولما تقلصت هذه الأملاك فى عهد أخناتون (ص٥٨٩) أعاد حورمحب الإستيلاء عليها وأعاد نفوذ مصر إلى ماكان عليه من قبل.

ثم جاء ملوك الأسرة التاسعة عشرة وبدأ سيتى الأول توسيع رقعة الإمبراطورية، وواصل رمسيس الثانى التوسع فى شمال سوريا واصطدم – مثل والده – بالحيثيين، وحكم ٤ ملوك من الأسرة التاسعة عشرة: أولهم رمسيس الأول ثم ابنه سيتى الأول ثم رمسيس الثانى ثم مرنبتاح، ورمسيس تكتب أحيانا رعمسيس وجمعها رعامسة.

رمسيس الأول :

تولى رمسيس الأول الحكم بعد حورمحب، وهو الذى أسس الأسرة التاسعة عشرة، وكان رجلا طاعنا فى السن ولم يدم حكمه سوى عامين (١٣٠٨ – ١٣٠٦ ق.م.).

كان رمسيس الأول قائدا حربيا ناجحا فى عهد حورمحب، وهو ينتسب إلى أسرة قوية من بلدة تانيس (صان الحجر) واسمه «بارع مسسو»، اطمأن إليه حورمحب وجعله الرجل الثانى فى الدولة، ثم عهد إليه بالحكم من بعده، لذلك انتقل إليه الحكم بسهولة بعد وفاة حورمحب، فاعتلى العرش فى عام ١٣٠٨ ق.م باسم «بارع مسسو من بحثى رع» بمعنى رع أنجبه ودامت قوة رع (د. عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، جـ١ ص٢٤٣) ثم اكتفى بالشطر الأول من الاسم «رعمسيس» أو «رمسيس»، ولما كان كبيرا فى السن فقد استعان بولده «سيتى» على تصريف شئون البلاد، وقد تولى الحكم من بعده، ولعل مأثرة رمسيس الأول هى بدؤه تشييد بهو الأعمدة العظيم فى الكرنك.

سيتى الأول :

تولى سيتى الأول الحكم بعد أن تعدى سن الأربعين، فجمع بين نضج السن بالإضافة إلى مرانه فى عهد أبيه، واطمأن المصريون إلى تولى ملك حازم أمر البلاد وجرى على سُنَّة

حورمحب فى القضاء على الفساد ومنع الرشوة والنهب، وشدّد العقوبة على الاعتداء على أملاك المعابد والأفراد، وكان ينظر إليه على أنه هو الذى سيعيد مجد البلاد ثانية، ولذلك كان من ألقابه «مجدد الولادة» .

وحكم سيتى الأول أكثر من عشرين عاما، حارب فى أثنائها فى فلسطين والشام وزحف شمالا على الحيثيين، وكان هذا أول التحام بينهم وبين مصر، فهزم فرعون جيوشهم وعقد مع ملكهم معاهدة ودية، ولكن ما يهمنا من حروب سيتى الأول هى حربه فى فلسطين مع قبائل «الشاسو» أى البدو إذ كان لهم صلة ببنى إسرائيل، وأنقل هنا ما ذكره عالم المصريات الشهير سليم حسن: من أهم الوثائق التى بقيت لنا منقوشة على جدران معبد الكرنك المتن الذى يحدثنا عن السبب المباشر الذى حدا بالفرعون «سيتى الأول» لمهاجمة قبائل «شاسو» (البدو) الأسيويين بفلسطين، والظاهر أن الموقف الذى كان يواجهه هذا الفرعون فى فلسطين كان موقف خداع ومناجزات، وقد كان للعابيرو ضلع فى الحركة التى قام بها هؤلاء البدو، إذ كانوا يسعون لتوطيد أقدامهم فى فلسطين (سليم حسن مصر القديمة، جـ٦ ص٣٣)، وكان هؤلاء البدو قد انتهزوا الفرصة للتخلص من البقية الباقية من النفوذ المصرى فى فلسطين، وقد وصلت التقارير إلى «سيتى» بأن الثورات قد اندلع لهيبها، تقول الوثيقة:

السنة الأولى من عهد مُجدد الولادة، ملك الوجه القبلى والبحرى، رب الأرضين «من ماعت رع» (سيتى الأول) معطى الحياة: لقد أتى إنسان ليخبر جلالته أن الشاسو الخاسئين قد دبروا العصيان، فقد تجمع رؤساء قبائل فلسطين معلنين العصيان، وقد أخذوا فى السلب والنهب والشجار إذ يقتل الواحد منهم جاره، وعصوا قوانين القصر، وقد قام جلالته – له الحياة والفلاح والصحة – بحربهم، وبدأ الواقعة ودخل غمارها، وكان لبه مرتاحا لرؤية الدماء تسيل وقطع رؤوس العصاة، وقد قضى عليهم جلالته دفعة واحدة، فلم يترك ساقا واحدة (منتصبة) بينهم، ومن فر منهم حيا كانت تُحمل يده (كان الأسرى تقطع أيديهم)، وسار سيتى الأول بالجيش من ثارو – وهى آخر مدن مصر على الحدود الشمالية الشرقية وتقابل القنطرة فى العصر الحاضر – فى اتجاه فلسطين حتى وصل إلى «رفح» – وهى مسافة تبلغ ١٩٠ كيلو مترا – وقد وقعت الواقعة بين المصريين والشاسو على طول هذا الطريق، وتقول وثيقة أخرى:

السنة الأولى من حكم ملك الوجه القبلى والوجه البحرى «من ماعت رع» – التخريب الذى ألحقه سيف الفرعون البتار – له الحياة والفلاح والصحة – بالشاسو الخاسئين، من قلعة «ثارو» حتى «باكنعان» عندما سار جلالته نحوهم مثل الأسد المفترس وصيَّرهم أشلاء فى الوديان مخضبين بدمائهم كأن لم يغنوا بالأمس، وكل من أفلت من بين أصابعه يقول إن قوته (الفرعون) على الممالك النائية هى قوة والده «آمون» الذى كتب له الشجاعة المظفرة فى الممالك الأجنبية.

وقد سبق الإشارة (الجزء الثالث. ص ٥٤٠) أن نفرا من بنى إسرائيل قد خرجوا مع الهكسوس وكانوا يسمون «العابيرو». ولاشك أن بعضا من هؤلاء العابيرو قد اندسوا بين «الشاسو» وجعلوهم يثورون على مصر أملا فى إقصاء النفوذ المصرى عن فلسطين فيتمكن بنو إسرائيل المقيمين بمصر من الخروج إليها وتكوين دولتهم.

شيىء آخر يذكره الدكتور سليم حسن (جـ٦ ص٤٤/٤٥) وهو أن ذبح الأسرى كان عادة قديمة. إذ وُجدت لوحة من العاج مرسوم عليها الملك «دن» (من الأسرة الأولى) وهو يقتل عدوا شرقيا راكعا أمامه وفى يد الفرعون مقمعة من الحجر يضرب بها العدو. وظلَّ الأسرى يذبحون بعد ذلك فى عصر الأسرات القديمة. ثم أصبح منذ عهد الدولة الحديثة مجرد احتفال رمزى ولا يُنفَّذ القتل فعلا – إذ نجد على البوابة السابعة فى الكرنك «تحتمس الثالث» مُصورًّا فى الوضع التقليدى على وشك ذبح طائفة من الأسرى يبلغ عددهم نحو ٣٠ وهو قابض على نواصيهم بينما نجد فى ركن آخر من الصورة الأسرى يعاملون معاملة كريمة. دلالة على أن أمر الذبح كان لا ينفذ فعلا. ويتساءل الدكتور سليم حسن قائلا: هل عاد سيتى الأول لارتكاب هذه الفعلة الشنعاء ثانية فقتل أسراه على الرغم من أنها عادة قديمة قد لفظها الزمن؟ ولماذا؟

ونجد نقشا على جدران معبد مدينة هابو على هيئة خطاب على لسان «آمون رع» رب طيبة: يابنى الذى من صلبى. يامحبوبى. ويارب الأرضين «من ماعت رع» (سيتى الأول) رب القوة فى كل مملكة. إنى والدك. وإنى أنا الذى أجعل الرعب منك فى أرض «رتنو العليا والسفلى» وقبائل النوبة. كلهم قد ذبحوا تحت قدميك. وإنى آتى إليك برؤساء الممالك الجنوبية لتتسلم الجزية من كل منتجات ممالكهم الجيدة. وإنى أولىٍّ وجهى قبل الممالك الشمالية وآتى بأعجوبة لك متصديا للعصاة فى أوكارهم ببأس شديد.

ويمكننا الإجابة على التساؤل الذى أثاره الدكتور سليم حسن بأن سيتى الأول لما أدرك الصلة بين «الشاسو» الثائرين عليه و«العابيرو» أقرباء بنى إسرائيل أراد بإحياء الإحتفال بذبح الأسرى إرهاب بنى إسرائيل المقيمين بمصر. وإشعارهم أن الأمر جد ولا هوادة فيه. وأن الذبح قد ينالهم هم أنفسهم إذا جاءت الخيانة من جانبهم. وهذا ما حدث فعلاً فيما بعد مع ابنه «رمسيس الثانى» وما تعرض له من خديعة من اثنين من البدو – كلفته فيلقا كاملا من جيشه وكادت تودى به هو نفسه – فى معركة قادش (ص ٧٨٩) فلما عاد من المعركة بعد توقيع الصلح مع الحيثيين نفذ تهديد والده وبدأ التنكيل الحقيقى ببنى إسرائيل بزيادة جرعة التعذيب والتسخير ثم أصدر أمر ذبح الأطفال الذكور.

فإذا عدنا إلى سيتى الأول ثانية نجد أنه كذلك قد حمى مصر من غارات الليبيين كما أظهر اهتماما ببناء المعابد وتجديدها. وبلغت فنون النقش والتصوير فى عهده ذروة عالية وخاصة فى معبد شعائره فى أبيدوس (العرابة المدفونة مركز البلينا). كذلك فى نقوش مقبرته فى غرب طيبة.

وبنى أيضا جزءا كبيرا من بهو الأعمدة العظيم الذى بدأه أبوه - فى الكرنك وتوسع فى استغلال مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية ورَسَم الخرائط للطرق والحصون المنتشرة على الحدود الشمالية الشرقية. ولكن معظم هذه الإنشاءات المدنية كان القائم عليها والمنفذ لها هو ابنه رمسيس الثانى الذى كان مشاركا له فى العشر سنوات الأخيرة من حكمه.

كان أكبر أبناء سيتى الأول هو رعمسسو وهو المشهور باسم «رمسيس الثانى» وكان يحمل الألقاب التالية: ابن الملك - الأمير الوراثى والوزير - عمدة المدينة والمشرف على جياد رب الأرضين ورئيس القضاة وغير ذلك من الألقاب. كانت «طيبة» هى العاصمة أيام سيتى الأول. إلاّ أن «منف». كانت العاصمة الثانية لقربها من أملاكه فى آسيا التى كانت شغله الشاغل مدة حياته. ولأن سيتى كان من أسرة تنسب إلى شرق الدلتا. فقد بنى لنفسه قصرا فى «قنتير». كشفت عنه أعمال البحث التى أجريت مؤخرا فى هذه المنطقة. وكان هذا القصر نواة للمدينة الجديدة التى بناها رمسيس الثانى وسماها باسمه «بر رعمسسو» واتخذها عاصمة له.

بنـو إسرائيل :

نعود الآن إلى بنى إسرائيل وقد ذكرنا فى الجزء الثالث (ص ٥١٨) أن يوسف عليه السلام قد أسكنهم أرض جاسان وكان عدد من جاء إلى مصر من أبناء يعقوب ٧٠ نفسا. وإذا افترضنا أن نصفهم ذكور والنصف الثانى إناث لكوّنوا ٣٥ أسرة يبدأ بهم الجيل الأول فى مصر . وإذا افترضنا أن عدد المواليد لكل أسرة هو ٣ أبناء وهو عدد متواضع جدا . فلنجعله ٣ و ٤ بالتبادل للأجيال المتتالية. نجد أنه بعد ١٦ جيلا:

الجيـــــل الأول = ٣٥ أسرة × ٤ أبناء = ١٤٠

الجيـــــل الثانـــى = ٧٠ أسرة × ٣ أبناء = ٢١٠

الجيـــــل الثالـــث = ١٠٥ أسرة × ٤ أبناء = ٤٢٠

الجيـــــل الرابـــع = ٢١٠ أسرة × ٣ أبناء = ٦٣٠

الجيـــــل الخامس = ٣١٥ أسرة × ٤ أبناء = ١٢٦٠

الجيـــــل السادس = ٦٣٠ أسرة × ٣ أبناء = ١٨٩٠

الجيـــــل السابع = ٩٤٥ أسرة × ٤ أبناء = ٣٧٨٠

الجيـــــل الثامـن = ١٨٩٠ أسرة × ٣ أبناء = ٥٦٧٠

الجيـــــل التاســع = ٢٨٣٥ أسرة × ٤ أبناء = ١١٣٤٠

الجيـــــل العاشـــر = ٥٦٧٠ أسرة × ٣ أبناء = ١٧٠١٠

الجيل الحادى عشر = ٨٥٠٥ أسرة × ٤ أبناء = ٣٤٠٢٠

الجيل الثانـــى عشر = ١٧٠١٠ أسرة × ٣ أبناء = ٥١٠٣٠

الجيل الثالـــث عشر = ٢٥٥١٥ أسرة × ٤ أبناء = ١٠٢٠٦٠

الجيل الرابـــع عشر = ٥١٠٣٠ أسرة × ٣ أبناء = ١٥٣٠٩٠

الجيل الخامس عشر = ٧٦٥٤٥ أسرة × ٤ أبناء = ٣٠٦١٨٠

الجيل السادس عشر = ١٥٣٠٩٠ أسرة × ٣ أبناء = ٤٥٩٧٢٠

وإذا افترضنا لكل جيل ٣٠ عاما فإن الـ ١٦ جيلا تستغرق من الزمن ٤٨٠ عاما أو ٥٠٠ عاما وهى المدة التى أمضاها بنو اسرائيل فى مصر منذ أول قدومهم فى عام ١٧٢٨ ق.م. حتى الخروج فى عام ١٢٢٥. وإذا افترضنا أن الأجيال الإثنى عشر الأولى قد توفوا جميعا.

وتوفى من الجيل الـ ١٣ ٣/٤ ويبقى الربع وهو = ٢٥٥١٥

وتوفى من الجيل الـ ١٤ ٢/٣ ويبقى ١/٣ = ٥١٠٣٠

وتوفى من الجيل الـ ١٥ ١/٢ ويبقى ١/٢ = ١٠٥٠٩٠

والجيل الـ ١٦ موجود بأكمله = ٤٥٩٧٢٠

نجد أنه فى نهاية الخمسمائة عام يكون بنو إسرائيل كلهم = ٦٥١٣٦٠ فردا

فإذا افترضنا الثلث نساء وثلثا آخر أطفالا كان الرجال لا يزيدون عن ٢١٧,٠٠٠ وليس ٦٠٠,٠٠٠ كما جاء فى التوراة (إصحاح ١٢ خروج: ٣٧): فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سُكُوتْ نحو ست مائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد.

وقد ذكرنا فى الجزء الثالث (ص ٥٤٣) بعض العوامل التى جعلت المصريين يأخذون جانب الحذر من بنى إسرائيل فى الفترة التى تلت طرد الهكسوس. ولكن بمضى الوقت وبزيادة التعاملات بين الجانبين بدأ المصريون ينظرون إلى بنى إسرائيل كأنهم أصبحوا جزءا من الشعب.

ويدأ الفراعنة فى بناء الإمبراطورية المصرية فى الشام وفلسطين مما استدعى تجنيد عدد كبير من الجنود. وكان من غير المستحب تجنيد غير المصريين إذ أن ولاءهم مشكوك فيه. وهذا ما سجلته التوراة (إصحاح أول خروج: ١٠) «فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض». ولما كان إشراكهم فى الحرب غير مقبول فقد كان من الطبيعى أن يقوموا ببعض الأعمال المدنية مثل صنع الطوب وقطع الحجارة وبناء المعابد. ولما كان بنو إسرائيل أهل بداوة لم يتعودوا على هذه الأعمال. فقد رفضوها. وكان من الضرورى إجبارهم عليها. وهو ما اعتبره بنو إسرائيل سخرة. وبدأوا يتمردون على هذا الوضع

ويتطلعون إلى الخروج من مصر إلى «الأرض الموعودة». ولما كان خروجهم إلى أرض فلسطين يضيف قوة إلى فلول الهكسوس الذين انتشروا فى المنطقة بعد طردهم من مصر. ويعرض البلاد لاحتمال غزو جديد. فقد تمسك الفراعنة بعدم خروج بنى إسرائيل من مصر. وزاد هذا من تذمر بنى إسرائيل.. وزادت الجفوة بين الجانبين. وبدأت الهوة تتسع شيئا فشيئا حتى بلغت أقصاها فى عهد الأسرة التاسعة عشرة وخاصة فى عهد رمسيس الثانى.

رمسيس الثانى :

كانت حسابات الفلكيين فى مصر القديمة تقول إن اقتران ظهور النجم الذى يحدد قدوم فيضان نهر النيل. مع الكواكب التى تحدد بدء السنة الدينية وبداية السنة الزراعية أمر لا يحدث إلا مرة واحدة كل ١٤٦١ سنة وأن هذا الاقتران الثلاثى ينبىء عن حدث مهم سوف يحدث على الأرض، وكان رمسيس الثانى كثيرا ما يفتخر بأن هذا الاقتران حدث فى عام ١٣١٧ ق.م. وأن الحدث المهم هو مولده فى عام ١٣١٥ ق.م. (كتاب رمسيس العظيم. تأليف ريتافرد. ص ٢٤) وأن فيضان العام الذى سبق مولده كان وافيا وغزيرا غمر البلاد بالرخاء وملأ البيوت بالحبوب وعمت البهجة القلوب. كذلك سجَّل رمسيس الثانى افتخاره بأنه وُلِدَ من الإله «آمون» نفسه الذى تقمص جسد «سيتى الأول» فأنجبه من الملكة «تويا» والدته.

خَلَفَ رمسيس الثانى والده سيتى الأول فى الحكم فى عام ١٢٩٠ ق.م. وساعدت عدة عوامل على أن تفرض شهرته على التاريخ:

١ – مشاركته والده فى الحكم فاكتسب خبرة سياسية وحربية.

٢ – ولى الحكم شابا يملؤه الحماس وتحدوه آمال واسعة.

٣ – طول مدة حكمه التى بلغت ٦٧ عاما.

٤ – ورث عن أبيه دولة قوية ذات ثراء عريض.

٥ – وجد من رجاله المدنيين والعسكرين تأييدا لكل أعماله.

٦ – تصديه للحيثيين وهم أضخم قوة عسكرية فى عصره.

٧ – كان شغوفا بتخليد ذكراه وتمجيد نفسه. ولذلك بنى عدداً كبيراً من المعابد والقصور والمسلات والتماثيل أكثر من أى حاكم آخر سبقه.

٨ – فى عهده تكونت لمصر عاصمة جديدة سميت باسمه «بررعمسسو» أى دار رمسيس وأصبحت واحدة من أهم العواصم فى الشرق الأدنى القديم.

طفولته :

كان المعتاد – إذا عمل تمثال لأحد الفراعين. ورؤى أن يصور أبناؤه معه – أن يكونوا بحجم

صغير ومكانهم واقفين بجوار أرجل والدهم. وهذا ما نراه فى كثير من التماثيل وما نراه فى تماثيل رمسيس الثانى على واجهة معبد أبى سمبل (شكل ١٢٢). إلا أننا لا نجد تمثالا لرمسيس الثانى يمثله طفلا يقف بجوار رجلى والده «سيتى الأول». ولعله كان يستشعر منذ طفولته أنه « أكبر » أو « أعظم » من أن يُصوَّر هكذا . والتمثال الفريد الذى وصل إلينا (شكل ١٢٣) يمثله طفلا جالسا القرفصاء وخلفه الإله «حورون» بهيئة رأس الصقر الخاصة بالإله حورس بينما رمسيس الثانى عار من الملابس ولكنه يضع قرص الشمس على رأسه والصل الملكى على جبهته. ويضع إصبع يده اليمنى على فمه ذى الابتسامة الخفيفة التى تميز معظم تماثيله بينما يمسك فى يده اليسرى حزمة نبات رمزا لمصر والنيل . بينما فى تمثال آخر يمثله شابا صور نفسه وخلفه الإله «سوتخ» يحميه (شكل ١٢٤). وقد مثل الإله سوتخ على هيئة حيوان هجين برأس تمساح. وفى مرحلة أخرى من شبابه صور نفسه واقفا ويحميه من خلفه الكبش – رمز الإله آمون (شكل ١٢٥).

ويمكننا أن نستشف من هذه التماثيل أنه كان يشعر أيضا بأن الآلهة تؤيده وتحميه منذ الصغر.

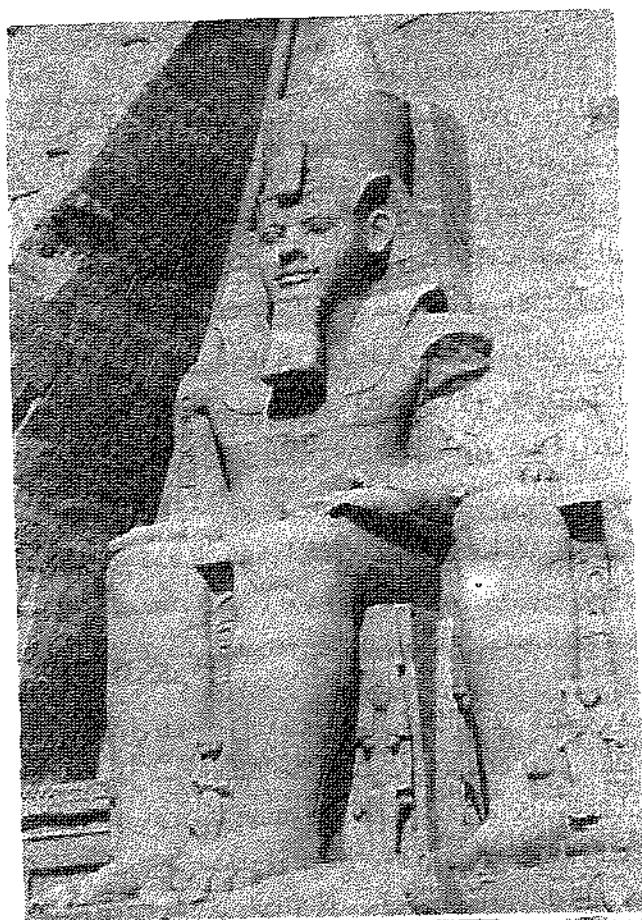
مشاركته والده فى الحكم :

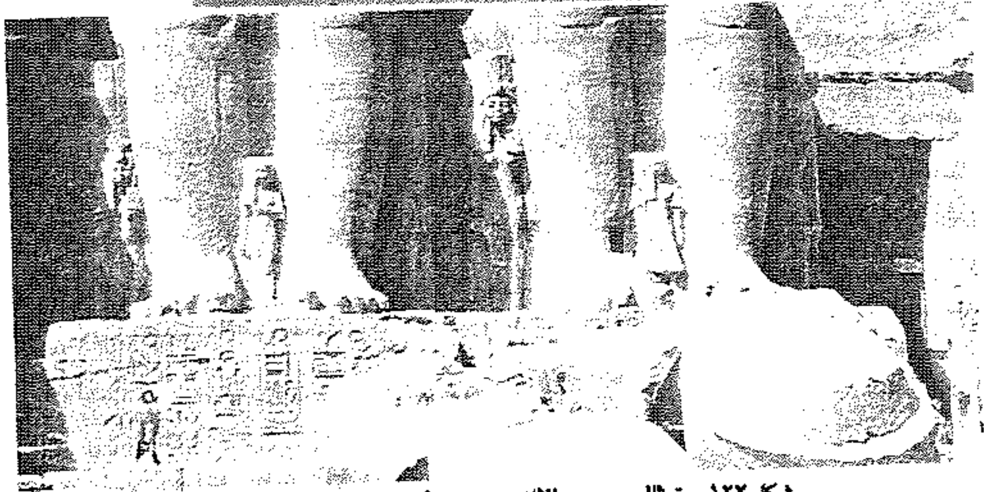
فى الواقع أن سيتى الأول بدأ يشرك ابنه رمسيس الثانى فى شئونه وهو لم يزل فى سن العاشرة وأعلنه وليا للعهد فى سن الثالثة عشرة، ثم توَّجه شريكا له فى الملك بعد ذلك بسنوات قليلة، وعلى أثر ذلك كُلِّف بالقيام ببعض مسئوليات الدولة وشئونها كإقامة المبانى وغيرها. وقد تم هذا التتويج على يد الإله آمون فى حضرة الفرعون والده «سيتى الأول» وسُجِّل فى معبد سيتى الأول بالقرنة. وسُجِّل له تتويج ثان فى مدينة هليوبوليس على يد الإله «أتوم». والنص الموجود على أحد جدران معبد سيتى الأول أمر رمسيس الثانى بنقشه ليفاخر بنفسه فيقول:

«رفع من شأنى رب الكون نفسه – يقصد الإله رع – منذ كنت طفلا حتى أصبحتُ حاكما. منحنى الأرض وأنا فى البيضة. وقبَّل العظماء التراب أمام وجهى. ثم عُينتُ بوصفى الابن الأكبر أميرا وراثيا على العرش، وكنت أقدم التقارير عن حالة الأرضين بوصفى قائدا للمشاة والعجلات. ولما بدا أبى فى مجده أمام شعبه، وكنت طفلا قال للقوم: توجوه ملكا حتى أشهد بهاءه وأنا على قيد الحياة»!!.

وكان رمسيس الثانى يضيف إلى لقبه نعوتا خاصة مثل :

« مرى رع » أى محبوب رع .
« تيت رع » أى صورة رع .
« أعو رع » أى وارث رع .
« ستبن رع » أى مختار رع .





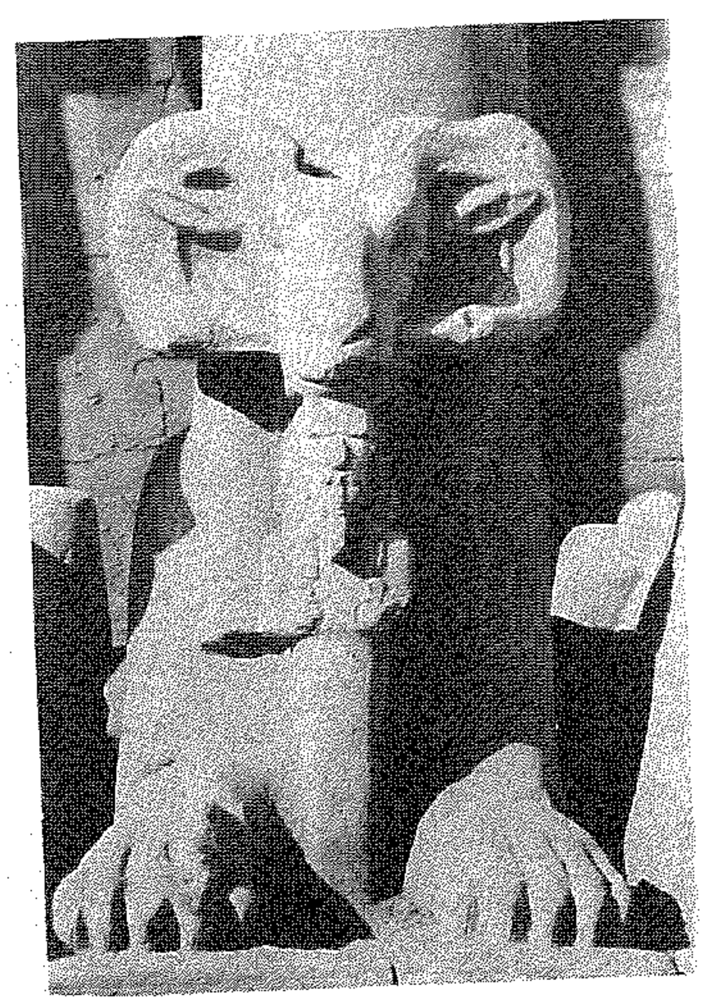
شكل ١٢٢ – تمثال رمسيس الثانى وزوجته وأبنائه وبناته بجوار ساقيه.
(واجهة معبد أبى سمبل)



شكل ١٢٣ – تمثال رمسيس الثانى
وخلفه الإله «حورون».



شكل ١٢٤ – تمثال رمسيس الثانى
وخلفه الإله «سوبتخ»
على هيئة حيوان هجين برأس تمساح



شكل ١٢٥ – رمسيس الثاني شاباً وخلفه الكبش رمز الإله «أمون».

وبعد انفراده بالحكم بعد وفاة والده اختار لقب «وسر ماعت رع ستبن رع» أى «رع قوى العدالة ومختار رع» ونبذ كل النعوت الأخرى.

وكان النقش على المعابد فى عهد سيتى الأول وما قبله يتم بطريقة «النقش البارز» وظل رمسيس الثانى يتبع ذلك فى أوائل سنى حكمه إلاً أنه بعد فترة وجد أن النقش الغائر يمكن إنجازه بسرعة كما أنه أبقى على الزمن من النقش البارز فاتبع هذه الطريقة. ثم بعد انفراده بالحكم محا كل نقوشه وقليلا من نقوش والده البارزة وأعادها بالنقش الغائر وهو ما يمكن الاهتداء إليه بسهولة على جدران المعابد التى أقامها.

وتوجد ثلاثة مناظر فى معبد سيتى بالعرابة المدفونة رُسم فيها رمسيس بوصفه وليا للعهد بصورة أصغر من صورة والده سيتى الأول. إلاً أن منظر التتويج الذى رسمه رمسيس الثانى بعد مضى سنتين على حادث التتويج نفسه، والذى أراد تخليد هذا الحدث بنفسه، نجده قد رسم نفسه بنفس الحجم الذى رسم به والده سيتى، وبحجم الآلهة الثلاثة الذين أقيم هذا الحفل فى حضرتهم وذلك بالرغم من أن هذا الحفل قد تم وهو صغير السن (١٥ سنة) ويمثل اشتراكه فى الحكم مع والده لا انفراده بالحكم، مما يدل على نزعة فيها تكبر وتطلع، إذ لم يسمح أن تُنحت صورته فى هذا المنظر بالذات – كما هو المفروض – بحجم أصغر من حجم والده أو الآلهة الذين كانوا معه!

وتوجد لوحة مؤرخة بالسنة الثالثة من حكمه – كُتبت بإشرافة أو على الأقل بإيحاء منه – وفيها يخاطبه رجال البلاط قائلين: لقد وضعتَ خططا حينما كنتَ لم تزل فى البيضة فى وظيفة طفل أمير. وكانت تلقى عليك شئون البلاد حينما كنت صبيا تتحلى بالضفيرة. ولم ينفذ أثر إذا لم يكن تحت سلطانك، ولم يُقطع بأمر إلاً كنتَ تعلمه. وكنت رئيس الجيش منذ أن كنت طفلا فى العاشرة.

ويوجد رسمان على الجانب الجنوبى لقاعة العمد العظيمة بالكرنك يمثلان الاحتفال بعيد الوادى السنوى، وفيه يُصوَّر رمسيس الثانى وهو يقوم بوظيفة فرعون وفى نفس الوقت كاهنا أكبر. فى حين أن والده يسير فى موكب السفينة المقدسة. وهذا يدل على اشتراكه فى الحكم مع والده ويوحى كذلك بأن والده ترك له كثيرا من السلطات.

وأراد رمسيس الثانى أن يؤكد أنه تسلط على كل المنشئات، فهو يقول عن نفسه: «لا يوجد أثر أنجز لم يكن تحت سلطانى» فهو يؤكد تسلُّطه على عمليات البناء وأنه كان له الدور الأساسى فى تصميم المبانى التى أقامها.

التحليل النفسى لشخصية رمسيس الثانى :

لئن كنا سنتناول هذه النقطة بشيىء من التفصيل فذلك لأنها تقدم دليلا إضافيا على أنه هو

فرعون موسى. والوثائق التى كتبت على جدران المعابد تثبت أن الفراعين جميعهم كانوا شديدى الفخر بأنفسهم ومولعين بأن ينسبوا لأنفسهم أعمالا عظيمة وبطولات قد تكون غير حقيقية. وعند دراسة ماكتبه رمسيس الثانى على جدران الجزء الذى أضافه لمعبد «سيتى» بالعرابة المدفونة على شكل خطابات أُرِّخت بالسنة الأولى من انفراده بالحكم – وقد كتبت هذه الخطابات تحت إشرافه أو بإيحاء أو إملاء منه – تبين لنا أنه كان أكثر الفراعين فخرا بنفسه وبأعماله محبا لذاته لدرجة تقرب من جنون العظمة. وفيما يلى ننقل بعضا من هذه الكتابات وهى على شكل خطابات متبادلة: (مصر القديمة. سليم حسن. جـ ٦).

١ – **خطاب أوزير للملك يسجل فيه شكر الآلهة على إقامة المعابد لها نصه مايلى:** خطاب أوزير رب الأبدية لابنه ملك الوجه القبلى والوجه البحرى «وسرماعت رع ستبن رع» (أى «رمسيس الثانى»): إن قلبى فى راحة بفضل مافعلت لى وإنى لمبتهج بما قد أمرتَ به لى. وإنى لفرح لأنى أعيش بأعمال الخير التى أهديتَها لى. وإن أعمالك الصالحة تشبه أعمال قرص الشمس. وستبقى أنت مابقى «أتوم» لأنك تسطع على عرشه. وكذلك مادام «رع» مزدهرا عندما يخترق السموات العلا حينما تكون أنت ملكا بفضل أعمالك الصالحة. وخططك محببة إلى قلبى. وما فعلته فى الأفق كان مقبولاً. والمحراب يكون فى حبور عندما يسمعك تلقى قصة أعمالك الصالحة. والإله «تاتنن» (إله الآخرة) قد منحك مئات وآلاف السنين.

نراه فى هذا الخطاب يسجل شكر الآلهة على إقامة المعابد لها. كما أنه يتمنى لنفسه طول العمر.

٢ – **خطاب «إيزيس» :**

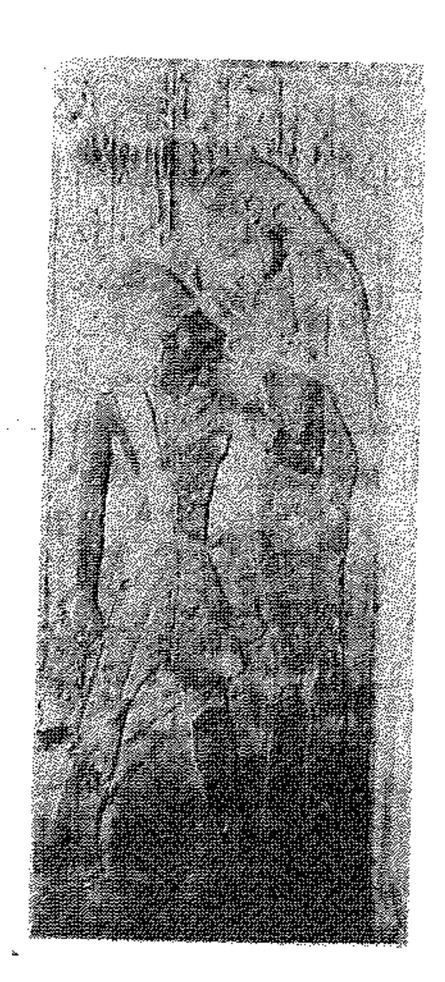
من إيزيس العظيمة والدة الإله: يابنى العزيز «رعمسيس» محبوب آمون. إن طول حياتك مثل طول حياة ابنى «حور» فهكذا أنت. وهكذا سيكون من خرج من بطنى. وإنك بار بنا مثله. وإن مدة أجل السماء وممالك السيد المهيمن «أوزير» جميعها وسنى «حور» و «ست» ستمنح لك بوصفك ملكا على الأرض.

وهنا نلاحظ أنه قد سجل بُنوَّته «الحقيقية» للإلهة إيزيس فصور نفسه يرضع ثديها. وحتى فى هذا الموقف لم يتنازل عن نظرته التعاظمية لنفسه فلم يشأ أن يصور نفسه طفلا مثل حورس (شكل ١٢٦ أ). بل صور نفسه يافعا واقفا وقد لبس التاج على رأسه وفى يده اليمنى علامة الملك. وجعل إيزيس من الطول بحيث لا يحنى رأسه (شكل ١٢٦ ب).

٣ – **خطاب سيتى الأول :** وهو يكتب الخطاب على لسان والده. وكان سيتى الأول قد توفى. وحسب ماكان متَّبعا فى أيامهم كان يعطى لقب «صادق القول» كما نقول فى أيامنا «المرحوم». ونص الخطاب مايلى: خطاب من الملك «من ماعت رع» صادق القول: فليفرح قلبك



شكل ١٢٦ أ - إيزيس ترضع ابنها حورس
(مكرر من شكل ١٣ فى الجزء الأول) .



شكل ١٢٦ ب إيزيس ترضع رمسيس الثانى
بوصفه ابنها .

يامك الوجه القبلى والوجه البحرى «وسرماعت رع ستبن رع» (أى رمسيس الثانى) لأن رع إله الشمس يهبك الخلود، وآتون يبتهج باسمك. إنى لفى سرور لما فعلته لى منذ أن دعيتُ صادق القول (أى منذ أن توفيت) ولقد عظَّمنى «أوزير» لما فعلتّه لى.

٤ – **خطاب من رمسيس الثانى إلى «أوزير»:**

إنى أتضرع لوجهك كما كان يفعل ابنك «حورس». وإنى أفعل لك آثارا فى المكان المقدس (الجبانة)، وأضاعف الأوقاف لروحك. وإنى تحت تصرفك وتحت سلطانك، حتى تجعل الأرض ملكا لى. وحتى تهبنى الخلود بوصفك ملكا والأبدية بوصفك راعيا للأرضين. وإنى على استعداد لتنفيذ ما يحبه قلبك كل يوم بلا انقطاع.

٥ – **خطاب يصف الأعمال التى قام بها تكريما لوالده، ويفخر بها:**

لقد كان ولدا بارا بأبيه مثل حورس عندما انتقم لوالده أوزير. فهو (رمسيس الثانى) الذى صوَّر سواه، ونحت تمثال من أنجبه، وأحيا اسم من وضع بذرته. هو ابن الشمس والذى يحبه «آمون» معطى الحياة مثل «رع» مخلدا مثل «أوزير». حافظ على ذكرى والده، ونحت تماثيل لوالده. ويرجع الفضل فى ذلك إلى «رمسيس». معطى الحياة لوالده صادق القول وقد أسس له أملاكا، وأمدها بالأرزاق لما له من سمعة بين الملوك.

٦ – **خطاب يصف تجديده لآثار العرابة** (مع الاختصار):

وذات يوم فى السنة الأولى، دخل جلالته ليرى والده، وليقرب القرابين. وقد وجد مبانى الجبانة التى من عهد الملوك الأقدمين وكذلك مقابرهم آيلة للخراب ساقطة على الأرض. وجدرانها منبوذة على الطريق، ولم تكن لبناتها متماسكة. ولم يكن هناك إنسان ليبنى منذ أن طار أصحابها إلى السماء، ولم يكن هناك ابن يقوم بإصلاح ماتركه والده.

ومعنى منذ أن طار أصحابها إلى السماء، أى بعد أن توفى أصحابها – كما نقول فى عصرنا «لحق بالرفيق الأعلى». وقد اتخذها الأستاذ أنيس منصور سندا لمقالاته «الذين عادوا إلى السماء» وقال بأن أناسا هبطوا من السماء ثم عادوا ثانية فى سفن فضاء.

٧ – **وثيقة يصف فيها تولِّيه على العرش فى صيغة خطاب لمستشاريه:** (مع الاختصار) تأملوا. لقد أمرت بدعوتكم عندما شاهدت مبانى الجبانة ومقابر العرابة لم تنجز أعمالها منذ زمن أصحابها حتى اليوم. وإنه لجميل أن يهتم الابن بوالده. وإنى سأعمل حتى يقول الناس إلى الأبد السرمدى: إنه ابنه الذى جعل اسمه يحيا. ومن أجل هذا سيخصنى والدى «أوزير» بحياة ابنه «حورس» الطويلة جزاء ما سأقوم به من الأعمال الطيبة لوالدى. قولوا أنتم إن «رع» و «أوزير» نفسه قد نشَّأنى وجعلنى أنمو حينما كنت لاأزال طفلا حتى أصبحت ملكا وأعطانى الملك. ومنذ أن كنتُ لا أزال فى البيضة. وكان العظماء يقبلون الأرض أمامى وأنا

لم أزل أميرا وراثيا على العرش. وكنت قائد المشاة والخيالة. وعندما كان يظهر والدى أمام الشعب كنت طفلا صغيراً. وكان يقول عنى: توجوه ملكا حتى أرى حاله وأنا لا أزال حيا. ضعوا التاج على رأسه حتى ينظم هذه البلاد ويدير شئون مصر. وعلى ذلك وضعوا التيجان على جبينى. تأملوا. لقد كنت «رع» فوق الناس. فأهل الجنوب وأهل الشمال كانوا تحت نعلىّ.. لقد وضع معبده تحت ملاحظتى. وكل أشغاله تحت مراقبتى منذ كنت طفلا. وإنه أنا الذى صنعتُ تمثال والدى من الذهب وحبست القربان على روحه. من خمر وزيت خروع وكل أنواع الفاكهة وكل باكورات المحاصيل. ويستمر فى وصف ماعمله من آثار تكريما لوالده.

٨ – **جواب المستشارين** (يمدحونه ويضعونه فى مصاف الآلهة) :

إنك «رع» الشمس. وجسمك جسمه. ولا يوجد قط ملك يشابهك. فأنت وحدك مثل ابن أوزير حورس ابن إيزيس. ولم يفعل أى ملك هكذا منذ عهد «رع» إلا أنت. وإن مافعلته أعظم مما فعله أحد قبلك. لقد عملتَ ما لم يُعمل من قبل. فأى مثال فضيلة يوجد فى استطاعتنا أن نأتى به لنذكره أمامك. ومن ذا الذى يأتى لينصحك عندما تفكر بمحض عبقريتك!

لم يُرَ مثلك وجه. ولم يُسمع مثل قولك. ولا أحد اعتلى العرش مثلك قد حافظ بصلاح على ذكرى والده إذ كان كل واحد يعمل لما فيه فائدة اسمه إلا أنت وحورس. لذلك فأنت وابن أوزير سيان. إنك وارث ممتاز مثله إذ تدير ملكه بنفس طريقته وتفعل ما فعله الآلهة ولك نفس طول عمر الآلهة. إن قلب «رع» فى السماء لفرح والآلهة مبتهجون منذ تتويجك ملكا على الأرضين.. ويستمرون قائلين: إنك ستكون على الأرض مثل «آتون». لقد جددت آثاراً فى الجبانة والمشروعات التى كانت مهملة قد أنجزتها على الوجة الأكمل. الأجيال تمر ويحل غيرها وجلالتك ملك الوجه القبلى والوجه البحرى لأنك أنت الذى تعمل الخير وقلبك مرتاح لإقامة العدل.. وعندما تُرفع إلى السماء ستصعد أعمالك الصالحة حتى الأفق. والأعين ترى أعمالك العظيمة التى أنجزت أمام الآلهة والناس.. ويبلغ النفاق مداه إذ يقولون: اسمك فى كل بلد من أول بلاد النوبة جنوبا وشمالاً من أول شواطىء البحر وكل الأماكن تعرف أنك إله لكل الموجودات والناس يسهرون ليقوموا بتقديم البخور لك على حسب أمر والدك «آتون»!!

وتستمر الوثائق المسجلة على جدرات المعابد على هذا النحو. ولا يتبادر إلى الذهن أن بعض هذه الرسائل كان يسجل دون علمه. أو أنه لم يكن راضيا تمام الرضا عن كل المديح الذى جاء بها لأن كل ماكان يسجل على جدران المعابد كان لابد أن يعرض على الفرعون وينال موافقته وقد سبق أن ذكرنا (ص ٦٨٩) ما قاله رجال البلاط فى خطاب موجه إليه: ولم ينفذ أثر إذا لم يكن تحت سلطانك. ولم يقطع بأمر إلا كنت تعلمه!! فجميع هذه الخطابات قد حظيت بموافقته قبل تسجيلها. وعرف كاتبوها سواء كانوا من رجال البلاط أو غيرهم – كيف ينفذون إلى قلبه وينالون رضاه بترديد عبارات النفاق الواضح أو المقنع. وكلها تدور فى معنيين اثنين: – أنه الابن

البار بوالده فأقام المعابد تكريما له. ثم كيف اختاره أبوه ليشركه معه فى الحكم. وفى هذا معنى مستتر أنه استحق ذلك لأنه كان «عبقريا» منذ صغره. بل ويمنّ على والده بما بناه له من آثار. كذلك فإنه يسجل ما معناه أنه الابن البار للآلهة يقيم لها المعابد. وأنها ترسل له الرسائل تشكره على صنعه هذا وتنظر إليه على أنه ابن لها. بل وتعتبره نِدا لها ومساويا لها فى المكانة وطول العمر.

ويتضح ذلك أكثر ما يتضح فى الخطاب التالى:

٩ - **خطاب «رمسيس الثانى» لوالده «سيتى»** يقول فيه:

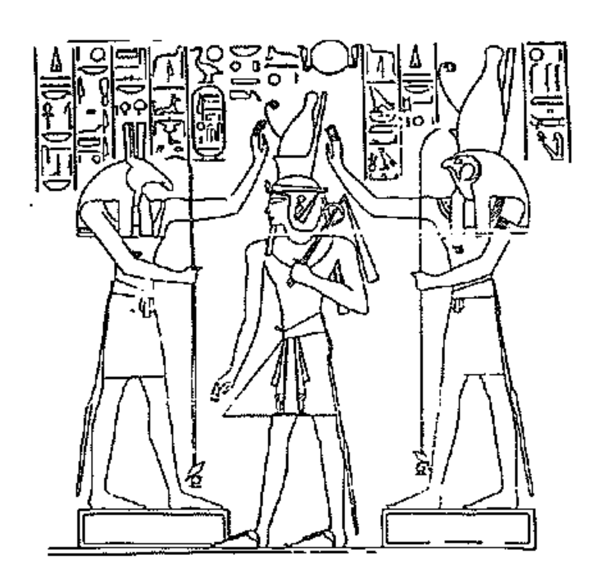
كلام ملك الوجه القبلى والوجه البحرى «وسر ماعت رع. ستبن رع» ابن الشمس. سيد التيجان. محبوب «آمون» رعمسيس معطى الحياة. عندما أعلن مافعله لوالده الملك «من ماعت رع» صادق القول: تنبّه وولِّ وجهك قِبَل السماء لترى «رع» ياوالدى. أنت يامن أصبحت إلها. انظر لقد جعلت اسمك يحيا وإنى أرعى صلاح ذكراك إذ أعتنى بمعبدك. وقربانك ثابت دائم. وإنك تثوى فى العالم السفلى مثل «أوزير» فى حين أنى أشرق مثل «رع» على الإنسانية. وأجلس على عرش «أتوم» مثل «حورس» ابن «أوزير». ما أجمل ما فعلته لك! فإنه مضاعف الحسن. لأنك عدت به إلى الحياة من جديد!! فقد صنعت لك تمثالاً. وبنيتُ مثواك الذى كنت ترغب فيه والذى فيه صورتك فى إقليم الأبدية (جبانة العرابة). وإنى أضع قرابين لتماثيلك. وأعين لك خدما للمائدة ليحملوا الطعام لروحك. وليصبوا الماء على الأرض من خبز وماء. ولقد أتيت بنفسى !! مرتين لأزور معبدك الذى بجوار «وننفر» ملك الأبدية. ولقد عكفتُ على أعمال هذا المعبد فبنيتُ رقعته. وغطيتها بالبلاط. وأقمت كل مساكنك التى نبت فيها اسمك سرمديا. ويستمر فى سرد ما فعله لوالده - والمن عليه - فيقول: وقد جعلتُ خزانتك فاخرة إذ ملأتها بالخيرات. وإنى أهديك سفينة نقل بحمولتها على البحر المتوسط مشحونة بالذخائر العظيمة من ذهب وفضة ونحاس. ودونت من أجلك قوائم حقول. وإنى أمدّها بملاحظين ومزارعين لحصد الحبوب للقرابين المقدسة. وقد جمعتُ لك قطعانا من كل نوع من الحيوان الصغير لإمداد قرابينك بطريقة منظمة وخصصت لك أوزا مجلوبا من حظائر التسمين و... و... ثم يصل فى النهاية إلى هدفه من كل هذا فيكتب: ليتك تقول «لرع» امنح الحياة بقلب محب **وأعطِ حياة طويلة فوق حياة طويلة موحدة فى أعياد ثلاثينية للملك** «وسرماعت رع ستبن رع» (أى رمسيس الثانى) معطى الحياة. وكل شيء سيصير على مايرام لك مادمتُ أحيا عمرا طويلا بوصفى محبوب «آمون» معطى الحياة. مثل «رع» ابن «رع»!

١٠ - ونختم هذه الخطابات **بخطاب كتبه على لسان والده. خطاب شكر من «سيتى الأول» لابنه «رمسيس الثانى»** يقول فيه: إن الملك «من ماعت رع» صادق القول

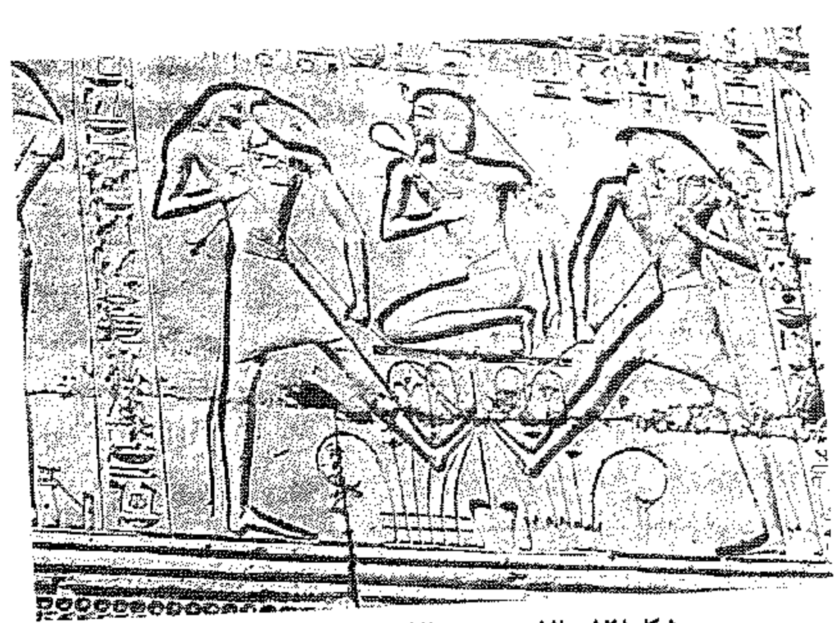
(أى المرحوم سيتى الأول) ذو روح سامية كأوزير مبتهج بالسرور من أجل كل مافعله ابنه منفذا الأشياء الممتازة ملك الوجه القبلى والوجه البحرى، ورئيس الأقواس التسعة، سيد الأرضين «وسرماعت رع ستبن رع» ابن الشمس رب التيجان محبوب «آمون» رعمسيس، مخلداً وسرمديا. وقد أعلن كل أعماله الصالحة أمام «رع حوارختى» وأمام الآلهة الذين فى العالم السفلى. إنه تكلم بقوة كما يتكلم والد على الأرض لابنه قائلا: فليبتهج قلبك كثيرا يابنى العزيز، إن «رع» يمنحك ملاين السنين والأبدية على عرش «حور» الأحياء. وإن أوزير» يرجو لك بقاء السماء التى تشرق فيها مثل «رع» كل صباح. وإن الحياة والصحة معك، والصدق والقوة وابتهاج القلب هى من عمل غنى بالسنين. وإن القوة والنصر مِلكك أنت ياعظيم الانتصار. والصحة ملك أعضائك مثل ماهى ملك أعضاء «رع» فى السماء. والفرح والسرور فى كل الأماكن التى توجد فيها يا أيها الملك، ياحامى مصر وهازم الأقوام الأجنبية. وإن الأبدية قد عملت لتكون عمرك. ما قلتُه لرع بقلب محب، امنحه الخلود على الأرض، وقد كررت على «أوزير» عندما دخلت أمامه ضاعف له عمر ابنك «حور» وعلى ذلك فقد أجاب «رع» فى أفق السماء، ليت الخلود والسرمدية وملايين السنين تكون لك فى صورة أعياد ثلاثينية وقد وهبك «آتوم» مدى عمره بوصفك ملكا. وقد تجمعت القوة والانتصارات فى ركابك. إن «رع» فى سفينته، وعيناه تريان ما فعلتهُ من الأشياء الممتازة، عندما يخترق السماء فى ريح رخاء كل يوم وهو فى بهجة عظيمة عندما يستذكر أعمالك الصالحات. وحبك فى صدره كل يوم.. ويستمر الخطاب... إن «رع» يذكر أفعالك الطيبة وسيكون لك بقاء طويل فى الحياة. **وإن «رع» قد منحك ملكا أبديا**، وإنك تأتى بوصفك «رع» منبع الحياة للناس. فالجنوب والشمال تحت قدميك، والآلهة ترجو أعياداً ثلاثينية لأجل «وسرماعت رع ستبن رع» **فى خلود سرمدى.**

تتويج رمسيس الثانى :

فى عام ١٢٩٠ ق.م. تولى رمسيس الثانى الحكم منفردا، وقد حدد البعض يوم ٢٧ من الشهر الثالث المسمى «شمو» (يونيو) تاريخا للتتويج الرسمى (كتاب رمسيس العظيم - ريتافرد، ص٢٩). وتم التتويج فى منف، عاصمة مصر السياسية والإدارية والتى تقع عند التقاء مصر العليا والسفلى، وتسلم من الآلهة العصا المعقوفة والسوط وهما رمزا الحكم ووضع التاج على رأسه (شكل ١٢٧) والكوبرا الملكية على جبهته تحميه وتدمر أعداءه وبذلك أصبح رمسيس الثانى هو «حورس» الجديد والإله المجسَّد حاكم البلاد، وفى شكل ١٢٨ يرى الإله حورس والإله تحوت يربطان نبات مصر العليا والسفلى علامة على تسليمه مقاليد الحكم فى مصر كلها. كما قامت الآلهة بكتابة اسمه على «شجرة الخلود» دلالة على منحة حياة خالدة (شكل ١٢٩) وفى شكل ١٣٠ يقدم رمسيس الثانى «ماعت» علامة الحق إلى «حوراختى» وفى المقابل يتلقى حياة أبدية وسلطانا دائما. وبعد ذلك أعلنت أسماء رمسيس الثانى الشرفية فى كل أنحاء البلاد:

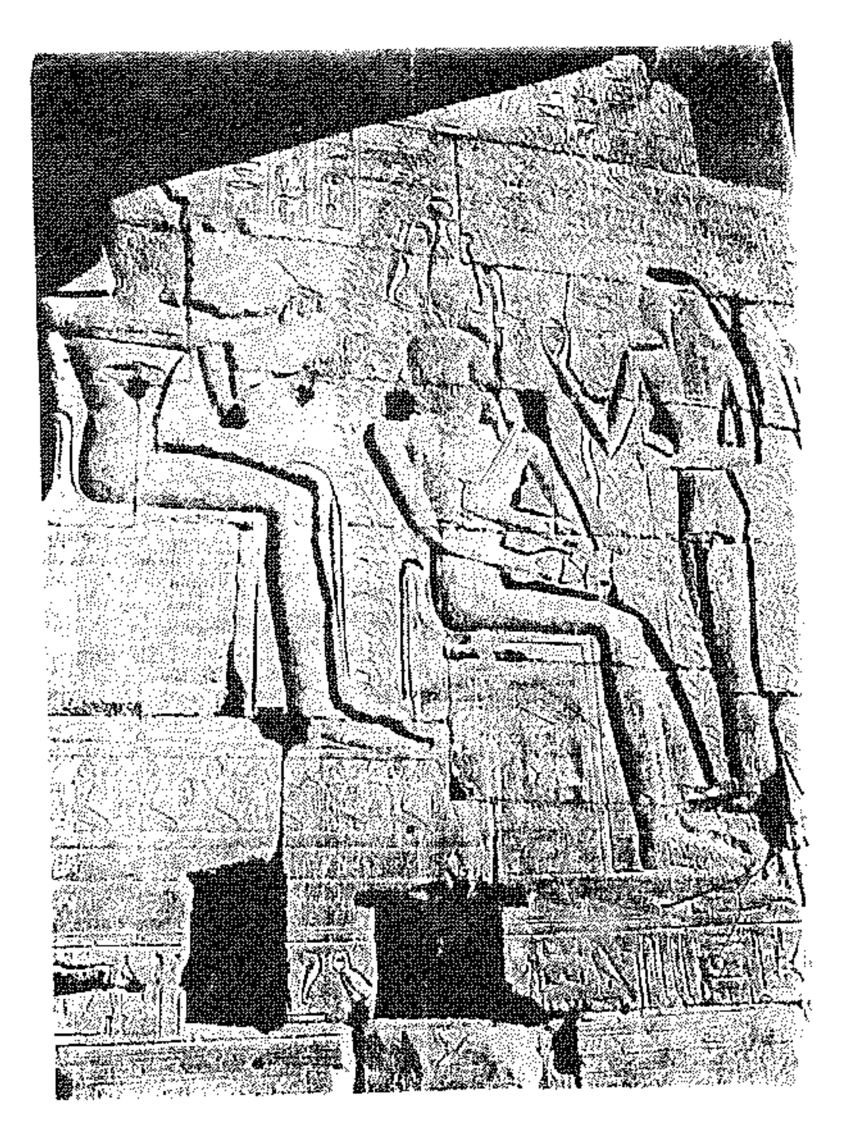


شكل ١٢٧ – الإلهان «حورس» و «ست» يتوجان رمسيس الثانى .

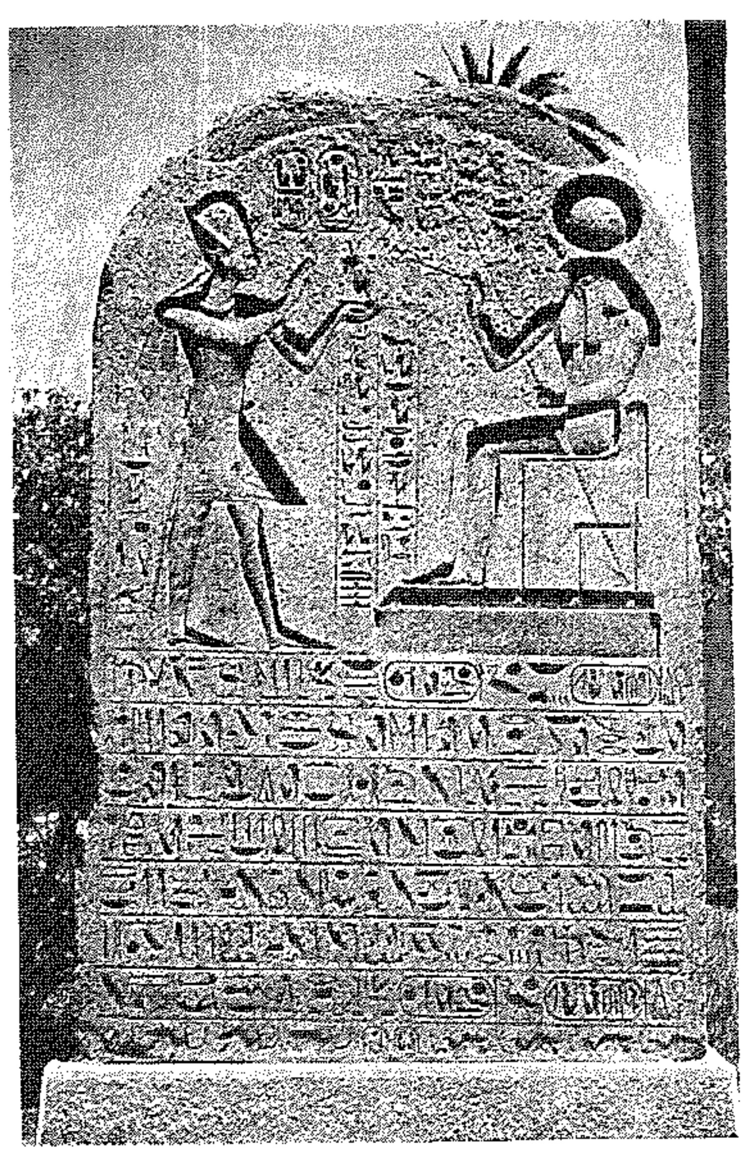


شكل ١٢٨ – الإله «حورس» والإله «تحتوت» يربطان نبات

مصر العليا والسفلى تحت صورة رمسيس الثانى .



شكل ١٢٩ – الآلهة تكتب اسم رمسيس الثانى
على شجرة الخلد بما يعنى حياة أبدية .



شكل ١٣٠ – رمسيس الثاني يقدم «ماعت»
إلى «حوراختي» وفي المقابل يتلقى حياة أبدية
وسلطانا دائما.

- حورس، الثور القوى . محبوب «ماعت» .
- سليل الآلهة . حامى مصر . قاهر البلاد الأجنبية .
- حورس الذهبى . ذو السنوات العديدة . عظيم الإنتصارات .
- ملك مصر العليا والسفلى . القوى فى الحق «أوسر . ماعت . رع».
- ابن «رع» رمسيس . محبوب «آمون».

وفى السنة الثانية من حكمه أضيف لفظ ستبن رع أى «المختار من رع» فصار اسمه الكامل «أوسر ماعت رع - ستبن رع». وبعد ذلك أضيفت ألقاب أخرى تمجيدية تفصح عن نزعته التعاظمية (رمسيس العظيم - ريتا فرد، ص ٣١).

ولما تميز به من طموح ونشاط ودهاء سياسى فقد بدأ منذ توليه العرش - وحتى قبل ذلك - فى أن يضع بصمته على كل مكان كما سنرى فيما بعد من إنشاءاته التى انتشرت فى كل مدن مصر والنوبة.

رمسيس الثانى كاهنا أكبر للإله آمون :

لم يكن قد مضى على توليه الحكم إلاَّ شهران حتى حل موعد الاحتفال بعيد «أوبت» وفيه يقام احتفال كبير إذ يقوم أتباع «آمون» بزيارة معبد الأقصر المجاور. وكانت مدينة الأقصر تعتبر من الوجهة الدينية المصرية القديمة هى المكان الذى بدأ منه خلق الكون. ويُعبِّر احتفال «أوبت» عن إحياء ذكرى لحظة الخلق هذه إذ أن الإله يجدد نفسه فى هذا اليوم وكذلك فإن روح الملك الجديد تجدد نفسها. وكانت الاحتفالات تقام لمدة ٣ أسابيع وفيها يقوم المغنون والراقصون والراقصات بتقديم عروض مبهجة وتزدحم الشوارع بباعة الطعام والشراب والهدايا التذكارية وعندما يعود «آمون» إلى الكرنك يترك الفرعون طيبة وغالبا مايكون الفرعون قد أضاف إلى المعبد بوابة ببرجين ضخمين Pylon وتمثالا أو تماثيل ضخمة لنفسه وعدة مسلات تخليدا لهذا الاحتفال.

كان الفرعون - بصفته حاكما للبلاد - يعتبر الكاهن الأكبر للإله «آمون» وباقى الآلهة. ولكن لم يكن ذلك يعدو أن يكون صفة شَرَفية بينما يتولى أحد الكهنة القيام بالشعائر التى تتطلبها وظيفة كاهن أول للإله «آمون» فى الاحتفال. إلا أن رمسيس الثانى قام فى هذا الاحتفال بدور الكاهن الأكبر بنفسه. وهو شيىء لم يفعله أحد من الفراعين من قبل. فقد حدث أن كان منصب الكاهن الأكبر للإله «آمون» خاليا. ولم يقم بتعيين أحد فى الكرسى الخالى. وأدى المراسم الدينية التى يتطلبها هذا الاحتفال ولبس رداء الكهنة والفراء الخاص فوق الملابس الملكية. وعمل على تسجيل ذلك فى نقش كتب فوقه: الكاهن الأول للإله «آمون» ملك الجنوب والشمال.

رعمسيس الثانى معطى الحياة» (سليم حسن مصر القديمة جـ٢ ص٤٧٧) وبعد أن أتم مراسم الاحتفال اختار الكاهن «نب وننف» ليشغل منصب الكاهن الأول للإله آمون بالرغم من أنه لم يكن من طائفة آمون فى طيبة. بل كان كبير كهنة مصر الوسطى. وأرجع رمسيس هذا الاختيار لرغبات الإله «آمون» نفسه. ثم عاد من طيبة فى قاربه الملكي وتوقف ليزف الخبر بنفسه إلى الكاهن «نب وننف» ثم تابع سيره فى النيل حتى وصل العاصمة بررعمسيس وسجل نب وننف – امتنانه فى متن يقول فيه موجها الكلام إلى الفرعون:

لقد امتدح رجال البلاط ومجلس الثلاثين معا تعطف جلالته وسجدوا مرات عدة أمام هذا الإله الطيب مصلين له ومتعبدين أمام وجهه. وقد مجّدوا أرواحه حتى عنان السماء قائلين: أنت يامن سيبقى حتى السرمدية. ليتك تحتفل بأعياد ثلاثينية بالملايين. وليت سنيك تكون عديدة مثل رمال شاطىء البحر. وإنك تولد كل صباح وتجدد لنا مثل الشمس. وتصير صبيا كالقمر. وإنك تحكم بوصفك ملكا على الأرضين. والأقواس التسعة تحت أوامرك ونهاية حدودك تمتد حتى حدود السماء ودائرتها تحت سلطانك. وما تحيط به الشمس تحت نظرك. وما يغمره المحيط خاضع لك. وإنك على الأرض فوق عرش «حور» حيث تظهر بوصفك رئيسا للأحياء. وإنك كقرص الشمس فى السماء ووجودك مثل وجوده.

وفى رأينا أن رمسيس الثانى. أراد بهذا التصرف – ومنذ الأيام الأولى من حكمه – إشعار كهنة آمون بطيبة أنه عازم على أن يكون له النفوذ الدينى الأول فى البلاد وسيمارس سلطاته إلى أقصى حدودها. فيكون الكاهن الأكبر لمن يشاء من الآلهة. ويعين كبار الكهنة كما يشاء حتى من خارج أقاليمهم. ولعل الكهنة – فى طول البلاد وعرضها – قد فهموا الرسالة وآثروا السلامة. وأصبحوا يمتثلون لرغباته وأوامره. ولم يعودوا يطمحون فى زيادة نفوذهم عن طريق أى مؤامرات بل أصبح كل همهم إرضاؤه ليُبقى عليهم فى مناصبهم.

زواج رمسيس الثانى :

كان رمسيس الثانى فى السادسة عشرة من عمره حين تزوج من **«نفرتارى مرنموت»** وكانت من أجمل جميلات مدينة طيبة (شكل ١٣١) يجرى فى عروقها الدم الملكى أو من أسرة لا تقل عراقة عن أسرة رمسيس الثانى. وظلت هى الزوجة الرئيسية حتى بعد أن تزوج بغيرها. وكانت تلقب بـ «الأميرة الوراثية» و «سيدة» مصر العليا والسفلى» و «سيدة الأرضين» أى على قدر المساواة بالملك الذى كان يطلق عليه لقب «سيد الأرضين».

وكانت زوجته تحمل وتلد ويعطى للمولود اسم ولكنه لا يلبث أن يموت. تكرر هذا عدة مرات. ففى التاسعة عشرة رزق بولد سمّاه «خمواست الأول. ولم يعش إلا أشهرا قليلة ثم توفى. ثم ولد له بعد عام «آمون خرخبشف الأول» لم يلبث إلا أن توفى أيضا. وتكرر هذا عدة مرات. كل



شكل ١٣١ - الملكة نفرتارى زوجة رمسيس الثانى.

(ملحوظة ليست هى التى تبنت موسى).

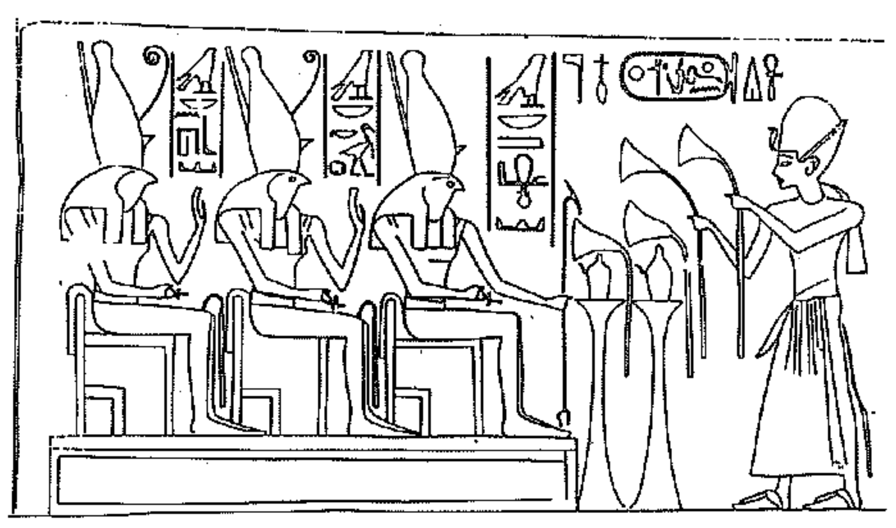
ذلك وهو لايزال وليا للعهد. ثم تولى الحكم رسميا وعمره ٢٣ عاما. وتكررت الولادات ووفاة المواليد. ويحدث ذلك طبيا إذا كانت الأم حاملة للفيروس Cytomegalo virus CMV . إذ يولد الأطفال وقد انتقل إليهم الفيروس من الأم ويتسبب فى وفاة الأطفال فى سن مبكرة. ومن المحتمل أنه فسرّ ذلك بأن «هواء طيبة» لا يلائم زوجته ولعل ذلك كان أحد أسباب تفكيره فى نقل العاصمة إلى الوجه البحرى. أو أنه تصور أن «لعنة شريرة» قد أصابته فى أولاده. وكأى أب فى مثل هذه الحالة فقد لجأ إلى الآلهة يستعطفها ويركع أمامها ويقدم القرابين ويرجوها أن يعيش أبناؤه. فنراه فى (شكل ١٣٢) يركع أمام الإله «تحوت» يقدم له البخور. ونقارن هذا «التواضع» بصورته أثناء تتويجه (شكل ١٢٧) بواسطة الإلهين «حورس» و«ست» وقد رسم نفسه بنفس حجم الآلهة. وعمد إلى أن يجعل الآلهة تقف على قطعة حجر حتى لا يضطر لأن يحنى رأسه أثناء وضع التاج عليه! وفى شكل (١٣٣) نراه يقدم الزهور للآلهة «حورس ميعام وحورس باكى وحورس بوهن» (الإله حورس منتسبا إلى ثلاثة أقاليم مختلفة). وفى شكل (١٣٤) نراه راكعا يقدم الخبز والطيور والنبيذ قرابين للإله «آمون» على هيئة رجل برأس صقر. وفى شكل (١٣٥) نراه يقدم تمثال «ماعت» إلى الإله «تحوت» رب الأشمونين. وهكذا لم يترك إلها فى الشمال أو الجنوب إلاّ وطلب منه أن يحفظ عليه أبناءه.

ثم بدأت زوجته نفرتارى تتردد على المعابد تترجى الآلهة هى الأخرى كى يعيش أبناؤها. فنراها فى شكل (١٣٦) تقدم الزهور والفواكه للآلهة «خنوم وساتت وعنقت»، وفى شكل (١٣٧) أمام الإله «تحوت». وفى شكل (١٣٨) نراها تقدم الزهور للإلهة «حتحور» على هيئة البقرة. وفى شكل (١٣٩) رُسمت وهى تقوم برقصة طقسية ويقدم أحد الكهنة حزمة من سنابل القمح للثور «كاحج» (أحد مظاهر الإله «مين») ثم تماثيل الملوك الأسلاف فى أسفل الصورة. والثور كاحج يمثل القوة والفتوة والشباب. وليس من تفسير لوضع هذه الرسوم فى لوحة واحدة إلا أنها تترجى الآلهة أن يكون أبناؤها فى مثل قوة وفتوة الثور كاحج ليعيشوا ويصبح لها من أبنائها ملوكا مثل ما كان للأسلاف.

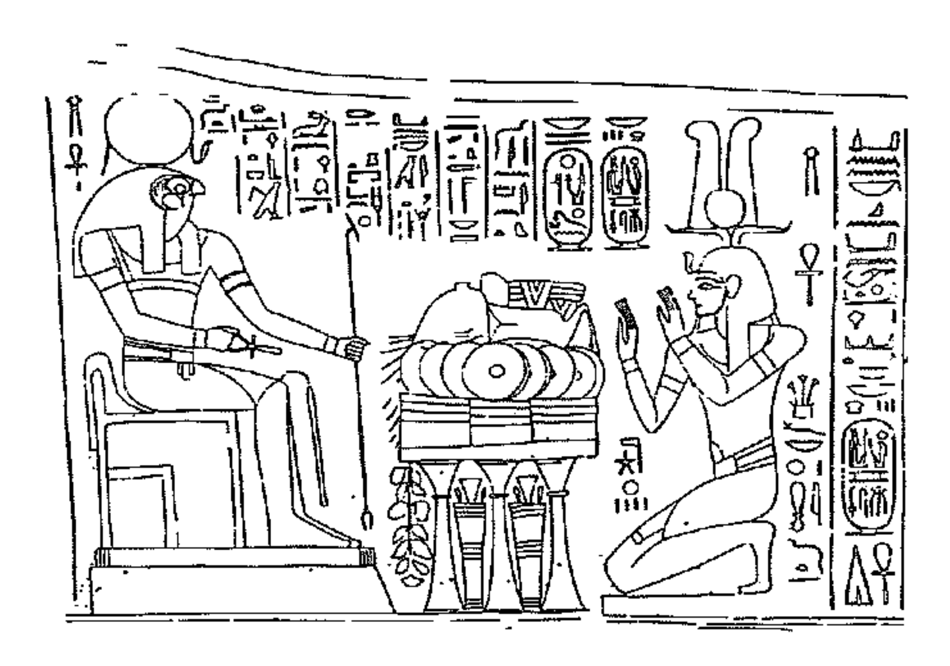
ونلاحظ فى كل هذه الصور أن رمسيس الثانى كان يتخير هو وزوجته الآلهة التى لها علاقة بالخصوبة والأمومة والشباب والقوة. وهى التى يمكن أن تحقق لهما مطلبهما. فالإله «مين». هو الإله الأكبر الذى كان يعبد فى منطقة أخميم وطيبة وأرمنت. وكان يمثَّل وعلى رأسه ريشتان عاليتان. رافعا ذراعه الأيمن وقابضا على السوط المثلث الفروع ويمثل واقفا منتصبا إذ كان يعتبر إله الإخصاب الذى يسرق النساء وسيد العذارى. كما أن الأساطير تروى أنه قد أخصب أمه!! وكان يعتبر أيضا إلها لخصوبة الأرض ويُعبد ليكون المحصول وافرا. كذلك كان اختيار نفرتارى للإلهة «**حاتحور**» لتتعبد لها. فهى سيدة الإلهات. وهى إلهة الحب وهى الإلهة الطروب المحببة عند النساء وكانوا يسمونها «الذهبية» ودعاها اليونانيون «إفروديت». وكانت النسوة



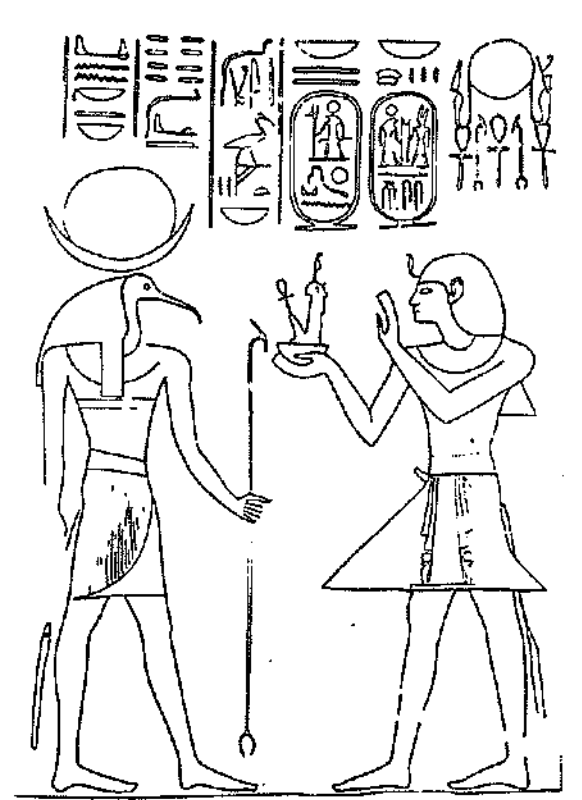
شكل ١٣٢ – رمسيس الثاني راكعا يقدم البخور للإله «تحوت».



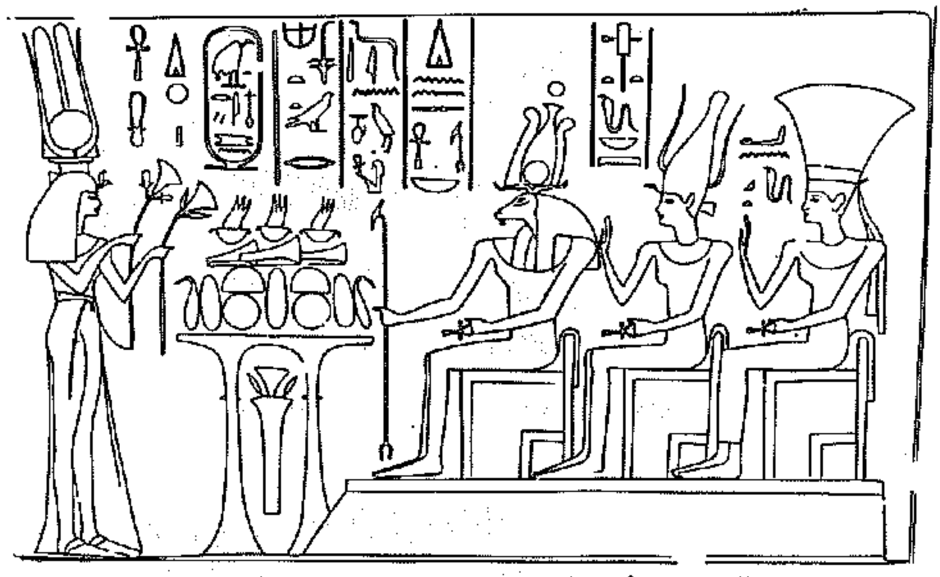
شكل ١٣٣ – رمسيس الثاني يقدم الزهور للآلهة «حورس ميعام وحورس باكى وحورس بوهن».



شكل ١٢٤ – رمسيس الثانى راكعا أمام الإله «آمون» ويقدم له القرابين.

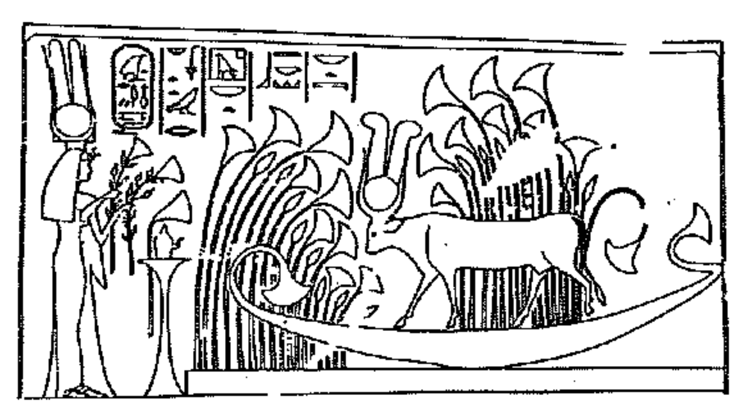


شكل ١٢٥ – رمسيس الثانى يقدم تمثال «ماعت» إلى الإله «تحوت» رب الأشمونين.

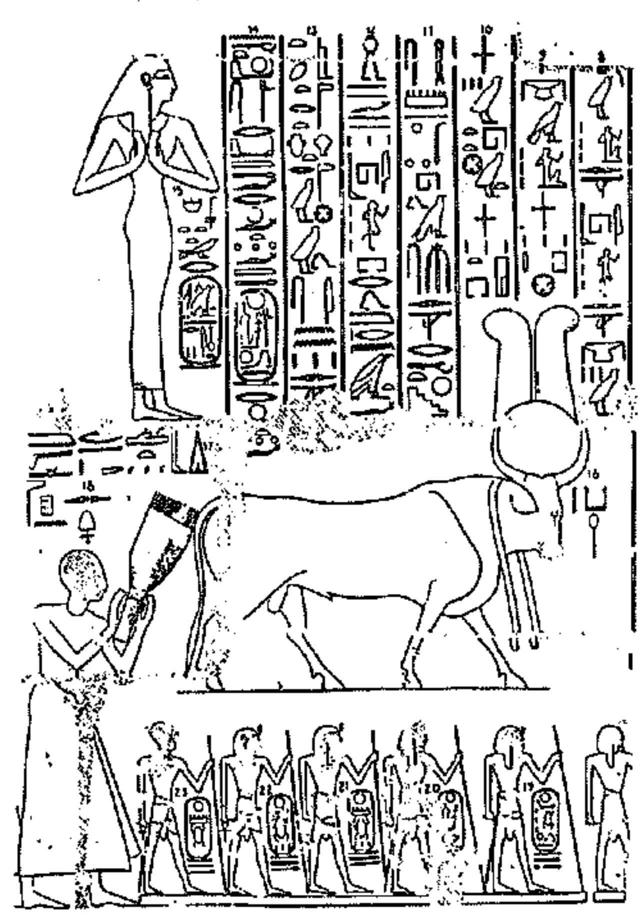


شكل ١٣٦ – الملكة نفرتارى أمام الآلهة «خنوم وساتت وعنقت» (معبد أبى سمبل الصغير بالنوبة).

شكل ١٣٧ – الملكة نفرتارى أمام الإله «تحوت».



شكل ١٣٨ – الملكة نفرتارى تقدم الزهور للإلهة «حتحور» (بهيئة بقرة).



شكل ١٣٩ – الملكة نفرتارى تقوم برقصة طقسية ويقدم أحد الكهنة حزمة من سنابل القمح للثور «كامحج» (أحد مظاهر الإله «مين» ثم تماثيل الملوك الأسلاف فى أسفل الصورة. (صورة من معبد الرمسيوم بالبر الغربى).

يحتفلن بها بإقامة حفلات الرقص والغناء واللعب بالصاجات والشخشخة بقلائدهن وبالعزف على الدفوف. وهى أم لإبن إلهى هو «إيجى». بل وهى أيضا رمز للأمومة وكثرة الأبناء. وقد أطلق الشعب على بناتها «الحاتحورات السبع» واللاتى كن يحمين الأطفال ويتنبأن بمستقبل كل مولود جديد.

كذلك كان تعبُّد رمسيس الثانى للإلهين «تحوت» و «آمون». ولعله باختياره هذين الإلهين كان يتمثل فى ذهنه قصة ولادة الملكة حتشبسوت والقصة تقول (أدولف إرمان. ديانة مصر القديمة ص ٦٤) إن الإله آمون أراد أن ينجب ملكا وطلب من الآلهة أجمعين حماية الملك المرتقب. وتخيَّر آمون المرأة التى يريد الإنجاب منها. وهى زوجة تحتمس الثالث فتقمص شكل زوجها الملك تحتمس. وقاده تحوت إلى الملكة فحبلت منه وأعلن «آمون» أن ابنته حتشبسوت ستشغل أعلى منصب فى البلاد وتستمد من روحه وقوته وسوف تحكم القطرين.

وقصة أخرى مكتوبة تقول بأن **«بتاح تاتن»** قد أكد لرمسيس الثانى « لقد تقمصت صورة تيس منديس. واضطجعت بجانب أمك الجميلة لكى تلدك وأصبحت أعضاؤك كلها إلهية». وهذه القصة مدونة فوق جدران معبد أبى سمبل الذى بناه رمسيس الثانى. و «التيس» هنا رمز الخصوبة. ولعل رمسيس الثانى كان يطلب من الآلهة أن يتقمص أحدها جسده. حتى ينجب من زوجته نفرتارى إبنا إلهيا لا يموت ويعيش حتى يصبح الوريث للعرش ويعتليه!

مقبرة نفرتارى :

ولعل رمسيس الثانى شعر بما تعانيه زوجته المحبوبة «نفرتارى» من آلام نفسية نتيجة وفاة أولادها المتكرر. الواحد وراء الآخر. فأراد أن يخفف عنها ويعوضها عن ذلك. فزاد من حنانه بها. وأراد أن يشعرها أن هذا الأمر لا دخل لها به ولم ينتقص من قدرها عنده فبنى لها ما يمكن اعتباره أجمل مقبرة بنيت لملكة من الملكات. فهى تمثل إبداعات الفنان المصرى القديم. فليس هناك مقبرة فى مصر كلها على درجة من التفوق الفنى تقارن بمقبرة الملكة نفرتارى. فالرسوم الرائعة تزين حوائطها. وقام الرسامون بالإبداع فى استخدام الظلال وإبراز الأضواء. ورسموا الملكة فى وقفة أنيقة بقوامها الرشيق. ترتدى رداء شفافا فضفاضا. من اللون الأبيض يكشف عن ساعديها. وقد ربطت الرداء بشريط معقود يتدلى طرفه أسفل صدرها. وتضع الملكة على رأسها تاجا من الذهب على هيئة طائر. وقد تزينت بالعديد من الحلى مثل الأقراط والأساور والعقود. ووضعت مساحيق الزينة على وجهها.

وقد تم الكشف عن مقبرتها عام ١٩٠٤ بواسطة الإيطالى «إسكيا باريللى» الذى حالفه الحظ بالعثور عليها بعد أن طمرت تحت الرمال بفعل الزمن. وكان لصوص المقابر قد سبقوه إليها وسرقوا كنوزها ولم يتركوا وراءهم سوى غطاء التابوت الذى يحمل اسم «نفرتارى» – وقلادة

الملكة وشبشبها وبعض التماثيل الصغيرة. وجزءا من جثمانها عبارة عن الساقين - ولعل الكهنة قد أهملوا فى عملية التحنيط فتحللت الجثة ولم يبق منها غير الساقين إذ ليس من المعقول سرقة أجزاء من الجثة. وقد شحن هذا كله فى باخرة إلى تورينو. حيث بُنى هناك ما يعتبر أول متحف للآثار المصرية فى العالم «متحف تورينو». وإذا عدنا إلى المقبرة ذاتها نجد أن سقف المقبرة يمثل القبة الزرقاء ومافيها من نجوم لامعة. وقبل الوصول إلى حجرة الدفن توجد قاعة فيها منضدة ليوضع عليها القربان. وعلى الجدران نقوش دينية من كتاب الموتى. ثم صورة الملكة راكعة تتعبد للشمس. كما يُشاهد الإله «تحوت» فى صورة الطائر مالك الحزين. وعلى جدران أخرى نشاهد صوراً للملكة أمام عدد من الآلهة: الإله «أوزير» إله الآخرة. و «حوراختى» إلهة الغرب. وتُرَى الإلهة «إيزيس» تأخذ بيدها وتقودها أمام الإله «خبر» إله الشمس. وصورت الملكة تتعبد للعجل المقدس وللبقرات السبع الإلهية.

وفى متحف بروكسل توجد قطعة من تمثال لهذه الملكة مكتوب عليها بعض ألقاب نادرة مثل: الأميرة الممدوحة كثيرا. سيدة الرشاقة. راحة الحب ماهرة اليدين فى الضرب بالصاجات. الحلوة الحديث والغناء. زوجة الملك العظيمة ومحبوبته «نفرتارى مرنموت» العائشة مثل الشمس أبديا (مصر القديمة - سليم حسن. جـ٦ ص٤٣٣).

ثانى الزوجات :

تزوج رمسيس الثانى - بعد حوالى ٨ سنوات من زواجه بنفرتارى وكان قد بلغ ٢٤ عاما تقريبا - تزوج من ثانى زوجاته وهى **«إست نفرت»** ولعله كان يرجو منها الولد. ولكن تكررت المأساة معها هى الأخرى. يولد الأبناء ويموتون فى سن مبكرة. وليس أدل على ذلك من أن مرنبتاح كان ترتيبه الـ ١٣ فى الأمراء وتوفى الـ ١٢ الذين كانوا قبله وأصبح هو ولىّ العهد.

وحدث بعد ٦ سنوات من زواجه الثانى - أى كان عمره حوالى ٣٠ عاما - وكان قد بنى عاصمته الجديدة بررعمسيس وكانت تقع غير بعيد من بعض مساكن لبنى إسرائيل. وكان قصر الفرعون يقع على بحيرة متصلة بفرع النيل. وتصادف أن كانت «إست نفرت» تلهو على شاطىء البحيرة فرأت تابوتا طافيا على صفحة الماء لم يلبث إلا أن توقف عند حزمة من نبات البردى على شاطىء البحيرة فأمرت جواريها بالتقاطه وفتحته فوجدت فيه طفلا جميلاً مال قلبها إليه بشدة فتعلقت به ورجت زوجها رمسيس الثانى إعفاءه من أمر الذبح الذى كان قد أصدره. **«لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا»**. وإكراما لخاطر زوجته ولشعوره بأنه قد حُرم الولد من زوجاته لم يمانع فى تبنى هذا الطفل - وإن كان على كره منه إذ كان يرجو الولد من صلبه - وكان الطفل الملتقط من الماء هو «موسى» كما سيجىء فيما بعد.

وتمر السنون حتى إذا بلغ موسى من العمر ٥ سنوات زالت «اللعنة» التى لازمت الفرعون

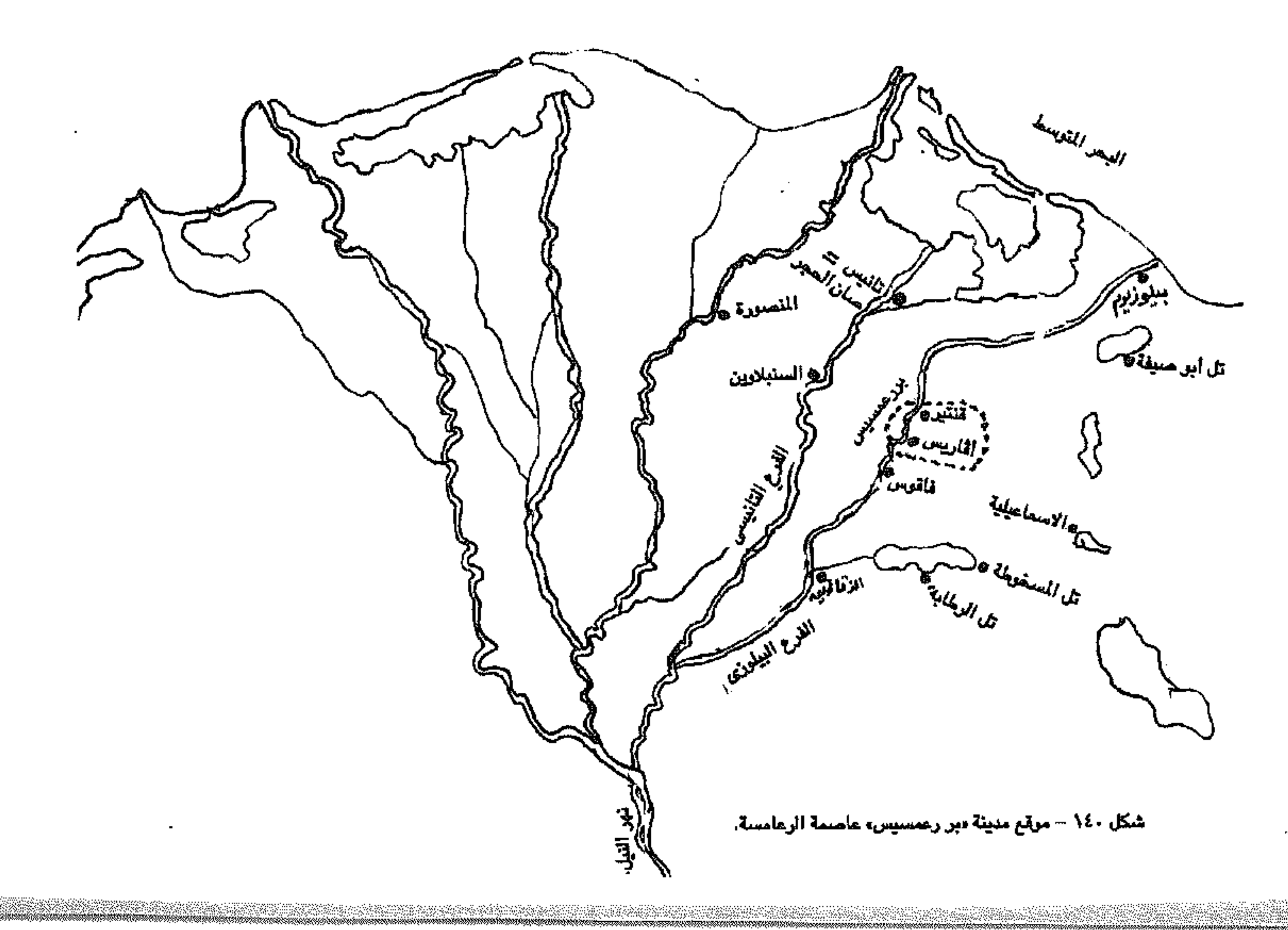
فى السنوات الأولى بعد زواجه. ويحدث ذلك طبيا إذا زادت الأجسام المضادة فى الجسم فيموت الفيروس الذى كان يسبب وفاة الأطفال الرضع. وبدأ أبناء رمسيس الثانى يعيشون. وبارك الله فى أرحام نسائه: زوجتيه - نفرتارى وإست نفرت - ومحظياته وسراريه فولدن له العشرات بنينا وبنات حتى بلغ عدد أبنائه على ماورد فى التسجيلات ١١١ ولدا و٧٦ بنتا!

لقد اتخذ البعض من هذا العدد الهائل لأبناء رمسيس الثانى سندا للقول بأنه ليس هو فرعون موسى. لأن فرعون موسى كان «عقيما» وقد اضطر إلى تبنى موسى عند التقاطه من النهر. وقد أوضحنا خطأ ما ذهبوا إليه إذ لم يكن رمسيس الثانى عقيما بل كان أبناؤه يموتون فور ولادتهم ثم - بعد أن تمت إرادة الله فى إعفاء موسى من الذبح وتبنِّيه. رُزق الكثير من الأبناء. ولعلها من سخرية القدر أن من قُدِّر أن يكون له هذا العدد الضخم من الأبناء يُضطر فى أوائل عمره أن يتبنى طفلا - وأى طفل؟ موسى! الذى حذرت النبوءة من أن هلاكه سيكون على يديه. وتتم مشيئة الله وينفُذ قدره **«ونُرِىَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون»** (٦ - القصص).

العاصمة الجديدة ، بررعمسسو :

فى أول حكمه كانت العاصمة فى «طيبة». ولكنه بعد سنوات قليلة بدأ فى إنشاء عاصمة جديدة سماها «بررعمسيس مرى آمون» أى «بيت رمسيس محبوب آمون».

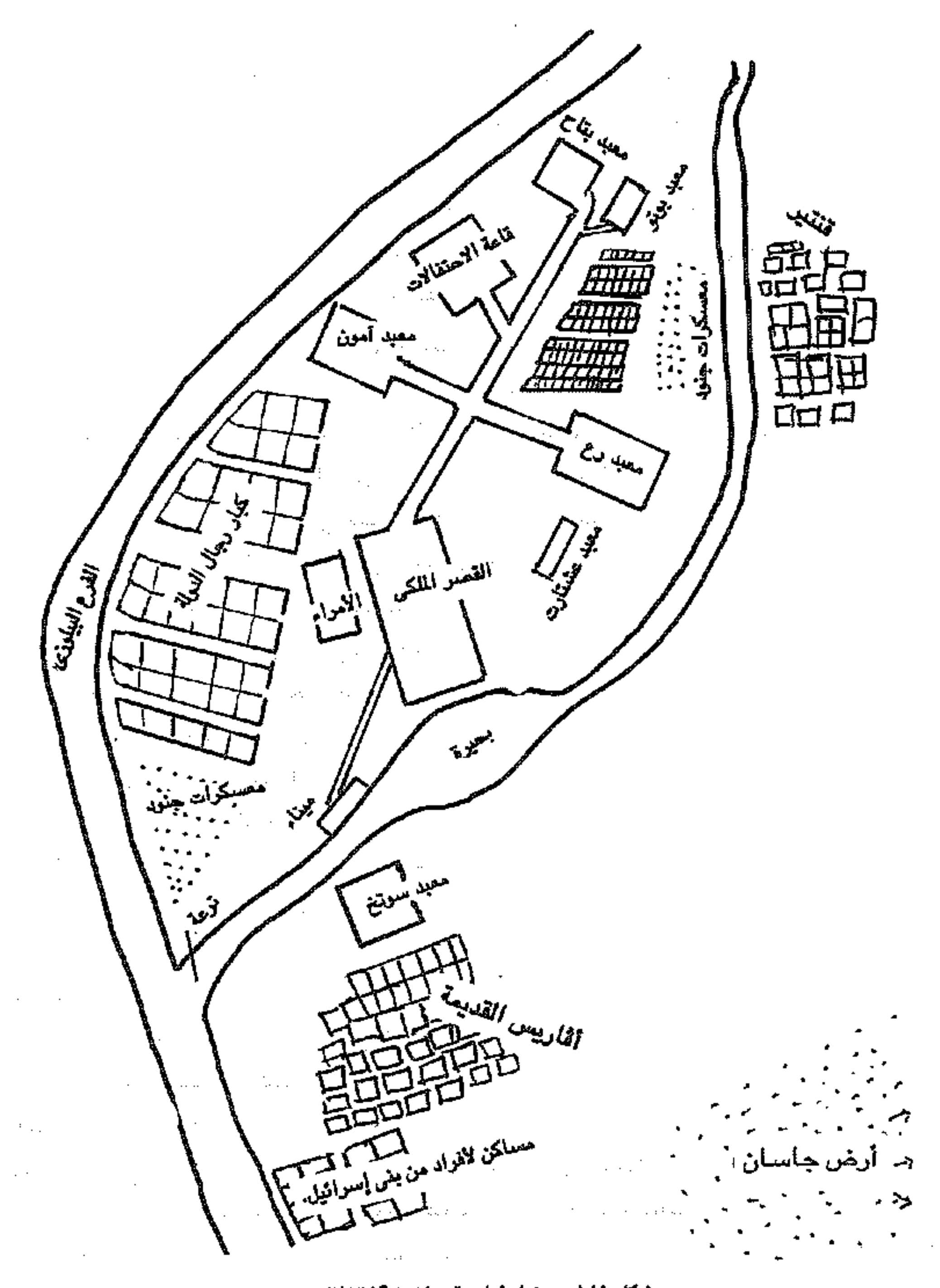
وقد اختلف علماء المصريات حول موقع المدينة رأى يقول إنها هى تانيس «صان الحجر» على الفرع التانيسى للنيل ٢٠ كيلو مترا جنوب بحيرة المنزلة. وقد وجد العالم «مونتييه» عددا من التماثيل واللوحات تحمل خراطيش رمسيس الثانى وخلفائه. ومنها وجود نقش على قطعة حجر من معبد تانيس الكبير جاء فيه «صاحب بررعمسيس. مرى آمون. صاحب الانتصارات العظيمة». ولكن استقرت آراء غالبية علماء الآثار على الرأى الثانى وهو أن بى أو بررعمسيس تشمل قنتير الحالية وأقاريس القديمة (شكل ١٤٠) على مبعدة ٩ كيلو مترات شمال شرق فاقوس على مصرف بحر فاقوس الحالى والذى كان مكانه الفرع البيلوزى للنيل وهو آخر الفروع من ناحية الشرق. وقد وجدت أدلة كثيرة تساند هذا الرأى (محمد بيومى مهران. مصر والشرق الأدنى القديم جـ٣ ص٢٨٦) مثل وجود بقايا كثيرة فى الحقول والمنازل عليها اسم رمسيس الثانى. كما توجد أجزاء لقصر جميل عليها اسمه أيضا. كما يوجد بقايا معبد للآلهة آمون وبتاح وسوتخ. كما توجد آثار تحمل بعض أسماء كبار موظفى رمسيس الثانى مما يدل على أن الإدارة الحكومية كانت هناك. كما أن المدينتين «بررعمسيس» و«تانيس» قد ذكرتا فى بعض البرديات منفصلتين مما يدل على أن المصرى القديم نفسه قد فرَّق بينهما. أما ما وجد من آثار فى تانيس فقد سبق أن قلنا إن رمسيس الثانى لاتخلو مدينة من آثار له.



شكل ١٤٠ — موقع مدينة «بر رعمسيس» عاصمة الرعامسة.

وفي وصف هذه العاصمة الجديدة وجد خطاب كتبه أحد الأشخاص يقول فيه: إنني وصلت «بررعمسيس»، وقد ألفيتها غاية فى الإزدهار. حقا إن موقعها جميل منقطع النظير. وقد أقامها «رع» نفسه، ومقر الملك. تحب الإقامة فيه. فحقوله مملوءة بكل شيىء طريف، ومجهز بالأغذية الوفيرة يوميا. ومياهه الخلفية تزخر بالسمك. وبركه مزدحمة بالطيور ومراعيه نضرة أعشابها. وطعم فاكهته المغروسة فى حقوله كالشهد بعينه. ومخازن غلاله مكدسة بالقمح والشعير وتناهض عنان السماء فى ارتفاعها. والبصل والكرات فى الحقول. وفيها الرمان والتفاح والزيتون والتين فى البستان.. ويستمر فى الوصف ثم يقول حقا إن الإنسان ليبتهج بالسكنى فيها.

ويوجد وصف ثان على بردية أخرى: لقد شيد جلالته لنفسه قلعة اسمها «عظيمة الانتصارات» بررعمسيس وتقع بين زاهى (صحراء شرق الدلتا) وأرض الدميرة (مصر) وهى تزخر بالطعام والمؤن. والشمس تشرق فى الأفق منها ثم تغرب ثانية فيها. وقد هجر كل إنسان بلدته وسكن فى أرجائها. وحيها الغربى هو «بيت آمون» وحيها الجنوبى هو «بيت سوتخ» والإله «رع» فى شرقها والإلهة «بوتو» فى حيها الشمالى. أى أن المدينة كان بها أربعة أحياء وفى كل حى معبد لكل من الآلهة الأربعة السابق ذكرها (شكل ١٤١). وفى منتصف المدينة يوجد قصر الملك وبجواره بحيرة تتصل بقناة تأخذ مياهها من الفرع البيلوزى للنيل وكانت البحيرة خاصة بعائلة الفرعون. وكان القصر الملكى يرتفع فوق ما حوله من أرض. وله أعمدة حجرية وحوائطه مبنية بالطوب اللبن ولكنها مغطاة ببلاط من خزف عليه زخارف ورسومات. وكانت الرسومات فى قاعة العرش تصور الأسرى من الأعداء والوفود الأجنبية وهى تقدم الجزية وأسود تأكل المساجين كل ذلك مما يبعث الرهبة فى نفوس الزائرين. أما الجزء المخصص للحريم فكانت زخارفه مناظر مبهجة مثل الأزهار والأسماك الملونة وعذارى مسترخيات كل ذلك بألوان جميلة مثل التركواز واللازورد والقرمزى. وحول القصر وإلى الشمال الغربى يوجد حى لعظماء القوم من الأفراد والكهنة والوزراء. وكان بالمدينة حديقة حيوان وقد وجدت عظام أسود وغزلان وزراف وفيلة. ثم خارج ذلك كله توجد ساحات لمران الجند وثكنات لإقامتهم ومبانى الإداريين ومبانى للمخطوطات والسجلات ومساحات للأسواق وميناء ومخازن للقمح ومستودعات للأغذية والنبيذ. كل ذلك يعكس النشاط والأزدهار التى كانت عليه المدينة وقد بقيت فترة الأزدهار مدة طويلة بعد رمسيس الثانى ولكن بعد ذلك بدأ فرع النيل البيلوزى يغيِّر مجراه فى اتجاه الشمال ويبَعُد عن المدينة ففقدت بررعمسيس رونقها وأهميتها. واتخذ ملوك الأسرة ٢١ من تانيس عاصمة لهم وبدلاً من قطع أحجار جديدة من المحاجر البعيدة نسبيا فإنهم أخذوا أحجارا لمبانيهم من المبانى التى كانت مقامة فى بررعمسيس واستعملوها فى بناء معابد عاصمتهم الجديدة ولعل ذلك هو سبب الخلط بين المدينتين وأيهما بررعمسيس التى كانت عاصمة رمسيس الثانى. إذ أن الأحجار التى أخذت لبناء تانيس كان على كثير منها اسم رمسيس الثانى. بل إن فراعين



شكل ١٤١ – تخطيط لمدينة   بر رعمسيس .

(نقلا عن كتاب فرعون المنتصر . تأليف كتشن . مع بعض التعديلات) .

الأسرة ٢١ نقلوا عددا كبيرا من المسلات التى كان رمسيس الثانى قد أقامها فى بررعمسيس وكانت تبلغ ٢٤ مسلة أو تزيد وكذلك نقلوا عددا كبيرا من تماثيله. وتكسر بعضها أثناء نقله فتُرك مكانه. ولذلك فإن مابقى من آثار فى قنتير هو عبارة عن حطام معابد ومسلات وقصور ولكنه يشير إلى العز الذى رأته هذه المدينة فى عهد رمسيس الثانى.

وإلى الجنوب الشرقى من المدينة كانت تقع أفاريس القديمة وهى تقع على حافة أرض جوشن (جاسان) التى كان يقطنها بنو إسرائيل. وكان فى أفاريس بعض بيوت للعمال من بنى إسرائيل الذين كانوا يعملون فى المبانى والإنشاءات فى بر رعمسيس.

وأفاريس القديمة هى المعروفة فى التوراة باسم صوعن Zoan والمذكور (عدد ١٣:٢٢) أن مدينة حبرون بنيت قبلها بسبع سنين. وكانت من مراكز عبادة الإله ست (سوتخ). وقد أقام سيتى الأول فيها معبدا للإله ست وسَّعه فيما بعد رمسيس الثانى ولما بنيت بررعمسيس لتشمل المنطقة من شمال قنتير إلى أفاريس أصبح معبد سوتخ فى جنوب القصر الملكى.

وفى أسباب اختياره لهذا المكان للعاصمة الجديدة قالوا إنها تقع فى موطن أسرته الأصلى. وفى موضع قريب من بقية أملاك الإمبراطورية فى آسيا. ومنها البعد عن نفوذ كهنة آمون فى طيبة بعد أن زاد سلطانهم. وأخذوا يتدخلون فى شئون الدولة السياسية والاقتصادية. وقد أصاب ذلك طيبة بهزة عنيفة فى مركزها السياسى وإن ظلت تحتفظ بمكانتها الدينية.

ولما كانت العاصمة الجديدة قريبة من أرض جوشن – مكان إقامة بنى إسرائيل فقد كان من الطبيعى أن يستخدمهم فى بناء المدينة. وهذا ما أشارت إليه التوراة (إصحاح أول خروج :١١) إذ تقول: فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم ورعمسيس. وجاء فى تفسير الكتاب المقدس (ص ٤٠٦) عن بررعمسيس: هى مدينة فى أخصب منطقة فى البلاد. وهذه المنطقة اسمها أرض جاسان سكنها بنو إسرائيل بأمر من فرعون (أيام يوسف عليه السلام) وبنى رمسيس الثانى هذه المدينة فى حدود مصر الشرقية وسماها باسمه.

الفصل الثالث

آثار رمسيس الثانى

كان رمسيس الثانى أعظم الملوك إقامة للمبانى من حيث الضخامة والروعة فى طول البلاد وعرضها (مصر القديمة . سليم حسن جـ٦ ص٣٢٣) ولن نكون مبالغين ولا مسرفين فى القول إذا قررنا أنه لايكاد يوجد مبنى أثرى فى البلاد من الشلال الثانى جنوبا حتى مصب النيل إلا عليه اسم «رمسيس الثانى». يضاف إلى ذلك المبانى التى خلفها فى فلسطين وغيرها من البلاد التى فتحها فى آسيا مما يستحيل معه وصف هذه الآثار كلها بالتفصيل. كما أن رمسيس الثانى قد جار على أسلافه كثيراً باغتصاب كثير من آثارهم ونسبتها لنفسه. ولكن حتى لو استبعدنا هذه الآثار التى اغتصبها لوجدناه بالرغم من ذلك أعظم الفراعنة المشيّدين للآثار. وقد سبق أن ذكرنا أن والده أشركه فى شئون البلاد وهو لايزال فى سن العاشرة وأسند إليه إقامة المنشئات والمبانى. ولما كانت العاصمة فى عهد والده سيتى الأول هى طيبة فى الجنوب لذلك كان الوجه القبلى والنوبة هما أول ما بدأ به فى إنشاءاته. ثم لما آل إليه الأمر بعد وفاة والده ونقل العاصمة إلى المدينة الجديدة التى بناها «بررعمسيس» نال الوجه البحرى قسطا كبيرا من اهتمامه وانتشرت منشآته فى الدلتا كذلك. وسنوجز هنا وصفا لهذه الآثار التى شملت مصر والنوبة. وإذا كان البعض قد يرى فى هذا السرد بعض الإطالة. فما ذلك إلا لبيان كم كان هذا الفرعون محبا لذاته فخورا بنفسه. راغباً فى تخليد ذكراه. إلا أن كل هذه الآثار لم يبق منها أثر إلا وقد ناله الدمار. ليس فقط بسبب تقادم الأزمنة بل إن معبده الجنازى « الرمسيوم » قد لحقه دمار فور الانتهاء من بنائه . وحتى التماثيل قد دُمِّرت ولم يبق منها إلا بعض قطع من الحجارة عليها اسمه ونسبة قليلة من التماثيل هى التى بقيت فى حالة جيدة . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا فى قوله تعالى : « **ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** » (١٣٧ – الأعراف).

كذلك لزم وصف الآثار لنشرح معنى صفة فرعون التى وردت فى القرآن الكريم **«فرعون ذو الأوتاد»** إذ قال البعض إن الأوتاد هى الأعمدة. فلزم أن نضع صورا لتخطيط المعابد التى أقامها رمسيس الثانى ومابها من أعمدة لنرى هل ينطبق عليه هذا الوصف أم لا وإن كان لنا رأى آخر فى معنى الأوتاد سنشرحه فى حينه (ص ٧٨١) . وأخيراً فإن هذه الآثار جزء من تاريخنا ومعلومات عامة يحسن للمرء الإلمام بها وخاصة أنه يكثر الكلام فى هذه الأيام عن السياحة.

أما الذين لا تستهويهم قراءة هذا الموجز المصور للآثار (الصور تشغل ٣٦ صفحة أى الثلثين تقريبا) فيمكنهم الانتقال مباشرة إلى الفصل الرابع صفحة ٧٧٠.

وفيما يلى سرد لآثار هذا الفرعون العظيم «رمسيس الثانى» مبتدئين بغرب الدلتا ثم وسطها وشرقها وبعد ذلك القاهرة ثم الوجه القبلى والنوبة بأرقام مسلسلة واضعين نفس الرقم على الخرائط المرفقة ليسهل الاستدلال على المكان.

أ - آثار الوجه البحرى :

١ - **الإسكندرية** : - تمثال لرمسيس الثانى من الجرانيت على الميناء الشرقى .

- تمثال من الجرانيت الأسود (شكل ١٤٢).
- تمثال من الجرانيت الأحمر بدون رأس.
- كتب اسمه على مسلتى تحتمس الرابع المعروفتين باسم مسلتى كليوباترا.

٢ - **أبو قير** : تمثال ضخم من الجرانيت الأحمر .

- تمثال له على هيئة «أبى الهول».
- تمثال له أهداه للإله «آمون».

٣ - **دمنهور** : وهى المدينة المصرية القديمة «دمى آن حور» أى مدينة حورس وحرّف الاسم إلى دمنهور وبجوارها البلدة الرومانية هرموبوليس پارڤا. وفى بلدة البرنوجى المجاورة وجدت قطع حجارة عليها اسم رمسيس الثانى.

٤ - **كوم الأبقعين** مركز أبو المطامير محافظة البحيرة: وجدت قطعة حجر عليها اسمه كانت جزءا من باب.

٥ - **كوم فرين** قريبة من الدلنجات محافظة البحيرة: وجدت قاعدتى عمودين عليهما اسمه.

٦ - **كوم الحصن** : قرب كوم حمادة. يوجد تل قطره ٥٠٠ متر تقريبا يغطى المدينة القديمة «إيمو» عاصمة المقاطعة الثالثة من مقاطعات الوجه البحرى. وأهم المعالم التى كُشف عنها هناك هو حائط معبد ٦٤×١١٥ مترا. وقد وجد لرمسيس الثانى تمثالان من الجرانيت الأحمر مدون عليها اسمه وأن المعبد خاص بالإلهة «سخمت - حاتحور».

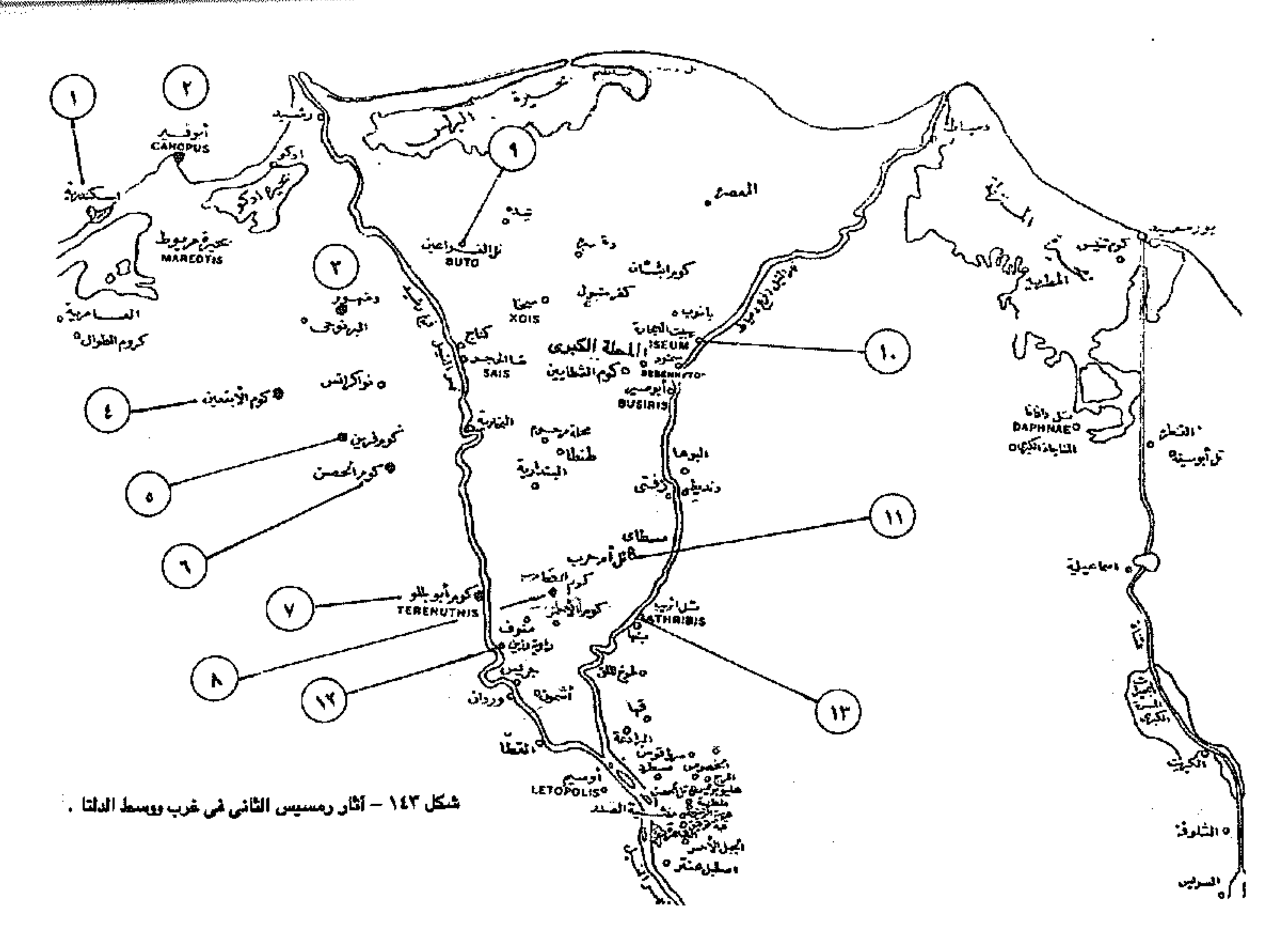
٧ - **كوم أبويللو**: كانت تقع على الطريق الموصل من وادى النطرون إلى فرع رشيد وهى قرب قرية الخطاطبة الحالية. وكان معبد أبويللو مخصصا للإلهة حاتحور. وقد حدد مكانه الباحث جريفث عام ١٨٨٨م. وقد وجدت قطعة حجر عليها اسم رمسيس الثانى.

٨ - **كوم العقارب**: وجد بها تمثالان لرمسيس الثانى.

٩ - **تل الفراعين** :: شرق دسوق. وهى مدينة «بوتو» التى كانت عاصمة المقاطعة السادسة لمصر السفلى. وكانت مركز عبادة الإلهة الكوبرا «وادچت» الإلهة الحامية للدلتا . ويوجد بالمنطقة بقايا المدينة القديمة وبقايا معبد. وجد به جزء من تمثال من الجرانيت لرمسيس الثانى.



شكل ١٤٢ – تمثال من الجرانيت الأسود لرمسيس الثاني.



شكل ١٤٣ – آثار رمسيس الثاني في غرب ووسط الدلتا .

١٠ - **بهبيت الحجارة** : شمال سمنود على فرع دمياط وشمال المحلة الكبرى، وكان بها واحد من أهم المعابد المخصصة للإلهة «إيزيس». وقد وجدت فى بقاياه قطع حجارة عليها اسم رمسيس الثانى.

١١ - **تل أم حرب** : تل مسطاى مركز زفتى: وجدت قطع حجارة عليها اسم رمسيس الثانى.

١٢- **زاوية رزين** : جنوب غرب منوف. وجدت قطعة حجر من واجهة مبنى عليها اسمه.

١٣ - **تل أتريب** : تقع شمال **بنها** على الضفة اليمنى لفرع دمياط. وقد وجدت لرمسيس الثانى عدة آثار فى هذه المنطقة منها تمثالان مع إلهين وقطع من الجرانيت الأحمر عليها اسمه موجودة الآن بالمتحف البريطانى.

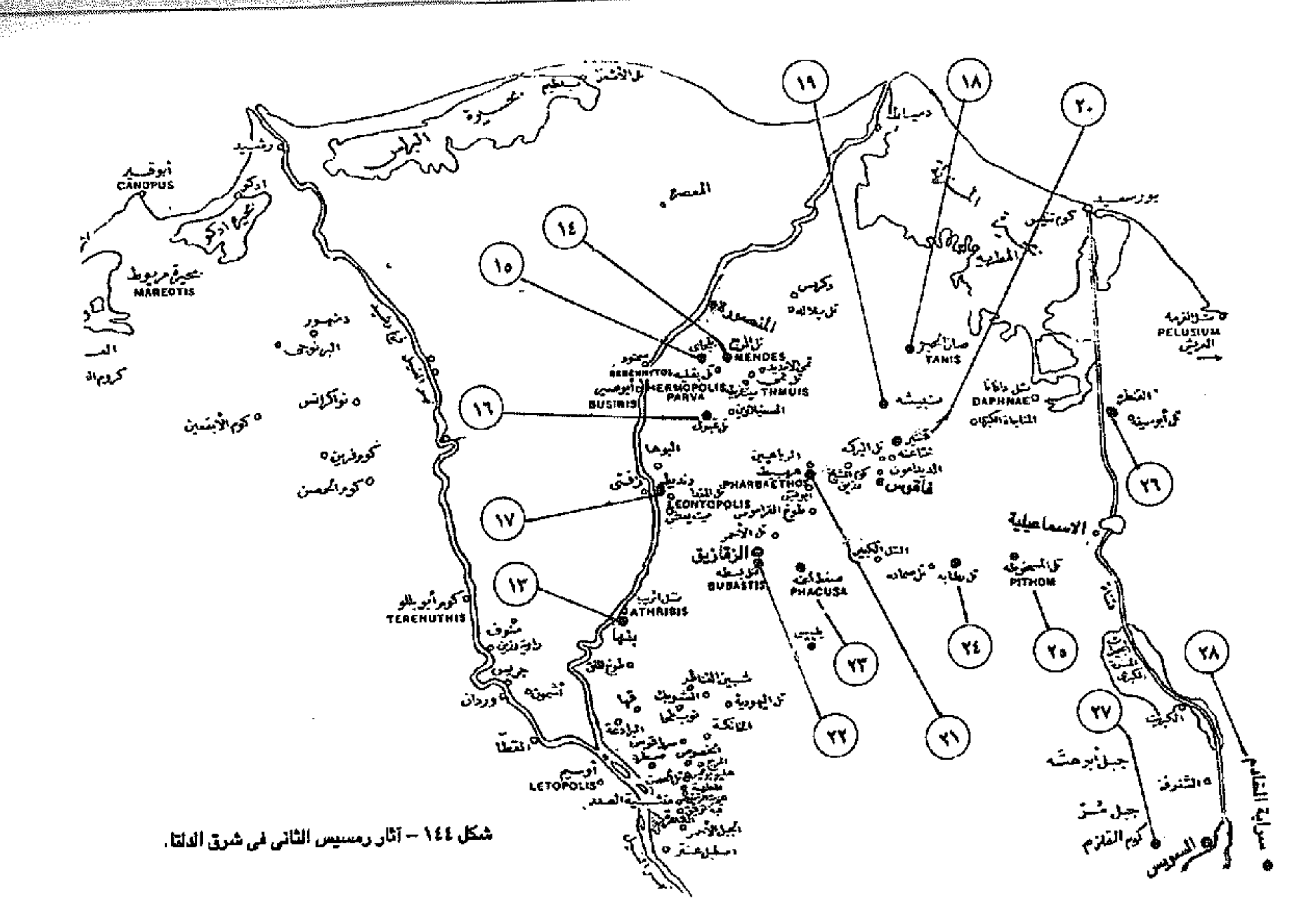
١٤ - **منديس أو تل الربع**: وكانت عاصمة المقاطعة ١٦ من مقاطعات الوجه البحرى. وكانت مركز عبادة الإله الكبش «دجدت» (منديس باليونانية) وقد وجد بها جبانة للكباش. وقد وجد بها بقايا معبد يرجع عهده إلى الرعامسة وعلى قطع حجارة من أساس المعبد وجد عليها اسم رمسيس الثانى.

١٥ - **بلجاى** ، غرب منديس: وجدت لوحة عليها اسمه وأعماله موجودة بالمتحف المصرى.

١٦ - **تل تمبول** : غرب السنبلاوين (تل طنبول): وجدت قطع حجارة عليها اسمه.

١٧ - **دنديت = دنديط** ، مركز ميت غمر : وجدت قطع من تماثيل ضخمة من الجرانيت عليها اسمه.

١٨ - **صان الحجر** = تانيس: كانت تانيس هى العاصمة فى عصر الهكسوس (شكل ١٤٠ ص ٧٠٩) وكانت محل عبادة الإله «ست». وقد اتخذها ملوك الأسرة ٢١ عاصمة لهم بعد أن فقدت بررعمسيس ازدهارها عندما غير الفرع البيلوزى - بفعل النحر - مجراه بعيدا عنها. وبدلاً من قطع حجارة جديدة من المحاجر البعيدة نسبيا فإنهم استسهلوا الأمر وأخذوا أحجارا لمبانيهم من المبانى التى كانت مقامة فى بررعمسيس واستعملوها فى بناء عاصمتهم الجديدة وقد سبق أن ذكرنا ذلك (ص ٧١١). وأهم ما يميز صان الحجر (تانيس) هو معبد آمون (شكل ١٤٥) وكان يحيط بالمعبد سور مبنى بالطوب سمكه على غير العادة ١٥ مترا وارتفاعه حوالى ١٠ أمتار أو أكثر وإن كان ارتفاع البقايا الموجودة حاليا هو ٧,٥ مترا ويقدر عدد قوالب الطوب اللبن التى استخدمت فى بنائه حوالى ٢٠ مليون طوبة (چيمس بيكى الآثار المصرية - جـ١ ص٧٨). وقد جدد رمسيس الثانى المعبد الذى كان مقاما من قبل. ولكن أهم أثر لرمسيس الثانى فى تانيس هو التمثال الضخم الذى أقامه لنفسه فى ساحة المعبد إذ يبلغ ارتفاعه ٩٢ قدما (٣٠ مترا) فهو يعد أعظم تمثال وكان يمكن رؤيته من مسافة عدة أميال. وقد تهدم ولم



شكل ١٤٤ – آثار رمسيس الثاني في شرق الدلتا.

يبق إلا أصابع القدم وبعض أجزاء أخرى (شكل ١٤٦). وكذلك أقام لنفسه ٤ تماثيل ضخمة من الكوارتسيت وثماني لوحات من الجرانيت يبلغ ارتفاع الواحدة حوالى ٣,٢ مترا. ولم يكتف بهذا بل إنه اغتصب كثيرا من الآثار التي أقامها الهكسوس ونسبها لنفسه. مثال ذلك تمثالان مائلان من الجرانيت (موجودان بالمتحف المصرى برقم ٦١٣، ٦١٧) لأحد ملوك الأسرة ١٣ وقد نُقش عليها خراطيش «أبوبى» أحد ملوك الهكسوس ثم اسم رمسيس الثانى.

وقد أثار تمثال رمسيس الثانى الضخم الذى وجد هناك اهتماماً عالميا. إذ يبلغ ارتفاعه من الرأس إلى القدم ٣٠ مترا فهو يعتبر أطول تمثال. ويبلغ وزنه ٩٠٠ طن - ولا يفوقه فى الوزن إلا التمثال الجالس لرمسيس الثانى بمعبد الرمسيوم بطيبة والذى يقدر وزنه بحوالى ١٠٠٠ طن.

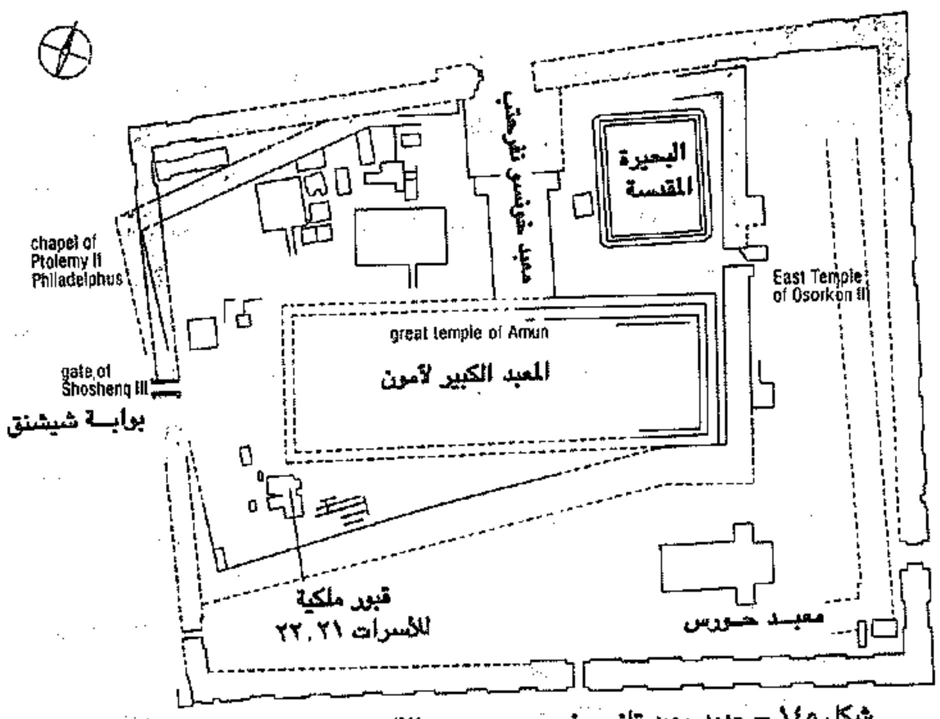
وبالنسبة للتمثال الذى وجد فى تانيس فإن حجم الإصبع الكبير للقدم يبلغ حجم رأس الإنسان ويقول علماء الآثار إن ذلك ولاشك يثير الإعجاب بالعبقرية الهندسية التى قدّت كتلة ضخمة مثل هذه من محاجر أسوان وعامت بها فى النيل وفروعه حوالى الألف كيلو متر إلى تانيس وأقامتها مكانها بنجاح. ويقولون أيضا إن إقامة مثل هذا التمثال الضخم فى معبد للآلهة يدل على غرور بالغ.

ولقد دعت كثرة الآثار التى وجد عليها اسم رمسيس الثانى فى تانيس إلى اعتقاد بعض علماء الآثار (مثل مونتيه) أن تانيس هى نفسها بررعمسيس العاصمة الجديدة التى بناها رمسيس الثانى. ولكن ذلك غير صحيح إذ المؤكد أن بررعمسيس هى قنتير الحالية. كما أن المعبد كان صغيرا فى عهد رمسيس الثانى وأضيفت إليه إضافات فى عهود متأخرة.

وأول من بدأ الحفر فى هذه المنطقة هو ماربيت. ثم تبعه پترى عام ١٨٨٣م ومن أهم ماكشف عنه فى هذه المنطقة هو «**لوح الأربعمائة عام**» وهو لوح لرمسيس الثانى. وهو معروض بالمتحف المصرى وتنحصر أهميته فى أنه الأثر الفرعونى الوحيد الذى ذكر تقويما معينا (چيمس بيكى. آثار مصر. جـ١ ص٧٧).

١٩ - **نبيشة (تل فرعون)** : وكانت عاصمة إقليم إدارى فى شرق الدلتا قسِّم فيما بعد إلى مقاطعتين: المقاطعة ١٨ وعاصمتها بوبسطة والمقاطعة ١٩ وعاصمتها تانيس. وقد وجد بها سور مبنى بالطوب يحيط بالحرم المقدس للإلهة وداچت مساحته ٢١٥×٢٠٥ مترا. وقد بنى فيه رمسيس الثانى معبدا أبعاده ٦٥×٣٠ مترا. وقد وجد له فيه تمثال ارتفاعه ٢,٠٢ مترا (شكل ١٤٧) موجود حاليا بمتحف الفنون بمدينة بوسطن الأمريكية.

٢٠ - **قنتير وأفاريس وبررعميسس** : وقد سبق الكلام عن الأخيرة فى ص ٧٠٩. وإلى الشمال من فاقوس ٦ كم نجد قرية الختاعنة - وهى مكان أفاريس القديمة - وإلى الشمال أيضا ٣كم أخرى - أى ٩كم من فاقوس توجد قنتير. وإلى الشرق من الختاعنه توجد قرية تل



شكل ١٤٥ – حدود معبد تانيس فى عهد رمسيس الثانى والإضافات التى أدخلت عليه فى عصور متأخرة .



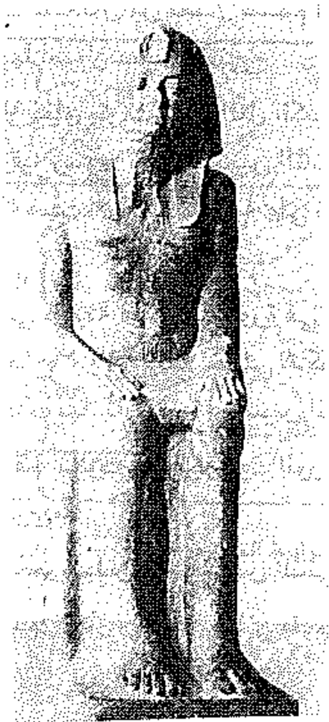
شكل ١٤٦ – أصابع قدم التمثال الضخم الذى أقامه رمسيس الثانى فى ساحة معبد تانيس والرجل الجالس بجوارها يبين مدى ضخامة التمثال .

الضبعة وبالمنطقة كما سبق أن ذكرنا معبد سوتخ (شكل ١٤١ ص٧١١) وهو معبد كبير كما تدل بقاياه إذ كانت أبعاده ١٨٠×١٤٠ مترا ولعل بناءه بدأ فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ولكن رمسيس الثانى زاد عليه. وقد أقام رمسيس الثانى عاصمته الجديدة بررعمسيس بحيث شملت المنطقة المحيطة بقنتير. وأقام بالمدينة عددا كبيرا من المسلات قدرت بـ ٢٤ مسلة ولكن كل ذلك تحطم ولاتزال قطعها متناثرة فى المنطقة (انظر شكل ١٩١، ١٩٢ص ٧٧١). وقد عثر فى عام ١٩٢٠ على قطع خزف عليها رسوم لأزهار وسمك وبط ونباتات كما وجدت أوانى مملوءة بالنبيذ وعليها اسم رمسيس الثانى وهى طبعا من بقايا القصر الملكى. ووجد فى قرية تل أبو الشافعى فى شمال قنتير على قاعدة تمثال ضخم لرمسيس الثانى وهو جالس ويرجح أنه كان قد وضع فى ساحة معبد. ولعله معبد الإله «مين» لأنه هو الذى كان فى أقصى الشمال من مدينة بررعمسيس.

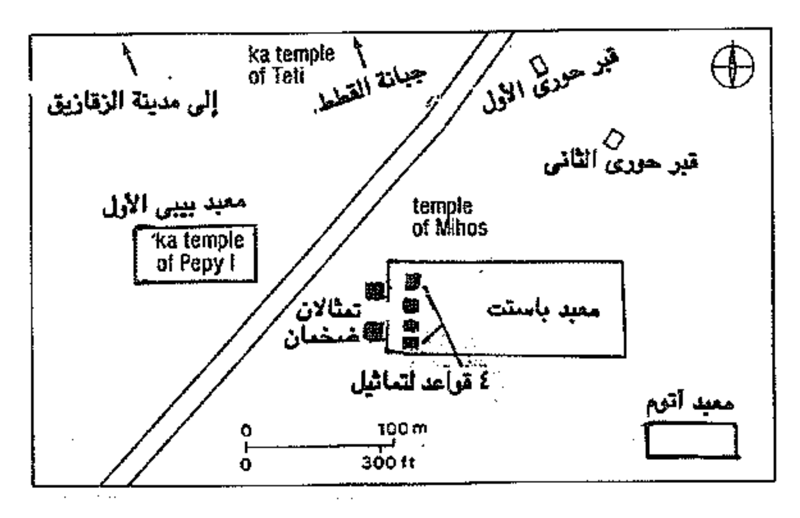
٢١ – **هربيط** : حوالى ٦ كيلو مترات غربى فاقوس. وقد وجد لرمسيس الثانى آثار كثيرة بها نقلت إلى متحف هلدسهايم فى وسط ألمانيا . أهمها ٣ لوحات مُثّل فى إحداها رمسيس الثانى وهو يقدم القرابين لتمثاله (شكل ٢٢٧ ص ٨٨٩) ولوحة لضابط يدعى «موس» ومعه رجال الجيش يتقبلون الإنعامات من رمسيس الثانى عبارة عن حلقات من ذهب. ولا يجب أن يتبادر إلى الذهن أن الضابط «موس» هو نفسه موسى عليه السلام حينما كان لايزال فى قصر الفرعون. لأن اسم موس كان قد بدأ يشيع بين الناس منذ أن تبنى الفرعون الطفل الذى التقطه من الماء وسماه «موس» وكانت أسماء تحوت + موس أى تحتمس وآمون + موس (آمنموس) معروفة من قبل. ولكن اسم موس منفردا لم يكن معروفا قبل حادثة التبنى هذه وهو أحد الأدلة على أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى.

٢٢ – **تل بسطة = بوبسطة** : ١ كم جنوب الزقازيق. وكانت مدينة الإلهة باستت برأس اللبؤة. وقد كانت لهذه المدينة أهمية استراتيجية حيث أنها تتحكم فى الطريق المؤدى من منف عبر وادى طميلات إلى سيناء وآسيا. وبلغت أوج نفوذها فى عهد الأسرة ٢٢ إذ كانت مسقط رأس ملوكها. وقد وجد فى المعبد الكبير لهذه البلدة جزء من مجموعة تماثيل من الجرانيت الأسود عليها اسم رمسيس الثانى. وفى القاعة الأولى من المعبد وجد له ٤ تماثيل ضخمة من الجرانيت الأحمر مقامة أمام قاعة الأعياد الثلاثينية لاتزال قواعدها فى أماكنها الأصلية (شكل ١٤٨). أما التماثيل فقد نقلت إلى المتحف البريطانى ومتحف برلين ومتحف كوبنهاجن. وكان أمام المعبد تمثالان ضخمان. أحدهما الآن فى المتحف المصرى. والثانى فى متحف لندن.

٢٣ – **صفط الحنة** : وتقع حوالى ٥ كيلو مترات شرق الزقازيق وكانت عاصمة المقاطعة ٢٠ من مقاطعات الوجه البحرى ومركز عبادة «سوبد». وقد كشف الأثرى ناڤيل عام ١٨٨٥ جدرانا مبنية بالطوب لحائط يحيط بمعبد مساحته ٤٠×٧٥ مترا. ومن المرجح أن رمسيس



شكل ١٤٧ – تمثال من الجرانيت لرمسيس الثانى وجد فى تل نبيشة.
(موجود حاليا بمتحف مدينة بوسطن).



شكل ١٤٨ – تل بسطة ومعبد باستت .

الثانى هو الذى بناه إذ وجدت قطعتان من تمثال ضخم له من الجرانيت الأسود. وكذلك قطعتان أخريان من البازلت عليها اسم رمسيس الثانى.

٢٤ – **تل رطابة** . حوالى ٧ كيلو مترات شرق التل الكبير: عثر فيها على بقايا معبد للإله «آتوم» أقامه رمسيس الثانى. وفيه رسوم تمثل رمسيس الثانى يضرب الأسرى البدو أمام الإله «آتوم» وفى رسم آخر أمام الإله «ست». وكذلك عثر فيه على تمثال مزدوج يمثل رمسيس الثانى مع الإله «آتوم».

٢٥ – **تل المسخوطة** : وهى مدينة **فيثوم** المذكورة فى التوراة: «فبنوا لفرعون مدينتى فيثوم ورعمسيس (خروج إصحاح ١١:١). وتقع حوالى ٨ كيلو مترات غرب الإسماعيلية. أى تقريبا جنوب أبو صوير. وقد وجدت بها آثار كثيرة لرمسيس الثانى:

أ – معبد مخرب وقد وجد فيه ثالوث من الجرانيت الوردى يتألف من «رمسيس الثانى» جالسا بين الإلهين «آتون» و «خبرى».

ب – ثالوث من الجرانيت الأحمر يجلس فيه رمسيس الثانى بين «حوراختى» و «خبرى».

جـ – لوحة من الجرانيت الأحمر تمثل رمسيس الثانى يقدم تمثال العدالة لـ «حوراختى».

د – لوحة لاحتفال رمسيس الثانى بأحد الأعياد الثلاثينية.

هـ – تمثال لأبى الهول من الجرانيت الأسود عليه اسم رمسيس الثانى.

و – صقر من الجرانيت الأسود عليه اسمه – موجود الآن بالمتحف البريطانى.

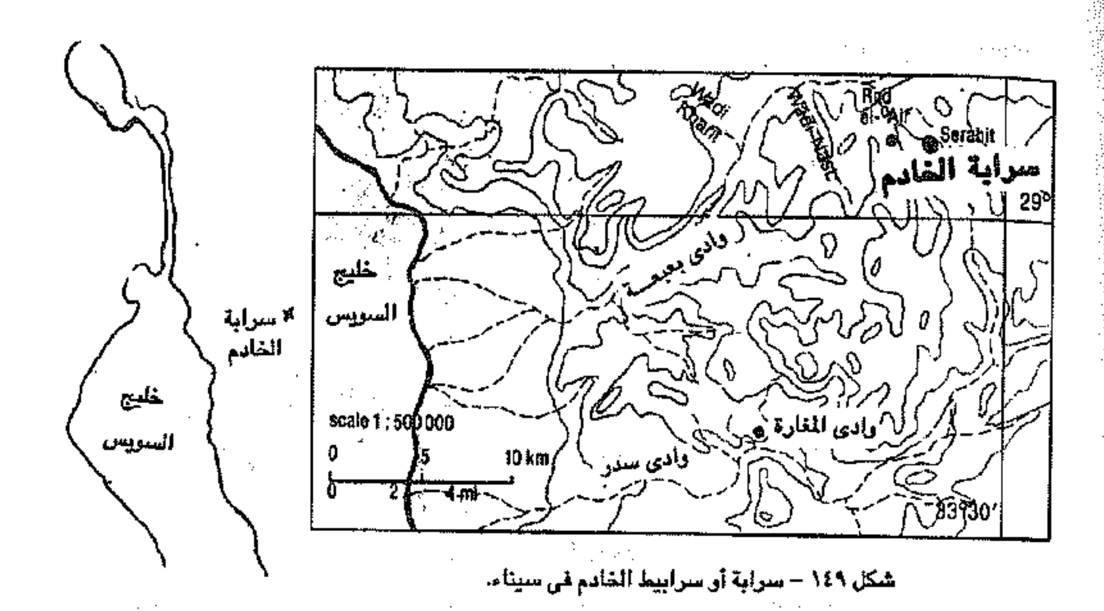
ز – لوحتان وجدتا بالقرب من «كبريت» موجودتان بمتحف الاسماعيلية عليهما رسوم للإله «ست» وزوجته «عنت» وصورة لرمسيس الثانى وهو يقدم البخور للإله «سويد».

ح – أقام معبدا صغيرا أهداه للإلهين «ست» و «حتحور» لا توجد إلا بقاياه.

٢٦ – **القنطرة** : وقد عثر فيها على قاعدة تمثال ضخم لصقر نقش عليه صورة سيتى الأول يقدم آنية للإله حور وكان سيتى الأول قد أقامه «من أجل تمكين اسم والده الملك رمسيس الأول أمام هذا الإله». ولم يكن قد اكتمل عند موت سيتى الأول فأكمله رمسيس الثانى وأضاف على ظهر التمثال «إن رمسيس الثانى نحت هذا حاملا اسم جده رمسيس الأول ليعيش فى معبد حور» ولعل هذا من الأعمال القليلة التى أتمها رمسيس الثانى ولم ينسبها لنفسه كما هو معروف عنه بل تركها تحمل اسم أسلافه.

٢٧ – **كوم القلزم** – غربى السويس: وجدت قطع حجارة عليها اسم رمسيس الثانى.

٢٨ – **سرابة الخادم** (سرابيط) فى سيناء (شكل ١٤٩) توجد فيها نقوش كثيرة كتبها رؤساء بعثات التعدين تخليدا لوفودهم فى سيناء لاستخراج الأحجار الكريمة وقطع الأحجار



شكل ١٤٩ - سرابة أو سرابيط الخادم فى سيناء.



شكل ١٥٠ - بقايا معبد «حتحور» فى سرابة الخادم ولاتزال

بعض اللوحات قائمة عليها رسوم لرمسيس الثانى.

للمباني الكثيرة التى أقامها رمسيس الثاني، وقد بنى معبداً فى هذه المنطقة وفى أحد رسومه يُشاهد رمسيس الثانى يقدم الخمر للإله «حور» وفى رسم آخر نشاهد اثنين من الموظفين يتعبدان لخرطوشة اسم رمسيس الثانى. وفى رسم ثالث نرى رمسيس الثانى يتعبد للإلهة «حتحور». كما وجدت قطعة حجر عليها رسم لموظف يتعبد للملك «رمسيس الثانى». كذلك وجد اسم رمسيس الثانى على عدد من أعمدة المعبد وعلى عتبة بابه. ووجدت لوحة مهشمة رسم عليها رمسيس الثانى يتبعه ابنه «مرى آمون». وشكل ١٥٠ يبين بقايا معبد «حتحور» وبعض اللوحات المقامة.

ب – آثار رمسيس الثانى فى القليوبية والقاهرة :

٢٩ – تل اليهودية : وتقع ٢ كم شرق شبين القناطر. ومن أكثر الأشياء المحيرة التى وجدت بها هو بقايا سور يحيط بمساحة مربعة تقريبا ٥١٥×٤٩٠ مترا وهو سور عريض مغطى بالمصيص وهو عمودى تقريبا من الناحية الداخلية، وله ميل كبير من الناحية الخارجية. وهو ماليس له مثيل فى المبانى المصرية لذلك أرجع علماء الآثار تصميمه وبناءه إلى عمال أسيويين فى فترة حكم الهكسوس ولذلك سمى «معسكر الهكسوس». وينفى آخرون بناءه على أسس عسكرية ويرجعون تصميمه إلى اعتبارات دينية، إذ أقام رمسيس الثانى داخله معبدا. وعثر على تمثال ضخم له بالقرب من بوابة هذا المعبد. أما سبب التسمية بتل اليهودية فيرجع إلى ما وجد من بقايا معبد أقامه الحبر اليهودى «أونياس» والذى كان قد نُفى إلى مصر وأعطاه بطليموس السادس الإذن ببنائه. وظل المعبد قائما لمدة مائتى عام إلى أن أغلقه ڤسباسيان عام ٧١ ميلادية. (أطلس مصر القديمة – چون بينز – ص ١٧٤).

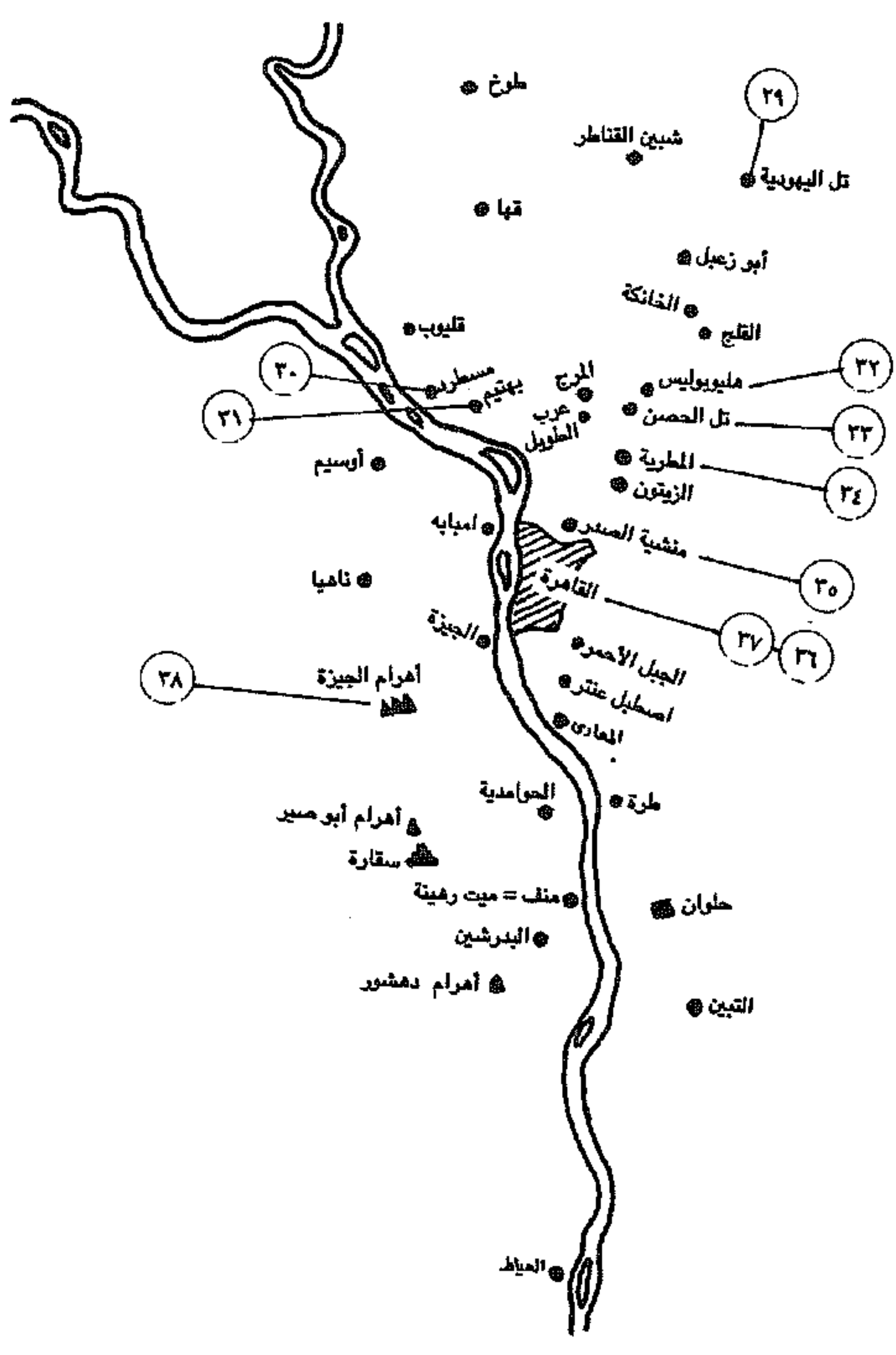
٣٠ – مسطرد : وجد فيها أثران من حجر الكوارتزت عليهما اسم رمسيس الثانى.

٣١ – بهتيم : وجدت قاعدة تمثال للملكة نفرتارى.

٣٢ – جبانة هليوپوليس : كُشِف عن مقبرة للعجل منفيس من عهد رمسيس الثانى على مسافة كيلو متر من قرية «عرب الأطاولة».

٣٣ – تل الحصن : أقام سيتى الأول معبدا بها. وقد عثر على اسم رمسيس الثانى على عوارض أبواب وعلى قطع من الحجر وقطعة من محراب عليها نقش يمثل رمسيس الثانى يقدم «ماعت» للآلهة. ووجدت لوحة لرمسيس الثانى يقدِّم مسلة للإله «حوارختى» نقلت إلى متحف جلاسجوبانجلترا.

٣٤ – المطرية : توجه مسلة أقامها سيتى الأول ولكنه تركها بدون نقش. وقد قام رمسيس الثانى بنقشها. وفى تواضع غير معهود منه سجل أعمال والده كما سجل أعماله أيضا. وفى هذه الكتابة سجل أن سيتى قد ملأ هليوپوليس بالمسلات التى تتألق بما ترسله من شعاع. ثم



شكل ١٥١ - آثار رمسيس الثانى فى القليوبية والقاهرة والجيزة .

يعود إلى الفخر بنفسه فيذكر أنه قد أقام آثارا مثل نجوم السماء!

٣٥ – **منشية الصدر** : توجه لوحة مؤرخة بالسنة الثامنة من حكم رمسيس الثاني.

٣٦ – **المتحف المصرى** بالقاهرة :

– أثر رقم ٦١٧،٦١٣ : تمثالان هائلان من الجرانيت لأحد ملوك الأسرة ١٣ وقد نقش عليهما خرطوش باسم أبوبى أحد ملوك الهكسوس ثم اسم رمسيس الثانى من بعده.

– رقم ٦٣٣٤ : تمثال رائع لرمسيس الثانى راكعا على ركبتيه ويقدم القربان.

– رقم ٤٢١٢ – ٤٢١٣ : سواران لرمسيس الثانى يتميزان بالغلظة وعدم الإتقان.

٣٧ – **القاهرة** : وجد جزء من تمثال له (موجود الآن فى متحف فلورنسا بإيطاليا).

وجدت قطعة حجر عليها اسمه – بجوار باب زويلة.

وجدت مسلة من الجرانيت الأسود عليها اسم رمسيس الثانى.

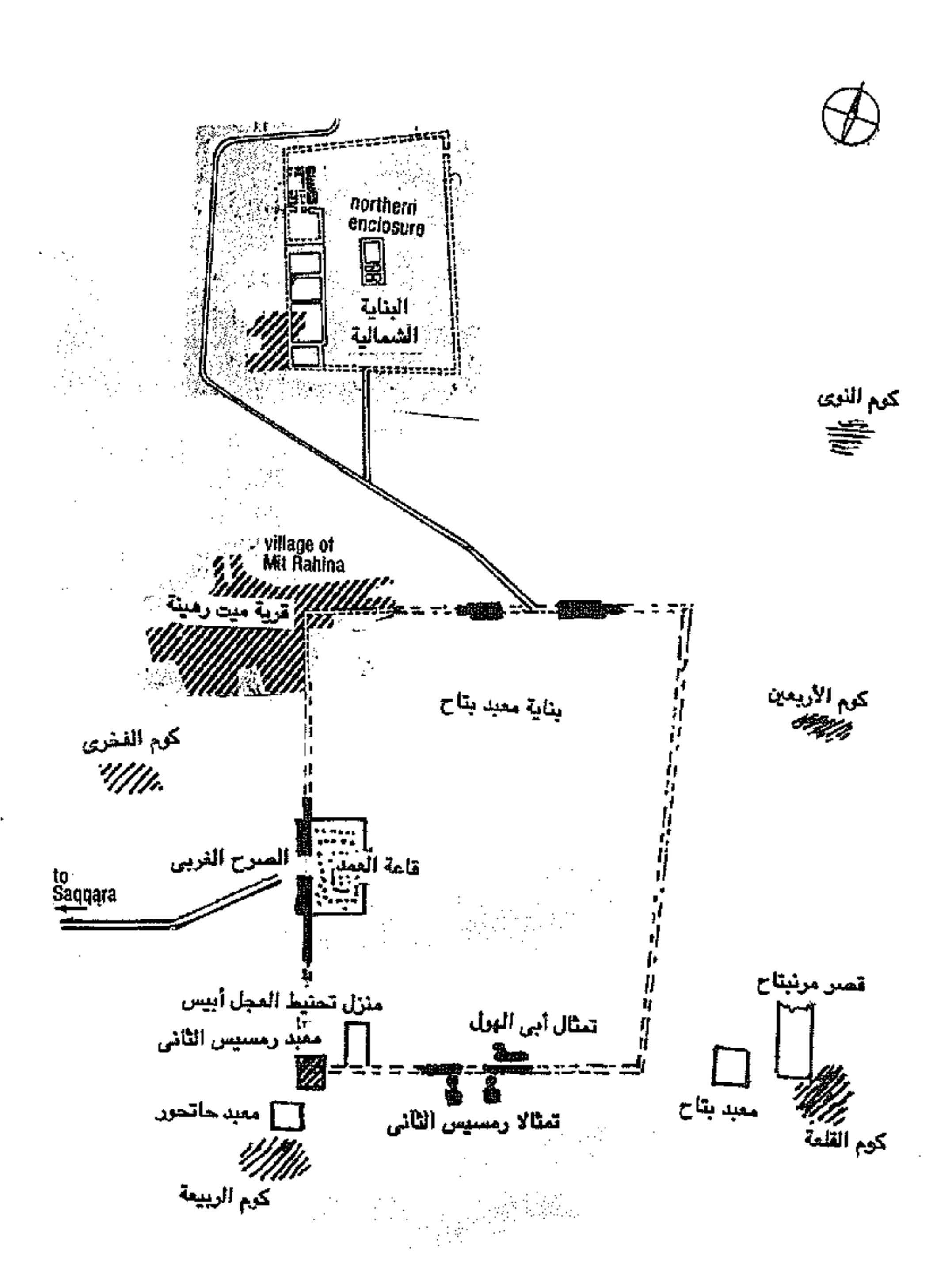
– قطعة من تمثال الملكة نفرتارى زوجة رمسيس الثانى (موجودة بمتحف بروكسل فى بلجيكا).

– قطعة من مسلة من الجرانيت عليها اسم رمسيس الثانى عثر عليها فى مصر القديمة وهى موجودة بالمتحف المصرى.

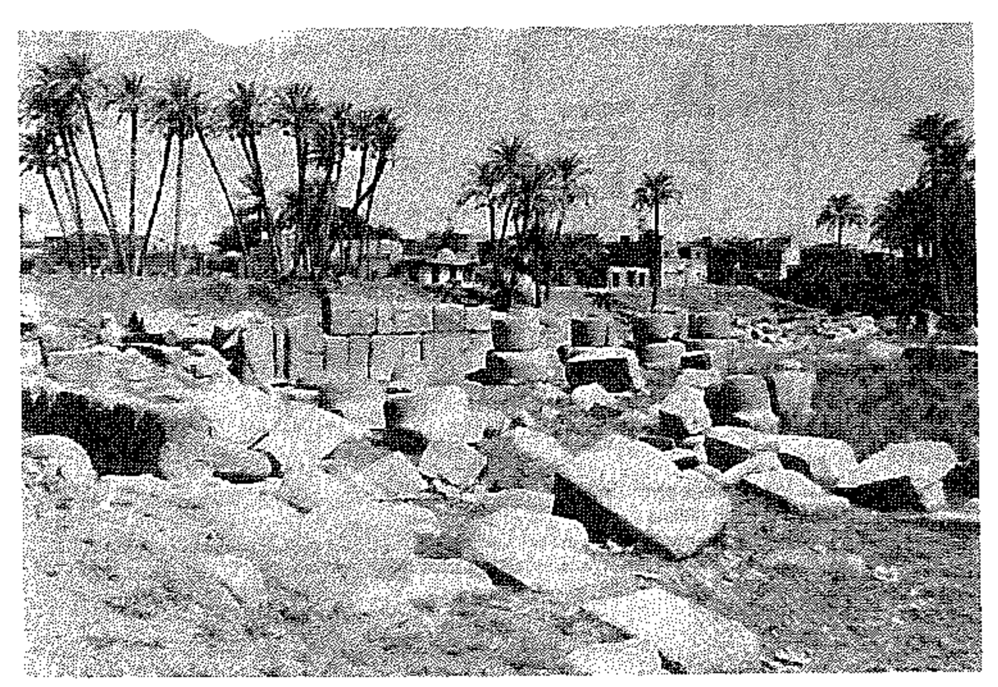
جـ – آثار الوجة القبلى :

٣٨ – **منف وميت رهينة** : منف أو ممفيس Memphis كانت عاصمة المقاطعة الأولى لمصر السفلى. وكانت العاصمة فى عصر الأسرات الأولى والمملكة القديمة. وكانت تمتد لمسافة ٣٠كم طولا. ومن أهم المنشئات التى كانت بها هو معبد «بتاح» الذى يقع بجوار قرية ميت رهينة الحالية (شكل ١٥٢) وقد قام باكتشاف المنطقة العالم فلندرز بترى عام ١٩٠٨ – ١٩١٣ ثم توقفت الحفريات لقربها من المنطقة الآهلة بالسكان. وقد قام رمسيس الثانى بإضافة أجزاء كبيرة إلى المعبد تشمل الصرح والبوابة الغربية وقاعة العمد. ويرى فى الرسم باقى الأجزاء التى كان قد بناها أمنحتب الثالث وتحتمس الثالث. كما أن رمسيس الثانى أضاف البوابات الشمالية والجنوبية ووضع لنفسه تمثالين ضخمين من الجرانيت خارج البوابة الجنوبية. وتمثالا لنفسه على هيئة أبى الهول داخل البوابة.

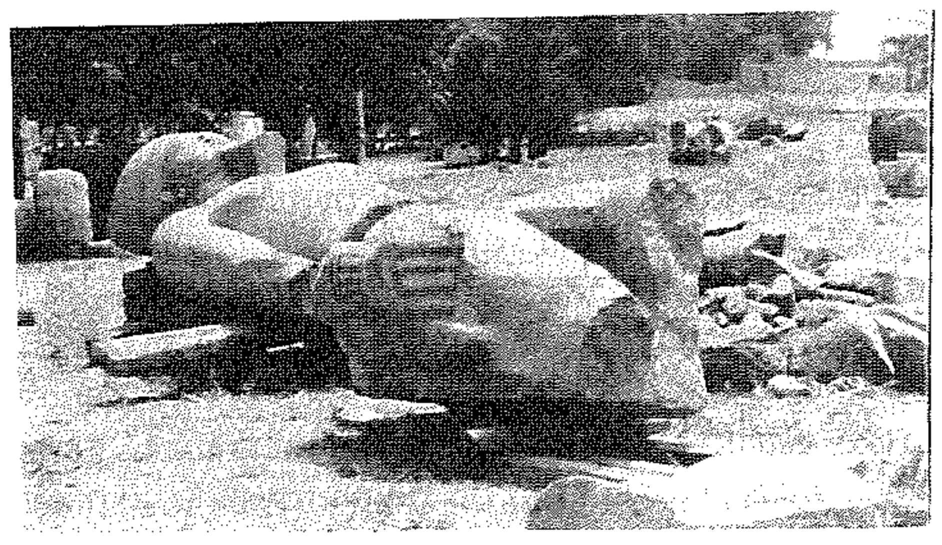
كما أنه بنى معبداً آخرا صغيرا غير بعيد من الزاوية الجنوبية الغربية للمعبد خصصه للإلهة «حتحور» عند قرية كوم الربيعة الحالية. وقد تهدم معبد بتاح تماما ولم يبق منه إلا حجارة مبعثرة وبعض قواعد الأعمدة التى كان رمسيس الثانى قد أقامها (شكل ١٥٣). وقد نقل تمثال أبى الهول – وهو مصنوع من المرمر – إلى المتحف المصرى.



شكل ١٥٢ – رسم للحرم المقدس لمعبد «بتاح» فى منف .



شكل ١٥٣ - بقايا معبد «بتاح» في منف .



شكل ١٥٤ - التمثال الضخم الذي وجد مكسرا في ميت رهينة وهو من الجرانيت .



شكل ١٥٥ أ - تمثال رمسيس الثاني بميت رهينة أثناء ترميمه .



شكل ١٥٥ ب - تمثال رمسيس الثاني وقد أقيم في ميدان محطة مصر بالقاهرة وقد سمي ميدان رمسيس .

وأحد التمثالين الضخمين ويبلغ وطوله ٢٦ قدما كان مكسرا إلى عدة قطع والتاج مفصول عنه (شكل ١٥٤). ويبلغ ارتفاع الرأس ٦,٥ قدما. وخراطيش رمسيس الثانى محفورة على كتفى التمثال وعلى صدره وحزامه ومعصمه. وتم ترميم هذا التمثال (شكل ١٥٥ أ) وأقيم فى ميدان محطة مصر الذى سمى ميدان رمسيس (شكل ١٥٥ ب). وبعد ازدياد المرور فى هذا الميدان وخوفا عليه من عوادم السيارات تقرر إعادته ثانية إلى مكانه الأصلى فى ميت رهينة. أما التمثال الثانى فكان هو الآخر ملقى على الأرض ويغرق كل عام فى مياه الفيضان إلى أن رفع وأقيم على قاعدة (جيمس بيكى - آثار مصر القديمة جـ١ ص٣٠٦).

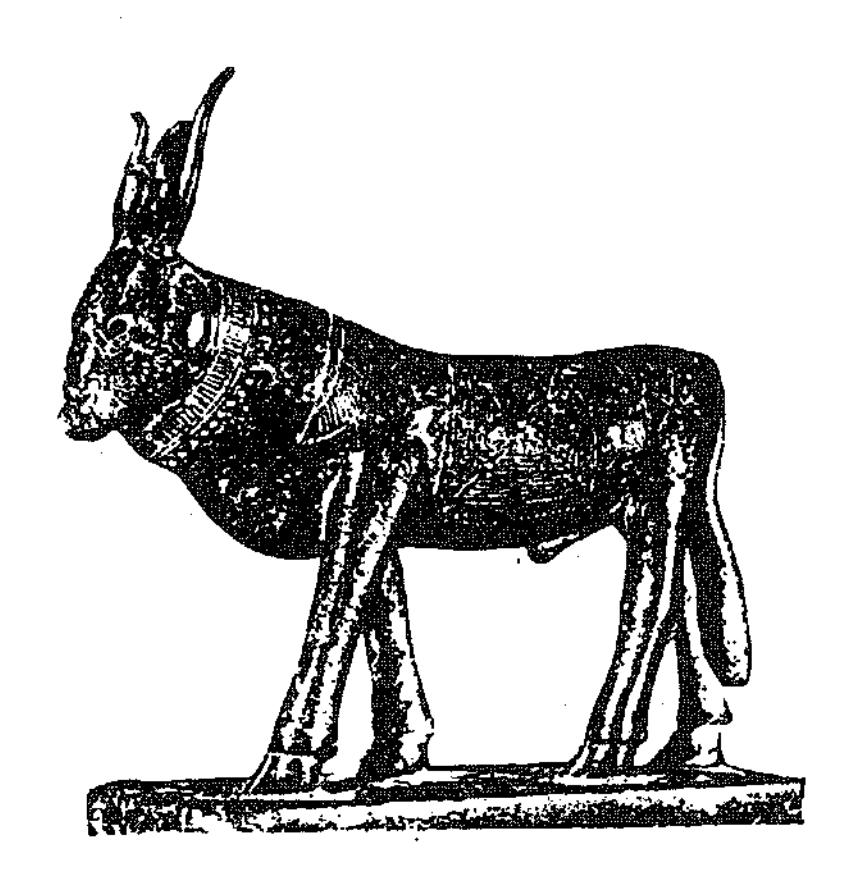
كذلك قام رمسيس الثانى بزيارة أبى الهول وترك لوحة تذكارا لهذه الزيارة يظهر فيها رمسيس الثانى يحرق البخور ويقدم قربانا لأبى الهول. ولوحة أخرى موجودة بالمتحف البريطانى كتب عليها أن الزيارة تمت في السنة الأولى من عهد جلالته، الثور القوى محبوب «ماعت» حامى مصر والمسيطر على الممالك الأجنبية الكثير السنوات .... وتستمر ٦ أسطر أخرى فى مدح رمسيس الثانى.

السرابيوم أو مقبرة العجول المقدسة . Serapeum :

لا بأس قبل الحديث عن السرابيوم من ذكر نبذة عن عبادة العجل وكيف نشأت لأنها أصبحت من أكثر العبادات انتشارا بين المصريين. وتأثر بها بنو إسرائيل فما إن غاب موسى عليه السلام عنهم فترة تلقيه ألواح الشريعة من ربه حتى صنعوا عجلا وعبدوه وهو ما سيجيء ذكره بالتفصيل فيما بعد (ص ٩٩٤).

كان الثور منذ أقدم العصور يُنظر إليه بإجلال وتقديس. فالثور يمثل الخصب من ناحيتين:

أولا: هو رمز القوة - القوة الإخصابية وحارثا للأرض. ثانيا: هو سيد الماشية التى تنتج اللحم واللبن والزبد والجلد. وبهذا أصبح رمزا للرياسة والملكية حتى إن الملوك والفراعين كانوا يصفون أنفسهم «الثور القوى». وقد بدأ تقديس الثور منذ عصر ما قبل الأسرات وقد مُثِّل الملك نارمر (مينا) موحد القطرين على هيئة ثور على اللوحة المصنوعة من الإردواز والمعروفة باسمه. وعند ظهور العلامات المميزة للقداسة فى أحد العجول يحظُر بيعه ويُعتبر بيعه أحد الذنوب الكبيرة. والعلامات التى يمكن للكهنة بواسطتها التعرف على عجل «أبيس» هى أن يكون أسود اللون وعلى جبهته علامة بيضاء مربعة الشكل وعلامة بيضاء فى صورة هلال على جانبيه وصورة نسر على رقبته (شكل ١٥٦) . وفى عهد العمارنة ظهر عجل «منفيس» فى هليوپوليس وكانت مميزاته أن يكون لونه أسود وعلى جبهته علامة بيضاء مثلثة الشكل وفى ذيلة شعر مزدوج على شكل سنابل (چيمس بيكى - آثار مصر القديمة جـ١ ص ٣١٠). وعند ظهور عجل مقدس يقام احتفال وفيه كان الملك يعدو بجانب العجل. ثم يخصص للعجل عدد من الكهنة مهمتهم القيام على خدمته والعناية به وتقبل القرابين. ثم يقاد العجل إلى المعبد الخاص به والذى



شكل ١٥٦ – تمثال من البرونز للإله «العجل أبيس» .

(المتحف البريطاني)

يبقى فيه ولا يخرج إلا ليشترك فى الاحتفال الذى كان يتكرر كل عام. وتقدم للعجل القرابين والهدايا تعبدا وعند طلب قضاء حاجات من الإله الثور. وبالطبع كان الكهنة هم الذين يتمتعون بهذه القرابين من فواكه ونبيذ ولحوم.

وعند موت أحد العجول المقدسة كان الاعتقاد أنه ذهب إلى السماء بروحه أما جسمه فكان يحنط ويدفن على حسب الشعائر الأوزيرية ويوضع فى تابوت من الخشب (ثم بدءا من الأسرة ٢٦ كان يصنع من الجرانيت) وتؤدى الشعائر الجنازية وكانت تستغرق سبعين يوما ثم ينزل التابوت في المقبرة التى عملت له.

وتحالف كهنة العجل أبيس فى هليوبوليس مع كهنة الإله بتاح فى منف لما رأوا أن هذا التحالف سيعود بالخير عليهما معا إذ أن دائرة النفوذ واحدة فأوجدوا علاقة وثيقة بين «أبيس» وإله الشمس «أتوم»، وقرص الشمس الذى كان يحمله أبيس بين قرنيه شاهد على صبغته الشمسية. وفى عصر الدولة الحديثة أخذ عجل أبيس مركزا متقدما فى العبادة. وخاصة فى عهد الأسرة التاسعة عشرة أى الرعامسة وأصبحت منف أهم مركز لعبادته إذ هو ينتسب إلى الإله «بتاح» إله منف .

وكان رمسيس الثانى قد رزق من زوجته الثانية «إست نفرت» بابنه «خعمواست» ولاحظ عزوفه عن الجندية والحروب. وبراعته فى القراءة والكتابة وميله إلى الشئون الدينية. ومن ثَم فقد عينه مساعدا لكبير كهنة «بتاح» فى منف. وحدث بعد مدة قصيرة أن توفى العجل أبيس – الحيوان المقدس عند بتاح – وكان المعتاد أن يُحنط العجل ويدفن فى احتفال عظيم فى الجبانة. وكانت حجرة الدفن تشمل حجرة نحتت فى الصخر تحت الأرض يوصل إليها طريق منحدر. وفوق هذا المدفن كانت تقام مقصورة أو محراب وأطلق عليها اليونانيون اسم «السرابيوم». وكان لا يدفن فى المدفن الواحد إلا عجل واحد. فلما جاء خعمواست – قام بعمل مدفن جماعى لعجول أبيس. ولاشك أن ذلك كان بعد استشارة والده رمسيس الثانى وموافقته. فقام بنحت جبانة شاسعة تتألف من حجرة تحت الأرض يبلغ طولها نحو ٣٠ مترا فى عمق الصخر. وعلى الجانبين أعد حجرات عديدة – لكل عجل حجرة. وبعد الدفن كان البناءون يسدّون مدخل الحجرة بالمبانى بعد وضع جسد العجل المحنط وكمية من المجوهرات. معه وقد كان عالم الآثار الفرنسى مريت باشا هو الذى عثر على السرابيوم. فى القرن الماضى وقام بنقل كل الآثار والحلى إلى فرنسا. وهى تعد من أنفس الآثار وتعد بآلاف القطع. كذلك فإن خعمواست بدلا من المقصورة التى كانت تبنى لكل عجل بنى معبدا واحدا تقام فيه الشعائر الجنازية للعجول قبل دفنها وكذلك لتلقى القرابين والصلوات من عُبَّاد العجل. وقام بكتابة لوحة تذكارية يقول فيها: أنا الكاهن الأمير خعمواست. أيها الكهنة وأصحاب المقام الرفيع وزوار معبد بتاح. وكل كاتب ذو معرفة . وكل من يدخل هذا المعبد الذى بنيته لأبيس الحى والذى سيشاهد الأعمال التى عملتها

ونحتُها في الصخر وسيرى أعمالى الحسنة وتبرعاتى العظيمة. والتى لم يعمل مثلها من قبل. وإن الآلهة فى معبد أبيس وصورها التى عملتها بالذهب والحجارة الكريمة. وخصصت لها القرابين اليومية. وقرابين فى الأعياد القمرية والأعياد السنوية والأيام الأخرى على مدار السنة. وخصصت للمعبد الكهنة الذين يقيمون صلوات التبجيل.. ويستمر فى تعداد ماعمله. ثم يختم بقوله: تذكروا اسمى عندما تعملون مثل هذه الأعمال فى المستقبل. أيها الإله العظيم: أبيس – سوكر – أوزريس. أنا الكاهن الأمير خعمواست.

ونلاحظ فى هذا نزعة الفخر والزهو بأعماله. وبالطبع ورثها عن والده رمسيس الثانى.

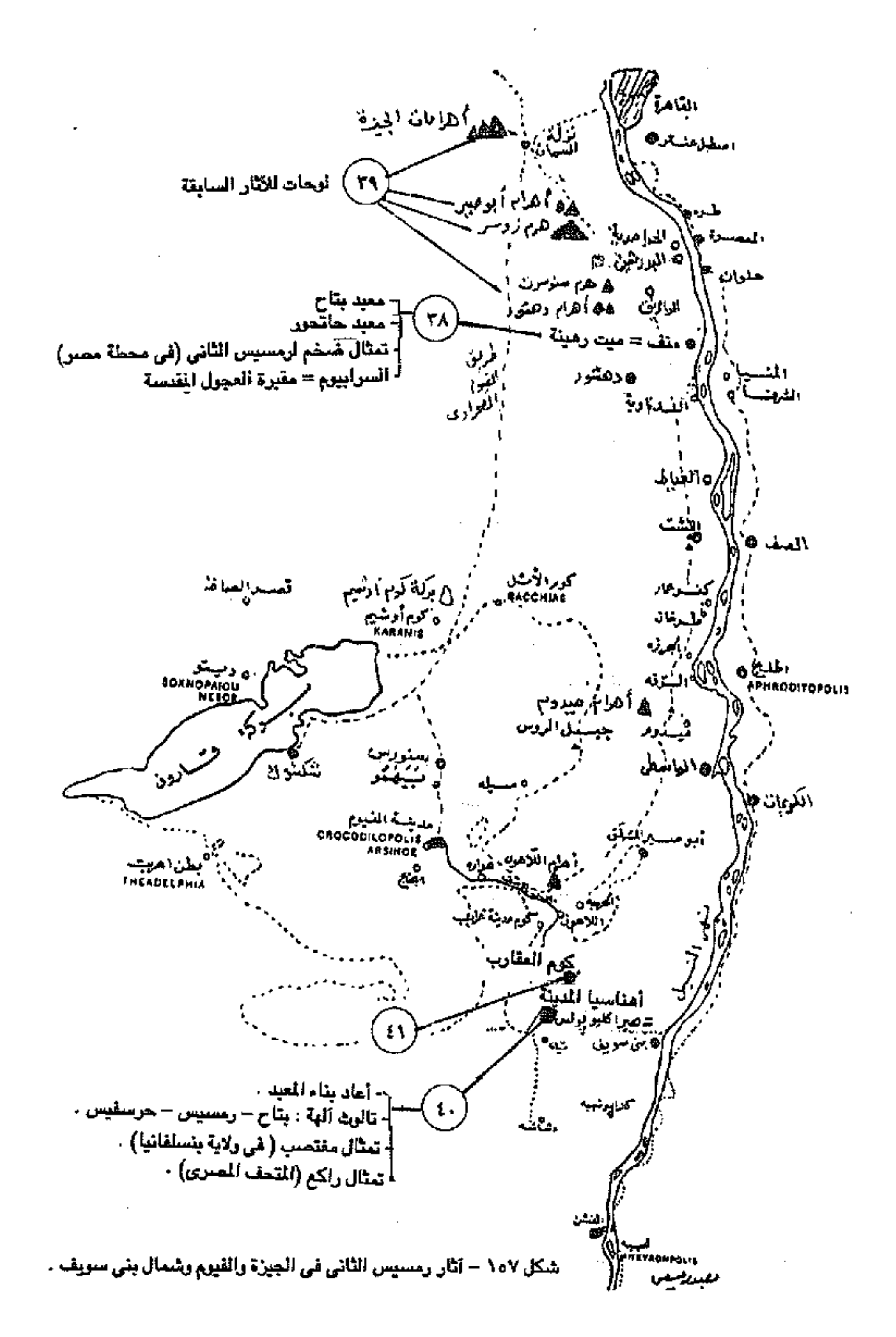
ولما مات خعمواست دفن فى السرابيوم.

٣٩ – **لوحات للآثار السابقة** : محاكاةً لما عمله والده رمسيس الثانى – أو لعله بتوجيه منه وأوامره – قام خعمواست بترميم آثار الأقدمين فى الجيزة وسقارة ليُحمد لهما هذا العمل فى المستقبل على أنهما حماة لذكرى الملوك الأسلاف وأنهما حُماة ومجددون لهذه الآثار الخالدة فى مصر. فقام بترميم جميع الأهرامات التى فى منطقة الجيزة وسقارة ومعبد الشمس. وفى كل أثر من هذه الآثار وضع لوحة بها اسم الملك الذى أقامها واسم رمسيس الثانى على أنه المتبرع بهذا التجديد واسم خعمواست على أنه هو المنفذ. كل ذلك بحروف كبيرة. ويشبهها الأثريون بأنها مثل البطاقات التى توضع بجوار كل أثر فى المتاحف الحديثة. وضع هذه اللوحات بجوار : هرم زوسر المدّرج. القبر المربع للملك شبس كاف . الهرم الصغير لأوناس. الأهرامات الثلاثة خوفو وخفرع ومنقرع. هرم سمورع ومعبد الشمس. وعلى لوحة هرم زوسر المدرج سُجِّل أن هذا الترميم قد بدىء فيه فى السنة ٣٦ من حكم رمسيس الثانى فى الشهر الثالث من شهور الصيف فى اليوم العاشر.

٤٠ – **أهناسيا المدينة** : وتقع ١٥كم غرب بنى سويف واسمها الفرعونى هو «هنن – نسوت». وكان الإله راعى المدينة هو جرسفيس ذو رأس الكبش وهو يقارَن بهرقل اليونانى ولذلك سميت المدينة هيراكليوبوليس.

وقد أعاد رمسيس الثانى بناء معبد هذه المدينة. وقد وجد له مجموعة آلهة تمثله بين الإلهين «بتاح» و «حرسفيس» وقد وجد ملقى أمام ردهة المعبد ومحفوظ الآن بالمتحف المصرى. كذلك وجد عمود نخلى الشكل عليه اسم رمسيس الثانى موجود بالمتحف البريطانى. وكذلك وجد تمثال مغتصب عليه اسم رمسيس الثانى وهو الآن بمتحف جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة. ووجدت أيضا قطعة من تمثال راكع موجودة بالمتحف المصرى.

٤١ – **كوم العقارب** : بالقرب من أهناسيا المدينة. غرب بنى سويف. أقام رمسيس الثانى فى هذه البقعة معبدا ولكنه مخرب تماما الآن وقد عثر فيه على تمثالين جالسين لرمسيس الثانى (مغتصبين من سنوسرت الثالث) وقد اغتصبهما مرنبتاح فنسبهما بدوره لنفسه .



شكل ١٥٧ – آثار رمسيس الثاني فى الجيزة والفيوم وشمال بني سويف .

٤٢ – **طهنا الجبل** : وهى مدينة أخوريس Akoris القديمة – ١٣ كيلو مترا شمال المنيا على البر الشرقى للنيل. أقام فيها رمسيس الثانى مبانى تهدمت ولم يبق منها إلا قطع حجارة عليها اسمه واستعملها خلفاؤه فى مبانى لهم. والمدينة بها بقايا ٣ معابد صغيرة وجبانة من عصور مختلفة.

٤٣ – **الأشمونين** (هرموبوليس) وهى تقع حوالى ١٢ كيلو مترا شمال غرب ملوى. وماهو قائم بها حاليا هو صفان من الأعمدة الرومانية الطراز وهى بقايا معبد. ولكن إلى الجنوب من هذه بحوالى ٢٠٠ متر توجد بوابة معبد كان قد بناه رمسيس الثانى للإله «بتاح» واستعمل فيه أكثر من ١٥٠٠ قطعة حجر أخذها من معبد أخناتون بالعمارنة التى تقع إلى الجنوب قليلا. كما وُجد لرمسيس الثانى تمثال ضخم من الجرانيت وقد اغتصبه ابنه مرنبتاح وهو موجود بالمتحف المصرى. كذلك وجدت لرمسيس الثانى تماثيل ضخمة على جانبى مدخل المعبد.

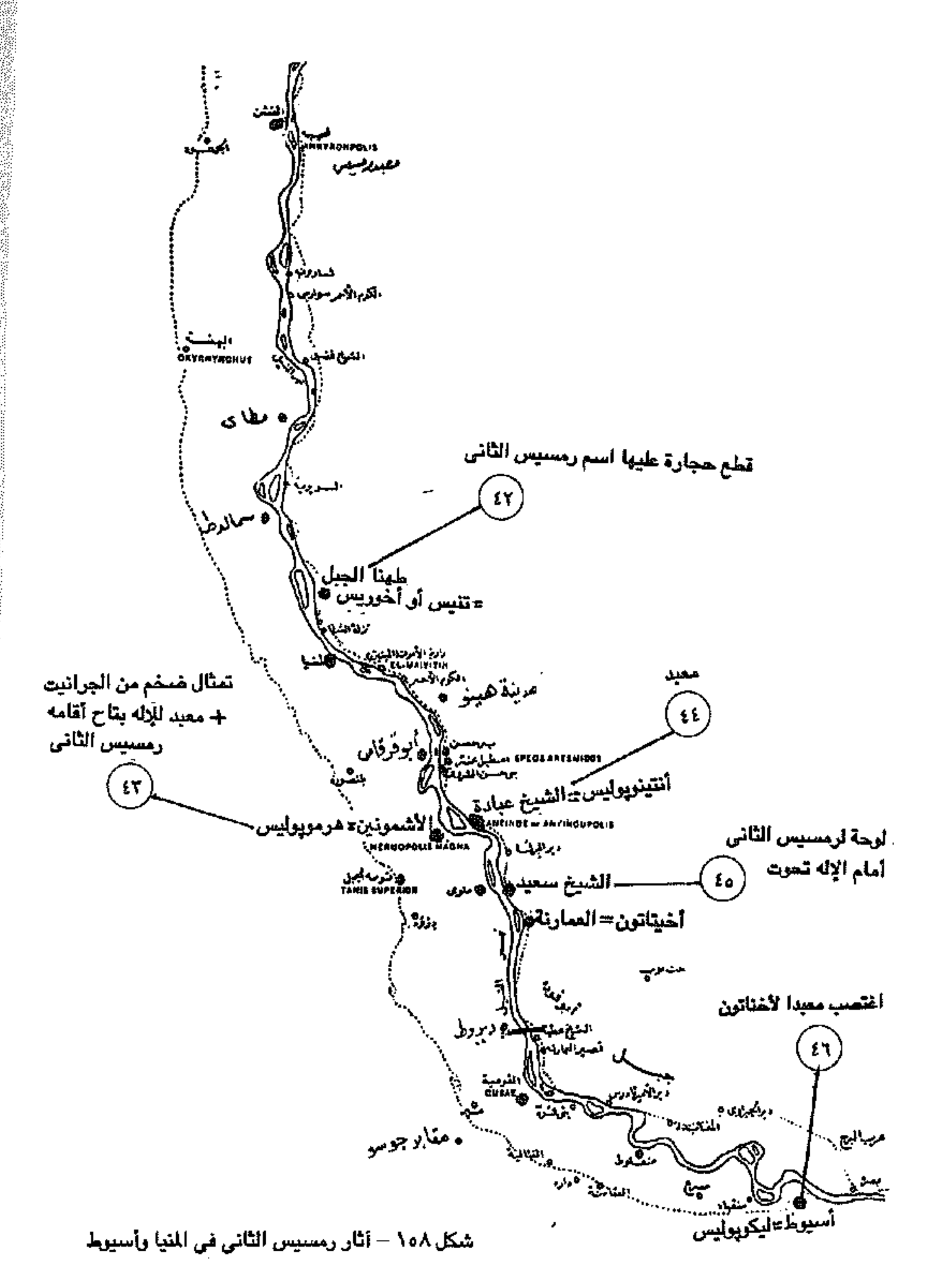
٤٤ – **الشيخ عبادة** : وهى أنتينوبوليس القديمة وتقع على البر الشرقى للنيل مقابل الأشمونين. أقام رمسيس الثانى بها معبدا لايزال عدد من أعمدة البهو قائما مكانه عليها رسم لرمسيس الثانى يقدم القربان لعديد من الآلهة.

٤٥ – **الشيخ سعيد** : على البر الشرقى للنيل مقابل ملوى: وجدت أجزاء من لوحة ظهر فيها رمسيس الثانى أمام الإله «تحوت».

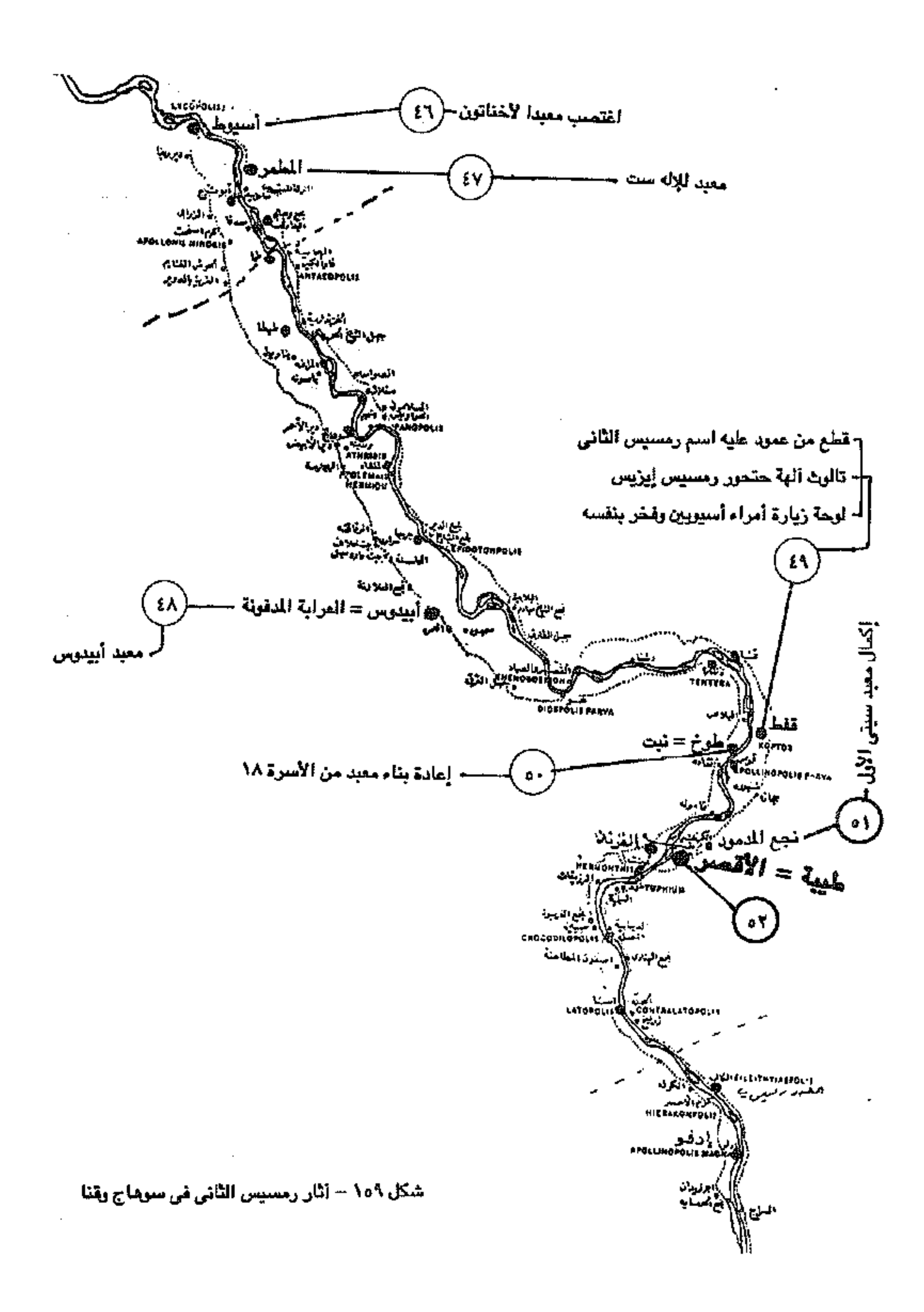
٤٦ – **أسيوط** : وكانت عاصمة المقاطعة ١٣ من مقاطعات الصعيد. وقد اغتصب رمسيس الثانى معبدا أقامه أخناتون فى هذه البلدة.

٤٧ – **المطمر** : على الضفة الشرقية للنيل حوالى ٢كم جنوب أسيوط ومسافة مثلها شمال البدارى. أقام بها رمسيس الثانى معبدا للإله «ست» واستعمل فى بنائه أحجارا مغتصبة من معبد كان قد أقامه أخناتون .

٤٨ – **العرابة المدفونة = أبيدوس** : تقع جنوبى مدينة جرجا. وهى المدينة المصرية القديمة «أبيدچو» وكانت أهم أماكن الدفن فى عصر ما قبل الأسرات وعصر الأسرات الأولى. وابتداء من الأسرة الخامسة والسادسة كانت ديانة أوزريس هى الديانة الرئيسية فى مصر الوسطى. وكانت تقام احتفالات فى المعابد لإحياء ذكرى عودة أوزريس إلى الحياة. وكان كثير من الناس يحبون المشاركة فى احتفالات بعث أوزريس هذه بوضع لوحات باسمهم فى معبد أوزريس وكانت المدافن تمتد لمسافة كبيرة. ويعتبر المرتفع الموجود عند قرية كوم السلطان هو بداية مدينة أبيدوس القديمة (شكل ١٦٠) وإلى الشرق منه يوجد معبد أوزريس وهو مبنى باللبن فى معظمه وأجزاء قليلة هى التى من الحجارة مثل عوارض الأبواب وهذا يفسر تدميره بالكامل.



شكل ١٥٨ – آثار رمسيس الثانى فى المنيا وأسيوط



شكل ١٥٩ – آثار رمسيس الثانى فى سوهاج وقنا

وفى أبيدوس أقام سيتى الأول معبدا يسمى معبد العرابة الكبير. وكانت تقام فيه شعائر آلهة مصر الستة العظام: «بتاح» و«آمون» و«حوراختى» و«أوزير وإيزيس وحورس» ولكل منهم محراب فى المعبد. وهذا المعبد الفخم بما فيه من نقوش بارزة أنيقة الصنع حفظت ألوانها حتى الآن يعد من أثمن الذخائر الفنية القديمة. ومات سيتى الأول قبل أن يكمله فأتمه ابنه رمسيس الثانى غير أنه لم يحافظ على نفس المستوى الفنى ولذلك يمكن للشخص العادى إدراك الفرق بين جمال ما أقامه سيتى وقبح ما أنجزه رمسيس الثانى فى هذا المعبد (سليم حسن، مصر القديمة جـ٦ ص٦٣). وكان به (شكل ١٦١) صرح بوابة أول مهدم تماما ثم ردهة أولى ثم صرح البوابة الثانية موجود جزء منه ثم ردهة ثانية تليها قاعة العمد الأولى بها ٢٤ عمودا ثم قاعة العمد الثانية وبها ٣٦ عمودا. وكانت هناك ممرات تؤدى إلى محاريب الآلهة. وتعتبر النقوش التى قام بها رمسيس الثانى فى قاعة العمد الأولى من النوع الرخيص الذى أصبح طرازا عاما لرمسيس الثانى فى جميع نقوش مبانيه الدينية. وقد تهدم المعبد ولم يبق منه إلا أجزاء قليلة بارتفاع مترين من سطح الأرض.

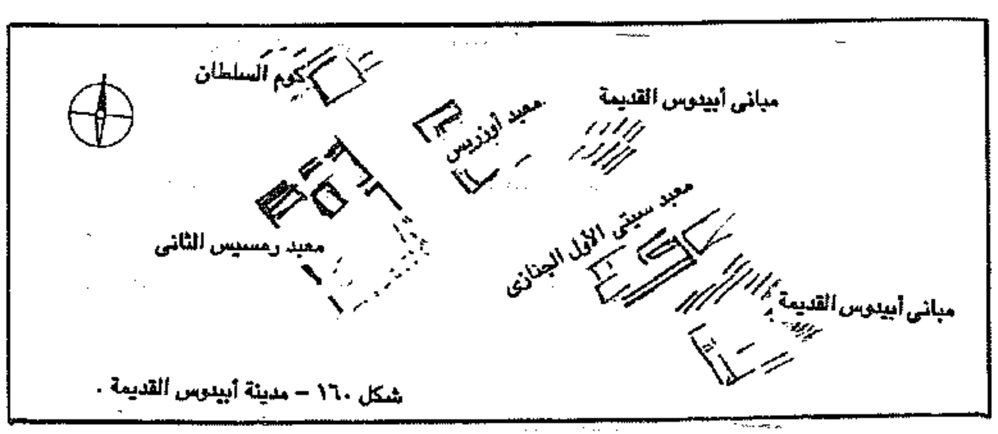
٤٩ – **قفط** : وهى المدينة المصرية القديمة جبتو Gebto والتى اشتق منها اسم Egypt فيما بعد – وكانت عاصمة المقاطعة الخامسة لمصر العليا. وأهميتها ترجع لارتباطها بالطريق الذى يوصل من وادى النيل إلى البحر الأحمر واعتُبر إلهها «مين» هو الإله الحامى للصحراء الشرقية. وفى مرحلة تالية أدخل معه الإله «حورس» وأصبح الصقران «حورس» و«مين» هما شعار المنطقة. وقد كشف فلندرز پترى عام ١٨٩٣ عن ثلاثة معابد يحيطها سور واحد. كلها قد بنيت فى عصور متأخرة (رومانية) على أنقاض معابد سابقة. وقد وجد بالمنطقة قطع من عمود باسم رمسيس الثانى وثالوث آلهة مكون من رمسيس الثانى بين الإلهتين «حتحور» و«إيزيس» موجود بالمتحف المصرى. كما وجدت لوحة عليها تسجيل لزيارة أمراء أسيويين لمصر. وعدة أسطر لرمسيس الثانى يفخر بنفسه ويثبت انتصاره على أعدائه ومجيئهم لتقديم الجزية والهدايا.

٥٠ – **طوخ (نبت)**: أعاد رمسيس الثانى بناء معبد كان قد أقيم فى عهد الأسرة ١٨.

٥١ – **نجع المدمود** (١كم شمال شرق الأقصر): أقام سيتى الأول معبداً فى تلك الجهة أتمه ابنه رمسيس الثانى ولكنه تهدم ولم يبق منه إلا قطع من الحجارة عليها اسم سيتى ورمسيس الثانى.

٥٢ – **طيبة = الأقصر** :

تقع مدينة الأقصر على الضفة الشرقية لنهر النيل (شكل ١٦٢) ويقابلها فى البر الغربى مدينة القرنة. وكانت عاصمة مصر لعديد من الأسرات وزاد ثقلها السياسى فى الأسرة الثامنة عشرة إذ كان أحمس – محرر مصر من الهكسوس – منها. وقد أطلق عليها اسم «طيبة ذات المائة باب». فقبل الحرب كان الفرعون يأتى إليها ليباركه الإله «آمون» وليبارك الجيوش. ثم تخرج الجيوش من أبوابها العديدة. وكلها ثقة فى النصر.



شكل ١٦٠ – مدينة أبيدوس القديمة .

بوابة بصرح مهدم

آبار مياه

البهو الأول

رواق معمد

البهو الثانى

رواق معمد

قاعة العمد الأولى (٢٤ عمودا)

قاعة العمد الثانية (٣٦ عمود)

محاريب

مجمع أوزريس

صالة على هيئة تابوت

الصالة الرئيسية

قاعة المدخل

طرقة المدخل

بوابة خارجية

حجرات خدمات

خدمات

magazines

المحاريب :

١ – الملك
٢ – بتاح
٣ – رع – حوارختى
٤ – آمون رع
٥ – أوزريس
٦ – إيزيس
٧ – حورس
٨ – نفرتم
٩ – بتاح سوخر
١٠ – قاعة نفرتم سوخر
١١ – قائمة الملوك
١٢ – قاعة المراكب
١٣ – قصر ملكى

شكل ١٦١ – معبد رمسيس الثانى فى أبيدوس .

ويمكن أن نلخص آثار طيبة فى الآتى : (شكل ١٦٣) .

أ – آثار البر الشرقى :

١ – معبد الأقصر على شاطىء النيل .

٢ – معبد الكرنك حوالى ٣ كم شمال معبد الأقصر ويربطهما طريق الكباش (شكل ١٦٤).

ب – آثار البر الغربى وفيها القرنة ووادى الملوك ووادى الملكات ومدينة هابو، وما يهمنا .

١ – مقبرة رمسيس الثانى .

٢ – معبد القرنة .

٣ – الرمسيوم وهو المعبد الجنازى لرمسيس الثانى .

هذا بخلاف الآثار الأخرى الموضحة على شكل ١٦٣.

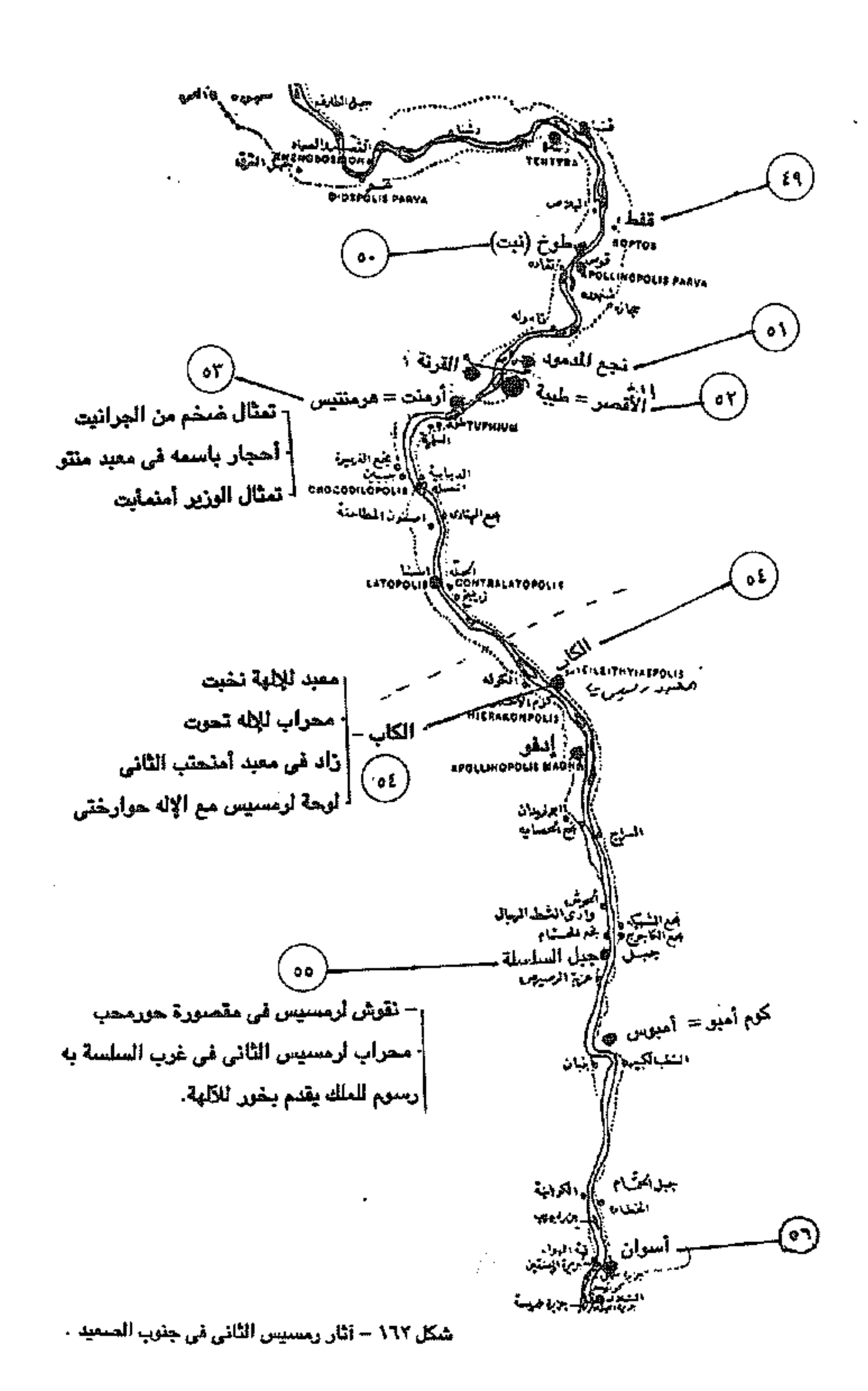
أ – آثار البر الشرقى :

١ – معبد الأقصر :

قام ببناء هذا المعبد فرعونان : أمنحتب الثالث الذى قام ببناء الجزء الداخلى ورمسيس الثانى الذى بنى الجزء الخارجى، وكان يوجد فى المكان ضريح مقدس لثالوث طيبة الإلهى ولكن رمسيس الثانى أدخله فى الساحة التى أقامها، ويبلغ طول المعبد من البوابة الخارجية إلى الحائط الخلفى ٢٦٠ مترا.

وكان المعبد مخصصا لعبادة الإله «آمون» وكان يرتبط بمعبد آمون فى الكرنك، ومرة فى السنة فى الشهر الثانى والثالث من فصل الفيضان كان يقام احتفال دينى طويل تقوم فيه صورة آمون بالكرنك بزيارة توأمه الجنوبى فى الأقصر والذى يوصل بينهما طريق طوله ٣ كيلو مترات على جانبيه تماثيل لأبى الهول برؤوس بشرية، وكان المعبد يتكون عند إنشائه بواسطة أمنحتب الثالث من صالة مستطيلة بها ١٤ عمودا يليها ساحة مفتوحة بها ٦٤ عمودا ثم قاعة بها ٣٢ عمودا فى نهايتها قدس الأقداس، وسنكتفى بالصورة (شكل ١٦٥) والكلام الموجود بها لتغنى عن شرح بقية أجزاء المعبد.

وجاء رمسيس الثانى وزاد عليه من جهة الشمال شرق ساحة بها ٧٤ عمودا أدخل ضمنها الضريح القديم لثالوث طيبة المقدس والمكون من «آمون» فى الوسط و «موت» على اليسار و«خونسو» على اليمين، وبالطبع لم يكن رمسيس الثانى ليتركه دون أن يضيف إليه شيئا فزاد فى تزيينه، ولعل هذا الضريح كان السبب فى انحراف محور مبانى رمسيس الثانى حتى لايكون الضريح فى وسط صرح البوابة، وتنتهى المساحة التى أضافها رمسيس الثانى بصرح بوابة ضخمة لاتزال قائمة إلى الآن (شكل ١٦٦و١٦٧) وكان أمام البوابة مسلتان من الجرانيت الأحمر ارتفاع الواحدة ٢٥ مترا، ولكن واحدة فقط هى التى لاتزال قائمة فى مكانها



شكل ١٦٢ – آثار رمسيس الثانى فى جنوب الصعيد .

مقابر الملوك

الدير البحرى

القرنة

معبد حاتحور بير المدينة

الرمسيوم-معبد رمسيس

مقابر الملكات

القرنة الجديدة

معبد تحوت

NILE

نهر النيل

طريق الكباش

معبد منتو

معبد آمون

معبد موت

معابد الكرنك

بركة هابو

البحيرات

مدينة الأقصر

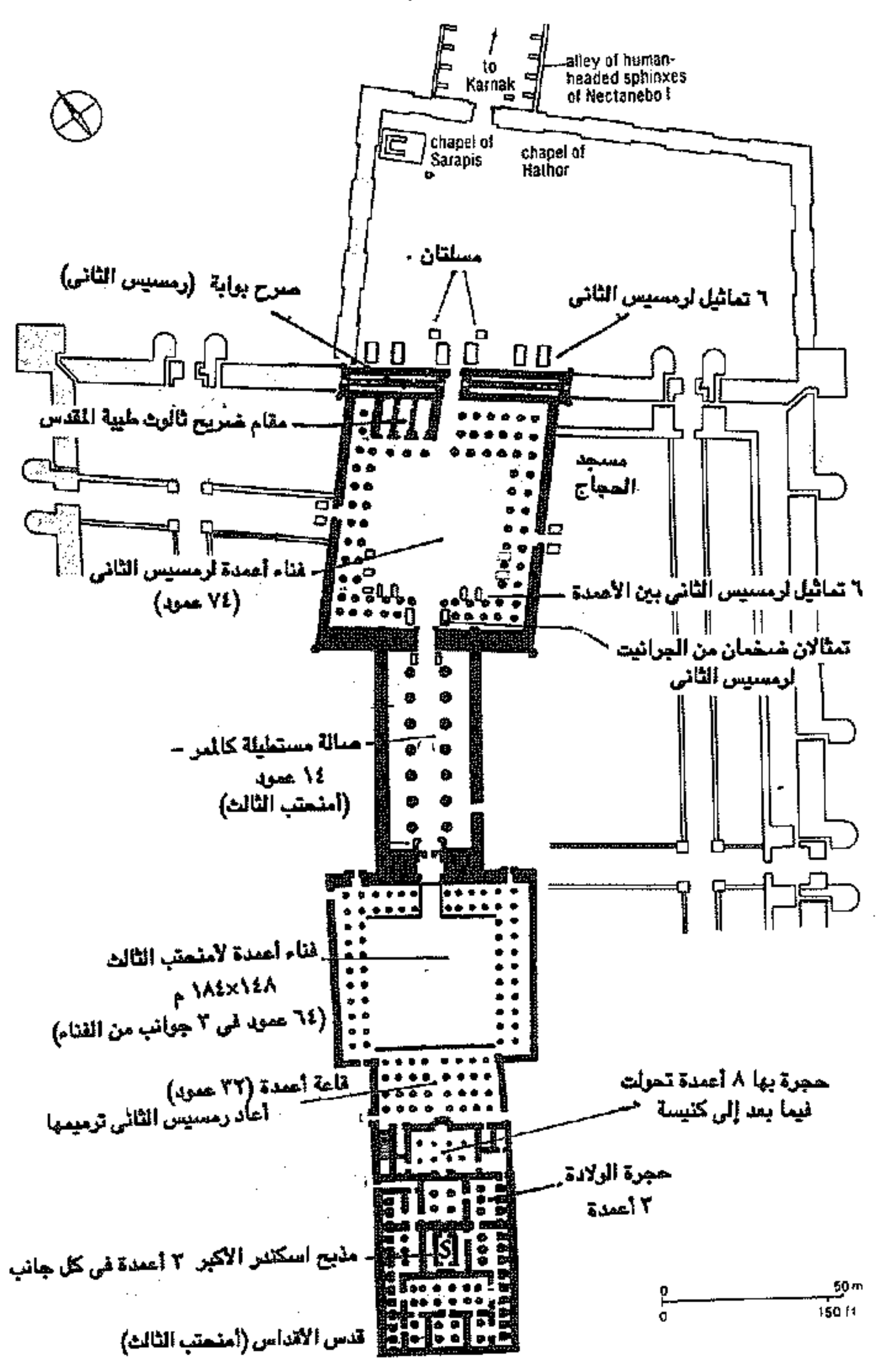
معبد الأقصر

scale 1 : 50

شكل ١٦٣ – رسم تخطيطى عام لمدينة الأقصر والقرنة فى البر الغربى والآثار الموجودة بهما .

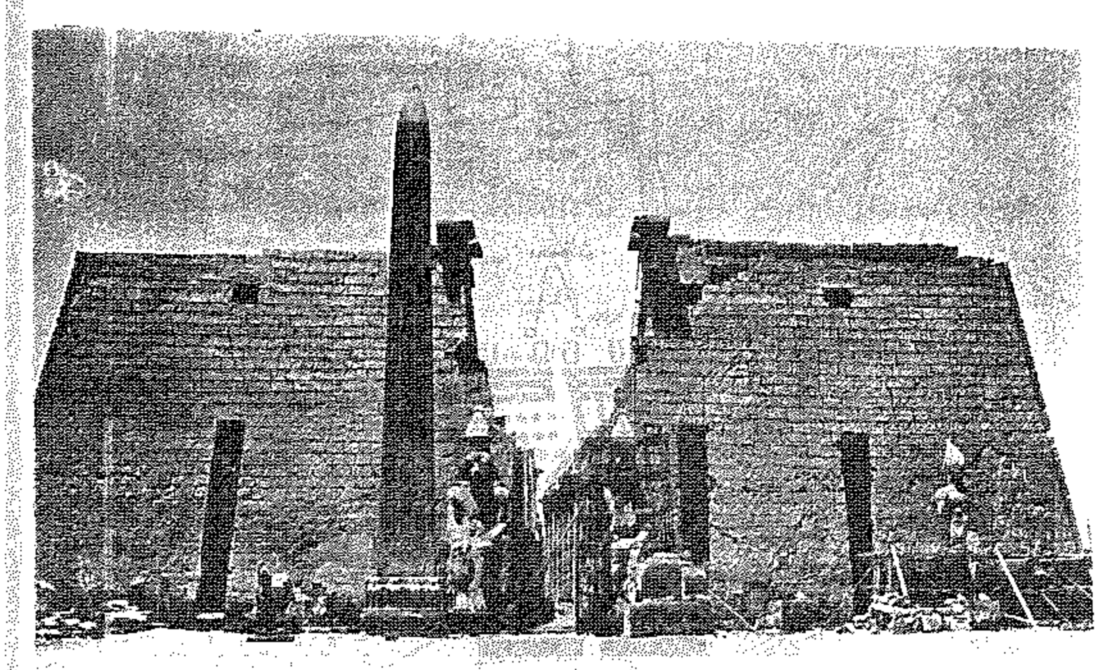


شكل ١٦٤ – طريق الكباش الموصل بين معبد الأقصر ومعابد الكرنك

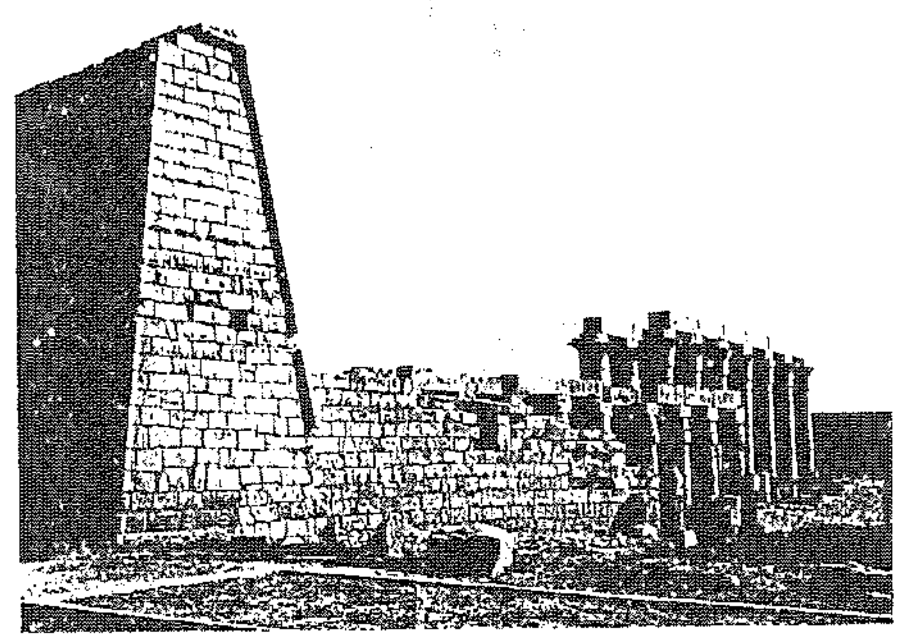


شكل ١٦٥ – رسم تخطيطى لمعبد الأقصر .

نقلا عن كتاب رمسيس المنتصر . كتشن . ص ١٨٠



شكل ١٦٦ – تمثالا رمسيس الثاني الموجودان أمام بوابة معبد الأقصر. وإحدى المسلتين في مكانها أما الثانية فقد نقلت إلى ميدان الكونكورد في باريس .



شكل ١٦٧ – صرح البوابة الضخمة التي أقامها رمسيس الثاني في معبد الأقصر، يليها بعض الأعمدة من قاعة العمد. أما الأعمدة المرتفعة فهي الـ ١٤ عمودا التي أقامها أمنحتب الثالث.

(شكل ١٦٦) بينما نقلت الثانية إلى ميدان الكونكورد فى باريس، وعلى الواجهة كان يوجد ٦ تماثيل ضخمة لرمسيس الثانى. التمثالان المجاوران للباب يمثلانه جالسا (شكل ١٦٦)، كما أقام لنفسه تمثالين ضخمين أيضا داخل الساحة بجوار الأعمدة من الناحية القبلية. ثم يُفضى بنا باب إلى الصالة المستطيلة التى بها ١٤ عمودا والتى بناها أمنحتب الثالث وأقام رمسيس الثانى فيها تمثالين ضخمين له يمثلانه جالسا. وترى الملكة نفرتارى بجوار الرجل اليمنى من الناحية الشمالية – وفى الناحية الجنوبية تمثال مزدوج للإلهين «آمون» و «موت» جالسين.

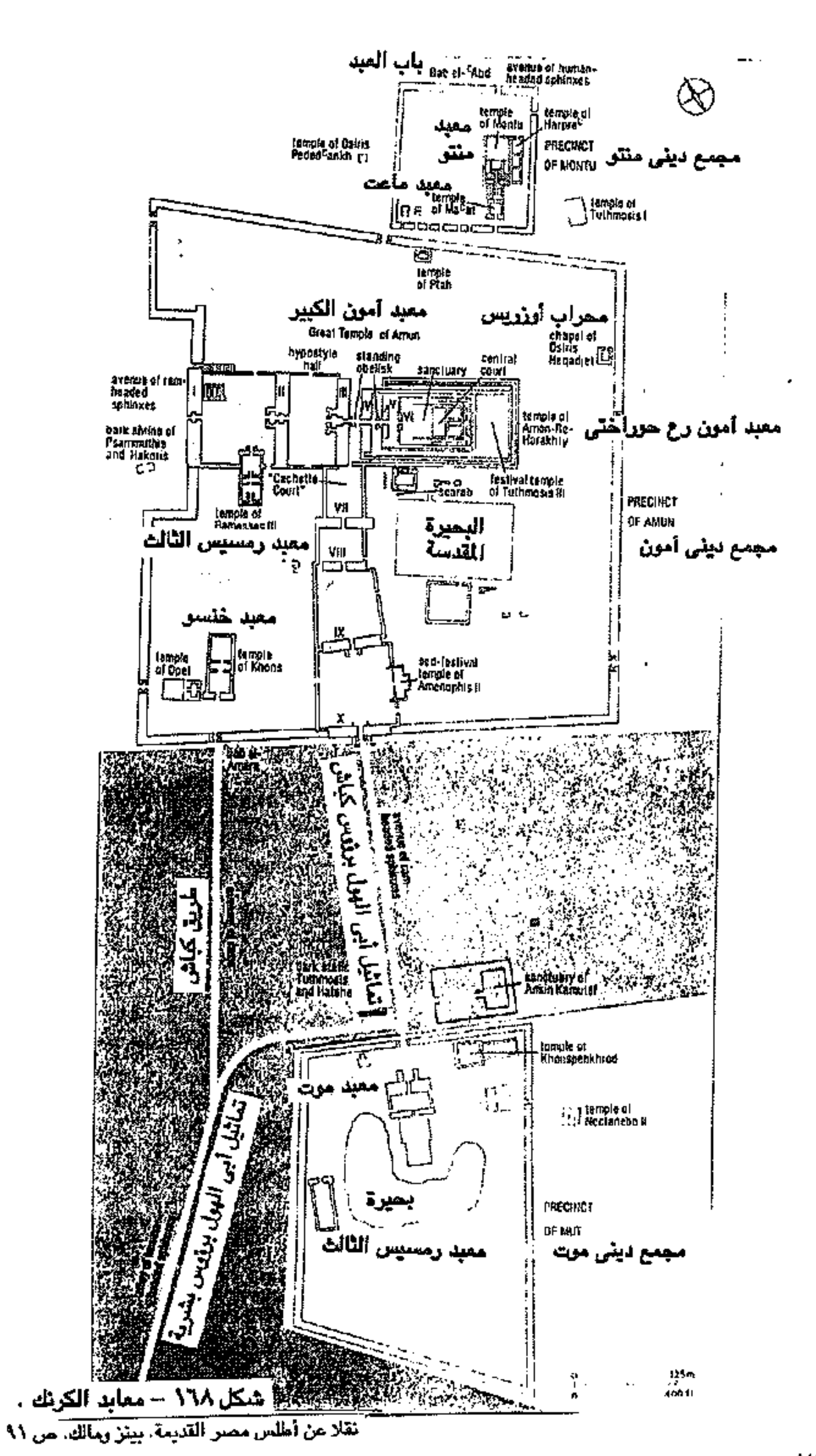
٢ – معبد الكرنك :

يطلق اسم الكرنك حاليا على مساحة من الأرض تبلغ ١,٥×٠,٨ كم تقريبا بها بقايا معابد وأضرحة. كانت هذه المساحة فيما مضى مركز عبادة ثالوث طيبة الإلهى وعلى رأسهم «آمون» الذى بزغ نجمه بين الآلهة ابتداء من الدولة الوسطى وتوطد سلطانه فى الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. وظل له المكانة الأولى فى الديانة المصرية القديمة لمدة تقرب من ألفى سنة. ويشمل الكرنك ثلاثة معابد يمكن تحديد كل منها ببقايا السور الذى كان يحيط بكل معبد (شكل ١٦٨). أكبرها وأهمها هو معبد آمون أو ما يمكن تسميته الحرم الآمونى لأنه يحتوى فى داخله معبد آمون وبعض المعابد الأخرى. وإلى الشمال من الحرم الآمونى يوجد معبد «منتو» وإلى الجنوب يوجد معبد «موت». وهذا الأخير يتصل بمعبد آمون بطريق الكباش وهو طريق على جانبيه تماثيل تشبه أبى الهول إلا أنها برؤوس كباش (شكل ١٦٤) ويتصل الجميع بمعبد الأقصر بطريق على جانبية تماثيل أبى الهول برؤوس بشرية.

معبد آمون : وسنكتفى بالرسم التخطيطى للمعبد (شكل ١٦٩) والكتابة المدرجة عليه مع نبذة قصيرة. لبيان كيف انتهى الأمر إلى أن يكون للمعبد محوران واحد من الشرق للغرب والثانى من الشمال إلى الجنوب. وإن كان قد تم ترقيم البوابات الصرحية بأرقام من ١ إلى ١٠. فهذا لا يدل على ترتيب تواريخ إقامتها. ذلك أن المعبد عند أول إنشائه بواسطة تحتمس الأول كان يتكون فى البداية من بوابة ذات صرح وهى المرقمة بالرقم ٤ ثم صالة بها ١٤ عمودا كانت مطلية بالذهب. ثم تليها البوابة رقم ٥ ثم مساحة خالية. وكان تحتمس الأول قد أقام له مسلتين أمام البوابة ٤. لاتزال إحداهما قائمة إلى الآن.

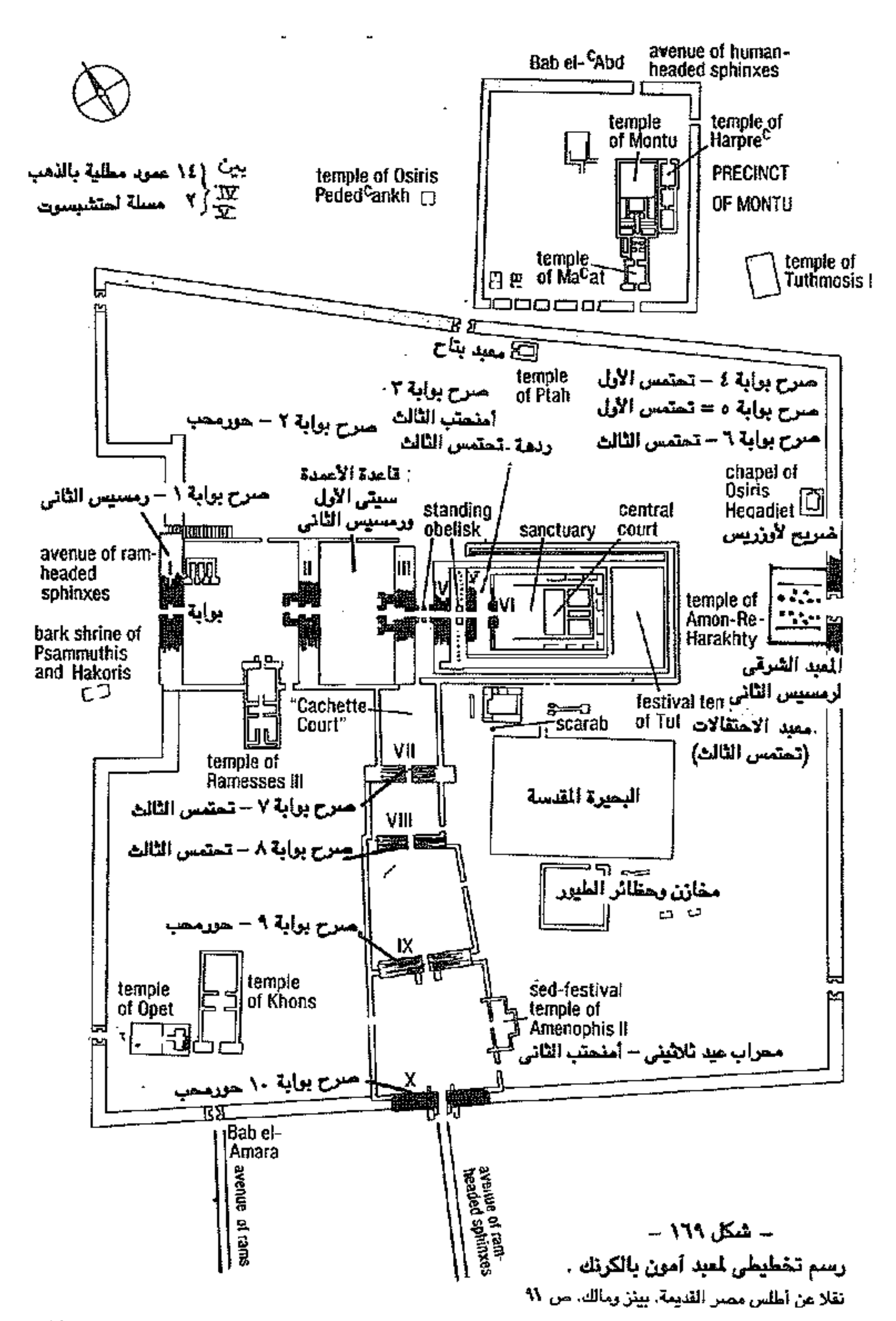
ثم جاء تحتمس الثالث فزاد فيه من ناحية الشرق ردهة ثم البوابة رقم ٦ ثم دهليز يؤدى إلى قدس الأقداس. ووضع لنفسه مسلتين أمام البوابة. ثم جاء أمنحتب الثالث فزاد فيه من ناحية الغرب وبنى البوابة رقم ٣. وكانت حتشبسوت قد وضعت لنفسها مسلتين بين الأربعة عشر عمودا الموجودة بين البوابتين ٤ ,٥ .

ثم جاء سيتى الأول وعمل إضافات فى الجهتين الشرقية والغربية ولم يتمها إلى أن مات



شكل ١٦٨ – معابد الكرنك .

نقلا عن أطلس مصر القديمة، بينز ومالك، ص ٩١



- شكل ١٦٩ -

رسم تخطيطي لمعبد آمون بالكرنك .

نقلا عن أطلس مصر القديمة، بينز ومالك، ص ٩١

فأكملها رمسيس الثانى ومحا اسم والده ونسبها كلها لنفسه بل ونسب المعبد بأكمله لنفسه وسماه «معبد روح رمسيس محبوب آمون فى بيت آمون».

ب – آثار البر الغربى :

١ – مقبرة رمسيس الثانى فى وادى الملوك: وهى محفورة إلى عمق ٤٠٠ قدم فى الصخر منها ممر يبلغ طوله ١٥٠ قدما. إلاَّ أن مومياء رمسيس الثانى نقلت منها بعد إعادة تحنيطها إلى خبيئة الدير البحرى مع غيرها من مومياوات الفراعنة حفظا لها من عبث اللصوص. وهو ما سنشرحه فيما بعد (ص ٩٦٢).

٢ – معبد القرنة:

وقد أقامه سيتى الأول عند مدخل وادى الملوك تكريما للإله «آمون» وليكون معبدا جنازيا لوالده رمسيس الأول. ولم يكن قد تم حين توفى سيتى الأول فأكمله رمسيس الثانى وجعله معبدا جنازيا لجده ووالده معا. وقد تهدم ولم يبق منه إلا أجزاء متناثرة.

٣ – الرمسيوم Ramesseum (شكل ١٧٠) :

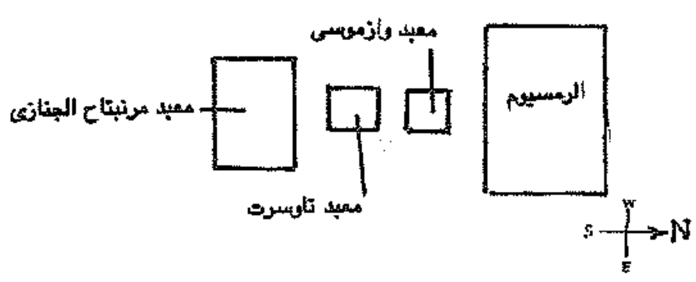
بدأ سيتى بناء الرمسيوم ليكون معبده الجنازى ولكنه توفى والبناء فى بدايته فقط فأتمه رمسيس الثانى وحوَّله ليكون معبدا جنازيا لنفسه ويمكن تمييز فن سيتى الأول ذى النقوش البارزة بينما استعمل رمسيس الثانى النقش الغائر. وشكل ١٧٠ يبين تخطيط الرمسيوم. وكان يشغل مساحة ٥٥٠×٩٠٠ قدما ولكن أغلب هذه المساحة الكبيرة تشغله المبانى الثانوية – إذ يحيط بالمعبد حجرات كثيرة مبنية بالطوب اللبن مخصصة مساكن للكهنة وعائلاتهم. وبعضها مخازن وصوامع للغلال وكانت من الكثرة والسعة بحيث تحوى المؤن اللازمة لإعاشة ٦٠ عائلة (كهنة وخدام المعبد) لمدة سنتين فكانت بها كميات هائلة من القمح والزيت والنبيذ والعسل.

وقبل البدء بوصف مكونات معبد الرمسيوم نشير إلى أنه إلى الجنوب مباشرة من السور الخارجى (شكل ١٧١) يقع معبد للأمير «وازموسى» ابن تحتمس الأول – وإلى الجنوب أكثر كان يوجد معبد للملكة «تاوسرت» ابنة مرنبتاح. وجنوبه توجد بقايا قليلة من معبد مرنبتاح الجنازى وكان كبيرا يصل إلى $\frac{2}{3}$ من مساحة الرمسيوم. وفى عام ١٨٩٦ عثر بترى عالم الآثار الشهير على لوحة عليها نشيد النصر الذى كتبه مرنبتاح أو لوح إسرائيل وترجع أهميته إلى أنها هى المرة الأولى – والوحيدة – التى جاء فيها ذكر إسرائيل بالإسم فى الآثار المصرية. وقد تكلمنا عنه بالتفصيل من قبل (ص ٦٧٠ – ٦٧٥).

فإذا عدنا إلى الرمسيوم نجد فى الركن الجنوبى الشرقى من مساحة المعبد (جنوب المدخل) بقايا قصر لرمسيس الثانى لعله كان يُستخدم لإقامته فى الأيام التى كانت تقام فيها احتفالات فى المعبد.

مخازن القمح والنبيذ والزيت والعسل
مساكن الكهنة وخدام المعبد (٦٠ عائلة)
قدس الأقداس
مقصورة القارب الملكى
٣ قاعات صغيرة
قاعة العمد العظمى (٤٨ عمود)
١٨ عمود فى كل جانب بارتفاع ٢٥ قدم
١٢ عمود فى صفين بارتفاع ٣٦ قدم
٣ أبواب
شرفة مرتفعة صف أعمدة أوزيرية (٤ بكل ناحية)
ثلاث سلالم
صفان من الأعمدة فى كل جانب
الفناء الثانى
صف أعمدة أمامها ٤ تماثيل أوزيرية فى كل ناحية
الصرح الثانى
تمثال ضخم لرمسيس الثانى
وقع نصفه الأعلى على الأرض
سلم
الفناء الأول
قصر رمسيس الثانى
صفان من الأعمدة فى الجهة الجنوبية
الصرح الأول
W S N E

شكل ١٧٠ – رسم تخطيطى للرمسيوم وهو المعبد الجنازى لرمسيس الثانى .



شكل ١٧١ – الرمسيوم والمعابد التى فى جنوبه .

نقلا عن كتاب رمسيس المنتصر ـ كتشن ـ ص ١٧٦

أما مدخل المعبد نفسه فواجهته تبلغ ٢٢٠ قدما وهى عبارة عن صرح كبير ببرجين. وقد تهدم جزء كبير منه ومعركة قادش مسجلة على الجانب الداخلى لما بقى منه. ويؤدى المدخل إلى فناء أول (مكشوف). وفى الجانب الجنوبى (على شمال الداخل) صفان من الأعمدة كل صف به ١٠ أعمدة وعلى اليمين ١١ عمودا وفى المقابل يوجد أضخم تمثال لرمسيس الثانى على الإطلاق يمثله جالساً وارتفاعه ٣٣ مترا ويزن حوالى ١٠٠٠ طن. وبالصعود على درج تنفذ من باب إلى الفناء الثانى. وبجوار الجانب الشرقى يوجد أعمدة أمامها ٨ تماثيل (٤ فى كل جانب من الباب) لرمسيس الثانى على هيئة أوزير ويقابلها فى الجانب الغربى شرفة مرتفعة بعض الشيىء يُصعد إليها بثلاث سلالم (كل سلم بعدة درجات) يوجد بها ٨ تماثيل أوزيرية لرمسيس الثانى مقابلة للثمانية السابق ذكرها أما باقى الجدران فأمامها أعمدة (١٧ عمودا فى كل جانب). وتؤدى الشرفة من خلال ٣ أبواب إلى قاعة العمد العظمى وبها ٤٨ عمودا ثم بعد ذلك ٣ صالات صغيرة مربعة تلى الواحدة الأخرى. بكل واحدة ٨ أعمدة ثم تليها مقصورة القارب الملكى وبها ٤ أعمدة ثم فى النهاية قدس الأقداس. وعلى يمين قاعة العمد العظمى (الجانب الشمالى) يوجد معبد الملكة «تويا» والدة رمسيس الثانى وقد أضيفت إليها «نفرتارى» زوجته.

وسنذكر فيما بعد (ص ٧٧٧) ما أصاب المعبد من دمار إثر زلزال ضرب المنطقة بعد عدة أشهر من الاحتفال بالعيد الثلاثينى الأول لرمسيس الثانى.

٥٣ – أرمنت :

تقع على الضفة الغربية لنهر النيل جنوب القرنة ووادى الملوك والملكات (شكل ١٦٢ ص ٧٤٣) وقد عثر بها على تمثال ضخم من الجرانيت الأحمر لرمسيس الثانى موجود الآن بالمتحف المصرى. كما أقيم فى أرمنت معبد للإله «منتو» فى عهد البطالمة استعملت فيه أحجار وجد عليها اسم رمسيس الثانى وكتابات ذكرت فيها أعياده الثلاثينية كما وجد تمثال لأحد وزرائه اسمه «أمنمأبت» عليه خرطوشة اسم رمسيس الثانى. ومن الطريف أن مرنبتاح محا اسم والده الذى كان على نقوش بوابة معبد أرمنت ووضع مكانه اسمه. غير أن طريقة المحو التى اتبعها كانت غير متقنة إذ وضع طبقة من الجبس فوق اسم والده ثم كتب عليها اسمه. ولكن الجبس سقط وظهر اسم رمسيس الثانى ثانية.

٥٤ – الكاب : (شكل ١٦٢)

أقام رمسيس الثانى معبداً للإلهة «نخبت» كما أقام محرابا للإله «تحوت» كما زاد فى المعبد الذى كان قد أقامه أمنحتب الثانى فى هذه البلدة. ونقش رمسيس الثانى اسمه فى كل مكان وشوه الأعمدة بكتابة اسمه عليها . كذلك وجدت لوحة لرمسيس الثانى مع الإله «رع حوارختى» لأثر تهدم واستخدمت حجارته فى بناء معبد للبطالمة.

٥٥ – جبل السلسلة : (شكل ١٦٢)

يقع هذا المكان على الضفة الغربية للنيل ٢٠كم شمال كوم امبو. وفيه تبرز الصخور بحيث تضيِّق مجرى النهر وتشكل عائقا للملاحة ولابد من استعمال المجاديف ويقال إن الاسم المصرى القديم لها هو خِنو أو خينى تعنى مكان التجديف (أطلس مصر القديمة – چون بينز. ص٧٥). وكان «حورمحب» قد نحت لنفسه مقصورة فى جبل السلسلة. وقد نقش رمسيس الثانى لنفسه نقوشا كثيرة فى هذه المقصورة. فنشاهد على يسار الباب الشمالى لوحة عليها رمسيس الثانى ومعه كاهن وتتبعه الملكة «إست نفرت» والأميرة «بنت عنتا» يقدمون صورة العدالة للإله «بتاح» والإله «نفرتم». وفى الردهة صورة لرمسيس الثانى يتعبد إليه الكاتب الملكى. وفى غرب السلسلة نجد له محرابا مقطوعا فى الصخر وبه رسم لرمسيس الثانى أمام الإله «آمون رع» والإله «تحوت» ورسم آخر للملك وهو يقدم البخور للآلهة «أوزير» و «إيزيس» و «مين» وكذلك يقدم البخور للآلهة «سبك» والإلهة «تننت» والإلهة «رعت توى» والإلهة «حتحور».

٥٦ – أسوان وإليفانتين (شكل ١٧٢) :

كانت إليفانتين هى عاصمة المقاطعة الأولى لمقاطعات الصعيد واكتسبت أهميتها من الحماية الطبيعية التى هيأتها لها الجزر الصخرية التى تكون الشلال الأول. وفى جزيرة إليفانتين وجد اسم رمسيس الثانى مكتوبا على قاعدة تمثال أسد. كذلك عثر على قطعة من لوحة تسجل زواج رمسيس الثانى من ابنة ملك الحيثيين. وفى أسوان عثر على الجزء الأعلى من تمثال لرمسيس الثانى موجود الآن بالمتحف البريطانى. كما وجد له متن على قطعة حجر. وعلى الطريق القديم الذى بين فيلة وأسوان وجدت لرمسيس الثانى لوحة منحوتة يشاهد فى الجزء العلوى منها. رمسيس الثانى والملكة «إست نفرت» والأمير خعمواست أمام الإله خنوم وفى الجزء السفلى يُشاهد أبناؤه: الأمير رمسيس والأميرة بنت عنتا والأمير مرنبتاح يتعبدون.

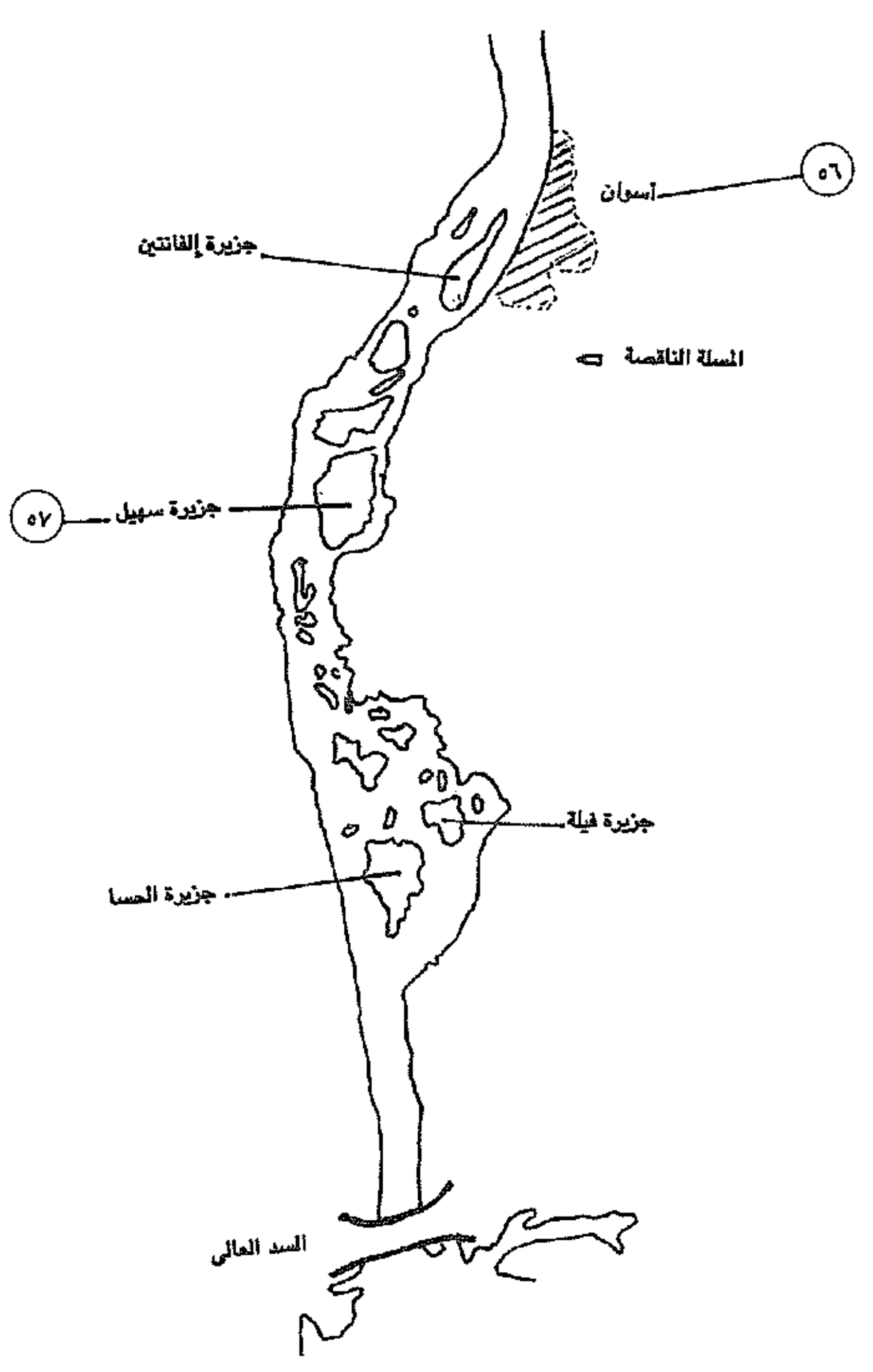
ولعل النقش الذى فى أسوان وذلك الذى فى جبل السلسلة المذكور آنفا هما النقشان الوحيدان اللذين تظهر فيهما الملكة «إست نفرت». أما باقى النقوش التى كانت تظهر فيها ملكة مع رمسيس الثانى فكانت دائما نفرتارى.

٥٧ – جزيرة سهيل :

وجدت نقوش كثيرة من عهد رمسيس الثانى. يشاهد فى أحدها وهو يقدم خمرا للإله «خنوم» والإلهتين «ساتت» و «عنقت» وفى الجزء السفلى من اللوحة موظف يتعبد لطغراء (خرطوشة اسم) رمسيس الثانى.

د – إنشاءات رمسيس الثانى فى النوبة :

٥٨ – معبد بيت الوالى :



شكل ١٧٢ – آثار رمسيس الثانى من أسوان حتى السد العالى .

تقع بيت الوالى على الضفة الغربية للنيل وقد أقام رمسيس الثانى بها معبدا عرف باسم «معبد بيت الوالى» وكان مدخله بوابة مبنية بالطوب ثم نحتت حجرات المعبد فى الصخر وقد تم تخصيصه للإله «آمون رع» وآلهة أخرى. والمعبد بسيط فى تكوينه إذ يلى المدخل قاعة عمد فى نهايتها قدس الأقداس. والجدران مزينة بلوحات تمثل الفترة من حياة رمسيس الثانى أيام مشاركته لوالده فى الحكم ونائبا على النوبة. ولوحات أخرى تبين انتصاره على النوبيين إذ نراه جالسا على عرشه وعظماء النوبة يقدمون له الجزية. وفى لوحة ثالثة صور انتصاره على الليبيين والسوريين. وقد تم نقل معبد بيت الوالى إلى قرية كلابشة الجديدة حيث أن كلابشة القديمة كانت تغرق معظم الوقت فى مياه خزان أسوان. وبين عامى ١٩٦٢ – ١٩٦٤ تم نقل المعبد إلى مكان يرتفع عن مياه بحيرة السد إلا أن البوابة قد أهديت إلى متحف برلين الغربية.

٥٩ – **معبد جرف حسين** : أقامه رمسيس الثانى فى السنوات ٣٥–٥٠ من حكمه على الضفة الغربية للنيل. وجزء من المعبد كان مبنيا وجزء منحوت فى الصخر. وفى قدس الأقداس كانت توجد تماثيل للآلهة الأربعة التى أقيم المعبد لها وهم: بتاح – رمسيس الثانى – بتاح تانن والصقر فوق رأسه – وحاتحور.

كما توجد نقوش على الجدران تمثل رمسيس الثانى بين عدد من الآلهة.

١ – بين «أمون رع» و «موت» – ٢ – بين «حور» و «كوبان».

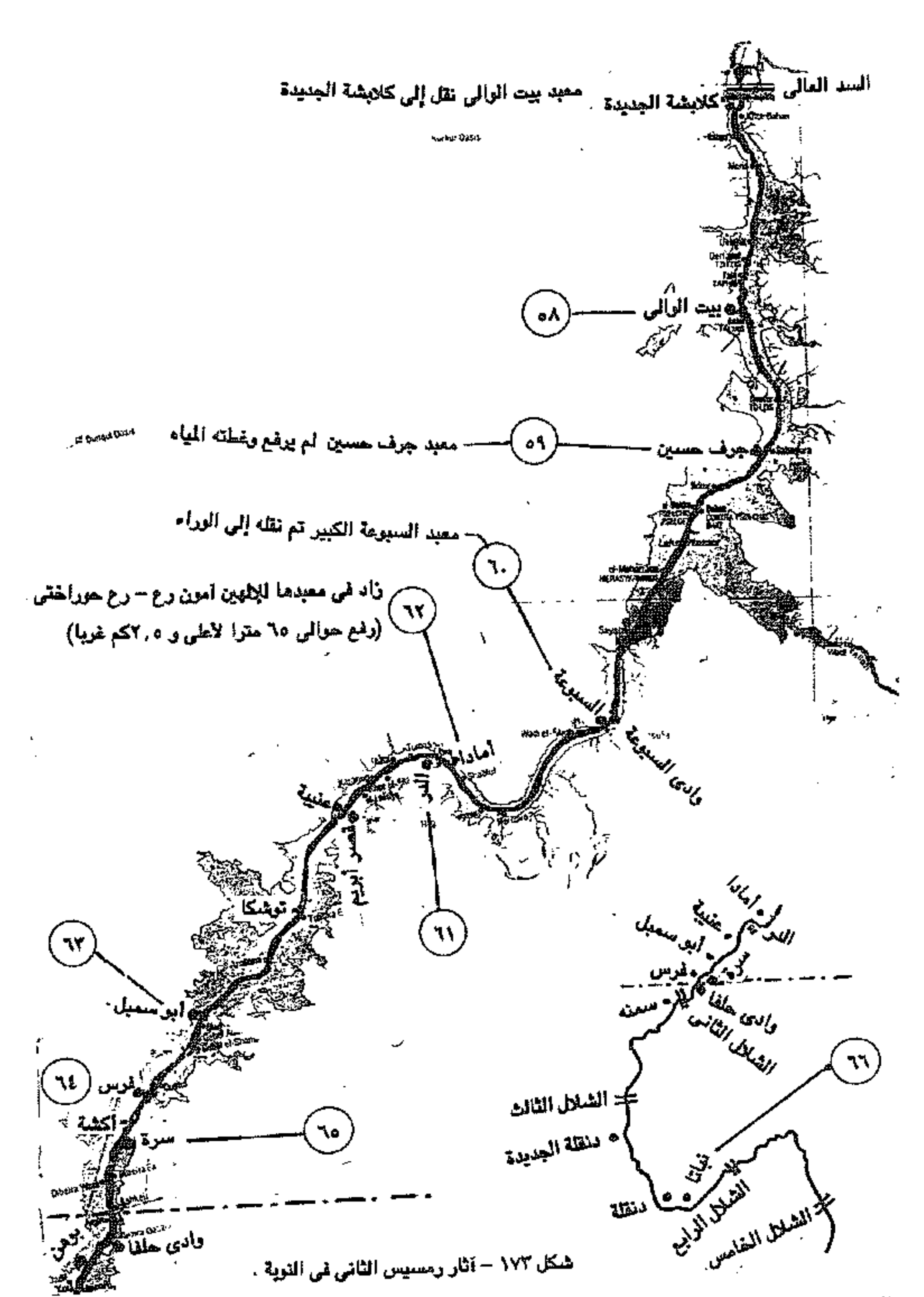
٣ – بين «بتاح تانن» و «حاتحور» – ٤ – بين «بتاح» و «سخمت».

٥ – بين «خنوم» و «عنقت» – ٦ – بين «نفرتم» و «ساتت».

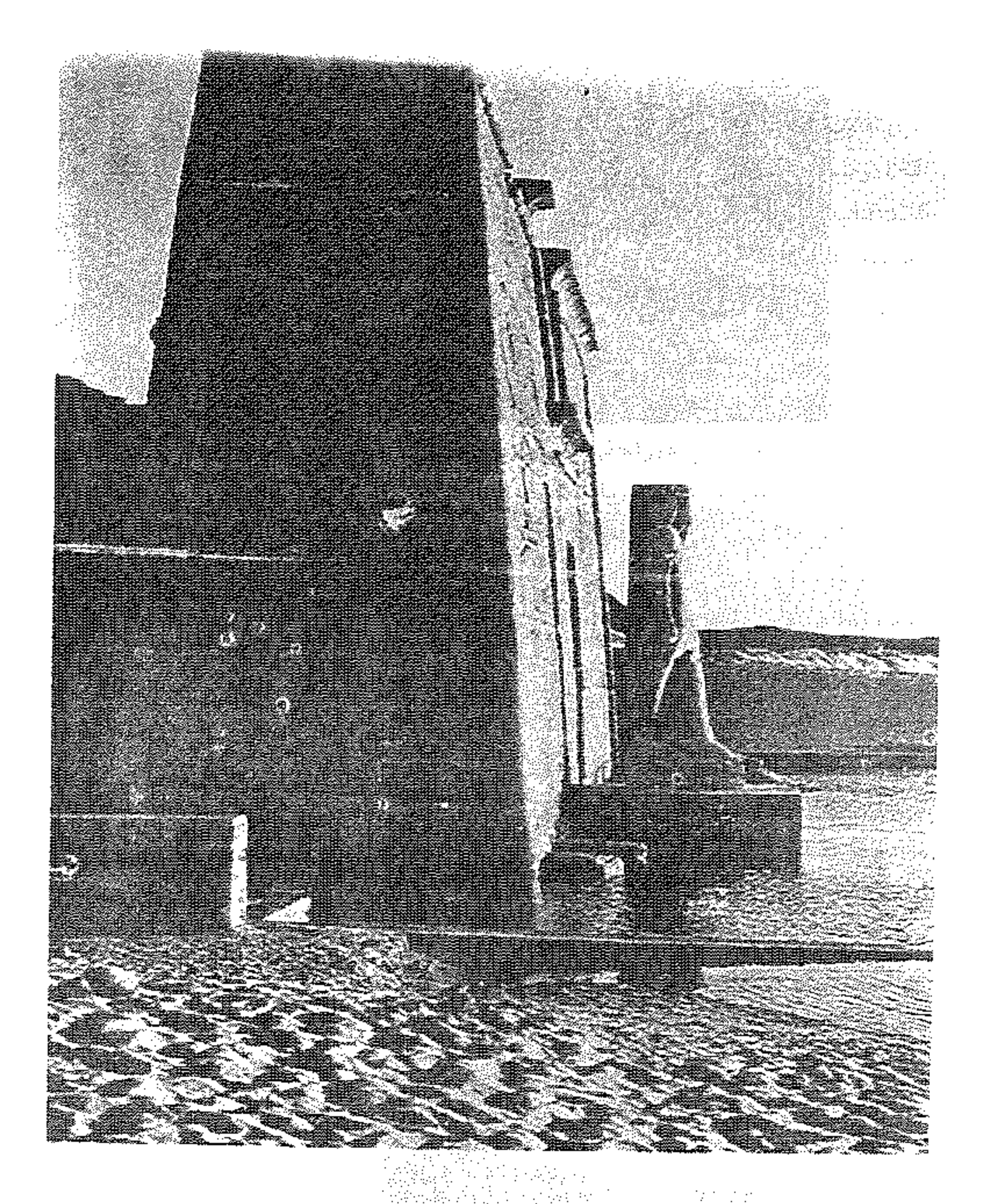
ومنها ندرك ولع رمسيس الثانى بوضع نفسه بين الآلهة كأنه واحد منهم. وهذا المعبد لم يرفع من مكانه وقد غطته الآن مياه بحيرة السد العالى.

٦٠ – **السبوعة** : تقع هذه البلدة على الضفة الغربية للنيل وبها معبدان: المعبد الصغير بناه أمنحتب الثالث للإله حورس ثم بعد ذلك تم تحويله للإله آمون – أما المعبد الكبير (شكل ١٧٤ – ١٧٥) فقد بناه رمسيس الثانى وكان يسمى «برآمون» أى «بيت آمون». وقد أهداه رمسيس الثانى إلى «آمون» و «رع حوراختى» إله الشمس. وكان رمسيس الثانى ضمن الآلهة الذين كانوا يعبدون فيه. وكان به تمثال لرمسيس الثانى أمام البوابة. وعدة تماثيل له على هيئة أبى الهول (شكل ١٧٦). وفى قدس الأقداس صورة لرمسيس الثانى يقدم قربانا لصورته أى يتعبد لنفسه.

ويتكون المعبد من ثلاث بوابات كبيرة وثلاث ردهات ثم قاعة الأعمدة. هذه كلها مبانى ثم نأتى إلى الجزء المنحوت فى الصخر ويتكون من دهليز مستعرض يؤدى إلى قدس الأقداس بالإضافة إلى حجرتى تعبد جانبيتين. وقد تم نقل المعبد بواسطة منظمة اليونسكو ٤كم إلى الوراء حتى لا تغرقه مياه بحيرة السد.



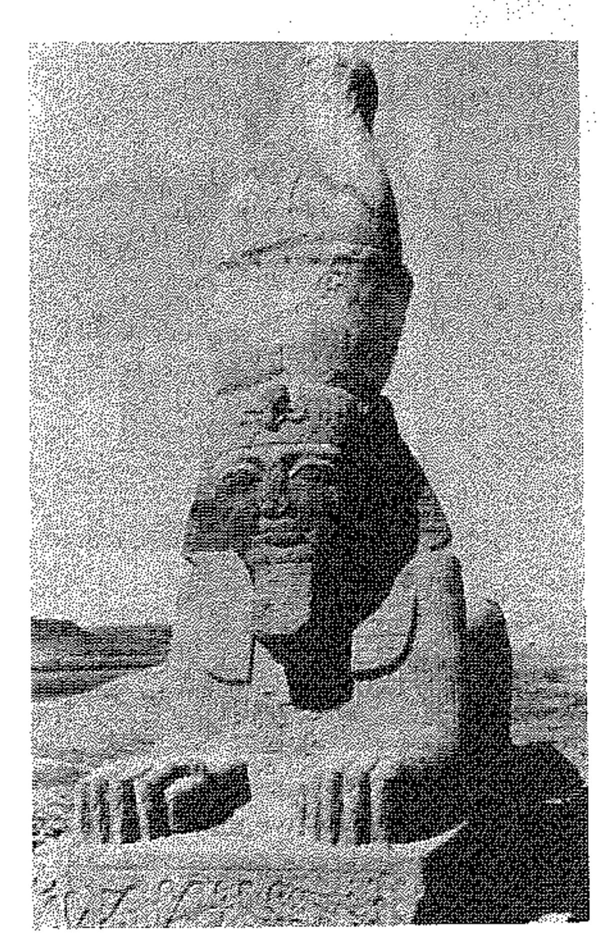
شكل ١٧٣ – آثار رمسيس الثانى فى النوبة .



شكل ١٧٤ – معبد وادي السبوعة وأمامه تمثال رمسيس الثاني
وكان الفيضان يغرقهما كل عام قبل نقلهما إلى كلابشة الجديدة.



شكل ١٧٥ – معبد وادى السبوعة



شكل ١٧٦ – أحد التماثيل المقامة أمام معبد وادى السبوعة وهى على هيئة أبو الهول برأس رمسيس الثانى.

٦١ – معبد الدر Derr :

وهو المعبد الوحيد في النوبة الموجود على الضفة اليمنى لنهر النيل وفي هذا المكان يتجه النيل جنوب شرق. فهو في الواقع يقع على الضفة الغربية لذلك الجزء من النيل. ويقع عند سفح التلال ومنحوت في الصخر ويسمى معبد «رمسيس في بيت رع». وفي المعبد صور للآلهة التي كانت تعبد فيه وهم: «بتاح» و «آمون رع» و «رمسيس الثاني» و «حوراختي». وهكذا اعتبر رمسيس الثاني نفسه أحد الآلهة.

ومعبد الدر من المعابد التي أنقذتها منظمة اليونسكو إذ تم فكه في عام ١٩٦٤ ونقل إلى مكان قرب «أمادا».

٦٢ – **أمادا** : وتقع على الضفة اليسرى لنهر النيل وكان بها معبد بدأه تحتمس الثالث للإلهين «آمون رع» و «رع حوراختي». وزاد عليه تحتمس الرابع قاعة. وكذلك زاد فيه سيتي الأول. وزاد رمسيس الثاني فيه زيادات بسيطة وقد قامت منظمة اليونسكو عام ١٩٦٤ برفع المعبد حوالي ٦٥ مترا إلى أعلى وإلى مكان يبعد ٢,٥ كيلو مترا عن مكانه الأصلي حتى لا تغرقه بحيرة السد العالي ومما يُذكر أنه عند رفعه تم رفع جزء من المعبد يزن ٩٠٠ طن كتلة واحدة (أطلس مصر القديمة – چون بينز – ص ١٨٢).

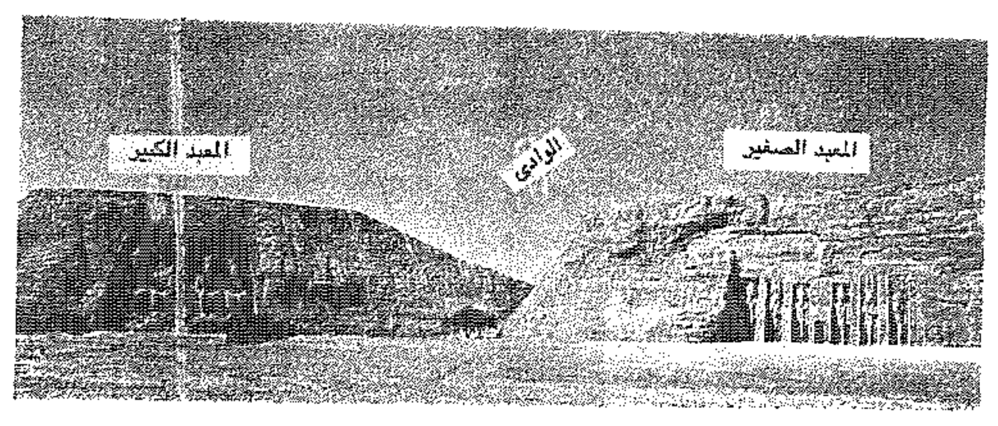
٦٣ – أبو سمبل :

تقع مدينة أبي سمبل على الضفة الغربية للنيل ٢٨٠كم جنوب أسوان و٧٠كم شمال الحدود بين مصر والسودان (شكل ١٧٣) ولا يعرف سبب تسميتها بهذا الإسم ويقال إن راهبا اسمه «سمبل» كان يتعبد في صومعة له هناك في القرن الأول الميلادي وكان يُنادَى «أبونا سمبل» ومن ثم عرف المكان بهذا الاسم. وقد أقام رمسيس الثاني بهذه المنطقة معبدين لا يفصلهما إلا وادٍ ضيق: المعبد الصغير إلى الشمال شرق من المعبد الكبير (شكل ١٧٧ و ١٧٨). وقد أصبحت لهما شهرة عالمية منذ اهتمت بهما منظمة اليونسكو واعتبرتهما أثرين فريدين يجب المحافظة عليهما من الغرق في بحيرة السد العالي وعملت على نقلهما – مع خمس معابد أخرى – إلى مكان لا تطولها فيه بحيرة السد.

أ – **معبد أبي سمبل الكبير** : لا بأس من إحاطة القارىء ببعض التفاصيل العامة عن هذا المعبد الذي وصفه عالم الآثار المصري سليم حسن (مصر القديمة جـ٦ ص٣٤١) بقوله: قد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن «معبد أبي سمبل» يعد أعظم بناء صنعه الإنسان على وجه البسيطة في زمانه. والواقع أن رمسيس الثاني كان يقصد أن ينحت مبنى منقطع النظير يفوق به كل من سبقه فاختار موقعا تبرز فيه صخور الشاطىء تجاه النيل في نتوء مخروطي الشكل ونحت فيه معبده وعلى واجهته نقش لوحات مجد بحيث يقرأها الملاحون أو الجنود الذين ينحدرون في

اسوان
معبد أبى سمبل الصغير
أبو سمبل
وادى حلفا
قدس الأقداس
دهليز
قاعة أعمدة
٦ تماثيل ضخمة
الوادى
معبد أبى سمبل الكبير
٤ تماثيل ضخمة
نهر النيل
بوابة
قدس الأقداس
دهليز
قاعة الأعمدة الثانية
قاعة الأعمدة الأولى

شكل ١٧٧ – موقع معبدى أبى سمبل .



شكل١٧٨ – معبدا أبى سمبل ويفصلهما وادى صغير .

النهر أو يصعدون فيه ويقرأون مدائح الفرعون وأعماله العظيمة.

وقد قامت منظمة اليونسكو التابعة لهيئة الأمم المتحدة بنقله إلى مكان مرتفع حتى لا تغرقه مياه بحيرة السد العالي وشكل ١٧٩ يبين واجهة المعبد كما رسمها فنانو الحملة الفرنسية وكان لايزال نصفه مطموراً في الرمال. وقد لفت الأنظار إليه الأثريان بوركهاردت في عام ١٨١٢ J.L. Burkhardt و بلزوني عام ١٨١٧ G.B. Belzoni.

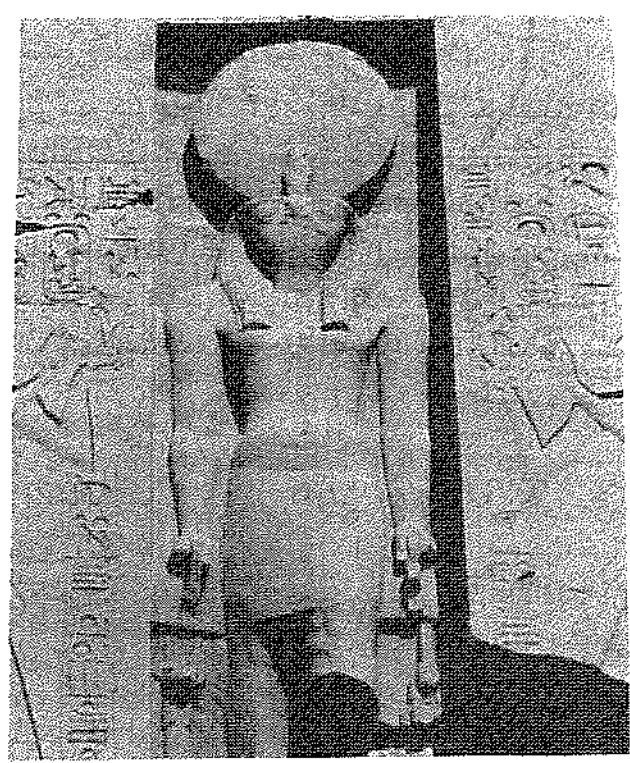
وقد بناه رمسيس الثاني في السنوات الأولى من حكمه. وواجهته مساحتها ٣٥ مترا عرضا في ٣٠ مترا ارتفاعا وبها ٤ تماثيل ضخمة لرمسيس الثاني جالسا. كل واحد منها ارتفاعه حوالى ٢١ مترا. ورغم ضخامتها فقد أبدع المثَّال في نحت ملامح الوجه الوسيم يفيض عنه جلال شامخ وفي قسماته شباب غض وابتسامة رقيقة. وبجانب سيقانه وفيما بينها تقف أمه وزوجته نفرتارى وعدد من بنيه وبناته وكلها بحجم صغير بحيث لا تتجاوز ركبته. والواجهة على شكل صرح يعلوه كورنيش ومن فوقه صف من ٢٢ قردا ترفع أذرعها تهلل للشمس المشرقة. ويتوسط الواجهة مدخل عظيم يعلوه تمثال الإله الشمس «رع حوراختى» بجسم رجل ورأس صقر يعلوه قرص الشمس (شكل ١٨٠) وعن يمين وشمال نقش يمثل رمسيس الثانى وهو يقدم للإله الشمس تمثال صغير للإلهة «ماعت» إلهة الحق والعدالة وتمثله الصورتان وهو يميل قليلا إلى الأمام في غير خضوع محتفظا بجلاله ووقاره (شكل ١٨١).

ويؤدى المدخل إلى بهو كبير أبعاده ١٦×١٧,٥ متر. في كل جانب منه صف من أربعة أعمدة تتكىء عليها تماثيل ضخمة للملك واقفا ومرتديا التاج المزدوج وحاملاً العصا والمذبة أو المنشة. وارتفاع كل تمثال ١١ مترا (شكل ١٨٢). والتماثيل تمثل الملك في هيئة أوزير – فاليدان متقاطعتان على الصدر وممسكتان بالعصا المعقوفة (اليمنى) والسوط أو المنشة (في اليسرى) واليد اليمنى فوق اليسرى. وفي تماثيل أوزير تكون اللحية ملفوفة إلى الأمام ولكن لحية رمسيس الثانى في هذه التماثيل تبدو مستقيمة دلالة على أنه لايزال حيا. والساقان ملفوفتان في الكتان. كل هذا يرمز إلى أن رمسيس الثانى هو – كأوزير – ملك الموتى ولكنه حى فكأنه يملك الحياة والموت معا.

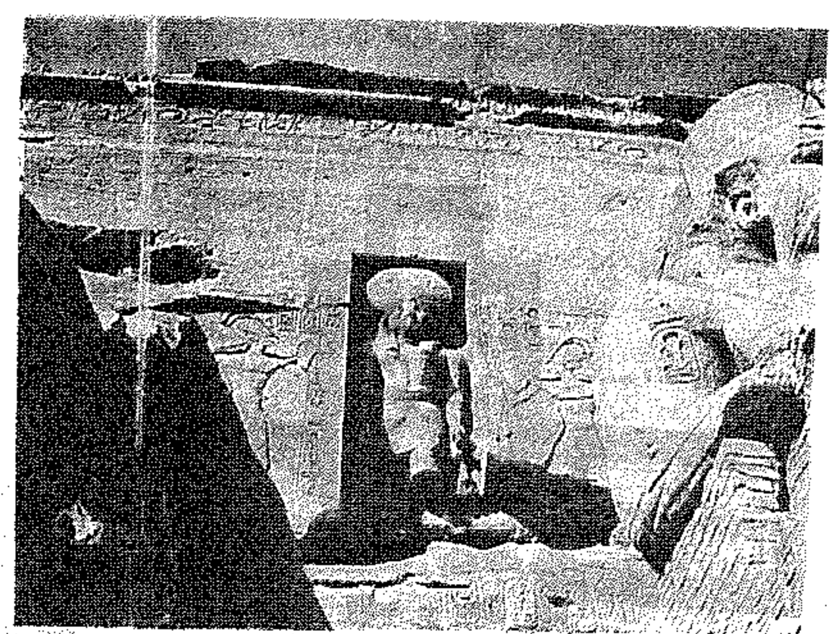
يلى هذا صالة عرضية تؤدى إلى قدس الأقداس (شكل ١٨٣) وفي جداره الخلفى تماثيل لآلهة أربعة: الإله بتاح – الإله آمون – رمسيس الثانى – الإله رع حوراختى. كلها منحوتة في الصخر الطبيعى. وقد قصد رمسيس من وضع تمثاله مع تماثيل الآلهة أن يكون على قدم المساواة مع آلهة مصر العظام. وأن يؤدى له مايؤدى لها من شعائر. وهى قرينة تدل على أن رمسيس الثانى قد ألَّه نفسه أثناء حياته. وقد تم حساب زاوية اتجاه المعبد عند إنشائه بمهارة بالغة وحسابات فلكية دقيقة. فقد نُحت في الصخر بحيث أن الشمس عندما تشرق من خلف الجبال التى تقع على الجانب الشرقى للنيل تدخل أشعتها من المدخل وتنفذ من الحجرة الأمامية



شكل ١٧٩ – معبد أبى سمبل الكبير كما رسمه فنانو الحملة الفرنسية
وكانت الرمال لاتزال تغطى الواجهة.



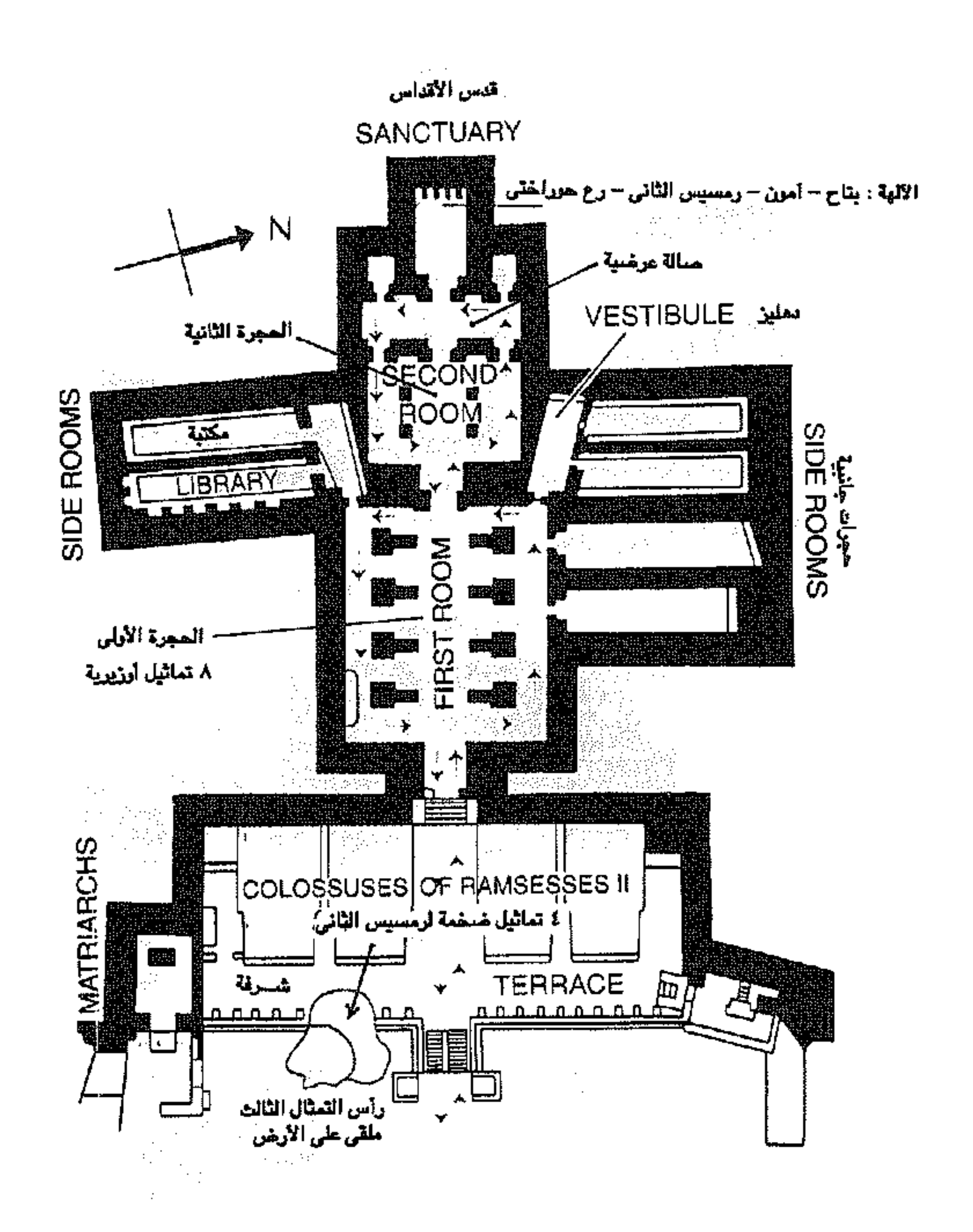
شكل ١٨٠ – تمثال «رع حوراختى» الذى يعلو بوابة المعبد الكبير.



شكل ١٨١ – درع حوراختى فوق البوابة الرئيسية للمعبد ويرى على جانبيه نقش لرمسيس الثانى يقدم له «ماعت».



شكل ١٨٢ – التماثيل الأوزيرية على جانبى المدخل والضوء ينفذ من الحجرة الأولى ثم الحجرة الثانية ليضيء قدس الأقداس وبه تماثيل آلهة المعبد ومن بينها رمسيس الثانى.



شكل ١٨٣ – رسم تخطيطى لمعبد أبى سمبل الكبير .

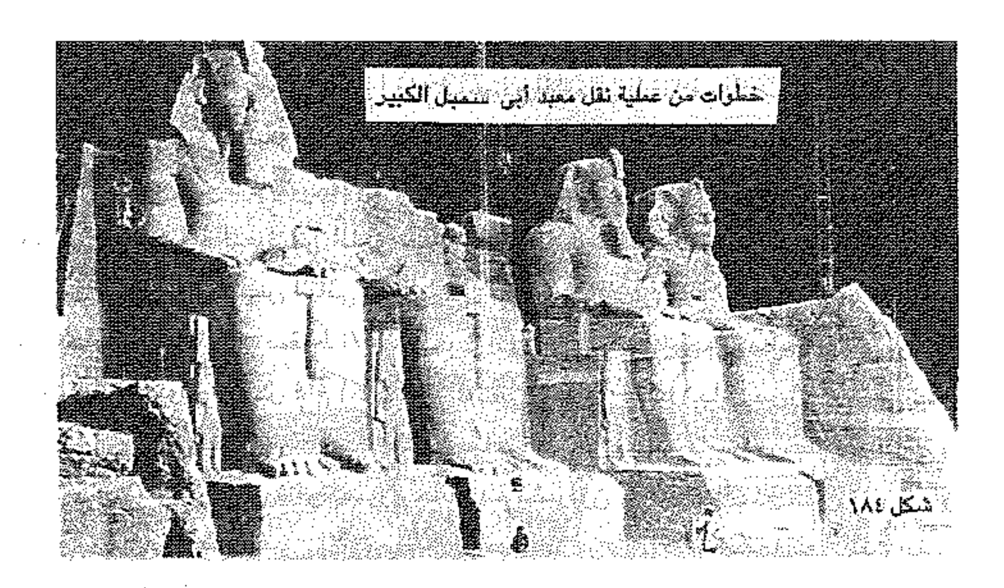
وتضيء الصالة الداخلية وتلقى بضوئها على وجه التماثيل الأربعة بعد نفاذها لمسافة تقرب من ٥٤ مترا (شكل ١٨٢ و ١٨٧)، ومع اختلاف مطلع الشمس باختلاف الفصول. فقد عمل اتجاه المعبد بحيث تسقط الأشعة على وجه الملك فى يوم ٢١ فبراير وهو يوم ميلاد رمسيس الثانى ويوم ٢١ أكتوبر وهو يوم تتويجه! ولا تسقط الشمس على وجه «الإله بتاح» إذ المفروض أنه إله الظلام. وأثناء إنقاذ المعبد من الغرق حاول خبراء الأمم المتحدة الحفاظ على أن تسقط أشعة الشمس على وجه رمسيس الثانى فى اليومين المحددين. إلا أن رفع المعبد لأعلى ٦٤ مترا نتج عنه تأخير يوم فى توقيت سقوط الأشعة بحيث أنها حاليا تضيء وجه رمسيس الثانى يومى ٢٢ فبراير و٢٢ أكتوبر من كل عام (كل شيء عن أبى سمبل - نبيل جاد. ص١٩). وعلى جدران الحجرة الأمامية والصالة العرضية نقشت مناظر تصور معركة قادش ورمسيس الثانى وهو يحارب الأعداء بمفرده. ومنظر يصور رجاله وهم يضربون جواسيس البدو الذين غرروا به. ثم الملك وهو قابض على بعض الأسرى من نواصيهم. ورسوم كثيرة كلها تعبر عن انتصار الفرعون على الحيثيين.

والأشكال ١٨٤ - ١٨٦ تبين بعض خطوات عملية رفع المعبد التى قامت بها هيئة اليونسكو.

وشكل ١٨٨ يبين المعبد بعد نقله إلى مكانه الجديد بحيث لا تطوله مياه بحيرة السد العالى.

ب - **معبد أبى سمبل الصغير أو معبد حاتحور** : وقد أقام رمسيس الثانى هذا المعبد غير بعيد من المعبد الكبير. وخُصِّص للإلهة «حاتحور» و«نفرتارى» زوجته التى أُلِّهت مثله. وواجهة المعبد (شكل ١٨٩) تبلغ ٢٨,٥ مترا عرضا × ١٢ مترا ارتفاعا. ومزينة بستة تماثيل كبيرة يبلغ ارتفاع الواحد منها حوالى ١٠ أمتار. ثلاثة فى كل ناحية من الباب عبارة عن تمثالين لرمسيس الثانى يتوسطهما تمثال زوجته نفرتارى ويجانبها تماثيل صغيرة لبعض أبنائهما . ويلاحظ أن الملك يضع على رأسه فى كل تمثال تاجا مختلفا: فهى من الشمال إلى اليمين هكذا: تاج مصر السفلى. ثم تاج مصر العليا. ثم التاج المزدوج على التمثالين الآخرين رمزا لاتحاد الشمال والجنوب. أما الملكة فتضع فوق رأسها رمزاً للألوهية مأخوذ عن الإلهة «حاتحور» عبارة عن قرنين بينهما قرص الشمس والريشتان الكبيرتان. وهذا المعبد فريد فى نوعه إذ لا يوجد معبد آخر قد خصص لعبادة ملكة. وقد أراد رمسيس الثانى أن يؤكد على هذا التخصيص للملكة فى النقوش المزينة للجدران. والتى يقول فى بعضها« .. إنه بيت ملايين السنين. ولم يُبن مثله أبدا من قبل...».

وشكل ١٩٠ به تخطيط للمعبد: يلى المدخل صالة مربعة تقريبا إذ تبلغ أبعادها ١١×١٠,٨ مترا ونحتت ٦ أعمدة ارتفاع كل منها ٣,٢ مترا وكأنما السقف يرتكز عليها - وعلى كل عمود رأس بارزة لوجه امرأة وأذنى البقرة المقدسة حاتحور وقد كتب على الأعمدة تاريخ حياة



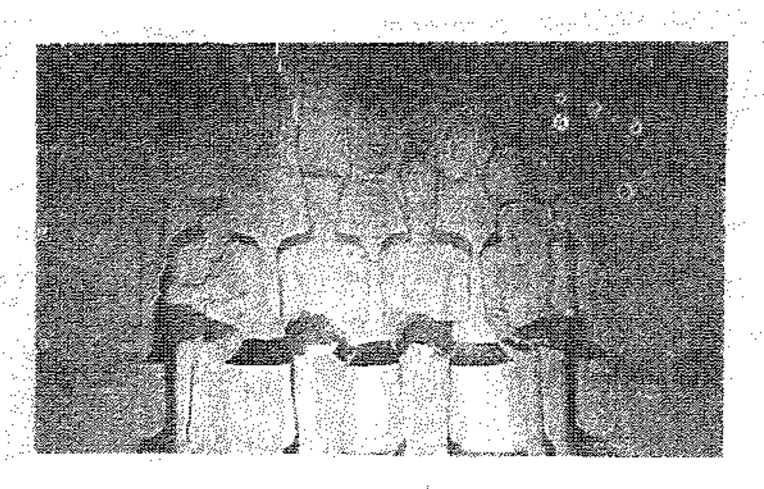
شكل ١٨٤



شكل ١٨٥

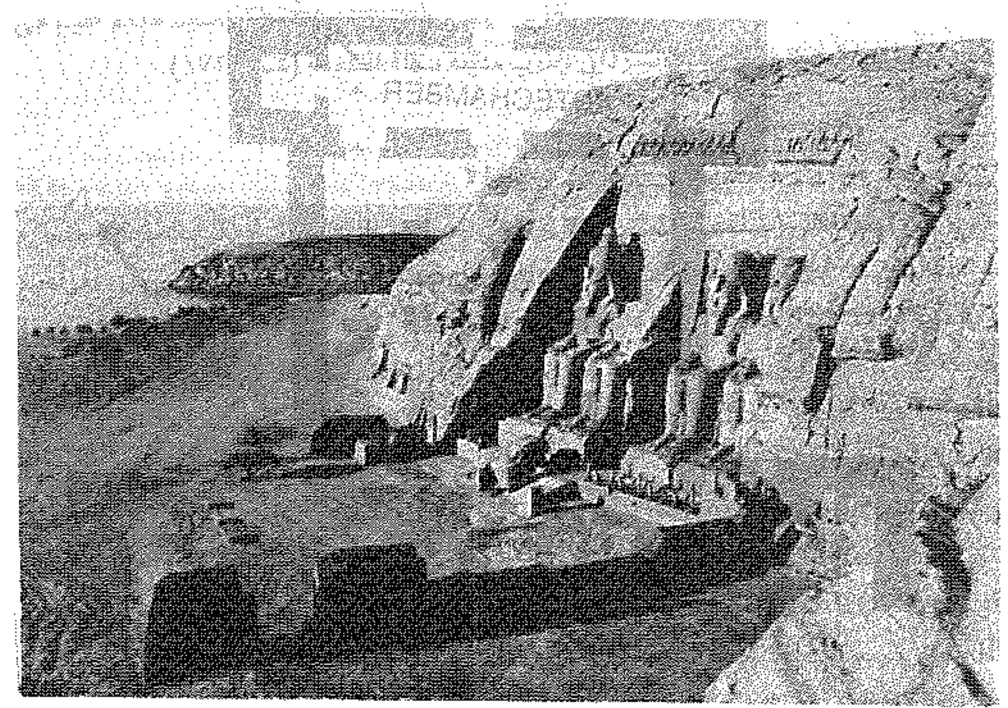


شكل ١٨٦ – الأوناش الضخمة ترفع رأس أحد التماثيل.

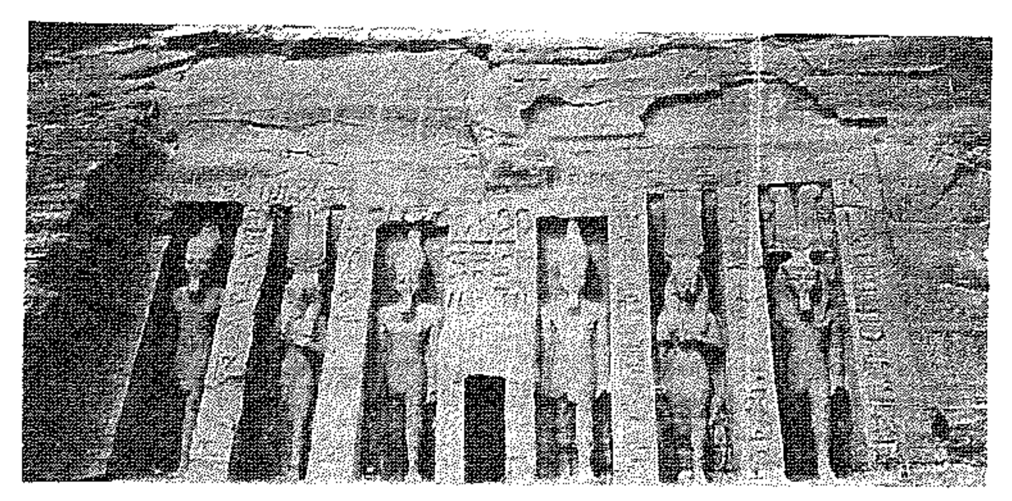


شكل ١٨٧ – تماثيل الآلهة الأربعة في قدس الأقداس في معبد أبي سمبل الكبير وقد سقط عليها ضوء الشمس من خلال حجرات المعبد الآلهة هم : بتاح – آمون – رمسيس الثاني – رع حوراختي.

لاحظ : بتاح ليس في الضوء لأنه إله الظلام



شكل ١٨٨ – معبد أبي سمبل الكبير بعد نقله إلى مكانه الجديد.



شكل ١٨٩ – واجهة معبد أبي سمبل الصغير

قدس الأقداس

صالة عرضية أو حجرة انتظار

ANTECHAMBER

٣ أبواب

N

صالة الأعمدة
(١١ × ١٠,٨ مترا)
٦ أعمدة حتحورية
بارتفاع ٣,٢ مترا

PRONAOS

المدخل

R N R R N R

الواجهة ٢٨,٥ × ١٢ مترا

R = تمثال رمسيس الثاني
N = تمثال نفرتاري

شكل ١٩٠ – رسم تخطيطي لمعبد أبي سمبل الصغير .

رمسيس الثانى،والملكة نفرتارى. وعلى الجدران رسومات تبين انتصار الملك فى حروبه وبعضها يمثله وهو ممسك بالإسرى الأسيويين. ويلاحظ فى هذا الرسم صورة نفرتارى خلف زوجها وهو أمر غير معتاد أن تصور الملكة فى الرسومات الحربية! ويلى الصالة حجرة مستعرضة تؤدى إلى قدس الأقداس وجدرانه مزينة برسوم تبين رمسيس الثانى أو نفرتارى يتعبدان لعديد من الآلهة. ورسم بديع للإلهتين إيزيس وحاتحور وهما تتوجان الملكة نفرتارى. ويجب التنويه بما عليه النقوش من ذوق رفيع فى اختيار الألوان التى لاتزال محتفظة ببهائها حتى الوقت الحاضر.

وقد تم رفع هذا المعبد أيضا بواسطة منظمة اليونسكو - كما رفع المعبد الكبير - حتى لا تطوله مياه بحيرة السد العالى.

٦٤ - **محراب فرس** : على الضفة اليمنى للنيل. نحته رمسيس الثانى للإلهة «حتحور».

٦٥ - **معبد سرة** Serra : تقع بلدة سرة ١٠ أميال شمالى مدينة حلفا (شكل ١٧٣ ص ٧٥٦). وقد بنى رمسيس الثانى جنوب البلدة بقليل معبداً أهداه لنفسه بصفته إله المعبد وجاء فى الإهداء على أحد الأبواب: الفرعون «وسرماعت رع ستين رع» (وهو اسم رمسيس الثانى) قد عمله بمثابة أثر لصورته الحية فى بلاد النوبة. وقد تم نقل المعبد إلى الخرطوم.

٦٦ - **معبد نباتا** : بناه رمسيس الثانى للإله «آمون» داخل ساحة معبد قديم أقيم فى عهد الأسرة ١٨. وتقع نباتا فى السودان جنوب مدينة دنقلة القديمة (شكل ١٧٣).

لئن رأى البعض إطالة فى ماذكر عن إنشاءات رمسيس الثانى إلا أنه فى الحقيقة «موجز» أو تلخيص لما هو مدون فى كتب التاريخ عن آثار هذا الفرعون الذى يُسمَّى فى المراجع الأجنبية «رمسيس العظيم Ramesses the Great» وها قد رأينا آثاره التى لاتكاد تخلو منها مدينة كبيرة فى طول البلاد وعرضها شمالا وجنوبا حتى النوبة. وقد وجدتها فرصة أن أقدم للقارىء هذا الموجز كمعلومات عامة. إذ يكثر الكلام هذه الأيام عن السياحة وكيف يأتى السياح من آخر العالم لرؤية آثارنا. وكيف اهتمت منظمة اليونسكو وعملت نداءات عالمية وخصصت الأموال لإنقاذ بعض المعابد. فلا أقل من أن نعرف - ولو نظريا - شيئا عنها. وقد تعمَّدت أن أضع كثيرا من الصور حتى تُعوِّض من لم يرها عن رؤيتها أو إلى أن تتاح له رؤيتها أو يكون ماقدمناه حافزا له ليراها. فإذا عدنا لآثار رمسيس الثانى الكثيرة. أدركنا كم كان هذا الفرعون حريصا على تخليد اسمه بكثرة الآثار التى شيدها. إلا أن هذه الآثار الكثيرة نالها دمار بالغ كما سنرى فى الفصل التالى .

الفصل الرابع

وصفان لفرعون موسى من القرآن الكريم

لقد تم تخصيص هذا الفصل لوصفين لفرعون موسى وردا فى القرآن الكريم إذ أن شرح هذين الوصفين – وهما مرتبطان بالآثار – سيساعد على تحديد شخصية فرعون موسى أو بمعنى آخر سيكون دليلا إضافيا على أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى. هذان الوصفان هما :

١ – قوله تعالى :

«ودمَّرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون». (١٣٧ – الأعراف)

٢ – قوله تعالى :

« وفرعون ذو الأوتاد » . (١٢ – ص)

والآن لننظر هل ينطبق هذا الوصفان على رمسيس الثانى أم لا ؟

١ – الدمار الذى حاق بآثار رمسيس الثانى :

مما لاشك فيه أن الزمن يترك بصمته على المبانى وتتهدم بعض أجزائها أو كلها. وقد أدرك قدماء المصريين ذلك فعملوا على أن تبقى آثارهم خالدة على مر الأزمنة والدهور. فهاهى الأهرامات – وعددها يبلغ المائة – باقية. وإن كان الطلاء الخارجى قد تساقط فى معظمها وسقطت حجارة من بنيانها إلا أنها لاتزال قائمة رغم مرور مايزيد عن أربعة آلاف سنة على بنائها. وكما سبق أن ذكرنا كان رمسيس الثانى أكثر الفراعين رغبة فى تخليد اسمه وذكراه. فأقام هذا العدد الهائل من الآثار: من معابد بها مئات الأعمدة. وأقام من المسلات عددا يفوق ما أقامه الفراعين الآخرين مجتمعين (ص ٧٨٧) وصنع لنفسه عددا كبيرا (حوالى ١٠٠) من التماثيل . منها حوالى ٣٠ بالغة الضخامة . ووضع نفسه بين الآلهة فى مالايقل عن ١٥ تمثالا . هذا بخلاف ما تحطم ومالم يستدل عليه. بخلاف مئات بل آلاف الصور والنقوش التى تمثله فى عربته وحروبه أو يستعرض الأسرى أو يعاقبهم أو تمثله فى مواقف يتعبد فيها للآلهة أو يتعبد الموظفون له.

ولكننا لو فحصنا هذه الآثار لوجدنا معظمها قد تهدم ولم يبق منه إلا بعض قطع من الحجارة عليها اسم رمسيس الثانى لتدل على أن أثرا ما كان له فى هذا المكان. ولعلها كانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يبقى عدد قليل من هذه الآثار سليما بعض الشيىء لندرك عِظَم ماشيَّد وضخامة التماثيل التى صنعها. إذ لو دُمِّرت بالكامل لاندثر ذكره ولم يستدل عليه. ومن

هنا كان الإبقاء على معابد النوبة سليمة، بل وقيض الله لها من يعمل على إنقاذها من الغرق فى بحيرة السد العالى لتظل شاهدا على أعمال هذا الفرعون، والآن نستعرض فى نظرة سريعة بالصور مدى الدمار الذى حل بالمعابد والتماثيل التى قام رمسيس الثانى بإنشائها:

شكل ١٩١: هذا كل مابقى من عاصمة رمسيس الثانى الجديدة «بررعمسيس»، معابد تهدمت، وأعمدة محطمة، ومسلات مكسَّرة وكانت ٢٤ مسلة ليس منها واحدة سليمة.

شكل ١٩٢ – المسلة الوحيدة التى تعتبر بحالة «جيدة» من ٢٤ مسلة أقامها رمسيس الثانى فى مدينة بررعمسيس.

شكل ١٩٣ – بقايا معبد «حاتحور» فى منف، وترى رؤوس الأعمدة الحاتحورية أى التى تحليها رأس حاتحور.

شكل ١٩٤ – بقايا حيطان أعمدة المعبد الصغير للإله «بتاح» الذى أقامه رمسيس الثانى فى منف جنوب المعبد الكبير.

شكل ١٩٥ – حطام المعبد الكبير الذى بناه رمسيس الثانى فى منف للإله «بتاح».

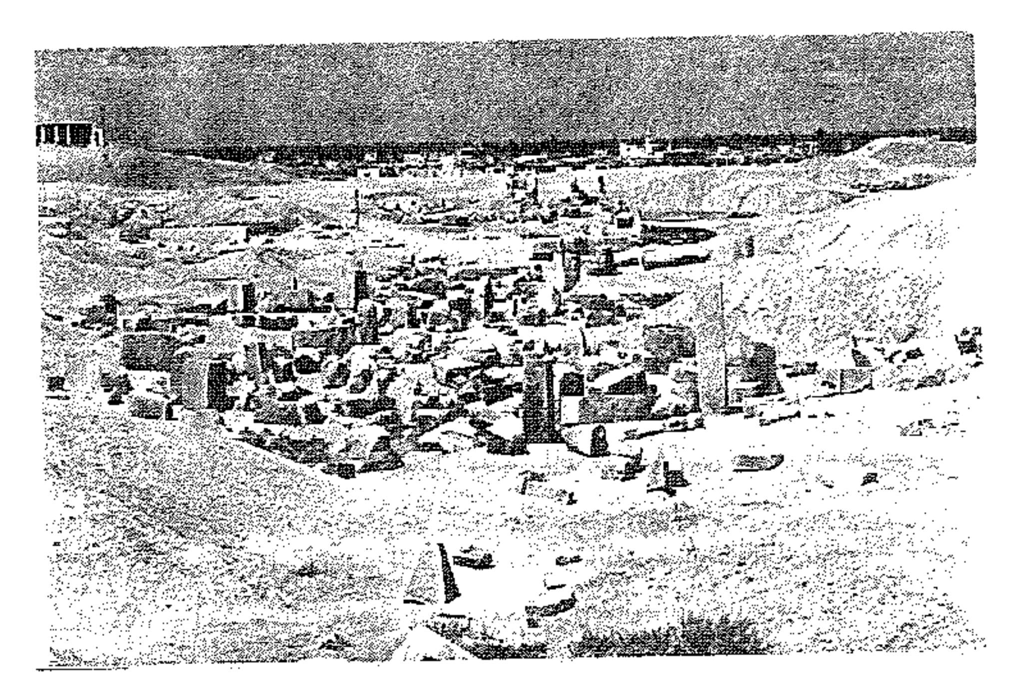
شكل ١٩٦ – أحد تماثيل رمسيس الثانى المحطمة (تمثال ميت رهينة) قبل ترميمه.

شكل ١٩٧ – تمثال «مريت آمون» ابنة رمسيس الثانى وزوجته فى نفس الوقت وكان مقاما بجوار تمثال له فى المعبد فى أخميم، وقد سقط تمثال «مريت آمون» على وجهه أما تمثاله هو فقد تحطم تماما.

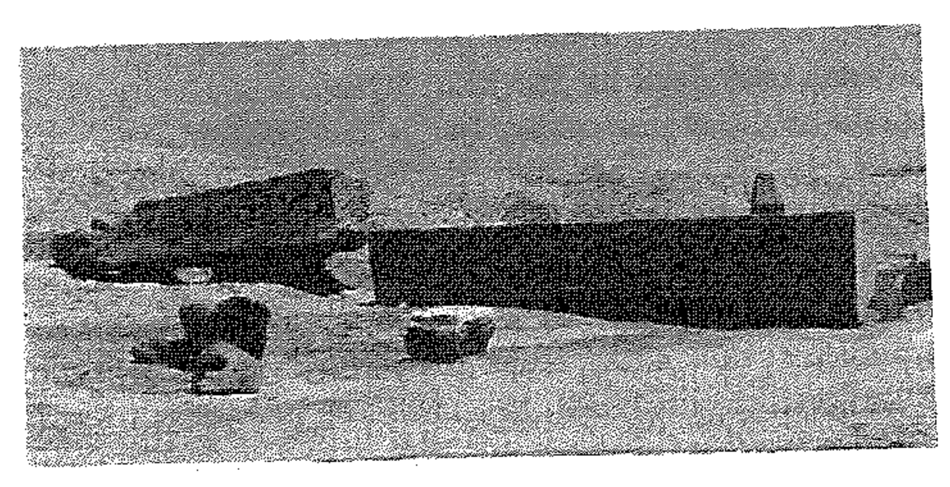
شكل ١٩٨ – لم يبق من قاعة العرش فى قصر رمسيس الثانى بمعبد الرمسيوم إلا قواعد الأعمدة فقط وقد ذكرنا سابقا (ص ٧٢١ شكل ١٤٦) التمثال البالغ الضخامة الذى أقامه لنفسه فى تانيس ولم يبق منه إلا بضع أصابع من القدمين.

ولئن كان هذا الدمار قد حدث بعد وفاة رمسيس الثانى فقد كانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يريه – حال حياته – بعض الدمار فى آثاره، وهو مالم يحدث لأحد من الفراعين قبله أو بعده، وحدث هذا الدمار فى أثرين كان رمسيس الثانى يعتز بهما أيما اعتزاز : معبد أبى سمبل الكبير ومعبد الرمسيوم.

أ – الدمار فى معبد أبى سمبل الكبير : وقد سبق أن قلنا (ص ٧٥٩) إن عالم الآثار سليم حسن قد وصفه بأنه أعظم بناء أقامه إنسان فى ذلك العصر، وكان رمسيس الثانى قد بدأ فى إقامته فى السنة العاشرة من حكمه واحتفل بافتتاحه رسميا فى السنة ٢٤ من حكمه، وتمر الأعوام ويحتفل رمسيس الثانى بالعيد الثلاثينى الأول وأقيمت احتفالات ضخمة فى المعبد بهذه المناسبة، ولم تمر بعد ذلك بضعة أشهر حتى حدث زلزال شديد ضرب منطقة النوبة واهتزت المنطقة، وما حدث بمعبد أبى سمبل الكبير كان مأساة مفجعة كما يقول العالم كتشن Kitchen (فرعون المنتصر ص ١٣٥) إذ تشققت الأعمدة الضخمة وتكسر بعضها وانهار، وكذلك انهار



شكل ١٩١ – معابد وتماثيل ومسلات محطمة هو كل ما بقي من عاصمة
رمسيس الثاني «بررعمسيس».



شكل ١٩٢ – المسلة الوحيدة التى تعتبر « سليمة نوعا ما »
من ٢٤ مسلة أقامها رمسيس الثانى فى مدينة بررعمسيس.

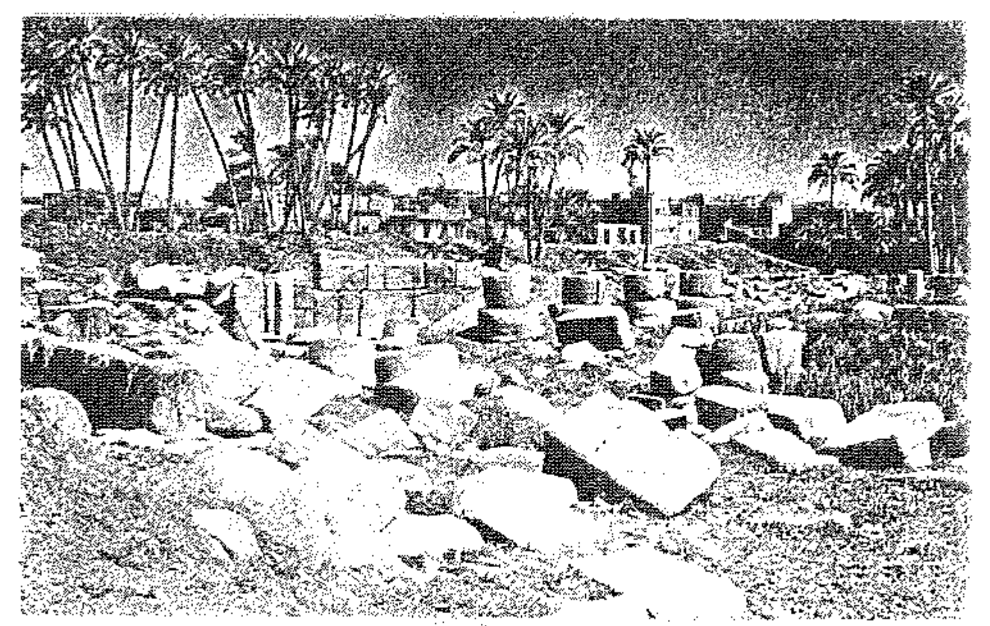


شكل ١٩٣ - بقايا معبد حتحور فى ممفيس وترى رؤوس الأعمدة الحتحورية أى التى تحليها رأس حتحور.

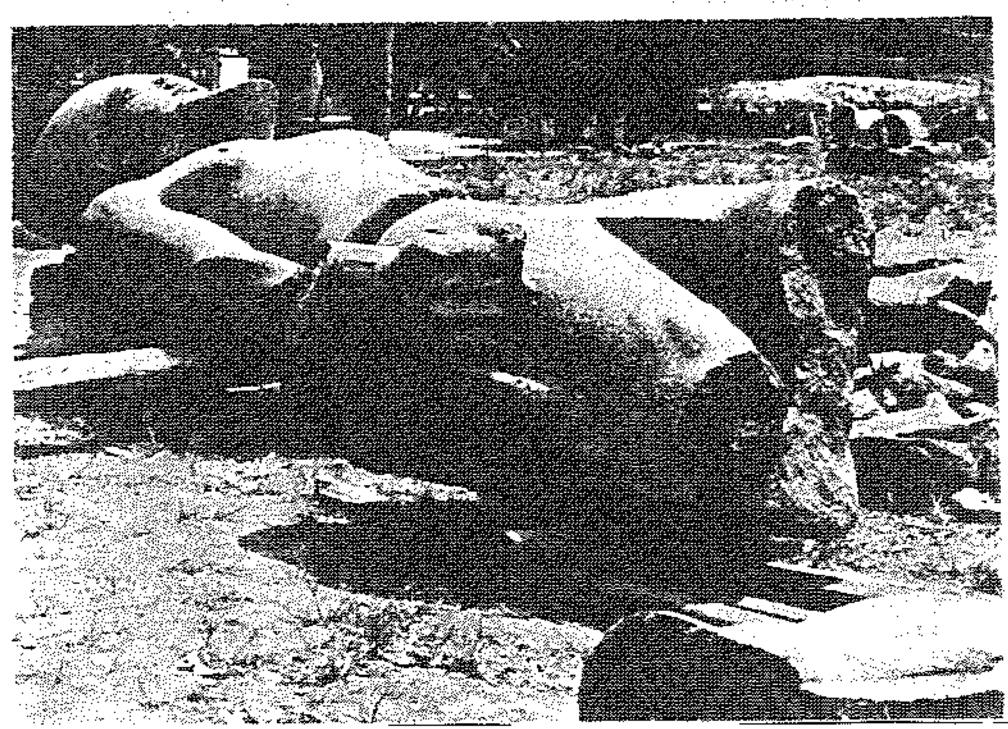


شكل ١٩٤ - أسفله. بقايا حيطان وقواعد أعمدة المعبد الصغير للإله «بتاح» فى ممفيس (جنوب المعبد الكبير).





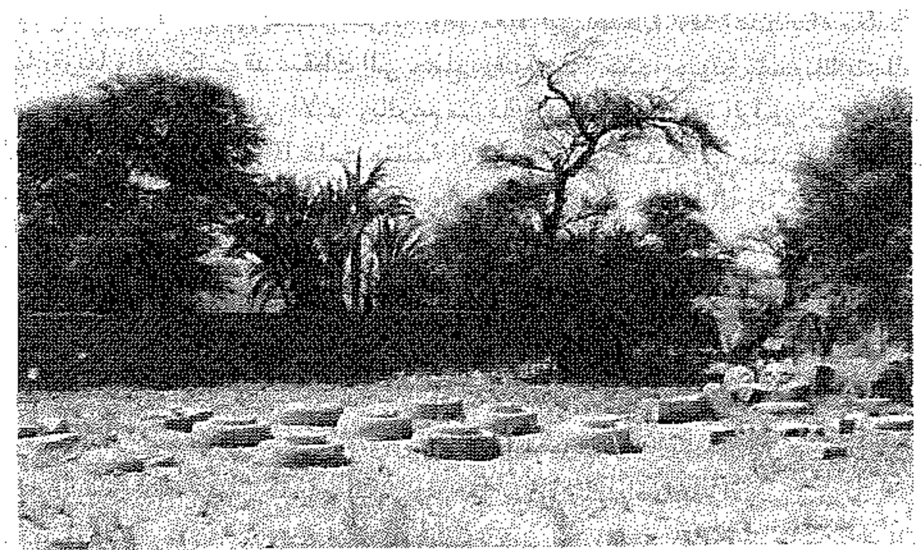
شكل ١٩٥ – حطام المعبد الكبير الذى أقامه رمسيس الثانى للإله «بتاح» فى ممفيس .



شكل ١٩٦ – أحد تماثيل رمسيس الثانى المحطمة قبل ترميمه (ميت رهينة) .



شكل ١٩٧ – تمثال مريت أمون – ابنة وزوجة رمسيس الثانى كان مقاما بجوار أحد تماثيله فى المعبد فى أخميم . وقد سقط التمثالان على وجهيهما وتحطم تمثال رمسيس الثانى تماما.



شكل ١٩٨ – هذا كل ما تبقى من قاعة العرش فى قصر رمسيس الثانى فى الرمسيوم . مجرد قواعد الأعمدة .

العمود الثاني والتمثال الملكي في الجانب الشمالي من الحجرة الأولى وتحول إلى حطام، وكذلك أصاب الدمار الواجهة ذاتها - إذ انهارت الدعامة الشمالية لباب المدخل الرئيسي وسقطت ذراع التمثال الأول من الناحية الشمالية والمجاور للباب. ولكن الخسارة الكبيرة كانت في سقوط النصف العلوي بأكمله للتمثال الجنوبي: الرأس والذراعين والأكتاف، وتكسرت اللوحات على الحوائط. وكان المنظر فظيعا والموقف حرجا بالنسبة لنائب الملك على منطقة النوبة «باسر» ولم يكن في وسعه أن يقف مكتوف اليدين أمام هذا الدمار. وبدأ على الفور خطوات الإصلاح التي كللت بالنجاح إلى حد كبير. وأعيد بناء الأعمدة التي سقطت أو تصدعت. وتم تدعيم أعمدة القاعة الكبرى بمباني. وهذه أتاحت مساحة إضافية لنقش مباركة من الإله «بتاح» مؤرخة بالعام ٣٣ من حكم رمسيس الثاني. وأعيدت ذراع التمثال التي سقطت وتم سندها بقطعة من الحجر كتب عليها اسم رمسيس الثاني، وأعيد بناء دعامة الباب ولكنها تركت خالية من النقوش. وكان هذا أقصى ما أمكن للوزير «باسر» عمله. ولعل ذلك الترميم لم يحظ قبولا تاما لدى رمسيس الثاني فعين بدله نائبا آخر للنوبة. وكان هذا النائب الجديد هو المبعوث الحيثي هوى Huy الذي كان مرافقا للأميرة الحيثية عند حضورها إلى مصر لتتزوج من رمسيس الثاني. وقد عينه نائبا له على النوبة لمدة ٤ سنوات (٣٤ - ٣٨) ولكنه لم يفعل الكثير في ترميم معبد أبي سمبل. ثم تولى بعده في هذا المنصب «سيتاو» Setau وظل فيه لمدة ربع قرن تقريبا (من ٣٨ إلى ٦٣). كان سيتاو نشطا ومثابرا وكتب على لوحة: لقد عينت نائبا للملك على النوبة، وقد وجهت الفلاحين بالآلاف وعشرات الآلاف ومن النوبيين مئات الآلاف وقد أوكلت إلى مهمة بناء معبد رمسيس الثاني في الضفة الغربية (وهو معبد أبي سمبل). وقد أعدت بناء معابد النوبة كلها تقريبا والتي كانت قد سقطت إلى حطام، وقد أعيدت كأنها جديدة باسم جلالته العظيم. ودوّن ذلك تذكارا ليبقى إلى الأبد. وبالرغم من ذلك لم يستطع إعادة الرأس إلى مكانه فبقي ملقى على الأرض. وحتى لما قامت منظمة اليونسكو برفع المعبد إلى مكان أعلى من مكانه الأصلي حتى لا تغرقه مياه بحيرة السد العالي فإنها حافظت على حاله وتركت أجزاء التمثال المهشمة كما كانت.

وفي العام ٤٤ قام النائب «ستاو» ببناء باقي المعابد التي في الضفة الغربية وهي معبد السبوعة ومعبد جرف حسين. وسخّر في بنائها أسرى ليبيين. إذ وجدت لوحة كتبها ضابط اسمه «راموس» يقول فيها: السنة ٤٤: أمر جلالته - نائبه في النوبة ، المخلص «ستاو» بالإضافة إلى وحدة من جيش رمسيس الثاني - يحميه والده آمون - بأن يؤخذ أسرى من أرض الليبيين لبناء معبد رمسيس الثاني وقد أمر جلالة الملك الضابط راموس بتجريد حملة من الجنود لهذا الغرض ...... وهكذا أغارت فرقة الجيش على جنوب ليبيا في الصحراء الغربية وقامت بتسخير هؤلاء الأسرى في ترميم ما تهدم وفي بناء معبد السبوعة وجرف حسين (كتشن - فرعون المنتصر ص ١٣٨).

ب – تصدع الرمسيوم :

كان معبد الرمسيوم أسوأ حظا. إذ لما أصابه الزلزال لم يمكن إعادته إلى حالته الأصلية كما حدث في أبي سمبل.

قلنا إن الرمسيوم وهو المعبد الجنازي – بناه رمسيس الثاني ليكون مكانا فاخراً لحياة آخرة له حيث تقام الشعائر لتبجيله وتعظيمه إلى الأبد وكان يسمى في المصرية القديمة «بيت ملايين السنين المتحدة مع طيبة». ولكن الأمور لم تسر كما كان يهوى الفرعون فقد أصاب الزلزال معبد الرمسيوم هو الآخر بضرر بالغ. فقد سقط النصف العلوي من التمثال البالغ الضخامة الذي كان مقاماً في الردهة الأولى. سقط الرأس والأذرع والكتفين والصدر كتلة واحدة. وتهدمت البوابة تماما. ولايزال نصف التمثال هذا ملقي على الأرض منذ سقوطه (شكل ١٩٩). إذ يبدو أنه كانت هناك صعوبات فنية تحول دون إعادته إلى مكانه فوق الرجلين. وسقطت كذلك رؤوس التماثيل الأصغر حجما التي كانت مقامة في الردهة الثانية. ولاشك أنها قد رممت وأعيدت إلى مكانها إذ هي الرؤوس والتيجان فقط. ولكنها بمضي الوقت سقطت ثانية (شكل ٢٠٠). وقد رأى الرحالة الانجليزي « شيلي » التمثال المحطم فقال فيه الشعر التالي:

ساقان ضخمان من الحجارة بلا جسد ... تقفان في الصحراء .

وعلى مقربة منهما جسم مهشم يرقد ... نصف مطمور في الرمال .

اسمي أوزيمندياس (رمسيس الثاني باليونانية) ... ملـــك الملـــوك .

انظر إلى أعمالي العظيمة وتحسَّر ... لا شيء يبقى أو يصمد للبلى .

حطام تمثال ضخم وأمامه الصحراء اللا محدودة ...

برمالها المستوية تمتد إلى البعد البعيد .

٢ – فرعون ذو الأوتاد :

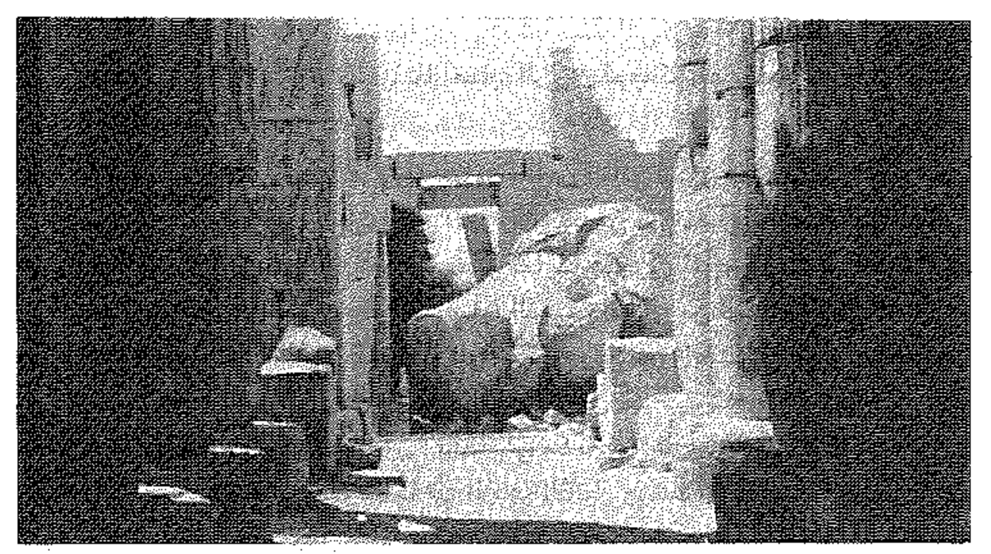
«ذو الأوتاد» صفة وردت في القرآن الكريم عن فرعون موسى. ويهمنا أن نعرف ماهو المقصود بالأوتاد لنتعرف على مَن منَ الفراعين ينطبق هذا الوصف.

ولقد جاء وصف فرعون موسى بذي الأوتاد في آيتين:

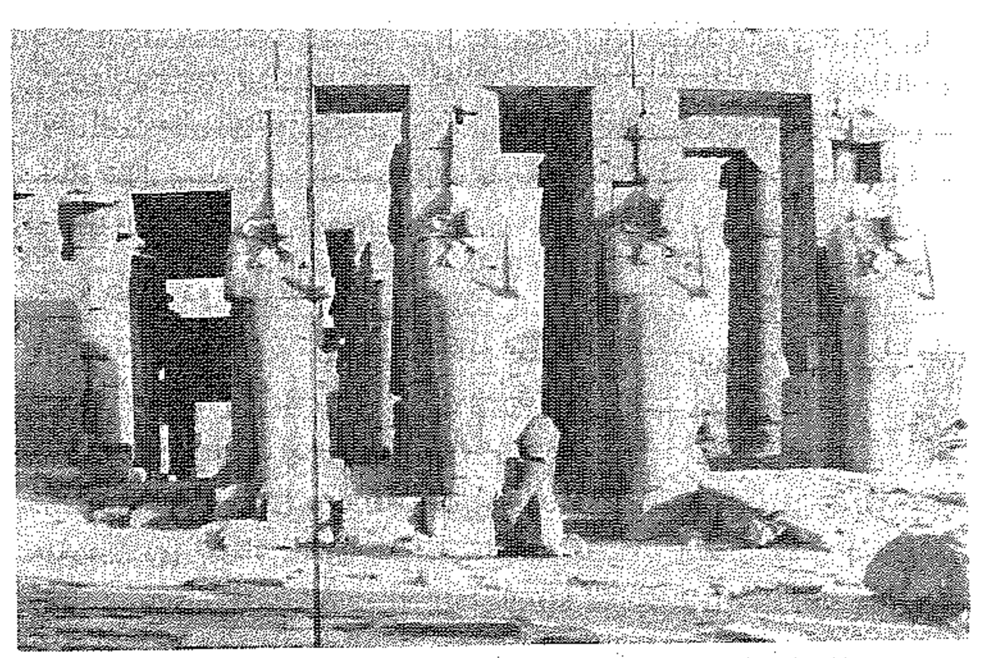
«كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد». (١٢ – ص)

«وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد» . (١٠ – الفجر)

وأوتاد جمع وتد. وهو ما رُزَّ في الأرض أو الحائط من خشب (المعجم الوسيط جـ٢ ص ١٠٢٠). فالوتد كما هو معروف (شكل ٢٠١) قطعة من الخشب يبلغ طولها ٥٠ سنتيمترا تقريبا. ويبلغ عرضها عند القاعدة ٥–٧سم ويقل هذا العرض تدريجيا حتى يبلغ ٣–٤سم ثم ينتهي بطرف مدبب ليُسهِّل اختراقه للتربة عند دقة في الأرض بالمِرزبَّة وقد يكون له في أعلاه



شكل ١٩٩ – رأس التمثال الضخم الذى كان مقاما فى نهاية الردهة الأولى
فى معبد الرمسيوم وقد سقط بفعل الزلزال.



شكل ٢٠٠ – أربعة من التماثيل الأوزيرية لرمسيس الثانى التى كانت مقامه فى الردهة
الثانية لمعبد الرمسيوم وقد سقطت الرؤوس والتيجان . أما الإربعة المقابلة لها
فقد تحطمت تماما

جزء أكثر عرضا حتى يمنع الحبل المربوط عليه من الإنزلاق (ب). ويستعمل الوتد عند الفلاحين لربط البهائم أما البدو فيستعملونه لتثبيت الخيام. وكما قال الأعشى:

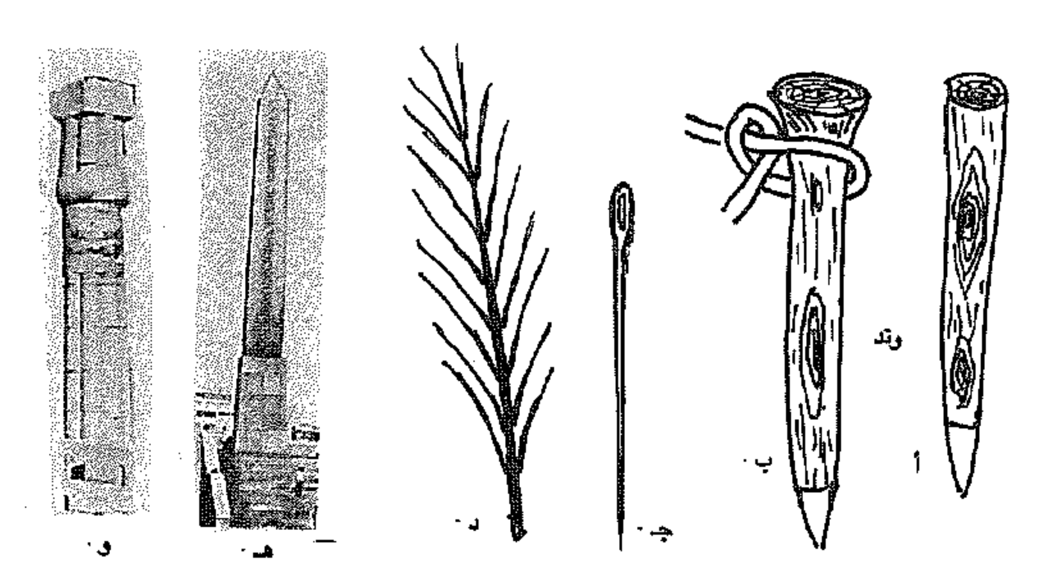
والبيت لا يبنى إلا على عمد .·. ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

وقيل (تفسير الألوسى جـ٢٣ ص ١٧٠) إن القرآن الكريم شبه هنا فرعون فى ثبات ملكه ورسوخ سلطنته ببيت ثابت أقيم عماده وثبتت أوتاده. على سبيل الاستعارة. وقال ابن مسعود وابن عباس: الأوتاد الجنود يقوون مُلكه أى فرعون ذو الجنود. مجاز للزوم الأوتاد لخيام الجند. وعن ابن عباس فى رواية أخرى وقتادة: كان لفرعون أوتاد وخشب يُلعب له بها وعليها. وفى رأينا أنها لو كانت بهذا المعنى الأخير فهى ليست بالأهمية التى تسجَّل فى القرآن الكريم. كما أن لعبة الشطرنج كانت معروفة لدى قدماء المصريين وهى أكثر فنا فى صنعها وأكثر حرفة فى لعبها. وقالوا أيضا كان يشد المعذَّب بضرب وتد فى كل من أطرافه الأربعة فى الأرض ويتركه حتى يموت. وعن الحسن ومجاهد يدقُّها فى الأرض ويرسل عليه العقارب والحيات. وقيل ترفع صخرة فتلقى عليه فيموت (تفسير ابن كثير جـ٤ ص٥٠٨). ولم يؤثر عن المصريين القدماء – فى أى عصر من عصورهم – أن كانت هذه إحدى وسائل التعذيب لديهم. وكان الضرب بالعصى هو وسيلة التعذيب البسيط (شكل ٢١٢ ص ٧٩٤) أما القتل فكان يتم ببلطة الحرب. وفى شكل ٢٠٢ يرى رمسيس الثانى ممسكا بنواصى ثلاث من الأسرى الأعداء تمهيدا لقتلهم بالبلطة الممسوكة فى يده اليسرى.

أما القول بأن ذى الأوتاد وصف لكثرة الجند. ولا يستتبع كثرة الجند إلا كثرة الحروب واتساع المملكة. وذلك غير ثابت فى حق رمسيس الثانى الذى كانت آخر حروبه الكبيرة هى معركة قادش فى السنة الخامسة من حكمه (ص ٧٨٩) ولم يكن النصر حليفه فيها بالرغم مما طنطن به من كتابات عن هذه المعركة على جدران المعابد – كما أن اتساع مملكته يقل كثيرا عن الإمبراطورية التى بناها تحتمس الثالث (جزء ٣ ص ٥٥٠) كما أنه بعد معركة قادش وعلى مدى ٦٢ عاما من حكمه لم يقم رمسيس الثانى بضم أى أراضى جديدة. بل كانت حروبه كلها مجرد حملات لصد هجمات الليبيين فى الغرب والنوبيين فى الجنوب. وأرجو ألاَّ يسارع أحد فيستنتج من هذا أن رمسيس الثانى ليس هو فرعون موسى لعدم انطباق هذا الوصف «ذى الأوتاد» عليه. فنحن لم نصل بعد إلى حقيقة معنى هذا الوصف.

فى رأى بعض أساتذة كلية الآثار (اتصال شخصى) أن الأوتاد معناها الأعمدة. إلا أننا نرى أن هناك اختلاف كبير بين شكل العمود وشكل الوتد. فالعمود يتساوى قطره العلوى مع قطره من أسفل إلا من حلقة عريضة على شكل زهرة اللوتس أو البردى تُحلِّى الطرف العلوى (شكل ٢٠١ و) أما الوتد فهو عريض فى أعلاه ويقل عرضه كلما اتجهنا إلى أسفل (شكل ٢٠١ – أ ب). ولعلهم استندوا فى رأيهم هذا إلى قوله تعالى:

«ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون». (١٣٧ – الأعراف)



شكل ٢٠١ – أ ب – وتد جـ – إبرة عظيمة أى مِسَلَّة د – جريدة نخل رطبة أو مَسَلَّة .
هـ – المسلات الصخرية و – عمود حجرى .



شكل ٢٠٢ – رمسيس الثانى يمسك بيده اليمنى نواصى عدد من الأعداد تمهيدا لقتلهم بالبلطة الممسوكة فى يدة اليسرى (صورة من معبد منف) .

فكلمة يعرشون تعنى أعمدة عليها عريشة. والعريش ما يُستظل به. ولو أن العريشة تطلق غالبا على ماهو مصنوع من خشب، وعريش الكرم مايدعم به الكرم من خشب ليقوم عليه ويرتفع وتسترسل أغصانه (المعجم الوسيط جـ٢ ص٥٩٩). إلا أنه بشيء من التجاوز – يمكن قبول هذا التفسير وهو أن الأوتاد تعنى الأعمدة.

فى هذه الحالة نجد أن رمسيس الثانى كان أكثر الفراعين إقامة للأعمدة ونضرب هنا بعض الأمثلة:

١ – **معبد سيتى الأول فى أبيدوس** والذى أشرف رمسيس الثانى على بنائه. وقد وصفه علماء الآثار بأنه لا يتفق مع أى طراز موجود. بل أقرب مايكون إلى مجموعة من أبنية مقدسة جمعت دون وحدة فى التخطيط أو التناسق المعمارى وهو أقرب إلى معمار يقيمه طفل (چيمس بيكى. الآثار المصرية مترجم – جـ٢ ص ١٦٤). وفعلا كان رمسيس الثانى قد بدأ بناءه فى صباه عندما أوكل إليه والده إقامة المنشآت والمبانى وهو فى سن العاشرة. ثم أكمل بناءه بعد أن تولى الحكم منفردا. وبنظرة إلى شكل ٢٠٣ نرى أن المعبد به مالايقل عن ١١٢ عمودا.

٢ – **معبد رمسيس الثانى فى أبيدوس** (شكل ٢٠٤) وبه ٥٠ عمودا.

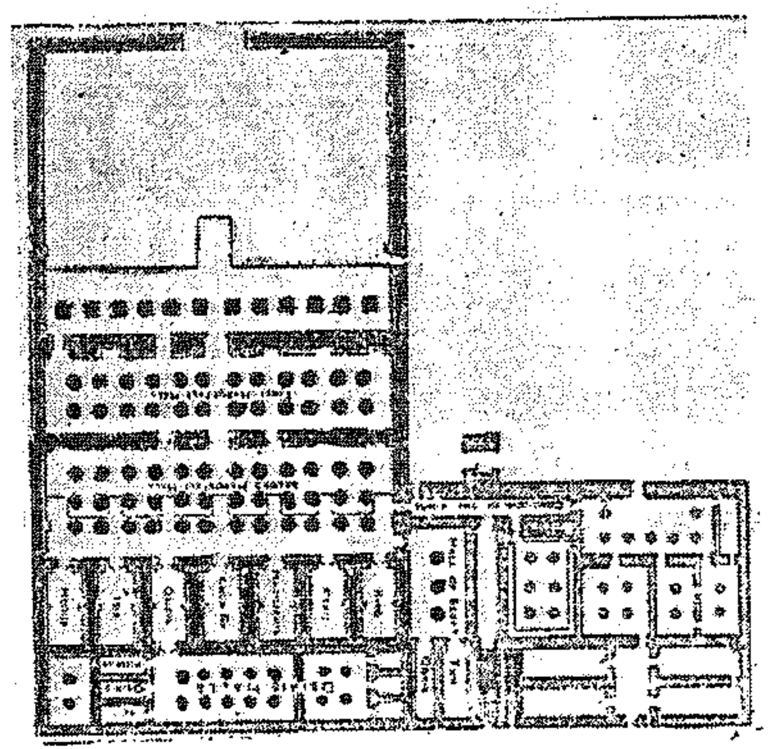
٣ – **معبد الأقصر** الذى بدأه أمنحتب الثالث وأضاف إليه رمسيس الثانى فناءين بهما عدد كبير من الأعمدة يصل إلى ٩٠ عمودا (شكل ٢٠٥).

٤ – **قاعة الأعمدة بالكرنك** (شكل ٢٠٦) : قام رمسيس الثانى بإقامة معظمها. وبها ١٣٤ عمودا مرتبة فى ١٦ صفا وتشغل مساحة ٥٠٠ مترا مربعا.

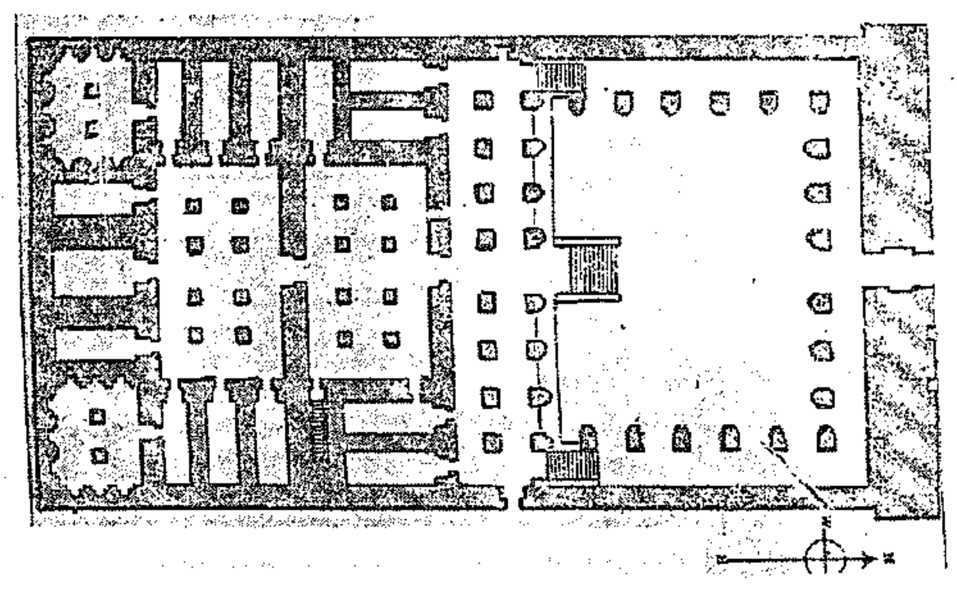
فإذا أخذنا بهذا التفسير – وهو أن الأوتاد تعنى الأعمدة – لكان رمسيس الثانى هو صاحب أكبر عدد من الأعمدة فى المبانى التى أقامها.

إلا أننا نرى أنه لو كان المقصود بالأوتاد أنها الأعمدة لذكرها القرآن بذلك. فقد سبق ذكر وصف المدينة التى أقيمت فى أرض عاد قوم هود بذات العماد أى ذات الأعمدة: **«ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد»** (٦– ٨ الفجر). فلو كان المقصود هو الأعمدة لقيل: وفرعون ذى العماد أو صاحب العماد تمشيا مع وحدة الاسم إذا توحد المعنى.

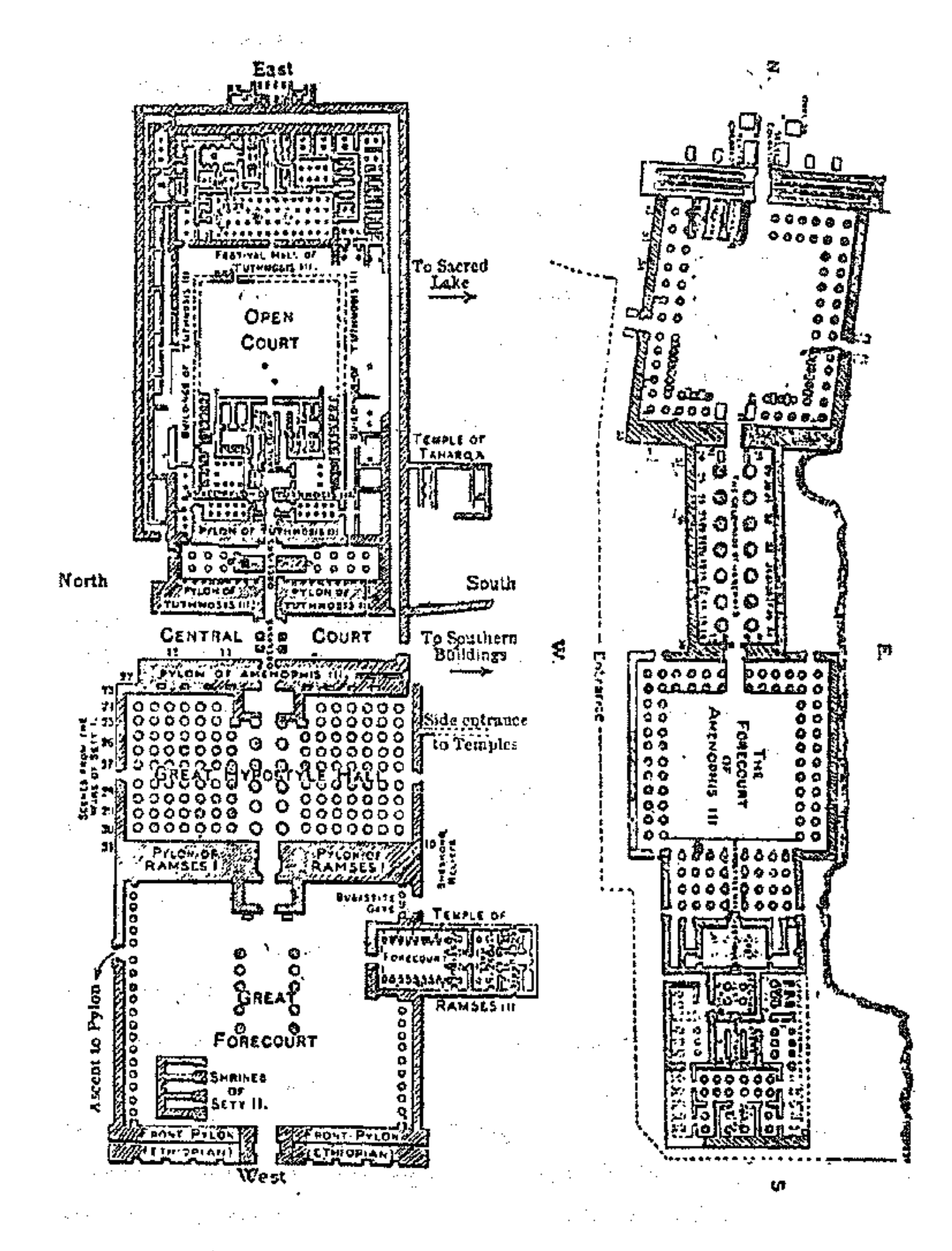
وفى رأينا أن «فرعون ذو الأوتاد» تعنى فرعون ذو المسلات. فالمسَلَّة هى الإبرة العظيمة ومَخيط ضخم (لسان العرب جـ٣ – ٢٠٧٦ والقاموس المحيط جـ٣ ص٣٩٧) وإن كان جمعها فى هذين المعجمين هو مَسَالّ. إلاَّ أن جمعها مسلاَّت لا بأس به وأسهل فى النطق. ولعل العرب عندما فتحوا مصر ورأوا هذه القطع الصخرية الرفيعة البالغة الارتفاع فى أون (عين شمس) أو طيبة وأرادوا تسميتها اشتقوا لها إسما مما ألفوه فى حياتهم فشبهوها بالإبر الكبيرة التى تخاط بها زكائب الغلال وسموها مِسَلَّة (شكل ٢٠١ جـ) أو اشتقاقا من المَسْلَّة وهى



شكل ٢٠٣ – معبد سيتى الأول فى أبيدوس (أقامه رمسيس الثانى).



شكل ٢٠٤ – معبد رمسيس الثانى فى أبيدوس .



شكل ٢٠٦ – معبد آمون رع الكبير بالكرنك .

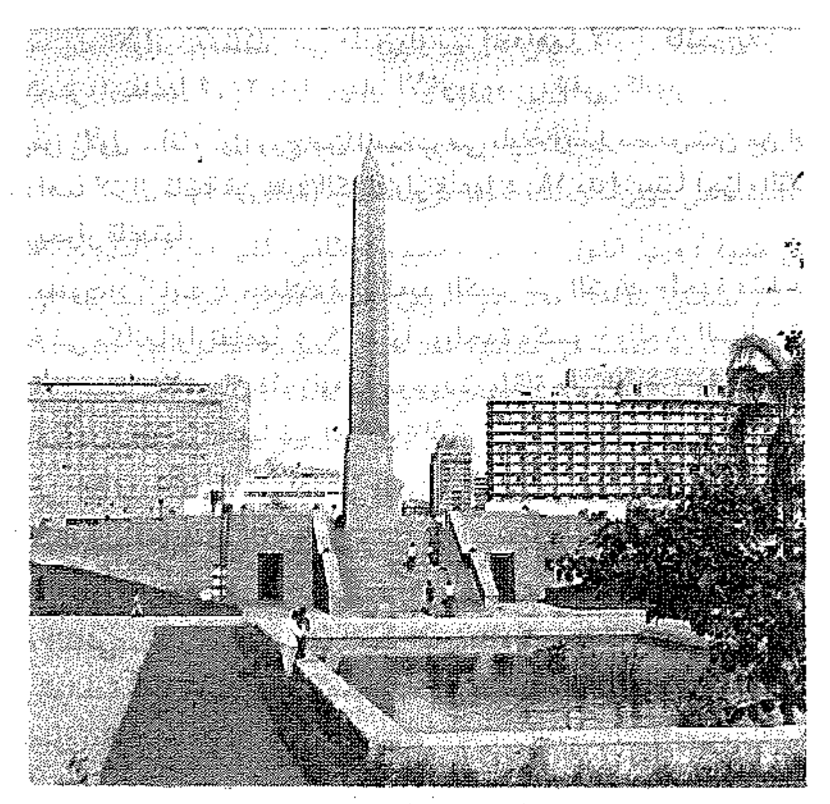
شكل ٢٠٥ – معبد الأقصر .

جريدة النخل الرطبة (شكل ٢٠١ – د) وكلاهما – الإبرة العظيمة أو جريدة النخل – تكون أرفع بالقرب من طرفها. ويجدر بنا أن نذكر أنهم لما رأوا معابد طيبة ظنوها قصورا وسموا مدينة طيبة «الأقصر» وكانت تسمية خاطئة. ولو علموا وقتها أنها معابد لسموها «المعابد» بدلاً من «الأقصر». وتبعا لهذا التصور الخاطىء فإنهم لما رأوا المعبد الكبير شبهوه بقصر النعمان المسمى «الخورنق» وتطور الإسم على مر الأزمنة إلى «الكرنك».

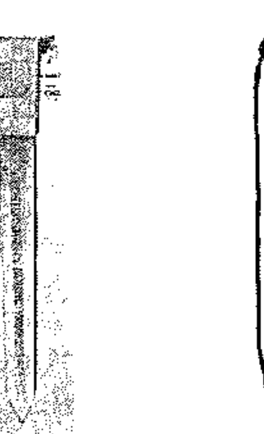
وفي رأينا أن تسمية هذه الأعمدة الحجرية الرفيعة والمدببة بالمسلاّت لم تكن كذلك تسمية دقيقة. فالمسلة الحقيقية أي الإبرة العظيمة التي شبّهوها بها قد يبلغ طولها ١٥–٢٠ سم في حين أن قطرها قد لا يزيد عن ٣مم أي أن نسبة الطول إلى القطر تكون من ٥٠–٧٠ مرة في حين تقل هذه النسبة في مسلات قدماء المصريين عن ذلك كثيرا (شكل ٢٠١ هـ). فالمسلة المقامة في باريس يبلغ ارتفاعها ٢٢,٥٥ مترا بينما يبلغ طول ضلع قاعدتها ٢,٥ مترا أي أن نسبة القاعدة إلى الارتفاع هي ٩ مرات وفي مسلة لندن تبلغ النسبة ٧ مرات فقط وهي نسبة تقرب من نسبة أبعاد الوتد الذي غالبا مايكون طوله ٥٠سم وعرضه ٧سم عند القاعدة أي أن النسبة ٧ مرات. زد على ذلك أن المسلة أي الإبرة مستديرة ولا تكون أبداً مربعة الشكل في حين أن الوتد يمكن صنعه من قطعة من الخشب مربعة الشكل بتهذيب طرفها. وإذا نظرنا إلى صورة إحدى هذه المسلات مقلوبة لوجدناها أقرب ماتكون إلى شكل الوتد (شكل ٢٠٨). وبالمثل لو نظرنا إلى الوتد مقلوبا لوجدناه يشبه المسلة تماما.

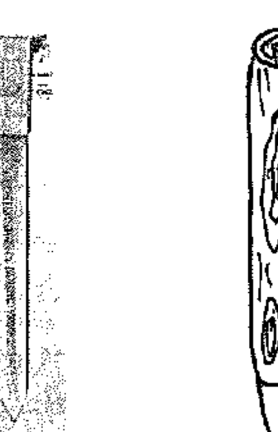
ولو كان هناك أحد يعرف الهيروغليفية عند دخول العرب مصر لأخبرهم أن هذه الأعمدة الضخمة ذات الطرف الهرمي – والذي كان يغطى بالذهب أو النحاس فيعكس أشعة الشمس لمسافات بعيدة – كانت رمزا لعبادة الشمس. ولقرأوا هذه الجملة على قاعدة إحداها مخاطبة إله الشمس: أنت تلمع في هذه الأوتاد (أي الأعمدة) الصخرية. إذ أن وتد باللغة الهيروغليفية اسمه يون. ومدينة هليوبوليس – وهي مركز عبادة إله الشمس – تسمى أون اشتقاقا من يون فهي مدينة الأوتاد وهي أول مكان أقيمت فيه المسلات في مصر القديمة. كما أن مدينة طيبة (حاليا الأقصر) كانت تعرف بـ U.ast أو Iunu Shemayit أي العمود أو الوتد الجنوبي أو هليوبوليس الجنوب (مسلات مصر. لبيب حبشي. ص ٥ – ٦).

ولو كان العرب عند دخولهم مصر قد سألوا اليونانيين بماذا سمُّوا هذه الإبر الصخرية العظيمة لعلموا أنهم سموها Obeliskos بمعنى وتد وبمعنى عمود مدبب أيضا. وعن اليونانية أخذت اللاتينية اسم Obltkos ثم Obelisque وفي الإنجليزية Obelisk . وكان القرآن الكريم من الدقة بحيث استعمل اللفظ الصحيح وهو **«فرعون ذو الأوتاد»** بمعنى فرعون ذو المسلات ويبقى علينا أن نحدد من هو الفرعون المقصود بهذه الصفة. ويمكننا ذلك إذا استعرضنا الفراعين وعدد المسلات التي أقامها كل منهم. وخير من كتب في هذا الموضوع هو الدكتور لبيب حبشي. ومايلي مشتق من كتابه (The Obelisks of Egypt – مسلات مصر):



شكل ٢٠٧ – مسلة رمسيس الثاني المقامة في جزيرة الزمالك





شكل ٢٠٨ – الوتد إلى اليمين يشبه تماما المسلة إلى اليسار وقد وضعت مقلوبة .
ولو قلبنا الصورة لوجدنا الوتد يشبه المسلة.

– **سنوسرت الأول** : مسلتان فى هليوبوليس، إحداهما لاتزال قائمة للآن وهى من الجرانيت الأحمر وارتفاعها ٢٠,٤ مترا، وبقايا الأخرى موجودة فى مكانها.

– **تحتمس الأول** : أقام أول زوج من المسلات فى طيبة وهما مصنوعتان من الجرانيت الأحمر. إحداهما لاتزال قائمة فى معبد الكرنك وارتفاعها ١٩,٥ مترا. بينما أجزاء الثانية ملقاة على الأرض بجوار قاعدتها.

– **حتشبسوت : أقامت** ٤ مسلات فى المعبد الكبير فى الكرنك. واحدة فقط هى التى لاتزال قائمة فى مكانها وارتفاعها ٢٩,٥ مترا. وواحدة مكسورة والجزء السفلى قائم على القاعدة. أما المسلتان الأخريان فأجزاؤهما موجودة وملقاة على الأرض. وفى أسوان أمرت بإقامة مسلتين دُمرتا ولم يبق منهما غير أجزاء متناثرة.

– **تحتمس الثالث** : أقام ٧ مسلات فى الكرنك واثنتان فى هليوبوليس ومن المسلات التى كانت فى الكرنك يوجد النصف العلوى من مسلة فى اسطنبول وواحدة فى نيويورك وأخرى فى لندن وواحدة بدون قاعدة موجودة فى روما.

أمنحتب الثانى : أقام مسلتين أمام المعبد الذى بناه فى هليوبوليس ومسلتين فى جزيرة فيلة ارتفاع الواحدة ٢,٢ متر فقط إحداهما نقلت إلى بلدة درهام فى انجلترا والأخرى موجودة بالمتحف المصرى بالقاهرة.

تحتمس الرابع : أقام مسلتين فى جزيرة فيلة نقلت أجزاء من إحداها إلى المتحف المصرى بالقاهرة.

أمنحتب الثالث : بالرغم من أن رئيس العمال سجل أنه أشرف على عمل ٦ مسلات إلاً أنه لم يوجد إلا قاعدة مسلتين وقُدّر ارتفاع كل مسلة بـ ١٩ مترا.

أمنحتب الرابع : **أخناتون** : وكان قد بدأ عقيدته الجديدة وأمر بإزالة أسماء الآلهة من على مسلات أسلافه. ويحتمل أنه أقام مسلة واحدة فقط لنفسه.

حورمحب : أقام عدة مسلات صغيرة لم يبق إلا أجزاء منها.

رمسيس الأول : نظرا لقصر مدة حكمه فلم يتح له إقامة أى مسلات.

سيتى الأول : أقام مسلتين أمام معبده.

رمسيس الثانى : حظى بنصيب الأسد فى عدد المسلات التى أقامها :

– **فى هليوبوليس** : أقام ٤ مسلات على الأقل ثلاث نقلت إلى روما والرابعة إلى فلورنسا.

– **فى حطام أتريب** (بنها) وجد حطام مسلتين وقاعدتيهما وكانت أجزاء بعض المسلات قد استعملت فى بعض المبانى. ونقلت قاعدة إحدى المسلات إلى متحف برلين والثانية موجودة بالمتحف المصرى.

– **فى العاصمة بررعمسيس** : توجد أجزاء من ٢٣ مسلة محفور عليها اسم رمسيس الثانى كانت كلها فى المعبد الكبير عبارة عن خمسة أزواج (١٠ مسلات) و١٣ مسلة فرادى (انظر شكل ١٩١، ١٩٢ ص ٧٧٢) وإحدى هذه المسلات كانت سليمة وهى التى نقلت إلى القاهرة وأقيمت فى جزيرة الزمالك بجوار برج القاهرة (شكل ٢٠٧).

– **فى طيبة** : وبها أطول مسلات لرمسيس الثانى. ففى الجزء الذى أضافه إلى معبد الأقصر أقام مسلتين إحداهما نقلت إلى باريس والثانية لاتزال باقية فى مكانها إلى اليوم ولعلها هى المسلة الوحيدة المقامة فى مكانها منذ عهد رمسيس الثانى إلى اليوم. وكل من هاتين المسلتين كان يبلغ ارتفاعها ٢٥ مترا وهى على ذلك تعتبر من أطول المسلات. وتوجد بقايا عدد من المسلات فى الكرنك كلها محطمة. وتوجد قاعدة مسلتين عند البوابة الشرقية. بالإضافة إلى أجزاء من مسلات أخرى.

– **فى أبى سمبل** : أقام فى المعبد مسلتين. الشرقية عليها نقوش تُمثِّل رمسيس الثانى يتعبد إلى «حوارختى» والغربية تصف الملك بأنه «محبوب أمون».

ويمكن تلخيص ما سبق بالأتى:

سنوسرت الأول	: ٢ مسلة .	تحتمس الأول	: ٢ مسلة .
حتشبسوت :	: ٦ مسلات .	تحتمس الثالث	: ٩ مسلات .
أمنحتب الثالث	: ٢ أو ٦	أخناتون	: واحدة أو لا شيء .
حور محب	: مسلات صغير .	رمسيس الأول	: لا شيء .
سيتى الأول	: ٢ مسلة .		
رمسيس الثانى	: ٣٥ مسلة على الأقل .		

وهكذا نجد أن عدد المسلات التى أقيمت قبل عصر رمسيس الثانى تبلغ حوالى ٣٠ مسلة بواقع ٣ مسلات فى المتوسط لكل فرعون فى حين أن رمسيس الثانى وحده أقام مالا يقل عن ٣٥ مسلة. وكما سبق أن أوضحنا أن الإسم الصحيح الذى كان من الواجب إطلاقه على هذه الأعمدة الصخرية هو لفظ «وتد» بدلاً من «مسلّة». ويتضح لنا أن رمسيس الثانى هو صاحب أكبر عدد من الأوتاد وبذلك ينطبق عليه الوصف الذى أطلقه القرآن الكريم على فرعون موسى: **«فرعون ذو الأوتاد»**. وهذا يضيف برهانا آخر على أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى.

حروب رمسيس الثانى

لقد تم تخصيص هذا الفصل لوصف حروب رمسيس الثاني، وبالذات معركة قادش لما كان لها من انعكاسات على وضع بني إسرائيل في مصر. إذ فور أن عاد رمسيس الثاني من هذه المعركة حتى بدأت حملة ضارية من التعذيب والتنكيل ببني إسرائيل بلغت مداها بإصدار أوامر بذبح المواليد الذكور وترك البنات، والذى أشار إليه القرآن الكريم:

«وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم». (٤٩ - البقرة)

«وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم». (٦ - إبراهيم)

وقد سبق أن ذكرنا (ص ٦٥٨) أن ذلك التسخير هو أحد الأشياء التى يجب أن تتوافر فى فرعون موسى واستبعدنا عددا من النظريات لعدم توافر هذا الشرط. وسنرى الآن أن رمسيس الثانى كان تقريبا الفرعون الوحيد الذى توافر لديه دافع قوى لإنزال هذا التعذيب الشديد ببنى إسرائيل.

ذكرنا فى الجزء الثالث ص ٥٨٩ أن سياسة أخناتون أفقدت مصر إمبراطوريتها التى أسسها تحتمس الأول وتحتمس الثالث. ولما تولى حورمحب الحكم أعاد الانضباط إلى الإدارة الحكومية. وبدأت الأسرة التاسعة عشرة برمسيس الأول ثم خلفه سيتى الأول واعتبر الشعب توليه الحكم بداية عهد جديد ومن ثم أطلق عليه لقب «مجدد الميلاد». وقاد حملات مظفرة فى فلسطين والشام. ومن ثم بدأ الاحتكاك بين مصر والحيثيين فى آسيا الصغرى الذين كانوا قد استولوا على شمال سوريا. ودارت معارك كان النصر فيها حليف سيتى الأول وعقد مع ملكهم معاهدة ودية. كما حمى مصر من غارات الليبيين فى الغرب. وعندما تولى رمسيس الثانى الحكم قام ملك خيتا بزيارة لمصر. ولا يُعرف السبب الحقيقى الذى كان وراء هذه الزيارة. هل هو تأكيد المعاهدة الودية التى أبرمها سيتى الأول معهم. أم هى لسبر غور الفرعون الجديد ومعرفة نواياه تجاههم. المهم أن الأموريين (فى شمال العراق) قاموا بثورة ونقضوا ولاءهم لملكة خيتا (الحيثيين) وولوا وجوههم شطر مصر لمعاونتهم. وتوترت العلاقات بين مصر وخيتا. وكان رمسيس الثانى يطمع فى إعادة الإمبراطورية المصرية كما كانت فى عهد تحتمس الثالث

(جـ٣ ص٥٥٠) ومن ثم فقد قاد فى السنة الرابعة من حكمه حملة لإخضاع الساحل الفينيقى ليتخذه قاعدة لتوسعاته المقبلة ووصل إلى نهر الكلب على مقربة من بيروت (شكل ٢٠٩). ونقش على صخرة هناك مايدل على وصوله إلى هذا المكان. وكان فى هذا نقض للمعاهدة التى كانت معقودة بين سيتى الأول والده وملك خيتا. وأضمر رمسيس الثانى متابعة التوسع شمالا. وفى العام التالى – أى العام الخامس من حكمه قاد حملة ثانية وهى الحملة التى وقعت فيها معركة قادش الشهيرة. وكان ملك خيتا من جانبه قد توجس خيفة من رمسيس الثانى ولعله علم نواياه فاستعد لذلك وأعد جيشا قويا انخرط فى سلكه كثير من المرتزقة. كما استمال إليه أمراء الشام حتى لا يقوموا بطعنه من الخلف أثناء حربه مع المصريين.

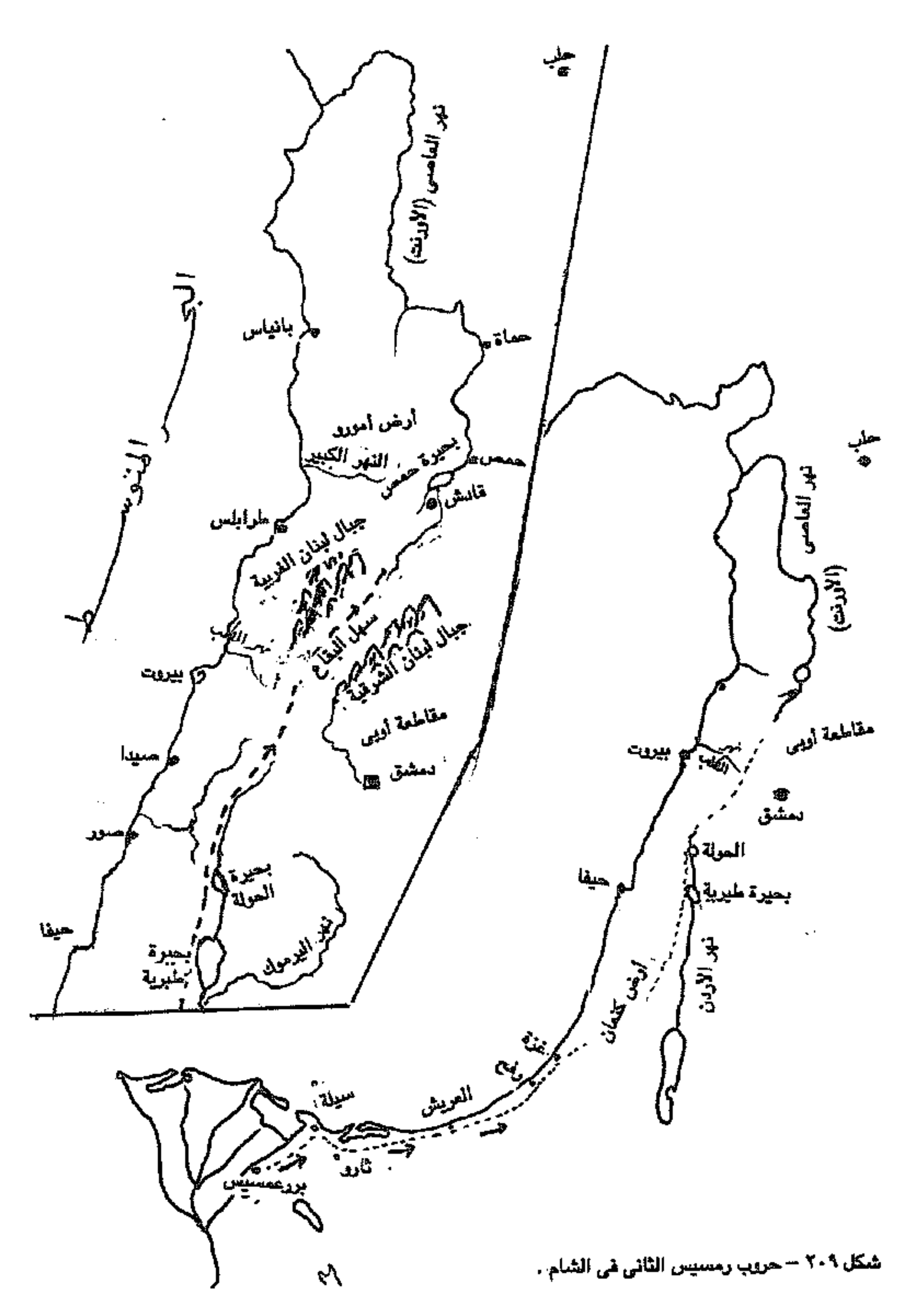
معركة قادش

وصف المعركة (نقلا بتصرُّف عن كتاب فرعون المنتصر . كتشن. ص٥٢):

فى يوم ربيع دافىء فى أواخر شهر أبريل من عام ١٢٨٧ ق.م. كان هناك هرج ومرح فى مدينة بررعمسيس. فكتائب المشاة تتجمع. وفرق العربات الحربية كانت تثير الغبار فيما قائدوها يختبرون حماس خيولها المتحفزة. وفتحت مخازن المهمات الحربية لتأخذ كل سرية حاجتها من الدروع والسيوف والخناجر. وتجمع فى الأرض الواسعة حول المدينة جيش كبير قوامه عشرون ألف مقاتل مقسمين إلى أربعة فيالق. كل منها باسم أحد الأرباب المصريين الكبار. وقد اختير أفراد كل فيلق من مكان عبادة هذه الآلهة. فمن طيبة جاء فيلق آمون. ومن منف ومصر الوسطى جاء فيلق «بتاح» ومن عين شمس جنِّد فيلق «رع» ومن بررعمسيس اختير فيلق «ست». كذلك تخير رمسيس الثانى مجموعة من صفوة الشبان الشجعان وسماهم «فريق الفتوة» وأمرهم بالتزام خط الساحل واللحاق به عند قادش وحماية ظهر قواته عند الحاجة ويمكن تشبيههم بفرقة صاعقة.

وسار الجيش يقوده رمسيس الثانى بنفسه على رأس فيلق آمون تتبعه الفيالق الثلاث الأخرى. وكما هو مكتوب من وصف المعركة على المعابد:

بدأ جلالته السير فى السنة الخامسة من حكمه. الشهر الثانى من الصيف. اليوم التاسع. وعبر جلالته الحدود عند Sile سيلة. وبدا قويا مثل «منتو». وكانت البلاد الأجنبية ترتجف أمامه. يأتى رؤساؤها بجزاهم. والعصاة خمدوا فى أماكنهم خوفا من قوة جلالته. ومر الجيش بغزة. وبسرعة عبر أرض كنعان ثم الجليل الأعلى فبحيرة الحولة حيث ينبع نهر الأردن. ثم تابع السير شمالا فى سهل البقاع بين جبال لبنان الشرقية والجبال الغربية. وكما كتب عنها: وكانت الجيوش تسير بسهولة كأنها تسير فى شوارع مصر! ومر على إحدى الحاميات المصرية فى وادى الأرز ببلدة كوميدى – المركز الإدارى لمقاطعة أوبى (Upi) فى جنوب سوريا – وكان قد



شكل ٢٠٩ – حروب رمسيس الثانى فى الشام.

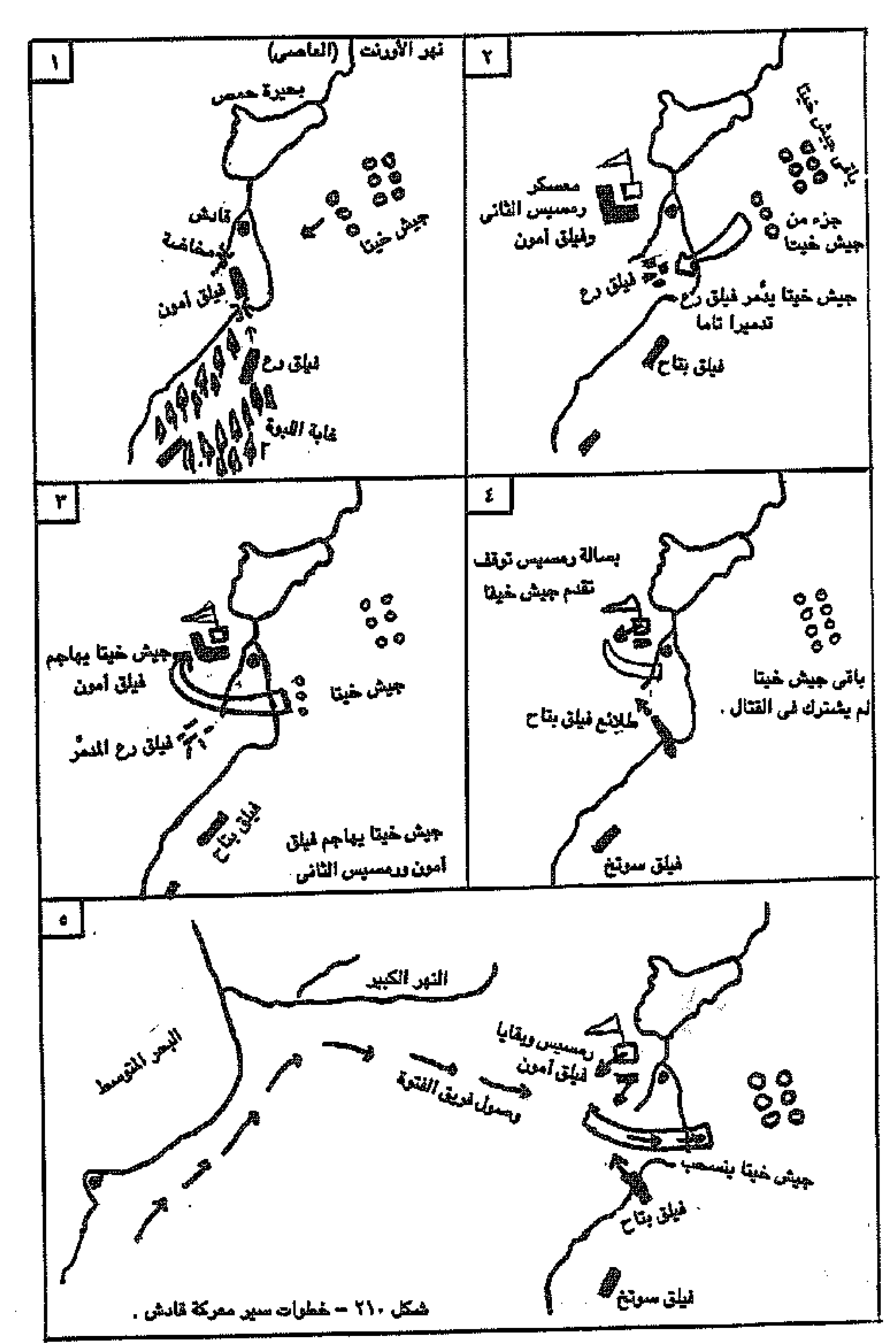
مضى على خروجه من مصر شهر بالتمام. وسار مخترقا غابة اللبوة حتى بلغ بلدة شابتونا (ربلة الحالية) على نهر الأورنت (نهر العاصى) وعسكر على ربوة تشرف على الوادى الفسيح التى تقع مدينة قادش فى شماله على مسيرة يوم واحد (شكل ٢١٠).

وبعد وصوله هناك دخل معسكره اثنان من الشاسو (البدو) وادّعيا أنهما يتكلمان باسم إخوانهم رؤساء قبائل البدو وأنهم يعرضون الولاء والتحالف مع مصر بدلاً من الاستعباد الحيثى. وأسلمهما لرجاله فاستجوبوهما عن مكان جيوش الحيثيين فأخبراهم أن حاكم خاتى ما إن سمع بمقدم فرعون حتى ارتعد وتقهقر بجيوشه إلى ماحول حلب فى الشمال.

وكان هذا النبأ مفرحا للفرعون ولاعتقاده الشديد فى قوة جيشه فقد صدّقه على الفور. ومع أن هذه الأخبار كانت مبهجة أكثر من اللازم بحيث تدعو إلى الإرتياب فى صحتها وكان الواجب التحقق منها بإرسال العيون وفرق الكشافة . إلاَّ أن رمسيس الثانى وقد ملأه الزهو بنفسه فإنه صدقها. وأسرع على رأس فيلق آمون يعبر مخاضة نهر العاصى إلى السهل الذى تقع فى شماله مدينة قادش.

قادش: تقع قادش على الضفة الغربية لنهر العاصى جنوب بحيرة حمص بعدة كيلو مترات وهناك رافد لنهر العاصى يجرى فى الشمال الغربى منها. وكان هذا من أسباب منعتها. إذ بشق قناة تصل بين النهرين تصبح قادش وكأنها جزيرة يصعب اقتحامها ومن ثم فإن من يستولى عليها يمكنه التحكم فى كل شمال سوريا.

قلنا إن رمسيس الثانى عبر نهر العاصى ثم سار إلى مرتفع شمال غربى قادش وأقام معسكره هناك (شكل ٢١٠) فى انتظار وصول باقى فيالق الجيش ليتابع السير فى أثر جيش خيتا الذى كان يظن أنه فى الشمال حسب ما أخبره الجاسوسان. وهنا نزلت عليه صاعقة من السماء الصافية التى كان يحلق فيها. فقد وقع فى أيدى فرق استطلاعه جنديان من جيش العدو كانا فى مهمة لاستكشاف موقع جيش المصريين وعدده. وبالضرب استخلصوا منهما الحقيقة وهو أن جيش الحيثيين فى مكانٍ شرقى قادش وهو فى طريقه ليعبر نهر العاصى. وأن الجاسوسين الأولين كانا خدعة من ملك خيتا. وأدرك رمسيس الثانى هول الكارثة المتوقعة. وراح يوبخ ضباطه على إهمال فرق الاستطلاع. وبسرعة أعاد ترتيب الفيلق الذى يرأسه استعداداً لهجوم العدو. كما أرسل الرسل على عجل إلى فيلق بتاح وستوتخ ليسرعا السير. وفى هذه الأثناء كان نصف الجيش الحيثى قد عبر مخاضة نهر العاصى وهاجم فيلق رع بينما الجنود يسيرون فى استرخاء غير متوقعين القتال. وتشتت الفيلق ودُمِّر تماماً. ثم تابع جيش خيتا تقدمه حتى أصبح فى مواجهة فيلق آمون. وبدأ فى مهاجمته. ورأى جنود فيلق آمون بقايا الجنود من فيلق رع يجرون مذعورين تتبعهم عاصفة التراب التى تثيرها عربات العدو وهى تلاحقهم فدب الذعر فى قلوبهم ولم يدروا ماذا يفعلون حتى أحاط جنود العدو بهم. ثم اندفعت



شكل ٢١٠ – خطوات سير معركة قادش .

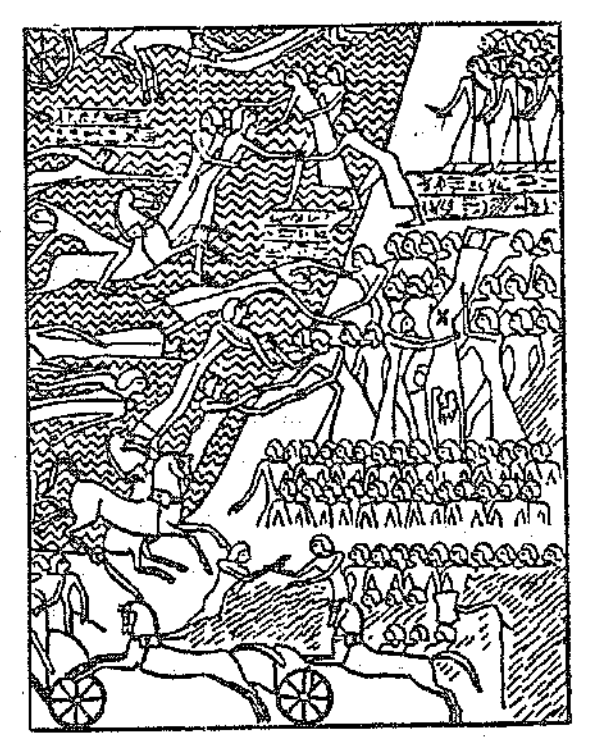
فرقة من جنود العدو تهاجم الجناح الغربى من الفيلق. وهنا أظهر رمسيس الثانى شجاعة فائقة إذ اندفع على عربته وقاتل الفرقة المهاجمة بشراسة اليائس والغاضب من تخاذل قواته ويطوف بذهنه شبح الهزيمة فيعطيه قوة مضاعفة على القتال. وبهت ضباط الفرقة المهاجمة من هذه الشجاعة وقدروا أن كل جنوده سيحاربون مثله فضعفت عزيمتهم وارتبكوا. وفى نفس هذه اللحظة كان فريق الفتوة قد وصل من الغرب وبدأ فى مهاجمة العدو من الخلف (شكل ٢١٠ جـ). وظن الحيثيون أن فريق الفتوة هذا مقدمة جيش كبير فتخاذلوا فى القتال. كما أن الغبار الذى كان يثيره فيلق «بتاح» بدأ يظهر فى الأفق من ناحية الجنوب. وشدد رمسيس الثانى عليهم القتال ففروا هاربين عبر النهر يلقون أنفسهم فيه طلبا للنجاة وكان من بين من ألقوا بأنفسهم فيه أمير حلب الذى لم يكن يحسن السباحة فابتلع كمية كبيرة من المياه وتم إنقاذه. وهناك رسم يصور جنوده وقد أمسكوه من رجليه مقلوبا لإفراغ مافى جوفه من مياه (شكل ٢١١).

ووصل فيلق «بتاح» أرض المعركة وبدأ يشترك فى المطاردة وفى جمع الأسرى. وذهل ملك خيتا لما آلت إليه نتيجة المعركة مع أن جزءا كبيرا من جيشه كان لايزال فى الشرق ولم يشترك فى المعركة ولو تقدم واشترك فيها لكان النصر حليفه. ولكن ملك خيتا ارتد بباقى جيشه لما رأى فرار جنوده وأرسل يطلب وقف القتال والصلح. وكان التعب قد حل بجيش رمسيس أيضا فقبل الصلح.

المهم أن رمسيس الثانى فى هذه المعركة خدع خدعة كبيرة كلفته فيلق رع بأكمله. كما فقد فيلق آمون عددا كبيرا من الجنود ولم يتمكن رمسيس الثانى من النصر الذى كان يرجوه. وكل ماحصل عليه هو وقف القتال وبقاء الحال كما هو. إذ لم يتمكن من الاستيلاء على قادش ولا على أرض أمورو. ولعله فى قرارة نفسه أضمر أن يحقق ذلك فى معركة أخرى فى المستقبل. وبدأت مسيرة العودة إلى أرض الوطن .... وأخيرا وصل فى عربته اللامعة يتبعه طابور طويل من الأسرى ليدخل السرور على شعبه !

بعد عودة رمسيس الثانى أحكم مواتاليس ملك خيتا القبضة على قادش. واتجه غربا نحو أرض أمورو وعزل أميرها ونصب مكانه أميرا مواليا له. واتجه جنوبا نحو دمشق وجعل من هذه المنطقة أرضا محايدة بينه وبين مصر وكانت من قبل فى حوزة مصر. أى أن النتيجة النهائية كانت فى صالح خيتا. ولكن فرحة ملك خيتا لم تدم. إذ انتهز ملك آشور الظروف واستولى على مملكة ميتانى فى الفرات الأعلى والتى كانت موالية لملك خيتا وأمدته بجنود فى معركته مع رمسيس الثانى.

قلنا إن رمسيس الثانى قَبِل الصلح مع ملك خيتا وعاد إلى مصر يسوق بعض الأسرى. وقد أكثر رمسيس الثانى من تسجيل وصف هذه المعركة فى عدة أماكن على الآثار. وإن كنا سنطيل بعض الشيىء فى ذكر ماجاء بالآثار عن هذه المعركة فذلك لنوضح ماسبق أن ذكرناه



شكل ٢١١ – رمسيس الثاني يهزم الحيثيين، ويرى ملك حلب مقلوبا (مشار إليه بعلامة ×) ويحاول رجاله تفريغ ما ابتلعه من ماء .



شكل ٢١٢ – رجال رمسيس الثاني ينزلون بالبدويين من العابيرو العقاب .

سابقا من أنه فور عودة رمسيس الثانى من هذه المعركة حتى بدأ حملة ضارية من التعذيب والتنكيل ببني إسرائيل. كذلك نلحظ أنه فى كل الكتابات التى أمر بها عن المعركة أرجع الفضل فى الانتصار فى المعركة لشجاعته ورباطة جأشه. وجاء فى بعضها مبالغات تبعد كثيرا عن الحقيقة ولا يقبلها العقل. ولعل هذه البطولة التى نسبها لنفسه جعلته يشعر أنه فعلا فوق مستوى البشر وأنه يقرب من مستوى الآلهة. الأمر الذى أدى به فيما بعد إلى أن يدعى الألوهية.

وفيما يلى بعض الأماكن التى سجل عليها وصف هذه المعركة: (مصر القديمة. سليم حسن. جـ٦ ص٢٤٦).

١ – على الجدار الغربى الخارجى من ردهة أمنحتب الثالث فى معبد الأقصر.

٢ – على الجدار الجنوبى الشرقى لردهة رمسيس الثانى فى معبد الأقصر.

٣ – على بوابة معبد الأقصر .

٤ – على الجدار الغربى لمعبد العرابة المدفونة.

٥ – على البوابة الأولى لمعبد الرمسيوم.

٦ – على الجدار الشمالى للردهة الثانية فى معبد الرمسيوم

٧ – على الجدار الشمالى لمعبد أبو سمبل سَجَّل مايسمى بأنشودة معركة قادش.

٨ – برديتى «ريفا» و«ساليبه».

وسنكتفى بذكر ماجاء فى اثنتين من هذه الكتابات:

١ – كان وصف المعركة والخدعة فى أحد هذه الكتابات كما يلى :

فى السنة الخامسة الشهر الثالث من فصل الصيف كان ابن الشمس محبوب آمون «رعمسيس» فى حملته الثانية المظفرة فى أرض زاهى فى سرادق جلالته على الهضبة الجنوبية من قادش. وعندما طلع الفجر أشرق جلالته كما يشرق «رع».. وهنا أتى إليه اثنان من الشاسو (البدو) وقالا لجلالته قائلين إننا سنكون خَدَمًا لفرعون. وقد فررنا من أمير خيتا الخاسىء. وهو يقيم فى أرض حلب فى الشمال. وهكذا جاء هذان البدويان ليقولا هذا الكلام لجلالته. وليروا المكان الذى فيه جلالته وليروا أنسب الأوقات حتى لا يكون جيش جلالته مستعدا. وصدق جلالته ماقاله البدويان. وسار شمالا حتى وصل إلى الشمال الغربى من قادش وضرب هناك جلالته سرادقه على الشاطىء الغربى من نهر الأورنت. وأمكن القبض على جاسوسين آخرين أخبرا جلالته بأن جنود خيتا عبروا المخاض جنوبى قادش ثم اقتحموا قلب جيش جلالته. وتخاذل مشاة جلالته أمامهم. فسار جنود خيتا شمالاً نحو المكان الذى فيه جلالته. وأحاط الأعداء بحرس جلالته. وحينئذ انقض عليهم جلالته. وهو شجاع القلب ووجهه جذوة نار تحرق

كل بلد أجنبى باللهب، وصار كالأسد الهصور. وقوته ترسل عليهم شواظاً من نار، وكان جلالته مثل الإله «سوتخ» عظيم القوة، ومثل الإلهة «سخمت» فى وقت غضبها. فأخذ فى تذبيحهم وتقتيلهم. فسقطوا على وجوههم الواحد فوق الآخر. وقتلهم جلالته مجندلين تحت سنابك خيله ولم يكن معه آخر. وأطاح جلالته بأعدائه خيتا الخاسئين. وكان وراءهم كالمارد الطائر وحيدا وقد فرَّ عنه مشاته وخيالته. وإنى أقسم بحب «رع» وبحظوة «آتوم» لى أن كل شيء قلتهُ قد فعله جلالته حقا.

٢ – ووصف آخر للمعركة جاء به :

كان الحيثيون يقفون كامنين خلف مدينة قادش ثم خرجوا من الجهة الجنوبية فى قادش واخترقوا قلب فيلق رع الذى كان يتابع السير ولم يكونوا مستعدين للحرب عندئذ تخاذل مشاة جلالته وفرسانه أمامهم. وكان جلالته قد عسكر شمالى قادش وفى هذه اللحظة جاء رجل وأخبر جلالته بذلك. وظهر جلالته آنئذ مثل «منتو» (إله الحرب) فأخذ عدة الحرب، ولبس درعه. فكان مثل «بعل» وركب جلالته مسرعا. واندس فى أعماق الأعداء، وكان وحده ولم يكن معه إنسان آخر. ولما نظر خلفه وجد أن طريق مخرجه قد أحيطت بألفين وخمسمائة عربة من كل نوع من محاربى خيتا. ثم يستمر الكلام على لسان رمسيس الثانى فيقول: ولم يكن معى رئيس ولا قائد عربة ولا ضابط مشاة ولا حامل درع. ومشاتى وخيالتى قد تركونى فريسة أمامهم. وعندئذ قال جلالته: ماذا جرى ياوالدى «أمون»؟ هل من عمل الوالد أن يهمل الإبن؟ أم هل عملت شيئا بغير علم منك؟ هل مشيت أو وقفت إلا على حسب قولك؟ هل تعديت الخطط التى أمرت بها من فمك؟ ألم أُقِمْ لك آثارا عدة لأملأ معبدك بأسلابى؟ ووهبت لك كل أملاكى بوصية. وعملتُ على أن تعطى عشرات الآلاف من الثيران مع كل أنواع النبات الزكية .. (من المرجح أن هذا كان شبه نذرٍ نذره إن خرج سالما من هذه المعركة). ويستمر الكلام (ونختصره) وإذ ذاك وجدت «أمون» قد أتى على أثر ندائى له. ومدَّ إلىَّ يده. وحينما كنت فى ابتهاج كان يصيح خلفى: إلى الأمام يارمسيس. إنى معك. ويدى معك. إنى أكثر نفعاً من مائة ألف رجل مجتمعين معاً فى مكان واحد. وإنى سيد الانتصار الذى يحب الشجاعة. لقد كنتُ مثل «منتو» عندما أشد قوسى بيمينى. ومثل «بعل» حينما كنتُ أحارب بيدى اليسرى. وقد وجدتُ الألف وخمسمائة عربة التى كنت فى وسطها قد تحولت إلى كومة أمام خيلى. وقلوبهم سقطت فى جوفهم خوفا منى. وأذرعهم قد شلَّت. وقد جعلتهم يتساقطون فى الماء. وقد خرجوا على وجوههم الواحد فوق الآخر. وذبحت منهم من أردت. ولم يلتفت منهم أحد وراءه. وقد انقضضت عليهم مثل «منتو» وجعلتهم يذوقون يدى فى لحظة. وقد قتلتهم فى مكانهم حينما كان الواحد يصيح على صاحبه قائلا: إن الذى بيننا ليس بشرا. إنه «سوتخ» صاحب القوة العظيمة. و«بعل» فى أعضائه إذ أن البشر لا يمكنهم أن يأتوا بما يأتيه من الأعمال. هلموا نسرع ونولى الأدبار أمامه ونبحث لأنفسنا عن الحياة.

كان فريق الفتوة (الصاعقة) قد وصل، ولكنه يستمر يعزو النجاح لنفسه فيقول:

وقد أعملتُ السيف فيهم دون هوادة ورفعت السوط، وصِحْتُ على مشاتى وخيالتى قائلا: قفوا وثَبِّتوا قلوبكم يامشاتى وياخيالتى، شاهدوا انتصاراتى عندما كنت وحيدا و«آمون» كان حاميَّ ويده معى، سيتحدث الناس بترككم إياى وحيدا لا رفيق معى ولا عظيم معى ولا ضابط صف يمد يده، وكنت أحارب منفردا ، وظهرتُ أمام الأعداء مثل «منتو» عندما يكون مدجَّجًا بآلات الشجاعة، وكنت مثل «رع» عند إشراقى يحرق شعاعى أعضاء العدو، وكان الواحد منهم ينادى صاحبه قائلا: لا تقتربوا لأن «سخمت العظيمة» معه على فرسه ويدها معه، ومن يقترب منه يقابل لهيبا من نار يحرق أعضاءه، ووقف رجال خيتا بعيداً، ولكن «جلالتى» هجم عليهم وأعملت السيف فيهم دون أن يفلتوا منى، وقد صاروا كومة من الجثث أمام جيادى مضرجين بدمائهم، فأرسل أمير خيتا الخاسىء متضرعا لاسم جلالتى العظيم كما يتضرع الإنسان لإسم «رع»، ثم أرسل بعد ذلك رسوله بخطاب سارٍّ للقلب فى يده باسم جلالتى العظيم يقول: هل من الخير أن تقتل عبيدك؟ وأن يكون وجهك عابسا لهم ولا تأخذك الشفقة بهم؟ إنك قد قمت بمذبحتك أمس وأعملت السيف فى رقاب المئات، أيها الملك القوى، إن السلام أكثر خيراً من الحرب، امنحنا النفس . وبعد ذلك عاد جلالتى فى حياة ورضا ، وجمعت عظمائى لأجعلهم يسمعون السبب الذى من أجله بعث ملك خيتا رسالته.

ثم تذكر الكتابة عقد الصلح، وعاد رمسيس إلى مصر، وكان الآلهة يحيونه قائلين: تعالَ تعال يابننا الذى نُعِزُّه، سيد الأرضين، يارمسيس، ابن الشمس ومحبوب «آمون».

ونعود ثانية إلى شعور رمسيس الثانى بعد المعركة، فهو قد تعرض لخدعة كبرى كادت أن تكلفه حياته، وقد كلفته فيلقا كاملا من جيشه، كما أن كتب التاريخ تذكر أن التنكيل ببنى إسرائيل قد اشتد عقب عودة رمسيس الثانى من معركة قادش، ويطرح بعضهم السؤال (د. محمد بيومى مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، جـ٢ ص١٥٤): لِمَ تغير الحال إلى هذا المصير المؤلم؟ ويجيب، ليس أمامنا سوى أن نفترض أن أمرا ما قد حدث من بنى إسرائيل، ربما كان خيانة! ربما كان بداية تمرد!

ويمكننا القول بأن الخدعة التى سلبت الفرعون انتصاره فى معركة قادش كان لها صلة ببنى إسرائيل، وأن جنود رمسيس الثانى – بعد المعركة – أخذوا الأسيرين اللذين خدعا الفرعون وضربوهما كما هو مسجل بالصورة على الآثار (شكل ٢١٢ ص٧٩٤)، ولعل الأسيرين اعترفا بأنهما من «العابيرو» أو أنهما فعلا ذلك بتدبير من العابيرو.

والعابيرو أو الخابيرو كانوا على اتصال وثيق بالهكسوس وكما يقول عالم الآثار سليم حسن (مصر القديمة جـ٤ ص١٩٦) وهم طائفة وليست جنسا وقد تطورت وأصبحت طائفة من طوائف اليهود، وهذا يؤيد ما ذُكِرَ من أنهم ذلك النفر من بنى إسرائيل الذين خرجوا من مصر

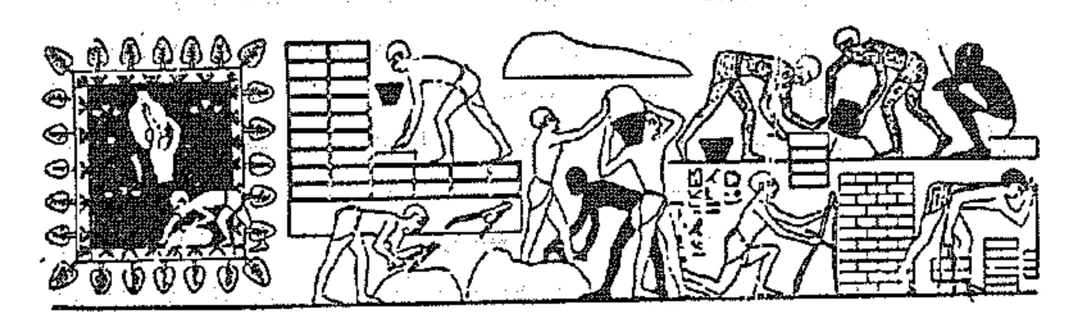
مع الهكسوس وأقاموا بفلسطين، ولكنهم انتشروا فى الشام يثيرون القلاقل ضد مصر. وذكر د. عبد العزيز صالح (الشرق الأدنى القديم جـ١ ص٢٤٠) أنهم قاموا بدور المخربين فى فلسطين. وكانت الكتابات المصرية تشير إليهم بوصفهم هم «العابيرو فى أرض كنعان». ثم أصبح بعد ذلك لفظ «العابيرو» يطلق على بنى إسرائيل المقيمين بمصر أيضا. وقد عثر على خطاب من رئيس عمال يقول فيه: لقد أرسلت الطعام «للعابيرو» الذين يسحبون الأحجار للصرح العظيم لمعبد رمسيس محبوب آمون (جاردنر تاريخ مصر القديمة جـ١ ص١٣٤).

كذلك فإن الحرص على تسجيل ضرب الأسيرين بالصورة على جدران معبد أبى سمبل يمكن أن يكون له دلالة غير مجرد تسجيل الواقعة. ففى كل الحروب يوجد جواسيس. كما كان الأليق أن تُخفى واقعة خداع الفرعون. لا أن تعلن على الملأ هكذا. إلا أن تكون رسالة موجهة إلى المصريين لأخذ جانب الحذر من «العابيرو» المقيمين بمصر وهم بنو إسرائيل.

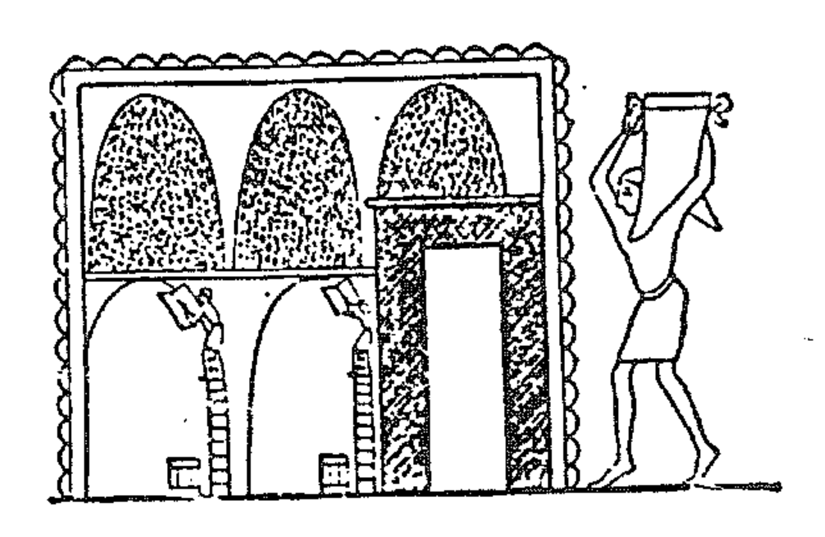
ولو نظرنا إلى الأمور من جانب بنى إسرائيل وتطلّعهم إلى الخروج من مصر إلى «الأرض الموعودة» ونبحث كيف يمكنهم تحقيق ذلك. فليس عندهم الأسلحة ولا الجند المدّرب الذى يمكنهم من اقتحام الأرض وإخراجها من دائرة النفوذ المصرى. فليس أمامهم إلا صفقة يعقدونها مع ملك «خيتا» بأن يساعدوه على هزيمة الجيش المصرى. فينحسر نفوذ مصر عن فلسطين وتعطى لهم – وتخلُص الشام والساحل الفينيقى وأرض أمورو لملك «خيتا».

ولعل رمسيس الثانى قد توصل إلى هذا الاستنتاج وشعر أنه قد طعن فى ظهره ممن آوتهم مصر وأطعمتهم وأكرمتهم على مدى عدة قرون ومن هنا كان العذاب الأليم صبه الفرعون دونما رحمة أو شفقة على بنى إسرائيل. لم يكتف بإنزال العذاب بهم. بل وضع خطة لاستئصال شأفتهم فأعطى الأوامر إلى قتلهم عاما وتركهم عاما فيقل عددهم فلا يخشى بأسهم وفى نفس الوقت تبقى المنفعة من تسخيرهم فى أعمال البناء.

وقد وجد فى الآثار المصرية دليل على هذا التسخير عبارة عن عدة رسوم فى مقبرة وزير اسمه «رخ مى رع» سجل فيها ما قام به من أعمال كُلِّف بها لصالح بلاده. وأحد هذه الرسوم يبين تفاصيل صنع الطوب اللبن ثم عملية البناء. وقد اكتشف هذه الرسوم عالم الآثار پرسى نيوبرى Percy Newberry. وأهم مافى اللوحة (شكل ٢١٣) هو لون البشرة الأبيض للعمال المسخَّرين بينما الملاحظون والمشرفون تبدو بشرتهم سمراء وهذا يشير إلى أن العمال هم من الساميين. والكتابة بجوار العمال يقولون فيها: لقد أمدَّنا بالخبز والنبيذ وكل شيىء حسن. أما الكتابة الموجودة بجوار أحد الملاحظين فتقول: السوط فى يدى فلا تكونوا كسالى! وفى هذا دليل على أن العمل يتم بالسخرة. ويرى وارنركيللر (تاريخ الكتاب المقدس ص ١١٠) أن هذا الرسم دليل مؤكد على صدق ماجاء فى التوراة (خروج ١:١٣): فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم بأثقالهم فبنوا لفرعون مدينتى مخازن فيثوم و رعمسيس. ولكن بحسبما أذلوهم



شكل ٢١٣ – تسخير بني إسرائيل في عمل الطوب وأعمال البناء – يلاحظ
اللون الأبيض لبشرة العمال مقارنا باللون الأسمر للملاحظين والعصا
في يد الملاحظ الجالس في أقصى اليمين من الرسم العلوي.
(لوحة في مقبرة الوزير «رخ مي رع»).
نقلا عن الكتاب المقدس كتاريخ – وارنر كيللر . ص ١١٠



شكل ٢١٤ – تسخير بني إسرائيل في مدينة المخازن «فيثوم» ويرى أحد
العمال أبيض البشرة يحمل غرارة حبوب على كتفه بينما
الرسم الداخلي يبين سلّم لملأ الصومعة من فتحة في أعلاه
نقلا عن الكتاب المقدس كتاريخ – وارنر كيللر . ص ١١٢

هكذا نموا وامتدوا فاختشوا من بنى إسرائيل (أى خافوا منهم) فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف ومرَّروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن وفى كل عمل فى الحقل. كل عملهم الذى عملوه بواسطتهم عُنفًا. وفى رسم آخر فى نفس المقبرة (شكل ٢١٤) تظهر مخازن الغلال فى مدينة فيثوم – وصوامع القمح الحالية تشبهها شكلا ولكنها تفوقها فى الحجم كثيرا – ويبين الرسم طريقة ملئها بالحبوب من خلال فتحة فى أعلاها يُصعد إليها بسلم أو منحدر. وقد رسم عامل يحمل على كتفه غرارة حبوب ويلاحظ أيضا بشرته البيضاء للإشارة إلى أنه من الساميين أى من بنى إسرائيل. ومما يذكر أن هذه المخازن كانت تشبه المخازن التى أمر يوسف الصدِّيق بإقامتها فى مصر لتموين البلاد فى سنوات المجاعة.

كذلك جاءت إشارات فى الكتابات المصرية عن بناء مدينة بررعمسيس وتسخير العمال من العابيرو (بنى إسرائيل) فى قطع الحجارة ونقلها وبناء منشئات المدينة.

وفضلا عن التسخير فى أعمال البناء كانت أوامر ذبح المواليد الذكور فبلغ التعذيب ذروته.

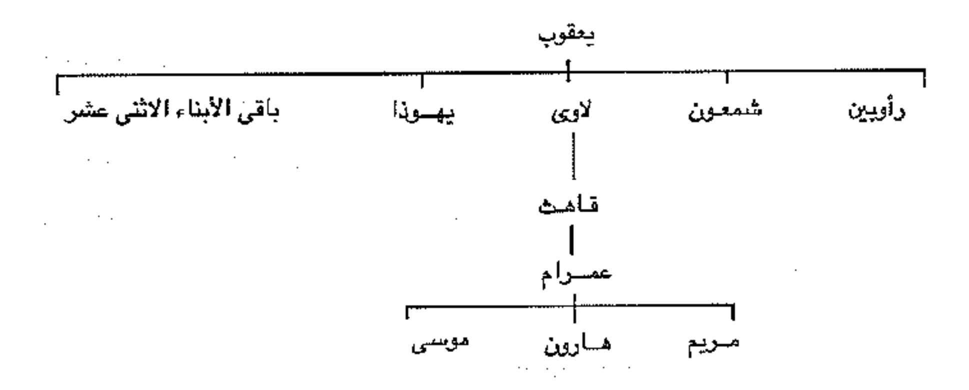
وكان لابد أن تتدخل السماء لإيقاف هذا العذاب الذى نزل ببنى إسرائيل. واختير موسى ليكون هو مُخلِّصهم من هذا العذاب المهين ويقودهم إلى الخروج من مصر.

الفصل السادس

موسى عليه السلام فى مصر

«واذكر فى الكتاب موسى . إنه كان مُخْلَصاً وكان رسولا نبيا». (٥١-مريم)

هو موسى بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام.



ولد على الأرجح فى عام ١٢٨٥ ق . م . فى السنة السابعة من حكم رمسيس الثانى. وكما سبق أن ذكرنا كان ذلك بعد عامين من معركة قادش وكان التنكيل ببنى إسرائيل على أشده.

ثم بدأت نبوءة تنتشر بين بنى إسرائيل وتسامع بها المصريون. مفادها أن هلاك الفرعون سيكون على يد ابن يولد فى بنى إسرائيل وينتهى تسخيرهم وتعذيبهم. ولايمكننا أن نحدد كيف نشأت هذه النبوءة. هل كانت محض اختراع من بنى إسرائيل؟ يقول سيجموند فرويد (موسى مصريا. ترجمة محمد العزب ص ٢١) إن ذلك الأمر كان صورة من «أسطورة البطل» التى نجدها فى التراث الشعبى لكثير من الشعوب. وفى رأينا أنه من المحتمل أن أحد شيوخ بنى إسرائيل أو أحد كهنتهم قد رأى رؤيا أو أوحى إليه بهذا المعنى فأذاعه ليشد من عزم بنى جلدته المتحملين العذاب. وليرهب المصريين والفراعنة حتى يكفوا عن تسخير بنى إسرائيل دفعا لوقوع هذه النبوءة. أو ظناً أن الفرعون سيأمر بإخراج بنى إسرائيل من مصر حتى لا تتحقق النبوءة.

ذكر السدى عن أبى صالح وأبى مالك عن ابن عباس (البداية والنهاية. ابن كثير. جـ١ ص ٢٢٢) أن فرعون رأى فى منامه كأن نارا قد أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر وجميع المصريين ولم تضر بنى إسرائيل. فلما استقيظ هاله ذلك فجمع الكهنة والسحرة وسألهم عن ذلك. فقالوا هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه.

ولكن ما حدث كان غير ما توقع بنو إسرائيل. إذ أمر الفرعون بزيادة جرعة التعذيب وشدَّد الأوامر بقتل كل ابن يولد إن كان ذكرا. وتركه يحيا إن كانت بنتا.

وذكر القرآن الكريم هذا الأمر فى عدة سور:

«إن فرعون علا فى الأرض. وجعل أهلها شيعا. يستضعف طائفة منهم. يُذبِّح أبناءهم ويستحيى نساءهم. إنه كان من المفسدين». (٤ - القصص)

«وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم». (٤٩-البقرة)

وإذا أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتِّلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم». (١٤١- الأعراف)

«وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم». (٦-إبراهيم)

وتقول التوراة (إصحاح ١ خروج : ١٥): وكلم ملك مصر قابلتى العبرانيات اللتين اسم إحداهما شفرة واسم الأخرى فوعة. وقال حينما تولدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسى إن كان ابنا فاقتلاه وإن كان بنتا فتحيا. ولكن القابلتين خافتا الله ولم تفعلا كما كلمهما ملك مصر بل استحيتا الأولاد فدعا ملك مصر القابلتين وقال لهما لماذا فعلتما هذا الأمر واستحييتما الأولاد. فقالت القابلتان لفرعون إن النساء العبرانيات لسن كالمصريات. فإنهن قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة. فأحسن الله إلى القابلتين. ونما الشعب وكثر جدا. وكان إذ خافت القابلتان الله أنه صنع لهما بيوتا. ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلا كل ابن يولد تطرحونه فى النهر. لكن كل بنت تستحيونها.

ولادة موسى :

فى هذا الجو الملبد بالغيوم وبالغ القساوة على بنى إسرائيل ولد لعمران بن قاهث بن لاوى ولد هو موسى. وتذكر التوراة أن أبا موسى كان قد تزوج عمته إذ تقول (اصحاح ٦ خروج): وأخذ عمرام بن قهات يوكابد عمته زوجة له. فولدت له هارون وموسى. ويقول الأستاذ عبد

الوهاب النجار (قصص الأنبياء ص ١٧٦) إن ذلك كان مسموحا به فى شريعتهم إلى أن جاء موسى فحرمه.

وخافت أم موسى عليه من القتل طبقا لأوامر الفرعون. فخبأته، قيل ثلاثة أشهر. ثم خافت أن يفتضح أمره فيؤخذ ويقتل. ولكن عناية الله كانت ترعى هذا المولود. فأوحى الله إلى أمه أن تضعه فى صندوق وتلقيه فى النيل. وكأى أم كان لابد أن تحزن أم موسى لفراق وليدها. وتخاف عليه من الغرق فى النيل أو الوقوع فى يد الجند فيذبحونه ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليها ألاّ تخف ولا تحزن لأن الله سيرده إليها وبشرها بأنه سيكون رسولا.

«وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم، ولا تخافى ولاتحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين». (٧-القصص)

«إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى، أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم، فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له». (٣٨-٣٩-طه)

يقول ابن كثير: ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل قيل له إن استمر هذا الحال يموت شيوخهم وغلمانهم يقتلون فمن يقوم بما يقومون به من أعمال. فأمر بقتل الولدان عاما وتركهم عاما. فولد هارون فى السنة التى يتركون فيها الولدان. وولد موسى فى السنة التى يقتلون فيها الولدان. ولما حملت به لم يظهر عليها مخايل الحمل. ووضعته سرا بدون مساعدة القابلات. ولكن خافت أن يُدرى به ففعلت كما أوحى الله سبحانه وتعالى إليها. ووضعت الصندوق فى اليم أى فى فرع نهر النيل الذى كان بيتها مجاورا له. ولم تذكر التوراة أن ذلك كان بإيحاء من الله سبحانه وتعالى إذ جاء فيها (إصحاح ٢ خروج): ولما لم يمكنها أن تخبئه بعدُ أخذت له سفطا من البردى وطلته بالحمر والزفت. والكلمة المصرية القديمة هى «طيبّة» بمعنى صندوق، وهى أقرب إلى كلمة «**التابوت**» التى وردت بالقرآن الكريم.

كذلك يمكننا أن نستخلص حقيقة هامة تحل لنا كثيراً من الإشكالات التى ثارت حول من هو فرعون موسى. ذلك أن التيار فى نهر النيل أو فى فروعه يسرى من الجنوب إلى الشمال. فمن المؤكد أن بيت أم موسى كان فى موقع جنوبى قصر الفرعون. ولما كان بنو إسرائيل يسكنون أرض جوشن أو أرض جاسان (انظر الجزء الثالث ص ٥١٧) فمن المؤكد أن قصر الفرعون كان شمالى هذه المنطقة. ولم يحدث أن كانت العاصمة شمال أرض جاسان إلا بعد أن بنى رمسيس الثانى عاصمته الجديدة «بررعمسيس» (ص ٧٠٩). وبالنظر إلى تخطيط المدينة (شكل ١٤١ ص ٧١٢) نجد أن مساكن بنى إسرائيل فى أفاريس القديمة تقع جنوبى «بررعمسيس» العاصمة الجديدة. وأن قصر فرعون يقع على بحيرة تأخذ مياهها من الفرع البيلوزى الذى كانت بيوت لبعض بنى إسرائيل تقع عليه، وبعد إلقاء التابوت فى اليم. وامتثالا

لأمر الله سبحانه وتعالى: «**فليلقه اليم بالساحل**». سارت به المياه حتى ألقته على شاطىء البحيرة التى يقع عليها القصر الملكى.

قد يرى البعض أنه من المحتمل أن أحد الفراعين الذين كان مقر حكمهم فى طيبة، كان له أيضا قصر ثان فى شمال الدلتا يمضى فيه أشهر الصيف الحارة. وهو احتمال قائم. ولكن الوحيد الذى أثبت التاريخ له هذا الأمر هو سيتى الأول والد رمسيس الثانى (جوتييه Gauthier, Dictionnaire Geographique, 1922) بل إنه بقصره الذى بناه على شاطىء النيل بالقرب من قنتير وضع النواة لتكون العاصمة الجديدة فى هذا المكان حينما قرر ابنه رمسيس الثانى أن ينقل العاصمة كلية إلى شمال الدلتا. ولما كان الأمر كذلك فإن احتمالات من هو فرعون موسى تصبح محصورة فى فراعين الأسرة التاسعة عشرة أى الرعامسة. وحتى لو كان سيتى الأول هو فرعون التسخير إلا أن قصر مدة حكمه لا تتيح له أن يكون هو فرعون الغرق أيضا وثابت أن رمسيس الثانى قد سخر بنى إسرائيل فى بناء مدينتى بررعمسيس وفيثوم.

نعود ثانية إلى أم موسى، وقد أوحى الله إليها أن تضع وليدها فى التابوت وتلقيه فى اليم.

وهنا أثار البعض مسألة. هل تعتبر أم موسى نبية مادام الله سبحانه وتعالى قد أوحى إليها؟ وقال أبو حيان (تفسير الألوسى، جـ ١٦ ص ١٨٧) إنه كان يُبعث إليها ملك لا على جهة النبوة كما بعث إلى مريم أم عيسى عليه السلام ولكن بطريق المكاشفة مثل قوله تعالى «**وإذ أوحيت إلى الحواريين**». وكما أوحى لعبد المطلب أن يسمى حفيده «محمدا». وقال الجبائى: كان بالإراءة مناما. وعند الجمهور كان الإيحاء إلى أم موسى بالإلهام. فوضعته فى التابوت وألقته فى الماء. وهنا تتبدى روعة التعبير القرآنى إذ لم يُغفل جانب المشاعر الإنسانية. وقلب الأم كما يقولون هو قلب الأم! فما إن ألقته فى الماء حتى تملكها الخوف والجزع على وليدها.

«**وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين**».
(١٠ - القصص)

قالوا فارغا من وعد الله لها بأنه سيرده إليها ويجعله من المرسلين. إذ نسيت ذلك من شدة الهم. وعن قتادة وغيره أنها كادت تصيح وا ابناه عند رؤيتها تلاطم الأمواج بالتابوت شفقة عليه من الغرق. وقالوا صار فارغا من الصبر. لولا أن الله أنزل السكينة عليها وثبت قلبها لتكون راسخة فى التصديق بوعد الله بأنه راده إليها وتكون من المؤمنين بصدق وعد الله فى حفظه سالما. وأنه فى المستقبل سيكون من المرسلين.

زوجة فرعون تلتقط موسى :

وتيار الماء فى هذا المكان لا يكون شديدا. إذ النيل قد تَفرّع إلى فروعه الخمسة الرئيسية بالإضافة إلى عشرات الأفرع الصغيرة. فتهادى الصندوق على صفحة الماء برفق، تحدوه عناية

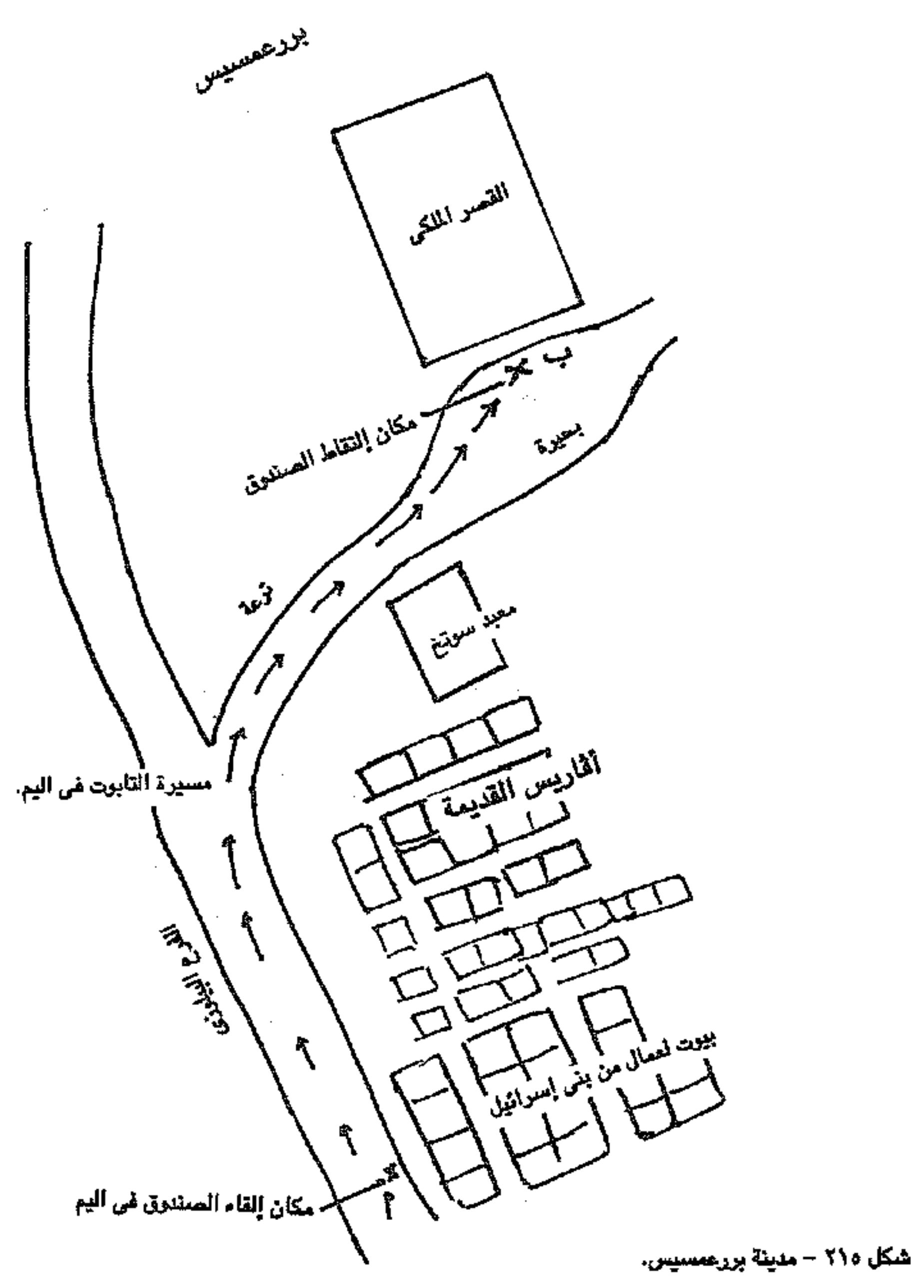
الله سبحانه وتعالى. وتدفعه ريح خفيفة حتى دخل المجرى الذى يغذى البحيرة التى يقع على شاطئها قصر الفرعون «رمسيس الثانى» فى عاصمته الجديدة «بررعمسيس» (شكل ٢١٥) واحتجزت سيقان نبات البردى الصندوق فى الوقت الذى كانت امرأة رمسيس الثانى «إست نفرت» جالسة قرب البحيرة ورأت الصندوق. فأمرت جواريها بإحضاره ولما فتحته وجدت فيه طفلا جميل الطلعة. وألقى الله فى قلبها حب هذا الطفل. ورجت أن يكون لها بمثابة الإبن. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٧٠٨) أن أولادها كانوا يموتون بعد ولادتهم مباشرة أو بعد أن يشبوا عن الطوق قليلا. وها قد مضى على زواجها سبع سنوات وليس لها ولد. وهذا زوجها قد بلغ الثلاثين من عمره ولم يعش له ولد منها ولا من زوجته الأولى نفرتارى التى مضى على زواجه منها سبعة عشر عاما. فأرجحت أنه سيرحب بتبنىٍّ هذا الطفل أو على الأقل لن يمانع فى تبنيه. وأسرع الحراس لقتل الطفل تنفيذا لأمر الفرعون فقالت لهم «**لا تقتلوه**» ثم أردفت قائلة لهم أيضا أو لزوجها «**عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا**».

وقد يكون قولها لا تقتلوه موجه إلى زوجها بصيغة الجمع دلالة على الاحترام أو الاحترام الشديد للاستعطاف أو للجند ولكن لأن أمر القتل صادر منه فكأنه مشترك معهم فى الفعل.

وقيل إن فرعون أراد قتل الوليد فشرعت زوجته تخاصم عنه وتحبِّبه إليه فقالت «**قرة عين لى ولك**». فقال فرعون: أما لك فنعم وأما لى فلا. فكان كذلك وهداها الله بسببه. وروى النسائى وابن عباس حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: والذى يُحلف به. لو أقر فرعون بأن يكون قرة عين له كما قالت امرأته لهداه الله تعالى به كما هدى امرأته ولكن الله عز وجل حرمه ذلك (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ١٨٩). وقالوا: وهذا أمر فرضى لا ينافى ما هو سابق فى علم الله أنه سيظل على كفره حتى آخر لحظة من حياته. وهكذا رضخ الفرعون لطلب زوجته فى الإبقاء على حياة الطفل.

تختلف رواية التوراة عن القصة كما جاءت فى القرآن الكريم فى عدة نقاط فقد جاء فى الإصحاح الثانى خروج ما يلى :

ولما لم يمكنها أن تخبئه بعدُ أخذت له سفطا من البردى وطلته بالحمر والزفت ووضعت الولد فيه. ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر. ووقفت أخته من بعيد لتعرف ماذا يُفعل به. فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل. وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته. ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبى يبكى. فرقَّت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين فقالت أخته لابنة فرعون. هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد. فقالت لها ابنة فرعون اذهبى. فذهبت الفتاة ودعت أم الولد. فقالت لها ابنة فرعون. اذهبى بهذا الولد وأرضعيه لى وأنا أعطى أجرتك. فأخذت المرأة الولد وأرضعته. ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابنا ودعت اسمه موسى وقالت إنى انتشلته من الماء.



شكل ٢١٥ – مدينة بررعمسيس.

أ – مكان إلقاء الصندوق فى اليم.

ب – مكان إلتقاط الصندوق.

ونقاط الاختلاف تتمثل فى التالى:

١ – أنها جعلت أم موسى تخبىء الطفل بين الحلفاء وتجىء ابنة الفرعون لتغتسل فى نفس المكان. أى أن المكان كان مباحا للجميع. وهذا لا يتفق مع ما هو معروف من أن منطقة القصر الملكى تكون منطقة محرمة على عامة الشعب من المصريين. فما بالك بالعبرانيين! وكانت القصور الملكية تقام لها بحيرة صناعية يتمتع بها أهل القصر بعيدا عن الغرباء. وفى مدينة بررعمسيس تخير رمسيس الثانى للقصر مكانا يشرف على بحيرة متصلة بفرع النيل البيلوزى. وقد نصَّ السرد القرآنى على أن أم موسى وضعته فى نقطة بعيدة عن القصر. وحمله التيار إلى البحيرة وألقاه على شاطئها **«فاقذفيه فى اليم. فليلقه اليم بالساحل»**.

٢ – جعلت التوراة من يلتقط موسى هى ابنة فرعون لا زوجته. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٧٠٠) أن رمسيس الثانى تزوج فى عمر السادسة عشرة ولو فرض أن ابنته هذه هى أول ما ولد له أى رزق بها وعمره ١٧ سنة ولما كان عمره الآن ثلاثون سنة كان معنى ذلك أنها مازالت طفلة فى الثالثة عشرة ومثلها فى حاجة إلى «دمية» تلهو بها لا طفل تتبناه. كما أن تبنى بكر لطفل يضعها فى موضع الشبهات عند من لايعرفون أنه طفل متبنى إذ يظنون أنه ابنها حملت به بدون زواج. قد يقال إن سن النضج كان مبكرا فى ذلك الوقت وأنها تزوجت وتعيش فى قصر والدها. وحتى لو فرض هذا فهى فى أولى سنى زواجها ولم تيأس بعد من ولد من لحمها ودمها كما يقولون – كما أن فرعون ما كان ليخالف أوامر أصدرها إرضاء لرغبة طائشة من ابنة صغيرة السن. أما المرأة المتزوجة العاقر فهى تتوق إلى الولد. أما التى حملت وولدت ويموت أبناؤها فى سن مبكرة فهى التى تتلهف تلهفا شديدا إلى الولد وتظن أن لعنة ما قد أصابت أبناءها ولا سبيل لإشباع غريزة الأمومة إلا بالتبنى وهذا ما أدركه الفرعون فاستجاب لرغبات زوجته وفى سبيل ذلك تغاضى عن سابق أوامره بقتل الأولاد. فلا شك أن الذى التقط موسى هو زوجة فرعون لا ابنته. وكان القرآن الكريم واضحا فى هذه النطقة فقال:

«وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك. لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لايشعرون». (٩ – القصص)

٣ – جعلت التوراة آل فرعون يدركون من أول الأمر أنه ابن لاحدى العبرانيات. ولكن الأكثر تمشيا مع المنطق أن تحرص أم موسى على أن تخفى هويته الإسرائيلية. ولعلها ألبسته ملابس مصرية. إحدى الروايات تقول إنها وهى تضعه فى التابوت ومن شدة اضطرابها نسيت حذرها ووضعت تحته نسيجا من صنعها ليحميه من خشونة نبات البردى الذى صنع منه التابوت. وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد (ص ٨١٤).

إسم موسي :

كما ذكرنا آنفا تقول التوراة: ودعت اسمه موسى وقالت إني انتشلته من الماء، ولما كانت اللغة العبرية تقلب السين شينا مع إمالة المد، فإن اسمه في العبرية هو موشيه. قالوا مشتقا من الفعل العبرى مشا أى انتشل فهو موشيه أى منتشل لأنه انتشل من الماء. وقالوا أيضا أن الفعل مشا يفيد معنى المخلِّص فهو المخلِّص الذى انتشل بنى إسرائيل من مصر وهو مخرجهم أى مخلصهم أى موشيه وبالعربية موسى.

ولو كان الفرعون يعرف أن هذا الطفل هو «مخلِّص» بني إسرائيل لما تركه يعيش. فضلا عن أن يتبناه. وخطأ الآراء التى ترجع الإسم إلى جذر عبرى واضح. لأن زوجة الفرعون. ما كان لها أن تطلق عليه اسما عبريا. حتى لو تأكدت أنه ابن لإحدى العبرانيات. فلابد أنها أطلقت عليه اسما مصريا. ويقول برستد فى كتابه «فجر الضمير» إن موسى اسم مصرى. فهو ببساطة الكلمة المصرية موس Mose ومعناه طفل. ومن الأسماء المصرية الشهيرة تحوتمس أى تحوت + موس أى تحوت طفل أى الإله تحوت منح طفلا. وكذلك أمنموس من أمون + موس أى أمون منح طفلا. وقال بعضهم إن الإسم الذى أطلقوه عليه لابد كان يتضمن أيضا اسما لأحد الآلهة ثم المقطع الثانى موس. وبالتدريج أهمل المقطع الأول واكتفى بالمقطع الثانى فقط – ويكون السؤال: ولماذا أهمل المقطع الأول؟ والأقرب للمنطق أنه لم يكن هناك مقطع أول إطلاقا. فيكون أن امرأة الفرعون بعدما انتشلت الطفل من الماء لم تطلق عليه اسما. بل أعطت الطفل – أى موس – إلى الجوارى ليعتنين به. وظل يشار إليه بلفظ الطفل أى موس. وبالتدريج أصبح «موس» هو الإسم الذى ينادى به. ثم مُدَّ آخره فأصبح «موسى». ولا شك أن ذلك صادف هوى فى نفس فرعون أيضا فلم يشأ أن يعطيه إسما حقيقيا. انتظارا وأملا فى ولد من صلبه يعطيه اسما وينسب إليه ليرث العرش من بعده.

«فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا. إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين» . (٨-القصص)

فى هذه الآية أورد القرآن الكريم السبب الذى جعلهم يلتقطونه – **ليكون لهم عدوا وحزنا** – وهى استعارة تهكمية. إذ الذى دعاهم لالتقاطه وتبنيه هو رجاء المنفعة واتخاذه ولدا. وهل هناك أدعى إلى الحزن والأسف من أن يستعرض الفرعون فى أخريات أيامه ما مر به فيرى أن مَن التقطه. يرجو منه المنفعة. كان هو السبب فى ضربات نزلت به وبشعبه. ثم يرى فى اللحظات الأخيرة من عمره كيف أنه كان السبب فى هلاكه!! لقد أسرف فى قتل عشرات أو مئات الأطفال تحوُّطا من أن يعيش الطفل الذى تحدثت عنه النبوءة. فإذا من بين هؤلاء جميعا يكون هذا الطفل بالذات هو الذى ينجو من القتل! ومَن الذى يطلب عدم قتله؟ زوجته وهو يوافق! ويتربى الطفل ويكبر – أين؟ فى قصره وفى كنفه! أى شيىء أكثر مدعاة للحزن من هذا؟ وأى

شيء أشد إيلاما؟ ولكنه تدبير الله العليم القدير ويتحقق ما كان فرعون يحذر - وما كان لحذرٍ أن يمنع قدراً قدَّره الله سبحانه وتعالى:

«ونُرِيَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» . (٦٥ القصص)

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى إشارة أخرى فى قوله تعالى:

«وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أونتخذه ولدا، وهم لا يشعرون». (٨-القصص)

أى وهم لا يشعرون أن هذا الطفل بالذات هو الذى سيكون هلاك الفرعون على يديه كما قالت النبوءة.

وتمر الأيام ويكبر موسى وتأتيه النبوة والرسالة. ويعود إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان بالله وألا يعذب بنى إسرائيل وأن يطلق سراحهم: ويتذكر فرعون لحظة التقاط موسى من النهر. وتذكره وهو يحبو فى القصر ويكبر قليلا فيجرى فى أرجائه الفسيحة ثم يصبح شابا قويا. ثم يبلغ أشده. ثم يختفى عشر سنوات وها هو يعود اليوم يطلب من الفرعون. لا. بل يأمره أن يطلق بنى إسرائيل ولا يعذبهم. فقال فرعون له. يستصغر شأنه ويمن عليه بربايته له :

«ألم نربك فينا وليداً . ولبثت فينا من عمرك سنين». (١٨-الشعراء)

وهذا يدل على أن الفرعون الذى التقط موسى. وتولى تربيته هو نفسه الذى جاءه موسى بالآيات فكذب بها وهلك وهو يطارد بنى إسرائيل.

كانت أم موسى قد أمرت أخته مريم أن تتبع الصندوق لتعرف أين تلقى به الأمواج.

«وقالت لأخته قصِّيه. فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون». (١١-القصص)

فكانت تتابعه ببصرها عن بعد حتى لا يشعر أحد أنها أخته فيفطنوا إلى حقيقة أنه من بنى إسرائيل. ورأت أن الصندوق قد رسا على الساحل أمام قصر فرعون وأن الجوارى انتشلنه من الماء وأخذنه إلى امرأة الفرعون. ومن المرجح أن مريم قد رجعت بسرعة وأخبرت أمها بذلك. ولا شك أن الأم هلعت وشعرت بهول الكارثة. لقد وضعت طفلها فى الماء لتخفيه عن الفرعون فإذا به يقع بين يدى فرعون نفسه. وأصبح فؤادها فارغا من كل شيء إلا الخوف على وليدها حتى أنها أوشكت أن تتخلى عن حذرها وكتمان أمر الصبى وأنه ابنها. ولعل فكرة راودتها أن تذهب إلى فرعون وتستعطفه كى لا يقتل الصبى وهذا ما كانت أى أم مكانها تفعل. ولعلها قد ظنت أن الفرعون قد يَرِقّ لدموعها واستعطافها ويبقيه لها. وهذا معنى **«إن كادت لتبدى به»**. إلاَّ أن الله سبحانه وتعالى أنزل السكينة على قلبها لتكون مؤمنة بصدق سابق وعده لها بأنه سيرده إليها سالما.

«لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين». (١٠-القصص)

«إنا رادوه إليك». (٧-القصص)

وبعد هذه اللحظة الخاطفة من الجزع المؤقت - وهو شيء طبيعي في النفس البشرية - حل مكانه الإيمان والثقة في الله فطلبت من ابنتها أن تسرع لتتابع ما يحدث له.

وعادت مريم مسرعة. فرأت عجبا. رأت امرأة الفرعون قد أخذت الوليد وضمته إلى صدرها في حب وحنان. ورأتها تكلم زوجها. لم تسمع ما دار بينهما من حديث لبعد المسافة. ولكنها رأته يشيح بوجهه عن الطفل ويشير بيده إشاره معناها أنه هو لك أما أنا فلا حاجة لي إليه. وأمر الحراس الذين كانوا قد أسرعوا محاولين أخذه لذبحه. أمرهم بالعودة وتركه لامرأته التي كانت لا تزال تحتضنه.

ورأت أخاها يبكي. فأحضروا له مرضعة. ولكنه لم يقبل على ثديها واقتربت أكثر حتى أنها أصبحت تسمع بكاءه. لقد مر عليه عدة ساعات منذ أن أرضعته أمه قبل أن تضعه في التابوت. فلابد أنه قد بدأ يشعر بالجوع. وأحضروا له مرضعة ثانية وثالثة. فرفضهن جميعا.

واقتربت أكثر. ورأتهم في حيرة من أمرهم. الطفل يصرخ من الجوع. ولكنه يأبى المراضع اللاتي أحضروهن. فقالت لهم إنها تعرف امرأة طيبة وصالحة لعله يقبل ثديها. فإن قبله فهي خير من يكفله ويتولاه حتى فطامه فقبلوا هذا الاقتراح. فأسرعت وعادت بأمها. وأقبل الطفل على ثديها حتى شبع ونام.

«وحرمنا عليه المراضع من قبل. فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون» . (١٢-القصص)

وهنا تذهب المراجع الإسلامية إلى أن فرعون عندما رأى ذلك سألها من أنت فقد أبى كل ثدى إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبي إلا قبلني. فدفعه إليها وجعل لها أجرا نظير رضاعته ورعايته. وتقول الآثار إن امرأة الفرعون طلبت من أم موسى أن تبقى في القصر لترضعه فردت أم موسها أنها لا تستطيع ترك بيتها فيضيع. وعرضت أن تأخذه إلى بيتها لترضعه وتربيه على أن تحضره بين الحين والآخر إلى القصر لتراه امرأة الفرعون. ولعلها قبل أن تنصرف به إلى بيتها سألتهم: بماذا سميتموه. قالوا لم نسمِّه وسنناديه «الطفل» في لغتنا أي «موس» أو «موسى». فقالت هو في لغتكم «موسى» وفي لغتنا «موشيه».

وهكذا تحقق الجزء الأول من وعد الله «**إنا رادوه إليك**» فقد عاد إليها. واستقر في يقينها أن الجزء الثاني من الوعد لابد سيتحقق «**وجاعلوه من المرسلين**». وأيقنت تمام اليقين أن ابنهاهذا سيكون نبيا ورسولاً إلى بني إسرائيل. ولكن كيف؟ ومتى؟ ذلك ما كان في علم الغيب ولا يعلم الغيب إلا الله.

وجاء ذكر هذه المواقف كلها بصيغة أخرى فى سورة طـه:

«ولقد مننا عليك مرة أخرى، إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى، أن اقذفيه فى التابوت، فاقذفيه فى اليم ، فليلقه اليم بالساحل، يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ، ولتصنع على عينى، إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله، فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن». (٣٧ - ٤٠ - طـه)

ولا شك أن أم موسى قد حرصت على إخفاء حقيقة أنها أمه وأكدت على مريم ألا يزل لسانها بكلمة يفهم منها أنها أخته. كما أن جيرانها لم يعرفوا كذلك أنها أمه لأنها كانت قد أخفت حملها وولادتها . فظن الجميع أنها مجرد «مرضعة» خدمتها الظروف بأن أقبل الطفل «موس» على ثديها . ونالها خير من وراء ذلك. إذ أجزل الفرعون لها العطاء.

ولو نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر آل فرعون لوجدنا أن النفس ترتاح لتبنى طفل مجهول الأبوين ولا ترتاح لتبنى طفل معلوم الأهل. فالمتبنى فى الحالة الأخيرة يدرك أنه مهما أغدق على الطفل من عاطفة. ومهما تفانى فى تربيته فهو لاشك تاركه عند معرفته لأبويه الحقيقين وكما يقول المثل العامى: يا بانى فى غير ملكك. يا مربى فى غير ولدك.

وكانت قوانين الشرق الأدنى القديم مشتقة فى أغلبها من قانون حمورابى وكانت المواد التى تحكم التبنى هى:

مادة ١٨٥ : إذا تبنى رجل ولدا مجهولا بإسمه ورباه. فإن الطفل لايُسترجع إطلاقا .

مادة ١٨٦ : إذا تبنى رجل ولدا عرف أباه وأمه عند تبنيه. فللطفل أن يعود إلى بيت أبيه.

ولعل فرعون وامرأته تساءلا: هل هو مصرى أم من بنى إسرائيل؟ ولم يجدا إجابة لهذا السؤال. فالأطفال فى صغرهم متشابهون. ولعلهما رجحا أنه مصرى. إذ لو كان من بنى إسرائيل لجهدت أمه فى إخفائه ولا يعقل أن تضعه فى النهر فيكون الهلاك مصيره المؤكد إما غرقا أو بيد جند فرعون الذين لاشك واجدوه. إذن هو مصرى. ولكن لماذا وضعته أمه فى النهر؟ هل هو نتيجة حمل غير مرغوب فيه؟ بالطبع لا . إذ لو كان الأمر كذلك لتم التخلص منه فور ولادته وهذا الطفل عمره على الأقل ثلاثة أشهر أو أربعة. هل ضاق به والداه لكثرة الأولاد وقلة الرزق فأرادا التخفف من إعالته؟ هذا هو الأرجح. واستراحا إلى هذه النتيجة. ولعل امرأة الفرعون قالت فى قرارة نفسها: على كل حال هو طفل ساقه الله إليها ليعوضها عن فقد أولادها .

بعض الروايات تقول إن كبير الكهان قد فطن إلى حقيقة أن قطعة النسيج التى كانت تحت الطفل فى الصندوق هى من صنع بنى إسرائيل. ولما جاءت أم موسى لترضعه زادت شكوكه فى أن يكون الطفل من بنى إسرائيل أيضا ولكنه كتم شكوكه لأن بعض المصريين كانوا كثيرا

ما يشترون مثل هذه الأقمشة الصوفية من بنى إسرائيل، ووجودها فى الصندوق ليس دليلا مؤكدا على أن الطفل هو لعائلة من بنى إسرائيل، وخاصة لما رأى من اندفاع امرأة الفرعون فى حبها للطفل، كذلك لم يفدهم أن وجدوا الطفل مختونا. فالختان عادة يشترك فيها المصريون وبنو إسرائيل.

موسى فى صباه وشبابه :

أعيد موسى إلى القصربعد فطامه فى عمر عامين، وانقطعت صلته ببيت أمه وإخوته. ونما كما ينمو الأطفال فى مثل سنه، يلهو ويلعب، تحيطه امرأة الفرعون بحبها وحنانها. كان الفرعون لا يحمله إلا نادرا ولكنه كان راضيا بما أدخله من بهجة على قلب زوجته.

ومن المرويات فى تفسير قوله تعالى :

«واحلل عقدة من لسانى، يفقهوا قولى». (٢٧ - ٢٨ - طه)

ما جاء بتفسير الألوسى (جـ ١٦ ص ١٨٢) من أن موسى عليه السلام كان عنده رتة من جمرة أدخلها فى فمه فى صغره، ذلك أن فرعون حمله ذات يوم فأخذ خصلة من لحيته قيل لما فيها من جواهر! وقيل أخذ اللحية إلى الأرض وقيل لطمه، وقيل ضربه بقضيب فى يده على رأسه فتطيرٌ فرعون ودعا بالسياف، فقالت امرأته: إنما هو صبى لا يفرق بين الياقوت والجمر، فأحضروا جمرة وياقوته فأراد أن يمد يده إلى الياقوت فحوَّل جبريل عليه السلام يده إلى الجمرة ووضعها فى فمه فاحترق لسانه. وقيلت رواية أخرى من أن البعض سمع موسى يقول كلمات فنقلها إلى الفرعون وقال له يزعم أنه يرثك ويعلوك ويصرعك. فأرسل إلى السياف فجاءت امرأته وقالت ما بدا لك من هذا الغلام الذى وهبته لى؟ فقال ألا ترينه يزعم أنه يعلونى ويصرعنى. فكان ما كان من اللجوء إلى التفرقة بين الجمر والياقوت كما فى الرواية السابقة. وقيل كانت العقدة فى لسانه خلقة . وهو الأقرب للعقل.

ومما يروى أنه كان فى لسان الحسين رضى الله عنه رتة وحبسة وقال النبى صلى الله عليه وسلم فيه: إنه ورثها من عمه موسى عليه السلام.

أما عن فترة صباه فقد أثار الأستاذ عبدالوهاب النجار (قصص الأنبياء، ص ١٧٨) جدلا بقوله إن البلاط الفرعونى تولى تربيته كما كانوا يربون أبناء الملوك فى ذلك العهد بواسطة الكهنة ورجال الدين بحسب التقاليد التى كانت لذلك البيت فى تلك الأيام، وأن موسى قد تعلم تعليما راقيا. وانتقد بعض علماء الأزهر الشريف هذا القول لما يفهم منه من أن تعليم الكهنة لابد كان يتضمن شيئا عن العقيدة المصرية وهى وثنية فى مجملها. الأمر الذى يمتنع على الأنبياء حتى فى صغرهم، ورد هو بأن ما قصده هو تعلمه أصول القراءة والكتابة والحساب والهندسة.

وفى رأينا أن تعلم القراءة والكتابة باللغة المصرية القديمة كان أمرا حتميا ولاشك أنه تعلم أيضا لغة بنى إسرائيل نظرا لما اختُزن فى عقله لما كان رضيعا فى بيت أمه وبعد ذلك من بعض الأفراد من بنى إسرائيل الذين كانوا يخدمون فى القصر الملكى. أما أكثر من ذلك فمشكوك فيه لأن الفرعون استبقاه مجاملة لامرأته. ولم يكن لديه دافع «أبوى» للاهتمام بتثقيفه فترك موسى يجرى ويلعب فى حدائق القصر. وتفرح به امرأته فهو قرة عينها. وهى بدورها لاتريد أن تقسو عليه فى دراسة كهنوتية. ولعل هذا كان حماية من الله له كى لا تترسخ فى ذهنه منذ الصغر أفكار فاسدة حول معنى الألوهية. وكان تركه هكذا على الفطرة نوعا من صنع الله له تحقيقا لقوله تعالى:

«ولتصنع على عينى» . (٣٩ - طه)

أى بمرأى منى. ومن معانى الصنع الإحسان. أى كان هذا إحسانا من الله له. وقال بعضهم أى جعله الله فى بيت الملك ينعم ويترف وغذاؤه من غذاء الملك فتلك الصنعة. وفى رأينا أن الصنعة المشار إليها ليست أكلا أو شربا. بل هى التكوين النفسى والعقلى وهما الأهم.

كما أنه من المؤكد أن الفرعون لم يكن يحرص على اصطحابه معه فى الأعياد الدينية. إذ لو ناداه صراحة أمام الناس «ابنى موسى» لاعتبر بمثابة ابن حقيقى ويصبح له حق وراثة العرش وهو ما كان الفرعون يرفضه. فكان يترك موسى يلهو فى القصر وحدائقه. فكان هذا أيضا حماية له.

أمر آخر نتج عن تربية موسى فى قصر فرعون. فقد رأى أن الفرعون ما هو إلا بشر. يأكل ويشرب وينام ويستيقظ ويتألم ويتوجع إذا أصابه مرض كما يفعل عامة الناس. فأدرك أنه شخص عادى وليس إلها كما يدعى وكما يدَّعى وزراؤه وكهنته. فكان هذا نوعا من «الصنعة» كذلك.

وتمر الأيام والسنون. ولما بلغ موسى الخامسة من عمره ولدت الملكة «إست نفرت» ابنا سموه «خعمواست الثانى». ولم يهتموا به فى أول الأمر لظنهم أنه سيموت كما مات إخوته من قبل. وبعد سنة ولدت الملكة «نفرتارى» الابن «بارع حرامنف الثانى» ثم ولدت إيست نفرت الابن «رعمسسو». وتوالى الأبناء أفرادا وتوائما. وولد مرنبتاح وكان موسى قد بلغ ١٠ سنوات – وتمر الأعوام. ولم يمت أحد من الأبناء بل عاشوا جميعا. ومن الطبيعى أن يحب الفرعون أبناءه الذين من صلبه عن ذاك الذى تبنته زوجته. إلاَّ أن موسى ظل محتفظا بمكان أثير فى قلب «إيست نفرت».

تقول الروايات إن موسى – بعد أن أصبح شابا – لم يكن راضيا عن العذاب الشديد الذى كان ينزل ببنى اسرائيل. ولكنه لم يكن يملك رفعه عنهم إذ هى أوامر «والده» الفرعون. ولكنه

فى قرارة نفسه لم يكن يسعد بتعذيبهم كما كان يشعر غيره من المصريين. بعض المصادر تقول إنه زاد لهم من فترات الراحة وزاد من كمية الأكل وهذا ماجعل بنى إسرائيل يتهامسون فيما بينهم أن هذا «الأمير» يختلف عن باقى المصريين ولم يفهموا سببا لذلك. أحد الأفلام التى عملت عن الخروج صورت كيف أن أم موسى كانت من بين المسخَّرين فى أعمال البناء وكادت تدوسها كتلة خشبية من التى كانت قطع الحجارة الضخمة تدحرج عليها. وبحركة لاشعورية أسرع موسى لنجدتها وهو لا يعرفها. ولكنها عرفته وقالت له: شكرا يا ابنى. ورأى نظرات الحب والحنان فى عينيها!

متى علم موسى أنه ليس مصريا؟

قلنا إن موسى كان عمره ٥ سنوات لما رزق فرعون بولده «خعمواست» ثم ولد الأبناء الآخرون تباعا وعاشوا جميعا. ولاحظ موسى أن «إخوته» قد أصبحوا بؤرة الاهتمام ومحل الرعاية من كل من فى القصر. وتركز الاهتمام على الأمير خعمواست. وتعجب لهذا الأمر فالمفروض أنه هو «الابن البكر» وبحكم ذلك فهو «ولى العهد» ولعله سأل بعض من فى القصر عن سبب هذا التغير فى المعاملة. ولعل إجاباتهم كانت غامضة. ورأى رمسيس الثانى يأخذ خعمواست معه فى الاحتفالات التى تقام فى المعابد ويشركه فى تقديم القرابين لتماثيل الآلهة. ولم يهتم بذلك لأنه لم يكن يحس ميلا لهذه الأعمال بل كان عنده شعور خفى بكره هذه التماثيل. ولعل مرجع ذلك إلى أن «والده» رمسيس الثانى لم يكن يأخذه أبدا فى صغره - لا هو ولا «والدته» إيست نفرت - فى أى احتفالات دينية بل كان دائما يأخذ زوجته الأخرى «نفرتارى».

وتزايد الاهتمام بأخيه خعمواست وأصبح مفهوما لكل من فى القصر - وإن لم يكن بصفة رسمية - أن خعمواست هو ولى العهد. وهنا أصرَّ موسى على أن يعرف الحقيقة. ولعله سأل «أبويه» عن سبب تخطيهم له فأحالاه إلى كاهن القصر الذى أخبره بأنه ابن بالتبنى ومن المحتمل أنه ابن لإحدى أسر بنى إسرائيل وأراه قطعة النسيج التى كانت تحته فى التابوت عند التقاطه من النهر وكان الكاهن لا يزال محتفظا بها.

لاشك أن موسى رغب حينئذ فى معرفة أبوية الحقيقيين فخرج من القصر ليبحث عنهما. كانت سنه حوالى ١٥ سنة. وأول ما فعل أن بحث عن المرضعة التى أرضعته فى صغره ليسألها عن أبويه. واستدل عليها ووجد أنها نفس المرأة التى أنقذها من قبل. ولمحت هى فى تعابير وجهه أنه قد علم أنه ليس ابن الفرعون حقيقة. ولما سألها عن أبوية احتضنته وأخبرته أنها هى أمه الحقيقية وأن مريم أخته وهارون أخوه.

مما لاشك فيه أن عمران - أباه - أكب على تعليم ولده «موسى» ما ورثة بنو إسرائيل من

صحف إبراهيم وكلمات إسحق ووصايا يعقوب عليهم السلام، ودهش إذ وجد أن موسى بفطرته كان رافضا وكارها للوثنية المصرية. وانضم موسى إلى قومه بنى اسرائيل، قيل إنه كان يشارك قومه مختارا فيما كانوا يُكلَّفون به من عجن الطين وصنع اللبن وقطع الأحجار فيساعد من يجده مُجهداً إذ كان موسى قوى الجسد كثير التحمل - مع أن أوامر التسخير لم تكن لتشمل من كان يوما «ابنا» للفرعون، وهكذا اندمج موسى فى بنى إسرائيل وأصبح الجميع ينظرون إليه نظرة إجلال وإكبار. فهم كانوا يحبونه لما كان «أميرا» وابنا للفرعون حين خفف عنهم ساعات العمل وزاد لهم من كمية الطعام، وزاد حبهم له لما علموا حقيقة أمره وأنه من بنى إسرائيل مثلهم وابن لأحد شيوخهم.

وتمر السنون ويبلغ موسى مبلغ الرجال

«ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين»..

(١٤ - القصص)

وقالوا الأشُد اكتمال القوة، وقالوا الثلاث والثلاثون سنة. والاستواء كمال الإدراك والفهم وهو أربعون سنة. آتاه الله **حكما**. قال السدى أى النبوة. **وعلما** بالدين والشريعة. والثابت أن النبوة والرسالة كانتا بعد ذلك - عندما نودى عند الشجرة المباركة أثناء عودته من مدين - فالحكم والعلم المشار إليها فى هذه الآية. قيل أوتى سيرة الحكماء والعلماء. فكان لا يفعل فعلا يُستجهل فيه. وقيل حكما أى رئاسة فى قومه يحتكمون إليه فى أمورهم ويرجعون إليه فى مهامهم. وعلما إما بالإلهام أو الاستنباط. فكانوا يأتمرون بما يأمرهم به.

رد فعل فرعون لانضمام موسي لبنى إسرائيل:

لاشك أن «إيست نفرت» كانت تتتبّع أخبار «ولدها» موسى. ولعلها سُرَّت إذ رأت أنه أصبح سيدا فى قومه، ولكن شعور رمسيس الثانى لم يكن مثل ذلك. ويحسن بنا أن نتوقف قليلا لنرى ماذا كان رد فعله إزاء انضمام موسى إلى بنى إسرائيل. فقد أدرك أن «البطل» قد وجد، والتفوا حوله. ولعله راح يسائل نفسه. أتكون هذه هى المقدمة لتحقُّق النبوءة؟ ولكن كيف تتحقق النبوءة وتكون نهايته على أيديهم؟ نحن نعلم الآن كيف كانت نهايته غرقا. ولكن فى ذلك الوقت لم تكن هذه النهاية تخطر على بال أحد. فراح يفكر فى الكيفية التى يمكن أن يتبعوها فى القضاء عليه. أيعمد موسى إلى تسليح بنى إسرائيل وتكوين جيش منهم ينقض به عليه وعلى ملكه؟ مستحيل! فما أسهل التصدى لهذا الأمر بعمل حصار حول أرض جاسان وبث العيون لمعرفة إن كانوا يصنعون الأسلحة سرا ثم إن صنع الأسلحة من سيوف ودروع ونبال يحتاج إلى مهارة خاصة لا تتوافر فى بنى إسرائيل، وحتى لو أفلحوا فى صنع هذه الأسلحة سرا فهى لن تقف أمام المركبات الحربية المصرية ولا الجند المدربين. وتوصل إلى نتيجة مؤكدة وهى

أن الانقضاض عليه اعتمادا على قوتهم الذاتية أمر مستحيل. ولايبقى إلا الاحتمال الثانى وهو الاعتماد على عدو خارجي والتواطؤ معه بشكل من الأشكال.

وتذكر رمسيس الثانى الخدعة التى قام بها البدويان من العابيرو - فى معركة قادش - (ص ٧٩١) والتى كبدته خسارة فيلق رع بأكمله وجزءا كبيرا من فيلق آمون وكادت تكلفه هو نفسه حياته. وراح يتساءل: أليس من المحتمل أن يتصل بنو إسرائيل فى مصر بجماعات الهكسوس والشاسو المتفرقة فى الشام وفلسطين. وقد كانت فلولهم دائما هى المحرك لثورات التمرد فى هذه المناطق؟ صحيح أن تحتمس الثالث قد طاردهم. وقضى على تماسكهم بحملاته المتتالية التى بلغت ١٦ حملة حتى لم يعد لهم كيان متماسك إلا أنهم بقوا أفرادا وجماعات صغيرة متناثرة. بل وظلت ثقافتهم موجودة فى فلسطين وهو ما يسمى «عهد الهكسوس المتأخر فى فلسطين» وإن كانوا يتكلمون اللغة الحوارنية وقد وجد أن كثيرا من رؤساء الثوار فى هذه المناطق يحمل أسماء حورانية. فإذا اتصل بنو إسرائيل فى مصر عن طريق «العابيرو» بفلول الهكسوس الحوارنيين هؤلاء ولو نجح هؤلاء فى ضم دولة أجنبية لتحالفهم لأصبح الأمر خطيرا إذ يعود الهكسوس لمصر وتعطى فلسطين لبنى إسرائيل ويستولى الحليف الثالث على باقى المنطقة.

احتمال آخر وهو أن يخرج بنو إسرائيل من مصر أفرادا وجماعات - فارين إلى ملك خيتا ويعقدون معه اتفاقا بحيث ينضمون إلى جيشه وتقوم جموعهم فى مصر بإحداث قلاقل تشغل الفرعون وجيشه وتكون الفرصة مواتية لملك خيتا فيستولى على منطقة الشام والساحل الفينيقى وأرض أمورو وتعطى فلسطين وطنا لبنى إسرائيل مكافأة لهم على دورهم فى هذه الصفقة. إنه أمر محتمل جداً بل يكاد يكون الوسيلة الوحيدة المتاحة لبنى إسرائيل للخروج من مصر وتحقيق حلمهم فى العودة إلى «الأرض الموعودة». ولكن أليس بين مصر وملك خيتا صلح تم عقده بعد معركة قادش. ولكن الصلح ليس له دوام ولا قوة المعاهدة. فليعمل على تحويل الصلح إلى معاهدة. وهكذا أوحى إلى مستشاريه بجس نبض ملك خيتا فى هذا الشأن.

كان الملك مواتيلا قد مات وتولى بعده خاتوسيل الثالث. وكان خطر من الشرق قد بدأ يتهدده. ذلك أن الأشوريين كانوا قد بدأوا ما يسمى «بالعصر الأشورى الوسيط» بمهادنة ظاهرية لبابل فى الجنوب. وكانت دولة الميتان قد تعرضت لهجمات عنيفة من الحيثيين (دولة خيتا) وبدأت تضعف فقامت آشور بالاستيلاء على ما تبقى منها فى الفرات الأعلى وانتهت دولة الميتان. وانفسح السبيل أمام أشور فى اتجاه الغرب. وخشى خاتوسيل ملك خيتا من تطلعاتهم. وبدأ يرغب فى وضع مع مصر أكثر استقرارا من مجرد عقد الصلح الذى تم عقده بعد معركة قادش منذ ١٧ عاما. صحيح أن الوضع قد استقر فى فلسطين لمصر بعد أن قاد

رمسيس الثانى حملة إلى فلسطين بعد ٣ سنوات من معركة قادش أى فى السنة الثامنة من حكمه إلا أن سوريا كانت محل مناوشات بينهما وخشى من تجدد الحرب بينه وبين مصر مما قد يضعف قوته الحربية فيصبح فريسه سهلة لآشور. وخاصة أن شعوب البحر بدأت تهدده من الجنوب والغرب.

وهكذا تلاقى الطرفان على الرغبة فى سلام دائم بينهما. وإن اختلفت دوافع كل منهما. رمسيس الثانى خوفا من مؤامرات بنى إسرائيل. وملك خيتا خوفا من الخطر الأشورى الصاعد. وبدأت خطوات التحالف من قِبَل الحيثيين على حد قول المصادر المصرية. إذ تقول أن ملكهم خاتوسيل أوفد مندوبَين أو رسولين إلى قصر رمسيس الثانى فى عاصمته واصطحبهما اثنان من البلاط الفرعونى. وعرض الرسولان على الفرعون مشروع معاهدة تحالف بين مصر وخيتا وكان المشروع مسجلا بالخط المسمارى على لوحة من الفضة. فقبله رمسيس من حيث المبدأ وكتب رجاله نصا آخر باللغة المصرية على لوح من الفضة أيضا به بعض التعديل. وبعد اتصالات أخرى وقع الملكان المعاهدة عام ١٢٦٩ ق.م فى العام ٢٣ من حكم رمسيس الثانى وكان عمره وقتئذ ٤٦ سنة. وأشهدت المعاهدة فى خاتمتها ألفا من الأرباب والربات المصريين وألفا من الأرباب والربات الحيثيين.

وتعهدت كل من الدولتين بعدم الاعتداء على حدود الأخرى واحترمت كل منهما كيان الأخرى على قدم المساواة دون أن تدعى إحداهماالسيادة أو الأفضلية على الأخرى. وتعهد كل من الطرفين بنجدة الآخر بعسكره إذا وقع اعتداء مسلح على دولته ولعل هذا البند كان أهم بند من وجهة نظر الحيثيين. كما تعهد كل من الطرفين بألا يأوى الخوارج الفارِّين من بلد الطرف الآخر وأن يعيدهم إليه أيا كانت مراتبهم الاجتماعية سواء كانوا من العظماء أو من العوام. ويمكننا أن نفهم الدافع لدى ملك خيتا على إدراج بندين فى نسخته عن الخوارج الفارين إذا علمنا أنه عندما توفى موتاليس تنازع على العرش ابنه وأخيه. وتغلب العم خاتوسيل وتولى العرش ولكنه خشى أن يلجأ ابن أخيه إلى فرعون مصر ويطلب منه النجدة فكان إدراجه لهذه النصوص. ولا يكون من سبب لأن يدرج رمسيس الثانى مثل هذه البنود إلا خوفا من مؤامرات بنى إسرائيل كما أوضحنا سابقا. بل إن رمسيس الثانى وضع فى النص المصرى أربعة بنود خاصة بالفارين :

بند ٧ – إذا غضب رمسيس الثانى ملك مصر العظيم على خدم له. وارتكبوا جريمة أخرى ضده بالفرار وذهبوا لينضموا لعدوه. فإن رئيس خيتا العظيم يجب أن يعمل معه للقضاء على كل فرد سيغضبان عليه.

بند ١١ – تسليم الفارين من المذنبين العظماء : إذا فرَّ رجل عظيم من أرض مصر وجاء إلى أراضى رئيس خيتا العظيم أو من بلد أو مركز تابع لأراضى «رعمسيس مرى آمون» حاكم مصر العظيم وأتى إلى رئيس «خيتا» العظيم فعلى رئيس «خيتا» العظيم ألا يستقبله بل يجعله يعاد إلى «وسر ماعت رع ستبن رع» حاكم مصر العظيم سيده.

بند ١٢ – تسليم الفارين من صغار المذنبين : إذا فر رجال غير معروفين وأتوا إلى أرض «خيتا» ليكونوا عبيدا لفرد آخر فيجب ألا يقيموا فى أرض «خيتا» بل يجب أن يُرسَلوا إلى «رعمسيس مرى آمون» حاكم مصر العظيم.

بند ١٧ – إذا فر من أرض مصر رجل أو رجلان أو ثلاثة وأتوا إلى رئيس «خيتا» العظيم. فإن رئيس «خيتا» العظيم ينبغى عليه أن يقبض عليهم ويأمر بإعادتهم إلى «رعمسيس مرى آمون» حاكم مصر العظيم.

وهذه البنود الأربعة فى النص المصرى للمعاهدة كان يقابلها فى النص الحيثى مادتان فقط بنفس المعنى. ومن المفهوم أن بند ١١ الخاص بالفارين من المذنبين العظماء يقصد به موسى نفسه أو شيوخ الأسباط ورؤساء عشائر بنى إسرائيل.

وهكذا اعتقد رمسيس الثانى أنه قد حقق السيطرة الكاملة على بنى إسرائيل. فهو يسخرهم وينزل بهم العذاب فى الداخل. وموظفو الحدود يراقبون المارين ويسجلونهم بكل دقة. وقد سبق أن ذكرنا فى ص ٦٧٦ يوميات موظف الحدود فى عهد مرنبتاح. وأن المرور كان محرَّما فى عهد رمسيس الثانى إلاَّ لمن لديه مأمورية رسمية من الدولة. وها هو رمسيس قد شدد الخناق. فأى فرد ينجح فى الهرب عبر دروب الصحراء فإن بنود المعاهده تلزم ملك خيتا بإعادته لمصر.

وحققت المعاهدة أغراضها فى السياسة الخارجية وساد السلام بين الدولتين. ودُعم هذا التحالف بعد عدة سنوات بمصاهرة سياسية إذ تزوج رمسيس الثانى من ابنة ملك خيتا وقَدِمَ الملك خاتوسيل بنفسه مع ابنته إلى مصر لتتزوج من رمسيس الثانى. كان ذلك فى العام ٣٤ من حكم رمسيس وكان عمره أنذاك ٥٧ سنة. وأعطاها اسما مصريا هو «مات نفرو رع» فكانت ثالث زوجاته الرئيسيات. وقد مثلها رمسيس الثانى بصحبة والدها على اللوحة التذكارية التى أمر بها تخليدا لهذا الزواج (شكل ٢١٦) ووضعها فى معبده بأبى سمبل. كما مثلها على أحد التماثيل الضخمة فى العاصمة. وجعلها تقيم فى ضيعة خصصت لها فى بلدة «مى ور» عند مدخل الفيوم حيث عثر العالم «پترى» على بردية تحوى قائمة ببعض ملابسها وأثوابها.

شكل ٢١٦ – حضور الأميرة الحيثية مع أبيها إلى مصر لتتزوج من رمسيس الثاني.
(صورة من معبد أبي سمبل)

لاشك أن بنى إسرائيل علموا بأمر المعاهدة وشعروا باشتداد الخناق عليهم. فها هو باب الأمل فى الخروج من مصر قد سُدَّ فى وجههم. ولجأوا إلى «موسى» يستشيرونه. ولابد أنه قد أخذ يشد من عزيمتهم ويقوى إيمانهم بصدق وعد الله لهم فى الأرض المقدسة أما متى أو كيف فهذا متروك لأمر الله. واستمر الحال ببنى إسرائيل من تسخيرهم فى الأعمال التى يأمر بها رمسيس الثانى. وكان موسى قد بلغ ٤٥ سنة.

مقتل المصرى :

فى وقت حصاد القمح فى أوائل الصيف. كان يوم الاحتفال بعيد «تجلِّى مين» إله الخصوبة. ومراسم الاحتفال بهذا العيد نراها منقوشه على جدران معبد الرمسيوم (شكل ٢١٧) ومدينة هابو بالبر الغربى بالأقصر. وكان تمثال «مين» يحمله الكهنة على أعمدة وكل منهم يلبس جلبابا طويلا مزدانا بأسماء الملك. وتتبعهم مجموعة أخرى صغيرة من الكهنة حاملة معها لفائف الخس وهو النبات المقدس للإله «مين». وكان يُقاد ثور أبيض فى الموكب بينما تماثيل الملك ورموز أو علامات الآلهة ترفع على الساريات. وعندما يعتلى الملك عرشه فإن سنبلة قمح كانت تقطع للإله. وتنطلق أربعة طيور – ترمز إلى أولاد حورس الأربعة – تنطلق إلى الأركان الأربعة للمعمورة حاملة معها الخصب والنماء. وكان يحتفل بهذا العيد مع بداية موسم الحصاد. وكان رمسيس الثانى يحرص على إقامته بعاصمته الجديدة «بررعمسيس». ويتم الاحتفال بمعبد الإله «مين» وساحة الاحتفالات الكبرى المجاورة (شكل ١٤١ ص ٧١٢) حيث يتجمع رجال الدولة والشعب كله يتفرج وتكاد المدينة تخلو من سكانها. وبالطبع لم يكن موسى يشهد هذا الاحتفال.

دخل موسى المدينة – وكانت كما قلنا شبه خالية – فوجد فيها رجلين يقتتلان. أحدهما من بنى إسرائيل، والآخر من المصريين الذين أصبحوا أعداء. واستغاثه الإسرائيلى لينصره على المصرى الذى يقاتله. فوكزه موسى. والوكز الضرب باليد أصابعها مضمومة. وقيل الدفع بأطراف الأصابع. وكان موسى قد أوتى قوة فى الجسم فمات المصرى لساعته.

وقد يتساءل المرء: كيف مات المصرى من وكزة بسيطه كهذه؟ والجواب أنه فى الرقبة يتفرع الشريان الرئيسى الذى يوصل الدم إلى الرأس إلى فرعين (شكل ٢١٨) فرع للرأس من الخارج وفرع للمخ. وعند هذا التفرع يوجد انتفاخ بسيط يسمى الجيب الكاروتى Carotid sinus ويغذيه العصب الحائر Vagus nerve وعند الضغط على هذه المنطقة يتم تنبيه العصب الحائر ويحدث تباطؤ فى ضربات القلب وانخفاض فجائى فى ضغط الدم ويغمى على الشخص من جراء ذلك. وكان قطاع الطرق فى أوربا على دراية بهذه المعلومة ويضغطون على رقبة ضحاياهم عند هذا الموضع فيغمى على الضحية فيسلبونه نقوده وجواهره. وإذا كان الضغط قويا فقد يتوقف القلب كلية ويموت الشخص.



شكل ٢١٧ – رمسيس الثانى يعلن احتفاله بأحد أعياد الإله «مين».

(معبد الرمسيوم بالبر الغربى بالأقصر)



شكل ٢١٨ – موضع الجيب الكاروتى Carotid Sinus فى الرقبة.

وعلى ما يبدو – أو من المؤكد – أن وكزة موسى للمصرى كانت فى الرقبة وجاءت تماما فوق موضع الجيب الكاروتى فمات المصرى لساعته دون أن يقصد موسى قتله. وبهت موسى نفسه لما حدث. فقد كان هدفه تخليص الإسرائيلى من قبضة المصرى. وقال موسى فى نفسه إن هذا من عمل الشيطان الذى يريد أن يوقعه فى الإثم. صحيح أنه قتل خطأ بدون قصد إلا أنه قتل لنفس حرم الله قتلها إلا بالحق. واعترف موسى أمام الله فى دخيلة نفسه بما فعل وطلب المغفرة من الله. وغفر الله له هذا الذنب فالله غفور رحيم. وأقسم موسى أنه بما أن الله قد أنعم عليه وغفر له فلن يرتكب مستقبلا مثل هذا الجرم ولن يكون مساندا لشخص معتد على آخر وتؤدى مساندته لمثل هذا. ولعل نفرا من بنى إسرائيل وقد رأوا فى موسى نصيراً لهم بدأوا يتعمدون الاحتكاك بالمصريين اعتمادا على نصرته لهم فوصف فعلهم هذا بالإجرام وتعهد ألا ينساق فى نصرة هؤلاء المجرمين إلى الحد الذى يوقعه هو نفسه فى الإثم.

وأصبح موسى بعد هذه الحادثة خائفا يترصد الأخبار. هل اكتُشفت الحادثة؟ وهل عرفوا أنه هو مرتكبها؟ ويصور القرآن الكريم الحالة النفسية التى كان عليها موسى. فقد كان «**خائفا**» هل شاهد الحادثة أحد من المصريين فاعترف عليه إذ من الطبيعى أن الإسرائيلى لن يعترف على موسى و«**يترقب**» أى يتوقع فى أى لحظة أن يأتى الجند للقبض عليه. وعاد القوم من احتفالهم واكتشفوا جثة القتيل ولكن لم يعرفوا من الفاعل. وذهبوا إلى فرعون وأخبروه أن إسرائيليا لابد هو قاتل المصرى وطالبوا بالقصاص ولكن القصاص ممَّن؟ فالفاعل مجهول. قالوا إن جرائم القتل كانت نادرا ما تحدث بين المصريين مهما كان بينهم من خلاف لذلك كان أول ما تبادر إلى أذهانهم أن القاتل هو من بنى إسرائيل. وطلب الفرعون من الشرطة أن يبحثوا عن الجانى.

عبَّر القرآن الكريم عن حادثة قتل المصرى هكذا :

«ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها. فوجد فيها رجلين يقتتلان. هذا من شيعته وهذا من عدوه. فاستغاثة الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه. قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين. قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم. قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين. فأصبح فى المدينة خائفا يترقب». (١٥-١٧-القصص)

فى اليوم التالى كان موسى مارا فى المدينة. فرأى الإسرائيلى نفسه الذى كان يتعارك بالأمس يتعارك مع أحد المصريين ثانية. واستغاثة الإسرائيلى. وبغريزة مناصرة من هم من شيعته أراد أن يبطش بالمصرى الذى هو عدو لهما. وتذكر قسمه الذى أقسم بالأمس وهو ألا يكون ظهيرا للمجرمين وتمهل قليلا يفكر فما أدراه ألا يكون هذا الإسرائيلى هو المعتدى فقال له إنك كثير الشر ظاهر الغواية ونظر له نظرة لوم لكثرة مشاكساته. ولما رفع يده ليبطش

بالمصرى ظن الإسرائيلى أنه يقصد البطش به فقال مدافعا عن نفسه ومستنكرا: يا موسى، هل تريد أن تقتلنى كما قتلت المصرى بالأمس؟ وسمع المصرى هذا القول فانفلت من يدى الإسرائيلى وأسرع إلى فرعون وأخبره بما قال الإسرائيلى وهو إعتراف صريح على موسى من واحد من بنى جنسه بأنه هو قاتل المصرى. ذكر ذلك فى قوله تعالى:

« فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين. فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس، إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين». (١٨-١٩-القصص)

تقول التوراة بأن الشخصين اللذين كانا يتعاركان فى اليوم التالى كانا من بنى إسرائيل إذ جاء فى الإصحاح ٢ خروج ١٣: ثم خرج فى اليوم التالى وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان. قال للمذنب لماذا تضرب صاحبك؟ فقال من جعلك رئيسا وقاضيا علينا؟ أمفتكر أنت بقتلى كما قتلت المصرى؟ فخاف موسى وقال حقا قد عرف الأمر. فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى. والصحيح هو ما قرره القرآن الكريم من أن الشجار فى المرة الثانية أيضا كان بين نفس الإسرائيلى ومصرى آخر لقوله تعالى: **«فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما»**.

وعلم فرعون بأن موسى هو قاتل المصرى وأصدرأمرا باعتقاله للقصاص منه. وسمع رجل: قيل هو إسرائيلى. وقيل مصرى ولكنه كان يكره ظلم قومه ويؤيد موسى فى نصرتهم. وقيل اسمه شمعان وقيل شمعان بن إسحق وقيل حزقيل وقيل غير ذلك. وكون هذا الرجل هو مؤمن آل فرعون هو المشهور (تفسير الألوس جـ ٢٠ ص ٥٨) وقال الثعلبى هذا الرجل حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون وكان ابن عم فرعون (تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ٢٦٦). وما نراه هو أنه هو مؤمن آل فرعون ولكنه أخو امرأة فرعون كما سيجىء فيما بعد (ص ٨٩٦).

«وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين. فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين». (٢٠-٢١-القصص)

سعى فى مشيه أى عدا (المعجم الوسيط جـ ١ ص ٤٣٤) والمعنى أن ذلك الرجل جاء مسرعا ليحذر موسى قبل أن يأتى الجند للقبض عليه. ولكن لماذا قيل **«من أقصى المدينة»** وقد كان يكفى. من المدينة؟ فى رأينا أن كلمة أقصى لها دلالة معينة. فلو نظرنا إلى شكل ١٤١ ص ٧١٢، وهو يبين رسما لمدينة بررعمسيس العاصمة ونرى فيها مساكن كبار رجال الدولة فى أقصى الشمال بينما أقاريس القديمة حيث يسكن المصريون فى الجنوب وفى أقصى الجنوب مساكن لبنى إسرائيل حيث كان يقطن موسى. فكلمة أقصى المدينة تعنى أقصى طرفها الشمالى حيث يسكن عظماء القوم. فهو رجل من خاصة فرعون وحضر المداولات والمناقشات

التى دارت فى بلاط فرعون وإصداره الحكم بإحضار موسى للقصاص منه. فأسرع يُحذِّر موسى قبل أن يصل إليه جنود فرعون ونصحه بالخروج من المدينة قبل أن يظفروا به. فخرج موسى من المدينة وهو خائف يتلفت ويترقب أن يمسكوا به. خرج حتى قبل أن يأخذ زادا للطريق وطلب من الله أن ينجيه من هؤلاء القوم الظالمين. إذ هم لن يتيحوا له الفرصة للدفاع عن نفسه وإبداء أنه لم يقصد قتل المصرى. ورأى فرعون أنها فرصة لا تعوض ساقتها الأقدار إليه حتى يتخلص من «البطل» الذى بدأت قلوب بنى إسرائيل تلتف حوله ويمنيهم بالخلاص والذهاب إلى «الأرض الموعودة». كان موسى يعلم أن الطريق إلى فلسطين عليه حراسة مشددة فلا سبيل إلى سلوكه. وحتى لو أفلح فى اجتيازه فإن يد فرعون ستطوله فى فلسطين ولو ذهب أبعد من ذلك إلى سوريا أو أرض أمورو فإن حليفه ملك خيتا سيعمل على إعادته إلى مصر طبقا لبنود المعاهدة. وفكر موسى فى أرض لا تطوله الأيدى فيها فكان أن توجه تلقاء مدين.

فى مدين :

لاشك أن المصريين قد ساءهم هرب موسى إذ لم يتمكنوا من الثأر لقتيلهم. ولكن من المرجح أن فرعون قد استراح لهذا الأمر. فلعله خشى عاقبة أن يقتص من موسى بالقتل لما قد يحدثه ذلك من غضب جموع بنى إسرائيل وهو ما قد يدفعهم إلى العصيان والتمرد. وحقق له هرب موسى ما كان يرجوه من إبعاد «البطل» عن بنى إسرائيل دون إثارة ثائرتهم.

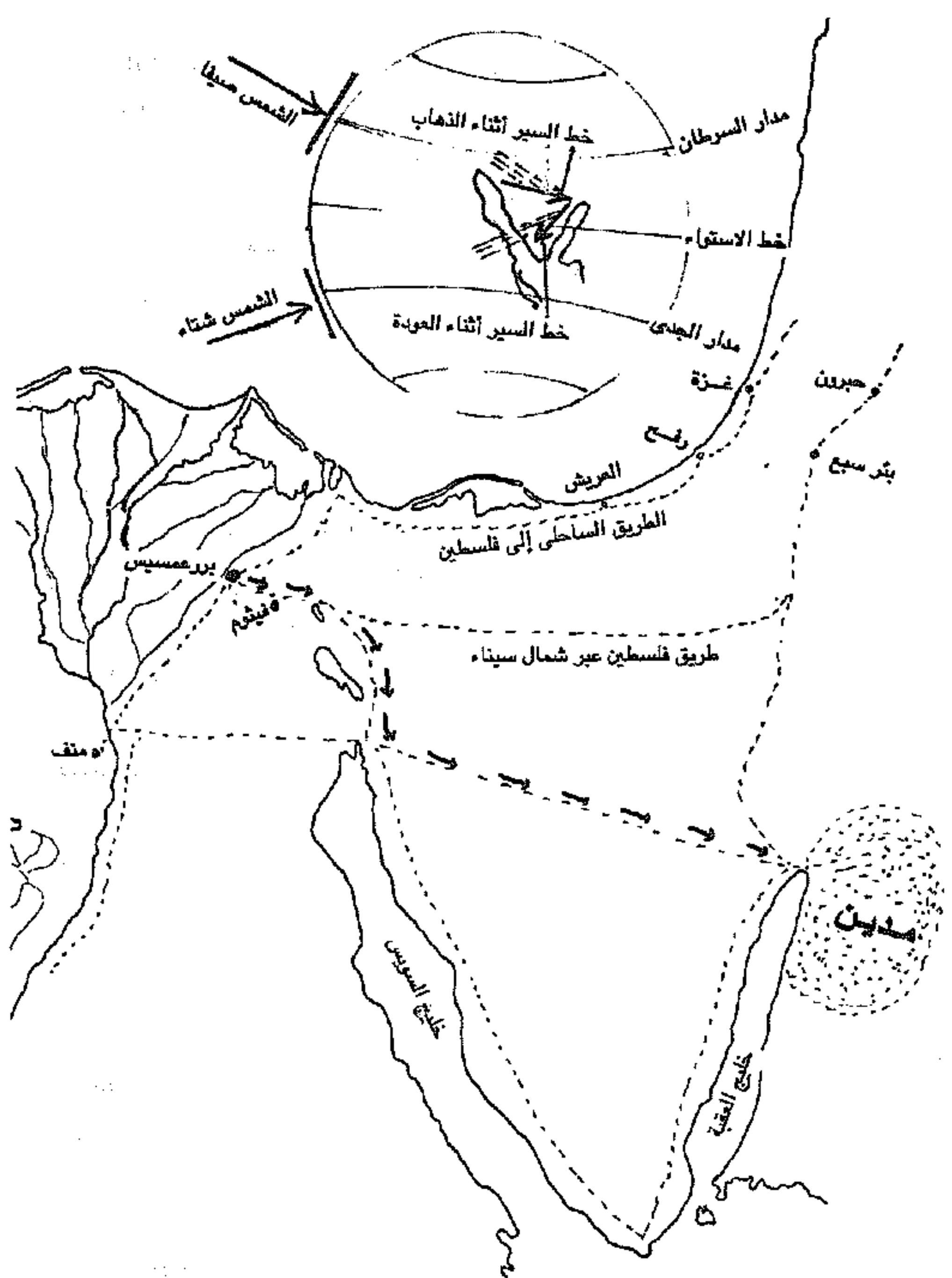
«ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل». (٢٢-القصص)

سار فى اتجاه أرض مدين وبالطبع كان يسلك دروبا فى الصحراء غير مطروقة تحوُّطا من عثور أهل القتيل أو الجند عليه إن فكروا فى مطاردته. وطلب من الله أن يهديه إلى الطريق الصحيح.

سار موسى فى اتجاه الشرق متخذا الشمس دليله (شكل ٢١٩). كان خروجه فى موسم حصاد القمح أى فى شهر يونيو. وفى هذا الوقت تتعامد الشمس على مدار السرطان ويكون شروق الشمس بزاوية قدرها ٢٣,٥ درجة شمال الشرق فكانت الشمس إلى يساره قليلا. وسيكون لهذا أثره عند العودة وكانت العودة شتاء إذ لم يضع موسى فى حسابه اختلاف مطلع الشمس مما جعله ينحرف بزاويه قدرها ٤٥ درجة فوصل إلى وسط سيناء إلى الجبل الذى قدَّر الله أن يكلمه عنده.

كان بين مصر ومدين عبر سيناء ثمانية أيام. قيل لم يكن له طعام إلا ورق الشجر وما وصل مدين إلا وقد تقرحت قدماه وأصابه هزال شديد.

ولما وصل موسى أرض مدين استراح فى ظل شجرة بجوار بئر يستقى الناس منه. ولعله كان يأمل أن يراه القوم ويدركوا أنه غريب فيُضيِّفونه ولكن أحدا لم يفعل. ورأى على البئر جماعة من الناس يسقون ماشيتهم وإبلهم ووجد بينهم امرأتين تحبسان أغنامهما بعيدا عن



شكل – ٢١٩ الطريق الذى سلكه موسى إلى مدين – الجزء العلوى يوضح اختلاف مطلع الشمس صيفا وشتاء وكان ذلك هو سبب انحرافه فى العودة فوصل إلى وسط سيناء.

الحوض انتظاراً لأن يفرغ الرعاة من سقى أغنامهم أولا. ومن الطبيعى أن يتزاحم الناس على السقى من البئر. ويكون الأول فى السقى أقواهم حتى إذا سقى وانصرف تلاه الأقل قوة ثم الضعيف ثم الأضعف. فالقوى يزاحم بعضلاته ويرد البئر أولا ويشرب هو ويسقى غنمه ومن الطبيعى أن المرأتين كانتا أضعف الموجودين وتعلمان أن مكانهما فى المؤخرة بعد أن يسقى الرعاة وينصرفوا فيخلو لهما البئر. ولعل الماء الصافى يكون قد نضب ولم يبق إلا الماء الكدر. وفى هذا يقول عمرو بن كلثوم التغلبى:

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ∴ ويشرب غيرنا كدرا وطينا.

وسأل موسى المرأتين عن سبب تأخرهما عن القوم فأجابتاه أن هذه عادتهما إذ لاتستطيعان مزاحمة الرجال. وأن أباهما شيخ كبير لا يقدر على المجىء بنفسه. فتقدم موسى وكان - كما سبق أن قلنا - قوى البنية فزاحم وسقى لهما ثم رجع إلى ظل الشجرة. وكان الجوع قد بلغ به حدا كبيرا فتوجه إلى الله قائلا إنه محتاج لأى شىء يرزقه به الله. أو أنه كان فى حاجة إلى الخير الذى أنزله الله به من الأمن والأمان ومن النجاة من فرعون.

«ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان. قال ماخطبكما. قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير. فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلىَّ من خير فقير».

(٢٣ - ٢٤ - القصص)

البعض يروى أن البئر كان عليها صخرة عظيمة يرفعها كل من أراد السقى ثم يردها ثانية. وقيل كان لايقدر عليها إلاّ جماعة من الأقوياء. فقام موسى وحده - وكان قويا - فرفع الصخرة وسقى لهما. وهذا لايتفق مع واقع الأمر من أن البئر كان يستقى منها الرعاة فعلا فلم يكن عليها صخرة. وقالوا أيضا (الثعلبى. عرائس المجالس ص ٢١٠) إن تلك البئر غير التى تسقى منها الرعاة. فرفع موسى الصخرة عنها وسقى لهما. ولعل هذه الأقوال وضعت بهدف إبراز معانى القوة والشهامة فى تصرف موسى عليه السلام.

وعادت المرأتان مبكرتين على غير ما اعتاد أبوهما منهما. فسألهما عن السبب فأجابتا أنهما وجدتا رجلا صالحا سقى لهما أغنامهما.

سبق أن ذكرنا فى الجزء الثالث ص ٦٣٩ أن بعض المصادر تقول إن هذا الشيخ الكبير هو النبى شعيب عليه السلام. والاعتراضات على هذا القول كثيرة. منها أن جيل شعيب النبى يسبق موسى بثلاثة أجيال. كما أن الرعاة ماكانوا ليسقوا قبل ابنتى نبيهم. بل ولسارعوا لسقى أغنام نبيهم قبل غنمهم. وروى عن الحسن البصرى قوله إن صاحب موسى عليه السلام اسمه شعيب ولكنه ليس بالنبى صاحب مدين. وقيل هو رجل مؤمن من قوم شعيب. أما القول بأنه ابن عمه أو ابن أخيه فينفيه أن بين شعيب وموسى ما يزيد عن مائة عام. وأخيرا فقد جاء

ذكر مدين وشعيب فى الآية ٨٥ من سورة الأعراف. ثم جاء قوله تعالى فى الآية ١٠٣: **«ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا»**. وثم تفيد الترتيب مع التراخي وهذا يدل على وجود زمن يفصل شعيبا عن موسى عليهما السلام.

تختلف التوراة فى تسمية حمى موسى الذى ورد ذكره فى الإصحاح الثانى خروج إذ جاء فى الفقرة ١٧: فنهض موسى وأنجدهن وسقى غنمهن. فلما أتين إلى رعوئيل أبيهن... وفى أول الإصحاح الثالث خروج: وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان.

وجاء فى قاموس الكتاب المقدس (ص ١٠٥٤): يثرون اسم مديانى معناه «فضل» كاهن مديان وحمو موسى ويدعى أيضا رعوئيل أى «صديق الله» أو «خليل الله» ويظهر أن هذا اسمه الشخصى ويثرون لقب شرف أطلق عليه. وبينما كانت بناته السبع يرعين أغنامه أسدى إليهن موسى خدمة أدت إلى تعرفه بأسرة يثرون وزواجه بصفورة إحدى بناته. وهنا تختلف التوارة أيضا فى أن البنات كن سبعا مع أن القرآن الكريم قرر أن من كن يسقين هما اثنتان ومن المحتمل أن خمسا أخريات كن فى البيت يخدمن والدهن ويجهزن الطعام ولو أن الأحاديث النبوية الشريفة المذكورة فى الصفحة التالية ترجح بنتين فقط.

قلنا إن موسى بعد أن سقى لهما آوى إلى الظل. كان يفكر: كيف ستكون معيشته فى هذه الأرض وهو لا يعرف أحدا فيها. كيف يقتات وأين يبيت؟ هل يعرض نفسه على الرعاة علّ أحدهم يكون فى حاجة لمن يساعده؟ ولكن هاهم الرعاة كانوا مجتمعين حول البئر. ورأوا من هيئته وثيابه أنه غريب عن هذه المنطقة. ولم يتقدم أحد لسؤاله عن حاله ومن أين أتى؟ من باب أن يكون أحدهم فى حاجة إلى عامل يساعده. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث. فترك الأمر لله وقال أنه محتاج إلى ما يأتى به الله. واللجوء إلى الله منجاة من كل كرب. وهذا ما حدث. فما هى إلا فترة وجيزة حتى جاءته إحدى البنتين.

«فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت: إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا. فلما جاءه وقصَّ عليه القصص قال لا تخف . نجوت من القوم الظالمين»
(٢٥ – القصص)

قالوا إن وصف الاستحياء ينسحب على المشى. وقالوا إنه ينسحب على الكلام الذى تكلمت به إذ الاستحياء ألزم عندما تتحدث امرأة مع رجل غريب عنها وخاصة عندما تدعوه لزيارة والدها. فيكون الوقوف عند تمشى أى: «فجاءته إحداهما تمشى – على استحياء قالت...» (عبد الرازق نوفل. معجزة الأرقام فى القرآن الكريم ص ٢٦). وأيًا ما كان الأمر فإنها أبلغته رسالة أبيها بدعوته ليثيبه ويكافئه على سقياه لغنمهما. فسار معها. قيل إنه مشى وراءها فعبثت الريح بثوبها. وكره ذلك. فقال لها امشى ورائى وصفى لى الطريق. فلما جاءا الدار ألقى التحية على أبيها. وقص عليه قصته. فطمأنه الشيخ بأنه قد نجا من فرعون وقومه. إذ لاسلطان لهم على أرض مدين فلن يستطيعوا له طلبا.

وطلبت الفتاة التى استدعته وهى الصغرى واسمها «صفورة» – وهى التى ستصبح زوجة موسى – وصفورة اسم مديانى معناه عصفورة – طلبت من أبيها أن يستأجره لأنه قوى أمين. ويروى أنها لما قالت ذلك سألها أبوها: ما أعلمك بقوته وأمانته؟ فذكرت أنه رفع الصخرة عن البئر لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال. وعن أمانته ذكرت أنه أمرها بالمشى وراءه. ولعل أبوها لمس فى حديثها ما ينم عن إعجابها به فرغب فى شىء أكثر دواما من الإجارة. كما أن وجود رجل غريب فى بيته أمر غير مستحب. لذلك قال له إنه يريد أن يزوجه إحدى ابنتيه فى نظير أن يخدمه فى رعى أغنامه ثمانى سنوات. وإذا أتم عشرا فذلك فضل من عنده فقبل موسى هذا الاتفاق. وقال إنه إذا أتم ثمانى سنوات فقد أوفى بما اتفقا عليه. وإذا أتم عشرا فليس فى هذا ظلم له أو جور عليه.

«قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين. قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج. فإن أتممت عشرا فمن عندك. وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين. قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىَّ والله على ما نقول وكيل».

(٢٦ – ٢٨ – القصص)

روى حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال. أصدق النساء فراسة امرأتان كلتاهما تفرستا فى موسى فأصابتا. إحداهما امرأة فرعون حيث قالت **«قرة عين لى ولك لاتقتلوه»** والأخرى بنت شعيب حيث قالت **«يا أبت استأجره . إن خير من استأجرت القوى الأمين».**

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم سئل أى الأجلين قضى موسى قال أكملهما وأفضلهما. وفى رواية أخرى أوفاهما وأبرَّهما.

وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال لى جبريل. يا محمد إن سألك اليهود أى الأجلين قضى موسى فقل أوفاهما. وإن سألوك أيهما تزوج فقل الصغرى.

من هذا يتضح أن موسى قد أمضى عشر سنوات فى مدين. ولما كان قد جاءها وعمره خمس وأربعون سنه فتكون سنه حين تركها هو خمس وخمسون سنة وهى سنه حين كلم فرعون.

تقول التوراة (إصحاح ٧ خروج : ٧) وكان موسى ابن ثمانين سنة. وهارون ابن ثلاث وثمانين سنة حين كلما فرعون. وهذا معناه أن موسى قضى فى أرض مدين خمسا وثلاثين سنة!! وهى مدة طويلة جداً لايستقيم أن يفكر موسى بعدها أن يعود إلى مصر. كما أنه لامعنى للبقاء فى مدين ٢٥ سنة زيادة عن المدة التى قرر القرآن الكريم أنهما قد اتفقا عليها. وترتب على ذلك أنهم قالوا بوفاة الفرعون وتولى آخر مكانه. إذ تقول التوراة (إصحاح ٢ خروج: ٢٣): «وحدث فى تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات. وتنهد بنو إسرائيل من العبودية

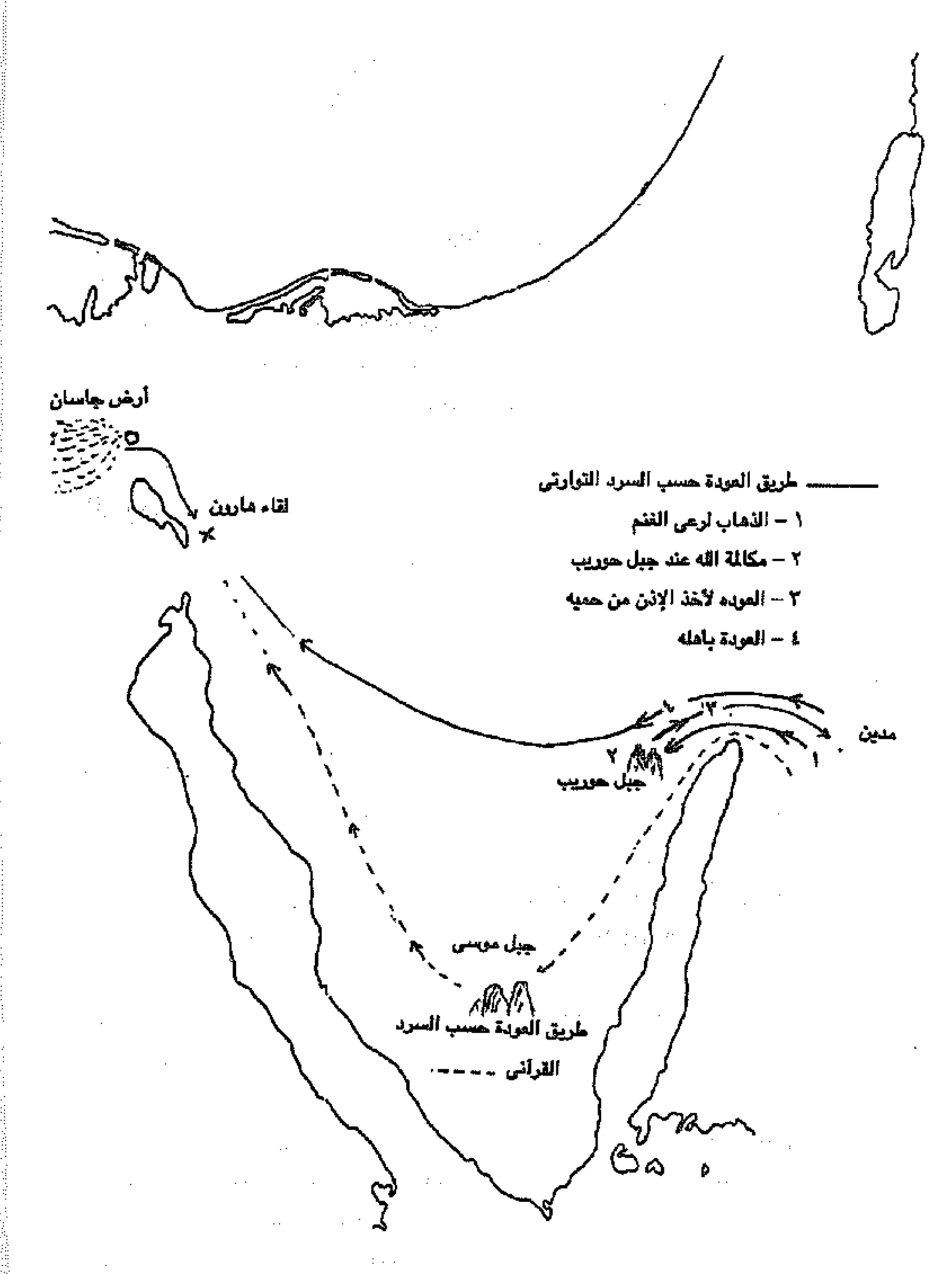
وصرخوا. فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية. فسمع الله أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب. ونظر الله بنى إسرائيل. وعلم الله». ولعل هذا ما جعل بعض الكتاب يقولون بفرعونين عاصرا موسى. وقد سبق أن أفضنا فى هذه النقطة من قبل (ص ٦٦٩).

نعود إلى موسى فى أرض مدين يرعى غنم حميه وتمضى عشر سنوات ولد له فيها ولدان سمى أحدهما جرشوم. لأنه قال كنت نزيلا فى أرض غريبة (خروج ١٨ : ٣) وجرشوم اسم عبرى معناه غريب وهو ابنه البكر. وسمى الثانى أليعازر لأنه قال إله أبى كان عونى وأنقذنى من سيف فرعون (بسبب قتله للمصرى) وأكمل موسى أوفى الأجلين – أى عشر سنوات – ثم استأذن حماه فى العودة إلى أهله وعشيرته فى مصر. بالطبع كان ذلك بإيحاء من الله سبحانه وتعالى – ليكون فى الطريق مبعثه وتكتمل له النبوة وتوكل إليه مهمة إخراج بنى إسرائيل من مصر.

الخروج من مدين :

تذكر التوراة ما يفهم منه أن هناك جبلين كلم الله موسى عليهما أحدهما جبل حوريب بجوار خليج العقبة والآخر جبل موسى المعروف فى جنوب سيناء (شكل ٢٢٠) فتقول (إصحاح ٣ خروج): وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان. فساق الغنم إلى وراء البرية إلى جبل الله حوريب. وظهر له ملاك الرب بلهيب من نار من وسط عليقة... وناداه الله من وسط العليقة موسى، موسى. فقال هأنذا. فقال لاتقترب إلى ههنا. اخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة.. ثم تستمر التوراة فى ذكر أن الله طلب من موسى أن يذهب إلى فرعون ويطلب منه إطلاق سراح بنى إسرائيل. وأراه الله آية العصا وآية اليد ليدلل بها أمام فرعون على صدق رسالته. ثم تقول: فمضى موسى ورجع إلى يثرون حميه وقال أنا أذهب وأرجع إلى إخوتى الذين فى مصر لأرى هل هم بعد أحياء. فقال يثرون لموسى اذهب بسلام. وقال الرب لموسى فى مديان. اذهب ارجع إلى مصر. من هذا نفهم أن جبل حوريب كان على مسافة قصيرة من الطرف الشمالى لخليج العقبة. إذ ساق موسى إليه الغنم. ثم رجع فى المساء إلى أرض مدين وطلب من حميه السماح له بالعودة إلى مصر.

وتجمع كل الكتب على أن جبل حوريب هو نفسه جبل سيناء الذى هو جبل موسى فى وسط سيناء. فيقول قاموس الكتاب المقدس (ص ٤٩٨): جبل سيناء يطلق عيه أيضا جبل حوريب. ويذكر الكتاب المقدس برية سيناء وجبل سيناء ٣٥ مرة وفى ١٧ مرة تسمى حوريب. ويقول تفسير الكتاب المقدس (جاميسون وفاوست. ص ٧٥)، وكلمة حوريب تشير إلى الصحراء الواسعة قرب جبل سيناء. وجبل الله حوريب هو نفسه جبل سيناء. وهكذا يتبين لنا عدم صحة ماذكر من أن موسى – بعد أن كلّمه ربه – عاد مرة ثانية إلى أرض مدين ليستأذن حماه ويأخذ أهله ويعود إلى مصر.



شكل ٢٢٠ – جبل موسى وجبل حوريب

والحق هو ما قرره القرآن الكريم من أنه بعد أن أمضى عشر سنوات استأذن حماه في العودة لمصر وأخذ أهله معه وسار. وفي طريق العودة انحرف جنوبا فوصل إلى جبل سيناء.

«فلبثت سنين في أهل مدين. ثم جئت على قدر يا موسى. واصطنعتك لنفسي».

(٤٠ - ٤١ - طه)

«فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا». (٢٩-القصص)

وقد ذكرنا (ص ٨٢٤) السبب الذي جعل موسى يحيد عن الطريق أثناء العودة. فعند قدومه من مصر متجها إلى أرض مدين كانت الشمس أمامه وإلى يساره قليلا وكان ذلك في فصل الصيف. أما عودته فقد كانت في الشتاء ولم يضع موسى في الحسبان أن الشمس تتعامد على مدار الجدي ومدارها يميل بزاوية ٤٧° عن مدار الصيف. ولذلك انحرف في اتجاه جنوب غرب. فوصل إلى جبل سينا في الجنوب. والدليل أن عودته كانت شتاء هو قوله لأهله - إذ رأى النار - إنه سيحضر لهم جذوة من النار يستدفئون بها:

«إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا. سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون». (٧ - النمل)

«إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى». (١٠ - طه)

«فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا. فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر. أو جذوة من النار لعلكم تصطلون».

(٢٩ - القصص)

وقال لأهله إني رأيت نارا. والمرء إذا كان في صحراء موحشة ويرى نارا عن بعد فهو يأنس إليها ولذلك قيل اختصارا «**إني آنست نارا**» والنار لابد قد أوقدها أناس يستدفئون بها ويلتفون حولها ويقربها لذلك قيل «**على النار**». كذلك قد تكون النار في منخفض من الأرض ويجلس من يريد الاستدفاء بحيث يكون مشرفا عليها ليشعر أكثر بدفئها فيكون «**على النار**». وقد أثار بعض المستشرقين مسألة اختلاف التعبير. مرة بصيغة التأكيد: «**سآتيكم**» ومرة بصيغة التشكيك «**لعلي آتيكم**»... وفي رأينا أن ذلك تعبير عما كان يعتمل في نفس موسى من مشاعر وأحاسيس. فهو يترك أهله وحدهم في ظلمة الليل ويبعد عنهم. وعلى الأرجح أنهم لم يروا النار التي رآها. لأنها معجزة له وليست لهم فلا يراها إلا هو. وبالطبع ظنوا أنه أحد منهم بصرا فرأى مالم يروا. نارا عن بعد. وأراد أن يبرر سبب تركه لهم وليزيدهم طمأنينة تحدث بصيغة التأكيد «**سآتيكم**» ليكون ذلك أدعى لاقتناعهم. ولكنه قدّر أن القوم حول النار قد لا يكونون على دراية بمسالك الصحراء فعدل إلى صيغة الترجي: **لعلي آتيكم منها بخبر**.. وعلى كلٍّ فإن فاته الإرشاد إلى الطريق الصحيح فهو قد يأتي بشعلة يوقد بها نارا لأهله يستدفئون بها.

لقد ساقه الله إلى هذا المكان في وسط سيناء بعيدا عن الطريق الذى تسلكه القوافل جيئة وذهابا بإبلها وروثها . فوصل إلى المنطقة المسماة «الطور» وفيها الجبل الذى سمى فيما بعد «جبل موسى». فلما رأى النار طلب من أهله أن يبقوا مكانهم «امكثوا» أما هو فسار حتى اقترب من النار فرأى عجبا. قال ابن عباس: إنه رأى شجرة أطافت بها من أسفلها إلى أعلاها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون. فوقف متعجبا من شدة ضوئها وشدة خضرة الشجرة. فلا النار تغير خضرتها. ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوءها. وقيل إن الشجرة كانت عوسجة. وقيل كانت عليقة. وفى تلك الليلة المباركة كان التكليم وكان الاصطفاء.

وقد ذكر وارنركيللر (The Bible as History P. 133) أن بعض علماء الغرب حاول إيجاد تفسير علمى للنار التى رآها موسى عليه السلام كعادة بعض العلماء فى إرجاع المعجزات لظواهر «طبيعية». ويقول الدكتور هارولد مدير حديقة النباتات فى نيويورك كتفسير علمى لهذه الشجيرة التى كانت تتقد نارا ومع ذلك لاتحترق. إن هذه خاصية من خواص «نبات الغاز» واسمه العلمى Fraxinella وهو نبات يبلغ ارتفاع شجيراته ثلاثة أقدام وزهره له لون أرجوانى والنبات كله مغطى بغدد تفرز زيتا سريع التطاير بحيث يخرج من النبات كتيار مستمر. وإذا قُرب منه لهب اشتعل ولا يحترق النبات نفسه. عالم آخر فى عالم النبات (Smith) يرى أنها لم تكن نارا حقيقية وأن نبات لورانتس أكاسيا Loranthus Acaciae الذى ينمو فى سيناء وحينما يكون فى أوج فترة الإزهار فإن أزهاره الضارية للحمرة تبدو للناظر كأنها نار! وهذا التفسير الأخير يمكن اعتباره من نوع اللامعقول. فشتان بين نار متأجِّجة وأزهار متألقة. وكيف تتألق الأزهار فى ظلمة الليل! أما التفسير الأول «نبات الغاز» فهو يؤدى إلى التساؤل عمَّن أشعله فى ليل الشتاء البارد إذ المؤكد أنه لم يكن اشتعالاً ذاتيا. وليس من إجابة سوى أنها إرادة الله هى التى أشعلته. ومادام الأمر مردُّه إلى الله. فالنار يمكن أن تشتعل ولا نجهد أنفسنا فى إيجاد تفسير لها بغاز أو زيوت طيارة وخلافه. فهى معجزة من الله والمعجزة خرق لنواميس الطبيعة.

وكلَّم الله موسى تكليما :

«فلما جاءها. نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين. يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم». (٨ - ٩ النمل)

«فلما أتاها نودى من شاطىء الوادِ الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين». (٣٠ - القصص)

«وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا». (٥٢ - مريم)

«فلما أتاها نودى يا موسى. إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادِ المقدس طوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى. إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنَّك عنها

من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى». (١١ - ١٦ - طه)

وروى عن ابن عباس أنها لم تكن نارا بل هي نور من نور الرب تبارك وتعالى وذكر ذلك بلفظ النار بناء على حسبان موسى عليه السلام. وإليه ذهب الماوردى (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ١٦٧). وقال سعيد بن جبير هى النار بعينها وهى إحدى حجب الله عز وجل واستدل بما روى عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: حجابه النار لوكشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه. ذكر الخازن أن الحديث أخرجه مسلم. قلنا إن موسى تعجَّب لِمَاَ رأى من حال هذه الشجرة واشتاق إلى أن يعرف ما وراءها فاقترب من النار. فسمع صوتاً يناديه. جاءه الصوت من الجانب الأيمن من الوادى.

«وناديناه من جانب الطور الأيمن». (٥٢ - مريم)

«نودى من شاطىء الوادِ الأيمن». (٣٠ - القصص)

قيل الجانب الأيمن بالنسبة لموسى أى من ناحية يمينه. أو يكون الأيمن بمعنى المُتَّصف باليمن والبركة فيكون صفة للشاطىء أو الوادى فى البقعة المباركة لما خصَّها الله تعالى من آيات وهى مباركة من أجل الشجرة.

سمع الصوت يخبره عما تساءلت به نفسه:

«يا موسى إنى أنا ربك». (١٢ - طه)

لاشك أن موسى لم يصدق أذنيه. ولعله قال فى نفسه أحقا أن الله يكلمه هو ويناديه؟ وجاءه الصوت مؤكداً:

«يا موس إنه أنا الله العزيز الحكيم». (٩ - النمل)

ثم مرة ثالثة قائلا

«أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين». (٣٠ - القصص)

هنا تأكد موسى أن الأمر حقيقة وأن من يخاطبه هو الله العزيز الحكيم رب العالمين. ثم جاءه الصوت - هذه المرة يأمره بأن يخلع نعليه **«فاخلع نعليك»**. ثم أُخبر بأن المكان الذى هو واقف فيه هو وادى طوى وهو أرض مقدَّسة **«إنك بالوادى المقدَّس طوى»**. واختُلف فى السبب الذى من أجله أُمر موس بخلع نعليه. قالوا هى متعلقة بما بعدها فقالوا إن النعلين كانا من جلد غير مُذكَّى فكانت نجسة. وقيل أُمر بذلك لتمس قدماه تربة الوادى فينال بركة الوادى المقدس. والأرجح أنها متعلقة بما قبلها أى «**أنى أنا ربك فاخلع نعليك**». للخشوع والتواضع عند مناجاة الله تعالى. بهذا قال على بن أبى طالب رضى الله عنه وغيره - قال سعيد بن جبير والعرف عند الملوك أن تُخلع النعال تعبيرا عن التواضع فكأن موسى أمر بذلك على هذا الوجه. ولايهم إن كانت نعلاه من ميتة أو غيرها (تفسير القرطبى جـ ١١. ص ١٧٣). ثم قيل له:

«أن بورِك من فى النار ومن حولها». قالوا: بارك الله موسى وبارك البقعة كلها. بورك

موسى وكان قريبا من النار وكأنه لشدة قربه منها وصف بأنه فيها أى بورك من هو فى نور هذه النار. وبوركت البقعة التى حولها وهو وادى طوى المقدس. وقيل من فى النار موسى ومن حولها الملائكة.

وروى عن قتادة والزجاج أن المراد بـ «**من فى النار**» نور الله تعالى، وبـ «**من حولها**» الملائكة عليهم السلام. وعن ابن جرير عن ابن عباس أنه قال فى قوله تعالى «**أن بورك من النار**» يعنى تبارك وتعالى نفسه كان نور رب العالمين فى الشجرة ومن حولها يعنى الملائكة عليهم السلام. ويقول الألوسى إن الإمام وصف هذه الرواية عن ابن عباس أنها مختلقة. وقال أبو حيان: إذا ثبت ذلك عن ابن عباس فالكلام فيه حذف. أى بورك من قدرته وسلطانه فى النار. والصوفية تنزه الله سبحانه وتعالى عن التجسيم والعينية والاتحاد والحلول بمعنى التجلّى فى النار. ويقولون كون الشىء مجلًى لشىء ليس كونه مَحلاً لـه. فإن الظاهر فى المرآة مثلا خارج عن المرآة. ومعنى الآية أن بورك أى قُدِّس من تجلِّى فى صورة النار حتى يراها موسى. وقوله تعالى بعد ذلك «**وسبحان الله رب العالمين**» دفع لما قد يُتَوهَّم من التجلى فى مظهر النار من التشبيه. أى وسبحان الله وتنزه عن التقيد بالصورة والمكان والجهة.

هذه النظرة التنزيهية تختلف عما تَصوَّره كاتبو التوراة (إصحاح ٣ خروج : ٥): ناداه الله من وسط العليقة – وفى الفقرة ١٧: إله إبراهيم وإسحق ويعقوب ظهر لى قائلا... إلا أن بعض مفسرى الكتاب المقدس (جاميسون وفاوست ص ٧٥) يخففون من هذه النظرة التجسيدية بقولهم إن النار ما هى إلا إشعار بالحضور الإلهى.

لاشك أن موسى أخذته الرهبة لَماَّ تأكد أن الله هو الذى يكلمه وإن سُرَّ فى قرارة نفسه لأن الله اختاره هو بالذات ليكلمه. وشعر بأن مهمة جليلة ستوكل إليه وفعلا جاءه الصوت قائلا:

«وأنا اخترتك. فاستمع لما يوحى». (١٣ – طه)

كان موسى قد سمع بالنبوءة التى كانت تُتداول بين بنى إسرائيل من أن الله سيرسل لهم من يخلِّصهم من الذل الذى يسامونه فى مصر على يد فرعون. ولطالما تساءل – وهو يرى السياط تهوى على أجساد بنى إسرائيل – متى يرسل الله هذا المخلِّص؟ ولقد وطد فى نفسه العزم على أنه عند ظهور هذا المخلص. أن يكون أوَّل من يؤيده لرفع نير الظلم عن بنى إسرائيل. ولكن أن يكون هو نفسه هذا المخلِّص فهذا مالم يكن يتوقعه ولا دار بخلده. إنه تكريم ما بعده تكريم. وشرف لا يدانيه شرف!! ولم يدر موسى من أين يبدأ.

وجاءه الصوت ثانية موضحا له أن تكون البداية من نفسه أولا حتى يكون أهلا للمهمة التى سيكلف بها.

«إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى». (١٤ –طه)

كان قد مضى على عهد إبراهيم عليه السلام ستة أو سبعة قرون وعلى عهد يعقوب خمسة قرون تقريبا. وكانت تعاليم هذين النبيين الكريمين قد اندثرت أو كادت تندثر بين جموع بنى

إسرائيل إلا من فئة قليلة من سبط لاوى التى منها موسى عليه السلام. ظلت تتناقل مابقى من ديانة إبراهيم شفاهة – فكان أول أوامر الله لموسى هو أن يعبد الله «اعبدنى». وقد خُصَّت الصلاة بالذكر وأفردت بالأمر مع أنها تندرج تحت الأمر بالعبادة – لفضلها على سائر العبادات بما يتلى فيها من ذكر الله وعدم شغل القلب واللسان بغيره فيها . وفى غمار الحياة الدنيا وأحداثها ينسى الناس الحياة الآخرة ويوم الحساب. فكان تذكير بهما .

«إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى. وأقم الصلاة لذكرى. إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى. فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى». (١٤-١٦-طه)

وعُبر عن الساعة بأنها آتية لأنها كائنة لا محالة. مع إخفاء وقتها عن الناس واستئثاره وحده سبحانه وتعالى بها لقوله «**إن الله عنده علم الساعة**». ثم جاء بيان لما سيكون فى يوم الساعة من حساب عن الأعمال. وتجزى كل نفس بما سعت في دنياها إن خيرا فخير وإن شرا فشر. وفى هذا حث على الامتثال بالأمر بالعبادة وإقام الصلاة والإكثار من الطاعات وتجنب المعاصى. ثم جاء خطاب لموسى عليه السلام بعدم الإنصياع لمن يقوم بالصد عنها – عن الساعة – والتشكيك فى وقوعها لأن هؤلاء المشككين لا يؤمنون بها. ويتبعون ما تهواه أنفسهم من اللذات الحسية. وتحذير له من أنه لو اتبع هؤلاء المشككين كان فيه هلاكه «**فتردى**».

توقف موسى هنيهة يفكر. لقد كان الرسل قبله يوحى إليهم بمراد الله يقظة أو مناما فقد علم أن جده إبراهيم عليه السلام أوحى إليه فى المنام رؤيا صادقة أن يذبح ابنه. كذلك كان الله يرسل ملائكة لتبليغ مراده. فقد جاءت الرسل إبراهيم – جده – بالبشرى بالولد. ولم يؤثر أن الله قد كلم أحداً من البشر. فكيف يتأتى له أن يكون كليم الله!! وتتابعت الأفكار فى ذهنه. كيف سيصدقه بنو إسرائيل إن أخبرهم أن الله قد كلمه. بل وكيف سيصدقه فرعون إن أخبره بذلك؟

وعلم الله ما يعتمل فى صدر موسى من أن القوم سيكذبونه وسيطالبون ببرهان على قوله إنه مبلِّغ عن رب العالمين. فلم يشأ الله أن يذهب رسوله – موسى – دون أن يكون مؤيَّدا بمعجزة تكون برهانا مؤكدا ودليلاً قاطعا على أن ما يقول به هو من عند الله.

سأل الله سبحانه وتعالى موسى عمّا فى يمينه. سؤال تقرير لا سؤال استفهام فالله أعلم بها . وأجاب موسى بأنها عصاه وراح يعدد منافعها . من أنه يتحامل عليها في المشى والوقوف. ويهشُّ بها أى يخبط بها ورق الشجر ويضربه ليسقط على غنمه فتأكله ثم أجملَ باقى المنافع فى «مآرب أخرى».

«وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى». (١٧ – ١٨ – طه)

قالوا كان عليه السلام يلقيها على عاتقه يعلق بها مخلاته وثوبه وزاده. وإذا كان في البرية

ركزها وألقى فوقها كساء واستظل بها كما كان يتقي بها الهوام والوحوش. ومن الموضوعات في هذا الشأن – ولاشك أنه من زيادات أهل الكتاب – قولهم إنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر. وإذا ظهر عدو حاربت عنه. وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت كما كانت تحدثه وتؤنسه. وغير ذلك مما نسبوه – زورا – إلى ابن عباس (تفسير الألوسي. جـ ١٦ ص ١٧٦) ولو كان قد لمس فيها هذه الأعاجيب. لما خاف حين انقلبت حية بإذن الله. ذلك أن الله أمره أن يلقيها.

«قال ألقها يا موسى. فألقاها فإذا هى حية تسعى. قال خذها ولاتخف سنعيدها سيرتها الأولى». (١٩ – ٢١ – طه)

«وألق عصاك. فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يُعقِّب. يا موسى لاتخف إنى لايخاف لدى المرسلون». (١٠ – النمل)

«وأن ألق عصاك. فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولاتخف. إنك من الآمنين». (٣١ – القصص)

وهكذا تجلت قدرة الله أمام موسى. إذ انقلبت العصا – وهى جماد لا حياة فيها – انقلبت إلى حية. شُبِّهت فى خفة حركتها بالجان. كما أن من معانى الجان الحية الصغيرة. وشبهت العصا – بعد أن انقلبت حية كبيرة – بصغار الحيات السريعة الحركة. لم يكن موسى عليه السلام حين ألقى العصا يتوقع هذا التحول فيها. فبُهت. وخاف. وجرى مبتعدا عنها مدبرا ولم يرجع على عقبه ليتمعن فيها. فناداه ربه عز وجل. أن أقبل وارجع يا موسى. ولاتخف. إنك من الآمنين. والمرسلون لايخافون إلاّ من الله سبحانه وتعالى. ثم أمره الله أن يمسك بالحية فعادت عصا كما كانت. وفى رواية الإمام أحمد عن وهب أنه لما أمره الله تعالى بأخذها أدنى طرف مدرعة من صوف على يده. فقال له مَلَك: أرأيت يا موسى لو أذن الله تعالى بما تحاذر أكانت المدرعة تغنى عنك شيئاً؟ قال لا ولكنى ضعيف ومن ضعف خلقت. فكشف عن يده ثم أمسك بالحية من فمها فعادت عصا كما كانت (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ١٧٨). وكانت هذه تجربة عملية ليكون على طمأنينة من أمره ولا يعتريه خوف عند محاجة فرعون وإظهار هذه الآية أمامه.

وشاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يُزوِّد موسى بآية أخرى.

«واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى. لنريك من آياتنا الكبرى». (٢٢ – ٢٣ – طه)

«وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء». (١٢ – النمل)

«اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء. واضمم إليك جناحك من الرهب». (٣٢ – القصص)

وكانت الآية الثانية أن الله أمره أن يدخل يده فى جيبه أى فتحة الجبة العليا حيث تخرج

الرأس – لا ما يوضع فيه الدراهم ونحوها كما هو معروف الآن إذ لم يكن ذلك معروفا على أيامهم – وخرجت يد موسى عليه السلام بيضاء. وكان بياض الجلد يعني البَرصْ. وخاف موسى وأخذته رهبة. فطمأنه سبحانه وتعالى بقوله «**من غير سوء**» ثم أمره أن يضم عضده وذراعه – وهو الجناح – إلى جنبه فذلك كفيل بإزالة الرهبة والخوف اللذان تملكانه أو أن المراد بضم الجناح هو التجلد وضبط النفس لأن الطائر إذا خاف نشر جناحيه وعند الاطمئنان فجناحاه مضمومتان. «**لنريك من آياتنا الكبرى**». وهكذا أراه الله سبحانه وتعالى هاتين الآيتين. وكانتا بعضا من آيات الله الكثيرة والكبيرة. واطمأن موسى عليه السلام إلى أنه يستطيع التدليل على أنه مبلِّغ عن ربه.

«**فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين**». (٣٢–القصص)

وعلم موسى أن هاتين الآيتين هما البرهان على أنه مرسل من ربه. وإذا حاجَّه فرعون فإن عليه أن يجريهما أمامه. بعد ذلك كان الأمر بالذهاب إلى فرعون

«**اذهب إلى فرعون إنه طغى**». (٢٤–طه)

«**وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين. قوم فرعون ألا يتقون**».

(١٠ – ١١ – الشعراء)

ثم أوضح الله سبحانه وتعالى لموسى ما يقوله لفرعون.

«**اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى**». (١٧–١٩–النازعات)

فكان أول ما يبدأ به موسى حديثه إلى فرعون هو دعوته إلى الإيمان بالله ليتزكى ويتطهر من رجس الكفر وذنب الطغيان. والسبيل إلى ذلك هو أن يعرف الله حق معرفته فتكون الخشية منه. ووضع ذلك في صيغة الاستفهام تلطفا في الدعوة.

أدرك موسى جسامة المهمة التي وكلت إليه وعظم المسئولية التي ألقيت على عاتقه. وأشفق أن لايستطيع القيام بها. ورغبة منه في إنجاز ما كلف به على الوجه الأكمل بدأ يبحث عن نقاط الضعف في موقفه ليعمل على علاجها بمعونة من الله سبحانه وتعالى. وأدرك أن هناك نقطتا ضعف:

١ – أول هذه النقاط :

«**قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون**». (٣٣–القصص)

«**ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون**». (١٤ – الشعراء)

أكان موسى يخاف الموت؟ كلا. فهو نبي ورسول ويعرف أن الموت حق على كل بني البشر. ويعلم أنه إن قتل وهو يؤدي مهمته هذه فقد وقع أجره على الله. ولكنه كان حريصا على ألا يقتل ليكمل مهمته ولتكون له الدرجات العلا جزاء على إتمام ما أُمِرَ به. من هنا كان حرصه.

ومن هنا كان الخوف من أن يجهل عليه قوم فرعون فيقتلوه.

٢ – ثاني نقاط الضعف التى لمسها موسى عليه السلام فى موقفه هو ما كان أصابه من اللثغ – قيل حين عرض عليه التمرة والجمرة فأخذ الجمرة ووضعها على لسانه كما سبق أن ذكرنا (ص ٨١٢) وأدرك أن هذا الأمر قد يعوقه عن أداء مهمته إذ أن إقناع الفرعون مهمة شاقة تحتاج إلى قوة بيان وفصاحة لسان وسعة صدر لدحض ما يتقوّل به من ألوهية وما يفعله من طغيان.

«قال رب إنى أخاف أن يكذبون. ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى».

(١٢ – ١٣ الشعراء)

وهنا طلب موسى عليه السلام من الله. علاجا لهذا الأمر:

«قال رب اشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى». (٢٥-٢٨-طه)

طلب من الله أن يشرح صدره. ويهبه الصدر الفسيح ويجعله حليما حمولا يتحمل ماقد يتفوه به فرعون من أقوال، إذ كان رمسيس الثانى أكثر الفراعين تجبرا. وأشدهم طغيانا وفى ذكر كلمة **«لى»** مع انتظام الكلام بدونها تأكيد لطلب الشرح والتيسيركما أن فيها دلالة على أن منفعة شرح الصدر وتيسير الأمر راجعة إلى موسى عليه السلام (تفسير الألوسى . جـ ١٦. ص ١٨٢). كذلك طلب موسى أن يحلل الله بعضا من عقدة لسانه – لأن «من» للتبعيض، ولم يطلب زوالها كلية بل طلب شفاء جزء منها حتى يستطيع القوم أن يقتنعوا بما يريد قوله. وإلا فإن موسى قد تربى فى القصر وكان الجميع يفهمون كلامه مع وجود هذه اللثغة. ولكن مقارعة الحجة بالحجة والرد على الاعتراضات يستدعى طلاقة لسان وفصح بيان. بعضهم قال إنه لم يكن هناك عيب في النطق عند موسى. وكل ما فى الأمر أنه إذ تربى فى قصر فرعون فكان يعرف اللغة المصرية ولا يعرف لغة بنى إسرائيل (المستشار محمد سعيد عشماوى ٦ أكتوبر عدد ١٠٩٧ ص ٣٠) وهذا مردود عليه بأنه أمضى فترة الرضاع وهى سنتان. فى حجر أمه فتعلم أساسيات لغتهم. ثم كان فى قصر فرعون حتى سن الخامسة عشرة فأجاد لغة المصريين. ثم لما علم أنه من بنى إسرائيل عاد إليهم وبقى فيهم إلى أن قتل المصرى فى سن الخامسة والأربعين وعليه فإن موسى عليه السلام كان يجيد اللغتين المصرية ولغة بنى إسرائيل وحتى لو سلمنا بأنه لايعرف لغة بنى إسرائيل فإنه عند مقابلته لفرعون لن يخاطبه إلا باللغة المصرية التى يجيدها بحكم تربيته في قصر فرعون. أما هارون فإنه حتى لو عرف شيئا من اللغة المصرية بحكم معاملاته مع المصريين فإنه لن يجيدها مثل من تربى فى وسطها. وعليه نرى أن موسى عليه السلام كان به لثغة فى لسانه كما كان صدره يضيق فيتلجلج فى الكلام. ولذلك قال فرعون – فيما بعد – يستهزىء به:

«أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين». (٥٢ – الزخرف)

ولهذا السبب طلب موسى من الله سبحانه وتعالى – علاجا لهذا الأمر – أن يجعل له من هارون أخيه معاونا فى تحمل أعباء ما كلف به أى يكون وزيرا له. ويحمل عنه جزءاً من الحمل الثقيل الذى ألقى على عاتقه. ويُسَمَّى مستشار الملك وزيراً لأنه يحمل عن الملك بعض أعباء الحكم والملك يلتجىء إليه لمشورة الرأى فقال:

«واجعل لى وزيرا من أهلى. هارون أخى. أشدد به أزرى. وأشركه فى أمرى. كى نسبحك كثيرا. ونذكرك كثيرا. إنك كنت بنا بصيرا». (٢٩–٣٥–طه)

«قال رب إنى أخاف أن يكذبون. ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون». (١٢–١٣–الشعراء)

«وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون». (٣٤– القصص)

عن هذا المعنى تقول التوراة (إصحاح ٤ خروج : ١٠) : فقال موسى للرب. استمع أيها السيد. لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا منذ أول أمس ولا من حين كلمت عبدك. بل أنا ثقيل الفم واللسان. فقال له الرب من صنع للإنسان فماً أو من يصنع أخرس أو أصم أو بصير أو أعمى. أما هو أنا الرب؟ فالآن اذهب وأنا أكون فى فمك وأُعلِّمك ما تتكلم به. فقال استمع أيها السيد: أرسل بيد من ترسل! فحمى غضب الرب على موسى وقال أليس هارون اللاوى أخاك. أنا أعلم أنه هو يتكلم. وأيضا هو خارج لاستقبالك. فحينما يراك يفرح قلبه. فتكلمه وتضع الكلمات فى فمه. وأنا أكون مع فمك ومع فمه وأعلمكما ماذا تصنعان. وهو يكلم الشعب عنك وهو يكون لك فما.

واستجاب الله لطلب موسى:

«قال قد أوتيت سؤلك يا موسى». (٣٦– طه)

«ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا». (٥٣ – مريم)

«قال سنشد عضدك بأخيك. ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما. بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون». (٣٥ – القصص)

«اذهب أنت وأخوك بآياتى. ولا تنيا فى ذكرى. إذهبا إلى فرعون إنه طغى».

(٤٢ – ٤٣ – طه)

وهكذا أصبح هرون نبيا وأشركه الله فيما أُمِرَ به موسى من الذهاب إلى فرعون ودعوته إلى عبادة الله وتخليص بنى إسرائيل من استعباده لهم. كان هارون بمصر. ولا ندرى إن كان قد أوحى إليه بنبوته أم سيكون ذلك بإخبار موسى له – عند لقائهما – أنه قد أشرك معه فى النبوة. كما أُشرك معه فى مهمة إبلاغ الفرعون أوامر الله له.

«ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا. فقلنا اذهبا إلى القوم

الذين كذبوا بآياتنا». (٣٥ - ٣٦ -الفرقان)

«ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا». (٧٥-يونس)

«ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه».

٤٥ - ٤٦ - المؤمنون)

ثم قال الله عز وجل لزيادة طمأنينة موسى وإزاله الخوف من قلبه من أن فرعون قد يطغى عليه فيقتله - أن الله سيكون معهما في كل لحظة ومستمع لكل ما يقولانه - هو وأخوه - لفرعون وكذلك كل ما يقوله الفرعون لهما

«قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون. فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين». (١٥-١٦-الشعراء)

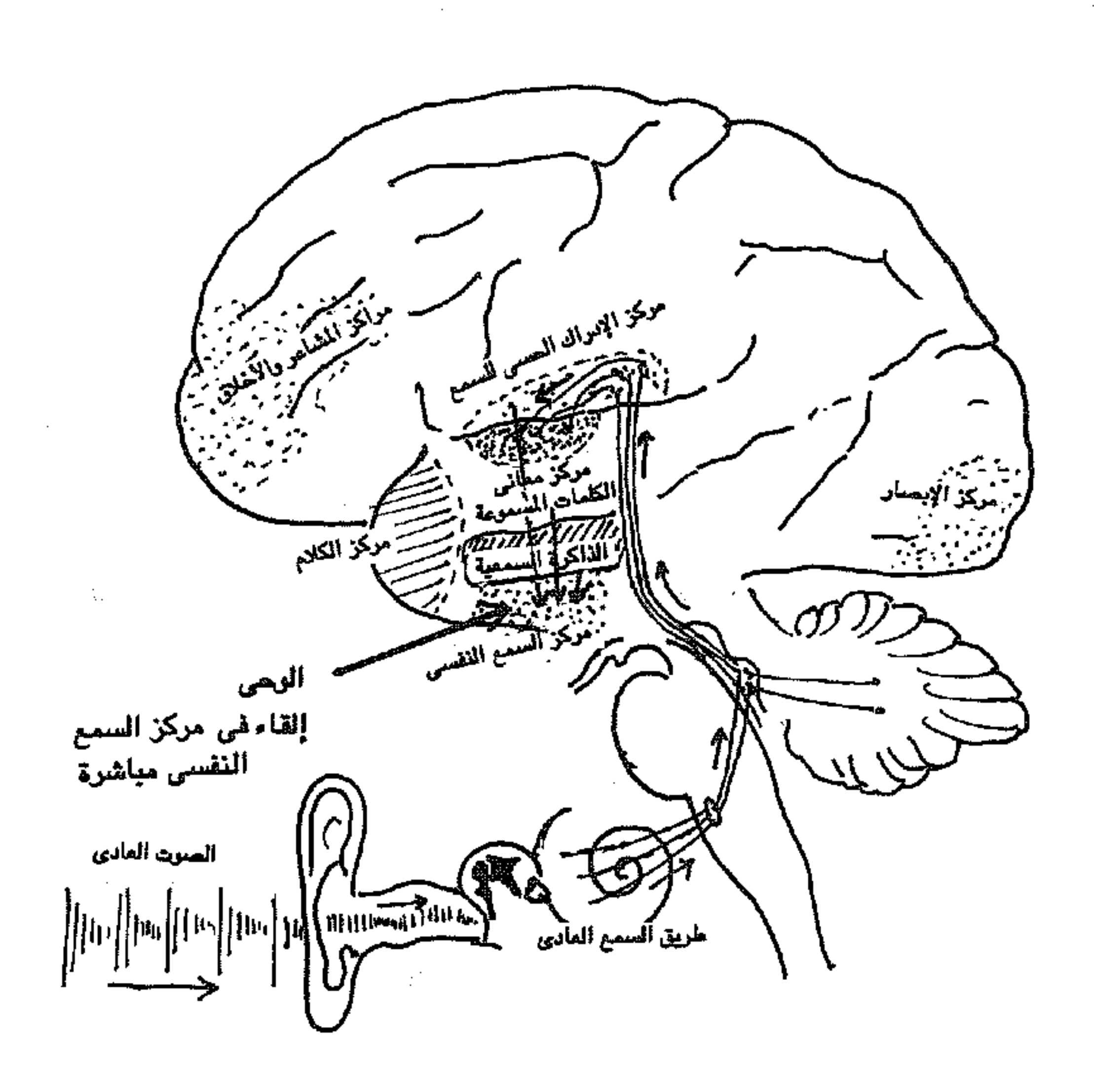
قيل إنا معكم بالجمع مع أنه قد قيل قبلها فاذهبا - إما تعظيما لشأنهما فخوطبا مخاطبة الجمع - أو جمع معهما فرعون. في حين أفرد لفظ رسول «إنا رسول» إما لاتحادهما للأخوة كأنهما فرد واحد أو لوحدة المرسل به أو أن «رسول» مصدر كما يقال رجل عدل ورجال عدل. وقيل أيضا إن فيه إشارة إلى أن كلا منهما مأمور بتبليغ ذلك ولو كان منفردا. ولذلك جاء في سورة الأعراف أنهما لما ذهبا لمقابلة الفرعون. وكان موسى هو المتكلم قال:

«وقال موسى: يا فرعون إني رسول من رب العالمين. حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق». (١٠٤ - ١٠٥ - الأعراف)

كليم الله :

يحسن بنا أن نتوقف هنا قليلا ونفكر. أكان كلام الله لموسى عليه السلام صوتا وذبذبات في الهواء كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة. بالطبع لا. فقد نودي موسى بغير صوت. أي كلام بغير صوت. وقد يعجب البعض كيف يكون الكلام بغير صوت؟

ولشرح هذا نوضح كيف يسمع الإنسان (شكل ٢٢١). في الأحوال العادية يكون هناك مصدر صوت إما شخص آخر يتكلم أو أي مصدر صوت ينتج عنه ذبذبات في ذرات الهواء عبارة عن موجات تضاغط وتخلخل متتابعة تنتقل في الهواء حتى تصل إلى طبلة الأذن فتحركها وتتحرك عظيمات السمع ويتولد في القوقعة السمعية تيار كهربي على هيئة نبضات. ويسري التيار في العصب السمعي وفي المسارات السمعية حتى يصل إلى مراكز السمع في المخ. أولها مركز الإدراك الحسي للصوت. وهذا يربط بين ما سُمع من قبل ومعناه ويخزنه في الذاكرة السمعية التي تختزن الأصوات ومعانيها وتسجلها على ألياف عصبية هي أشبه بشرائط الكاسيت. ويعي المخ معنى الصوت ويفهم معناه. ويسجله في مركز السمع النفسي Psycho - auditory ويمكننا أن نجيب عندئذ عن السؤال. كيف يكون كلام بغير صوت؟ ذلك أننا لو عملنا تنبيها بتيار كهربي أو بأي وسيلة أخرى لخلايا المخ في المنطقة المعروفة بمركز السمع



شكل ٢٢١ – الأذن ومراكز السمع فى المخ.

النفسي. يحسُّ الشخص بسمع تماما كما لو كان التنبيه قد حدث من صوت فعلي بجوار الأذن ونفس الشيء لو نبهنا مركز الإبصار بتيار كهربائي لأحس الشخص بومضة ضوء بالرغم من عدم وجود ضوء فعلي.

والمرجح أن الوحي يكون بطبع الكلام مباشرة في مراكز السمع العليا. وهذا يفسر كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوحى إليه وهو بين أصحابه دون أن يسمعوا شيئا مما يوحى به إليه. فعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ قال: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس – وهو الصوت القوي – وهو أشَدُّه عليَّ – فيفصم عني وقد وعيت ما قال. وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا يكلمني فأعي ما يقول. (البداية والنهاية لابن كثير. جـ ٣ ص ٢٠). وهذه الحالة الأخيرة – تمثل الملك في هيئة بشرية لاتسمى وحيا – إذ تسرى على الملك وقتئذ قوانين البشر فيكون كلامه بذبذبات في الهواء يسمعه كل الموجودين – مثلما تمثل جبريل عليه السلام في صورة شيخ مهيب وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه وسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان وكلما أجاب يقول الشيخ صدقت. ولما تعجب الصحابة من هذا الشيخ الذي يسأل ثم يقول صدقت. قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: ذاك جبريل جاء يعلمكم من أمر دينكم. لكن ذلك ليس هو ما نحن بصدده – إذ الوحي إلقاء في مراكز الإدراك مباشرة دون المرور بطريق الحواس فإن كان إلقاء في المركز السمعي. سمع النبي أو الرسول ما يوحى إليه دون أن يسمع غيره وإن كان الإلقاء في المركز البصري رأى دون أن يرى المحيطين به ما يراه. وهكذا كان حال جبريل عليه السلم إذا نزل بالوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم. قال ابن عباس: نزل جبريل عليه السلام على كل نبي فلم يره منهم إلا محمد وعيسى وموسى وزكريا عليهم السلام. فأما غيرهم فكان إلقاء في القلب أو الإدراك سواء كان في اليقظة أو في المنام. ثم نأتي إلى درجة أقل من هذه كلها وهي الإلهام. فإن إيحاء أم موسى كان إلهاما وإن عبر عنه القرآن الكريم بالايحاء بقوله تعالى: «وأوحينا إلى أم موسى». وقيل كان في المنام وقال آخرون كان بملَك تمثل لها.

وقد جاء اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا له: ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيا كما كلمه موسى ونظر إليه؟ فإنا لن نؤمن لك حتى تفعل ذلك. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن موسى لم ينظر إليه ونزل قوله تعالى:

«وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم». (٥١ – الشورى)

فتكليم الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام كان من وراء حجاب وقال الألوسي (تفسيره، جـ ٢٥ ص ٥٤) هو إسماع الكلام من غير أن يبصر السامع من يكلمه. وليس لنا

أن نبحث فى ماهية الحجاب. فهو غيب. وعلينا أن نؤمن به دون أن نبحث فى ماهيته.

«وكلّم الله موسى تكليما». (١٦٤ - النساء)

على أن ما ألقى إلى موسى عليه السلام لم يكن كله بطريق التكليم. بل كان جبريل عليه السلام ينزل عليه أيضا بمراد الله. ومما لاشك فيه أيضا أنه كان يوحى إليه فى المنام. فكان أن أوحى إليه بالطرق الثلاث التى بينتها الآية من سورة الشورى السابق ذكرها.

التكليف :

كانت المهام التى كُلِّف بها موسى وهارون عليهما السلام تتلخص فى ثلاثة أمور :

١ - دعوة فرعون إلى الإيمان بالله

«اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى». (١٧-١٩-النازعات)

٢ - تجديد إيمان بنى إسرائيل :

«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله. إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور». (٥ - ابراهيم)

إذ أن بنى إسرائيل لطول معايشتهم ومخالطتهم للمصريين وما كانوا يرونه من طقوس فى المعابد وما فيها من تماثيل كانوا قد تأثروا بذلك فلم تعد عقيدتهم خالصة كالحنيفية التى جاء بها الجد الأكبر إبراهيم عليه السلام. ولا ما أوصاهم به جدهم يعقوب قبل وفاته:

«أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق. إلها واحدا ونحن له مسلمون». (١٣٣ - البقرة)

ولكن بعد فترة من الزمن بدأ بنو إسرائيل ينحرفون عن الدين القويم. وبدأوا يقدسون بعض آلهة المصريين وخاصة العجل أبيس.

٣ - دعوة فرعون لإطلاق سراح بنى إسرائيل والكف عن تعذيبهم.

«فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بنى إسرائيل». (١٦ - ١٧ - الشعراء)

«فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم». (٤٧-طه)

وكما سبق أن أوضحنا أن الفراعين كانوا لا يسمحون لبنى إسرائيل بالخروج من مصر فكان تكليف موسى **أن يخرج ببنى إسرائيل من مصر إلى أرض كنعان** ووعدهم الله بأن يثبت الله أقدامهم فى هذه الأرض ويمكنهم منها بحيث يصبحون هم الوارثين للنفوذ المصرى فيها

ويرى فرعون وجنوده وشعبه أن ما كانوا يحذرونه من نبوءة قد تحقق.

«ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون». (٥ – ٦ القصص)

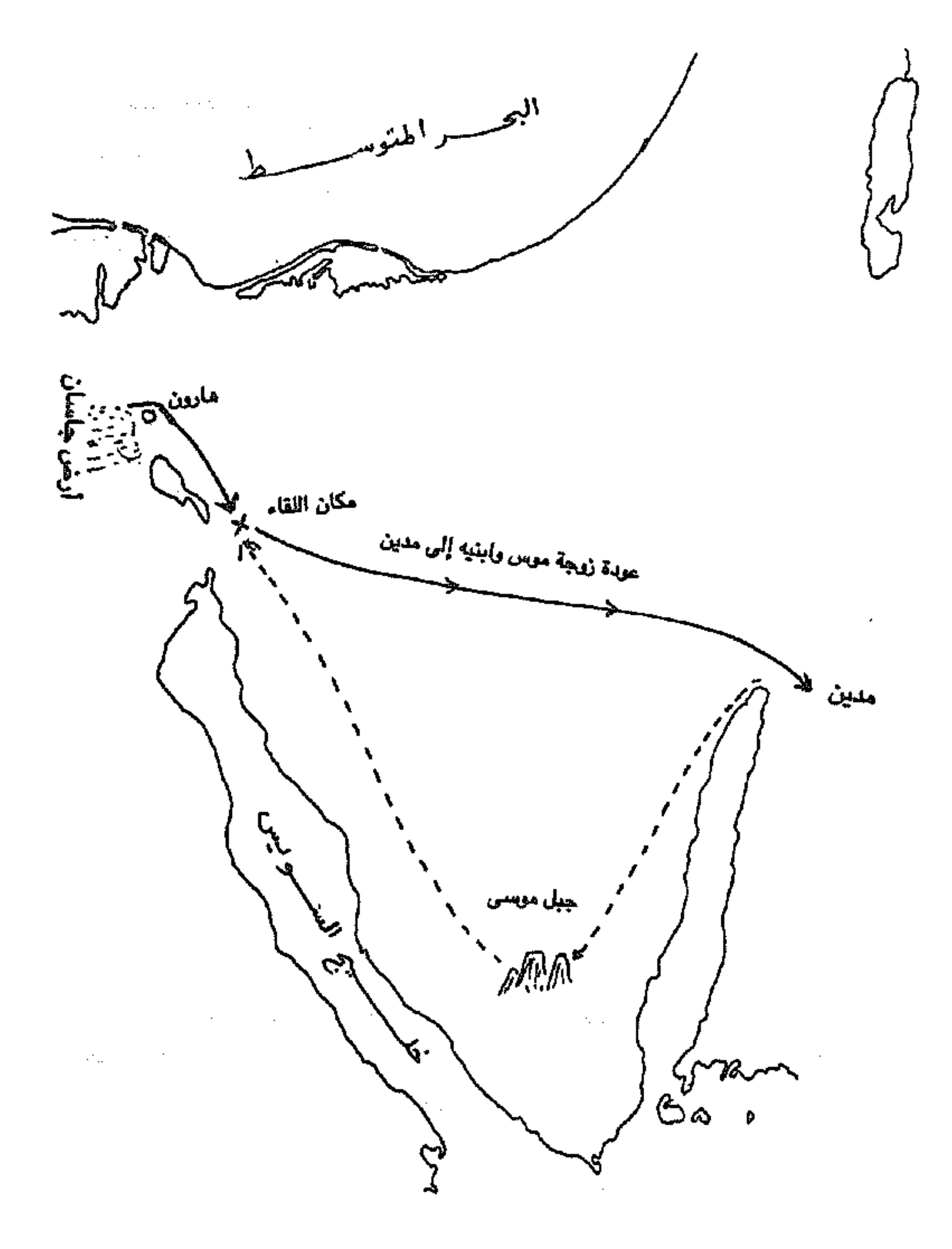
العودة إلى مصر :

عاد موسى إلى أهله – زوجته وولديه بعد أن كلمه ربه. ومن الضرورى أنه أخبرهم بأن الله قد اختاره نبيا ورسولا إلى فرعون. ولاشك أن زوجته أشفقت عليه من عظم المهمة. وكان اعتقادها أنهم يرجعون إلى مصر ويدخلونها فى هدوء وخفية حتى لا يدرى به فرعون فيطلبه للقصاص منه لما حدث من قتل المصرى قبل عشر سنوات. ولكن أن يعود ويطلب من فرعون علانية أن يؤمن بالله وأن يطلق سراح بنى إسرائيل. فذلك – كما نقول فى عصرنا – كمن يضع رأسه بين فكى الأسد!!

تقول التوراة (إصحاح ٤ خروج: ٢٤) إن موسى كان قد نسى أن يختن ابنه فأمرضه الله مرضا شديدا جزاء له على إهمال أمر من أوامر الله. يقول أهل الكتاب (تفسير الكتاب المقدس. فرنس دافدس. جـ ١ ص ٢٢٢) إن الله أراد أن يُعلم موسى الطاعة المطلقة بهذه الحادثة. وأخذت زوجته صفورة قطعة حادة من حجر الصوان وقطعت غرلة ابنها أى اختتنته.

ويقول أهل الكتاب إن موسى بعد هذه الحادثة أعاد زوجته وولديه إلى حميه فى مدين. ولكننا نستبعد إرسالهم فى ذلك الوقت لأنه لم يكن ليرسلهم وحدهم وليس هناك من أحد يرافقهم. ونرى أنهم بقوا معه وسار موسى فى اتجاه شمال غرب حتى وصل إلى الطرف الشمالى لخليج السويس. وكان هارون قد خرج للقائه – إذ لاشك أن الله قد أَوْحىَ إليه بذلك – وكان مع هارون مرافق أو أكثر فكلف موسى أحدهم بتوصيل زوجته وابنيه إلى حميه فى مدين حتى لايشغلوه عما هو مقدم عليه. كذلك فإن جَهَل عليه فرعون وزجٍ به فى السجن أو قتله كانوا فى أمان. وبعد أن ودعهم عاد هو مع هارون إلى أرض جاسان (شكل ٢٢٢).

وتقول التوراة (خروج ٤ : ٢٧) وقال الرب لهارون اذهب إلى البرية لاستقبال موسى. فذهب والتقاه فى جبل الله وهم يقصدون جبل حوريب وسواء كانوا يقصدون أن جبل حوريب مكانه أحد الموضعين الموضحين فى شكل ٢٢٠ ص ٨٣٠. فما نراه هو أن مكان اللقاء كان عند الطرف الشمالى لخليج السويس. وتستمر التوراة قائلة. فأخبر موسى هارون بجميع كلام الرب الذى أرسله وبكل الآيات التى أوصاه بها. ثم مضى موسى وهارون وجمعا جميع شيوخ بنى إسرائيل فتكلم هارون بجميع الكلام الذى كلم الرب موسى به وصنع الآيات أمام عيون الشعب فآمن الشعب. ولا نظن أن موسى عليه السلام قد أجرى معجزتى العصا واليد أمام جموع بنى إسرائيل إذ أن بنى إسرائيل لم يكونوا فى حاجة إلى معجزة ليؤمنوا بموسى فقد كانوا فى تشوق إلى من يتزعمهم ويخلصهم من تسخير فرعون لهم. وكانوا قد التفوا حوله قبل



شكل ٢٢٢ – عودة موسى من مدين إلى مصر.

فراره إلى أرض مدين. وكان يكفى عودته وإخبارهم بأنه مرسل من ربه ليخلصهم من فرعون حتى يلتفوا حوله ثانية دون أن يطالبوه بمعجزة كدليل على صدق قوله.

ولا بأس أن نتوقف هنا قليلا لنذكر لماذا كانت معجزات موسى عليه السلام من نوع العصا واليد السابق ذكرهما. والجواب أن المعجزات تكون دائما من نوع ما برع فيه القوم. فقوم صالح عليه السلام كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ويعرفون أن الصخر ليس بداخله حياة فكانت المعجزة أن أخرج لهم صالح من الصخرة ناقة. وكان العرب أهل فصاحة فكان القرآن الكريم معجزة فى لفظه ومعناه لايستطيع أحد أن يجاريه أو يباريه. وكان المصريون القدماء بارعين فى السحر وخوارق الأعمال فكانت معجزة موسى عليه السلام تحول العصا إلى حية. ولم يكن ذلك نوعا من السحر بل كان تحولا حقيقيا. والجماد تدب فيه الحياة بإذن من الله سبحانه وتعالى.

اللقاء الأول مع فرعون :

كان هذا اللقاء بين موسى وهارون عليهما السلام من ناحية وفرعون فى الناحية الأخرى - على جانب كبير من الأهمية لكل من الطرفين. وقد تم هذا اللقاء بعد احتفال رمسيس بالعيد الثلاثينى الحادى عشر احتفالا بمرور ٦١ عاماً فى الحكم. وكان عمره آنذاك قد بلغ ٨٤ عاما. ولعل مجيء اللقاء الأول بعد هذا الاحتفال الذى لم يحدث لأحد من الفراعين من قبل كان له أثر على ردود فعله تجاه دعوة موسى وهارون. وتقول التوراة (خروج ٧ : ٧) وكان موسى ابن ٨٠ سنة وهارون ابن ٨٣ سنة حين كلما فرعون. ذلك أنهم جعلوا المدة التى قضاها موسى فى مدين ٣٥ سنة وقد ناقشنا ذلك (ص ٨٢٨) وبالرجوع إلى جدول حياة موسى (ص ١١١٩) وفيها سنوات مدين ١٠ فقط حسب ما قرر القرآن الكريم يكون عمر موسى عليه السلام فى هذا اللقاء هو ٥٥ سنة وليس ثمانين سنة.

ويحسن بنا أن نتوقف قليلا لنشرح ماهية هذه **الأعياد الثلاثينية**.

فمنذ عصر الأسرات الأولى كانت تقام طقوس سحرية لتجديد قوة الملك الحاكم تسمى Heb-sed أو **احتفال سد** أو **اليوبيل**. وكان اليوبيل الأول يقام فى يوم الاحتفال الثلاثينى لتتويج الملك واعتلائه العرش. ثم يتكرر الاحتفال باليوبيل بعد ذلك كل ٣ سنوات. فاليوبيل الثانى يكون فى السنة ٣٣ من الحكم وفى الواقع يكون احتفالا بإتمام ٣٣ سنة فى الحكم. فيكون الاحتفال فى آخر السنة ومشتملا على أيام النسيء ويمتد إلى أول السنة التالية فاليوبيل الثانى الاحتفال به فى السنة ٣٤/٣٣ واليوبيل الثالث بمرور ٣٦ سنة والاحتفال به فى العام ٣٧/٣٦ وهكذا. ويقام الاحتفال فى منف حسب التقاليد. وكان الطابع الحقيقى لهذا العيد هو الإعادة الدورية لتمثيل توحيد مملكتى الشمال والجنوب فى مملكة واحدة على يد الملك مينا (نارمر). وكان الاحتفال يتم فى فناء يحتوى على عرشين كبيرين للملك تحت مظلة مقامة على سطح مرتفع

لكى يراه جميع الشعب. ويبدأ الاحتفال بأن يقدم الملك التقدمة للآلهة. ثم يسير إلى العرش المزدوج ويجلس على عرش مصر العليا (الصعيد) ويتم تتويجه عليه ويحمل الصولجان رمز السلطة الملكية ويتقدم الرعايا بالبركات والقرابين للآلهة. ثم ينتقل إلى عرش مصر السفلى (الوجه البحرى) وتعاد نفس الطقوس. وفى الختام توضع محفة أمام العرش يعتليها الملك ثم يُحمل فى موكب ضخم لزيارة هيكلى الإلهين حورس وست. ثم يطلق الملك أسهم النصر الأربعة فى الجهات الأصلية الأربعة لمحق أعدائه (الديانة المصرية القديمة. ياروسلاف تشرنى. ص ١٧٨).

وقد احتفل رمسيس الثانى بالعيد الثلاثينى أو اليوبيل الأول فى عام ١٢٦٢ ق.م. وكان عمره ٥٣ سنة وأقيم إحتفال فى منف حسب التقاليد وأناب عنه فى الاحتفال ابنه خعمواست وأعلنه وليا للعهد. إلا أن الاحتفال الفعلى تم فى مدينة بررعمسيس حيث كان يقيم رمسيس الثانى. وكان قد بنى صالة احتفالات فاخرة ذات أعمدة ضخمة ارتفاع الواحد ٣٥ قدما (حوالى ١١٫٥ مترا) وتم تزيينها بتماثيل الآلهة «بتاح – تاتنن» وإله الشمس «رع – أتوم» وأضاف رمسيس الثانى التماثيل التوأمية (أى تمثال يضمه هو وأحد الآلهة بصفته توأما للإله) وفى نفس الوقت الذى كانت الطقوس الرئيسية تقام فى بررعمسيس طبقا لرغبة الملك كانت تقام احتفالات أخرى فى المعابد الكبرى فى كل المدن وخاصة فى ممفيس لتأكيد ارتباط كهنة بتاح بهذه الاحتفالات. وكان الملوك يكتبون تمنيات ودعوات للآلهة أن تمنحهم ملايين اليوبيلات. إلا أنه فى الواقع فإن قلة من الملوك هى التى كانت تحكم أكثر من ٣٠ سنة. ومن ثم يتاح لها الاحتفال باليوبيل الأول ولكن رمسيس الثانى احتفل باليوبيلات التالية (الفرعون المنتصر. رمسيس الثانى – تأليف كتشن ص ١٧٨).

اليوبيل الأول : فى سنة ٣٠ من الحكم وعمره ٥٣ سنة. ١٢٦٢ ق . م

اليوبيل الثانى : فى سنة ٣٣ من الحكم وعمره ٥٦ سنة.

اليوبيل الثالث : فى سنة ٣٦ من الحكم وعمره ٥٩ سنة.

اليوبيل الرابع : فى سنة ٣٩ من الحكم وعمره ٦٢ سنة.

اليوبيل العاشر : فى سنة ٥٧ من الحكم وعمره ٨٠ سنة. ١٢٣٥ ق . م

اليوبيل الحادى عشر : فى سنة ٦٠ من الحكم وعمره ٨٣ سنة. ١٢٣٢ ق . م

وهو مالم يحدث لأى فرعون من قبله (ولا من بعده). ولعله ظن أن الآلهة قد استجابت لدعواته وأنه أصبح مخلداً مثل الآلهة نفسها.

وبالنسبة لموسى كان هذا اللقاء مُهِمًا أيضا. ولعله كان يفكر. هل لا يزال فرعون يذكره. لقد تربى فى القصر حتى بلغ الخامسة عشرة ولكن فرعون كان قليلا ما يكلمه أو يجالسه. ولما

ُوجد له إخوه رآه يدللهم كثيرا ولا يلقى إليه أى انتباه. ثم عرف أنه من بنى إسرائيل وليس ابنا للفرعون وراح يبحث عن أبويه الحقيقيين وعرفهما وانضم إليهما وإلى عشيرته. وكان ما كان من قتله المصرى بدون قصد ثم هروبه إلى أرض مدين وها هو يعود بعد ١٠ سنوات وعمره يقرب من الخامسة والخمسين وشكله تغير كثيراً ولكن اللكنة فى لسانه لا تزال كما هى وتنم عليه. لاشك أن الفرعون سيعرفه. هل – كما نقول فى عصرنا – سقطت العقوبة بمضى المدة؟ أم لا يزال فرعون يحملها فى نفسه وبمجرد رؤيته سيأمر بالقبض عليه والقصاص منه.

«قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى. قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى». (٤٥-٤٦-طه)

أى أن يُعجِّل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى إتمام الكلام وإظهار المعجزة – من فَرَطَ إذا تقدم. والفارط المتقدم. وفرس فارط يسبق الخيل – وقال الله سبحان وتعالى أن لا يخافا شيئا مما ذكراه لأن الله معهما يسمع كلامه وكلامهما ويرى ما يفعله معهما. وسيكون الله معهما بحفظه ونصره وتأييده.

وقال القفال (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ١٩٦). يحتمل أن يكون ذلك مقابلة مع قولهم. «**إننا نخاف أن يفرط علينا**» ولا يسمع منا. فكان الرد أن الله معهما «يسمع» ويُسَخِّره للاستماع إليها. وقولهما «**أو أن يطغى**» بأن يقتلنا وفى مُقابِلِه «**وأرى**» أى أن الله يرى أفعاله فلا يتركه يفعل بهما ما يكرهانه.

«قال كلا فاذهبا بآياتنا. إنا معكم مستمعون». (١٥ – الشعراء)

ويقول ابن كثير (تفسيره جـ ٣ ص ١٥٤) إن هذا معناه أن الله سيسمع ما يقولانه له وما يقوله لهما. وفى هذا دلالة على أنه لن يفعل شيئاً قبل أن يستمع إليهما.

من المؤكد أن فرعون كان يفكر. كيف يجرؤ موسى – بعد مافعله من قتل المصرى – أن يجىء ويطلب لقاءه. صحيح أن القتل حدث منذ عشر سنوات. ولكن ألا يخشى أن ينفذ عليه القصاص؟ لقد كان يمكنه أن يعود لزيارة أهله سرا ولكن أن يطلب مقابلتنا فهذه جرأة غير عادية. ولابد أن وراء هذه الجرأة سراً ما. وتشوق فرعون لمعرفة هذا السر. وهذا ما جعله لا يعجل بالعقوبة. ولعله كان يظن أن موسى جاء يعترف بذنبه ويطلب العفو من الفرعون فيكون فرعون فى موقف القوة وبدلاً من القصاص بالقتل يأمر مثلا بالسجن فينال رضا المصريين ورضا بنى إسرائيل أيضا وفى نفس الوقت قد باعد بينهم وبين «الزعيم» الذى بدأ يوحد صفوفهم ويشد أزرهم. كان اللقاء الأول هذا فى غاية الأهمية بالنسبة لفرعون إذ هو يريد سبر غور موسى ليعرف نواياه المستقبلية. كان فرعون واثقا كل الثقة من موقفه لذلك جعل اللقاء فى قاعة القصر الكبرى على مشهد من كل البلاط الملكى. الكهنة والوزراء والمستشارين وبطانته من المصريين ومن بعض مواليه من بنى إسرائيل الذين استمالهم بعطاياه وما خلع عليهم من

منح وما أقطعهم من أراضي وأملاك.

لاشك أن موسى وهارون عليهما السلام – عند دخولهم على الفرعون ألقيا عليه التحية اللائقة بمركزه امتثالا لقوله تعالى :

«فقولا له قولا لينا. لعله يتذكر أو يخشى». (٤٤ – طه)

إذ أن لين القول مما يكسر سورة العناد، ويلين قسوة الطغاة.

«اذهب إلى فرعون إنه طغى، فقل هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى». (١٧ – ١٩ – النازعات)

وتظهر رقة الدعوة في وضعها في صيغة العرض والمشورة، وعن الحسن قالا له: إن لك ربا وإن لك معادا وإن بين يديك جنة ونارا فآمن بالله يُدخلك الجنة ويَقك عذاب النار (تفسير الألوسي جـ ١٦ ص ١٩٥). لانعرف بالتحديد إجابة فرعون على هذه الدعوة ولكن في الغالب كانت إجابة دبلوماسية ليس فيها رفض صريح فتابعا قولهما بأنهما يملكان الدليل على صدق قولهما – معجزة من الله ربهم وربه، وأن السلامة من عذاب الدنيا والآخرة لمن يؤمن ويتبع الهدى، كما أن العذاب – الدنيوى والأخروى – من نصيب من يُكذِّب ويُعرض عن قبول دعوتهم هذه:

«قد جئناك بآية من ربك، والسلام على من اتبع الهدى، إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذَّب وتولَّى». (٤٧ – ٤٨ – طه)

كان من الواضح أن موسى هو صاحب الكلمة الأولى بالرغم من أنه قد تكلم بصيغة المثنى **«إنَّا رسولا ربك»** وقد أدرك فرعون أن هارون هو بمنزلة الوزير لموسى، لذلك فقد وجه الخطاب إلى موسى وحده قائلا:

«قال فمن ربكما يا موسى» . (٤٩ – طه)

وأجاب موسى قائلا إن ربهما هو الذى خلق كل شيئ وأعطى كل شيء صورته وإمكانياته ومقّومات حياته **ثم هدى** كل مخلوق للانتفاع بهذه الإمكانيات التى وهبت له لتستمر حياته وليستمر نوعه فلا ينقرض.

«قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى». (٥٠–طه)

بعضهم قال **«هدى»** أى أرشد أى دلل سبحانه وتعالى بذلك على وجوده وكرم عطائه، وأن من يتفكر فى دقائق الخلق يعلم أن لها صانعا (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ٢٠٢) وأنه هو الجدير بأن نعبده، ولم يشأ فرعون أن يسترسل موسى فى بيان آيات أخرى فى الكون واضح أنه لن يستطيع الإدعاء بأنه هو الذى صنعها أو أنه يمكنه الإتيان بمثلها، فعمل على أن يدير دفة الحديث إلى اتجاه آخر عله يستطيع أن يأخذ على موسى مأخذا، فسأله:

«قال فما بال القرون الأولى». (٥١–طه)

معتقدا أنه من مقتضيات النبوة أن يكون عالما بكل شيء، ما يحدث حاليا وما حدث فى الماضى أيضا. وظانا أن عجز موسى عن الجواب يقدح فى ما يقوله من أنه رسول من رب العالمين، ولكن موسى عليه السلام فوّت عليه هذا المقصد وقال إن علم ذلك عند الله – علام الغيوب – وأنه رسول لا يعلم إلا ما يطلعه عليه ربه من الأمور المتعلقة بالرسالة. أما القرون الأولى وما حدث لهم فكل ذلك فى كتاب عند الله، وهو اللوح المحفوظ، كل شيء مثبت بتفاصيله، وليس الإثبات فى الكتاب لاحتمال خطأ أو نسيان من الله سبحانه وتعالى، بل لبيان مبلغ سابق علمه بالغيب وبكل ما يقع فى هذا الكون.

ولعل فرعون كان يقصد أيضا بقوله **«فما بال القرون الأولى»** الاحتجاج بالأقوام الذين سبقوا ولم يعبدوا الله تعالى، ولعله يقصد أنهم لم يصبهم سوء أو عذاب – ردا على قول موسى **«وأن العذاب على من كذب وتولى»**، فردَّ موسى أمرَ ذلك وحسابهم إلى الله سبحانه وتعالى. وأدرك موسى هدف فرعون الحقيقى من تغيير دقة الحديث بهذا الاعتراض بسؤاله عن القرون الأولى، فعاد موسى إلى سرد بعض الآيات الكونية التى تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى. فقال إن الله هو الذى جعل الأرض مبسوطة وهى حقيقة يلمسونها كل يوم ولذلك قال **«الذى جعل لكم الأرض مهداً»** وبعضهم قرأها «مهادا» أى مكانا تستقرون عليه وجعل لكم فيها طرقا وسبلا بين الجبال والوديان لتسيروا فيها، وكذلك هو الذى أنزل من السماء مطرا فأخرج به من النبات أزواجا ليتكاثر، وأخرج كذلك زرعا وثمارا مختلفة فى الطعم واللون، وتختلف المنفعة بعضها يصلح للعباد وبعضها للبهائم وحتى ما تأكله الأنعام فإن فيها منفعة للإنسان ولذلك قيل «**أنعامكم**». وهذه الأمور فيها دلالات وبراهين لذوى العقول، ويسمى العقل نُهية لأنه ينهى عن اتباع الباطل وجمعه نهى، أى أن ذوى العقول السليمة يستدلون بهذه الآيات على قدرة الله ثم ذكرهم بأنهم خُلقوا من الأرض لأن آدم مخلوق منها، وسيعود البشر إليها بعد الموت وبلى الأجساد، ومنها يخرجون يوم القيامة للعرض والحساب.

«قال فما بال القرون الأولى، قال علمها عند ربى فى كتاب، لا يضل ربى ولاينسى، الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا بها أزواجا من نبات شتى – كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى». (٥١–٥٥–طه)

لم يستطع فرعون الرد على ما قاله موسى، فهو لن يستطيع الادعاء بأنه هو الذى خلق الأرض أو أنه هو الذى ينزل المطر من السماء ولن يستطيع القول بأنه لا توجد حياة بعد الموت، فسكت، ولعله فكر، أهذا هو سبب مجيئهما إليه، لئن كان هذا هو السبب فما أسهل أن يتظاهر بمجاراتهما فيما يقولان، ولكن لابد من سبب آخر لمجيئهما! وفعلاً فإن موسى وهارون أفصحا عن المطلب الثانى كما أمرهما الله عز وجل:

«فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم». (٤٧-طه)

«فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بنى إسرائيل».

(١٦ - ١٧ - الشعراء)

وفكَّر فرعون فى نفسه: إذن فهذا هو مطلبهم. أن أسمح لهما بخروج بنى إسرائيل من مصر ليذهبوا إلى أرض فلسطين ويستوطنوها وتصبح لهم دولة هناك. فتخرج عن دائرة النفوذ المصرى. بل وتقف حائلاً دون امتداد النفوذ المصرى إلى باقى مناطق الشرق الأدنى!

واستعرض فرعون فى ذهنه لحظة التقاط موسى من النهر. واستحيائه كطلب زوجته فى وقت لم يكن لهما أبناء فتبنياه وتربى فى القصر. ولما بلغ الخامسة بدأت زوجاته ومحظياته يلدن البنين والبنات وزالت عنهم اللعنة فلا يموتون. وكبر ابنه من صلبه وعينه وليا للعهد. وعندئذ عرف موسى أنه ابن بالتبنى فراح يبحث عن أبويه الحقيقيين وعرف أنه من بنى إسرائيل فانضم إليهم. ثم كان ما كان من قتله المصرى وهربه من مصر لأرض مدين لفترة طالت إلى عشر سنوات. أفاق فرعون من تأملات الماضى. وتكلم يَمُنُّ على موسى:

«قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين». (١٨ - ١٩ - الشعراء)

قالوا: يقصد فرعون الكافرين بنعمتى حيث تربيت فى بيتى ثم قتلت رجلا من خاصتى. أو لعلَّه يقصد الكافرين بألوهية فرعون وهم بنو إسرائيل حيث كان موسى قد انضم إليهم. وهذا يتضمن تلميحا بأن القتل كان متعمدا. ورد موسى عليه السلام معترفا بما فعل من قتل المصرى. ولكنه صحَّح وصف الكافرين وقال بدله الضالين. وروى عن قتاده أنه قصد بهذا أن القتل كان غير متعمد واعترف موسى بأنه فر خوفا على حياته. وهذا يتضمن تلميحا بأن مثل هذا القتل الخطأ لو صدر من مصرى لما كان جزاؤه القتل. ولكنهم حكموا عليه بالقتل لأنه من الفئة المستعبدة. فالمن عليه بأنه لم ينفذ فيه القصاص هو فى حقيقية كأنه يمن عليه بأنه استعبد بنى إسرائيل ومن هنا كان الفرار خوفا من ظلم فرعون. ولذلك لما فرَّ منهم عوَّضه الله بأن أعطاه علما وحكما. وهما من خواص النبوة وفضلا عن ذلك جعله من المرسلين.

«قال فعلتها إذا وأنا من الضالين. ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين. وتلك نعمة تمنُّها على أن عبَّدت بنى إسرائيل».

(٢٠ - ٢٢ - الشعراء)

كان هدف فرعون أن يمن على موسى بأفضاله عليه فيجعله فى الموقف الأضعف فى المناقشة. وإذا بموسى يُذكِّر فرعون - بلطف - أنه حكم عليه بالقتل ظلما واستعبد بنى إسرائيل تعسُّفاً. فأراد فرعون أن يغير مجرى الحديث فعاد إلى الموضوع الأول وهو قول **«إنا رسول رب العالمين»**. فراح يجادل فى هذه المعلومة ظانا أن موسى قد يعجز عن التدليل عليها.

«قال فرعون : وما رب العالمين ؟ ». (٢٣ – الشعراء)

وكان جواب موسى أن قال لهم: هو رب السماوات والأرض وما بينهما. وإن كنتم موقنين بهذه الأشياء ومحققين لها فلابد أن تعرفوا أن لها خالقاً أو جدها. رأى فرعون أن الجواب مقنع. وسيعلق منه فى قلوب سامعيه تساؤل عمن خلق السماء والأرض وبالطبع لن يكون الجواب فى صالحه. فحاول الإقلال من شأن موسى ومن إجابته فقال لمن حوله «**ألا تستمعون**» يريد التعجب والإزدراء. وأن موسى لم يجب على السؤال. فلجأ موسى إلى مثال ألصق بهم فقال «**ربكم ورب آبائكم الأولين**». وهذا القول يتضمن نفيا لما يدعيه الفرعون من ألوهية إذ هو لم يخلقهم. ولم يخلق آباءهم وأجدادهم. فقد وُجدوا قبل أن يوجد فرعون.

«قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين. قال لمن حوله ألا تستمعون. قال ربكم ورب آبائكم الأولين».

(٢٣ – ٢٦ – الشعراء)

وقال فرعون إن موسى «مجنون» حيث يُسأل عن شيء فيجيب بشيء آخر. وقيل: حيث اتخذ له ربا غير فرعون. ولم يشأ أن يقول إن الرسول الذى أرسل إلى بل قام «إليكم» فكأنه لا يعترف أصلا أنه مرسل إليه فعاد موسى يؤكد أن الله هو رب المشرق والمغرب وهو يشير بذلك إلى مافى حركة الشمس والأرض من قدرة وإعجاز لايمكن لأحد غير الله الإتيان بهما. هذا إذا حكموا عقولهم فى هذا الأمر.

«قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون. قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون». (٢٧ – ٢٨ – الشعراء)

أدرك فرعون أن مالفت موسى إليه الأنظار من آيات الكون. من شروق الشمس وغروبها وما سبق أن أشار إليه من نزول المطر وإنبات الزرع والثمار كل هذه آيات يستحيل أن يدّعى فرعون أنه هو الذى أتى بها أو أوجدها. إذن لابد أن إلها آخر هو الذى خلق هذا الكون وهو الجدير بالعبادة. وخاف فرعون أن يتنبه إلى هذه المعانى بعض السامعين فيكفرون بألوهيته. فلجأ إلى التهديد.

«قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين». (٢٩ – الشعراء)

قابل موسى هذا التهديد الفظ من فرعون بلين – كما أمره الله تعالى – فقال له بتلطف هل تفعل ذلك بى لو جئتك بشيء يدل على صدق ما أقول ويبين صدق دعواى؟ وهذا منتهى اللين فى القول إذ هو يحمل ضمنا عدم معارضته فى دخول السجن فى حالة عدم مجيء الشيئ المبين.

«قال أو لوجئتك بشيء مبين». (٣٠ – الشعراء)

ولكنه في نفس الوقت يحمل شرطا أو يطلب عهدا من فرعون بعدم تنفيذ تهديده لو جاءه بشيء مبين. ووافق فرعون على هذا الشرط وطلب من موسى الإتيان بهذا البرهان.

«قال فأت به إن كنت من الصادقين». (٣١-الشعراء)

وعاد موسى يكرر على فرعون أنه رسول من رب العالمين. وما دام الأمر كذلك فإنه واجب على موسى وجدير به أن لا يقول إلا الحق. وبالإضافة إلى ذلك فقد جاءهم بآية بينة من الله الذى خلقهم وهو ربهم وهو يحمل معنى التحذير من تكذيبه سبحانه وتعالى. وطلب منه أن يخلى سبيل بنى إسرائيل ليذهبوا إلى الأرض التى وعدها الله لهم. وعاد فرعون يطالبه بإظهار هذه الآية إن كان صادقا:

«وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين . حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق. قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل. قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين». (١٠٤-١٠٦-الأعراف)

كانت قاعة القصر ممتلئة بكبراء القوم ووجهائهم ورئيس الكهنة والوزراء. وسمعوا هذا التحدى. ولعلهم أشفقوا على موسى من السجن الذى ينتظره. وسرَّ فرعون بالنتيجة التى وصل إليها الحوار. فأى آية سيأتى بها موسى ليقنع الفرعون ويقنع الموجودين بصدق دعواه!

«فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين. ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين».

(١٠٧-١٠٨-الأعراف ، ٣٢-٣٣-الشعراء)

ويلعب الخيال بالبعض فيبالغ فى عظم هذه الحية فقالوا كان طولها ثمانين ذراعا - أى سبعة وعشرين مترا - وأنها توجهت إلى ناحية فرعون فوثب عن سريره وجرى وصاح: أنشدك بالله وحرمة الرضاع إلا أمسكتها عنى. فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت!!

ثم أراه الآية الثانية. إذ وضع موسى يده فى جيبه ثم أخرجها ولها نور ساطع تكل عنه الأبصار. أضاء كل جنبات القصر. ودخل ضوءها البيوت ورؤىَ من الكوى. ولم يستطع فرعون النظر إليها ثم ردها موسى إلى جيبه ثم أخرجها فإذا هى على لونها الأول.

يجدر هنا أن نشير إلى أن التوراة تكاد تلغى دور موسى وتجعل من يأتى بالمعجزات هو هارون. فقد جاء فى الإصحاح ٧ خروج : ٨ ما يلى: وكلم الرب موسى وهارون قائلا. إذا كلمكما فرعون قائلا هاتيا عجيبة تقول لهارون خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعبانا . فدخل موسى وهارون وفعلا كما أمر الرب. طرح هارون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعبانا . فدعا فرعون أيضا الحكماء والسحرة. ففعل عرافو مصر أيضا بسحرهم كذلك. طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصى ثعابين. ولكن عصا هارون ابتلعت عصيهم.

ولنا على هذه الرواية عدة ملاحظات:

١ – أنهم جعلوا العصا هنا هى عصا هارون في حين أنه فى الإصحاح ٤ خروج حينما كلمه ربه في البرية كانت العصا هى عصا موسى. كما أن التجربة العملية على تحول العصا إلى ثعبان تمت مع موسى ومن هنا تأكد من عدم حدوث إيذاء له فيكون هو الأقدر على تكرارها. أما هارون فهو لم يمر بمثل هذه التجربة من قبل وقد يقال إن موسى وصف له ما سيحدث وأمره ألا يخاف. ولكن الوصف غير التجربة العملية. ولاشك – لو كان هارون هو الذى ألقى العصا – لكان قد خاف كما خاف موسى أول مرة ولاهتزت صورته أمام الفرعون.

والحق هو ما قرره القرآن الكريم من أنها عصا موسى وأن الذى أجرى المعجزة أمام فرعون هو موسى لا هارون.

٢ – معجزة اليد تذكرها التوراة (إصحاح ٤ خروج ٦) ثم قال له الرب (لموسى) أدخل يدك فى عبك. فأدخل يده فى عبه ثم أخرجها وإذا يده برصاء ثم قال له رد يدك إلى عبك فرد يده إلى عبه ثم أخرجها من عبه وإذا هى قد عادت مثل جسده، فيكون إذا لم يصدقوك ولم يسمعوا لصوت الآية الأولى أنهم يصدقون صوت الآية الأخيرة. ولكن عند مقابلة الفرعون أجريت معجزة العصا كما سبق أن ذكرنا فى الصفحة السابقة ونسبوا إجراءها إلى هارون تمشيا مع اتجاهم لنسبة المعجزات إلى هارون. ولكنهم احتاروا فى معجزة اليد هل يدخل هارون يده فى جيب موسى أم فى جيبه هو. ولما أعيتهم الحيلة ألغوا هذه المعجزة كلية.

٣ – أدمجت التوراة المقابلة الأولى مع فرعون مع تحدى السحرة يوم الزينة: إذ ما إن أجريت معجزة العصا أمامه حتى أمر فرعون بإحضار السحرة فألقوا حبالهم وعصيهم فصارت ثعابين ولكن عصا هارون – وهى فى الحقيقة عصا موسى – ابتلعت عصيهم. وهذا السرد يجعل تحدى السحرة يحدث فى المقابلة الأولى وهو أمر غير معقول إذ أن الإرسال فى طلب السحرة والمهرة منهم بالذات – يستغرق عدة أيام.

٤ – لم تركز رواية التوراة على أن أفعال السحرة ليست تحولا حقيقا بل هى مجرد إيحاء قوى من الساحر بحيث يجعل المشاهد يتخيل أن العصا صارت ثعبانا وهذا ما قرره القرآن الكريم وما سنذكره بالتفصيل فى تحدى يوم الزينة.

والحق هو ما جاء به القرآن الكريم من أن العصا هى عصا موسى وأنه هو الذى يلقيها ثم يأخذها ثانية. كذلك كانت المقابلة الأولى فى القصر لم يشهدها عامة الشعب أما مقابلة يوم الزينة فكانت فى مساحة واسعة شهدها الشعب ولم يكن هناك من داع لإظهار معجزة اليد إذ أن السحرة آمنوا بعد معجزة العصا.

نعود ثانية إلى المقابلة الأولى التى كانت فى القصر. وألقى موسى عصاه فتحولت إلى ثعبان كبير كما أظهر موسى المعجزة الثانية وهى معجزة اليد. وأدرك فرعون أن ما شاهده يختلف

عن أفعال السحرة الذين كثيرا ما كانوا يأتون إليه فى القصر لتسليته. ولكنه مكابرة منه التفت لمن حوله وقال لهم إن هذا ساحر متمكن من علوم السحر.

«قال للملإ حوله إن هذا لساحر عليم». (٣٤ – الشعراء)

ووافقه الحاضرون على قوله بل ورددوا نفس كلماته :

«قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم». (١٠٩ – الأعراف)

كان فرعون يدرك أنه لو أقر أن هذه معجزة لوجب عليه أن يؤمن بأن موسى مرسل من إله هو رب العالمين ويَثْبُت زيف ما كان يدعيه من أنه إله أو ابن الإله. وعليه حنيئذ أن يتبع موسى فى تعاليمه كما عليه أن يرسل معه بنى إسرائيل. فكان أن رفض الإيمان به وبأن ما جاء به هو معجزة من ربه.

« فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إنَّ هذا لسحر مبين. قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون. قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض. وما نحن لكما بمؤمنين».

(٧٦ – ٧٨ – يونس)

كان بين الحاضرين فى قاعة القصر بعض من شيوخ بنى إسرائيل كان الفرعون قد استمالهم بعطاياه وقربهم إليه ليستعين بهم فى تهدئة مشاعر بنى إسرائيل إذا اشتد بهم السخط. وهناك دائما – في كل الأزمنة – نفر من الأقليات يجيدون التقرب إلى الحكام. بل ويكونون عونا له على بنى جلدتهم. ومن الطبيعي أن يؤيدوا الحاكم فى كل ما يقول ويفعل. بل إنهم يتلمسون رغباته ويشيرون بها زلفة ونفاقا. وتوجه فرعون بالكلام إلى هؤلاء النفر من بنى إسرائيل قائلا لهم إن موسى ساحر عليم يريد أن يخرجكم – لم يقل من أرض مصر حتى لا يشعرهم بأنهم أغراب بل قال لهم **«من أرضكم»**.. تبسطا معهم وأن الأرض صارت أرضهم وأنهم أصبحوا من المواطنين لطول إقامتهم. ولم يقل لهم فرعون فبماذا تشيرون. حتى لايشعرهم أنها مجرد استشاره بل قال **«ماذا تأمرون»**. أى زهو ملأ قلوبهم إذ سمعوا هذا القول إذ الفرعون ينتظر أوامرهم!!

«قال للملأ حوله: إن هذا لساحر عليم. يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون؟». (٣٤–٣٥–الشعراء)

وتوجه أيضا المصريون – حاضرو المجلس – من وزراء وكهنة ومستشارين ورجال البلاط إلى هؤلاء النفر من بنى إسرائيل وقالوا لهم:

«قال الملأ من قوم فرعون. إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون؟». (١١٠ – الأعراف)

واستعملوا نفس أسلوب فرعون لاستمالة قلوب بنى إسرائيل فقالوا لهم **«من أرضكم»** لإشعارهم أنهم أصحاب أرض وليسوا غرباء، وقالوا لهم أيضا **«فماذا تأمرون»** تملقا. فهاهم المصريون ينتظرون أوامرهم! أبعد هذا يوافقون موسى على الخروج من مصر؟

تجيء بعد ذلك آية فى سورة طه تثير بعض الحيرة فى تفسيرها وهى:

«ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى. قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى». (٥٦-٥٧طه)

وفى تفسير «**آياتنا كلها**» مع أن ما جاء على يد موسى حتى هذه اللحظة كان آيتين اثنتين فقط. نسب بعض المفسرين (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ٢١٥) إلى ابن عباس قوله إنها آيات موسى التسع. ويردُّ ذلك أن الآيات التسع كانت بعد يوم الزينة ووقت الآية ٥٦ – طه كان قبل يوم الزينة. كما قال بعضهم إنها تشتمل نتق الجبل وتفجر العيون من الحجر. وهذا مردود عليه بأن ذلك كان فى سيناء بعد غرق فرعون فلا ينطبق عليها قوله تعالى **«ولقد أريناه»**. والأرجح هو أن ذكر الآيات بالجمع مع أن ما جرى على يد موسى كانتا آيتين فقط هما العصا واليد. ذلك أن الآيات هى من عند الله سبحانه وتعالى ولذلك نسبت فى إظهارها إلى الله تعالى **«أريناه»** منها الرؤية العينية للآيتين اللتين أجريتا على يد موسى. والرؤية القلبية للآيات الأخرى الأخرى التى ذكرها موسى مثل خلق السموات والأرض ونزول المطر لينبت الزرع والثمار ليحيا البشر والأنعام وغيرها.

وكذلك اختُلفَ فى تفسير «**قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى**» إذ أن الكلام على لسان فرعون. فهل كل موسى يهدف إلى إخراج المصريين من أرضهم حتى يقول له فرعون مثل هذا القول؟ قال ابن كثير (تفسيره. جـ ٣ ص ١٥٦): فقال هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولى به على الناس فيتبعونك وتُكاثرنا بهم. ويقول الألوسى (تفسيره جـ ١٦ ص ٢١٦) يقول فرعون لموسى لقد جئت لتخرجنا من مصر بما أظهرته من السحر. وهذا من باب المحال. وإنما قال ذلك ليحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه السلام بإبرازه أن مرادَ موسى ليس مجرد إنجاء بنى إسرائيل من أيديهم بل إخراج المصريين من وطنهم وحيازة أموالهم وأملاكهم بالكلية. وهذا التفسير يتعارض مع تكرار موسى القول **«فأرسل معنا بنى إسرائيل»** كما أن إخراج المصريين من أرضهم أمر مستحيل ولا يُعقل أن يقوله فرعون ولو من باب التخويف لقومه.

ولكى نفهم لماذا قال فرعون هذا القول علينا أن ننظر إلى الموقف نظرة شاملة. فقد ذكرنا فى ص ٨٥٢ أن فرعون هدد بوضع موسى فى السجن وأن موسى لم يمانع فى ذلك إلا إذا جاء بآية معجزة وارتضى فرعون هذا الشرط وجاء موسى بآيتى العصا واليد. هنا أراد فرعون أن يتنصل من الاتفاق ليضع موسى فى السجن فادَّعى أن ما جاء به موسى هو نوع من

السحر وليس بمعجزة، وهو يريد أن ينتزع موافقة النفر الموجودين فى بلاطه من بنى إسرائيل على هذا حتى يكون وضع موسى فى السجن بموافقتهم فلا تثور جموع شعب بنى إسرائيل. وقلنا إن فرعون تملق بنى إسرائيل الحاضرين بقوله «**من أرضكم**» وأيضا بقوله «**فماذا تأمرون**» ونفس الشيء فعله «**الملأ من قوم فرعون**». ومن المؤكد أن شيوخ بنى إسرائيل الموالين لفرعون احتاروا فصمتوا، وأدرك فرعون حيرتهم. وفى محاولة أخيرة منه لتملقهم قال على الملأ «**أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى**»؟ وبهذا وضع فرعون نفسه فى الخندق الذى فيه بنو إسرائيل مظهرا أنه منهم وأنه يتكلم باسمهم وكأنه سيخرج معهم لو خرجوا من الأرض. وكان يتوقع أنهم بعد هذا القول منه لن يترددوا فى إبداء الرأى الذى يوافق هواه. فكما يقال: وضع الكرة بين أرجلهم. وكان عليهم أن يقرروا، هل هذه الآيات مقنعة بحيث يؤمنوا بموسى ويخرجوا من «أرضهم» أم أنها غير مقنعة. ويستحق موسى السجن ويكونوا هم الذين حكموا عليه بذلك؟ وشعر شيوخ بنى إسرائيل بحرج بالغ.

وللتخلص من حرج الموقف ودقته أشاروا بتأخير البت فى الموضوع وإرجاء اتخاذ القرار حتى يمكن ضم ما يمكن أن نسميه «الرأى العام» – إلى جانبه – حتى لايثور شعب بنى إسرائيل الذى رأى فى موسى مخلصا لهم من الذل والعبودية. وإذا اتُّخِذ قرار ضد موسى بعد عرض مغلق كهذا فقد يقال إن القرار كان متحيزا وظالما ويثور شعب بنى إسرائيل. فأشاروا بأن تعاد التجربة فى ساحة واسعة ويشهدها أكبر عدد من الناس حتى يقبلوا القرار الذى سيُتخذ بناء على نتيجتها، وأشاروا بألا تكون التجربة من طرف واحد وألا يُكتفى بأن يُظهر موسى آياته، بل تكون تحديا من السحرة لموسى لإظهار أن ما جاء به هو نوع من السحر يمكنهم الإتيان بمثله وحتى إن فاق ثعبانه فى الحجم ثعابين السحرة. فما هو إلا نوع متقدم من السحر. وينتفى عنه ادعاؤه بأنه مرسل من ربه ويلاقى ما يتخذه فرعون ضده من إجراء قبولا لدى الجميع.

«قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين. يأتوك بكل ساحر عليم»

(١١١ -١١٢ الأعراف)

«قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحّار عليم»

(٣٦ – ٣٧ الشعراء)

ولمس فرعون فوائد هذا الحل وارتضاه وقال لموسى:

«فلنأتينك بسحر مثله. فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نُخلِفُه نحن ولا أنت مكانا سوًى». (٥٨–طه)

وافق فرعون على إعادة التجربة واثقا من فوزه. وطلب من موسى أن يحدد موعد المباراة.

وأخبره أنه لن يتخلف وعلى موسى هو الآخر أن لا يتخلف، وأن المباراة ستكون فى مكان مستو من الأرض لا وعر ولا أكمة بحيث يتبين الواقفون فيه ما يدور أمامهم. «**مكانا سوى**» ووافق موسى وحدد الموعد باليوم والساعة:

« قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى». (٥٩ - طه)

وجاء فى تفسير الألوسى (جـ ١٦ ص ٢١٨) يوم الزينة هو يوم عيد كان لهم فى كل عام يتزينون فيه ويزُينون أسواقهم. كما روى عن مجاهد وعن ابن عباس أنه يوم عاشوراء وبذلك فسَّر قوله صلى الله عليه وسلم: من صام يوم الزينة أدرك ما فاته من صيام تلك السنة. ومن تصدق يومئذ أدرك ما فاته من صدقة تلك السنة. وقيل يوم السبت وكان يوم راحتهم. وكان اختيار وقت الضحى بحيث لايكون فى الصباح الباكر فيتخلف من يتأخر استيقاظهم ولا فى الأصيل حين يكون الضوء ضعيفا فلا يتبين الناس ما يجرى ولا وقت الظهيرة إذ يكون الحر فى شدته فلا يطيقه الخلق فينصرفوا.

«فتولى فرعون فجمع كيده، ثم أتى». (٦٠ - طه)

أرسل فرعون الرسل فى المدن ليجمعوا أمهر السحرة، وُصفوا مرة «**بكل ساحر عليم**» ومرة ثانية «**بكل سحَّار عليم**» مبالغة فى مهارته فى السحر، كقولنا كاذب وكذَّاب.

واختلفوا فى عدد السحرة الذين جمعهم فرعون، ويأتى دور المبالغات، إذ قال كعب: كان عدد السحرة اثنى عشر ألفا وقال السدى بضعة وثلاثين ألفا وقال محمد بن المنكدر ثمانين ألفا. وقال آخرون سبعين ألفا. ثم اختار منهم سبعة آلاف ثم اختار منهم سبعمائة ثم اختار منهم سبعين من كبارهم وعلمائهم (تفسير الألوسى جـ ٩ ص ٢٣).

وفى رأينا أن عدد السحرة كان أقل من ذلك بكثير، ولعلهم اختاروا من كل إقليم ساحرا واحدا. فيكون السحرة ٤١ ساحرا بعدد أقاليم مصر، ثم اختاروا منهم سبعة مثلا أو عشرة على الأكثر.

يوم الزينة :

فى عشية يوم الزينة استدعى الفرعون موسى وهارون إلى القصر ليخبرهم بأن الاستعدادات من جانبه قد تمت والسحرة قد جاءوا والناس قد أُعلنوا وسيحضرون فى أعداد كبيرة. واستأذن كبير السحرة فرعون أن يجتمع هو وعدد من السحرة بموسى فقد يمكنهم التأثير على روحه المعنوية مما يسهل مهمتهم فى الغد أمام الجماهير فأذن لهم فرعون. وذكر الألوسى (تفسيره - جـ ٩ ص ٢٧) عن ابن جرير وغيره قوله: التقى موسى عليه السلام وأمير السحرة فقال له موسى: أرأيتَ إن غلبتُك أتؤمن بى وتشهدَأن ماجئتُ به حق؟ فقال كبير السحرة: لآتين غدا بسحر لا يغلبه سحر.

قد يرى البعض أن هذا اللقاء عشية يوم الزينة ليس عليه دليل من القرآن الكريم والرد على ذلك أن قوله تعالى فيما بعد على لسان فرعون «**إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة**».. لايمكن تفسيره إلا فى ضوء حدوث لقاء مثل هذا. وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد (ص ٨٦٤) وجاء اليوم الموعود. وتولى فرعون بنفسه الأمر وجمع السحرة وصفَّهم. كل واحد معه أدواته. وكان هذا هو الكيد الذى جمعه فرعون ليكيد موسى. وأتى إلى المكان المحدد. وكان مكانا فسيحا.

«فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى». (٥٧-٦٠طه)

وتقاطر الناس من كل صوب. فاليوم يوم عيد. ولا عمل لهم فيه. فليستمتعوا إذن برؤية هذه المباراة بين سحرة فرعون وبين موسى وهارون.

وجلس فرعون فى ظل عريشة تحميه من الشمس معه وزراؤه وكبار الكهنة ورجال البلاط وشيوخ بنى إسرائيل الموالين له . وفى ناحية وقف السحرة وخلفهم حشد كبير من المصريين يصل إلى عدة آلاف. وفى الجانب المقابل وقف موسى وهارون وخلفهما عدد كبير من بنى إسرائيل.

وجَّه موسى عليه السلام – الكلام إلى السحرة وإلى كل من كان فى جانب فرعون وحضروا اللقاء الأول. وقال لهم: تعلمون أن ما أظهرته سابقا ليس بسحر. فلا تفتروا على الله كذبا وتقولوا هذا سحر. إذ الويل لكم حينئذ ويوشك الله أن يسحتكم أى يستأصلكم بعذاب هائل لا تقدرون على رده. وكل من افترى على الله كذبا قد خاب. وسمع السحرة هذا الكلام من موسى وتشاوروا فيما بينهم سرا أى تناجوا فيما بينهم حتى لا يسمعهم موسى وهارون ثم وجهوا الكلام إلى بنى إسرائيل محاولين استمالتهم لجانبهم. فقالوا لهم: إن موسى وهارون ما هما إلا ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم. ونلاحظ هنا أنهم قالوا لبنى إسرائيل «**أرضكم**» كما قال فرعون من قبل لإشعارهم أن مصر هى أرضهم فلا يفارقوها ثم كان باقى الكلام موجها إلى المصريين أيضا فقالوا إن موسى وهارون يريدان أن يهدموا عقيدتكم وهى من أفضل العقائد وأحسنها. بل إنها الطريقة المثلى للعبادة ثم حثوا الجميع على التكاتف والوقوف صفا واحداً وراءهم ليكون الفلاح من نصيبهم ويكون الفوز فى جانبهم والعلو لهم. كان هدف السحرة من هذه المقاله هو التأثير على الروح المعنوية لموسى وهارون والفتِّ فى عضدهما إذ يرون الجميع ضدهم وحتى بعض بنى جلدتهم قد وقفوا صفا وراء فرعون. والمعروف أن الساحر إذا فقد الثقة بنفسه لن يستطيع أن يوهم الناس بسحره وهو ما سنشرحه فيما بعد.

«قال لهم موسى ويلكم . لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب. وقد خاب من افترى. فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى. قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى. فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا

صفا. وقد أفلح اليوم من استعلى». (٦١ - ٦٤ - طه)

وقبل أن تبدأ المباراة توجه السحرة إلى فرعون يسألونه هل لهم أجر إن كانوا هم الفائزين؟ فطمأنهم فرعون على ذلك.

«فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين. قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين». (٤١ - ٤٢ - الشعراء)

وأرادوا الاطمئنان أكثر فأعادوا الطلب ولكن بصيغة تقرير فقالوا:

«وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين، قال نعم وإنكم لمن المقربين». (١١٣-١١٤-الأعراف)

وأعاد فرعون طمأنتهم على الأجر وأيضا لن تقتصر مكافأتهم على المال فقط بل سيصبحون من المقربين له. يجلسون في مجلسه وفي هذا كرامة ورفعة لهم. ونفوذ. وبالطبع سيكون لذلك مردود مادي. وقول فرعون وإنكم لمن المقربين يؤيد ما ذهبنا إليه من أن عدد السحرة لم يكن ليزيد عن السبعة أو العشرة وليس سبعمائة أو سبعة آلاف كما قال البعض.

لما اطمأنَّ السحرة على أجرهم توجهوا لموسى قائلين: إما أن تلقى أنت أو نلقى نحن أولا. وكانت رغبتهم أن يلقوا هم أولا لذلك قالوا **«نكون أول من ألقى»**. وفي ظنهم أن من يُلقى أوَّلا سينال إهتمام المشاهدين ويحظى بإعجابهم إذ يرى الناس من فنون السحر ما يدهشهم أما تكرار الفعل فلن يحظى بنفس الإعجاب.

«قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى». (٦٥ - طه)

وأمرهم موسى أن يلقوا هم أولا :

«قال بل ألقوا». (٦٦ - طه)

«قال لهم موسى . ألقو ما أنتم ملقون». (٤٣-الشعراء)

ولايخفى ما في هذا القول من استصغار لشأنهم. بالسماح لهم بأن يلقوا هم أولا:

«فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون». (٨٠ - يونس)

وألقى السحرة حبالهم وعصيهم. واستفتحوا باسم فرعون لتكون لهم الغلبة :

«فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون». (٤٤-الشعراء)

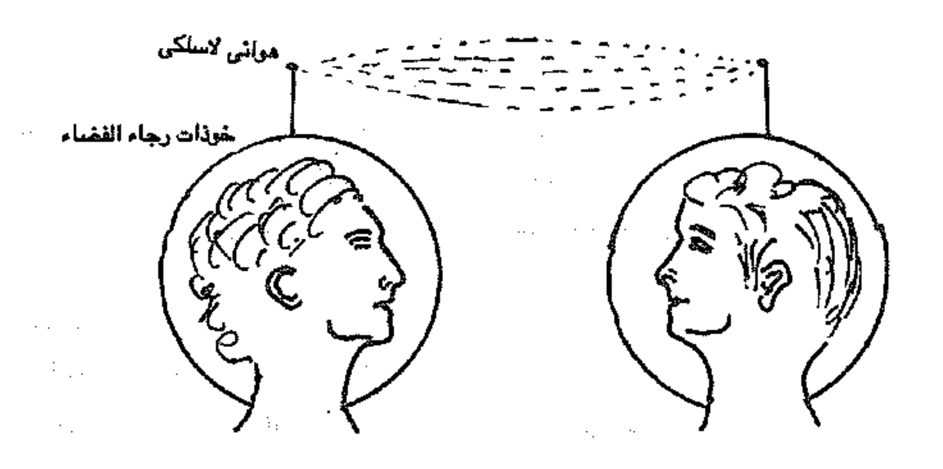
وهنا يوضح القرآن الكريم حقيقة السحر فهو ليس تحولاً في مادة الحبال والعصي إلى ثعابين فعلا. وإنما هو قدرة من الساحر يسيطر بها على أفكار المشاهدين والإيحاء لهم بأن ما يشاهدونه هي حيات وثعابين فيخيل إليهم أنها كذلك وأنها تمشي على الأرض وتتلوى. ويستعين الساحر بما يسمى بالطلاسم وهي بعض كلمات أو أحرف غامضة المعنى يزعم أنها تشتمل على قوة سحرية ويزداد تأثيره على المشاهدين بتلاوتها.

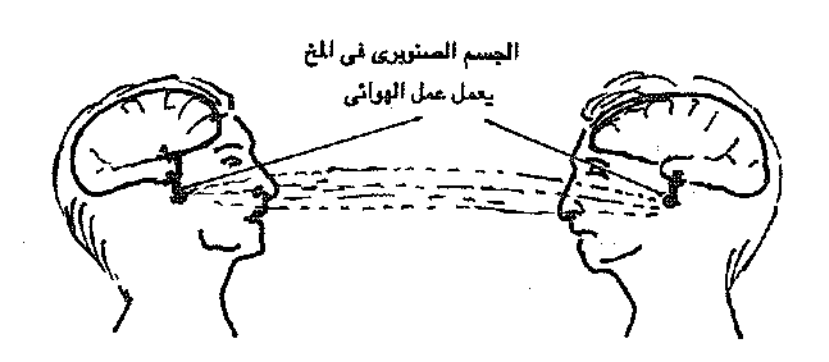
«فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم». (١١٦-الأعراف)

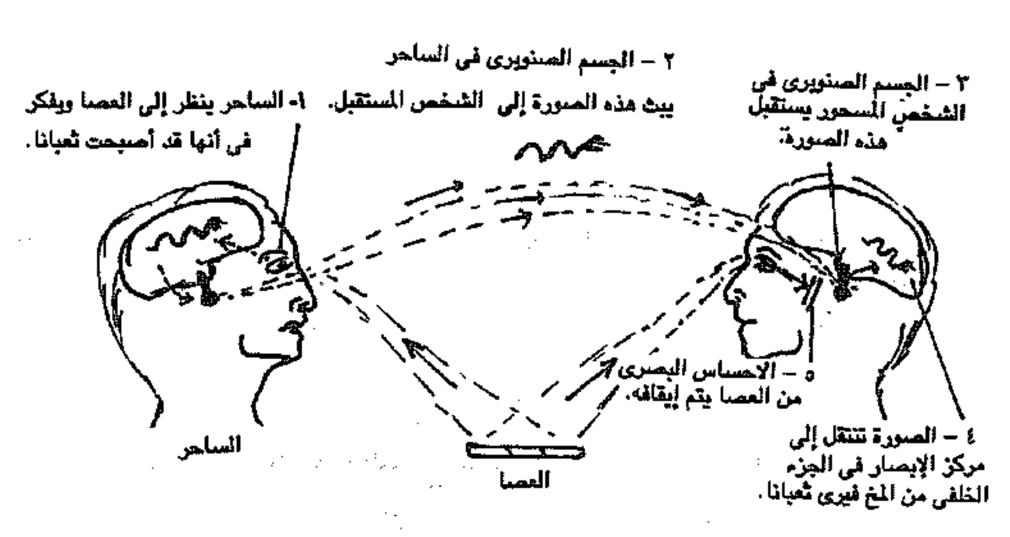
وكان سحرهم من القوة والإتقان حتى إن موسى عليه السلام وقع تحت تأثيره ورأى هو أيضا الحبال والعصى كأنها تحولت إلى حيَّات وثعابين. وجال فى نفسه بعض الخوف من المفاجأة ذاتها. وهذا من طبائع النفسى البشرية التى لاسيطرة للمرء عليها. هو يعلم أن ما يراه الناس وهم وأن الحبال والعصى فى حقيقتها باقية على حالها ولم تتغير مادتها. أما عصاه فإنها بقدرة الله تتحول فعلا إلى حية تسعى. وكان خوفه أن الناس لن يستطيعوا التفرقة بين الحالين. أو هكذا كان ظنه حتى هذه اللحظة. ولكن الله تعالى طمأنه وأمره أن لا يخاف وأنه سيكون هو المنتصر والأعلى:

«قال بل ألقوا. فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى. فأوجس فى نفسه خيفة موسى. قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى». (٦٦-٦٨-طه)

وشكل (٢٢٣) به شرح لما يمكن أن تكون عليه ظاهرة السحر فى ظل المعارف المتاحة حاليا. ولتقريب المسألة نشير إلى هوائى البث التليفزيونى الذى يبث موجات لاسلكية تحمل الصورة والصوت. ثم إننا نشاهد كم هو صغير هوائى اللاسلكى الذى يحمله رجال الشرطة وأصغر منه هوائى التليفون المحمول. ولعلنا شاهدنا أحد أفلام الخيال العلمى وكيف يتخاطب رواد الفضاء عن طريق هوائى صغير مركب فى خوذاتهم يذيع ويستقبل الموجات اللاسلكية إذ لا يوجد هواء لنقل ذبذبات الصوت كما يحدث فى جو الأرض. وتشير دلائل كثيرة إلى أن الجسم الصنوبرى فى الإنسان Pineal Body يؤدى نفس الوظيفة ببث موجات لاسلكية. وكلنا أحيانا لمس ذلك من إحساسه بأن هناك شخصا يحدِّق فيه حتى لو كان ذلك الشخص واقفا وراءه. وبعض الأشخاص عندهم من قوة البث ما يمكنهم من التأثير على الآخرين فإذا وقع الجسم الصنوبرى للشخص الآخر تحت تأثيرهم - فإنه يستقبل الصورة الموجودة فى ذهن الشخص المرسل ويستقبل الفكرة المراد بثها تماماً كما يحدث بين محطه الإرسال وجهاز الاستقبال التليفزيونى. وفى حالة السحر فإن الساحر بقوة الشخصية التى يملكها وبالألفاظ التى يتمتم بها وببعض التمارين التى يتدرب عليها فإنه يزيد من قوة البث الخاص به فيستطيع السيطرة على المشاهدين وعلى أفكارهم فيجعلهم يرون الحبال والعصى وقد انقلبت إلى ثعابين وحيات تسعى على الأرض وتتلوى وفى الحقيقة هى لاتزال حبالا وعصيا كما هى ملقاة على الأرض لاحراك لها. وهنا قد يتساءل البعض: وماذا عن الإحساس البصرى الواصل للعين من الحبال والعصى وهى لم تتغير. والجواب هو أن الجهاز العصبى به خلايا تسمى بالخلايا البوابية Gate Cells تسمح بمرور تيار واحد من الإحساس ولا تسمح بمرور تيارين فى آن واحد. والساحر يسيطر على هذه الخلايا البوابية الموجودة فى العصب البصرى بحيث تسمح بمرور الصورة التى بثها وهى أن الحبال أصبحت ثعابين تتلوى فيتوقف مرور الإحساس القادم من العين التى ترى الأشياء على حقيقتها.







شكل ٢٢٣ – محاولة لتفسير ظاهرة السحر.

وهذه الحقيقة قررها القرآن الكريم فى قوله تعالى:

«فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم». (١١٦-الاعراف)

وسبق أن قلنا إن موسى عليه السلام نفسه وقع تحت تأثير السحر ورأى الحبال والعصى وقد تحولت إلى ثعابين وحيات وكانت هذه مفاجأة له. عبّر عنها بالفاء فى كلمة **«فإذا حبالهم»** وفى **«فأوجس فى نفسه خيفة موسى»**.. وأصلها خوفا أو خَوْفَةً ثم قلبت الواو ياء لكسر ما قبلها فصارت خيفة. وقالوا فيها تعبير عن عظم الخوف كما فى قوله تعالى: **«ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»**. المهم أن الله سبحانه وتعالى طمأنه قائلا:

«قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى». (٦٨ - طه)

وقال لهم موسى إن ما قمتم به ما هو إلا نوع من السحر ولكن الله سيبطله وسيمحقه. لأن فيه مفسدة والله لا يصلح عمل المفسدين.

«فلما ألقوا قال موسى: ما جئتم به السحر إن الله سيبطله. إن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويُحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون». (٨١ - ٨٢ - يونس)

وهنا يتبدّى لنا معنى قوله تعالى: **«إننى معكما أسمع وأرى»**. ذلك أن الله كان يشد أزر نبيه ويلهمه ما يفعل خطوة بخطوة وهذا هو معنى المعيّة **«معكما»**.

«وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون. فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين». (١١٧ - ١١٩ - الأعراف)

«وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا. إنما صنعوا كيد ساحر. ولا يفلح الساحر حيث أتى». (٦٩ - طه)

أُمِرَ فى الآية الأولى بإلقاء العصا وأُمِرَ فى الآية الثانية بإلقاء ما فى يمينه وهى العصا، قيل للتذكير بما حدث يوم التكليم إذ قيل له **«وما تلك بيمينك»**. فإن استحضار ذلك فى الذهن أدعى إلى الطمأنينة وإزالة الخوف. وأخبره الله أن ما صنعه السحرة هو سحر ولايستطيع السحر أن يقف أمام المعجزة الإلهية. ولايفلح الساحر إذا أتى فعله وكيده مناجزة لرسول مؤيد بمعجزة من ربه.

وامتثل موسى لأمر ربه وألقى عصاه. وما حدث كان أمرا لم يكن أحد ليتوقعه. فالكل كان ينتظر تنافسا فى حجم الحيات مثلا. أو فى سرعة أدائها لحركاتها الثعبانية أو ألوانها. هذا كل ما كان يدور بخلد الناس جميعا. بل إن بعض هذا دار بخلد موسى نفسه فأوجس فى نفسه خيفة لما رأى عصى السحرة وحبالهم تبدو كأنها ثعابين وحيات ولكنه كان يعرف أن عصاه تتحول إلى حيّة حقيقية بقدرة الله عز وجل وكان فى شوق إلى معرفة كيف سيجعل الله المشاهدين يدركون الفرق بين الاثنتين. وكانت المفاجأة للناس ولعلها كانت له أيضا. إذ رأى

ثعبانه يلتقط ويبتلع ثعابين السحرة.

وظهر الحق، وزهق الباطل، وبطل ما عملوا، وغُلبوا. وانقلبوا أذلاء صاغرين، وخيم الوجوم على الحاضرين، لقد انهزم الفرعون وسحرته أمام موسى وهارون!!

كان أكثر الناس إحساسا بالمعجزة هم السحرة أنفسهم فطوال عملهم بالسحر لم يروا شيئا مثل هذا. وليس في كتبهم أن شيئا كهذا يمكن أن يحدث، لذلك تأكدوا أن ما حدث هو معجزة من رب موسى وهارون، وبهرهم الحق فلم يملكوا أنفسهم إلا وقد ارتموا على الأرض ساجدين لرب موسى وهارون، قيل إن موسى وهارون سجدا لله شكرا على ظهور الحق وسجد السحرة اقتداء بهم وإعلانا عن إيمانهم برب موسى وهارون.

«فإذا هي تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، فغُلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، وألقى السحرة ساجدين. قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون». (١١٨-١٢٢-الأعراف)

«فألقى السحرة سُجَّداً، قالوا، آمنا برب هارون وموسى». (٧٠-طه)

«فألقى السحرة ساجدين، قالوا آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون».

(٤٦ - ٤٨ - الشعراء)

واستشاط فرعون غضبا. فالسحرة الذين أحضرهم ليدعموا موقفه إذا بهم يكونون أول المؤمنين بموسى وهارون، وكيف؟. لقد أعلنوا إيمانهم على مشهد من الناس جميعا. وبطريقة لا تحتمل الشك، إذ هم سجدوا. وقالوها بملء أفواههم وعلى مسمع من الملأ كلهم **«آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون».**

وتهامس بعض المصريين فيما بينهم، لقد وضح الحق، قال بعضهم: هيا نتبع موسى وهارون ونؤمن بربهما. وسرت الهمسات حتى وصلت إلى أسماع فرعون، لقد أوشك الأمر أن يفلت من يده، فالتفت إلى وزرائه ومستشاريه علهم يشيرون بمخرج من هذا المأزق غير المتوقع. وكان عند مدير الشرطة الحل، فما أسهل قلب الأوضاع وإلصاق تهمة التآمر على نظام الحكم والزعم باكتشاف مؤامرة، هذه أمور يجيدها رجال الشرطة - وفي عصرنا الحالي رجال المخابرات - وكانت خطتهم التي أسروا لفرعون بها هي أن يقلبوا حقيقة مادار في اللقاء بين موسى وكبار السحرة عشية يوم الزينة، فيصوروا الأمر على أن موسى قد استمال السحرة ومنَّاهم بالخير الكثير إذا عملوا على أن يتخاذلوا عامدين ليظهر موسى بمظهر المنتصر.. وفرح فرعون بهذا التدبير ووقف ونادى بأعلى صوته: كيف تؤمنون بموسى قبل أن آذن لكم، لقد اتفقتم معه وتآمرتم وتعمدتم أن تخسروا حتى يستطيع موسى أن يخرج ببني إسرائيل من مصر، ومرة ثانية وصف بني إسرائيل بأنهم أهل مصر.

«قال فرعون: آمنتم به قبل أن آذن لكم. إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون». (١٢٣ - الأعراف)

وراح أعوانه يوهمون الناس بمؤامرة مزعومة وصفقة تمت بين موسى وكبير السحرة. وأن كبير السحرة الذى علمهم السحر كان هو السبب الذى جعلهم يتخاذلون فلم يظهروا أقصى ماعندهم من السحر ولذلك ظهر كأن موسى هو الذى فاز.

«قال آمنتم له قبل أن آذن لكم. إنه لكبيركم الذى علمكم السحر». (٧١-طه)

يرى الألوسى (تفسيره، جـ ١٦ ص ٢٣١) أن الضمير فى **«إنه لكبيركم»** عائد الى موسى ومعناه أن موسى عليه السلام هو عظيمكم فى فنكم وأعلمكم به وأستاذكم. بهذا أيضا يقول ابن كثير (تفسيره . جـ ٣ ص ١٥٨) فيقول: أى أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى واتفقتم أنتم وإياه علىَّ وعلى رعيتى لتظهروه الفائز. وهذا التفسير غير مقنع. إذ أن موسى كان غائبا عن مصر عشرة أعوام فى أرض مدين فمتى قام بتعليم السحر للسحرة؟ وهل كان فرعون يتركه يجوب البلاد من أقصاها لأقصاها يعلم المصريين السحر دون القبض عليه لتسببه فى وفاة المصرى؟ كذلك فمن المعروف أن السحر نشأ فى مصر القديمة منذ عصر الأسرات الأولى أو قبلها. ولم يكن القيام به من شأن الأفراد العاديين بل كان حكرا على الكهنة فأنى يكون موسى هو كبيرهم الذى علمهم السحر؟ وهل كان يعلمهم السحر ليتحدوه فيما بعد؟ فضلا عن أن موسى لم يكن يعرف السحر وما جاء به كان معجزة من ربه. لذلك فإن الضمير فى «**إنه لكبيركم الذى علمكم السحر**» راجع إلى كبير السحرة. والمعنى مرتبط بالإتهام بوجود مؤامرة فمعناه: إنه لمكر مكرتموه فى المدينة. وإن كبيركم الذى علمكم السحر هو المدبِّر لهذا المكر وهذه المؤامرة حين التقى موسى عشية يوم الزينة. وصدّق المصريون هذا الزعم. فأهل مصر، كما قال فيهم أمير الشعراء شوقى : ياله من شعب عقله فى أذنيه!

وخرج فرعون من المأزق. وتحلَّل من وعده لموسى بأن يرسل معه بنى إسرائيل. ولكنه لم يجرؤ أن يسجن موسى كما كان يهدد من قبل. إذ هو فى قرارة نفسه علم أن موسى ليس بساحر. وأن له ربا قادرا على إتيان معجزات. ولعله خشى إن أوقع به أذى أن ينتقم منه رب موسى بطريقة ما . لذلك فإنه اتجه بانتقامه إلى السحرة. فراح يهددهم ويتوعدهم بالعذاب:

«فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى». (٧١ - طه)

لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين». (١٢٤ - الأعراف)

«لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين». (٤٩ - الشعراء)

كان فى نية فرعون أول الأمر أن يعذبهم بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ظنا أن يقاعهم

أحياء مع تشويههم يكون رادعا لغيرهم. ولكنه خشى أنهم بصبرهم على ما ينزله بهم من عذاب – يصبحون مثالا لقوة الإيمان وتنتقل عدوى الإيمان منهم إلى غيرهم فآثر اللجوء إلى التهديد بالقتل صلبا فى جذوع النخل.

ولكنهم لم يأبهوا بهذا التهديد وقالوا لن نختارك ونفضلك على ما جاءنا من آيات ومعجزات بينة واضحة ولن نفضلك على الله الذى خلقنا وأوجدنا وفطرنا. وفى هذا القول تعريض بالألوهية التى كان الفرعون يدّعيها. وقالوا له إذا كنت جعلت نفسك قاضيا علينا وتحكم بما تريد فاقض بما تراه واحكم بما تهواه فى هذه الدنيا. وفى هذا تهوين من أمر هذه الدنيا الفانية وتذكير بأن هناك حياة آخرة سيأخذ العدل فيها مجراه. وقالوا إنهم آمنوا بالله ليغفر لهم ذنوبهم وليغفر لهم خطيئتهم التى أكرههم عليها فرعون وهى اتهام موسى بالسحر وتحديهم له. فهم يطلبون المغفرة من الله لأنه خير وأبقى. خير ثوابا وخير عقبى. ثم أرادوا توضيح الأمر أكثر فقالوا أو أن هذا كان تعبيرا عن القاعدة الشرعية التى تحكم مثل هذا الموقف: إن من يأت ربه مخطئا ومجرما ومات على الكفر والعصيان فإن جزاءه جهنم خالدا فيها أبداً. لايموت فيستريح من العذاب. وما حياته فى العذاب بحياة. وأما من يموت مؤمنا ويقابل ربه وقد عمل صالحا فى دنياه فله ولمثله درجات عالية عند ربهم إذ سيكون ثوابهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها فى نعيم مقيم وذلك جزاء من تطهّر من الكفر والمعاصى وتزكى بالأعمال الصالحة.

«قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى. إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى. ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى. جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى». (٧٢–٧٦–طه)

ولعلهم بمقالتهم هذه كانوا يقصدون إشعاره بوجود إله عادل سيحاسبه على فعله بهم. كما أنهم أرادوا التهوين من قدرته عليهم فى هذه الدنيا بما له فيها من مُلك وسطوة وسيكون لهم فى الآخرة جنات خير من قصوره وجناته.

وبدأ زبانية فرعون فى تنفيذ وعيده بصلبهم فى جذوع النخل فقال السحرة لفرعون نحن نعلم أن الموت ينتظرنا ولكننا سندخل فى رحمة الله وثوابه وأنت تكره منا أن آمنا بآيات ربنا لما أدركنا أنها ليست سحرا بل هى معجزات من الله. ثم توجهوا إلى الله سبحانه وتعالى فى دعاء أخير قبل صلبهم سائلين الله أن يغمرهم بالصبر على ما يتوعدهم به فرعون من عذاب وأن يجعلهم يثبتون على الإسلام – كمؤمنين برب موسى وهارون – حتى يتوفاهم عليه:

«قالوا إنا إلى ربنا منقلبون، وماتنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا، ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين». (١٢٥ - ١٢٦ - الأعراف)

وقالوا لفرعون إنه لايضرنا ولا نبالى بما تفعله بنا من صلب وأننا مقتولون فسنرجع إلى الله ويجزينا خير الجزاء ونطمع أن يغفر لنا جميع خطايانا بسبب أننا بادرنا إلى الإيمان وكنا أول من آمن.

«قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين». (٥٠ - ٥١ - الشعراء)

وظل فرعون وقومه على تكذيبهم لموسى وظلوا يقولون على الآيات الواضحة التى جاءهم بها ويصفونها بأنها سحر. ليس سحرا عاديا. بل سحر مفترى، مختلق. فهو نوع من السحر لم يفعله أحد قبله وكذلك ما يدَّعيه من نبوة . فنحن لم نسمع بشىء من هذا ولم يحدِّثنا به آباؤنا ولا أجدادنا. ورد عليهم موسى قائلا بأن الله يعلم من جاء بالهدى من عند الله - وهو يقصد نفسه - ومن ستكون له العاقبة المحمودة فى هذه الدنيا. أما الظالمون فلن يفلحوا ولن يفوزوا.

«فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين. وقال موسى: ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار. إنه لايفلح الظالمون». (٣٦ - ٣٧ - القصص)

وخافت حاشية فرعون أن يزداد عدد المؤمنين فراحوا يحرضونه على موسى وقالوا له: هل تترك موسى وبنى إسرائيل يدَّعون أن إلههم هو رب الكون وينتقصون من قدرتك وقدرة آلهتك فيتجرأ الناس عليك ويستهينوا بك. فقال لهم فرعون سنظل على ما نحن عليه من تقتيل أبنائهم الذكور واستحياء البنات. وسنزيد تعذيبهم وتسخيرهم فى أعمالنا وسنظل فوقهم. غالبين عليهم فلا يضروننا بشىء.

«وقال الملأ من قوم فرعون . أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك. قال سنُقتِّل أبناءهم ونستحيى نساءهم . وإنا فوقهم قاهرون»

(١٢٧ - الأعراف)

بنو إسرائيل بعد يوم الزينة:

وأمر فرعون بزيادة جرعة التعذيب الذى كان قواده ومساعدوه ينزلونه ببنى إسرائيل. وزاد جنوده فى قتل المواليد من بنى إسرائيل للعمل على استئصال شأفتهم. وزادوا من ضربهم بالسياط وقال فرعون لشعبه: إننا فوقهم قاهرون وغالبون كما كنا. ولن يفّت ما حدث يوم الزينة فى عضدنا.

علم موسى عليه السلام بما أمر به فرعون من زيادة التعذيب فقال لقومه يحثهم على الصبر:

«وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا. إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين». (١٢٨ – الأعراف)

وراح يزرع فى قلوبهم الأمل فى الخلاص من فرعون وأنهم سيرثون الأرض الموعودة «أرض كنعان». بشرط أن يكونوا من المتقين لأن العاقبة هى للمتقين. وفى هذا حث على الصبر وعدم التذمر وحث على التقوى.

وكان رد بنى إسرائيل على موسى أن قالوا له أنهم قد أوذوا واستُعبِدوا من قبل ولادته وكان الذبح فى أبنائهم تحرزا من مجيئه لأن النبوءة كانت تقول إن مولودا هو أنت – سيكون هلاك فرعون وخلاصنا على يديه. وها أنت قد جئتنا. فلم يهلك فرعون ولم يتم خلاصنا من العذاب والتسخير بل لعله قد زاد. وهو استبطاء منهم لما وعدتهم النبوءة ووعدهم هو عليه السلام بالنجاة والظفر والخروج إلى أرض كنعان. فقال لهم موسى لعل الله أن يهلك عدوكم فرعون ويورثكم الأرض. ومع أن موسى عليه السلام كان يعلم أن ذلك سيحدث ومجزوم به بوحى وإعلام من الله سبحانه وتعالى له إلا أنه وضع الأمر فى صيغة الرجاء فقال **«عسى»** تأدبا مع الله تعالى ولعدم تأكده من وقت وقوعه. أيكون فى جيل هؤلاء أم الأجيال التى تأتى بعدهم. وأخبرهم أنه عندما يتحقق وعد الله سيكون هذا اختبارا لهم ليرى الله كيف يعملون: هل يعملون حسنا فيثيبهم أم قبيحا فيجازيهم. ولعل فى هذا أيضا معنى بعدم استعجال الأمر وترك الأمر كله لمشيئة الله سبحانه وتعالى:

«قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا. قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون». (١٢٩ –الأعراف)

عند وقوع معجزة يوم الزينة وآمن السحرة بموسى ونالهم من عذاب فرعون ما نالهم – لم يؤمن كل بنى إسرائيل بموسى. ولكن بعضاً فقط من قومه هم الذين آمنوا به سرا وخوفا من أن يعلم فرعون بأمرهم. أو يشى بهم الوشاة. فيزيد من تعذيبهم ليرجعوا عن إيمانهم ويفتنهم. وكان الشبان والصغار هم الذين آمنوا. ولذلك وصفوا بأنهم **«ذرية من قومه»** أما الكبار والمسنون فقد خافوا من فرعون. إذ كانوا يعرفون مقدار قسوته وجبروته. وأنه حاكم أوحد فى أرض مصر لا أحد يرد له أمرا. ومن يعصاه أو يخالفه يسرف فى تعذيبه.

«فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم. وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين». (٨٣ – يونس)

ولما رأى موسى تخوف بنى إسرائيل قال يشد من أزرهم ويقوى عزيمتهم: إن كنتم صدقتم بى وآمنتم بالله فاعتمدوا على الله وتوكلوا عليه إن كنتم آمنتم به حقا وأسلمتم أمركم إليه.

فأجابوا موسى قائلين بأنهم متوكلون على الله، ودعوا الله ألاّ يجعل قوم فرعون - الظالمين - يفتنونهم بالعذاب عن دينهم ودعوا الله أن ينجيهم من هؤلاء القوم الكافرين.

«وقال موسى: ياقوم، إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين. فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين». (٨٤-٨٦-يونس)

وكان لابد من تقوية إيمان هؤلاء النفر من بنى إسرائيل الذين آمنوا بموسى إذ أن طول إقامتهم فى مصر ومخالطتهم للمصريين قد أضعفت من عقيدتهم وقد سبق أن ذكرنا (ص ٨٤٣) أن ثانى المهام التى كلف بها موسى عليه السلام هو تجديد إيمان بنى إسرائيل:

«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله. إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور». (٥ - إبراهيم)

يخرجهم من ظلمات الجهالة والوثنية إلى نور الوحدانية، ومن ظلمات الاستبعاد إلى نور الحرية. لذلك أوحى الله إلى موسى وهارون أن يختارا بعض البيوت من بيوت بنى إسرائيل فى مصر ويخصصانها للعبادة فتكون فيها الصلاة، ويجعلوا لها قبلة. قال بعض المفسرين أى يتوجهوا نحو الكعبة، وذلك مردود عليه فى الحديث الصحيح من أن اليهود تستقبل الصخرة (تفسير الألوسى، جـ ١١ ص ١٧١). قيل إنهم أمروا أولا أن تكون هذه البيوت دورا للعبادة، يجتمعون فيها للصلاة ويعلمهم موسى أمور دينهم فلمّا خافوا افتضاح أمرهم بواسطة أعوان فرعون أمروا أن يصلوا فى بيوتهم (تفسير ابن كثير، جـ ٢ ص ٤٢٨).

وأمروا بالصلاة للاستعانة بها على كيد فرعون وقومه، وكلما ضيق عليهم فرعون أكثروا من الصلاة، تمشيا مع قوله تعالى: **واستعينوا بالصبر والصلاة** وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى، ومن هنا كان الأمر «**وأقيموا الصلاة**». ثم أمر موسى بأن يزجى لهم البشرى ويبشرهم، ولم يوضح مضمون البشرى، ليكون أعم فى الدلالة، إذ يشمل كل ما يدور بخلدهم! فى الدنيا: النصر على فرعون وهلاكه والخروج من مصر وانتهاء العبودية وفى الآخرة الجنة.

«وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا، واجعلوا بيوتكم قبلة، وأقيموا الصلاة، وبشر المؤمنين». (٨٧ - يونس)

كانت مهمة موسى عليه السلام مهمة شاقة، فهو مطالب بأن يبنى شعبا من جديد، من قوم شربوا كؤوس الذل حتى استمرأوا مذاقه، واستكانوا دهرا طويلا للعبودية، والذل يفسد الطبيعة البشرية ويقتل فيها روح المقاومة والنضال ويجعلها تستسلم للأمر الواقع، فكان عليه أن يبدأ من الصفر، بل بما دون الصفر، فإن عقيدة القوم قد انحرفت وتشوهت صورتها فى قلوبهم فكان عليه أن ينزع الصورة القديمة وما علق بالنفوس من وثنية المصريين ليحل محلها

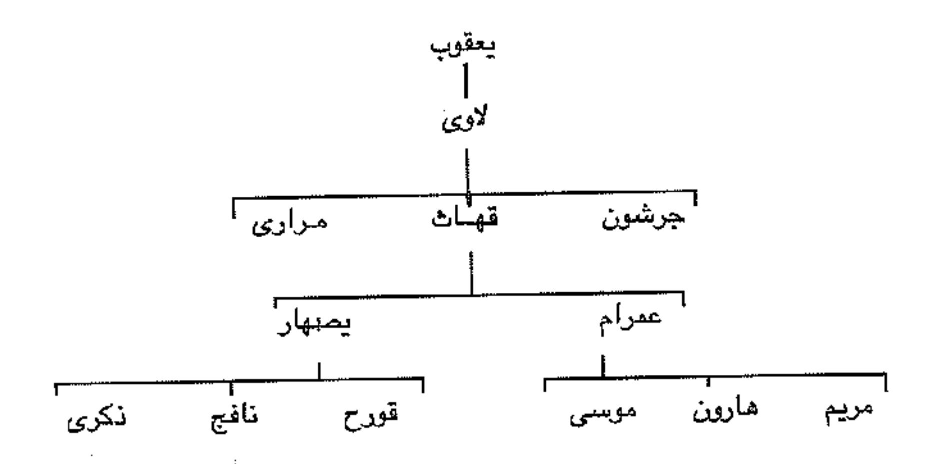
إيمان خالص بالله الواحد الأحد. فيخلق من بنى إسرائيل شعبا يقوده إلى «الأرض الموعودة» ليقيم دولة له هناك. وهكذا بدأ موسى وهارون فى تربية النفوس - وبدأت دعوة الإيمان الحق تنتشر ببطء فى جموع بنى إسرائيل.

وكانت عيون فرعون ترصد ذلك. ليس هناك من شيء يؤخذ على موسى بحيث يمكن أن يضعه فى السجن بسببه. فقد انكفأ على بنى إسرائيل يقوى إيمانهم ويحثهم على الصبر على ما ينزله بهم فرعون من تعذيب وتسخير ويزرع فى نفوسهم الأمل بأن فرج الله آت لامحالة.

وأدرك فرعون مخاطر التفاف جموع بنى إسرائيل خلف موسى وهارون. وكان فى جعبته خطة لتفتيت وحدة بنى إسرائيل. وكان «**قارون**» «هو وسيلته لهذا الهدف وأراد فرعون أن يجعل منه «**زعيماً**» لبنى إسرائيل ليصرفهم عن الالتفاف حول موسى.

قــارون :

«إن قارون كان من قوم موسى» . (٧٦ - القصص)



على قول ابن إسحق هو عم موسى وقال الأعمش وغيره: ابن عمه. ولم تشر التوراة إلى قارون إطلاقا مع أنها ذكرت قورح الذى ثار على قيادة موسى لبنى إسرائيل فى سيناء وانضم إليه ٢٥٠ شخصا من بنى إسرائيل واتهموا موسى وهارون بأنهما يترأسان بنى إسرائيل جورا وبدون وجه حق فكان مصيرهم: (إصحاح ١٦ عدد: ٢١) انشقت الأرض التى تحتهم وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل ما كان لقورح مع كل الأموال. وخرجت نار من عند الرب وأكلت الـ ٢٥٠ رجلا وهو ما سنشرحه فيما بعد بالتفصيل (ص ١٠٥٤). المهم أن هذا

المصير – وهو نفس المصير الذى لاقاه قارون كما جاء فى القرآن الكريم: «**فخسفنا به وبداره الأرض**» – جعل أهل الكتاب يقولون إن قارون هو قورح وللأسف فإن بعض المفسرين الإسلاميين نقلوا عنهم هذا القول فقد جاء فى تفسير القرطبى (تفسير الآية ٧٦ سورة القصص): قال النخعى وقتادة وغيرهما: كان ابن عم موسى، وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وموسى بن عمران بن قاهث. وتلقف المستشرقون المنكرون لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم. هذا القول وراحوا يقولون إن محمداً سمع قورح فعرّبها إلى قارون ثم نسج حوله قصة ثرائه وكنوزه ولكنه استبقى المصير الذى لقيه قورح وهو خسف الأرض به وبداره. وهذا افتراء على الله وعلى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم. وجاء القرآن الكريم ليظهر الحقيقة التى طمسها كتاب التوراة عند إعادة كتابتها فى المنفى فحذفوا منها كل ما يتعلق بقارون. ذلك أنهم اعتبروا أن قارون كان نقطة سوداء فى تاريخ بنى إسرائيل. إذ هو من شيوخ بنى إسرائيل وهو عم موسى عليه السلام، ولكنه كان ممالئا لفرعون، بل كان سوط عذاب لفرعون على بنى إسرائيل وجمع ثروته من عرقهم. ومن هنا كان عدم إيمانه بموسى، وكفر بأنعم الله عليه وقال عن ثروته «**إنما أوتيته على علم عندى**». فكان أن خسف الله الأرض به وبداره – وما كان فيها من كنوز وكانت داره فى مصر فى منطقة الفيوم – وارتأى كتاب التوراة أن شخصيه مثل هذه لايجب أن تذكرها الأجيال القادمة فحذفوها. أما قورح – الذى كانت ثورته على موسى فى سيناء، وجمع حوله ٢٥٠ من بنى إسرائيل واعترضوا على ترأس موسى للشعب. فإنهم حرصوا على إثبات قصته تغليظا لمصير أولئك الذين تجرّأوا على نبيهم وكان مصيره خسف الأرض به وناراً أحرقت المتضامنين معه.

اسم قارون ؟

يقرر القرآن الكريم «**إن قارون كان من قوم موسى**»، ولو استعرضنا أسماء أولاد وأحفاد لاوى (موسى من سبط لاوى) لانجد بينهم من تسمى باسم قارون، **وفى رأينا أن «قارون»** هو نفسه «**يصهار**» عم موسى، وقد يقول القارىء شتان بين اسم يصهار وبين اسم قارون، ولكن أحيل القارىء إلى ما سبق كتابته فى الجزء الأول ص ٤٨ عن اسم إدريس عليه السلام كما ذكر فى القرآن الكريم واسمه فى التوارة أخنوخ، وضربنا مثالا بمدرسة البونپاستير التى تعرب إلى الراعى الصالح، والسكركير تعرب إلى القلب المقدس.

والدليل على أن يصهار عم موسى هو نفسه قارون الآتى:

١ – جاء فى قاموس الكتاب المقدس (ص ١٠٧٢): يصهار اسم عبرى معناه يضىء أو يشرق.

٢ – جاء فى تفسير القرطبى إن قارون كانت كنيته فى قومه «المنوِّر» لوضاءته وجماله.

٣ – الجذر العبرى «قَرَنْ» معناه أنار وأضاء وأشع. واشتقاقا منه: قارون.. بمعنى الأنور المنوّر (الأستاذ رؤوف أبو سعدة. من إعجاز القرآن. جـ٢ ص ٧١).

من هذا يتضح أن «قارون» الذى أخبر عنه القرآن الكريم هو يصهار عم موسى الذى ورد اسمه فى التوارة. زيادة على ذلك فإن اسم «قارون» يحمل معنى آخر. ذلك أن الفعل «يَقَرّ» العبرى هو الفعل «وقر» العربى وكلاهما يفيد معانى الثقل والعظمة والمال. فالوِقر يعنى الحمل الثقيل والوقار من معانيه العظمة. وحينما اشتق القرآن الكريم من يقرون اسم قارون لم يبعد كثيرا عن قواعد اللغة العبرية حيث يُشتق من يشرون اسم شارون. من هذا نرى أن اختيار اسم قارون كان إعجازا لفظيا من القرآن الكريم. إذ يتمشى مع قواعد اللغة العبرية – وفى نفس الوقت يعنى المنير وهو نفس معنى اسم يصهار – كما أنه يتضمن معنى الحمل الثقيل وفيه إشارة إلى كنوزه التى كانت مفاتيحها من الثقل بحيث يعجز عن حملها الرجال الأشداء.

«وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة». (٧٦–القصص)

كما أن يصهار – الذى هو قارون – هو والد قورح الذى ثار على موسى فى سيناء ولعل ما حدث من خسف أموال قارون كان له أثر عميق فى نفس قورح إذ فقد المال الذى كان يمنى نفسه بالتمتع به بعد أن يؤول إليه. ولكن هاهى آماله قد ضاعت. وحملها فى نفسه. وخرج من مصر مع موسى إذ لم يعد هناك من شىء يربطه بمصر إلا الأسف على هذه الثروة الضائعة. ونفّس عما فى دخيلته فيما بعد بالثورة على موسى وهارون. وكان مصيره أن خسف الله به الأرض هو الآخر فى سيناء كما خُسفت الأرض بأبيه من قبل فى مصر.

قصة قارون :

كان «يصهار» أى قارون، أحد شيوخ بنى إسرائيل وكان مواليا لفرعون فجعله رئيس سخرتهم. ولعله كان يقتطع لنفسه جزءا من أجورهم كما كان يفعل «الخولى» من اقتطاع جزء من أجر الفلاحين الذين يعملون فى عزبة الباشا. وزادت ثروة قارون وأراد أن يبنى لنفسه قصرا. ولم يشأ الفرعون أن يكون قصره بجوار القصر الملكى. كما أن قارون لم يشأ أن يكون قصره بجوار أرض جاسان – حيث يسكن بنو إسرائيل – إذ يرون مدى تعاونه مع المصريين. ويقارنون بين ثرائه الذى يزداد يوما بعد يوم – وفقرهم الذى يزيد هو الآخر يوما بعد يوم «والبؤس الذى يرزحون تحت وطأته والتسخير والتعذيب الذى ينزل بهم كل يوم لذلك فإن فرعون أقطعه أرضا فى الفيوم فبنى على شاطىء البحيرة قصرا فخما.

قلنا إن فرعون كان يريد استغلال قارون لتفتيت وحدة بنى إسرائيل وصرفهم عن موسى. وبدأ قارون يستقطب نفرا من بنى إسرائيل يتركون أرض جاسان ويأتون إلى منطقة الفيوم

يعملون فى أرضه. وكان قارون حسن الطلعة وقد سبق أن قلنا إن كنيته كانت «المنير». تطبع بطباع المصريين وعاداتهم وكانت له العربات والجياد، ولم يعد يتمسك بعبادة التوحيد التى كان عليها جده يعقوب عليه السلام بل لعله أصبح ينظر إليها على أنها عبادة المستذلين الضعفاء. واستهوته معابد المصريين وفخامتها وأثرت فى نفسه الطقوس التى كان الكهنة يقومون بها ويحضرها مع فرعون.

وعلم موسى بما صار إليه حال قارون فأرسل بعضا من شيوخ بنى إسرائيل. وقال له العقلاء من قومه: لا تفرح بما أنت فيه ولا تتكبر على الناس فإن الله لايحب الذين يفرحون بالدنيا وينسون الآخرة. وإذا كان الله قد أعطاك مالا وجاها فاجعلهما وسيلة لتحقيق ثواب الله فى الدار الآخرة. وخذ من الدنيا بنصيب يحقق لك الحياة والسعادة ولكن لا تكن الدنيا هى كل همك وتنسى الآخرة. وكما أحسن الله إليك بأن هيأ لك أسباب الثروة والوجاهة فأحسن إلى عباد الله ولا تطغَ ولا تمشِ فى الأرض فسادا وإفسادا فإن الله لا يحب المفسدين وذكروه بأن ذلك كله من فضل الله عليه.

«إذ قال له قومه لاتفرح إن الله لايحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة. ولا تنس نصيبك من الدنيا. وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض. إن الله لايحب المفسدين». (٧٦ - ٧٧ - القصص)

ولكنه قال لهم إنه قد حقق هذه الثروة بمجهوده وعلمه وعمله.

«قال أنما أوتيته على علم عندى». (٧٨ - القصص)

ومن الموضوعات والخرافات فى هذا الشأن ما قالوه من أنه حقق ثروته من علم الكيمياء. وينفى ابن كثير الزعم بتحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة فيقول إن قلب الأعيان لا يقدر عليها أحد إلا الله عزَّ وجل ولا يتم إلاَّ بمشيئته كمعجزة يجريها على يد بعض أوليائه. (تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣٩٩). وجاء فى تفسير الألوسى (جـ٢٠ ص ١١٣) قيل إنه كون ثروته عن طريق علم الكيمياء. وكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهبا!

ولا يخفى أثر الخيال فى وضع مثل هذه الأقوال.

وقال له الناصحون - ممن هم على علم بأحوال الأمم السالفة - إن الله أهلك مِنْ أهل القرون السابقة مَنْ كان أشد منه قوة وجمع من الأموال أكثر مما جمعه. وفى الآخرة لن يُسأل المجرمون عن ذنوبهم وهل ارتكبوا ذنوبا أم لا. بل ستكون ذنوبهم واضحة أمامهم فى كتابهم.

«أوَ لم يعلم أن الله قد أهلك مِن قبله من القرون مَن هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولايُسئل عن ذنوبهم المجرمون». (٧٨ - القصص)

قالوا (تفسير الألوسى جـ ٢٠ ص ١٢٢) إن موسى عليه السلام بعد أن فرض الصلاة على بنى إسرائيل فرض أيضا عليهم الزكاة وأرسل إلى قارون ليخرج زكاة ماله فأبى وقال لبنى إسرائيل الملتفين حوله: إن موسى يريد أن يأكل أموالكم. قالوا: فماذا ترى؟ فقال قارون: أن أرسل بغيا من البغايا إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها. فأرسلوا إليها وأعطوها مالاً على أن تقول ذلك ثم إن قارون جاء إلى موسى وقال له اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك قال نعم فجمعهم وقال لهم: أمرنى ربى أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا. وقد أمرنى فى الزانى إذا زنى وقد أحصن أن يرجم. قالوا: وإن كنت أنت. قال: نعم قالوا فإنك قد زنيت. وأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى عليه السلام: أنشدك بالله تعالى إلاّ ما صدقت. فقالت أما إذ أنشدتنى بالله تعالى فإنهم دعونى وجعلوا لى جعلا على أن أقذفك بنفسى وأنا أشهد الله أنك برىء وأنك رسول الله. فخر موسى عليه السلام ساجداً شكرا لله تعالى.

وقد يكون ذلك هو مقصود الآية الكريمة:

«يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها». (٦٩-الأحزاب)

ولو أن المشهور فى كتب التفسير (الألوسى وابن كثير) أن المقصود بهذه الآية شىء آخر. أخرج الإمام أحمد عن طريق أبى هريرة (مختصر صحيح مسلم ص ٤٢٦) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن موسى عليه السلام كان رجلا حيياً ستيرا. لايرى من جلده شىء استحياء منه. فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل وقالوا: ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة (انتفاخ الخصية بسائل فيها) وإما آفة. وأن الله تعالى أراد أن يبرئه مما قالوا وأن موسى عليه السلام خلا يوما وحده. فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وأن الحجر غدا بثوبه فأخذ موسى عليه السلام عصاه وطلب الحجر. فجعل يقول ثوبى حجر، ثوبى حجر! حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله تعالى. وبرأه الله مما يقولون. ثم أخذ ثوبه فلبسه. وقالوا أيضا فى تفسير هذا الإيذاء قولا آخر يتعلق بوفاة هارون أخيه سنذكره فيما بعد (ص ١٠٨٧).

نعود إلى قارون الذى ظن أنه كلما أظهر ثراءه وكثرة ماله سيكون ذلك رافعا لقدره فى بنى إسرائيل فيلتفوا حوله ويتركوا موسى. وخرج قارون على قومه فى أبهى زينته. وهنا مجال للمبالغات والخيال. فقالوا خرج هو وحشمه على أربعة آلاف دابة عليهم ثياب حمر. منها ألف بغلة بيضاء. وقالوا خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف خادم عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر وعلى يمينه ثلاثمائة غلام وعلى يساره ثلاثمائة جارية بيض عليهن الحلى. وقيل غير ذلك من أقوال لا يخفى زيفها.

قال بعض من رأوه وكانت تستهويهم الحياة الدنيا – قالوا ياليت لنا مالاً مثل ما أوتى قارون. إنه على درجة كبيرة من الدنيا والحظ السعيد. أما المؤمنون الذين آتاهم الله العلم ويؤمنون بالآخرة فقد قالوا: ويلكم! ثواب الله في الآخرة خير للمؤمنين ولمن يعملون الصالحات فلا يليق بكم أن تتمنوا الدنيا وزينتها. ولن ينال الآخرة إلا الذين صبروا على الطاعات وكفوا أنفسهم عن الشهوات.

«فخرج على قومه في زينته. قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذوحظ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون». (٧٩ – القصص)

وكان جزاء قارون على كفره وإنكار أن النعمة هي من فضل الله وراح ينسبها لعلمه ومجهوده. وكذلك بسبب استكباره وإفساده في الأرض بما راح يزهو به من زينة الدنيا فتملؤ الحسرة قلوب الذين لايجدون إلا رزقهم ويسخطون على دنياهم. لكل هذه الأسباب كانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يخسف الأرض به وبداره وما بها من كنوز.

«فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين». (٧٩ – القصص)

وقالوا في سبب الخسف روايات كثيرة. منها (تفسير ابن كثير. جـ ٣ ص ٤٠١) من أن قارون لما خرج في زينته مر على مجلس موسى عليه السلام وهو يعظ بنى إسرائيل فانصرف الناس عنه إلى قارون ينظرون ما هو فيه. فقال له موسى ما حملك على ما صنعت؟ فقال يا موسى لئن كنت فُضِّلت عليَّ بالنبوة فلقد فُضلت عليك بالدنيا ولئن شئت لتخرجن فلتدعُونَّ عليَّ وأدعو عليك. فخرج موسى وخرج قارون وبعض رجاله فدعا قارون فلم يُستجب له. فقال موسى اللهم مر الأرض أن تطيعني اليوم. فأوحى الله إليه أني قد فعلت. فقال موسى: يا أرض خذيهم. فابتلعتهم. فقال بعض نفر من بني إسرائيل فيما بينهم إن موسى إنما دعا على قارون ليستبد بداره وأمواله وكنوزه فدعا موسى حتى خسف الله بداره وأمواله الأرض. وذكرت روايات كثيرة أخرى لاشك أنها من الإسرائيليات فتجاوزنا عنها.

ولم يغن عنه ماله ولا خدمه ولا حشمه ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه. ولم تكن له فئة تنصره وما كان من المنتصرين.

وقال النفر من بني إسرائيل الذين تمنوا أن يكون لهم مثل مال قارون وقالوا «**ياليت لنا مثل ما أوتى قارون**». هؤلاء لما شاهدوا كيف خسف الله به وبداره الأرض علموا أن كثرة المال ليست دليلا على رضا الله عن صاحبه. فإن الله يعطى ويمنع ويوسع ويضيق وله الحكمة التامة في فعله. وفي حديث مرفوع عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب. ولا يعطى الإيمان إلا من يحب. واستكمل هؤلاء النفر من

بنى إسرائيل قائلين: لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا الأرض كما خسف بقارون. وأيقنوا أن الكافرين لا يفلحون.

«وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر . لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون». (٨٢-القصص)

«وى» حرف لإظهار التعجب من حكمة الله تعالى. أو للندم على ما سلف من تمنيهم أن يكون لهم مثل ما أوتى قارون (تفسير الألوسى جـ ٢٠ ص ١٢٤). وعن ابن عباس «ويكأن» حرف واحد بجملته بمعنى ألم تر. وقد تكون تعبيرا عن الندم ولعلها اختصار لكلمة «ويلى» أو «ويحى». وأدمجت فى كأن فصارت ويكأن. ويختم القرآن قصة قارون باستخلاص العبرة المرجوة من سرد القصة فليس الأمر مجرد سرد أحداث تاريخية ولكن العظة هى الهدف ويضع القرآن الكريم قاعدة عامة تربط بين العمل والجزاء:

«تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين. من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون». (٨٣ – ٨٤ – القصص)

الجنة والدار الآخرة يجعلها الله من نصيب الذين لا يريدون غلبة ولا تسلطا ولا تجبرا فى الأرض ولا فسادا. ويندرج تحت هذا كل ما من شأنه تضييع العدل وإشاعة الخوف بين الناس. ومن وسائل هذا التقرب بالزلفى للحكام لتكون لهم سطوة يبطشون بها على غيرهم ويسلبونهم أموالهم وحقوقهم. كذلك يندرج تحته الزهو والافتخار والتكبر على من دونه وتركز الآية فى نهايتها على أن المهم فى كل هذه الأمور هو التقوى وأن العاقبة الحسنة هى المتقين.

والمبدأ الثانى هو أن من فعل حسنة فله خير منها فضلاً من الله وإحسانا. أما من جاءوا بالسيئات فسيكون جزاؤهم من نفس فعلهم.

بحيرة قارون :

هذه البحيرة الموجودة فى منطقة الفيوم طولها من الشرق للغرب ٣٠ كيلو مترا تقريبا. وعرضها حوالى ١٠ كيلومترات (شكل ٢٢٤) وقد يتبادر إلى الذهن أن البحيرة قد وجدت بعد أن خسف الله بقارون وكنوزه الأرض ولما انخفضت الأرض تجمعت فيها المياه وأصبحت بحيرة سميت على اسمه «بحيرة قارون» والحقيقة أن البحيرة كانت موجودة من قديم الأزمنة. كانت فى مبدئها منخفضا يسمى «منخفض اللاهون» وكانت مياه الفيضان تغمره فتحوله إلى بحيرة عظيمة يضيع ماؤها هباء. فعنى فراعنة الأسرة الثانية عشرة بهذا الإقليم وأقاموا جسراً على الفتحة التى تصل وادى النيل بمنخفض اللاهون وبذلك تحولت البحيرة إلى شبه خزان ترد إليه المياه عند ارتفاع النيل بواسطة ترعة (بحر يوسف الآن) وتصرف منه وقت التحاريق لرى الأراضى الزراعية. وانخفض سطح المياة فى المنخفض فتكشفت أراضى من الطمى صالحة

للزراعة وتمت زراعتها. وبالتدريج قل ما يرد إلى البحيرة من الماء فانخفض سطح المياه وأصبحت البحيرة أصغر كثيرا عن ذى قبل. وزادت الأرض الزراعية حولها.

ولعل قارون كان قد تملك مساحة كبيرة من هذه الأراضى الخصبة بجوار البحيرة وبنى قصره هناك ولما خسف الله به وبداره الأرض فإن مكان الخسف امتلا بالمياه وأصبح جزءا من البحيرة وسميت البحيرة كلها على اسمه «بحيرة قارون».

وقد أثبتت الأبحاث الجيولوجية وجود كسور فى طبقات التربة فى هذه المنطقة مما يدل على وجود خسف حدث بها فى قديم الزمن. وخاصة فى الشاطىء الجنوبى للبحيرة إذ يمر بحذائها فالق عظيم يدور حول الطرف الغربى للبحيرة ثم يتجه شمالا - (شكل ٢٢٥).

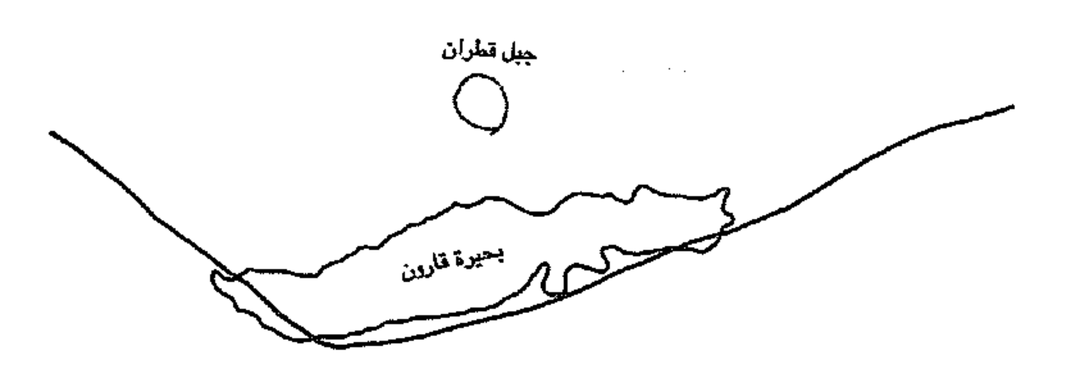
زيادة التسخير والعذاب :

انتهت الفتنة التى تزعمها قارون للنيل من قدر موسى عليه السلام. وتفتيت بنى إسرائيل. ولما خسف الله بقارون وبداره الأرض آمن بموسى من كان قد انضم إلى قارون من بنى إسرائيل. وهجروا أرض الفيوم. وفى أرض جوشن بالشرقية تابع موسى منهجه فى تعليم بنى إسرائيل أصول التوحيد الذى كان عليه الأجداد ويحث بنى إسرائيل على التمسك بأهداب الدين الحنيف. كذلك طلب موسى من فرعون أن يسمح له بأخذ بنى إسرائيل ليذهب بهم مسيرة ثلاثة أيام فى البرية يعبدون الله ويتقربون إليه بالذبائح. ولعل موسى عليه السلام، بطلبه الخروج ببنى إسرائيل ثلاثة أيام فى الصحراء لعبادة الله أراد أن يبعدهم عن مشاغل الدنيا - إذ أن العبادة فى الخلاء - حيث لا شيء غير الرمال الممتدة إلى ما لانهاية والسماء من فوقها - أدعى لأنه تكون خالصة لوجه الله ولعله أيضا أراد أن يهيئهم للمسيرة الطويلة فى الصحراء إلى أرض كنعان. وتدريبهم على مشاقها بعد أن استناموا لرغد العيش فى أرض مصر السهلة وهذا أشبه بما تفعله فرق الكشافة والجوالة فى الشباب من تعويدهم على العيشة الجافة وخشونة الحياة. ورفض فرعون طلب موسى. وعد ذلك تحريضا لبنى إسرائيل للتكاسل عن عملهم الذى سُخِّروا له.

جاء فى التوراة (إصحاح ٥ خروج): وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون: هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبى ليعبدوا لى فى البرية. فقال فرعون: من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل؟ لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه. فقالا: إله العبرانيين قد التقانا. فنذهب سفر ثلاثة أيام فى البرية ونذبح للرب إلهنا لئلا يصيبنا بالوباء. فقال لهما ملك مصر.. لماذا ياموسى وهارون تبطلان الشعب من أعماله اذهبا إلى أثقالكما. وقال فرعون: هوذا الآن شعب الأرض كثير وأنتما تريحانهم من أثقالهم. فأمر فرعون فى ذلك اليوم مُسخِّرى الشعب ومدبِّريه قائلا: لا تعودوا تعطون الشعب تبنا لصنع اللبن كأمس وأول من أمس ليذهبوا ويجمعوا تبنا لأنفسهم. ومقدار اللبن الذى كانوا يصنعونه أمس وأول من أمس تجعلون عليهم



شكل ٢٢٤ - بحيرة قارون.



شكل ٢٢٥ - الفالق الجيولوجى الكبير الذى يمر بحذاء الساحل الجنوبى لبحيرة قارون.

لاتنقصوا منه فإنهم متكاسلون لذلك يصرخون قائلين نذهب ونذبح لإلهنا. ليثقل العمل على القوم حتى يشتغلوا ولا يلتفتوا إلى كلام الكذب (يقصد كلام موسى وهارون) فخرج مسخرو الشعب ومدبروه وكلموا الشعب قائلين: هكذا يقول فرعون لست أعطيكم تبنا. اذهبوا أنتم وخذوا لأنفسكم تبنا من حيث تجدون. إنه لا ينقص من عملكم شيء. فتفرّق الشعب فى كل أرض مصر ليجمعوا قشا عوضا عن التبن. وكان المسخّرون يعجلونهم قائلين. كملوا أعمالكم أمر كل يوم بيومه كما كان حينما كان التبن. فضُرب مدبرو بنى إسرائيل الذين أقامهم عليهم مسخرو فرعون وقيل لهم لماذا لم تكمّلوا فريضتكم من صنع اللبن أمس واليوم كالأمس وأول من أمس. فأتى مدبرو بنى إسرائيل وصرخوا إلى فرعون قائلين: لماذا تفعل هكذا بعبيدك. التبن ليس يعطى لعبيدك. واللبن يقولون لنا اصنعوه وهو ذا عبيدك مضروبون. فقال لهم: متكاسلون أنتم متكاسلون. لذلك تقولون نذهب ونذبح للرب. فالآن اذهبوا اعملوا وتبن لا يعطى لكم ومقدار اللبن تقدمونه.

وكدليل مادى على صحة ما ورد فى هذه الفقرة من التوراة هو ما كشفت عنه حفائر الدكتور إدوارد نافيل عام ١٨٨٣ فى بلدة «تل المسخوطة» وأثبت أنها هى مدينة «فيثوم» أو «بيثوم» مدينة المخازن التى بناها بنو إسرائيل لرمسيس الثانى. إذ وجد حجرات مستطيلة خالية من الأبواب ويفصل كل منها عن الأخرى جدران سميكة من اللبن الخشن الصناعة وكانت الحبوب - طبقا لطريقة المصريين القدماء تلقى من خلال فتحات فى السقوف. ولوحظ أن اللبن التى بنيت به مدينة بيثوم من ثلاثة أصناف: ففى المداميك السفلى لجدران هذه المخازن نجد اللبن مختلطا بالقش الهشيم (التبن). وفى أعلاها عندما نقص القش (ولم يعد يعطى للعمال) نجد الطين مخلوطا بالبوص. وأخيرا عندما عندما نفذ البوص نجد لبن المداميك العليا قاصرا على الطين النيلى دون استخدام أية مادة أخرى (الآثار المصرية فى وادى النيل، چيمس بيكى، مترجم، الجزء الأول ص ٥٣).

وظل فرعون فى تكبره وتجبُّره وجاءته الآيات فلم يؤمن وكان المفروض فى مستشاريه. وحكماء عصره أن ينصحوه بالاستجابة لمطلب موسى وهارون. ولو كانت الديمقراطية معروفة فى ذلك الوقت لقامت أحزاب المعارضة بنصح فرعون بإطلاق سراح بنى إسرائيل. ولكن الحكم كان دكتاتوريا إلى أبعد الحدود ويستمد الفرعون سلطاته وتسلطه من ادعائه بأنه أحد الآلهة فكان رأى فرعون هو الرأى الأوحد مع أنه لم يكن فيه حكمة أو بعد نظر أو رشد. ولكن القوم كلهم تابعوه على رأيه:

«ولقد أرسلنا موسى بأياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه. فاتبعوا أمر فرعون. وما أمر فرعون برشيد». (٩٦ - ٩٧ - هود)

«فاستخف قومه فأطاعوه. إنهم كانوا قوما فاسقين». (٥٤ - الزخرف)

الإئتمار بموس لقتله :

رأى فرعون فى آخر الأمر أن الحل الأمثل هو قتل موسى. ولعله أبدى هذا الرأى أمام خاصته ووزرائه عدة مرات. ولعلهم أثنوه عن ذلك مهوِّنين من أمر موسى وقائلين إن قتله قد يجعل بنى إسرائيل يقومون بثورة عنيفة لا تحمد عواقبها. ولعل فرعون نفسه - بعد أن رأى معجزات موسى، وبعد أن وصل إليه نبأ الخسف بقارون وداره - أيقن أن رب موسى قادر على إهلاكه هو الآخر. فكان يخشى أن يمس موسى بأذى، ولم يشأ أن يظهر هذا الخوف وأراد أن يبدو الأمر كأنه لايخشى موسى ولكنهم هم الذين يثنونه عن قتله **«ذرونى أقتل موسى»** وإمعانا فى التظاهر بأنه لا يخاف موسى قال **وليدع ربه**. إى لينقذه منى. وقال لهم إنه إن لم يقتله فسيبدِّل دينكم ويغير حالكم وسينشر الفساد فى الأرض. قال ذلك حتى يوافقوه على رأيه. ولعله كان يرمى إلى أن يتحمس أحد الحاضرين فيقتل موسى فيتحقق له ما يريد دون أن يكون له صلة مباشرة بالقتل.

سمع موسى بما قاله فرعون عن رغبته فى قتله، وسمعه أيضا بنو إسرائيل. وانتظروا ليروا ما يفعل موسى. هل يهرب كما هرب فى الماضى منذ خمس عشرة سنة؟ كلاً. هو الآن نبى مرسل من ربه لإخراج بنى إسرائيل من مصر. ومستحيل أن يتركهم مهما تعرضت حياته للخطر.. وما حياته بأغلى عنده من تنفيذ أمر ربه. وأعلنهم بعزمه على البقاء وأنه توكل على الله ربه وربهم ولجأ إليه واستعاذ به ليحميه، ليس من شر فرعون فقط. بل من شر كل طاغية متكبر وما جرأته على القتل إلا لأنه لا يؤمن بأن هناك آخرة ويوم يحاسب فيه المرء على أفعاله. إذ لو آمن بيوم فيه حساب لما جرأ على التفكير فى القتل.

«وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد. وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب». (٢٦ - ٢٧ - غافر)

رجل مؤمن يكتم إيمانه :

قال رجل من آل فرعون. قيل إنه ابن عم فرعون وسنعود إلى هذه النقطة فيما بعد (ص ٨٩٦) كان قد آمن بموسى سرا ولم يظهر إيمانه للناس. قال لهم أتقتلون رجلا كل ما فعله هو أنه قال إن له ربا غير الرب الذى تعتقدون فيه. وقد جاءكم بالمعجزات والآيات التى تدل على صدقه وقال إنها من عند ربكم أنتم أيضا. فإن كان كاذبا فإن كذبه واقع عليه لايتخطاه إلى غيره. أما إن كان صادقا وكدتم له فسيصيبكم على الأقل بعض ما يتوعدكم به من عذاب لأن الله لا يؤيد بالمعجزات شخصا يكذب ويسرف فى الكذب. وناشدهم ثانية أنهم اليوم غالبون وظاهرون على بنى إسرائيل ولهم الملك فى أرض مصر وسألهم من ينصركم من عذاب الله إن جاء.

«وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم، وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم، إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب. يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا». (٢٨ – ٢٩ – غافر)

سمع فرعون مقالة هذا الرجل المؤمن وكان رده أن قال إن ما يشير به من قتل موسى هو الرأى الصواب والذى يجب أن يروه هم أيضا كذلك ولا يخالفوا رأيه لأنه يقول بالرأى الرشيد.

«قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد». (٢٩ – غافر)

وعاد الرجل المؤمن يناشد قومه ويقول لهم إنى أخاف عليكم – من جراء تكذيبكم بموسى – أن يحل عليكم ما حل بالذين تحزَّبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية وكذبوا رسلهم مثل قوم نوح وعاد وثمود وآخرين جاءوا بعدهم (مثل قوم لوط وأهل مدين). وما حل بهؤلاء لم يكن ظلما بل عدلا من الله جزاء تكذيبهم.

«وقال الذى آمن يا قوم أنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، وما الله يريد ظلما للعباد». (٣٠ – ٣١ – غافر)

واستمر يناشدهم ويذكِّرهم بأنه يخاف عليهم ما يحل بهم من عذاب فى الآخرة – فى يوم القيامة، حين ينادى الناس بعضهم بعضا. وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء، وينادى أصحاب النار على الخزنة أن يخففوا عنهم العذاب، وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار قائلين لهم إنهم وجدوا ما وعدهم ربهم حقا فهل وجدوا هم أيضا أن وعد الله ووعيده حق. هكذا ينادى الكل، فهو «يوم التناد».

«ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد». (٣٢ – غافر)

ونذكر فيما يلى بعضا من الآيات التى توضح لماذا سُمِّىَ.. يوم التناد:

«ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا». (٤٤ – الأعراف)

«ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم». (٤٦ – الأعراف)

«ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم». (٤٨ – الأعراف)

«ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء..». (٥٠ – الأعراف)

«ونادوا يا مالك ليقضى علينا ربك قال إنكم ماكثون». (٧٧ – الزخرف)

«ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى..». (١٤ – الحديد)

«يوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون». (٦٢ – ٧٤ – القصص)

«ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين». (٦٥ - القصص)

«ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون». (٤٣-الاعراف)

«ينادَوْن لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم». (١٠ - غافر)

«واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب». (٤١ - ق)

فهو يحق يوم التناد، وقال لهم إنهم فى هذا اليوم سيحاولون التراجع عن النار ويجرون هاربين منها. ولكن ليس هناك من يعصمهم من عذاب الله. ومن يكتب الله عليه الضلال فليس هناك من أحد يهديه وكأنه يقول لهم ولا أريد لكم أن تكونوا من الذين كتب عليهم الضلال.

«ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد، يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم. ومن يضلل الله فما له من هاد». (٢٢ - ٢٣ - غافر)

ثم قال لهم: لقد جاءكم يوسف من قبل بالآيات الواضحة الدالة على أن الله هو العلى القدير وأنه نبى مرسل. وكانت آيته أن حفظ مصر من المجاعة بهدى من الله تعالى ولكنكم لم تؤمنوا بدينه إلى أن مات. فقلتم إن الله لم يبعثه ولم يبعث من بعده رسولا. فلا تكونوا من الذين يسرفون فى العصيان ويرتابون ويشكون فى الدين فهؤلاء لم يقيض لهم الله الهدى، وهؤلاء يجادلون فى آيات الله ويُشككون فيها ويكذبونها بغير حجة. وهذا الجدال ممقوت عند الله وعند المؤمنين. وحذرهم من أن أمثال هؤلاء – الذين يضلون ويسرفون فى الضلال والذين يجادلون فى آيات الله – يطبع الله على قلوبهم بكبرهم وتجبرهم. فلا يؤمنون أبدا ويكونوا من أصحاب النار.

«ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم فى شك مما جاءكم حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا. كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب، الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم. كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا. كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار». (٣٤ - ٣٦ - غافر)

ردا على مقالة هذا الرجل الذى آمن وليزيل ما يكون قد علق بنفوس بعض سامعيها من أثر لجأ فرعون إلى:

– الإقلال من شأن موسى.

– بناء صرح للتدليل على عدم وجود إله.

– ادعاء الألوهية.

الإقلال من شأن موسى :

رأى فرعون أن خير ما يقنع به الناس من أن ما يقوله لهم هو الحق، هو أن يقارن بين ما هو فيه من ملك وجاه وبين ما فيه موسى من فقر وضعف واستعباد قومه. فنادى فرعون فى

الناس مفتخرا وسألهم سؤال تقرير: أليس هو ملك مصر وله القصور التي تجرى الأنهار من أمامها وعلى درجة من القرب بحيث أن الجالس فى شرفات القصر تكون المياه تحت قدميه، وسألهم أليس هذا هو الواقع الذى يلمسونه. وراح يقارن بين حاله وبين ما فيه موسى من رقة الحال كأنما يبكت الذين آمنوا والذى آمن بالذات. ويكاد يتهمه بالجهل إذ أنه لا يرى الفرق الواضح فيطلب منه أن يتبع موسى. وكأنه يسأل هل يتبع العظيم رجلا ضعيفا؟ واتهم موسى بأنه ذليل ومهين إذ أن قومه أذلاء من السخرة. ثم راح يسخر من موسى نفسه ويتهكم على اللثغة التى فى لسانه ويدعى أنها تكاد تعوقه عن بيان ما يريد قوله وكأنه يوجد لنفسه العذر فى عدم اتباعه.

«ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون، أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين».

(٥١ ، ٥٢ – الزخرف)

كذلك كان من عادة المصريين أن الفرعون إذا اختار وزيرا أو نائبا له – وضع طوقا من ذهب فى عنقه وخلع عليه خاتمه أو أسورة من أساوره. ولقد رأينا ذلك من قبل حينما قُلِّدَ يوسف عليه السلام ليكون نائبا للفرعون (جـ ٣ ص ٤٨٩– ولو أن الفرعون كان وقتئذ من الهكسوس إلا أنهم كانوا يتبعون تقاليد المصريين) وتساءل فرعون: إذا كان الله قد اختار موسى رسولا فلماذا لم يلق إليه بأسورة من ذهب لتدل على صدق مكانته عند ربه. أو كان يرسل معه الملائكة يلازمونه ويعينونه! وراح يردد هذا المنطق المعوج والمستخف بالعقول إذ يريد أن يطبق سلوك البشر على الإله عز وجل. ومع هذا فقد أطاعه قومه فيما ذهب إليه. وانقادوا له وتابعوا منطقه. فدلُّوا بذلك على أنهم قوم فاسقون إذ لولا أنهم كذلك لما انقادوا له بهذه الخفة.

«فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أوجاء معه الملائكة مقترنين. فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين». (٥٣ – ٥٤ – الزخرف)

الصـرح :

الصرح هو كل بناء عال وجمعه صروح (مختار الصحاح طبعة ١٩٩٥ – ص ١٥١). قلنا إن فرعون ادعى أنه إله. وإمعانا فى تكذيب موسى والاستهزاء به طلب من وزيره أن يبنى له برجا عاليا من الطوب المحروق أى الآجر. ليصعد عليه فى السماء ويرى إله موسى!

«وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى. فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى. وإنى لأظنه من الكاذبين. واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون». (٣٨ – ٣٩ – القصص)

«وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زُيِّن لفرعون سوء عمله وصُدَّ عن السبيل وماكيد فرعون إلا فى تباب». (٣٦ - ٣٧ - غافر)

كانت المبانى - حتى ذلك الوقت - تقام من الطوب اللبن أو الحجارة وقد سبق أن ذكرنا (ص ٨٧٩) أن مدينة المخازن فيثوم، وكل المدن الأخرى تقريبا كانت مبنية بالطوب اللبن ماعدا المعابد والقصور فكانت من الحجارة، وفى أواخر عهد رمسيس الثانى تم اكتشاف أن حرق اللبن يجعله أكثر صلابة وأطول عمرا . ولا توجد آثار بنيت بالطوب الأحمر قبل عصر رمسيس الثانى. وقد عثر «بترى» - عالم الآثار - على عدد من الطوب المحروق بنيت به قبور وأقيمت به بعض المنشئات ترجع إلى عصور الفراعين رمسيس الثانى ومرنبتاح وسيتى الثانى. عثر عليها فى نبيشة ودفنة غير بعيدين عن مدينه قنتير أى برعمسيس». (دراسات تاريخية فى القرآن الكريم . د. محمد بيومى مهران جـ ٢ - ص ٣٢٥) ولعل السرد القرآنى لبناء الصرح فى سورة القصص والنص على طريقة صنع الآجر بحرق الطين فيه إشارة إلى أن الفرعون الذى عاصر موسى عليه السلام هو أول من اكتشف هذه الطريقة ويكون ذلك دليلا آخر على أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى.

وهكذا قال رمسيس الثانى لوزيره هامان أن يبنى له برجا عاليا حتى يرى الإله الذى يقول موسى إنه إلهه وإله العالمين. وقال له إنه يعتقد أنه لو فعل ذلك فلن يجد شيئا لأنه يظن موسى كاذبا فى قوله. وقالوا إنه وقد وصل إلى هذه النتيجة فإن الصرح لم يبن. وهذا ما نعتقده. إذ أن أى بناء فى عصرنا الحالى يبنى بالطوب والأسمنت - حوائط حاملة - أى بدون أعمدة خرسانية لايجب أن يزيد عن ٦ أو ٧ طوابق على الأكثر أى ٢١ مترا فهو لن يكون مرتفعا بالنسبة لبعض المسلات التى كانت تبلغ ٢٩ مترا أو تمثاله الذى وجدت بقاياه فى صان الحجر «تانيس» والذى كان يبلغ ارتفاعه ٢٨ مترا . ولم يكن الأسمنت قد عرف فى عصرهم وكان الطين هو المادة اللاصقة فى المبانى. فلا يزيد ارتفاع بالطوب الأحمر والطين عن ٥ طوابق أى ١٥ مترا فلا يعتبر بناء هائلا يقنع الناس بعدم وجود إله إذا صعد عليه.

وقيل إنه بنى فعلا بناء عاليا وصعد عليه ثم نزل فقال للناس: لم أجد الإله الذى يقول به موسى وعليه فهو من الكاذبين. وقال لهم ما علمت لكم من إله غيرى. وروى عن السدى: لما بنى الصرح ارتقى فوقه وأمر بنشابة فرمى بسهم نحو السماء. فرد إليه وهو مُضرَّج دما فقال قتلت إله موسى (تفسير الألوسى جـ ٢٠ ص ٨٠). على أن ما نميل إليه هو أن كلامه كان مجرد استهانة واستهزاء بموسى. فلم يبن الصرح.

وظل فرعون فى كبره وغروره هو وجنوده مع أنهم على باطل وليسوا على حق **«واستكبر هو وجنوده بغير الحق»**. وفى ظنهم أنهم لن يرجعوا إلى الله فيحاسبهم على أقوالهم وأفعالهم هذه

«وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون». وزين له غروره أن أفعاله هذه – من تكذيب موسى وإنكار وجود الله – هو الرأى الصحيح وصدته أوهام العظمة التى تملكته – عن تصديق موسى واتباع السبيل الصحيح والطريق السليم. **«وكذلك زين لفرعون سوء عمله وُصد عن السبيل»**. وتَبَّ انقطع ومنه **«تبت يدا أبي لهب وتب»** وكذلك تب بمعنى خسر وهلك. وتبًا له أى أهلكه الله. ثم يقرر القرآن الكريم أن كل تدابير فرعون وأفعاله وما يكيد ليصد عن دعوة الحق كل ذلك مآله الخسران والهلاك **«وما كيد فرعون إلا فى تباب»**.

وتصرف فرعون من بناء صرح للصعود عليه للتدليل على عدم وجود إله يذكرنا بما قاله جاجارين – أول رائد فضاء – وهو سوفيتي ملحد. إذ قال بعد نزوله من دورانه حول الأرض: لم أر الإله الذى يقول بوجوده المؤمنون!

ادِّعاء الألوهية :

يبدو أن فرعون وقد أقنع نفسه بهذه الطريقة الساذجة – بناء الصرح والصعود فوقه – بعدم وجود إله فأرسل رسله في البلاد ينادون أن فرعون هو الرب الأعلى.

«فحشر فنادى، فقال أنا ربكم الأعلى». (٢٣ – ٢٤ النازعات)

«وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى». (٣٨-القصص)

وقد سبق أن ذكرنا فى التحليل النفسى لشخصية رمسيس الثانى (ص ٦٨٥ و ٦٨٩). إشراك والده له فى الحكم فى سن العاشرة والمديح الذى كان المحيطون به يكيلونه له بلا حساب وفى كل وقت. كل هذا خلق فى نفسه شعورا بالتعاظم. فإذا أضفنا إلى ذلك طول مدة حكمه التى بلغت حتى ذلك الوقت ٦٣ سنة لأدركنا لماذا ظن نفسه إلها. فالآلهة هم المخلدون.

ولا بأس من أن نتطرق قليلا لموضوع العلاقة بين الملوك والآلهة فى مصر القديمة.

لقد سبق أن ذكرنا فى الجزء الأول (ص ٦٣) اندماج المقاطعات التى كانت تتكون منها مصر إلى مملكتين: مملكة الدلتا أو مملكة الشمال ولها ملك يلبس تاجا أحمر وعاصمتها بوطو (حاليا إبطو. إحدى قرى مركز دسوق) والأخرى فى الصعيد أو مملكة الجنوب وعلى رأسها ملك يلبس تاجا أبيض وعاصمتها نخب (حاليا عزبة الكاب مركز إدفو). وكان لكل مملكة إلهها الخاص بها إلاّ أن المعبود «حوريس» (ورمز له بالصقر) كان يُعبد فى كل من المملكتين. وكان ملوك هاتين المملكتين يلقبون بـ «خدام حوريس» وقد صبغهم المصريون بصبغة دينية إذ اعتقدوا أن أرواحهم بعد الموت تكون واسطة بين الناس والآلهة. وبمرور الزمن اعتبر هؤلاء الملوك أشباه آلهة. ومن هذا يمكن أن نتصور مدى ما كان لملوك هاتين المملكتين من نفوذ وسلطان (مصر فى العصور القديمة. راجعه محمد شفيق غربال. ص ١٩) ثم جرت محاولات أولية لتوحيد المملكتين إلى أن تحقق التوحيد على يد الملك «نارمر» أو «مينا» وأقام الأسرة الأولى وتلتها الأسرة الثانية.

كان الملك يعيش فى قصر على ربوة يشرف منه على رعاياه، ولذلك عَرف المصريون القدماء قصره باسم «پرعو» أى البيت العالى. ويرجح أن لفظ «فرعون» – ومعناه صاحب البيت العالى. اشتق من ذلك الإسم كما كان يطلق على سلاطين آل عثمان «الباب العالى»، وكان لقصر الفرعون بابان عظيمان يمثلان الملكية المزدوجة – الصعيد والدلتا. وكانت الملكية – كما ذكرنا – مطلقة أساسها قدسية الملك. ويلقب بأنه «حوريس الحى». هو ليس إلها مثل حوريس ولكنه صورة له. وهذا يعنى وجوب الخضوع التام له. فالملك هو «صورة حية للإله تعيش على الأرض» و«الإله هو الذى يتحدث من فمه».

ثم جاءت الأسرة الثالثة وقام الملك «زوسر» وكان وزيره «أمحوتب» مضرب الأمثال فى الحكمة وبارعا فى الهندسة فوضع تصميم الهرم المدرج وبناه فى سقارة. وهو يعد أول بناء حجرى كبير عرفه التاريخ. وذاع صيت أمحوتب فى الطب كذلك وأصبح أعظم أطباء عصره وعيُن فى وظيفة رئيس الكهنة ومهمته خدمة الآلهة فى المعبد وتلاوة الصلوات نيابة عن الملك. ثم جاءت الأسرة الرابعة ومن ملوكها سنفرو وخوفو وخفرع ومنقرع وكل منهم بنى لنفسه مقبرة على شكل هرم. أعظمها جميعا هرم خوفو أو الهرم الأكبر وكان ارتفاعه عند بنائه ١٤٦ مترا. وجاء بعده ابنه خفرع وبنى الهرم الأوسط وارتفاعه ١٤٣ مترا. إلا أنه يبدو أكثر ارتفاعاً من الهرم الاكبر لأنه بنى على جزء من الهضبة أكثر ارتفاعاً. كما نحت تمثال «أبى الهول» المشهور. وجاء بعده منقرع (منكاورع) وبنى الهرم الأصغر وارتفاعه ٦٦ مترا. ثم توالى ملوك آخرون وبنى كل منهم لنفسه هرما أصغر من سابقه. وكان بجوار كل هرم معبد تقام فيه الطقوس الجنازية للملك المتوفى.

من المرجَّح أن الكهنة بدأوا يشعرون بعدم الرضا إذ أن فراعنة هاتين الأسرتين سخَّروا الشعب كله في بناء الأهرامات وهى عبارة عن مقابر للملوك. ولم يهتموا ببناء معابد تقام فيها تماثيل الآلهة وتقدم لها القرابين الكثيرة والتى تؤول فى النهاية إلى الكهنة فينعمون بها. ورأى الكهنة الخطر يتهدد أرزاقهم من استمرار هذا الإتجاه لدى فراعين الأسرة الرابعة. فأزمعوا تغيير الأسرة الحاكمة. وتزعم هذه الحركة كهنة «رع» بمدينة عين شمس. فأشاعوا: «أن «رع» كان غير راض عن الملك خوفو الذى بنى الهرم الأكبر. وكذلك سمح لابنه وحفيده ببناء الهرمين الثانى والثالث وأن «رع» أراد أن يحكم مصر من بعدهم ملوك يفوق تقديسهم للإله تفكيرهم فى تشييد مقابرهم الضخمة. ملوك يشيدون المعابد ويقدمون القرابين على المذابح ويكدسونها ويجعلونها كثيرة وافية» . ورأى كهنة رع أن يقوموا هم أنفسهم بتأسيس الأسرة التى تحكم البلاد. ولكنهم اصطدموا بالشرعية التى تقضى بأن يكون الملك من سلالة ملك. وهنا تفتق ذهنهم عن حيلة ذكية تكسب الملك الجديد – منهم– شرعية أقوى. وهو أن يكون الملك من سلالة الآلهة! وقد أصبحت هذه الأسطورة ذات أثر كبير فى علاقة الملوك بالآلهة فى كل الأسرات

التالية، وأشاع كهنة هليوبوليس: «أن الإله «رع» قد اختار زوجة كبير الكهنة وجعلها تحمل منه وتلد بمساعدة الآلهة ثلاثة أبناء هم باكورة جيل جديد من الملوك. أعطاهم خنوم أعضاء قوية وأعطتهم إيزيس أسماءهم. وجعلهم الآلهة ملوكا حقيقيين سيتقلدون الملك في هذه البلاد بأجمعها». وهكذا تولى هؤلاء الملوك الثلاثة الواحد تلو الآخر الملك باسم «أوسركاف» و«سحورع» و «كاكاي» وهم أول ملوك الأسرة الخامسة.

هذا الانقلاب الديني زاد نفوذ الكهنة كثيرا وخاصة كهنة «رع» في هليوبوليس. وعلى الرغم من أن ملوك هذه الأسرة استمروا في بناء الأهرامات كأسلافهم – ربما حتى لا يكونوا أقل شأنا – إلا أن عنايتهم بها قلت كثيرا فكانت أهراماتهم صغيرة الحجم (هرم أوسركاف ٤٩ مترا وهرم سحورع ٤٨ مترا). ولكنهم زادوا من اهتمامهم بالمعابد. وبعد أن كانت المعابد جنازية ومقامة بجوار الأهرامات محجوبة عن الشعب – أصبحت مشكوفة للناظرين. وأقيمت مسلة ضخمة على هرم ناقص. وكانت المسلة هي رمز إله الشمس «رع». وارتفع نجم «رع» كثيرا وأصبح اسمه يضاف إلى أسماء الآلهة الأخرى: سوبك رع – مونت رع – خنوم رع وهكذا... وبلغ إله الشمس في شخصيته الجديدة «ملك الآلهة» أسمى درجات التقدير حتى إن آمون نفسه إله طيبة أصبح اسمه «آمون رع» وبالطبع كثرت المعابد وكثرت القرابين وزاد الكهنة ثراء وقوة وخاصة كهنة «رع».

وتكررت الأسطورة مرة ثانية ولكن في طيبة هذه المرة إذ جاء في النقوش على المعابد ماملخصه أن الإله «آمون» أراد أن ينجب ملكا يقوم بتشييد «منازل» للآلهة وتكثر على يديه القرابين التي تقدم لها فكان أن اختار زوجة الملك تحوتمس. وعندئذ تقمَّص آمون شكل زوجها الملك تحوتمس واضطجع مع الملكة التي قالت له «لقد أسبغت على جلالتي من عظمتك وتسرب نداك في كل أعضائي» ثم حملت وولدت وسميت الابنة «حتشبسوت» كما أمر بذلك آمون رع.

وتتكرر القصة مرة أخرى مع رمسيس الثاني وكتبت بطريقة سافرة إذ تقول إن الإله «بتاح» قد أكد لرمسيس الثاني أنه قد تنبأ بالأعمال العظيمة التي سيصنعها له هذا الملك فقال: تقمصت صورة «تيس منديس» واضطجعت بجانب أمك الجميلة لكي تلدك وأصبحت أعضاؤك كلها إلهية! وقد دُوِّنت هذه القصة فوق جدران معبد أبي سمبل الذي بناه رمسيس الثاني. وما دام الملك قد ولد كابن للإله فلا بد أنه لا يموت ميتة الآدمي. فإذا ما انتهت حياته السعيدة فهو يصعد إلى السماء ويندمج في قرص الشمس التي خرج منها. وهناك أشياء أخرى اكتسبها الملوك من تلك الحقيقة التي اعتبروها من خصائصهم كأولاد للإله وكائنات إلهية. فهو يحمل فوق رأسه «الصل» مثله في ذلك مثل إله الشمس. والصل هو ذلك الثعبان الذي يحرق الأعداء بزفيره الناري. وأصبح الصل هو الرمز الملكي يضعه الملك فوق جبينه أو فوق تاجه. وأهم من ذلك أن الملك أصبح ينظر له بأن له اتصال خاص بالآلهة. فهو منهم وابنهم

وهم آباؤه. وكان تأليه الفرعون بعد وفاته أمراً عاديا. إذ أن الفرعون بعد وفاته أصبح روحا وانضم إلى «آبائه» ويجوز عندئذ عبادته والتضرع له والتوسل به لقضاء الحاجات. على أن صورة الملك نفسه فى هذه الحالات لا تظهر فى الرسم. بل يستدل عليها من النقوش التى كانت تدون خلف الآلهة وتدل على روح الملك (كا). وجاء ذلك فى رسوم عديدة على جدران المعابد. إلاَّ أن رمسيس الثانى مضى فى هذا الاتجاه لدرجة أبعد من سابقيه. فقد ذكرنا سابقا أنه كان شديد الفخر بنفسه لدرجة تقرب من جنون العظمة فلم يكتف بأن يكون ابنا للآلهة. فزعم أنه هو نفسه إله. فأقام لنفسه معابد جعل إهداءها لنفسه. والقرابين تقدم فيها لشخصه باعتباره أحد الآلهة وليس بشرا من نسل الآلهة. بل زعم أنه من كبار الآلهة!

«فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى». (٢٣ – ٢٤ – النازعات)

وفيما يلى أمثلة على تأليه رمسيس الثانى لنفسه (سليم حسن – مصر القديمة. جـ ٦ ص ٤٦٨)

١ – سبق أن ذكرنا (ص ٦٩٠) كيف تصور نفسه «ابنا حقيقيا» للإلهة إيزيس ورضع منها فعلا (شكل ١٢٦ ب) وتخيل أنها أرسلت له خطابا تمنحه طول حياة مثل ابنها «حورس».

٢ – فى شكل ٢٢٦ نرى قارع الطبل يتعبد لرمسيس الثانى.

٣ – فى شكل ٢٢٧ نرى رمسيس الثانى يتعبد لنفسه إذ وضع نفسه بين آلهة وادى السبوعة.

٤ – فى شكل ٢٢٨ نراه صور نفسه واضعا على رأسه الرمز الإلهى ويجلس بين الإله «مون» والإلهة «موت» ويداه متشابكتان معهما.

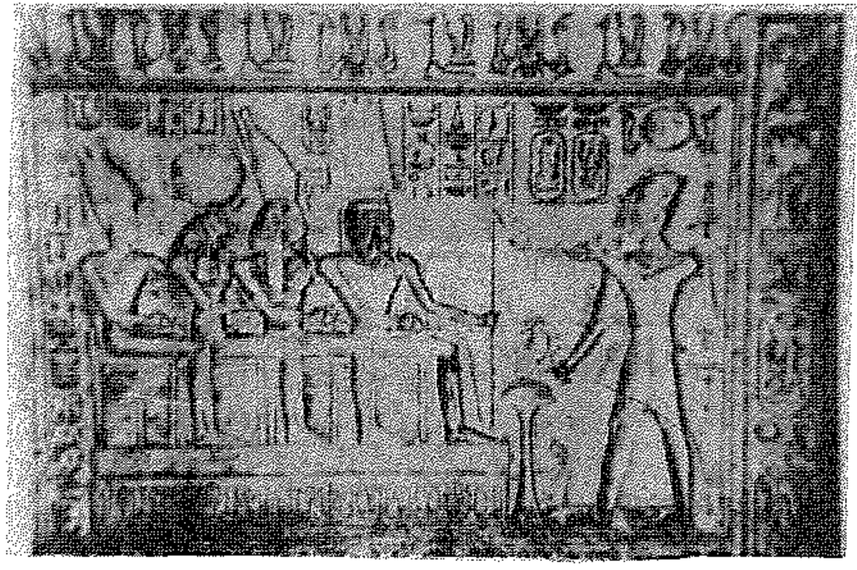
٥ – فى شكل ٢٢٩ تم إزاحة صورة الإلهة «موت» إلى اليمين وحشر صورته بين الآلهة ويظهر كتف أحدهم فى شمال الصورة. ولم يستطع النحاتون محو المكان الأصلى للإلهة. موت. فظهر واضحا فى الصورة.

٦ – والعائلة المقدسة فى ممفيس تتكون من الإله «بتاح» بصورة رجل والإلهة «سخمت» بهيئة لبؤة وبينهما الابن «نفرتم». ونرى فى شكل ٢٣٠ أن رمسيس الثانى وضع نفسه مكان الابن «نفرتم» بين بتاح وسخمت بوصفه الإبن الإله.

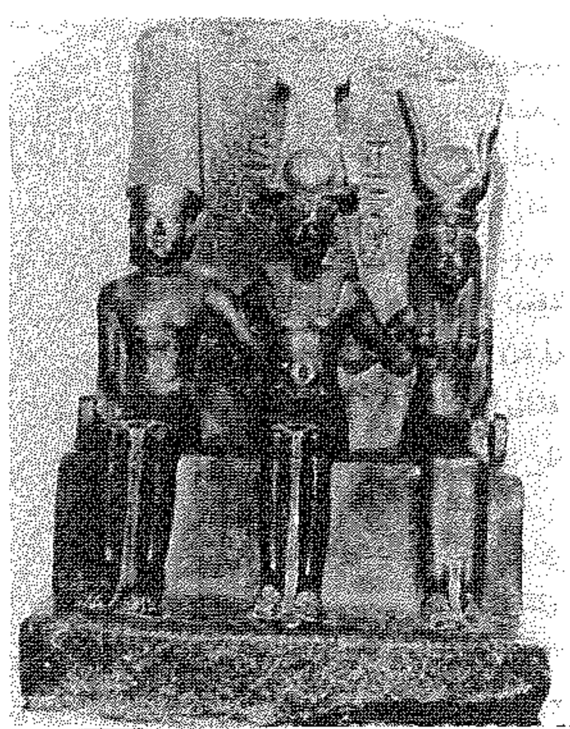
٧ – لوحة للوزير «رع حتب» محفوظة الآن فى متحف ميونخ تمثل الوزير يتجه نحو تمثال رمسيس الثانى ويقول: الصلاة للإله الأكبر الذى يسمع الرجال. ليته يعطى الحياة والصحة والفطنة إلى الأمير الوراثى (أحد ألقاب الوزير) وحامل المروحة على يمين الفرعون. الوزير رع حتب .كما يوجد منقوشا على التمثال «رمسيس حاكم الحكام. والإله الأكبر وسيد السماء مخلدا». وفى الجزء الأعلى من نفس اللوحة نشاهد رمسيس الثانى يقدم البخور ويصب الماء لتمثاله.



شكل ٢٢٦ – قارع الطبل يتعبد لرمسيس الثانى.



شكل ٢٢٧ – رمسيس الثانى يتعبد لنفسه وقد وضع نفسه بين آلهة وادى السبوعة (الثانى من اليمين بين الآلهة الجالسين).



شكل ٢٢٨ – رمسيس الثاني وقد وضع نفسه بين الإله «آمون» والإلهة «موت» في ثالوث آلهة.



شكل ٢٢٩ – رمسيس الثاني يفسح لنفسه مكانا بين الآلهة بعد أن أزاح صورة الإلهة «موت» إلى اليمين ولم يتمكن النحاتون من محو المكان السابق تماماً فبدا واضحا في الصورة (من معبد أبي سمبل).



شكل ٢٣٠ – الإله «بتاح» بصورة رجل فى (يسار الصورة)
والإلهة «سخمت» برأس لبؤة (إلى اليمين) ورمسيس الثانى بينهما بوصفه الإله الابن بدلاً من «نفرتم».
(صورة من هيرا كليوبوليس)

٨ – فى معبد «أبى سمبل» تظهر صورة رمسيس الثانى مؤلها. برأس صقر. أى أنه فى هذه الحالة يمثل إله الشمس. ومكتوب بجوارها: «رمسيس الإله الأكبر» ويظهر فى رسم آخر فى صورة إنسان ولكن على رأسه قرص الشمس ومكتوب تحتها «رمسيس الإله الأكبر رب السماء».

٩ – فى معبد أكشة فى النوبة مثل فى صورة إنسان ولكن الكتابة بجواره تقول «وسر ما عت رع ستبن رع. الإله الأعظم. رب النوبة».

١٠ – فى نقوش جبل السلسلة رسم لوزير يصلى لروح الإله «بتاح» ويرى الملك رمسيس الثانى واقفا بين الوزير المتضرع والإله بتاح. بما يفهم منه أن الملك كإله حى ينقل التضرع إلى الإله بتاح . وقد كتب تحت رسم الملك : الإله الطيب «رمسيس الثانى» ابن الإله «بتاح».

هذه الأمثلة تدل على أن رمسيس الثانى قد ألّه نفسه أثناء حياته وبذلك يكون هو القائل: **«أنا ربكم الأعلى»** والقائل **«ما علمت لكم من إله غيرى»** وهو دليل مؤكد على أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى.

هامان :

قلنا آنفا إن فرعون طلب من هامان أن يبنى له صرحا . وجاء ذكر هامان فى القرآن الكريم ٦ مرات.

«ونمكن لهم فى الأرض. ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون».

(٦ – القصص)

«فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا . إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين».

(٨–القصص)

«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب».

(٢٣ – ٢٤ –غافر)

«وقارون وفرعون وهامان. ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين».

(٢٩ – العنكبوت)

«وقال فرعون يا هامان ابن صرحا لعلى أبلغ الأسباب». (٣٦–غافر)

«فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا». (٣٨ – القصص)

وهكذا ورد اسم هامان دائما مجموعا إلى فرعون على التبعية والإلحاق ويُفهم من هذا أن هامان رجل ذو شأن فى بلاط فرعون يعمل بين يديه ويأتمر بأمره.

ويقول علماء التاريخ المصرى القديم لا يوجد شخص باسم «هامان» كان وزيرا أو قائد جند أو كبير كهنة لأى من فراعين مصر. كذلك لا تذكر التوراة – على كثرة ما ذكرت من أسماء – اسم «هامان» على أنه كان مع فرعون فى مواجهة موسى. ولكن جاء فى التوراة أنه فى القرن الخامس قبل الميلاد أى بعد عصر موسى بسبعة قرون ذُكر الإسم العبرى «هِيمان» (مدا بالكسر بعد الهاء – وفى الترجمة العربية يكتب «هامان») وهو اسم لرجل فى بلاط فارس أيام الملك Xerxes (٤٨٦ – ٤٦٥ ق . م .) كان يريد هلاك اليهود ولكن «أستير» العبرانية استنقذتهم لما كان لها من حظوة لدى الملك (التوراة . سفر أستير) ويقول بعض المستشرقين المنكرين لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم (مثل J. Horovitz) إن «هامان» من أفانين القرآن الكريم اخترعه اختراعا. إذ التقط اسم هيمان الذى كان فى بلاط فارس فى عصر السبى وحوَّله إلى هامان ورده إلى عصر موسى فى مصر وجعله أحد رجال فرعون. على بعد ما بينهما فى الزمان والمكان!! وهى تخرصات درجنا على سماعها من بعض المستشرقين الحاقدين.

ويقول الأستاذ رؤوف أبوسعدة (من إعجاز القرآن. جـ ٢ ص ٥٩) إن الخط الهيروغليفى لايعبأ بإثبات حركات المد. واسم الإله «آمون» يكتب بالهيروغليفية: همزة + ميم + نون. وجاء اليونان فأضافوا واواً مد بعد الميم فصارت آمون. مع أنه فى النص الحيثى للمعاهدة مع ملك خيتا هى مد بالألف «رعمشيشا مى أمانا». أى رمسيس الذى هو كآمون. فلفظ آمون هو فى حقيقته آمان. ولفظ «ها» الهيروغليفى معناه حجرة أو مدخل فيكون ها + آمان أو هامان هو الترجمة لمنصب مدخل آمون أو كبير كهنة آمون. فكلمة «هامان» ليست اسم علم – أى ليست إسما لشخص. وهذا يفسر عدم وجود شخص باسم «هامان». معاصر لأحد الفراعين. والحقيقة أن القرآن الكريم – وقد تجاوز عن اسم الفرعون نفسه ولم يذكره لم يكن ليعبأ ويذكر اسم وزيره. فضلا عن أن «هامان» هى وصف لوظيفة هذا الشخص الذى كان مرافقا للفرعون.

كذلك فإن هامان عربية. أى من جذر عربى مشتقة من فعل «هيمن». وجاء فى المعجم الوسيط (جـ ٢ ص ١٠١٥) هيمن فلان أى قال آمين. وقد كان قرين فرعون هذا يهيمن له أى كلما قال الفرعون شيئا قال له آمين. أى وافقة ونفَّذ أوامره. وكذلك من معانى هيمن. سيطر. ويقال هيمن على فلان أى سيطر عليه أو غلب عليه. والمهيمن من أسماء الله الحسنى بمعنى الرقيب مسيطرا وله القهر والغلبة. وقد كان قرين فرعون هذا مسيطرا على شئون مصر ويده على رقاب الشعب يمسكهم بيد من حديد ويخضعهم لفرعون. وهكذا فقد كان يهيمن لفرعون أى يؤَمِّن على كل أقواله وأفعاله. ويهيمن على الشعب لحساب فرعون. وأراد القرآن الكريم أن يشتق له اسما من هذه الهيمنة بمعنييها السابقين – ولما كان اسم «المهيمن» من أسماء الله

الحسنى. وما كان لأحد أن يتسمى به إلا أن يقال «عبد المهيمن» لذلك اشتق القرآن الكريم لفظا هو «هامان» وصفا لوظيفته ومركزه. كما يقال «خاقان» لعظماء التتار.

من هو هامان :

بعد أن عرفنا أن هامان هي صفة وليست اسم علم وأن هذا الشخص كان الساعد الأيمن لفرعون. بقي أن نحاول أن نحدد من هو هذا الشخص. وتزخر كتب التاريخ بمعلومات وفيرة عن وزراء الفراعين في عصورهم المختلفة ليس هنا مجال ذكرها. ولكننا نستطيع أن نضع صفتين أساسيتين لهذا الـ «هامان» وهي أن يكون قد أمسك بالأمور في مصر بيد من حديد وسيطر على الشعب وفي نفس الوقت كان خاضعا للفرعون خضوعا تاما لا يعصي له أمراً ويقول «آمين» لكل ما يقول. وبتطبيق ذلك على ما جاء بكتب التاريخ نجد أن هاتين الصفتين لا تكادان تنطبقان على أحد إلا الوزير «رع حتب» في عهد رمسيس الثاني. ولكي لا يُتَّهم هذا الرأي بالتحيز فإننا سنستعرض - بإيجاز - فيما يلي كبار الموظفين في عهد رمسيس الثاني.

كان عهد رمسيس الثاني حافلا بجلائل الأعمال واستخدم عددا كبيرا من رجال الدولة وكان أغلبهم من أسر معروفة في مصر. أشهرهم ثلاثة:

١ - **الوزير «باسر» Paser** : بدأ في عصر سيتي الأول واستمر فترة من الزمن في عهد رمسيس الثاني. وكان من أسرة عريقة في خدمة الفراعنة. وكان يحمل ألقاب: القاضي - الكاهن الأكبر للإله آمون - الكاهن الأكبر للإله بتاح - المشرف على كهنة الوجهين القبلي والبحري.. وغير ذلك من عشرات الألقاب. إلاَّ أنه لم يعش حتى يعاصر رمسيس الثاني في الفترة الأخيرة من حكمه وهي التي حدثت فيها المواجهة مع موسى عليه السلام.

٢ - **رئيس الشرطة «أمنمانت»** : وقد أحكم قبضته على البلاد إذ شغل أبناؤه وأفراد أسرته كل الوظائف الحكومية تقريبا في عهد رمسيس الثاني :

- والده «وننفر» هو الكاهن الأول للإله «آمون».
- أخوه الأكبر «حورا» مدير الأعمال والكاهن الأول للإله «أنحور».
- أخ ثان «أمنمأبت» هو أعظم الرائين في بيت «رع».
- أخ غير شقيق «خعمواست» كاتب الكتاب الإلهي في بيت «آمون».
- عمه «بن نسوت توى» هو رئيس رماة بلاد كوش.
- عم ثان «منموس» الكاهن الأول للإله «مين» والإلهة «إيزيس».
- خاله «ماعت رومع» كاهن «مين» و «إيزيس».
- أمه واسمها إيزيس كانت كبيرة مغنيات «آمون».

- أخته كانت زوجة مدير بيت «أمون».
- أخت ثانية «حنت محيت» زوجة مدير بيت «بتاح».
- أخت ثالثة كانت زوجة رئيس الرماة الخيالة.
- عيَّن شقيق زوجته سائقا لعربة جلالة الفرعون.
- وشقيق ثان لزوجته كان الكاهن الأول للإلة «منتو»،.
- والشقيق الثالث كان رئيس رماة الخيالة.
- شقيق رابع لزوجته عُيِّن مشرفا على الكهنة.
- أخو حماته كان رئيس رماة الجيش.

وغير ذلك من عشرات الأقارب كانوا فى مناصب حكومية. غير أننا يمكن أن نستعبد أن يكون أمنمأنت هو «هامان» لأن كل هذه الوظائف كانت تعتبر وظائف غير مؤثرة فى الحكم، والأهم من ذلك أن أمنمأنت قد توفى قبل زمن من وفاة رمسيس لثاني، وجاء فى أثر له محفوظ الآن بمتحف «نابولى» قوله: رئيس الشرطة أمنمأنت - المرحوم - يقول، أنتم يا نواب رؤساء الشرطة العظام، وكل شرطى فى هذه البلدة، قدموا ماء وطعاما لإسمى لأنى كنت أفعل الخير عندما كنت فى الأرض وكأنه يطلب منهم أن يترحموا عليه ويقدموا القرابين والصدقات لروحه.

٣ - **الوزير «رع حتب»** : وهو ما نرجح أنه هو«هامان» :

وكان هذا الوزير من وزراء رمسيس الثانى الذين لهم شهرة واسعة وله لوحة محفوظة فى متحف ميونخ ولوحة أخرى عثر عليها فى العرابة (أبيدوس) تدل على أن مقر وظيفته كان فى عاصمة رمسيس الثانى الجديدة «بررعمسيس» وفى جزء من اللوحة يُرى الوزير وهو يتعبد لرمسيس الثانى ويقول: الصلاة لك (أى لرمسيس الثانى) الإله الأكبر الذى يسمع. يعطى الحياة والصحة والفطنة والمديح.

ورع حتب من أسرة عريقة، فوالده هو الكاهن الأكبر للإله «بتاح» ووالدته رئيسة نساء الإله «أنحور» وأخته رئيسة نساء الإله «حرشفى»، وأخوه الكاهن الأول للإله «آمون»، كما أن «رع حتب» كان وزير الفرعون لبلاد خيتا في السنة ٢١ من حكم رمسيس الثانى.

وفى لوحة موجودة بالمتحف المصرى عدَّد «رع حتب» الألقاب والنعوت التى كان يتحلى بها كما يلى: (سليم حسن، مصر القديمة جـ ٦ ص ٤٧٢): رئيس الأرضين - صندوق العدالة - أعظم رجال المجلس الثلاثينى - رئيس أسرار بيت الفرعون - رئيس الأرض كلها - وزير الشعب (أهل الوجه البحرى) - وزير أهل الشمس (الإنسانية) - رئيس النحت لبيت «بتاح» - من يسر قلب «حور» فى الأفق أبديا - الكاهن الأول للإله «رع» - رئيس الفرعون لبلاد «خيتا»

- **كاهن «آمون» ملك الألهة** - عينا ملك الوجه القبلى وأذنا ملك الوجه البحرى ومن يحمل ميزان الأرضين - فم الفرعون فى كل أرض أجنبية - مدير أعمال الفرعون للوجهين القبلى والبحرى والمدير لكفتى الأرضين - مدير الأقاليم والمدن - وزير القطرين - باب قصر الفرعون - الكاهن الأول والمشرف على الكهنة - أعظم الرائين - الرئيس الأعظم للصناع - رئيس التشريفات الأعظم لرب الأرضين - مدير الأعمال ومدير الحرف والمشرف على قوانين الإله الطيب (الملك رمسيس الثانى) فى ساحة العدالة - فم الملك (أى المتكلم باسمه) حاجب ملك الوجه القبلى والبحرى - من يسر جلالته فى قصره الفاخر - من يرفع سبيل العدالة لجلالته - المقَّدم أمام كل الرجال - حاسب كل جزية فى الأرض قاطبة (أى المشرف على خزائن مصر) عمدة المدينة....

هذه بعض ألقاب الوزير «رع حتب»، ونراه قد جمع فى يده جميع السلطات الدينية والقضائية والمدنية وسيطر على جميع المهن ووزيرا للمالية ووزيرا للخارجية (ولعل الجيش كان وقتئذ يتبع وزارة الخارجية لتعلقه بالحرب والسلام)، والمتحدث الرسمى باسم الفرعون والمشرف على شئون قصره، فهو الجامع لكل السطات وجاعلها فى خدمة الفرعون، سيده وإلهه الذى يتعبد له. فهو المهيمن على كل شئون مصر، وكلما قال الفرعون قولا أو أمر أمرا هيمن له وقال آمين، وزاد بأن سجل بالصورة تعبده للفرعون، وكان أصدق تعبير عن هذين المعنيين هو التعبير الذى جاء فى القرآن الكريم: «هامان». وصدق الله العظيم.

مؤمن آل فرعون يجهر بإيمانه:

بالرغم من كل ما فعله فرعون ليصرف الناس عن دعوة موسى عليه السلام - من الائتمار بموسى لقتله (ص ٨٨٠) ثم كان أن ادعى فرعون الألوهية (ص ٨٨٥) واستعان بـ «هامان» وماله من سطوة ونفوذ ليصرف الشعب عن الإيمان بالله - إلا أن بعض الأفراد شرح الله صدرهم للإيمان فآمنوا بموسى سرا خوفا من فرعون وهامان وجنودهما. شخص واحد أعلن عن إيمانه بموسى صراحة وبكل جرأة، كان هو نفس الشخص السابق الإشارة إليه (ص ٨٨٠) وكان يكتم إيمانه فى ذلك الوقت ونهاهم عن قتل موسى، ولما كان الإيمان قد رسخ فى قلبه وتيقن من أنه لن يصاب بشىء إلا ما قد كتبه الله عليه أعلن عن إيمانه بموسى وبرب موسى صراحة وبكل جرأة، ولم يكتف بهذا بل راح يدعو الناس للإيمان بالله، وتتملكنا الدهشة!! كيف لم يخش غضب فرعون وبطشه؟ ومن أين واتته هذه الجرأة؟ أكان من عائلة كبيرة يحسب لها الفرعون ألف حساب؟ ولكن أى عائلة هذه التى تستطيع الوقوف أمام فرعون وهامان وجنودهما؟ أكان يمت بصلة قرابة للفرعون؟ ولكن حتى لو كان أخاه؟ إذن فهو أقرب من الأخ، وليس هناك أقرب من الأخ إلا الزوجة. فهل كان شقيقا لزوجته؟ افتراض! بل احتمال

شبه مؤكد. إذ لايمنع فرعون من البطش به إلاّ أن يكون الأمر كذلك. ويكون الذى آمن أخا للتى آمنت، زوجة فرعون المؤمنة! وخال ولى العهد!

المهم أن **«الذى آمن»** هذا أعلن إيمانه بكل صراحة. ولم يكتف بهذا بل راح يدعو الناس أن يتبعوه فى إيمانه. وبلغ من تحديه لفرعون أن استعمل نفس ألفاظه:

«قال فرعون ما أريكم إلاّ ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد». (٢٩ - غافر)

«وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد». (٣٨ - غافر)

ولعل هذه المساواة فى اللفظ قُصد بها الإشارة إلى نِدِّيَّة الطرفين وهى إضافة تزيد من ترجيح ما ذهبنا إليه من أنه كان أخا زوجته.

وراح الذى آمن يُهون من أمر الدنيا ومتاعها وزخرفها ولعله يقصد التهوين من شأن ما فيه فرعون من أبهة الملك وجاهه. مذكرا بأن الدار الآخرة هى الدار الحقيقية التى يستقر فيها الإنسان. وأن من يعمل عملا سيئا فسيكون جزاؤه مثل عمله. أما من يعمل عملا صالحا. سواء كان ذكراً أم أنثى فهؤلاء يدخلون الجنة ثوابا لهم على صالح عملهم وفى الجنة سيعطون من رزقها بغير حساب عوضا لهم عما فاتهم فى هذه الدنيا.

«ياقوم إنما هذه الدنيا متاع. وإن الدار الآخرة هى دار القرار. من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها. ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب». (٣٩ - ٤٠ - غافر)

ثم راح يقارن بين سبيله وسبيل فرعون ويُظهر تعجبه من أنه يدعوهم إلى السبيل الذى ينجيهم من العذاب وهم فى المقابل يدعونه إلى الطريق الذى يوصل إلى النار. وهو بهذا التساؤل يوبخهم ويقصد إيقاظهم من غفلتهم ويظهر اهتمامه بهم والحرص على مصلحتهم فى النجاة من النار. ثم راح يوضح لهم كيف أن سبيلهم يؤدى إلى النار أو لعله رد على تساؤل لهم: كيف تقول إننا ندعوك إلى النار؟ فكان الجواب: إنكم تدعوننى لأكفر بالله. وأن أشرك به وأعبد معه آلهة أخرى ومنهم الفرعون وليس هناك من علم يؤيد دعواكم وراح يفسر لهم سابق قوله بأنه يدعوهم إلى النجاة إذ أنه يدعوهم إلى الله العزيز المستجمع لصفات الألوهية. والغفار. واسع المغفرة وفى هذا تلميح بأن يُغفر لهم سابق كفرهم. وقال لهم إنه مما لاشك فيه أن ما يدعونه إليه من عبادة الأصنام ليس هو سبيل الرشاد لأن هذه الأصنام لا تلبى دعاء من يدعوها فليس لها دعوة. ولن تجيب دعوة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ولا جدال فى أننا جميعا سنرد إلى الله بالموت فيجازى كل واحد بحسب عمله. وفى هذه الحالة فإن المسرفين الذين أسرفوا فى الكفر وأسرفوا فى التكذيب بالله - سيكون مصيرهم إلى النار.

«ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار. تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار. لاجرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار». (٤١ - ٤٣ - غافر)

على مايبدو لم يستجب للذى آمن أحد. ولعله شعر أن الفرعون يكيد له. صحيح أنه لم يأمر بسجنه مراعاة لأواصر القرابة. ولكنه لا يأمن أن يحرِّض عليه أحدا ليقتله. ولعله عزم على مغادرة البلاد. وقال لهم كلمة أخيرة أنهم سيذكرون دعوته لهم للإيمان. والمعنى أنهم سيذكرونها ويندمون على أنهم لم يستجيبوا لها. وقال إنه يفوض أمره إلى الله إن كانوا يريدون به سوءا أو شرا. ويخبرنا القرآن لكريم أن الله استجاب لدعائه وحَفظه مما كانوا يدبرون له من سوء.

«فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله. فوقاه الله سيئات ما مكروا». (٤٤ - غافر)

يقول الألوسى (جـ ٢٤ ص ٧٢): عن ابن عباس أن فرعون قصد قتله فهرب إلى جبل فبعث فى طلبه فأدركوه وهو يصلى والسباع حوله. فلما همُّوا ليأخذوه هاجمتهم الذئاب وأكلتهم!

زوجة فرعون المؤمنة :

«وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون. إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين». (١١ - التحريم)

فى هذه الآية قرر القرآن الكريم أن إحدى زوجات الفرعون قد آمنت. ولما كانت القرائن التى سبق ذكرها فى هذا الجزء تشير إلى أن رمسيس الثانى هو ذلك الفرعون. كان من الواجب أن نستعرض زوجاته حتى يمكن تحديد من منهن المشار إليها فى الآية السابقة. وقد كان لرمسيس الثانى ثلاث زوجات رئيسيات:

١ - نفرتارى :

قلنا سابقا (ص ٧٠٠) إن رمسيس الثانى لما بلغ السادسة عشرة من عمره تزوج من **«نفرتارى مرنموت»** وكانت من أجمل جميلات مدينة طيبة. وكان أبناؤها يموتون بعد الولادة بقليل، وراح يتضرع هو وزوجته للآلهة كى تمنحهما الذرية التى تعيش. ورأيناها فى عدة صور تتعبد للآلهة «حتحور وخنوم وساتت وعنقت». وقلنا إنه فى محاولة لتعزية نفرتارى عن حرمانها من الولد بنى لها مقبرة تعد من إبداعات الفن المصرى القديم (ص ٧٠٧). كما عمل لها عدة تماثيل. وفى متحف «بروكسل» توجد قطعة من تمثال للملكة نفرتارى نقش عليها بعض ألقابها:

الأميرة الممدوحة كثيرا - سيدة الرشاقة وواحة الحب - وارثة الوجه القبلى والبحرى - ماهرة اليدين فى الضرب بالصاجات والحلوة الحديث والغناء - زوجة الملك العظيمة ومحبوبته - زوجة الثور القوى - العائشة مثل الشمس أبديا «نفرتارى مرنموت». وكانت تشارك فى الاحتفالات الدينية بوصفها «زوج الإله». وألهت مثله وقد سبق أن ذكرنا (ص ٧٦٥) أن معبد أبى سمبل الصغير قد خُصِّص للإلهة حاتحور ولنفرتارى بوصفهما إلهتى المعبد. وعلى ذلك فليست هى «الزوجة المؤمنة».

٢ - مات نفرو رع :

وهذه هى الزوجة الثالثة وهى بالقطع ليست التى آمنت. فهى ابنة ملك «خيتا». وقد ذكرنا (ص ٨١٨) خبر قدوم والدها معها إلى مصر وزواجها من رمسيس الثانى وعمره ٥٧ سنه. زواجا سياسيا يدعم المعاهدة التى وقعت بين الدولتين.

٣ - إست نفرت :

قلنا سابقا (ص ٧٠٨) إن رمسيس الثانى لما بلغ سن ٢٣ أو ٢٤ سنة ولم يعش له ولد من زوجته الأولى نفرتارى تزوج من ثانى زوجاته وهى «إست نفرت». ومرت ٦ سنوات لم تنجب هى الأخرى أو كان أبناؤها يموتون بعد الولادة مباشرة. ولعل رمسيس الثانى فكر فى أن جو «طيبة» لا يلائم زوجاته فكان يكثر من الإقامة فى القصر الذى بناه فى قنتير ثم عمل على بناء مدينته الجديدة «برعمسيس» فى نفس المكان.

وكان ما كان من التقاط الطفل «موسى» من النهر (ص ٨٠٥) وألقى الله محبة هذا الطفل فى قلب إيست نفرت «**وألقيت عليك محبة منى**» وقالت عنه «**قرة عين لى ولك**». كل ذلك ذكرناه من قبل. وبعد أن كبر موسى بعض الشيء ولدت لرمسيس الثانى «رعمسيس الابن» و«خعمواست ثم «مرنبتاح». إلاّ أن «موسى» كان هو الأثير لديها.

ويوجد فى متحف «بروكسل» جزء من تمثال صغير لهذه الملكة عليه بعض نعوت تكاد تكون فريدة فى بابها إذ تقول: عندما تدخل فى المقر المزدوج فإن قاعة الاستقبال فى القصر تمتلىء بشذى عبيرها. وإنها الحلوة الرائحة بجانب والدها الذى يبتهج عند رؤيتها (لعل المقصود بجانب زوجها). هى الزوجة الملكية لسيد القصر. التى تملأ قاعة الجلسة بعبيرها. وهى المنقطعة النظير بعطورها إذ تعادل بلاد «بونت» بشذى أعضائها. الزوجة الملكية - والواقع أن هذه النعوت النسوية الدالة على طيب العبير وما يضوع منها من شذى العطور لم توصف به ملكة من قبل (سليم حسن. مصر القديمة. جـ ٦ ص ٤٣٧).

كانت الملكة نفرتارى هى الزوجة الرئيسية الأولى. وهى التى كانت تحضر الاحتفالات الدينية. وكانت هى التى تراسل ملكة «خيتا» وكتبت إليها كتابا تسألها فيه عن أحوالها مما

يعنى أنها كانت تعاون زوجها فى علاقاته السياسية. أما إست نفرت فكانت غير ذلك قانعة من الدنيا بحب زوجها، وحبها لموسى طفلها، ومن بعده بأولادها. ومن المؤكد أن المحبة التى ألقاها الله فى قلبها لموسى وهو طفل – كانت سببا فى إيمانها به حينما كبر وعاد رسولا نبيا، ولم تظهر – إيست نفرت» مع رمسيس الثانى فى أى رسم من آلاف الرسوم على آثاره العديدة إلا مرتين: واحدة فى رسم موجود على لوحة فى الطريق بين أسوان وجزيرة فيلة إذ وجدت لوحة فى الجزء العلوى منها رمسيس الثانى والملكة إيست نفرت والأمير خعمواست أمام الإله «خنوم» وفى الجزء السفلى ٣ من أبنائهما هم: الأمير رمسيس والأميرة بنت عنتا والأمير مرنبتاح. وقد سبق ذكر هذه اللوحة فى ص ٧٥٣ ومن المرجح أن هذه اللوحة كانت بمناسبة تعيين خعمواست وليا للعهد ولعلها ترمز إلى طلب مباركة الآلهة لولي العهد. فإذا كان الأمر كذلك فإن تاريخ اللوحة يكون السنة ٣٠ من حكم رمسيس الثانى وكان موسى عمره ٢٣ سنة وكان قد ترك القصر قبل ذلك بثمان سنوات ولكنه لم يكن قد ذهب إلى مدين أو آتته النبوة. فهذا الرسم لا يتعارض مع كونها قد آمنت بعد ذلك بموسى حينما أوتى النبوة ونفس الشيء ينطبق على الرسم الثانى الذى وجد فى جبل السلسلة.

تقول كتب التفسير (ابن كثير جـ ٤ ص ٣٩٤ – وتفسير الألوسى جـ ٢ ص ١٦٣) إن فرعون لما علم بإيمانها بموسى بدأ فى تعذيبها. قال ابن جرير إنها كانت تعذب فى الشمس. فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها فى الجنة. وأخرج البيهقى بسند صحيح عن أبى هريرة أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد فى يديها ورجليها فكانت إذا تفرقوا عنها أظلتها الملائكة.

وقد سبق أن نفينا (ص ٧٧٩) أن الفراعين كانوا يعذبون أحدا بهذه الطريقة. كذلك لا نوافق على ما قالته الكتب من أنه كان يضع الرحى على صدرها فى الشمس إذ هو تشبيه بما كانت تفعله قريش ببلال عندما علمت بإسلامه. كذلك فإن إيست نفرت كانت والدة خعمواست ولى العهد، وبعد أن توفى أصبح مرنبتاح هو ولى العهد وهى والدته أيضا. كما أن تعذيب الملكة هكذا على مرأى من الشعب– فضلا عن أنه إهانة للعرش وللفرعون نفسه – فإنه يدعو الناس للتساؤل عن سبب هذا التعذيب ويكون الجواب لأنها آمنت بموسى. فيكون التساؤل إذا كانت إحدى زوجاته – وهى ألصق الناس به – قد آمنت بموسى فهى تعرف أن فرعون ليس حقا إله وأن رب موسى هو الإله الحقيقى الذى يجب التعبد له. ويبدأ الناس فى الإيمان بموسى اقتداء بها. لذلك لانشك فى أن هذه الروايات عن تعذيبها هى محض اختلاق وضعوها لتفسير قولها «**نجنى من فرعون وعمله**».

وعلى العموم فإن قولها «**نجنى من فرعون وعمله**» لا تعنى بالضرورة علمه بإيمانها وشروعه فى تعذيبها – إذ يكفى أن تكون قد آمنت وتكتمت إيمانها وتطلب من الله أن يثبتها على هذا

الإيمان كما تطلب من الله أن لا يشركها فى عذاب يحل بفرعون بسبب سوء عمله من تكذيبه لموسى وتأليهه لنفسه وطلبت النجاة أيضا مما قد يحيق بقومها ووصفتهم بـ «القوم الظالمين» إذ ظلموا أنفسهم باتباعهم فرعون فى الكفر والضلال.

وقد سبق أن قلنا (ص ٨٠٥) إن امرأة فرعون لما قالت «**قرة عين لى ولك**» قال: يكون لك. وأما أنا فلا حاجة لى فيه. وجاء فى تاريخ الطبرى (جـ ١ ص ٣٩٣) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: والذى يحلف به. لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين. كما أقرَّت به. لهداه الله به كما هدى به امرأته. ولكن الله حرمه ذلك.

وفى صحيح البخارى (جـ ٤ ص ١٩٣) عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران. وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. وعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خير نساء العالمين أربع: مريم ابنة عمران. وآسيه امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رسول الله (صحيح مسلم جـ ٢ ص ٢٤٣ – مسند الإمام أحمد جـ ٣ ص ١٣٦).

ولا يخفى أن اسم «آسية» قريب جدا أو هو تعريب لاسم «إيست» أو «إيسة» كما يكتب أحيانا. و«إيست نفرت» هى والدة أهم ثلاثة من أبناء رمسيس الثانى:

١ – الأمير «رعمسسو» ونشاهده مصورا مع والدته وأخيه خعمواست فى مجموعة صغيرة بمتحف اللوفر.

٢ – الأمير «خمعواست» وتدل الآثار أنه كان أهم أولاد رمسيس الثانى ولما بلغ ١٥ سنة من عمره أعلنه رمسيس الثانى كاهنا أكبر للإله بتاح. وفى الاحتفال بالعيد الثلاثينى الأول أعلنه والده وليا للعهد. ولما بلغ خعمواست ٤٣ سنة من العمر توفى وأصبح أخوه «مرنبتاح» وليا للعهد إذ كان الأمير رعمسسو قد توفى هو الآخر.

٣ – مرنبتاح: وقد اختاره والده فى السنة ٥٥ من الحكم وليا للعهد. وكان عمر مرنبتاح حينئذ ٣٨ سنة.

نعود إلى «إست نفرت» زوجة فرعون التى آمنت ولعلها تكتمت إيمانها إلا أنه لاشك لاحظ من بعض تصرفاتها ما يوحى بإيمانها. فلعلها قد أبعدت عن حجرتها تماثيل الآلهة أو أنها لم تعد تتمتم بما كانوا يتعبدون به للآلهة. وفى رأينا أنه حتى لو كان لاحظ على تصرفاتها ما ينم عن إيمانها. فلاشك أنه تغاضى عن هذا الأمر وتكتمه هو الآخر. إذ هى زوجته وهى أم ولى العهد.. إلا أنها لم تكن لتطمئن إلى تصرفاته. فخشيت انتقامه بنفسه أو بالتحريض على إيذائها. لذلك فقد دعت الله سبحانه وتعالى أن ينجيها من فرعون وعمله وأن ينجيها أيضا من

قوم فرعون وقومها الظالمين، ودعت الله أن يجعل ثوابها فى الآخرة بيتا فى الجنة.

«وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون، إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله، ونجنى من القوم الظالمين». (١١ - التحريم)

ولعل فرعون لغضبه عليها وانتقاما منها أوحى إلى الكهنة أن يتهاونوا فى تحنيطها حتى يبلى جسدها وتحرم من البعث فى الآخرة كما فى تصوره، ولم يبن لها مقبرة مثل ما فعل لنفرتارى، بل ولم يدفنها فى مقابر الملكات فلم يعثر بين مومياوات الملكات على واحدة عليها اسمها، ولعل هذا من إكرام الله لها بسبب إيمانها وحتى لا يوضع جثمانها فى صندوق زجاجى يعرض للرائحين والغادين.

الأخـذ بالشـدة :

نعود الآن إلى رمسيس الثانى وقد اتضح أن القول اللين لم يعد يجدى معه، فلم يؤمن بالآيات التى أظهرها موسى ولم يستجب لدعوته لإطلاق بنى إسرائيل، ولم يستجب لنصح الرجل الذى آمن من قومه، ولم تقم فى مصر جبهة معارضة ترده عن غيِّه، بل إن فرعون كان يستخف بأى رأى آخر وكان الكل يطيعه :

«فاستخف قومه فأطاعوه، إنهم كانوا قوما فاسقين». (٥٤ - الأعراف)

وكان لابد من أخذ فرعون وقومه بالشدة.

«ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات». (١٣٠ - الأعراف)

فالإنسان فى الشدة يلتمس قوة عليا يلجأ إليها لتعينه فى شدته، وإذا كان فرعون قد ادعى الألوهية ففى حالات الشدة لن يكذب على نفسه ويستمر فى ادعاء الألوهية.

وهكذا أنزل الله بهم قحطا وجفافا ونقصا فى مياه النيل .والسنون جمع سنة والمراد بها القحط، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: اللهم اجعلها عليهم سنينا كسنى يوسف عليه السلام، وفى رواية أخرى: اللهم أعنى عليهم بسنين كسنى يوسف عليه السلام، ونقصت الثمار، قالوا، فاجتمعوا إلى فرعون وقالوا له: إن كنت كما تزعم فائتنا فى نيل مصر بماء، فقال غدوة يصبحكم الماء، فلما خرجوا من عنده فكر فيما قال وندم عليه إذ سيتضح كذبه فى الغد، قالوا فلما كان جوف الليل خرج حتى أتى النيل وقال: اللهم إنك تعلم أنى أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر ماء، فاملأه ماء، فما علم إلا بخرير الماء يقبل وامتلأ النيل ماء (تفسير الألوسى جـ ٢ ص ٣١)، وعلى الأرجح فإنه لما اشتد الجفاف أخذ الناس يتضرعون ويتلمسون رحمة الله، فرفع الله عنهم القحط، ومن رحمة الله وكرمه أن الله يرزق الكافر أيضا، وهو ما يسمى عطاء الربوبية، كما أن هناك الطفل والمغلوب على أمره والبهائم وهؤلاء لا ذنب لهم فى تكذيب فرعون وقومه ولكن الله بما ينزله من شدة يريد أن يتذكر هؤلاء الطغاة أنهم ضعاف ولا

يملكون من أمرهم شيئا فكيف يتجبرون فى الإرض ويستذلون قوما آخرين. وكان من رحمة الله بالناس أن رفعها عنهم. فلما رفعت عنهم وجاءهم الخصب والنماء والسنوات الحسنة قالوا لقد كنا نستحقها أما إذا جاءتهم الشدة والجدب لا يرُجعوا ذلك إلى سوء عملهم. بل يطيروا. والتطيُّر هو التشاؤم. ذلك أن العرب كانت تزجر الطير فتتشاءم إذا طار جهة اليسار وتتفاءل إذا طار جهة اليمين ثم عُمم التشاؤم على التطير ذاته.

وكانوا يُرجعون تشاؤمهم إلى وجود موسى ومن معه. فرد الله مقالتهم الباطلة هذه وكانت كلمة «ألا» للتنبيه بما بعدها. من أن الرخاء والشدة والحسنة والسيئة. كله من عند الله وأن الشدة التى تنزل بهم فى هذه الدنيا ما هى إلا مجرد تذكرة لهم ولكن جزاءهم الحقيقى عند الله. ولكنهم لا يعلمون ذلك ولا يعلمون ما أخفى لهم.

«ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين. ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون. فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه. وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه. ألا إنما طائرهم عند الله. ولكن أكثرهم لا يعلمون». (١٣٠ – ١٣١ – الأعراف)

والعجب أنهم عندما كانت تأتيهم هذه الآيات كانوا لا يأخذونها مأخذ الجد. بل يسخرون منها ويستهزئون بها ويضحكون. مع أنها كلها آيات كبيرة. دالة على النبوة.

«فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون. وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها». (٤٨–الزخرف)

واستمروا على تكذيبهم لموسى واتهامهم له بالسحر وإنكار أنه مرسل من رب العالمين. وأنه مهما أتى من أفعال. ومجاراة له واستهزاء به قالوا وما دمت تسميها آيات فسنقول – مهما تأتنا من آيات لتسحرنا بها فلن نؤمن لك. وكأنهم يشيرون إلى معجزة يوم الزينة ويصفونها هى أيضا بأنها كانت نوعا من السحر. مع أن السحرة أنفسهم اعترفوا بعجزهم أمامها ومن ثم كان إيمانهم.

«وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين».

(١٣٢ – الأعراف)

بهذا القول القاطع المعبر عن إصرارهم على الكفر. وصل الأمر – كما يقال – إلى طريق مسدود. وكان لابد من وسيلة أخرى لعل الغشاوة تنزاح عن أعينهم وعقولهم فيؤمنوا. فأنزل الله بهم عدة أنواع من العذاب بلغت تسعا أشد وأقسى. عسى أن يكون ذلك رادعا لهم

«وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون». (٤٨ – الزخرف)

كان الهدف أن يفيقوا من غفوتهم ويتوبوا إلى الله ويرجعوا إليه.

التسع آيــات :

فى سورة النمل، ذكرت معجزة العصا فى الآيه ١٠ – وفى الآية ١٢ جاء قوله تعالى :

«وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه، إنهم كانوا قوما فاسقين». (١٢ – النمل)

فاذا اعتبرنا معجزتى العصا واليد من التسع آيات، لكان الباقى سبعا، ذكر منها خمس فى سورة الأعراف (الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم) وتبقى اثنتان مبهمتان.

وإذا أخذنا الآيات بمعنى آيات من العذاب، لقوله تعالى:

«ومانريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون».

(٤٨ – الزخرف)

فإن معجزتى العصا واليد لا تدخل فى عداد التسع آيات إذ أنها معجزات ليس فيها عذاب، وذلك يزيد الآيات المبهمة إلى أربع، وهنا يثور السؤال: من أين نأتى بتفصيل هذه الآيات سواء كن اثنتين أو أربعا؟

ونأتى إلى الآية من سورة الإسراء وهناك خلاف كبير فى تفسيرها:

«ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم، فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا». (١٠١ – الإسراء)

والخلاف فى تفسير الآية وقع على جملة **«فاسأل بنى إسرائيل»** فما يفهم هو أن الخطاب موجه إلى نبينا عليه الصلاة والسلام، وقال القرطبى: أى سلهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات (تفسير القرطبى، جـ ١٠ ص ٣٣٦) وجاء فى تفسير الألوسى (جـ ١٥ ص ١٨٤) وقرأ بعضهم فَسَلْ، والظاهر أنه خطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم والسؤال بمعناه المشهور والمعنى فاسأل يا محمد مؤمنى أهل الكتاب، للدلالة على أنه أمر محقق عندهم ثابت فى كتابهم وليس المقصود حقيقة السؤال بل كون المسئولين من أهل العلم ولهذا يؤمر مثلك بسؤالهم والسؤال ليس على حقيقته، إلا أن كثيرين يرون أنه خطاب موجّه إلى موسى عليه السلام ويكون السؤال بمعنى الطلب أى ياموسى اطلب بنى إسرائيل من فرعون وقل له أرسلهم معى أو اطلب من بنى إسرائيل أن يعاضدوك وتكون قلوبهم وأيديهم معك أو سلهم عن إيمانهم وعن حال دينهم واستفهم منهم هل هم ثابتون عليه أو اتبعوا فرعون (تفسير الألوسى جـ ١٥ ص ١٨٤) وبعضهم مثل ابن جرير وابن عباس قرأها «فسال بنى إسرائيل» بغير همزة مثل قال.

ولعل من قالوا إن المأمور بالسؤال هو موسى عليه السلام رأوا حرجا فى أن يسأل نبينا صلى الله عليه وسلم بنى إسرائيل عن أمرما، على أننا لا نرى فى هذا الأمر حرجا، فالقرآن

الكريم والتوارة. كلاهما من عند الله عز وجل. وفي أكثر من موضع في القرآن الكريم يطلب الله من النبي صلى الله عليه وسلم أن يسأل بني إسرائيل:

«سل بني إسرائيل كما آتيناهم من آية بينة». (٢١١ – البقرة)

وإن كان السؤال هنا عن الآيات التي أفاضها الله على بني إسرائيل لا آيات العذاب التي أنزلها الله بفرعون وقومه. كذلك جاء قوله تعالى :

«ولقد بوأنا بني إسرائيل مُبَوَّأً صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين». (٩٣ – ٩٤ – يونس)

ولقد ذكرنا في الجزء الأول ص ٤ أن ما سكت عنه القرآن الكريم ينطبق عليه الحديث الشريف: حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج أو ينطبق عليه الحديث الثاني : إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم.

وعلى كل فنحن أمام تسع آيات. ذكر القرآن الكريم منها خمسا: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم. والمفهوم أنها آيات عذاب لقوله تعالى:

«وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون».
(٤٨ – الزخرف)

وأضاف ابن عباس وعكرمة السنين ونقص الثمرات على أنهما آيتان وإن كانتا في الحقيقة آية واحدة لأن نقص الثمرات ناتج عن السنين وجدبها. فيكون ما ذكر في القرن الكريم ستا. وأضف البعض آيتي العصا واليد وإن كانتا معجزتين وآيات قدرة وليس فيهما عذاب. والأولى عدم إدراجهم ضمن الآيات التسع.

حتى الآيات الخمس التي جاء ذكرها في سورة الأعراف ذكرت بالإسم فقط: **«الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم»** أما التفاصيل عما دار بين موسى وفرعون وعناد فرعون الذي استحق بسببه أن تنزل هذه الآيات به وبقومه فلا سبيل إليه إلا ترك العنان للخيال ليتصور كل واحد ما يشاء في هذا المجال أو أن نلجأ إلى التوراة لنستقي منها تفاصيل هذه المواقف. على أننا لم نأخذ كل ما جاء في التوراة بحذافيره لما وجدناه من ملاحظات.

١ – تجعل التوراة الآيات عشرا. وما قرره القرآن الكريم من أنها تسع آيات هو الحق. وقد وجدنا أن آيتي البعوض والدمامل المذكورتين في التوراة مرتبطتان الواحدة بالأخرى فأدمجناهما معا في آية واحدة وسنشرح ذلك في حينه.

٢ – جاء ترتيب الآيات في التوراة هكذا: الدم – الضفادع – البعوض – الذبان – وباء

المواشى - الدمامل - البرد وهو مقابل الطوفان - الجراد - الظلام - ثم الآية الأخيرة وهى موت الأبكار. وسنلتزم بالترتيب الذى جاء فى القرآن الكريم إذ هو الأحق بالاتباع فضلا أنه يتمشى مع المنطق: الطوفان (البرد) - الجراد - القمل (الذبان) - الضفادع - الدم - ثم أخذنا من التوراة: البعوض والدمامل باعتبارهما آية واحدة - ثم وباء المواشى - ثم الظلام - ثم الآية التاسعة وهى موت الأبكار والتى من خلالها حدث الخروج.

٣ - التوراة تسميها «ضربات» لأنه كان يُضرب بالعصا فتحدث الآية أو يحدث الوباء.

٤ - تذكر التوراة فى بعض المرات أن هارون هو الذى مَدَّ عصاه وفى مرات أخرى تذكر أن موسى هو الذى مد يده بالعصا - فقد جاء فى الإصحاح ٨ خروج: ٥ - فقال الرب لموسى قل لهارون مد يدك بعصاك على الأنهار... فمد هارون يده على مياه مصر. وفى الفقرة ١٦: ثم قال الرب لموسى قل لهارون مد عصاك واضرب تراب الأرض ففعلا كذلك. مد هارون يده بعصاه وضرب تراب الأرض. وما نظن أن هارون كانت له عصا تأتى بالمعجزات مثل عصا موسى كما لا نعتقد أن موسى كان يعطى عصاه لهارون ليضرب بها. فهى فى الحقيقة عصا واحدة. هى عصا موسى وهو الذى كان يضرب بها. وكان الخطاب فى القرآن الكريم لموسى عليه السلام : فألق عصاك - واضرب بعصاك الحجر - واضرب بعصاك البحر.

وهكذا شاءت إرادة الله أن يأتى موسى بهذه الآيات وينزل بفرعون هذه الضربات من العذاب. ومن رحمة الله أنها لم تكن «عذاب إبادة» كما حدث لقوم عاد وثمود مثلا. بل كانت ما يمكن أن نسميه «آيات ردع» لعلهم يفيقون من غفوتهم ويرجعون إلى الله «**وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون**» ومن رحمة الله أيضا أن الآيات لم تكن تأتى فجأة أو بغتة. بل كان موسى عليه السلام ينبههم قبل وقوعها ليحتاطوا فتكون الخسائر أقل ما يمكن فالمقصود أن يروا قدرة الله ويتأكد لهم أن الله يؤيد رسوله. وما يقوله يحدث وليس معنى ذلك ألا ينالهم أى ضرر من الآيات عند وقوعها. بل لابد من أن تطولهم الآية بشىء من العذاب فى معيشتهم أو أموالهم. أما آيتى العصا واليد فقد كانتا آيتين تعبران عن قدرة الله سبحانه وتعالى كما سبق أن ذكرنا ولم يكن فيها شدة أو عذاب ومن هذه الناحية لم تدرجا فى عداد التسع آيات المشار إليها والتى حدثت كما يلى:

١ - الطوفـان :

الطوفان من أى شىء ما كان كثيرا أو عظيما بحيث يطغى على غيره (المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٥٧٧) ومن ذلك قولنا مثلا طوفان من المعلومات. وقال الألوسى (تفسيره جـ ٩ ص ٣٣) أى ما طاف بهم وغشى أماكنهم وحرثهم من مطر أو سيل. وهو اسم لكل شىء حادث يحيط بالجهات ويعم كالماء الكثير والقتل الذريع والموت الجارف. وفسره مجاهد بالموت. وعن وهب أنه

الطاعون. وعن أبى قلابة أنه الجدرى. ولكن هذه التفسيرات الثلاث الأخيرة ليست صحيحة فيما يتعلق بما نحن بصدده. وعن ابن عباس الطوفان هو كثرة الأمطار المغرقة والمتلفة للزروع والثمار. وقد سميت هذه الآية فى التوراة بالبرَد وأنه كان بردا عظيما جدا. والبرد فى النهاية يتحول إلى ماء وإذا كان عظيما جدا كما وصفته التوراة فهو ماء جارف كالطوفان يغرق الزرع ولكن ليس من العظم كطوفان نوح بحيث يغرق الخلق أيضا. وهذا من رحمة الله إذ هو يريد من الخلق أن يتعظوا فيؤمنوا.

جاء فى التوراة (إصحاح ٩ خروج: ١٣) مع الاختصار: ثم قال الرب لموسى . بكر فى الصباح وقف أمام فرعون وقل له هكذا يقول الرب إله العبرانيين. أطلق شعبى ليعبدونى لأنى أرسل جميع ضرباتى إلى قلبك وعلى عبيدك وشعبك لكى تعرف أنه ليس مثلى فى كل الأرض. فإنه الآن لو كنت أمد يدى وأضربك وشعبك بالوباء لكنت تباد من الأرض ولكن لكى أريك قوتى. ها أنا غدا مثل الآن أمطر بَرَداً عظيما جدا لم يكن مثله فى مصر منذ تأسيسها إلى الآن. فالآن أرسل احم مواشيك وكل ما لك فى الحقل. جميع الناس والبهائم الذين يُوجدون فى الحقل ولا يُجمعون إلى البيوت ينزل عليهم البَرد فيموتون. فالذى خاف كلمة الرب من عبيد فرعون هرب بعبيده ومواشيه إلى البيوت. وأما الذى لم يوجه قلبه إلى كلمة الرب (أى لم يصدقها) فترك عبيده ومواشيه فى الحقل. وفى اليوم الثانى مدّ موسى عصاه نحو السماء فأعطى الرب رعودا وبَردا وأمطر الرب بردا على أرض مصر بشىء عظيم جداً لم يكن مثله فى كل أرض مصر منذ صارت أمة. وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل وكل ما كان فى الحقل من الناس والبهائم. إلا أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل فلم يكن فيها برد.

فأرسل فرعون ودعا موسى وهارون وقال لهما: أخطأت. الرب هو البار وأنا وشعبى الأشرار. صليا للرب وكفى حدوث رعود والبرد فأطلقكم. وجدير بالذكر أن العواصف الرعدية والبرد كانت نادرة جدا. حتى إن عاصفة رعدية حدثت أيام أمنحتب الأول ووصفت بأنها «معجزة» وأنها ظاهرة تجلى للإله «مين» (تفسير الكتاب المقدس. جاميسون وفاوست. ص. ٨٥) وتستمر التوراة: فقال موسى: عند خروجى من المدينة أبسط يدى إلى الرب فتنقطع الرعود ولا يكون البرد أيضا لكى تعرف أن الأرض للرب. وأما أنت وعبيدك فأنا أعلم أنكم لم تخشوا بعد من الرب الإله. فالكتان والشعير ضربا لأن الشعير كان مسبلا والكتان كان مبرزا وأما الحنطة فلم تُضرب لأنها كانت متأخرة.

ويمكننا من هذه الجملة الأخيرة أن نستنتج أن الطوفان أو البرد حدث فى أوائل شهر ديسمبر. حيث أن الكتان والشعير يزرعان فى منتصف أكتوبر. وفى أول ديسمبر يكون النمو الخضرى فيهما قد بلغ حوالى ١٥ – ٢٠ سم فإذا نزل عليه البرد أو أغرقه الطوفان ذبل ومات.

أما الحنطة (القمح) فإنها تكون قد بذرت فى الأرض ولم تنبت بعد فلا يصيبها ضرر. وهكذا كان اختيار وقت هذه الآية رحمة من الله بالعباد إذ تصيب بعض المزروعات مما يمكن الاستغناء عنه مثل الكتان. أما الحنطة التى يصنع منها الخبز وهو عماد الغذاء فلا تضار.

وتستمر التوراة (خروج ٩ : ٣٣) : فخرج موسى من المدينة من لدن فرعون وبسط يديه إلى الرب فانقطعت الرعود والبرد ولم ينصبَّ المطر على الأرض. ولكن فرعون لما رأى أن المطر والبرد والرعود انقطعت عاد يخطئ وأغْلَظَ قلبه هو وعبيده. فاشتد قلب فرعون فلم يطلق بنى إسرائيل.

ونلاحظ هنا أن موسى عليه السلام لم يبسط يده إلى السماء لرفع الطوفان إلا بعد أن خرج من المدينة. ولعله كان يخشى أن لو ارتفع البلاء قبل خروجه من المدينة أن يجهل فرعون عليه بأى شكل من الأشكال. وهو أدرى بطبع فرعون وتصرفاته.

ظن فرعون أن ماحدث كان «ظاهرة طبيعية» وأن موسى كان خبيرا بأحوال الطقس فعلم بالبرد والمطر قبل حدوثه. ولعله ظن أيضا أن انقطاعهما حدث مصادفة مع رفع موسى يده نحو السماء. فتوقف سقوط البرد. فنكص فرعون عن سابق وعده. ولما ذاب البَرَدَ أصبح طوفانا من الماء أغرق الأرض ومات الكتان والشعير. وبعد قليل أنبتت الحنطة ونمت. وظهرت سنابلها ممتلئة بالحبوب تبشر بمحصول وافر. وكان الربيع قد حلَّ. ومقدمة الصيف هلت. وأوشك القمح على النضج. ولعل فرعون قال فى نفسه: لقد كان المطر والبرد والطوفان خيرا وبركة وليس عذابا كما ادعى موسى! وكان لابد من آية ثانية تردع هذا الفرعون المتكبر.

٢ - الجـــراد :

تقول التوراة (إصحاح ١٠ خروج : ٣) فدخل موسى وهارون إلى فرعون وقالا له: هكذا يقول الرب إله العبرانيين إلى متى تأبى أن تخضع لى. أطلق شعبى ليعبدونى. فإنه إن كنت تأبى أن تطلق شعبى. ها أنا أجيء غدا بجراد على تخومك فيغطى وجه الأرض حتى لا يستطاع نظر الأرض. ويأكل الفضلة السالمة الباقية لكم من البرد. ويأكل جميع الشجر النابت لكم من الحقل ويملأ بيوتك وبيوت جميع عبيدك وبيوت جميع المصريين. الأمر الذى لم يره آباؤك ولا آباء آبائك منذ وُجدوا على الأرض إلى هذا اليوم. ثم تحول وخرج من لدن فرعون.

وهنا أيضا نلاحظ أن الله لم ينزل بهم آية الجراد فى التو واللحظة بل إن موسى أعطاهم مهلة إلى الغد حتى يفكروا فى الأمر. وانتهز فرعون هذه المهلة فأمر بحصد ما نضج من القمح فى الحقول تحوطا من أن يقع فعلا ما هدد به موسى وهو فى قرارة نفسه لم يكن ليصدق وقوعه. إذ لم يُعهد الجراد من قبل بالكثرة التى تهدد المحاصيل. ولعل نفسه راحت تحدِّثه:

الحقيقة أن موسى ساحر قدير فلعله قد اطلع بسحره على وجود جماعات الجراد فى الصحراء فراح يوهمنا بأنه هو الذى سيجلبها علينا. وعلى كلٍّ فقد أخذنا حذرنا وجمعنا أقصى ما يمكن من المحصول. أما المصريون فقد أخذوا تهديد موسى مأخذ الجد إذ تقول التوراة (خروج ١٠ : ٧): فقال عبيد فرعون له إلى متى يكون هذا لنا فخًا. اطلق الرجال ليعبدوا الرب إلههم. ألم تعلم بعدُ أن مصر قد خربت. فرُدَّ موسى وهارون إلى فرعون (أى راجع فرعون نفسه وأرسل فى طلب موسى وهارون) فقال لهما: اذهبوا اعبدوا الرب إلهكم. ولكن من ومن هم الذين يذهبون؟ فقال موسى نذهب بفتياننا وشيوخنا. ونذهب ببنينا وبناتنا. بغنمنا وبقرنا. لأن لنا عيدا للرب. فقال لهما: يكون هكذا. اذهبوا أنتم الرجال اعبدوا الرب. ورفض موسى وهارون ذلك فطردا من لدن فرعون.

واضح أن فرعون لم يكن فى نيته إطلاق سراح بنى إسرائيل ولذلك رفض خروجهم بأكملهم. وإن كان قد سمح بخروج الرجال لعبادة الرب فإنه أبقى الأبناء والنساء والمواشى كرهينة حتى يعود الرجال ويظلوا فى مصر فى السخرة التى سخرهم فيها.

وتستمر التوراة قائلة: ثم قال الرب لموسى مد يدك على أرض مصر لأجل الجراد ليصعد على أرض مصر ويأكل كل عشب الأرض كل ما تركه البرد. فمَدَّ موسى عصاه على أرض مصر فجلب الرب على الأرض ريحا شرقية كل ذلك النهار وكل الليل. ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد. فصعد الجراد على كل أرض مصر وحل فى جميع تخوم مصر. شىء ثقيل جدا لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك. وغطى وجه كل الأرض حتى أظلمت الدنيا. وأكل الجراد جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر الذى تركه البَردَ حتى لم يبق شىء أخضر فى الشجر ولا فى عشب الحقل فى كل أرض مصر. فدعا فرعون موسى وهارون مسرعا وقال أخطأت إلى الرب إلهكما ليرفع عنى هذا الموت. فخرج موسى من لدن فرعون وصلى إلى الرب فردَّ الرب ريحا غربية شديدة جدا فحملت الجراد وطرحته إلى بحر سوف (أى فى اتجاه البحر الأحمر). لم تبق جرادة واحدة فى كل تخوم مصر. ولكن فرعون أخلف وعده ولم يطلق بنى إسرائيل.

ولعل فرعون ظن فى نفسه أيضا أن ما حدث من إغارة الجراد كانت ظاهرة «طبيعية» ولكن بأعداد غير معتادة. وأن تهديد موسى أو دعاءه لم يكن لهما ارتباط بقدوم الجراد أو انحساره. فالريح الشرقية هى التى جاءت به والريح الغربية هى التى أبعدته. وأنى له أن يدرك أن الريح هى من جند الله يرسلها مرة بالخير ومرة بالعذاب.

«الله الذى يرسل الرياح». (٤٨ – الروم)

«وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون». (٥ – الجاثية)

وهكذا لم يدرك فرعون أن الريح جند من جنود الله، جاءت بالجراد بأمر الله، وأزاحته بأمر الله. وظن أن هذه كانت ظواهر طبيعية. وما أغلظ قلبَه كذلك أن محصول القمح – كما سبق أن قلنا – كان وافرا وأنه أُسرع بحصاد جزء كبير من المحصول وتم تخزينه في مخازن المدن وفي مدينته «بررعمسيس» ومدينة المخازن «فيثوم» اللتين سخر بني إسرائيل في بنائهما. وبالطبع سيكون هذا كله تحت أمره يكفيه هو وبلاطه والخاصة من رجاله. ولا بأس إن قاسى فقراء الشعب بعضا من الجوع فهذا ليس في اعتباره. وظن فرعون أنه بتدبيره وبمكره قد تلافي أضرار هذه الآية فكان لابد من آية أخرى تشعره أن تدبير الله فوق تدبيره.

٣ – القُمَّل :

ويجب التفرقة بين القَمْل بفتح القاف وسكون الميم – وهو الحشرة المعروفة التي توجد في الرأس لعدم نظافة الشعر وخاصة إذا كان طويلا – والقُمَّل بضم القاف وتشديد الميم وهو صغار الذر والدبا الذي لا أجنحه له. أو شيئ صغير بجناح أحمر يشبه الحَلَمْ (القرادة) خبيث الرائحة (القاموس المحيط – جـ ٤ ص ٤١). وقال سعيد بن جبير هو السوس.

لم تذكر التوراة آية القُمل هذه والتي ذكرها القرآن الكريم بعد الجراد. وهي بهذا الترتيب تأتي متسقة مع المنطق، إذ أن فرعون لما أيقن أنه قد أَمِنَ من أن يصيبه أذى من الجراد لمَا اختزنه من القمح تشدَّد قلبهُ ونكث وعده ولم يطلق بني إسرائيل، وعاد موسى يطلب من فرعون بني إسرائيل وهدده بآية أخرى أي آفة ثانية. ورفض فرعون فأرسل الله السوس على القمح الذي اختزنوه. وقال سعيد بن جبير كان الرجل يُخرج عشرة مكاييل إلى الرحا فلا ترد منها إلا ثلاثة. لأن السوس أكل الحب.

وعاد فرعون يطلب من موسى أن يدعو ربه أن يرفع عنهم هذا البلاء وأنه إن تم ذلك فسيطلق بني إسرائيل. فدعا موسى ربه فرفع عنهم البلاء وبقي لهم بعض الحب يتقوتون به رحمة من الله بهم، ولكن سرعان ما نسي فرعون وعده ولم يطلق بني إسرائيل.

البعض يرى في آية القمل وجها آخر. فالقُمَّل هو دويبة من جنس القراد إلا أنها أصغر منها، يقع في الزرع ويأكل السنبلة وهي غضة قبل أن تخرج. وربما تكون هي التي تسمى الآن النطاط (المعجم الوسيط. جـ ٢ ص ٧٦٦). وهو الدبى وهو الصغار من الجراد ولايسمى جراداً إلا بعد أن تنبت أجنحته. وروى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى هو القراد (تفسير الألوسي جـ ٨ ص ٣٤).

فإذا كان الأمر كذلك. فالأرجح أنها صغار الجراد أي النطاط وهو المسمى أيضا الدبى وتكون هي الوباء المذكور في التوراة باسم الذِّبَّان بتشديد الذال بضمة أو بكسرة وتقول في ذلك (إصحاح ٨ خروج : ٢٠): ثم قال الرب لموسى: بَكرٍّ في الصباح وقف أمام فرعون. إنه

يخرج إلى الماء وقل له هكذا يقول الرب. أطلق شعبى ليعبدونى. فإنه إن كنت لا تطلق شعبى ها أنا أرسل عليك وعلى عبيدك وعلى شعبك وعلى بيوتك الذبان فتمتلىء بيوت المصريين ذبانا وأيضا الأرض التى هم عليها. أما أرض جاسان فلا يكون هناك ذبان. غدا تكون هذه الآية. ففعل الرب هكذا. فدخلت ذبان كثيرة فى كل أرض مصر، وخربت الأرض من الذبان.

ويكون الواقع أنه بعد أن أتى الجراد على كل نبات أخضر وطلب فرعون من موسى أن يرفع عنه وباء الجراد. وحنث بوعده. كانت النباتات قد بدأت الحياة تدب فيها من جديد ونبتت لها بعض البراعم الصغيرة. فسلط الله عليها النطاط. فكاد أن يأتى عليها وشعر فرعون ببعض الخوف فالقمح المخزون أكله السوس، والجراد أكل الأخضر وها هو النطاط قد يأتى على الباقى، وها هو مُعرَّض هو وأهل بيته للهلاك جوعا. وكان لابد من المداهنة. فدعا فرعون موسى ووعده إذا رفع عنه البلاء أن يترك بنى إسرائيل ليعبدوا إلههم كما يشاءون.

وتستكمل التوراة قائلة: فدعا فرعون موسى وهارون وقال اذهبوا اذبحوا لإلهكم فى هذه الأرض (أى فى أرض مصر حتى لا يخرجوا من مصر). فقال موسى: لايصلح أن نفعل هكذا. واحتج موسى بأن بعض شعائر عبادتهم قد تغضب المصريين فيرجمونهم وطلب أن يذهبوا بعيدا فى الصحراء سفر ثلاثة أيام حتى يكونوا بعيدين عن أعين المصريين. لم توضح التوراة ماهية هذه الشعائر التى قد تغضب المصريين. ولكن ذكر فى تفسير الكتاب المقدس (جـ ١ ص ٢٢٧) أن بنى إسرائيل لو قدموا قرابين ذبيحة من الغنم أو المعزى أو العجول أو البقر – وهى حيوانات كانت مقدسة عند المصريين القدماء. لغضب المصريون وثاروا عليهم لذلك طلب موسى أن يذهبوا سفر ثلاثة أيام فى البرية. وأظهر فرعون موافقته على هذا الشرط. وقال ولكن لا تذهبوا بعيدا. وطلب من موسى وهارون أن يرفعا البلاء: صليا لأجلى. فقال موسى ها أنا أخرج من لدنك وأصلى إلى الرب. فيرتفع الذبان عن فرعون وعبيده وشعبه غدا. ولكن لا يعُد فرعون يخاتل حتى لا يطلق الشعب ليذبح للرب.

وكأنما كان موسى يشعر بأن فرعون لن يلبث أن ينكث وعده. إذ ما إن ارتفع الذبان عن أرض مصر حتى رفض فرعون مسيرة بنى إسرائيل الذى سبق ووافق عليها.

كان لابد من آية تنال فرعون نفسه. فالآيات السابقة كلها كانت تصيب الزرع ولكن من رحمة الله أنها لم تكن تصل بهم إلى حد المجاعة الكاملة وحتى لو حدث نقص شديد فى الغذاء فإن فرعون لابد واجد مأكله هو وحاشيته وليمت من الشعب من يمت!! ولعل فرعون استمرأ هذا الوضع فراح يعد المرة تلو المرة بإطلاق سراح بنى إسرائيل ثم ينكث وعده فى كل مرة. فكان لابد من آيات تنال الفرعون فى شخصه كما تصيب باقى المصريين، وتقلق راحته فى بيته ومأكله ومشربه. وهنا نلاحظ تغيرا فى نوعية الآيات. فجاءت آية الضفادع تليها آية الدم وكانت تلك آخر الآيات التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم واستكملنا بعدها آيتين من التوراة تتبع

الآيات السابقة بتسلسل منطقى هما البعوض والدمامل كآية واحدة ثم وباء المواشى ثم الآية الثامنة وهى آية الظلام ثم الآية التاسعة والأخيرة والتى تم الخروج من خلالها وهى آية موت الأبكار.

٤ - الضفادع :

قال الرب لموسى (توراة - خروج ٨ : ١) ادخل إلى فرعون وقل له هكذا يقول الرب أطلق شعبى ليعبدونى. وإن تأبى أن تطلقهم فها أنا أضرب جميع تخومك بالضفادع. فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتدخل إلى بيتك وإلى مخدع فراشك وعلى سريرك وإلى بيوت عبيدك وعلى شعبك وإلى تنانيرك وإلى معاجنك. عليك وعلى شعبك وعبيدك تصعد الضفادع. وأبى فرعون أن يطلق بنى إسرائيل وهنا تقول التوراة إن الذى أجريت المعجزة على يديه هو هارون: فقال الرب لموسى. قل لهارون مد يدك بعصاك على الأنهار والسواقى والآجام وأصعد الضفادع على أرض مصر. فمد هارون يده على مياه مصر فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر. ودعا فرعون العرافين علهم يستطيعون صرف الضفادع فلم يقدروا.

فدعا فرعون موسى وهارون وقال صليا إلى الرب ليرفع الضفادع عنى وعن شعبى فأطلق الشعب (بنى إسرائيل) ليذبحوا للرب. فقال موسى عين لى متى أصلى لأجلك ولأجل عبيدك وشعبك لقطع الضفادع عنك وعن بيوتك ولكنها تبقى فى النهر فقال غدا. فقال كقولك. ثم خرج موسى وهارون من لدن فرعون وصرخ موسى إلى الرب فماتت الضفادع من البيوت والدور والحقول وجمعوها أكواما كثيرة حتى أنتنت الأرض. فلما رأى فرعون أنه قد حصل الفرج أغلظ قلبه ولم يسمع لهما - أى ولم يطلق بنى إسرائيل. وكان لابد من آية أخرى. وقبل أن ننتقل إلى الآية التالية نشير الى ما قاله عالم الآثار «جيمس بيكى» (آثار مصر القديمة جـ ١ ص ٥٥): ومن أعجب مكتشفات عالم الآثار «بترى» - فى أثناء تنقيبه فى عام ١٩٠٥ - ١٩٠٦ فى تل الرطابة - سلطانية رائعة الشكل مصنوعة من الخزف الأزرق إذ تحيط بها ١٩ ضفدعة فى حين تتسلق ضفادع أخرى عديدة الجوانب الداخلية للآنية مكوّنة حشدا ضخما عند فوهتها. وتتوسط السلطانية كذلك ضفدعة كبيرة هى بلا شك ملكة تلك الضفادع إذ تجلس متوجة على قاعدة. وهذه السلطانية فريدة فى صناعة الخزف المصرى. ثم يستطرد ويقول: ونرجوا ألا يكون وجودها فى مكان كهذا - يتصل بالخروج - داعيا لأن يعلن أحد المتحمسين أنها دليل صدق على واقعة الطاعون الواردة فى التوراة إصحاح ٨ خروج - إذ يرجع تاريخ هذه الآنية إلى الأسرة الثانية والعشرين. وردا على قول جيمس بيكى هذا نقول: ولم لا تكون كذلك؟ إذ أن فنانى الأسرة التاسعة عشرة وقت وقوع وباء الضفادع - مثلهم مثل باقى الشعب - لم يكن همهم هو تسجيل الحدث بقدر ما كان يعنيهم فى المقام الأول خلاصهم منه. وما إن تخلصوا منه حتى جاءتهم آية الدم ثم البعوض فالدمامل. كل هذا لم يترك فرصة ولا أوجد

المناخ للفنانين الذين عاينوا هذه الأوبئة أن يسجلوها . ولكي بعد أن تمر الأزمة، وتصبح تاريخا يروى، وحكاية تتسلى برواياتها الأجيال المتتالية تنبت الفكرة في ذهن أحد الفنانين ليتخيلها ويصورها في إناء كهذا . من هنا يمكننا أن نقول إن وجود مثل هذا الأثر الفريد يعتبر دليلا ماديا ملموسا على صحة واقعة الضفادع، وإن لم نكن في حاجة له إذ يكفي ورودها في القرآن الكريم.

وعلى كل فهذا الأثر يصور لنا مدى ضخامة الأثر التي أحدثته هذه الآية على بساطتها . ولنا أن نتصور الضفادع تخرج من فرع النيل ومن الترع وتملأ كل المنطقة المحيطة بالعاصمة بررعمسيس، وجحافل الضفادع بالآلاف بل بالملايين تملأ الشوارع والطرقات، وما إن يفتح أحد باب بيته إلا وتغزوه الضفادع، وإن أغلق على نفسه الباب دخلت عليه من الشباك وتتقافز على الأرض وعلى الأسرة وعلى الكراسي وعلى مائدة الطعام بل وما إن توضع أطباق الأكل حتى تقفز إليها الضفادع، ويدخل أحدهم لينام فيجد الضفادع قد شاركته السرير، حتى الفرعون نفسه لم ينج من هذا وأصبحت حياته عذابا لا يطاق، فطلب من موسى أن يرفع عنه وعن شعبه هذا البلاء ووعد بإطلاق بني إسرائيل ولكن ما إن اختفت الضفادع من البيوت حتى نكث فرعون وعده ولم يسمح لبني إسرائيل بالخروج، فكانت الآية التالية.

٥ - الـدم :

تقول التوراة (إصحاح خروج ٧ : ١٤) ثم قال الرب لموسى، قلب فرعون غليظ قد أبى أن يطلق شعبي، اذهب إلى فرعون في الصباح، إنه يخرج إلى الماء (لعله كان يخرج في الصباح يتريض أو للاستحمام)، قف للقائه على حافة النهر، والعصا التي تحولت حية تأخذها في يدك وتقول له الرب إله العبرانيين أرسلني إليك قائلا، أطلق شعبي ليعبدوني في البرية وهو ذا حتى الآن لم تسمع، هكذا يقول الرب بهذا تعرف أني أنا الرب، ها أنا أضرب بالعصا التي في يدي على الماء الذي في النهر فيتحول دما ويموت السمك الذي في النهر وينتن النهر فيعاف المصريون أن يشربوا ماء من النهر.

ورفض فرعون إطلاق بني إسرائيل، ورفع موسى العصا وضرب الماء الذي في النهر أمام عيني الفرعون فتحول كل الماء الذي في النهر دما ومات السمك وأنتن، ولم يقدر أحد أن يشرب ماء من النهر، وحفر جميع المصريين حوالي النهر لأجل ماء ليشربوا لأنهم لم يقدروا أن يشربوا من ماء النهر، أي قام المصريون بحفر آبار للحصول على المياه الجوفية، وكما حدث في كل مرة وعد فرعون بإطلاق بني إسرائيل لو رفع البلاء، فدعا موسى فعاد الماء نقيا كما كان ولكن فرعون لم يف بوعده ولم يطلق بني إسرائيل.

يحاول البعض أن يفسر آية الدم على أنها كانت مجرد احمرار ماء النيل بفعل الفيضان، فيقول وارنركيللر (تاريخ الكتاب المقدس، بالإنجليزية، ص ١١٦) إن الطمي الآتي من بحيرات

الحبشة يصبغ ماء الفيضان بلون أحمر قاتم وخاصة فى مصر العليا. وهذا ما يشبه الدم! وفى وقت الفيضان تكثر الضفادع والذباب وتتكاثر أعدادها حتى لتصبح وباء. أما الدمامل فمعروف أنها تكثر فى فصل الصيف وخاصة وقت ازدياد الرطوبة عند مجىء الفيضان وهو ما يعرف عند العامة بـ «حمو النيل».

وردا على ذلك نقول إن الفيضان يأتى لمصر منذ آلاف السنين ويرى المصريون مياهه وهى تصطبغ باللون الأحمر نتيجة الطمى. وما كان يفوت على فرعون ولا على المصريين ذلك وما كان أسهل أن يقول فرعون إنه الفيضان ليس إلا وتسقط حجة موسى إذا كان كذلك. وما كانت الأوبئة التى ذكرت أيضا شيئا مما يصاحب الفيضان من كثرة الضفادع والذباب والدمامل. فهذه كلها معروفة لدى المصريين ولكن شدة الإصابة بها. وظهورها فجأة واختفاءها فجأة مصاحبا لتلويح موسى بعصاه كل ذلك يدل على أنها ليست ظاهرة طبيعية وإنما هى معجزة إلهية يؤيد الله بها رسوله موسى.

٦ - البعوض والدمامل :

تذكر التوراة هاتين على أنهما آيتان منفصلتان وقد جمعناهما فى آية واحدة لتصبح الآيات تسعا كما قرر القرآن الكريم. والواقع أن البعوض فى حد ذاته - مهما كثر وكثرت لسعاته - ليس بالمعضلة المستعصية الحل إذ يمكن اتقاء لسعاته بالملابس التى تغطى الجلد. صحيح أن بعض اللسعات لا مفر منها ومن الممكن تحملها. أما لو كانت اللسعة ينتج عنها دمل لكانت المشكلة جد خطيرة إذ لابد للمرء فى بعض الأوقات من كشف يده أو رجله أو وجهه - فتصيبها لسعات البعوض وينتج عنها دمامل.

وقد ذكرت التوراة الآيتين هكذا: (خروج ٨ : ١٦) ثم قال الرب لموسى. قل لهارون مُد عصاك واضرب تراب الأرض ليصير بعوضا فى جميع أرض مصر. ففعلا كذلك. مد هارون عصاه وضرب تراب الأرض فصار البعوض على الناس وعلى البهائم. كل تراب الأرض صار بعوضا. وحاول العرّافون بسحرهم ليخرجوا البعوض فلم يستطيعوا. فقال العرافون لفرعون هذا أصبع الله ولكن اشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب. (خروج ٩ : ٨) ثم قال الرب لموسى وهارون خذا ملء أيديكما من رماد الأتون وليذره موسى نحو السماء أمام عينى فرعون ليصير غبارا على كل أرض مصر فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور. ففعلا كذلك ولم يستطع العرافون أن يقفوا أمام موسى. ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يسمع لهما كما كلم الرب موسى.

٧ - وباء المواشي :

(خروج ٩ : ١) ثم قال الرب لموسى ادخل إلى فرعون وقل له هكذا يقول الرب إله العبرانيين. أطلق شعبى ليعبدونى فإنه إن كنت تأبى أن تطلقهم فها يد الرب تكون على

مواشيك التى فى الحقل: على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم وباء ثقيلا جدا وتموت. ويميز الرب بين مواشى إسرائيل فلا يموت منها شيء، وعيَّن الرب وقتا قائلا غدا يفعل الرب هذا الأمر. ففعل الرب هذا الأمر فى الغد فماتت جميع مواشى المصريين وأما مواشى بنى إسرائيل فلم يمت منها واحد. ولكن غلظ قلب فرعون فلم يطلق الشعب.

ويقول تفسير الكتاب المقدس (جاميسون وفاوست ص ٨٤) إن المفهوم أيضا أن المواشى التى هلكت هى فقط التى كانت فى الحقول أما التى أبقوها فى البيوت فلم يصبها شيء وهذا هو المفهوم من تعيين «الغد» لهذا الأمر حتى يحتاط المصريون ويحموا بعض مواشيهم كما حدث فى آية الطوفان (البَرَد) إذ لو كان المطلوب إبادة المواشى كلها لتم ذلك من فوره ولا داعى للانتظار إلى الغد.

لقد رأينا أن فرعون والمصريين قد نزلت بهم حتى الآن سبعة أوبئة وفى كل مرة كان فرعون يعد بإطلاق بنى إسرائيل لو رفع عنه الوباء، وكانت كل آية من هذه الآيات هى أكبر من أختها أى أن أى آية كانت كبيرة بحيث أن آية واحدة كانت تكفى لأن يؤمن فرعون ويصدق فى وعده ولكنه كان يسخر من موسى ولاينفذ وعده. ويضحك من الآية ويوهم الناس أنها سحر وأنه قادر على مثلها ومع هذا فقد أمهله الله وجاءه ليس بآية واحدة بل عدة آيات:

«فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون. وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون. وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون. فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون».

(٤٧ – ٥٠ – الزخرف)

وأجمع المفسرون (الألوسى جـ ٢٥ ص ٨٨ – ابن كثير جـ ٤ ص ١٢٩ – القرطبى حـ ١٦ ص ٩٧) على أن وصف فرعون لموسى بالساحر فيه تعظيم فقد كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر، وكان علماء زمانهم هم السحرة ولم يكن السحر فى زمانهم مذموما. فليس هذا القول منهم على سبيل الانتقاص منهم لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك وإنما هو تعظيم. ولكننا نرى غير ذلك إذ لو أرادوا التعظيم لقالوا يا أيها النبى أو على الأقل نادوه باسمه وقالوا يا موسى، وقولهم يا أيها الساحرليس تعظيما بل هو تصغير لشأنه إذ فيه إصرار على إنكار نبوته. وإمعانا فى عدم الاعتراف بنبوته قالوا **«ادع لنا ربك»** فكأنه ربه هو فقط وليس ربهم. و **«بما عهد عندك»** أى بما أخبرتنا من عهده إليك واستجابته لكل ما تطلب منه. فإنه إن كشف عنا سنؤمن بك **«إننا لمهتدون»**. وهنا نكتشف المغالطة من جانبهم إذ المفروض أن يؤمنوا فيكشف عنهم العذاب ولكنهم اشترطوا أن يكشف عنهم العذاب أولا وبعد ذلك يؤمنوا. فلما كشف الله عنهم العذاب نكثوا وعدهم. وهذا ما عُبِّر عنه فى سورة الأعراف:

«ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل. فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون». (١٣٤ - ١٣٥ - الاعراف)

وتكرر هذا منهم. وفى كل مرة يرفع عنهم العذاب لا ينفذون ما وعدوا به فكان لابد من آية أخرى وسنرى فى هذه الآية الثامنة أنها تعدت أشخاصهم إلى ما كانوا يعتقدون من آلهة وبالذات إلههم الأكبر إله الشمس «رع».

٨ - الظلام :

ثم قال الرب لموسى (خروج ١٠ : ٢١) مد يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر حتى يلمس الظلام. فمد موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس ثلاثة أيام. لم يبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام ولكن جميع بنى إسرائيل كان لهم نور فى مساكنهم.

ويمكننا أن نتصور وقع هذا الإظلام المستمر لمدة ثلاثة أيام على المصريين. إذ هم يعتقدون اعتقادا قويا فى «رع» إله الشمس. وصحيح أنه كان يحدث كسوف كلي للشمس فى بعض السنوات ولكن الإظلام لا يستمر إلا ساعات قليلة ثم تعود الشمس كما كانت. أما أن يستمر الإظلام ثلاثة أيام متواصلة فهذا قد أشعر المصريين أن «رع» لا يملك من أمر نفسه شيئا. وشعر فرعون نفسه أيضا أن ذلك أمر غير عادى، ولعل الناس قد لجأوا إليه ليعيد إليهم الشمس والنور والدفء - أليس هو ابن «رع» ؟ أو لم يدع أنه إله بين الآلهة؟ ولعله وعد الشعب بأنه سيرفع عنهم هذا الإظلام بقدرته هو. وفى نفس الوقت كان قد عزم على التظاهر بقبول شروط موسى هذه المرة - على الأقل حتى يرفع عنهم هذه الآية. كان فرعون فى المرات السابقة لا يمانع فى ذهاب الرجال وحدهم للعبادة مع بقاء النساء والأطفال. ضمانا لعودتهم - ولكنه هذه المرة وافق على ذهاب النساء والأطفال مع الرجال للعبادة. «فدعا فرعون موسى وقال اذهبوا اعبدوا الرب. أولادكم أيضا تذهب معكم. غير أن غنمكم وبقركم تبقى. وواضح أن فرعون كان يهدف إلى ضمان عودتهم ثانية إلى أرضهم بعد العبادة إذ لو خرجوا بدون الغنم والبقر فلن يستطيعوا أن يأخذوا من الطعام إلا القليل الذى ما إن ينفذ حتى يعودوا إلى أرض جاسان. فإبقاء البقر والغنم «رهينة» لديه فيه ضمان لعودتهم. وإلا لو فكروا فى التوجه إلى أرض فلسطين بدونها فمعناه هلاكهم فى الصحراء الجرداء أما لو أخذوا معهم الماشية والأغنام فهم يشربون ألبانهما ويأكلون لحومها كما أنها تحمل الحب والطحين اللازم لخبزهم طوال مسيرتهم فى الصحراء. ولهذا أصر موسى على أخذ الغنم والماشية. وإن لم يفصح عن رغبته فى الخروج من مصر بغير رجعة. «فقال موسى أنت تعطى أيضا فى أيدينا ذبائح ومحرقات لنصنعها للرب إلهنا. فتذهب مواشينا أيضا معنا. لا يبقى ظلف. لأننا منها نأخذ لعبادة الرب إلهنا. ونحن لا نعرف بماذا نعبد الرب حتى نأتى إلى هناك» لم تكن هذه الآية -

كالآيات السابقة مشروطة بوعد الفرعون بالسماح لبنى إسرائيل بالخروج حين ترفع ولكنها كانت إظلاما لمدة ٣ أيام تعبيرا عن قدرة الله على محق ما يظنون أنه إله وهو «رع» إله الشمس، وحتى النجوم لم تعد تعطى نورها الضعيف الذى كانوا يلمسونه عند محاق القمر.

يحاول البعض تفسير هذه الآية على أسس علمية (وارنر كيللر، تاريخ الكتاب المقدس ص ١١٧ – وجاميسون وفاوست، تفسير الكتاب المقدس، ص ٨٦) فيقولون إن رياح الخماسين معروفة بما تثيره من غبار فى الجو بكميات هائلة تحجب الشمس ويصفر الجو أو يحمر وإذا زادت كثافة الغبار تحوّل النهار ظلاما. والرد على ذلك أن رياح الخماسين لو بلغت كثافة الغبار إلى الحد الذى يحيل النهار ظلاما تاما لاختنق الناس من شدته وخاصة لاستمراره ثلاثة أيام متواصلة، ونحن نرى فى عصرنا أن رياح الخماسين حينما تفعل ذلك لا يستمر الإظلام إلا عدة ساعات ولا يكون إظلاما تاما – وتكتمل المعجزة بأن يعم الظلام المنطقة التى فيها فرعون وقومه أما المنطقة التى كان يسكنها بنو إسرائيل فإن الإظلام لم يشملها.

نعود إلى فرعون، وهو إذ عرف أن هذه الآية موقوتة بثلاثة أيام ولا يشترط الرضوخ لطلبات موسى لرفعها فإنه تشدد فى رفضه بل وأغلظ القول لموسى وقال له (خروج ١٠ : ٢٧): «اذهب عنى، احترز . لا تر وجهى أيضا. إنك يوم ترى وجهى تموت، فقال موسى نِعمًا قلت. أنا لا أعود أرى وجهك أيضا».

كان فرعون قد ضاق بهذه الأوبئة التى ينزلها موسى به وبشعبه ولعله ظن أنه بتهديد موسى بالقتل «يوم ترى وجهى تموت» يجعله يهرب إلى مكان آخر فلا ينزل به آيات أخرى، إذ كان موسى دائما يأتى أولا إلى فرعون يحذره من وقوع الآية. فإذا كان سيهرب إلى مكان آخر أو سيكف عن المجيء خوفا من هذا التهديد – فإنه لن يأتى بآية أخرى.

وكان موسى عليه السلام أيضا قد فاض به من كثرة وعود فرعون بإطلاق سراح بنى إسرائيل وتكرار إخلافه وعده، وعلم أن فرعون لن يؤمن أبداً. من هنا كان دعاء موسى على فرعون بأن يطمس الله على أموالهم ويشدد على قلوبهم حتى يكونوا مستحقين العذاب الأليم الذى ينزل بهم وأمّن هارون على دعاء موسى. فأخبرهما الله سبحانه وتعالى أنه قد استجاب لدعائهما وأن عذابا أليما سينزل بفرعون وقومه، وأمرهما بالثبات على الطريق المستقيم «فاستقيما» وينسحب هذا الأمر أيضا بالطبع على كل بنى إسرائيل بانتهاج الطريق القويم وإتيان العبادات التى أُمروا بها وترك الأمر بعد ذلك لله يدبره كيفما يشاء لأن الذين لا يعلمون عن حكمة الله سبحانه وتعالى يتوقعون تطبيقا سريعا لاستجابة الدعاء بنزول العذاب فورا. ونهى الله موسى وهارون عن اتباع سبيل هؤلاء الذين لا يعلمون أو التفكير كما يفكرون لأن حكمة الله لا تُدْرَك بسهولة وإمهاله للمجرم بعض الوقت إنما ليكون أخذه له بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر.

«وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك. ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون».
(٨٨ - ٨٩ - يونس)

وطمس الشيء غير صورته (المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٥٧١). والمعنى أى عاقبهم على كفرهم بإهلاك أموالهم. وهنا يلعب الخيال دوره لدى البعض فقد نسبوا إلى ابن عباس قوله: صارت أموالهم ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأثلاثا وأنصافا ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعد. وقال قتادة بلغنا أن أموالهم وزرعهم صارت حجارة. كما قيل إن عمر بن عبدالعزيز سئل عن ذلك فدعا بكيس وجد فى مصر وأخرج منه فواكه ودراهم ودنانير وأنها لحجارة (تفسير القرطبي جـ ٨ ص ٣٧٤). والحقيقة أن النقود المعدنية - فضة أو ذهبا - بهيئتها التى نعرفها لم توجد إلا ابتداء من عصر الرومان أما قبل ذلك فكان البيع والشراء يتم بطريق المقايضة وإن كانت القيمة تنسب إلى الفضة فمثلا يقال هذا الكبش يساوى كذا مثقال فضة وهذا القمح يساوى كذا مثقال ويتم التبادل ويدفع الفرق قطعا من الفضة أو أى سلعة أخرى. فلا وجه لما قالوه من تحول الدراهم إلى حجارة. ومن ثَم ويكون الطمس على الأموال بمعنى نزع البركة منها فلا يتم الحصول عليها إلا بمشقة وإن كان ثمارا أسرع اليها التلف وإن كانت أنعاما عقمت ولم تلد وهكذا.

وأثار البعض مسألة أن دعاء موسى عليه السلام: **«فلا يؤمنوا»** هو دعاء بالكفر وهذا غير جائز. وقال الألوسى (تفسيره - جـ١١ ص ١٧٤) إن صاحب الذخيرة ذكر عن أبى حنيفة قوله إن الرضا بكفر الغير كفر. وردَّ البعض بأن الرضا بالكفر أو الدعاء به - من حيث كونه سببا للعذاب الأليم - ليس بكفر. وفى رأينا أنهم قد قرأوا **«فلا يؤمنوا»** بتوقف بعدها ثم **«حتى يروا العذاب الأليم»** أى ليكون العذاب الأليم من نصيبهم. والأولى أن تقرأ متصلة: **«فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم»** والمعنى حينئذ ليس دعاء بعدم الإيمان بل أن يؤخر إيمانهم إلى حين يرون العذاب الأليم. وفى هذه الحالة ينطبق عليهم معنى الآية.

«فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا. سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك المبطلون».
(٨٤ - ٨٥ - غافر)

من هذا يكون موسى عليه السلام لم يدع على فرعون بالكفر بل دعا بتأخير الإيمان إلى حين لا ينفعه. وقد استجاب الله سبحانه وتعالى هذا الدعاء **«قدأجيبت دعوتكما»**. وفعلا تأخر إيمان فرعون كما سنرى فيما بعد (ص ٩٥٣).

«حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين». (٩٠ - ٩١ - يونس)

ففرعون قد آمن وهو فى النزع الأخير وهو ما لاينفعه ولايُقبل منه. وهذا يتمشى مع قوله تعالى:

«وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن.....» (١٨-النساء)

من هذا نرى أن دعاء موسى عليه السلام على فرعون «فلايؤمنوا» لم يكن دعاء بعدم الإيمان مطلقا أو رضا بكفره. فلا محل لما أثير حول ذلك.

ونعود لنستكمل الآيات التسع بذكر الآية الأخيرة والتى تمكن بنو إسرائيل من الخروج من مصر أثناءها رغما عن فرعون بل إنه فى البداية رحَّب بخروجهم ثم عاوده العناد فطاردهم وكان فى هذا هلاكه.

٩ - الآية الأخيرة - موت الأبكار :

لم يكن من المعقول أن يستمر الأمر هكذا إلى مالا نهاية. يعد الفرعون بإطلاق بنى إسرائيل ثم ينكث وعده بعد رفع البلاء. تكرر هذا ثمان مرات سابقة وكان لابد من نهاية لعناده وأن يخرج بنو إسرائيل من مصر فكانت الآية الأخيرة «**موت الأبكار**».

تقول التوراة (إصحاح ١١: خروج): ثم قال الرب لموسى: ضربة واحدة أيضا أجلب على فرعون وعلى مصر. بعد ذلك يطلقكم من هنا وعندما يطلقكم يطردكم طردا من هنا بالتمام. تكلم فى مسامع الشعب أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين (أى جعل المصريين يوافقون على إعارتهم ما طلبوا من حلى).

ونرجع أيضا إلى الإصحاح ٣ خروج (فقرة ١٨) لتضمنها نفس المعنى إذ تقول : والكلام على لسان الرب لموسى: ولكنى أعلم أن ملك مصر لا يدعكم تمضون ولا بيد قوية فأمد يدى وأضرب مصر بكل عجائبى التى أصنع فيها وبعد ذلك يطلقكم. وأعطى نعمة لهذا الشعب فى عيون المصريين فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين.

وفى تفسير هذه الجملة الأخيرة يقول أهل الكتاب (تفسير الكتاب المقدس جـ ١. ص ٢٢٠) كان السلب فى الحرب غنيمة سائغة وكل ما أخذوه لم يكن إلا أجرة عادلة لما قاموا به من أعمال السخرة. والرد على هذا أن الموقف الحالى ليس موقف حرب حتى يعتبر السلب هنا غنيمة سائغة كما قالوا. ولعل قولهم هذا كان المسوِّغ الذى استند إليه بعض من كتبوا فى الصحف مؤخرا مطالبين باسترداد مقابل للذهب والفضة التى «سلبها» بنو إسرائيل من المصريين ساعة الخروج.

وفى رأينا أن الله لم يكن ليبيح لبنى إسرائيل سلب ذهب المصريين وفضتهم فضلا عن الأمر به كما ادعوا! ونرى أن كتبة التوراة لم يفهموا المغزى الحقيقى لطلب بنى إسرائيل الذهب والفضة والثياب من المصريين فى هذا الوقت بالذات فقالوا عنه «فتسلبون المصريين» وراح أهل الكتاب يحاولون تقديم تبرير لهذا التصرف. وما نراه هو أن أخذ الذهب والفضة كان جزءا من عملية تمويه لإيهام المصريين أن خروجهم هو حقا للاحتفال بعيد ديني وللعبادة وسيعقبه عودة لرد ما أخذوه من حلى ذهب وفضة للتزين بها. ولعل بنى إسرائيل فعلوا ذلك من قبل فى أعياد مماثلة – استعاروا بعض حلى المصريين وأعادوها إليهم بعد انتهاء أعيادهم – وإن كان المصريون – بعد نزول الضربات بهم – سيترددون بعض الشيء فى إعارة بنى إسرائيل الحلى فى هذه المرة فقد وعد الله موسى بأنه سيعطى نعمة للشعب فى عيون المصريين فيعطونهم ما يطلبون.

وذهب موسى للقاء فرعون – وتقول التوراة (إصحاح ١١ خروج ٤ – ٨): وأيضا الرجل موسى كان عظيما جدا فى أرض مصر فى عيون عبيد فرعون ولعلهم يقصدون أن الله ألقى رهبة موسى فى قلوبهم حتى لا يُنفِّذ فرعون تهديده فى اللقاء الأخير حينما قال «إنك يوم ترى وجهى تموت» وقال موسى لفرعون هكذا يقول الرب: إنى نحو نصف الليل أخرج فى وسط مصر فيموت كل بكر فى أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التى خلف الرحى وكل بكر بهيمة. ويكون صراخ فى كل أرض مصر لم يكن مثله أيضا ولكن جميع بنى إسرائيل لا يصيبهم شيء لا الناس ولا البهائم. لكى تعلم أن الرب يميز بين المصريين وإسرائيل. فينزل إلىَّ جميع عبيدك هؤلاء ويسجدون لى قائلين اخرج أنت وجميع الشعب الذين فى أثرك. وبعد ذلك أخرج. ثم خرج من لدن فرعون فى حمو الغضب.

ما يفهم من هذا هو أن موسى قابل فرعون وأخبره عن الآية الأخيرة هذه من موت الأبكار وأن المصريين وقتئذ هم الذين سيطلبون خروج بنى إسرائيل من وسطهم ظنا منهم أن وباء ما قد انتقل من بنى إسرائيل إليهم فتسبب فى موت الأبكار. وكأنما يقول لفرعون فالأولى أن توافق على خروج بنى إسرائيل بالحسنى بدلا من أن يخرجوا بطلب من المصريين رغما عنك. وتقول التوراة: ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يطلق بنى إسرائيل – إذ لم يصدق فرعون ما قاله موسى وخاصة أن موسى لم يحدد وقت حدوث هذه الضربة الأخيرة.

الفصل السابع

الخــروج Exodus

الخروج وعيد الفصح :

إن خروج بنى إسرائيل من مصر هو بلاشك حدث مهم فى تاريخهم. إذ هو نقطة تحول خطيرة في حياتهم. فيه انتقلوا من العبودية إلى نور الحرية. لذلك كانت مشيئة الله أن يجعل من هذه المناسبة عيدا لهم يحتفلون به فى كل عام هو عيد الفصح. و«فصح» كلمة عبرية معناها عبور (قاموس الكتاب المقدس. ص ٦٧٨). وطقوس هذا العيد وشعائره مشتقة مما أوحى الله إلى موسى من ترتيبات لتأمين عملية الخروج من مصر. ولتقريب المسألة إلى الأذهان أضرب المثل بما فعلته هاجر من السعى بين الصفا والمروة سبع مرات بحثا عن الماء لوليدها إسماعيل. وأُدرِج السعى فى مناسك الحج سبعة أشواط بين الصفا والمروة. مثال آخر من الوضوء قبل الصلاة فهو طهارة معنوية وفى نفس الوقت نظافة للبدن. والصوم طاعة لله فى الامتناع عن الأكل والشرب لبعض الوقت ويثبت الأطباء بين حين وآخر فوائده الصحية. وقياسا على هذا نرى أن شعائر عيد الفصح وترتيباته فضلا عن أنها تعاليم من الرب يجب تنفيذها إلاَّ أنها فى نفس الوقت كانت تحمل فى طياتها ما يُؤمِّن عملية خروج بنى إسرائيل من مصر بسلام. وكان ذلك يتطلب عدة أمور: أن يتم الخروج من المناطق المأهولة بالمصريين فى أقصر وقت ممكن وذلك يتطلب التزوُّد بأكله غنية بالبروتين. والبعد عما يسبب الاسترخاء (الخبز المختمر) والاستعانة بالأعشاب التي تزيد النشاط.كما كان ضروريا ألا يتركوا فى البيوت شيئا ينتج عنه روائح كريهة يتأذى منها المصريون عند دخولهم المنطقة بعد أن يكون بنو إسرائيل قد غادروها. تلك هى فى نظرنا الفوائد المادية والفلسفة التى تكمن خلف الترتيبات لعملية الخروج وإن لم يقل بهذا أهل الكتاب أنفسهم. ولكنهم فسروا شعائر عيد الفصح التى تحتفل به الأجيال التالية بأن الأعشاب المرة ترمز إلى مرارة العبودية فى مصر والفطير إلى الطهارة ونبذ كل خبث وشر. والدم المسفوك إلى التكفير (قاموس الكتاب المقدس. ص ٦٧٩). ولكن لو نظرنا إلى هذا الحشد الهائل الذى سيقوده موسى عليه السلام: نحو ستمائه ألف ماش من الرجال عدا الأولاد – كما تقول التوراة – وصعد معهم لفيف كثير أيضا من غنم وبقر مواش وافرة جدا (خروج ١٢ : ٣٧) وقد أثبتنا بالعملية الحسابية التى ذكرناها فى ص ٦٨٣ أن هذا العدد ٦٠٠ر٠٠٠ هو العدد الكلى للنفوس (خلافا لما يراه بعض الباحثين الذين ينزلون بالعدد الى ٦٠ر٠٠٠ فقط). ولنا أن نتصور المساحة التى سيشغلها هذا العدد (٦٠٠ر٠٠٠). فلو

افترضنا لكل فرد نصف متر مربع فقط لشغلت هذه الكتلة البشرية ٢٠٠ مترا عرضا فى ٥٠٠ مترا طولا. تزاد إلى الضعف فى حالة الحركة والمشى. أضف إلى ذلك مثل حجمه أو أكثر للبقر والأغنام والبهائم التى تحمل الزاد والمتاع. فنجد أن هذه الكتلة المتحركة تشغل ١ كم عرضا × ٢ كم طولا تقريبا وذلك يحتاج إلى تنظيم دقيق وتعاليم مشددة يلتزم بها الجميع.

كان الوقت المحدد للخروج هو يوم ١٤ من شهر أبيب (وبعد السبى أصبح العيد مرتبطا بشهر نيسان – وقد اعتمد هذا الشهر بداية للسنة اليهودية). وقد بدأت الاستعدادات قبل ذلك بأربعة أيام. جاء فى الإصحاح ١٢ خروج: وكلَّم الرب موسى وهارون فى أرض مصر قائلا: هذا الشهر يكون لكم رأس الشهور وهو لكم أول شهور السنة. كلِّما كل جماعة إسرائيل قائلين فى العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة بحسب بيوت الآباء. شاة للبيت. وإن كان البيت صغيرا عن أن يكون كفؤا لشاة يأخذ هو وجاره القريب من بيته بحسب النفوس. شاة صحيحة ذكرا ابن سنة. تأخذونه من الخرفان أو الماعز (والأغلب أن يكون حملا من الخرفان) ويكون عندكم تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر. ثم تذبحونه فى العشية (العشىَ هو الوقت من زوال الشمس إلى المغرب أو من المغرب إلى العتمة – المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٦٠٨). وهذا معناه أن يكون الذبح بين العصر وغروب الشمس أو بين الغروب ونهاية الشفق ويجمع دم الذبيحة فى طست ويعمل نوع من الحشائش شبه فرشاة وتدهن قائمتى باب البيت والعارضة العليا من الخارج بالدم. جاء فى التوراة (خروج ١٢ : ٧) ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا فى البيوت التى يأكلونه فيها وفى الفقرة ١٢: فإنى أجتاز فى أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر فى أرض مصر من الناس والبهائم ويكون الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر. وفى الفقرة ٢٢: وخذوا باقة زوفا واغمسوها فى الدم الذى فى الطست ومُسُّوا العتبة العليا والقائمتين بالدم الذى فى الطست. والزوفا كما جاء فى قاموس الكتاب المقدس (ص ٤٣٨) نبات أوراقه عليها شعيرات كبيرة وإذا استخدم فى شكل حزم صغيرة فهى أشبه بالفرشاة ويمكن أن تحمل السوائل فى داخلها للرش. والنبات عطرى الرائحة والبعض يقول إنه نبات الزعتر.

وهنا تثور مسألة: وهل يحتاج الرب لمثل هذه العلامة ليميز بيوت بنى إسرائيل من بيوت المصريين حتى لا يصيبها بالوباء؟ ونرى أن ملائكة مرسلون من الله هم الذين سيقومون بالمهمة وحينئذ لا بأس من علامة على البيوت – كما أنه تكمن وراء هذا الفعل فلسفة أخرى ذلك أن ترك الدم المهراق داخل البيوت ينتن وتصدر عنه روائح كريهة وينتج عنه أوبئة. ومن ثم كان الحرص على إراقة الدماء فى طست ثم استهلاك الدم فى دهان البيوت من الخارج فيكون مكشوفا للشمس والهواء فيجف ولاينتن.

بعد أن شرحت التوراة طريقة الذبح انتقلت إلى طريقة إعداد الذبيحة للأكل (خروج ١٢ : ٨) إذ تستمر فى سرد إبلاغ موسى عليه السلام لبنى إسرائيل ما قال الرب: ويأكلون اللحم تلك الليلة مشويا بالنار مع فطير على أعشاب مرة يأكلونه. لا تأكلوا منه نيئا أو طبيخا مطبوخا بالماء بل مشويا بالنار رأسه مع أكارعه وجوفه. ولا تبقوا منه إلى الصباح والباقى منه إلى الصباح تحرقونه بالنار.

ونلمس هنا نفس الفلسفة السابقة متمثلة فى شوى الذبيحة صحيحة دون فتح جوفها – حتى لا يقع من أمعائها شيىء على الأرض ينتن فيما بعد. وبعد أكل اللحم يحرق ما تبقى. ذلك أن بيوت بنى إسرائيل لن يدخلها المصريون إلا بعد أن يتأكدوا أن بنى إسرائيل قد خرجوا بلا عودة ولو كان فى الدور بقايا من الذبيحة لأنتنت أو سببت أوبئة للمصريين وهذا غير مطلوب إذ الهدف هو خروج بنى إسرائيل بسلام وليَبْقَ المصريون يعيشون كما يهوون بسلام كذلك. ولعل الحكمة وراء شوى اللحم مع أعشاب مرة هو أن يكون فى هذه الأعشاب مادة منشطة مثل الكافايين الموجود فى البن أو أوراق الشاى مما يجعل بنى إسرائيل أقدر وأنشط على السير يوما أو يومين دون توقف حتى يبعدوا عن أيدى فرعون وأعوانه. وكان العدد المخصص لأكل حمل واحد هو عشرة رجال. فإذا كان صافى لحم الحمل الواحد ابن سنة هو ٢٥ كيلو جراما كان معنى ذلك أن يأكل الفرد ٢٫٥ كيلو جرام من اللحوم وهى كمية يستطيع الفرد بعدها ألا يأكل يوما أو يومين وهذا مطلوب فى مثل حالهم لعدم إضاعة وقت فى التوقف لإعداد طعام لهذا الحشد الهائل من البشر. ونقارن بين ما تفرضه ذبيحة عيد الأضحى من وجوب شاة عن كل شخص ذلك لأن معظم الشاة مقصود به الصدقة على الفقراء وجزء صغير لأكل أهل البيت.

بالنسبة للخبز كان ممنوعا أكل الخبز المصنوع من عجين اختمر. وكان التشديد على منع الخميرة تهائيا وعزلها من البيوت. بل يكون فطيرا. «فإن كل من أكل مختمرا تقطع تلك النفس من جماعة إسرائيل» (خروج ١٢ : ١٩).

وكان آخر التعليمات: وهكذا تأكلونه (الفطير واللحم المشوى) أحقاؤكم مشدودة وأخذيتكم فى أرجلكم وعصيكم فى أيديكم وتأكلونه بعجلة (خروج ١٢ : ٨). والحْقو هو الخصر أو الإزار وجمعها أحقاء (المعجم الوسيط جـ ١ ص ١٨٨). والمعنى أن يكونوا كاملى الملابس والاستعداد للتحرك فور علمهم بصدور أمر الرب ووقوع الآية الأخيرة وهى موت الأبكار فى المصريين. وكان موسى عليه السلام قد دعا جميع شيوخ إسرائيل وأبلغهم هذه التعليمات ليقوم كل منهم بإبلاغها وتنفيذها فى عشيرته. وانتظر الجميع إشارة البدء فى الرحيل متمثلة فى سماع صراخ المصريين عند موت الأبكار.

وتقول التوراة (خروج ١٢ : ٢٩):

فحدث فى نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر فى أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى فى السجن وكل بكر بهيمة. فقام فرعون ليلا هو وكل عبيده وجميع المصريين. وكان صراخ عظيم فى مصر لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت. فدعا موسى وهارون ليلا وقال فرعون قوموا أخرجوا من بين شعبى أنتما وبنو إسرائيل جميعا واذهبوا اعبدوا الرب كما تكلمتم. خذوا غنمكم أيضا وبقركم كما تكلمتم واذهبوا. وباركونى أيضا. فحمل الشعب (بنى إسرائيل) عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم. من هذه الفقرة ندرك أنه حتى هذه اللحظة لم يكن المصريون يعلمون نيَّة بنى إسرائيل فى الخروج بلا عودة بل كان ظنهم أنهم سيخرجون لعبادة ربهم فى البرية كما طلب موسى وهارون. فأجابهم فرعون لطلبهم حتى ترفع الآية عنه فلا يموت أكثر من الأبكار الذين ماتوا. ويدل على ذلك قول فرعون لهم «وباركونى أيضا» كما أن المصريين لم يطالبوا برد ما كان استعاره منهم بنو اسرائيل من حلي ذهب وفضة لاعتقادهم أنهم بعد أن يعبدوا ربهم ثلاثة أيام سيعودون إلى دورهم فى مصر ثانية ويعيدون إليهم حليهم.

وقد يتساءل أحد قائلا وهل مات لرمسيس الثانى بكر فى هذه الليلة؟ لأن وفاة خعمواست كانت قبل ذلك بحوالى ١٠ سنوات. والرد هو لعل قد مات له ابن بكر من إحدى محظياته أو سراريه وليس ضروريا أن يكون من إحدى نسائه الرئيسيات.

قلنا إن الخروج حدث فى شهر أبيب وهو الشهر قبل الأخير من شهور السنة المصرية القديمة والتى تُسمَّى خطأ بالشهور القبطية ولاشك أن شهر أبيب كان فى تلك السنة فى أواخر فصل الربيع مقابلاً لشهر أبريل. وكان الخروج فى اليوم الرابع عشر مساء أى ليلة الخامس عشر. وأصبح هذا اليوم هو عيد الفصح عند اليهود: ويكون لكم هذا اليوم تذكارا وتعيدونه عيدا للرب. فى أجيالكم تعيِّدونه فريضة أبديَّة (خروج ١٢ : ١٤). هى ليلة تُحفظ للرب لإخراجه إياهم من أرض مصر. هذه الليلة هى للرب تحفظ من جميع بنى إسرائيل فى أجيالهم (١٢ : ٤٢) وكان فى ذلك اليوم عينه أن الرب أخرج بنى إسرائيل من أرض مصر (١٢ : ٥١).

روى البخارى ومسلم والنسائى عن ابن عباس قال: قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تصوم عاشوراء (العاشر من شهر محرم) فقال ما هذا اليوم الذى تصومونه فقالوا هذا يوم نجَّى الله عز وجل فيه بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى عليه السلام. فقال رسول صلى الله عليه وسلم: أنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصومه (صحيح البخارى. جـ ٣ ص ٥٦).

ويستمر عيد الفصح عند اليهود سبعة أيام من اليوم الرابع عشر إلى الحادى والعشرين ومحرم فيه أكل عيش من عجين مختمر. بل يصنع فطير ويؤكل طوال سبعة أيام العيد ولذلك يسمى عيد الفطير. وعشاء الفصح هو أول وأهم شعائر العيد. وكانوا فى أول عهده يقفون أثناء أكل العشاء ليلة الفصح اقتداء بما فعله أجدادهم عند الخروج الفعلى من مصر ولكن فى الأزمنة الأخيرة صاروا يتكئون (قاموس الكتاب المقدس ص ٦٧٩).

طريق الخروج :

يختلف العلماء اختلافا كبيرا حول موضوع خروج بنى إسرائيل من مصر والطريق الذى سلكوه ومكان انشقاق البحر لموسى عليه السلام وخاصة أن الآثار المصرية تصمت عن موضوع بنى اسرائيل كما سبق أن ذكرنا (ص ٦٥٧) إلا من الإشارة العابرة إليهم فى لوح مرنبتاح المسمى بلوح إسرائيل، ومن الطبيعى – وقد اعتقد المصريون أن بنى إسرائيل خارجون إلى البرية ثلاثة أيام للعبادة – أنهم لم يهتموا بمعرفة أى برية اختاروا ولا فى أى الطرق ساروا، فضلا عن أن ضربة موت الأبكار جعلتهم يعكفون على موتاهم يندبونهم ويحنطونهم قبل دفنهم، ومادام الأمر كذلك فليس أمامنا من مصدر نستقى منه معلومات عن هذا الموضوع سوى التوراة، وقد اختلف العلماء فى تحديد مكان البلدان التى جاء ذكرها فى التوراة وخاصة أن طبوغرافية المناطق تتغير على مر الأمنة، وتجمع الأراء على أن البحر الأحمر ممثلا فى خليج السويس كان يمتد شمالا ليتصل بالبحيرات المرة ومن ثم فيمكن اعتبار الكل «بحرا أحمر» خلافا لمفهومنا الحالى عن البحر الأحمر فضلا عن أن أدلاء الطرق (الجغرافيين) كانوا فى ذلك الوقت لا يدركون أن البحر الأحمر يتفرع فى طرفه الشمالى إلى خليجى العقبة والسويس بل كانوا يظنونه كما فى شكل ٢٨٩ ص ١٠٧٣ الذى يبين خريطة رسمها الجغرافى هـ. ڤايسل H. Weisel عام ١٥٥٠م. فما بالنا بمفهومهم عن طبوغرافية المكان فى ذلك الوقت الذى يسبق هذه الخريطة بـ ٢٨٠٠ عاماً (١٢٥٠ ق.م. + ١٥٥٠م). ونذكر أولا ما جاء فى التوراة (خروج ١٣، ١٤):

وارتحل بنو إسرائيل من **رعمسيس** إلى **سكوت** (١٢: ٣٧)، ثم جاء فى الإصحاح ١٣: ١٧ إلى ٢٢، وكان أن الله لم يهدهم فى طريق أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة لأن الله قال لئلا يندم الشعب إذا رأوا حربا ويرجعوا إلى مصر فأدار الله الشعب فى طريق برية **بحر سوف** وصعد بنو إسرائيل متجهِّزين من أرض مصر، وأخذ موسى عظام يوسف معه لأنه كان قد استحلف بنى إسرائيل بحلف قائلا إن الله سيفتقدكم فتُصعِدون عظامى من هنا معكم، (وقد سبق أن ذكرنا ذلك فى الجزء الثالث ص ٥٣٢)، وارتحلوا من سكوت ونزلوا فى **إيثام** فى طرف البرية، وكان الرب يسير أمامهم نهارا فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق وليلا فى عمود نار ليضىء لهم لكى يمشوا نهارا وليلا، لم يبرح عمود السحاب نهارا وعمود النار ليلا أمام الشعب، وفى الإصحاح ١٤: وكلم الرب موسى قائلا، كلِّم بنى إسرائيل أن **يرجعوا** وينزلوا **أمام فم الحيروث** بين **مجدل والبحر أمام بعل صفون** مقابله تنزلون عند البحر، فيقول فرعون عن بنى إسرائيل هم مرتبكون فى الأرض، قد استغلق عليهم القفر، وأُشدِّد قلب فرعون حتى يسعى وراءهم، فأتمجدً بفرعون وبجميع جيشه ويعرف المصريون أنى أنا الرب، ففعلوا هكذا، فلما أخبر ملك مصر أن الشعب قد هرب تغير قلب فرعون وعبيده فقالوا ماذا فعلنا حتى أطلقنا

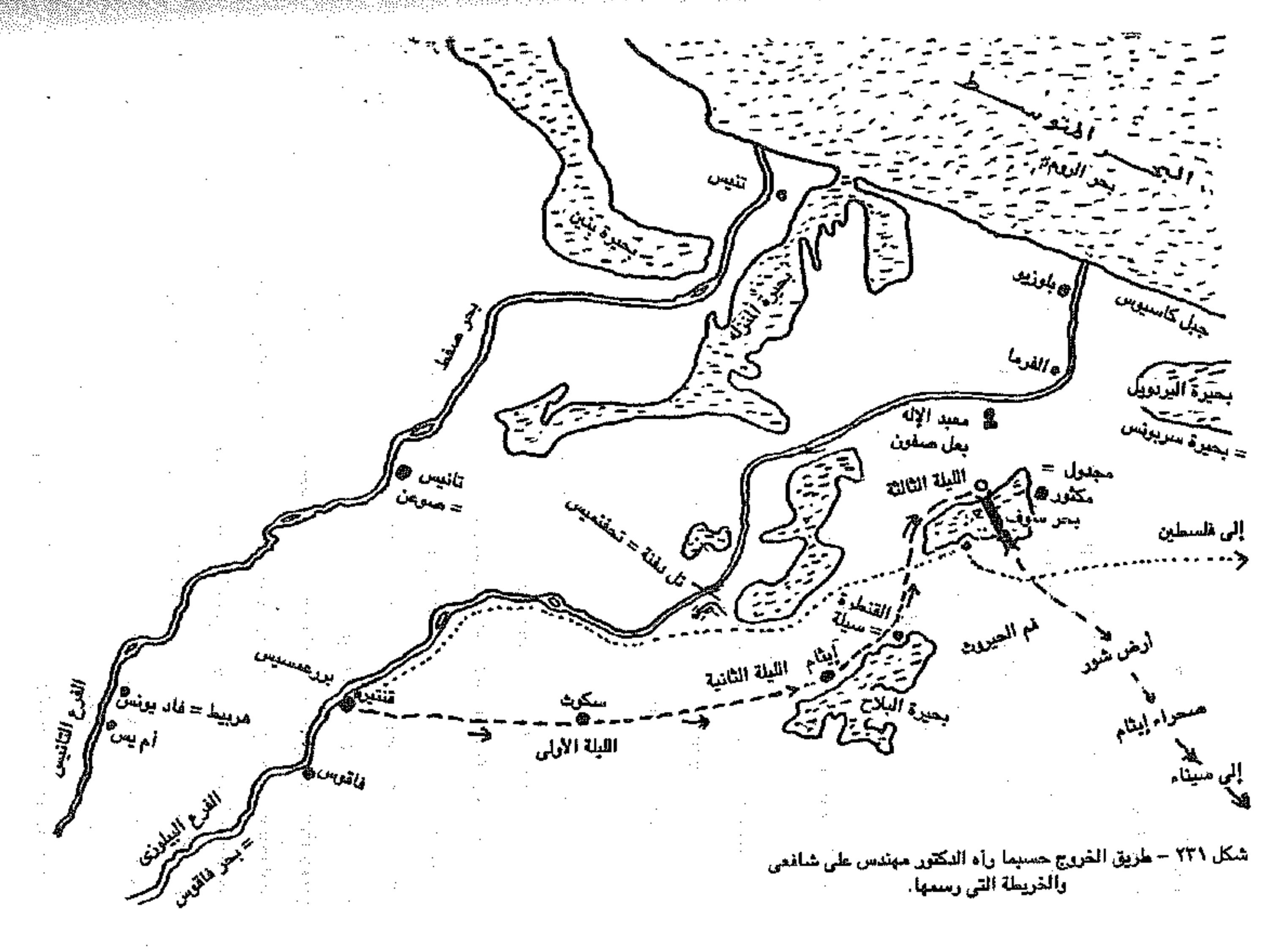
إسرائيل من خدمتنا. فشد مركبته وأخذ قومه معه وأخذ ستمائة مركبة منتخبة وسائر مركبات مصر وجنودا مركبية على جميعها. وشدد الرب قلب فرعون ملك مصر حتى سعى وراء بنى إسرائيل وسعى المصريون وراءهم وأدركوهم وهم نازلون عند البحر عند فم الحيروث أمام بعل صفون.

وقد اختلف الجغرافيون فى تحديد مكان هذه المواقع لأن هذه الأماكن لم تكن مدنا ثابتة بل كانت أماكن إقامة مؤقتة ينزل بها بدو الصحراء بخيامهم ليبقوا فيها بضعة أيام أو عدة أشهر ثم يرحلون عنها. فلا يتركون آثارا لمبانى يمكن من خلالها الاستدلال على الموقع. وقد تمكن «هار إل» (Har - El, the Exodus Route International Geog. Union, 1976: 374) من حصر احتمالات مكان العبور فوجدها تسعا: ٣ بحيرات بجوار البحر المتوسط - ٤ بحيرات على خط قناة السويس الحالى بالإضافة إلى مكانين فى خليج السويس نفسه أو بالأحرى البحر الأحمر إذ لم يكن خليج السويس معروفا كما قلنا آنفا (أطلس الكتاب المقدسNIV زوندرمان ، ص ٨٨). وسنذكر بعض هذه الآراء مع بيان ما قد يكون عليها من اعتراضات:

١ - نبدأ بنظرية المهندس على بك شافعى. وقد ذكرهاعالم المصريات سليم حسن (مصر القديمة جـ ٧ ص ١١٨) وصوَّر الخريطة.التى رسمها ذلك المهندس وقد وضع عليها ما ارتآه من أماكن البلدان التى ورد ذكرها فى التوراة وكان تصوره للخروج كما فى شكل ٢٣١: خرج بنو إسرائيل من «بررعمسيس» وساروا شرقا طوال النهار ثم امضوا الليلة الأولى فى بلدة «سكوث» ثم ساروا يوماً ثانيا وعسكروا الليلة الثانية فى «إيثام» على حافة الصحراء. وبعد ذلك حولوا طريقهم وساروا شمالا وضربوا خيامهم فى الليلة الثالثة أمام المكان المسمى «فم الحيروث» بين «مجدل» والبحر الذى هو «بحر سوف» وفى هذا المكان لحقهم فرعون وجيشه فى عرباته واستولى الفزع على بنى إسرائيل فانشق البحر وعبر بنو إسرائيل كما هو معروف وغرق فرعون وجنوده. وكلمة «سوف» تعنى البوص وبحر سوف هو جزء من بحيرة المنزلة الحالية وكان ينمو بها البوص بكثرة فهى فى الحقيقة بحر الغاب أى Reed Sea أو بحر البوص وقرأها البعض Red Sea وترجمت خطأ إلى البحر الأحمر. ويستكمل قائلا: ثم اتجهوا جنوبا عبر صحراء إيثام وساروا لمدة ٣ أيام دون أن يجدوا ماء وهذا يدل على أنهم لم يسيرا فى المنطقة الساحلية ذات العيون المائية المتعددة. وأن موسى كان موليا وجهة شطر «مدين» حيث كان حموه.

وهناك عدة اعتراضات على هذه النظرية سنشرحها بتفصيل إذ أن عديداً من النظريات الأخرى يحدد مكان البلدان التى وردت فى التوراة فى طريق الخروج بنفس الأماكن التى حددتها هذه النظرية وتنسحب اعتراضاتنا عليها هى الأخرى.

أ - لم يكن الهدف من الخروج الذهاب إلى «أى» مكان مثل أرض مدين كما تدعى هذه



شكل ٢٣١ – طريق الخروج حسبما رآه الدكتور مهندس علي شافعي والخريطة التي رسمها.

النظرية بل الهدف الخروج إلى سيناء ثم إلى أرض الميعاد أى فلسطين.

ب – هذه النظرية تفترض أن فرعون قد لحق بهم فى الليلة الثالثة وصبيحة اليوم الرابع ومعروف أن فرعون كان قد سمح لبنى إسرائيل بالذهاب لعبادة ربهم على بعد مسيرة ثلاثة أيام فى البرية كما جاء فى التوراة (خروج ٨ : ٢٧): نذهب سفر ثلاثة أيام فى البرية (سبق ذكر ذلك فى ص ٩١١). وعلى ذلك فإن فرعون لن يفتقد بنى إسرائيل إلا بعد ثمانية أو تسعة أيام باعتبار سفر ثلاثة أيام ذهابا ثم عبادة يومين أو ثلاثة ثم ثلاثة أيام للعودة. فهذه حوالى تسعة أيام ولما كانوا قد سبقوه بهذه المسافة فهو لن يلحقهم قبل يوم آخر باعتبار أن عجلاته الحربية ستقطع كل هذه المسافة فى يوم واحد أى يلحقهم فى اليوم العاشر. فإذا كانوا حسب هذه النظرية قد وصلوا إلى طرف بحيرة المنزلة فى ثلاثة أيام فلابد أنهم فى السبعة أيام التالية يكونوا قد تركوا منطقة البحيرات وراءهم وساروا فى اتجاه الجنوب كما تقول النظرية. وهى منطقة صحراء وتلال وصاروا فريسة سهلة يمكن إبادتهم وليس بها ماء لإغراق فرعون.

جـ – يصبح من غير المفهوم لماذا سار بنو اسرائيل بعد «إيثام» و«سيلا» شمالا ولم يتجهوا شرقا فى الأرض اليابسة بين بحر سوف وبحيرة البلاح ليصلوا إلى برية شور ومنها إلى سيناء.

د – هذه النظرية تجعل من الضربة الأخيرة «موت الأبكار» غير ذات معنى إذا المفروض أن المصريين سينشغلون فى تحنيط موتاهم ودفنهم وهذا يستغرق فى المعتاد ٤٠ يوما وإن تم باستعجال فلن تقل عن عشرة أيام. ومن غير المعقول أن يأمر فرعون الجند بترك موتاهم والذهاب لمطاردة بنى اسرائيل. كما يسرى هذا نفسه على الفرعون إذ لابد قد مات له بكر إحدى نسائه غير الرئيسيات أو بكر إحدى محظياته.

هـ – لا تفسر هذه النظرية معنى ما جاء فى التوراة من ارتباك بنى إسرائيل «هم مرتبكون فى الأرض قد استغلق عليهم القفر». والارتباك يعنى السير فى طريق ثم العودة منه لاتخاذ طريق آخر. والطريق المرسوم فى هذه النظرية ليس فيه ارتباك.

و – هذه الطريقة تجعل موسى عليه السلام يتعمد أن يدركه فرعون وأمامه بحر أو بحيرة كأنما كان يعرف أن البحر سينشق له ليمر هو ويغرق فرعون. فقد كان بوسعه بعد أن ترك إيثام وسيلا أن يتجه شرقا ليسير فى الطريق إلى فلسطين وإن قيل إن هذا الطريق عليه نقط حدود وحصون فقد كان يمكنه الالتفاف حول الطرف الشمالى لبحيرة البلاح فى اتجاه فم الحيروث ثم جنوبا إلى سيناء.

النظريات الأخرى:

٢ – **إحدى النظريات** ترسم طريق الخروج كما فى شكل ٢٣٢ : بدأ الخروج من «بررعمسيس» ويرى صاحب النظرية أنها هى «عين شمس» ثم اتجهوا شرقا إلى «سكوت» ثم «إيثام» ثم كان العبور عند «فم الحيروث» قرب السويس.

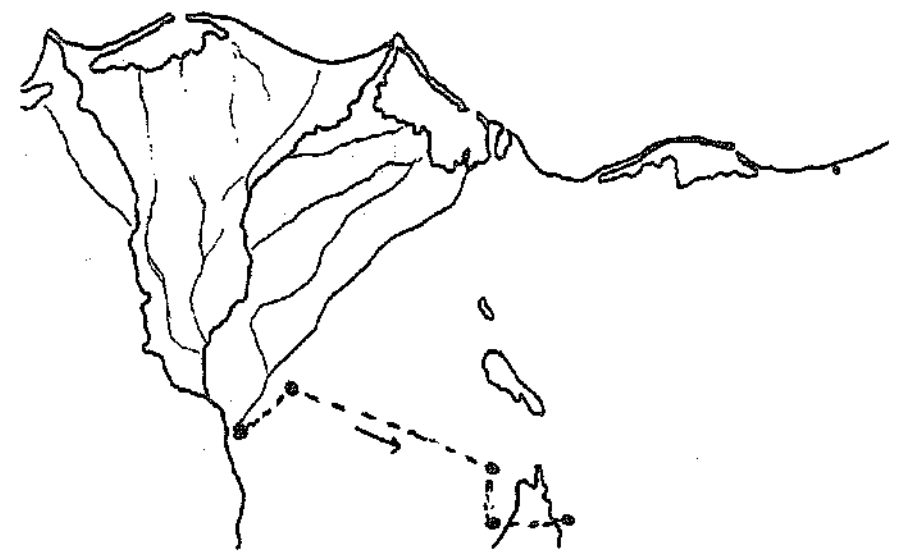
٣ – يصحح **الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم** هذا الطريق (كتابه – مصر والشرق الأدنى القديم – جـ ٥ ص ١٦٤) بوضع «بررعمسيس» فى مكانها الصحيح عند قنتير وبذلك يكون طريق الخروج كما هو موضح فى شكل ٢٣٣. ويكون انشقاق البحر طبقا لهاتين النظريتين فى الطرف الشمالى لخليج السويس الحالى. وإن كانت المنطقة الموضحة فى الخريطة يبلغ عمق الخليج فيها أكثر من ٥٠ مترا وهو ما يجعل اختراقه بعد شق البحر أمرا يكاد يكون مستحيلا على هذا الحشد الهائل من البشر والبقر والغنم هبوطا إلى قاع البحر ثم صعودا. وعلى ذلك فلو قبلنا خليج السويس كمكان للعبور لوجب أن يكون ذلك فى أقصى الطرف الشمالى فى منطقة لا يزيد العمق فيها عن خمسة أمتار.

٤ – يرى **نلسون بيشر** (Story of the Bible World, 1959, p. 29) طريق الخروج كما هو موضح فى الخريطة شكل ٢٣٤ أ. وحتى لا نزيد الخريطة تعقيدا بكتابة الأسماء عليها بالعربية فقد أعدناها فى شكل ٢٣٤ ب ومن خط السير المرسوم نرى أنه فعلا قد أوضح ارتباك بنى إسرائيل الذى أشارت إليه التوراة. إذ ساروا جنوبا إلى إيثام ثم شمالا إلى بعل صفون. إلا أن هناك بعض المآخذ عليها:

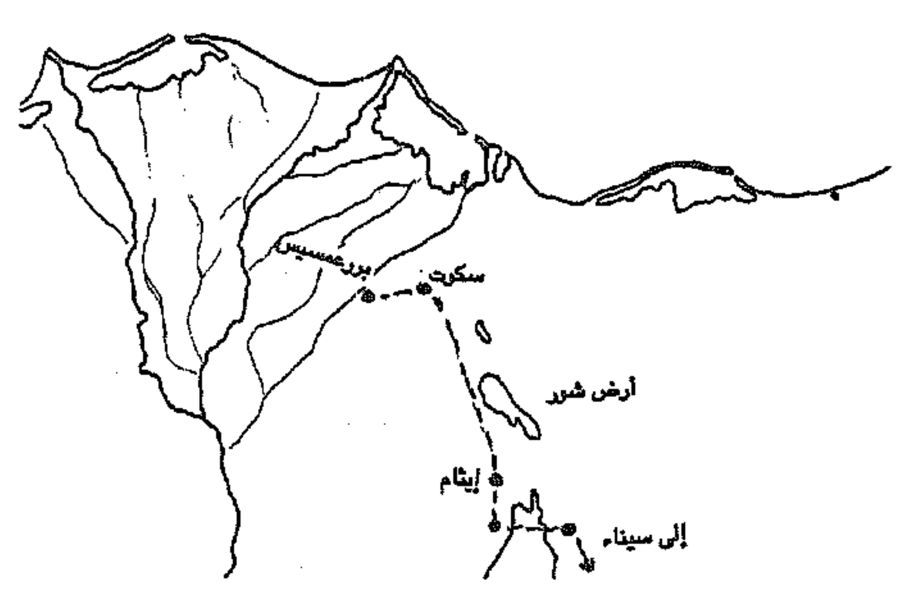
أ – جعل مدينة «بررعمسيس» هى «تانيس» عاصمة الهكسوس القديمة. وقد ذكرنا (ص ٧٠٩) الخلاف حول مكان عاصمة رمسيس الثانى. واستقرار الرأى أخيرا على أنها قرب قنتير على الفرع البيلوزى وليست تانيس على الفرع لتانيسى.

ب – جعل إيثام تقع على البحيرة المرة الكبرى فى حين أن غالبية الآراء ترى أنها تقع شمال مدينة السويس.

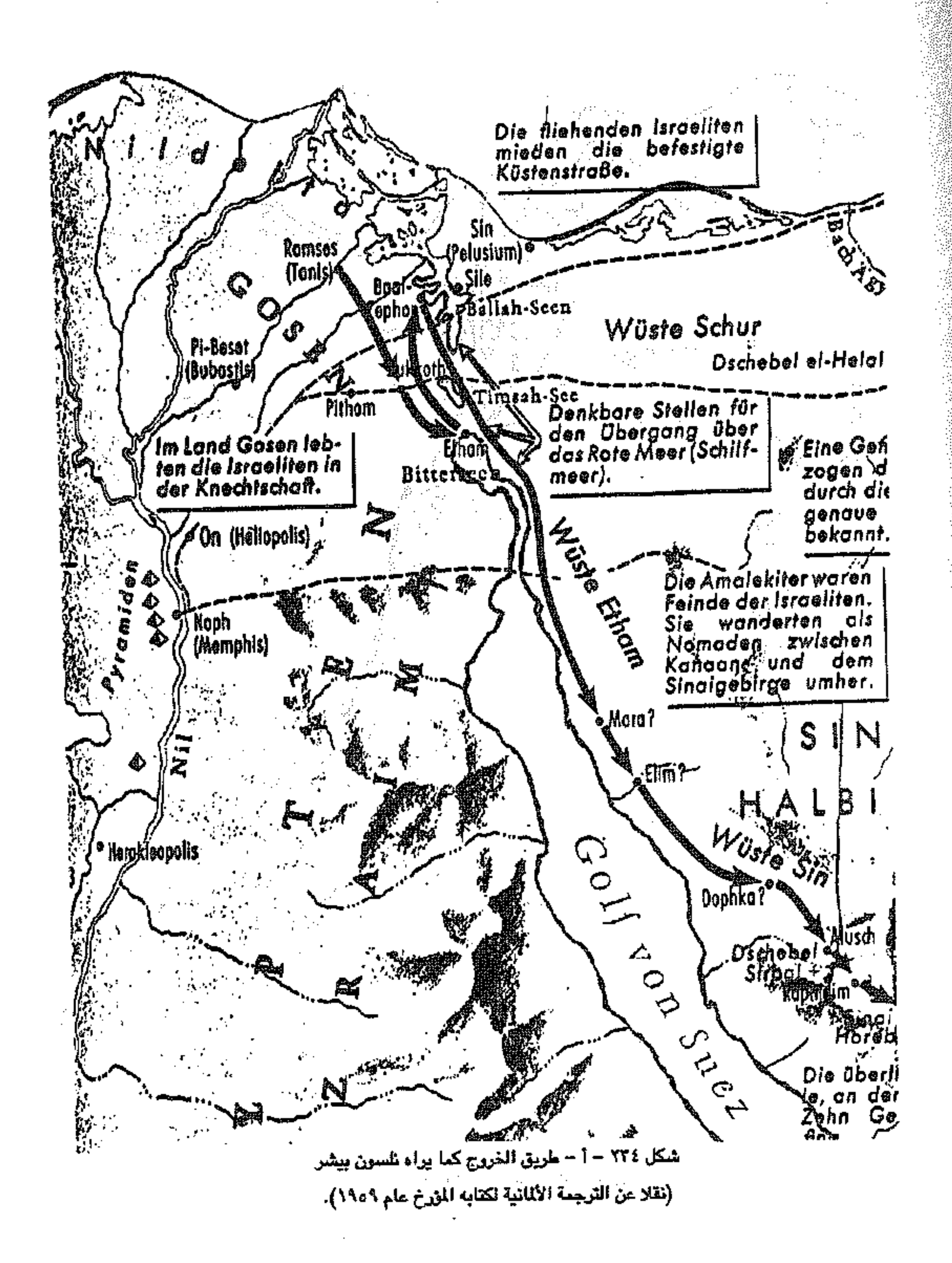
جـ – لا يصبح مفهوما لماذا استمر موسى عليه السلام فى السير من إيثام شمالا بعد أن أصبح بجوار بحيرة التمساح ولماذا لم يلتف حول طرفها الشمالى ويتجه شرقا إلى برية شور. ولكنه استمر فى السير شمالا غربى بحيرة البلاح وبذلك وضع نفسه متعمدا فى زنقة أو كما يقال «فى مزنق» (زنق كلمة عربية فصيحة – جاء فى المعجم الوسيط جـ ١ ص ٤٠٥ زنق على عياله ضيَّق عليهم بُخلاً أو فقرا. والزنقة مسلك ضيق. وتكون كلمة مزنق فصيحة إذ هى إشتقاق على وزن مَفْعَل). وقد رجَّح نلسون أن العبور كان عند الجزء الجنوبى من بحيرة المنزلة وهو المسمىً «بحر سوف» أى «بحر الغاب».



شكل ٢٣٢ - إحدى النظريات عن طريق الخروج وقد وضع صاحبها بررعمسيس عند عين شمس!

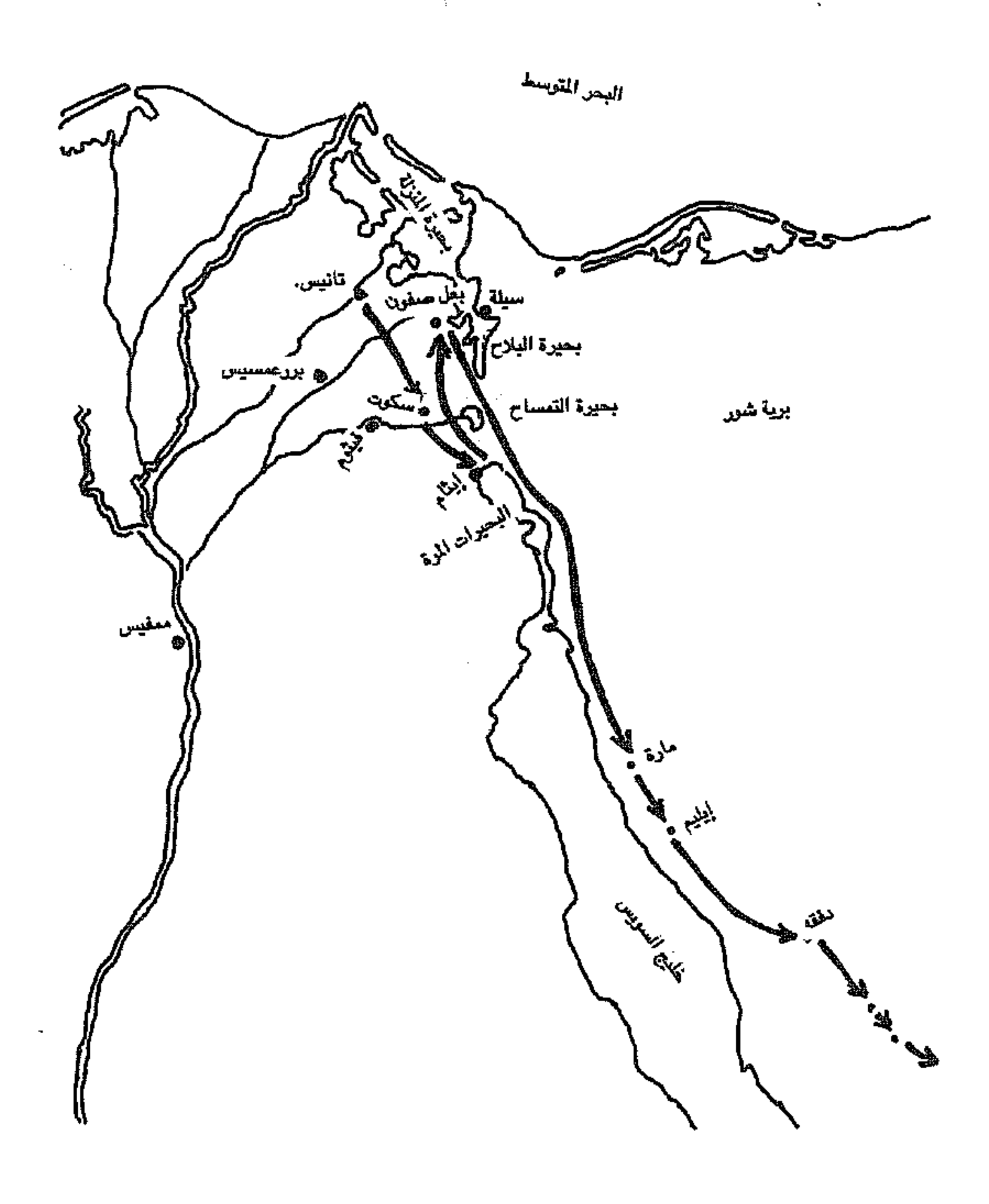


شكل ٢٣٣ - طريق الخروج وانشقاق البحر كما يراه الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم.



شكل ٢٢٤ – أ – طريق الخروج كما يراه نلسون بيشر

(نقلا عن الترجمة الألمانية لكتابه المؤرخ عام ١٩٥٩).



شكل ٢٣٤ ب – طريق الخروج كما يراه نيلسون بيشر.

د – أشار إلى موضع على البحيرة المرة الكبرى وموضع آخر على البحيرة المرة الصغرى على أنهما من الأمكنة التى يرى غيره أن العبور كان عندها.

٥ – يرى **وارنر كيللر** (Warner Keller, The Bible as History P. 120) طريق الخروج كما فى شكل ٢٣٥. يبدأ من بررعمسيس فى مكانها على الفرع البيلوزى إلى سكوت ثم جنوبا إلى إيثام فى مكانها المتفق عليه قرب الطرف الشمالى لخليج السويس. ويرى أنها هى مكتول Miktol التى تظهر فى الكتابات المصرية وكلمة مكتول تعنى قلعة وكان بها حامية مصرية وأثبتت الحفريات أنها هى قرية أبو حسن ٢٠ كم شمال مدينة السويس الحالية. ثم اتجهت المسيرة شمالا ثانية. ويرى أن خليج السويس كان متصلا بالبحيرات المرة وكذلك بحيرة التمساح. واستمر السير شمالاً حتى بعل صفون على الساحل الجنوبى لبحيرة المنزلة وفى شرق بعل صفون جزء من البحيرة يسمى بحيرة البلاح ويرى أنها هى نفسها «بحر سوف» وكان انشقاق الماء فى هذا الموضع. والاعتراض «جـ» فى النظرية السابقة ينسحب على هذه النظرية أيضا ويجعلها تبدو غير معقولة.

٦ – طريق الخروج كما يراه المؤلف :

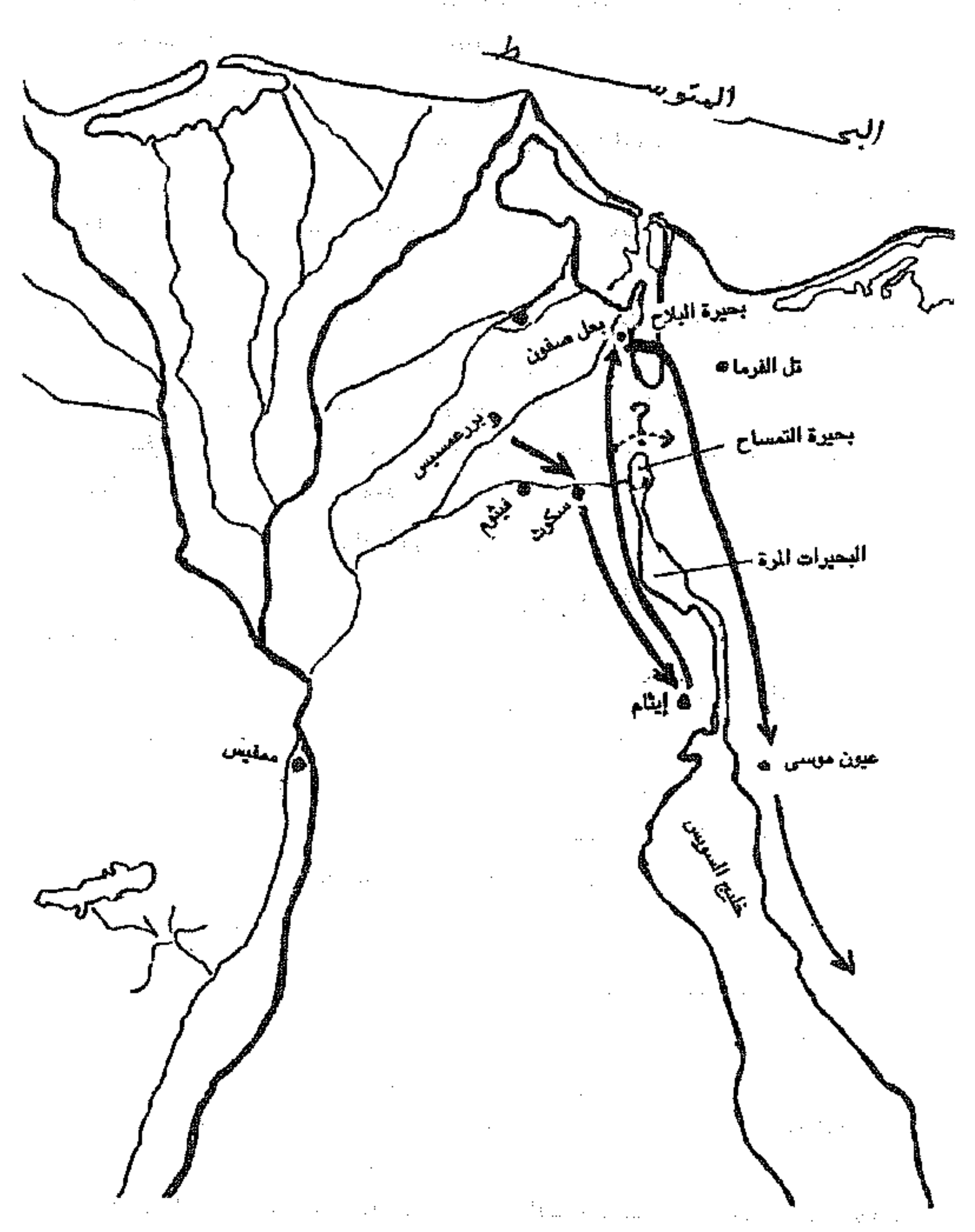
قبل أن نشرح وجهة نظرنا فى طريق الخروج نود أن نلفت النظر إلى خطأين جوهريين وقعت فيهما النظريات السابق ذكرها:

١ – أهملت هذه النظريات الطرف الآخر فى المطاردة وهو فرعون ولم توضح متى وكيف علم بأن بنى اسرائيل لاينتوون العودة وفى أى طريق سار ليلحقهم.

٢ – افترضت هذه النظريات أن موسى عليه السلام كان عالما بأن البحر سينشق له ولذلك رأوا أنه لا بأس من أن يضع نفسه فى موقف حرج – البحر أمامه والعدو خلفه – اعتماداً على انشقاق البحر مع أنه حتى آخر لحظة لم يكن هذا الحل يدور بخلده إطلاقا.

ونعود ثانية إلى قصة الخروج من بدايتها.

كانت الآية الأخيرة هى «ضربة موت الأبكار». ولعل فرعون لكثرة أبنائه الذين زادوا عن المائة لم يتأثر بموت بكر إحدى محظياته. ولكن الضربة أصابت المصريين فى الصميم وجعلتهم يطلبون من فرعون أن يسمح بخروج بنى إسرائيل حتى تُرفع عنهم الضربة ولا تحدث وفيات أخرى. ولهذا السبب فإن فرعون رضى بأن يستجيب لطلب موسى بالخروج للعبادة ثلاثة أيام فى البرية وإن كان الشرط الذى وضعه موسى من ضرورة خروج الرجال والنساء والأطفال – والغنم والبقر والمواشى **«ولا يبقى ظلف»**. جعل ذلك الشرط فرعون يُرجِّح أنهم ينوون الذهاب بلا رجعة وهو الأمر الذى لم يكن ليسمح به. ولكنه رأى أن يوافق حتى يرفع عنه البلاء وفى نيته أن يطاردهم فيما بعد ويعيدهم ثانية. لذلك فما إن خرج موسى من عنده حتى أرسل إلى الحامية



شكل ٢٣٥ – طريق الخروج كما يراه وارنر كيللر.

فى سيلا (القنطرة) يأمرهم بمنع مرور بنى إسرائيل والتصدى لهم بالقوة لو حاولوا المرور إلى فلسطين كما عزز الحراسة على المنافذ الأخرى وأمرهم بإخطاره بسرعة لو مر بنو إسرائيل بهم.

أما عن موسى عليه السلام فهو يعرف عن فرعون أنه مخاتل. فقد وعد من قبل ثمان مرات وأخلف وعده. وأنه وإن وافق مضطرا هذه المرة على أن يأخذ بنو إسرائيل كل مالهم فى مصر فإنه متأكد أن فرعون سرعان ما سيلاحقهم ليعيدهم. لذلك كان عليه أن يحاول تضليله بالسير فى طريق غير مطروق وعلم أنه لو سار فى طريق فلسطين المباشر فسرعان ما سيلحقه فرعون وجنده ويعيدونهم إلى مصر ثانية أو يبيدهم فى الصحراء.

كان هذا الحشد الهائل من البشر ٦٠٠٫٠٠٠ الذين سيقودهم موسى يحتاج إلى تنظيم دقيق فلا شك أنه لجأ إلى الطريقة التى تنظم بها الجيوش من جعلهم فى مجموعات من ٥٠ وعليهم رؤساء يُسَمَّون رؤساء الخمسين ثم هناك رؤساء المئات ورؤساء الآلاف. وهذا هو معنى ما ذكر فى إصحاح خروج ١٣ : ١٨ «وصعد بنو إسرائيل من أرض مصر متجهزين» وإن كان البعض فسَّرها بمعنى مسلحين غير أنه من غير المحتمل أن يكون المصريون قد سمحوا لبنى إسرائيل بصنع أسلحة ليحملوها. كما أن تصرف بنى إسرائيل لو لحقهم فرعون بجنوده لن يكون بالوقوف ومجابهته سلاحا بسلاح بل يكون بالفرار منه بأسلم الطرق.

كانت جموع بنى إسرائيل منتشرة فى منطقة واسعة هى كل أرض جاسان ولابد أن موسى عليه السلام جمع رؤساء المئات والآلاف وأخبرهم بعزمه على الخروج من مصر وكان على هؤلاء الرؤساء أن يقودوا الأفراد والجماعات ويلتقى الجميع عند «سكوت». وبدأ موسى ومن معه مسيرتهم من بررعمسيس. وفى اليوم التالى عند سكوت اجتمع كل بنى إسرائيل. وكان على موسى أن يقرر أى طريق يسلك.

كان الخروج فى أحد شهور الصيف. والحر على أشده. ولو تعرضت هذه الجموع لأشعة الشمس المباشرة لاشتد بها العطش ولاحتاجوا إلى كميات كبيرة من المياه لإرواء عطشهم لذلك كان من رحمة الله بهم أن ظلل عليهم بالسحاب:

«وظللنا عليهم الغمام...» (١٦٠ - الأعراف)

وكان هذا من النعم التى مَنَّ الله بها على بنى إسرائيل:

«وظللنا عليكم الغمام....» (٥٧ - البقرة)

كان السحاب يسير معهم أينما ساروا يحميهم من أشعة الشمس فظنوا أن الرب فى السحاب يهديهم الطريق. كذلك فإن السائر بالليل إذا نظر إلى القمر خُيِّل إليه أن القمر يمشى

معه أينما سار وإذا غطت سحابة رقيقة وجه القمر كان هناك وهج وضياء. لذلك لا نعتقد بصحة ما ذُكر (خروج ١٣ : ٢١) من أن: وكان الرب يسير أمامهم نهارا فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق وليلا فى عمود نار ليضىء لهم لكي يمشوا نهارا وليلا. إذ أن ذلك يلغى دور موسى تماما وكان يكفى حينئذ أن يتبع بنو إسرائيل عمود السحاب وعمود النار. صحيح أن الله سبحانه وتعالى يهدى الأنبياء ولكن الهداية تكون بالخاطرة يلقيها الله فى قلب نبيه وليس فى كل وقت. ويكون على النبى وقتئذ التصرف معتمدا على قدراته الذاتية. ولا بأس بعد ذلك من أن يصحح الله له الطريق. ولا يكون هناك حرج من اتخاذ النبى فى أول الأمر طريقا مغايرا للطريق الصحيح. أما إذا كان عمود السحاب وعمود النار هما الدليل للمسيرة معبِّران عن إرادة الرب فالمفروض أن يُتبع الطريق الصحيح من أول الأمر. لذلك فإن ما ذكر من ارتباك بنى إسرائيل: «هم مرتبكون فى الأرض قد استغلق عليهم القفر» (خروج ١٤: ٤) ينفى ما قيل من: «وكان الرب يسير أمامهم» (خروج ١٣ : ٢٠). والحقيقة أن الأنبياء عليهم السلام فى أغلب المواقف يتصرفون ذاتيا معتمدين على ما آتاهم الله من حكمة وفهم وعلم. وعن موسى قال الله تعالى:

«ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما». (١٤ – القصص). وهكذا كان على موسى – بمقضى الحكمة والعلم – أن يقرر أى طريق يسلك بعد أن اجتمعت حشود بنى إسرائيل عند سكوت.

وعلم موسى بحكمته أن الطريق المباشر إلى فلسطين لاشك مراقب ومسدود وكما يقول المثل «من دونه خرط القتاد» والقتاد شجر صلب له شوك كالإبر. ويضرب المثل للشيء المحال تنفيذه أو لاينال إلا بمشقة عظيمة. وأدرك موسى عِظَم المسئولية فقد أوكل الله إليه الخروج ببنى إسرائيل من مصر وعليه أن يقودهم سالمين إلى حيث يريد الله وعليه ألا يعرضهم للمخاطر وإلا كان مُفرطا فى الأمانة التى ألقيت على عاتقه. فعليه أن يحتال حتى يخرج بهم من مصر سالمين.وهنا قرر موسى أن يتجه جنوبيا . فهو يعرف أن الشمال تحده بحيرة المنزلة ولا مهرب منها إذا حوصر هناك كما أنها منطقة قريبة من الطريق الساحلى إلى فلسطين ولاشك أن عليها رقابة شديدة أيضا . وهنا قد يثور تساؤل فما بالنا عن الجنوب وهو مسدود لأن البحر الأحمر ممثلا فى خليج السويس كان متصلا بالبحيرات المرة ولا مخرج منه إلى سيناء. ولا يكون من جواب إلا بافتراض أن موسى عليه السلام كان «يعتقد» بوجود منفذ ما إلى سيناء قبل خليج السويس. ولعل هذا الاعتقاد قد تولد لديه من قبل. فبعد أن كلمه ربه وهو عائد من أرض مدين وعلم بالمهمة التى أوكلت إليه كان يدرس الطريق. ولعله وهو سائر بحذاء خليج السويس على شاطئه الشرقى رأى قرب طرفه الشمالى الإنحناءة الكبيرة المشار إليها بعلامة × شكل ٢٣٦ . فظنها أرضا يابسة متصلة غربا بصحراء مصر الشرقية. وبناء على هذا

الافتراض كان سيره جنوبا لينفذ من هذا الممر – البعيد عن العيون – إلى سيناء.

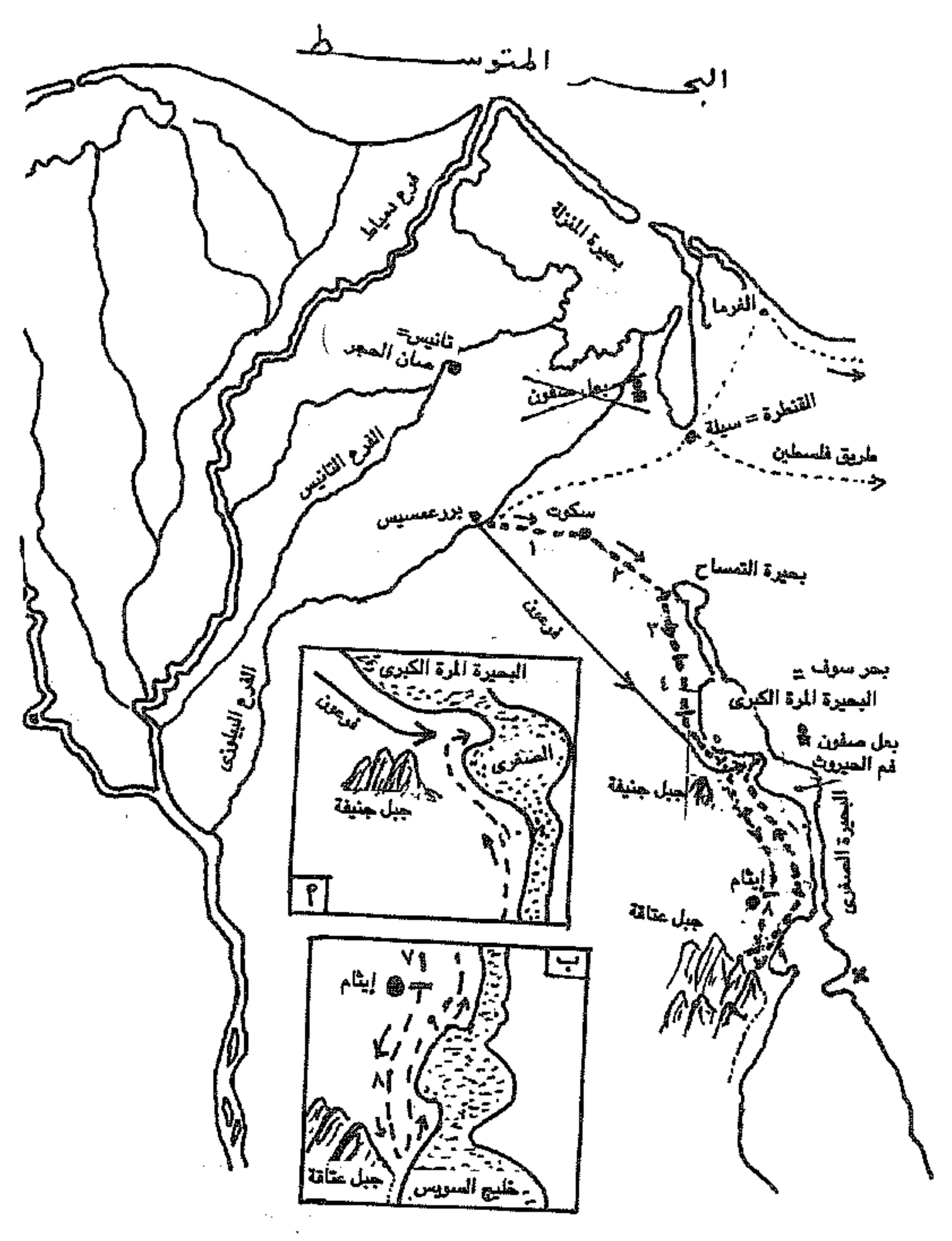
قرر أغلب الباحثين أن المسافة التى كان فى استطاعة بنى إسرائيل قطعها فى اليوم الواحد – ومعهم مواشيهم وبقرهم – كانت لا تزيد عن ١٢ ميلا أى ٢٠ كيلو مترا (وارنركيللر – تاريخ الكتاب المقدس، ص ١٢٠). وعليه فإن السير من سكوث إلى بحيرة التمساح استغرق يوما، ثم خمسة أيام أخرى حتى وصلوا إلى إيثام. فى هذه الأيام السبعة كان رمسيس الثانى فى قصره ينتظر وصول الأخبار عن تحركات بنى إسرائيل. ولعل رسلا جاءوا من «سيلا» (القنطرة) وأخبروه أن بنى إسرائيل لم يمروا عن طريقهم. وفى اليوم الثامن وصله فارس من «إيثام» بأن بنى إسرائيل مروا أمامهم متجهين جنوبا فقرر اللحاق بهم لإرجاعهم إلى أرض جاسان.

كان بنو إسرائيل فى اليوم الثامن قد تجاوزوا إيثام جنوبا وبحث موسى عن المعبر إلى سيناء فلم يجده بل وجد جبل عتاقة إلى يمينه مرتفعا وراءه يقرب من شاطىء البحر حتى ليكاد يسده ولا يترك إلا ممرا عرضه عدة أمتار يستحيل على هذا الحشد الهائل المرور منه (شكل ٢٣٦ ب) فعاد أدراجه ثانية وضاع يوم ثانٍ فى العودة إلى إيثام. وأرسلت حاميتها رسولاً إلى فرعون يخبرونه بمرور بنى إسرائيل بهم ولكن فى هذه المرة متجهين إلى الشمال. وكما قالت التوراة (خروج ١٤ : ٤) قال فرعون «هم مرتبكون فى الأرض قد استغلق عليهم القفر».

ويثور التساؤل: أليس فى هذا تأخير لخروجهم من مصر وازدياد الفرصة أمام فرعون اللحاق بهم وإعادتهم إلى العبودية ثانية؟ وهنا تتبدى حكمة الله التى لا تدرك لأول وهله. فلقد علم الله أن خروجهم من مصر ووصولهم إلى فلسطين لن يكون نجاة كاملة لهم لأن فرعون سيلاحقهم بجيشه ويقاتلهم هناك وليس عندهم من السلاح ما يدافعون به عن أنفسهم ولن تكون النجاة كاملة إلا بهلاك فرعون وآلته الحربية حتى لا يلاحقهم فى فلسطين. ولكن كيف يكون هلاك فرعون وجيشه؟ ما كان أسهل من أن يصيبهم الله بوباء يقضى عليهم. ولكن مثل هذه الوفاة ليس فيها العبرة الكافية. كذلك ما كان أسهل من أن تقوم عاصفة على جيش فرعون وهو سائر فى الصحراء فتهلكهم كالعاصفة التى أهلكت جيش الفرس الذى أرسله قمبيز ليحتل الواحات الخارجة! ولكن هذا الحل أيضا ليس فيه العظة المطلوبة وسيقال لقد أهلكته عاصفة من فعل الطبيعة – ويريد الله أن تكون وفاة الفرعون وهلاك جنده أثناء مطاردتهم لموسى وبنى إسرائيل لتتحقق النبوءة بحذافيرها. والنبوءة كانت تقول: إن طفلا يولد لهم يكون هلاك الفرعون على يديه. وكان فرعون يريد أن يحذر هذه النبوءة. ولكن مشيئة الله هى:

«ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون». (٦ – القصص)

وهكذا سار موسى عليه السلام عائدا أدراجه فى اتجاه الشمال وقد خاب أمله فى وجود معبر إلى سيناء فى الجنوب ولا ندرى ماذا كان شعوره وقتئذ ولا ما كان يعتمل فى صدره. هل



شكل ٢٣٦ – طريق الخروج كما يراه المؤلف.

كان يلوم نفسه لهذا الوقت الذى «أضاعه» والذى سيمكن فرعون من اللحاق بهم - إن الأنبياء يعلمون علم اليقين أن كل خطوة يخطونها هى بتقدير من الله العزيز الحكيم. وقد اجتهد بأقصى جهده على قدر علمه ولم يقصر. وترك الأمر لله يدبِّره كيف يشاء. وراح يهدىء من ثائرة بنى إسرائيل الذين لاشك بدأوا فى التذمر. كان كل تفكير بنى إسرائيل هو أن يخرجوا من أرض مصر بأسرع ما يمكن ليبعدوا عن يد فرعون - هكذا كان ظنهم. ولعلهم اتهموا موسى عليه السلام بعدم الدراية بمسالك الصحراء وأنه «بتردده» هذا قد زاد من احتمالات تعرضهم للخطر .

حنق فرعون واغتاظ لما علم بأن بنى إسرائيل قد ابتعدوا هكذا فى مسيرتهم إلى الجنوب وأدرك كم كان مصيبا عندما شك فى أنهم ينوون الخروج بلا رجعة أما وقد تأكدت ظنونه فإنه قرر إعادتهم ثانية بالقوة إلى أرض جاسان أو القضاء عليهم نهائيا.

«فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين. إن هؤلاء لشرذمة قليلون. وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون». (٥٣ - ٥٥ - الشعراء)

وقرأها البعض حذرون بغير ألف والمعنى إنا لجمع من عادتنا الحذر والاحتراز. وقالوا الحَذِر من كان الحَذَر طبعة وحاذر للمبالغة. وعن ابن عباس وغيره الحاذر التام السلاح لقوله تعالى «**خذوا حذركم**» أى سلاحكم (تفسيرالألوسى جـ ٩ ص ٨٢) ولكن قوله تعالى «**وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم**» (١٠٢ - النساء) يبين أن الحذر خلاف الأسلحة ولهذا كان النص على كل منهما. فالحذر هو الاحتراز وأخذ الحيطة. وكان من حذر فرعون أنه كان قد أخذ حيطته وأمر قواد الجيش بأن يكونوا شبه مستعدين. فلما وصله الخبر من نقطة المراقبة فى إيثام لم يستغرق الأمر إلا يوما واحدا ليرسل إلى المدن لاستدعاء الجند والفرسان والمركبات والتزود بالمؤن.

خرج فرعون بجنوده فى صبيحة اليوم العاشر. على عجلاته الحربية. تقول التوراة: فشد مركبته وأخذ قومه معه وأخذ ستمائة مركبة منتخبة وسائر مركبات مصر وجنودا مركبية على جميعها.. (خروج ١٤ : ٦). ولما كان الأمر كذلك فقد قطعوا المسافة كلها فى يوم واحد.

كان موسى وبنو إسرائيل بعد مرورهم بإيثام متجهين شمالا قد قطعوا اليوم العاشر كله سيرا حتى وصلوا آخر النهار إلى منطقة **إلتقاء البحيرة المُرَّة الصغرى بالبحيرة المرة الكبرى (شكل ٢٣٦ أ)** ورأى موسى وبنو إسرائيل غبارا هائلا فى الجو - مما أثارته العربات الحربية فأيقنوا أنه فرعون. وكان جبل جنيفة إلى الغرب فلم يكن أمامهم إلا الاتجاه شرقا. وتبعهم فرعون.

«فأتبعوهم مشرقين». (٦٠ - الشعراء)

شرّق وأشرق توجه نحو الشرق (المعجم الوسيط جـ ١ ص ٤٨٢) وقيل أيضا داخلين فى وقت شروق الشمس أى وقت طلوعها مثل أصبح أى فى وقت الصباح - ويكون ذلك باعتبار بدء فرعون فى اتباعهم إذ بدأ كما قلنا فى صبيحة اليوم العاشر.

وهكذا فإن لفظ «مشرقين» يحمل معنيين. بدء الاتباع والمطاردة عند شروق الشمس ثم عند رؤيتهم كان الاتباع والمطاردة في اتجاه الشرق وهذا من الإعجاز اللفظى للقرآن الكريم.

واقترب جند فرعون حتى بدأ بنو إسرائيل يرون عرباتهم. وبالمثل بدأ فرعون وجنده يرون بنى إسرائيل وأصبح كل فريق يرى الآخر أى «تراءى» الفريقان:

«فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون». (٦١-الشعراء)

فزع بنو إسرائيل وقالوا لموسى «إنا لمدركون» أى لملحقون. وقرأها البعض «لمدَّرِكون» بمعنى الهلاك والفناء (تفسير الألوسى جـ ١٩ ص ٨٤) حيث أن العدو خلفهم والبحر أمامهم وليس من مخرج. فرد عليهم موسى يطمئنهم:

«قال كلا . إن معى ربى سيهدين». (٦٢ الشعراء)

حتى هذه اللحظة لم يكن موسى عليه السلام يعرف ماذا سيحدث. كان متأكدا أن الله سينقذه هو وبنى إسرائيل من فرعون وجنده. ولكن كيف؟ ذلك مالم يكن يعرفه. واستمر فرعون وجنوده فى الاقتراب. وموسى وبنو إسرائيل يسيرون شرقا حتى قرب الغروب - ولم يبق أمامهم إلا البحر. وهنا حدثت المعجزة.

انفلاق البحر :

«فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم. وأزلفنا ثم الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم».

(٦٣ - ٦٨ - الشعراء)

وهنا محذوف إذ المعنى: أن اضرب بعصاك البحر فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق وفى الحذف إشارة إلى سرعة امتثاله لأمر ربه لحرج الموقف. فانفلق البحر وكان الماء على كل جانب كأنه جبل مرتفع أى كالطود العظيم.

قال البعض (تفسير القرطبى جـ ١ ص ٣٩٠): فكان فيه اثنا عشر فرقا لاثنى عشر سبطا لكل سبط طريق يتراءون وذلك أن أطواد الماء صار فيها طيقانا وشبابيك يرى منها بعضهم بعضا. ولا نرى هذا الرأى لأن فيه تزيُّد لا يقتضيه الموقف. وينفيه قوله تعالى:

«فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى». (٧٧ - طه)

ولم يقل طرقا للتعدد ولم يقل قد علم كل أناس طريقهم كقوله تعالى «قد علم كل أناس مشربهم» كما أن بنى إسرائيل أثناء مطاردة فرعون لهم لم يكونوا ليلتزموا فى سيرهم بتنظيم بحيث يكون كل سبط وحده فى طريق خاص به لا يمر منه غيره.

مكان انشقاق البحر :

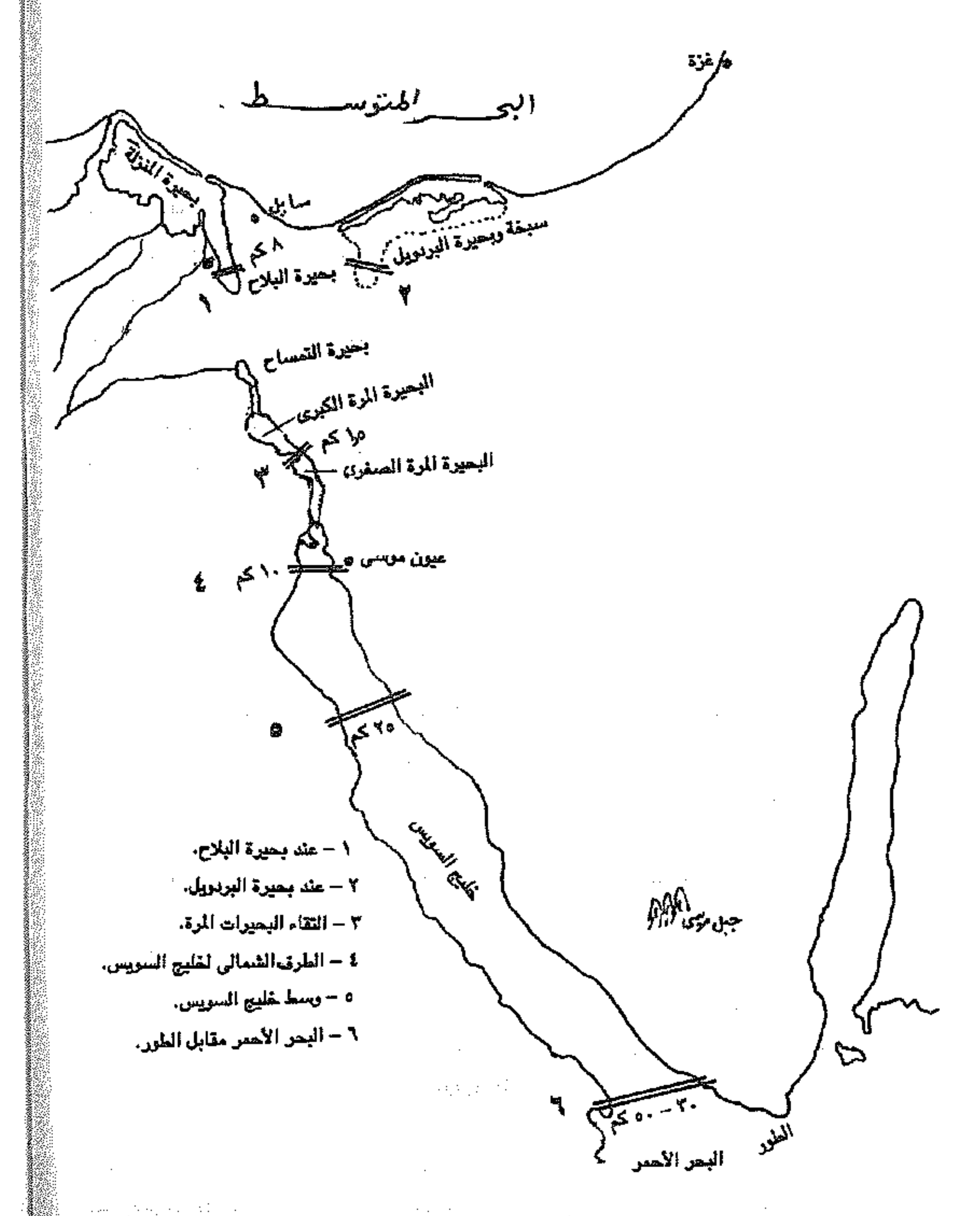
تقول التوراة (خروج ١٤): وكلم الرب موسى قائلا: كلم بنى إسرائيل أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروث بين مجدل والبحر أمام بعل صفون. مقابله تنزلون عند البحر... وأشدد قلب فرعون حتى يسعى وراءهم. وسعى المصريون وراءهم وأدركوهم عند فم الحيروث أمام بعل صفون.

وقد اختلف العلماء فى تحديد مكان فم الحيروث وبعل صفون على الخرائط تبعا لاختلاف وجهات نظرهم فى خط سير الخروج. وشكل ٢٣٧ يبين الأماكن المختلفة التى قيلت فى مكان انشقاق البحر.

ويمكن استبعاد أن يكون مكان العبور عند الطرف الجنوبى لبحيرة المنزلة فى الجزء المسمى بحيرة البلاح إذ لا يمكن تصور أنه عند اتجاه موسى شمالا وبعد أن يترك بحيرة التمساح ويجد أرضا يابسة على يمينه تقود إلى سيناء ومع ذلك يستمر سائرا شمالاً ليضع نفسه وبنى إسرائيل فى مكان ليس له مخرج علما بأنه لم يكن يعلم بأن البحر سينشق ليعبر منه. كما أن البوص فى بحيرة المنزلة من الكثافة بحيث أنه يتيح لمن يتشبث به ألا يغرق.

كذلك يمكن استبعاد أن يكون خليج السويس نفسه مكانا للعبور سواء فى طرفه الشمالى أو وسطه أو طرفه الجنوبى مقابل الطور إذ أن اتساع المجرى المائى فى هذه الأماكن هو ١٥، ٢٥، ٤٠ كيلو مترا على التوالى وهى مسافات يلزم لعبورها يوما كاملا أو يومين فى حين أن بنى إسرائيل عبروا فى حوالى ٨ ساعات. بالإضافة إلى أن عمق خليج السويس يتراوح بين ٣٠ – ٥٠ مترا الأمر الذى يشكل صعوبة بالغة للعبور فضلا عن أن الساحل الغربى للخليج شديد الانحدار مما يجعل الأمر شبه مستحيل.

تبقى منطقة البحيرات المرة. وينمو فيها بعض البوص – ولو أنه قليل – ولذلك يمكن اعتبارها Reed Sea كما أنها كانت متصلة بالبحر الأحمر فهى Red Sea وقد ذكرنا فى خط السير الذى رجحناه (شكل ٢٣٦) أن العبور كان عند التقاء البحيرة المرة الصغرى بالبحيرة المرة الكبرى فى مكان عرض المجرى المائى يبلغ ١.٥ – ٢ كيلو مترا وعمقه ٥ – ٧ أمتار والمياه تقع فى شرق اليابسة فتكون المطاردة من الغرب إلى الشرق فيتحقق وصف «**فأتبعوهم مشرقين**». وبذلك تكون المنطقة على الضفة الشرقية هى فم الحيروث ومن المحتمل أن كان بها تمثال «بعل صفون» وكان بدو شمال سيناء يتعبدون عنده.



شكل ٢٣٧ - أماكن انشقاق البحر.

كيفية انشقاق البحر:

يذكر القرآن الكريم كيفية انشقاق البحر ببساطة هكذا:

«فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم». (٦٣–الشعراء)

فبمجرد أن أشار موسى عليه السلام بعصاه إلى البحر حدث انشقاق البحر فى الحال. حدث ذلك معجزة من الله سبحانه وتعالى لإنجاء موسى وبنى إسرائيل. ولوشاء الله لفلقه بدون ضربه بالعصا وإنما أمر موسى – إعظاما لشأنه – أن يضرب بالعصا حتى ينفلق البحر. ويحتمل أن جبريل عليه السلام هو الذى تولى عملية شق البحر وسيأتى ذكر ذلك فيما بعد فى فتنة السامرى (ص ١٠٠٠).

تقول التوراة عن هذا الموقف (إصحاح ١٤ خروج : ١٠) : فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم ففزعوا وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبور فى مصر أخذتنا لنموت فى البرية. ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر. أليس هذ هو الكلام الذى كلمناك به فى مصر قائلين كُفَّ عنا فنخدم المصريين لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية. فقال موسى للشعب لا تخافوا . قفوا وانظروا خلاص الرب الذى يصنعه لكم اليوم. فإنه كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أيضا إلى الأبد (أى أن هذه آخر مرة ترونهم) الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون.

فقال الرب لموسى مالك تصرخ إلى قل لبنى إسرائيل أن يرحلوا وارفع أنت عصاك ومد يدك على البحر وشُقَّه. فيدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة وها أنا أشدِّد قلوب المصريين حتى يدخلوا وراءهم فأتمجَّد بفرعون وكل جيشه بمركباته وفرسانه فيعرف المصريون أنى أنا الرب. وجاء فى الفقرة ٢١ : ومد موسى يده على البحر فأجرى الرب بريح شرقية شديدة طول الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء فدخل بنو إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم.

وقال الأستاذ عبدالوهاب النجار (قصص الأنبياء، ص ٢٢٢): وعلى كُلٍّ. فالآية ظاهرة واضحة سواء أكان انفلاق البحر بسبب ضرب موسى البحر أو بهبوب الريح بالكيفية التى شرحتها التوراة فإن الناس لم يعهدوا أن الريح عملت هذا العمل فى الخليج مرة أخرى فلم يكن ذلك إلا بعناية خاصة من الله تعالى لإنفاذ ما فى علمه. وقد أخذت لجنة من علماء الأزهر الشريف عليه هذا القول وقالوا إن هذه الفقرة تفيد معنى أنه من المحتمل أن تكون التوراة هى الصادقة ورد هو قائلا إن الضرب بالعصا أعقبه هبوب الريح التى أزاحت المياه وانكشف قاع البحر يبسا.

وفى رأينا أن الريح تحدث تموجات فى سطح البحر وإذا كانت الريح شديدة كانت

التموجات كبيرة بحيث تكشف القاع إن كان الماء ضحلا لا يزيد عن متر كما أن هذا الكشف لا يكون إلا لبضع دقائق ويعود الماء إلى الإلتئام ثانية. ولكن الريح التى تكشف قاع مياه عمقها خمسة أو عشرة أمتار ويستمر هذا الكشف عدة ساعات لا يمكن إلا أن تكون ريحا شديدة جدا بحيث أنها لابد ستطيح بكل ما أمامها بما فيها الأشخاص أنفسهم. فإرجاع شق البحر للريح أمر مستحيل علميا. وكان لفظ القرآن الكريم معبرا عن معجزة حدثت فى الحال دون انتظار هبوب ريح لإحداثها. وقد أشرنا سابقا إلى الحذف وفاء الترتيب والتعقيب فى قوله تعالى: «**أن اضرب بعصاك البحر فانفلق..**» ولاشك أن إزاحة هذه الكمية الهائلة من المياة وارتفاعها على كل جانب بحيث تصبح كالجبل العظيم قد أحدث موجات تضاغط وتيارات هوائية شعر بها بنو إسرائيل وظنوا أن الريح هى التى سبَّبت انفلاق البحر فى حين أنها كانت نتيجة له. ومن الذين يُرجعون انفلاق البحر إلى أسباب طبيعية أى بفعل الريح عالم الآثار سليم حسن إذ يقول (مصر القديمة جـ ٧ ص ١٣٥) ولا يزال منسوب الماء حتى الآن متأثرا بدرجة عظيمة بالريح فى بحيرة المنزلة والبرلس ويلاحظ أن الطريق من بلطيم حتى برج البرلس يُغطَّى بالماء عندما يهب الهواء غربيا ثم يصبح جافا عندما يهب الهواء من الشرق ويمكن للانسان أن يسير عليه بالعربة. وفى رأينا أن ذلك لايحدث إلا إذا كان انحسار المياة لمسافة نصف متر فقط أما أن يحدث هذا الانفلاق لعمق ٥ أو ١٠ أمتار حتى يغرق فيه جيش بأكمله وبمركباته المرتفعة فإن هذا لا يكون إلا بمعجزة إلهية.

أما إرجاع انكشاف طريق البحر إلى المد والجزر والقول بأن المد والجزر قد يصل فى بعض الأماكن إلى عدة أمتار فهذا مردود عليه بأن المد والجزر فى البحار المغلقة لايكون كبيرا وفى بحيرات صغيرة مثل البحيرات المرة قد لا يزيد المد والجزر عن بضعة سنتيمترات . كما أن المد والجزر ظاهرة طبيعية تتكرر ولها مواعيدها المعروفة لدى أهل السواحل ويمكن توقِّيها ولاشك أن فرعون وقواده كانوا على علم بها فلا يعقل أن تكون هذه الظاهرة سببا فى غرقهم.

كما أنه لا محل لبحث مزاعم البعض من أن انفجارا بركانيا حدث فى سيناء وأن الزلزال الذى صحب هذا الانفجار وموجة الجزر التى صاحبته هى التى جعلت الماء ينحسر فيظهر الطريق الذى عبر منه بنو إسرائيل وموجة المد التى أعقبته هى التى أفضت إلى غرق فرعون وجنوده. وحتى هذا الزعم يحمل فى طياته معجزة إلهية من إحكام توقيت الانفجار البركانى المزعوم وإحكام توقيت موجة المد حتى تغرق من أغرقت. فهذا التوقيت الدقيق لا يمكن أن يحدث بطريق المصادفة – ولابد أن معجزة إلهية وراءه. وما دمنا قد اعترفنا بمعجزة إليهة فما الداعى لافتراض انفجار بركانى!

وبعضهم زعم انفجارا بركانيا فى قاع البحر المتوسط قرب جزيرة كريت. وحتى لو حدث هذا فإنه ما كان ليؤثر على البحيرات المرة إذ ليس لها اتصال بالبحر المتوسط.

وهناك أقصوصة أو أحجية تروى فى هذا الشأن (الدر المنثور ٦٩/١ – حلية الأولياء ٣٢٠/١) من أن هرقل كتب إلى معاوية بن أبى سفيان يسأله عن القوس والمجرة وعن البقعة التى لم تصبها الشمس إلا ساعة واحدة. فلما أتى معاوية الكتاب قال من لهذا (أى من يستطيع الإجابة عن هذا) فقالوا: ابن عباس. فطوى الكتاب وبعثه إلى ابن عباس فكتب إليه: إن القوس أمان لأهل الأرض من الغرق، والمجرة باب السماء الذى تنشق منه. وأما البقعة التى لم تصبها الشمس إلا ساعة من نهار فالبحر الذى أفرج عن بنى إسرائيل. وواضح أن هذه القصة من وضع اليهود إذ هى مرتبطة بفكر بنى إسرائيل فالقوس هو قوس قزح الذى يظهر فى السماء بعد المطر الغزير والذى تقول عنه التوراة (تكوين ٩ : ١٤) إنه يرمز إلى ميثاق الله: فلا تكون المياه طوفانا لتهلك البشر وهو ما ذكرناه فى قصة نوح عليه السلام فى الجزء الأول (ص ١٠٧).

قبل أن نترك موضوع شق البحر لا بأس من مناقشة موضوع طريف هو:

سمك موسى :

هذا النوع من السمك معروف للجميع. وفى سبب تسميته بهذا الاسم قيل إن سمكة – أو عدة أسماك – تصادف أن وجدت فى النقطة التى ضرب فيها موسى عليه السلام البحر بعصاه. فانشق البحر وانشقت السمكة إلى نصفين. ثم استكمل كل نصف ما يلزمه للبقاء حيا. وتكاثر هذا النوع الجديد من السمك ونفذ من باب المندب فى الطرف الجنوبى للبحر الأحمر وانتشر إلى جميع البحار والمحيطات.

والآن لنترك العنان للخيال لنتصور كيف سيكون شكل هذا النوع الجديد من الأسماك. أول شيء أن شق السمكة سينتج لنا نصفا أيمن ونصفا أيسر. ولكل نصف عين واحدة فى السطح المغطى بالجلد الأصلى أما السطح مكان الشق فسيكون عاريا من الجلد. والطريقة البدائية – والتى كانت متبعة فى الأرياف إلى وقت قريب – تتمثل فى وضع التراب على الجروح. وسمكتنا هذه ستتبع نفس الطريقة فتنزل إلى القاع وتُلصق السطح العارى بالرمل أى أن نصف السمكة الأيمن سيرقد على القاع على السطح الأيسر والعكس بالعكس ويستمر هكذا حتى يلتئم مكان الشق بجلد أبيض اللون لأنه لم يتعرض للضوء فى حين يكون السطح العلوى داكن اللون فهو جلد السمكة الأصلى.

نأتى بعد ذلك إلى مشكلة الرؤية ثلاثية الأبعاد والتى يلزم لها عينان فى حين أن كل نصف به عين واحدة. عندئذ يلزم أن تتكون لكل نصف عين جديدة. بالطبع ستكون فى السطح العلوى إذ أن السطح السفلى ملاصق للرمل. ولا تجد العين الجديدة مكانا لها إلا على الحافة إذ أن وسط الرأس تشغله العين الأصلية.

هكذا نرى أن السمكة العادية التى انشقت قد تحولت إلى سمكتين من النوع المفلطح سمكة

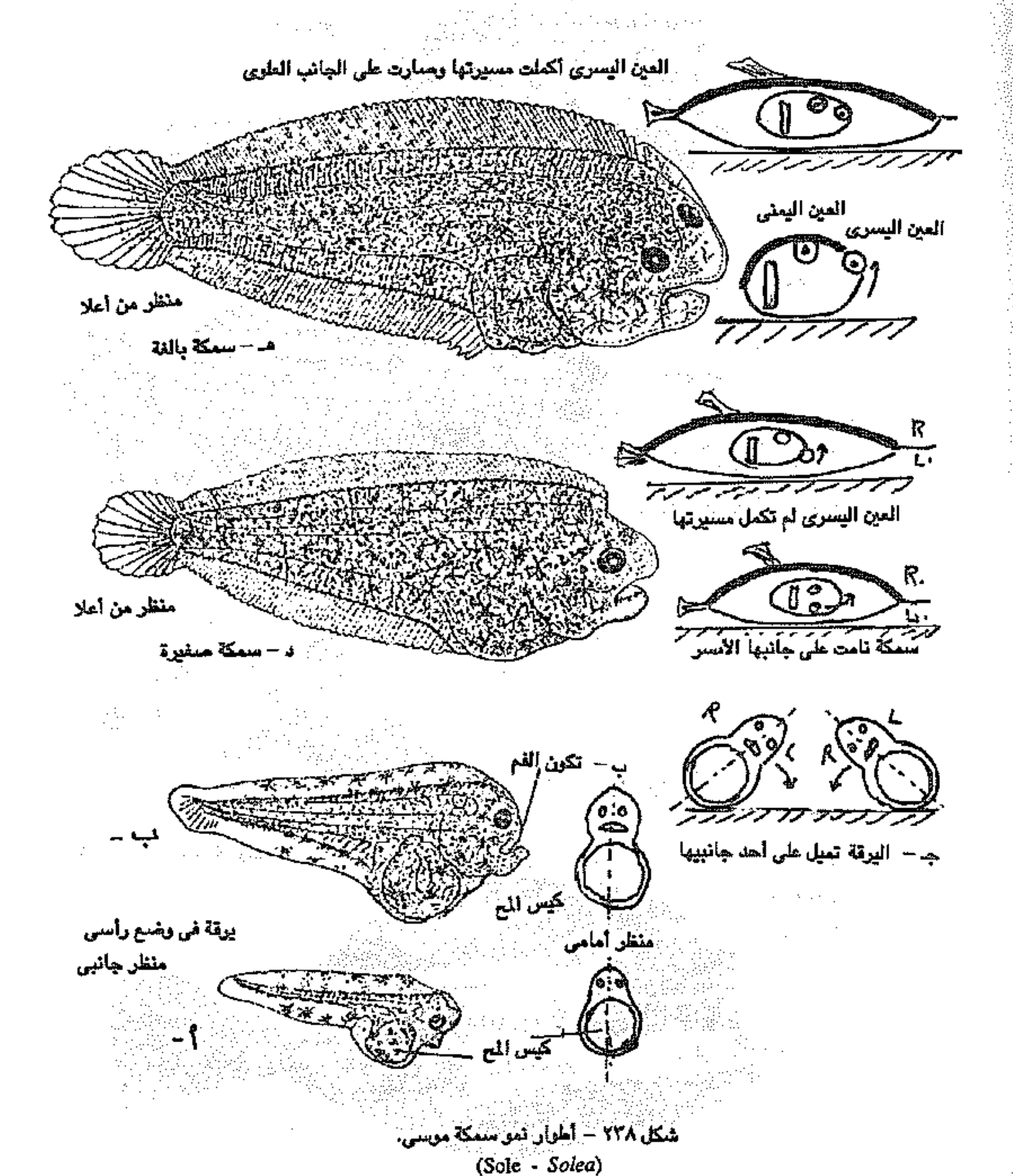
يمنى وسمكة يسرى وأصبح لكل سمكة سطح علوى داكن اللون وسطح سفلى أبيض. والعينان موجودتان فى الرأس: واحدة فى المنتصف والأخرى على الحافة. كما أن الفم يفتح فى اتجاه رأسى أى عمودى على قاع البحر وله فكَّان جانبيان بدلاً من فك علوى وفك سفلى.

هذه هى مواصفات هذا النوع الجديد من السمك الذى سينتج عن السمكة التى انشقت مع شق البحر. بالطبع لا نتوقع أن نجد فى مراحل تطور هذا النوع من السمك أنها تنشق - فتلك كانت معجزة لموسى عليه السلام ولن تتكرر ثانية. وأقصى ما نأمله هو أن نجد فى أطوار نمو هذه السمكة شيئا ما يشابه ما حدث فى الماضى.

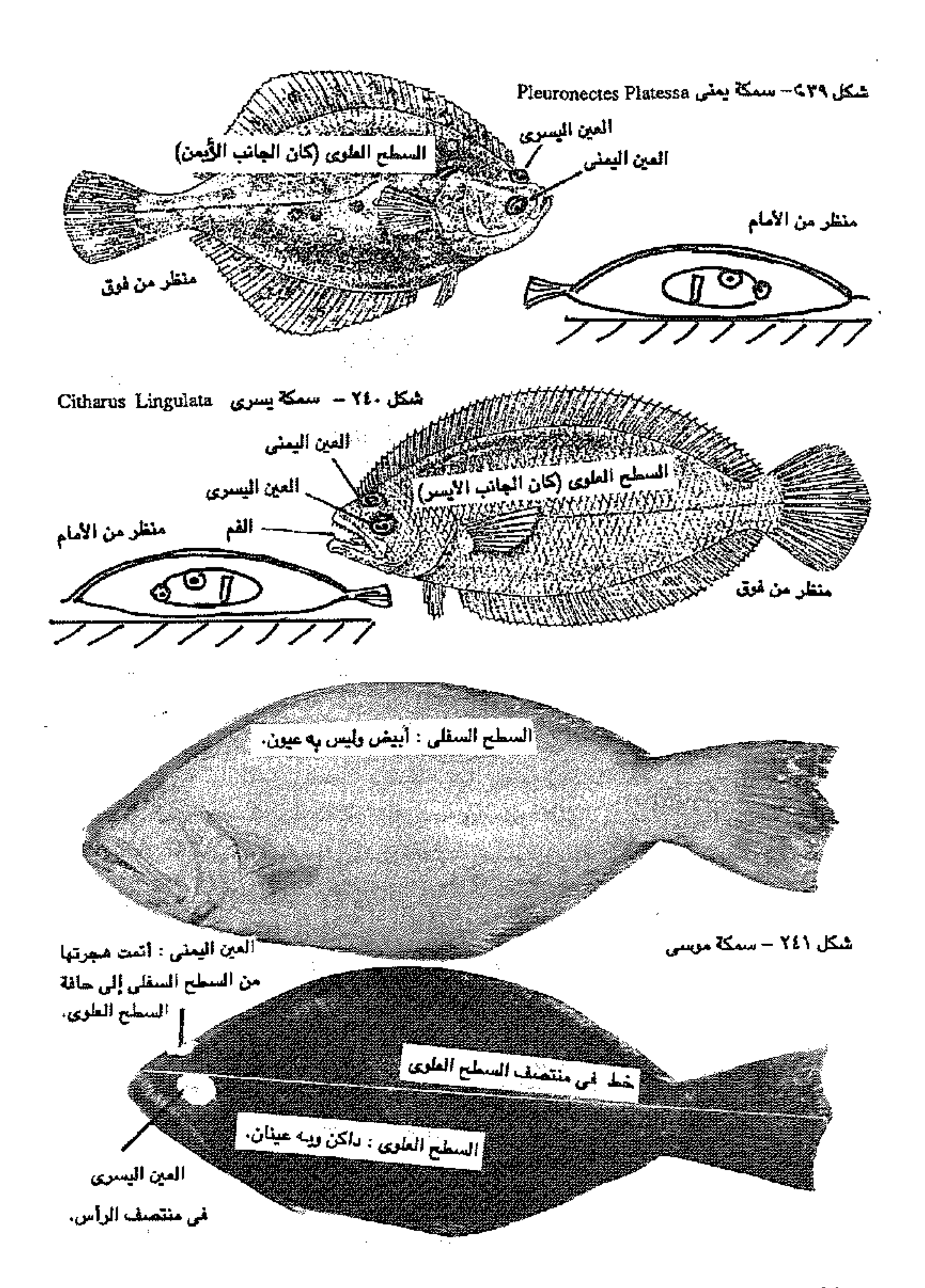
كان لابد أن ألجأ إلى مختصين فى علم الأسماك. فلجأت إلى الأستاذ الدكتور حلمى بشاى أستاذ بيولوچيا الأسماك والبيئة المائية بكلية العلوم جامعة القاهرة وخاصة أنه كان قد درس فى انجلترا بيولوجية بعض الأسماك ومن بينها سمكة موسى. وسمك موسى موجود فى كل بحار ومحيطات العالم سواء المياه الباردة أو الدافئة أو الحارة. والاسم العلمى له هو Solea ويوجد فى المياه المصرية حوالى ١٠ أنواع منها: *Solea vulgaris* و *Solea aegyptica* وغيرها. وقد أفادنى سيادته بالمعلومات التالية:

تمر سمكة موسى بالمراحل الجنينية الأولى - مثل غيرها من الأسماك - البيض يفقس ويخرج منه يرقة Larva لها كيس المح yolk sac الذى يغذى الجنين إلى أن يستكمل نموه - وتكون اليرقة فى وضع رأسى (شكل ٢٣٨ - أ) وبعد أن تكبر قليلا يتكون لها فم (٢٣٨ ب). ثم بعد أن يبلغ طولها ١,٥ - ٢ سم تبدأ المراحل الخاصة بهذه السمكة والتى لا تشاركها فيها أى سمكة من نوع آخر. إذ أن السمكة تنزل إلى القاع وترقد على أحد جانبيها الأيمن أو الأيسر (٢٣٨ - جـ) . هذا الجانب يسمى الآن الجانب السفلى ويظل أبيض ناصعا بعكس الجانب العلوى الذى يأخذ لونا داكنا. كماأن العين التى كانت فى السطح السفلى تحدث لها إزاحة وتترك مكانها وتتحرك مهاجرة لتأخذ لها مكانا على السطح العلوى ولكن على الحافة. لقد تحولت السمكة المنشقة إلى سمكة مفلطحة Flat Fish تبقى على رمل القاع وتسبح ملاصقة له بحثا عن الغذاء وتنمو لتبلغ أحجاما تختلف حسب نوع السمكة وكثيرا مالا يفطن الغراصون لوجودها إلا حينما تتحرك أو عندما يطأونها بأقدامهم إذ أن السطح العلوى يتلون بلون البيئة المحيطة.

لو نظرنا إلى صفحة ٩٤٨ لوجدنا أن سمك الـ Solea أو سمكة موسى يوجد منها سمكة يمنى (شكل ٢٣٩) وسمكة يسرى (شكل ٢٤٠). وفى شكل ٢٤١ لو رسمنا خطا فى منتصف السطح العلوى لاتضح لنا عدم تماثل الأعضاء على جانبيه خلافا لما هو موجود فى الأسماك المفلطحة الأخرى. مثل الأسماك الغضروفية المفلطحة المبينة فى شكل ٢٤٢ (قوبع النسر أ ، ب - حدأة البحر جـ) كما أن فم الأسماك المفلطحة يكون أفقيا (شكل ٢٤٢ أ) فى حين أن سمكة موسى يكون فمها رأسيا وله فكَّان جانبيان بدلا من فك علوى وسفلى.



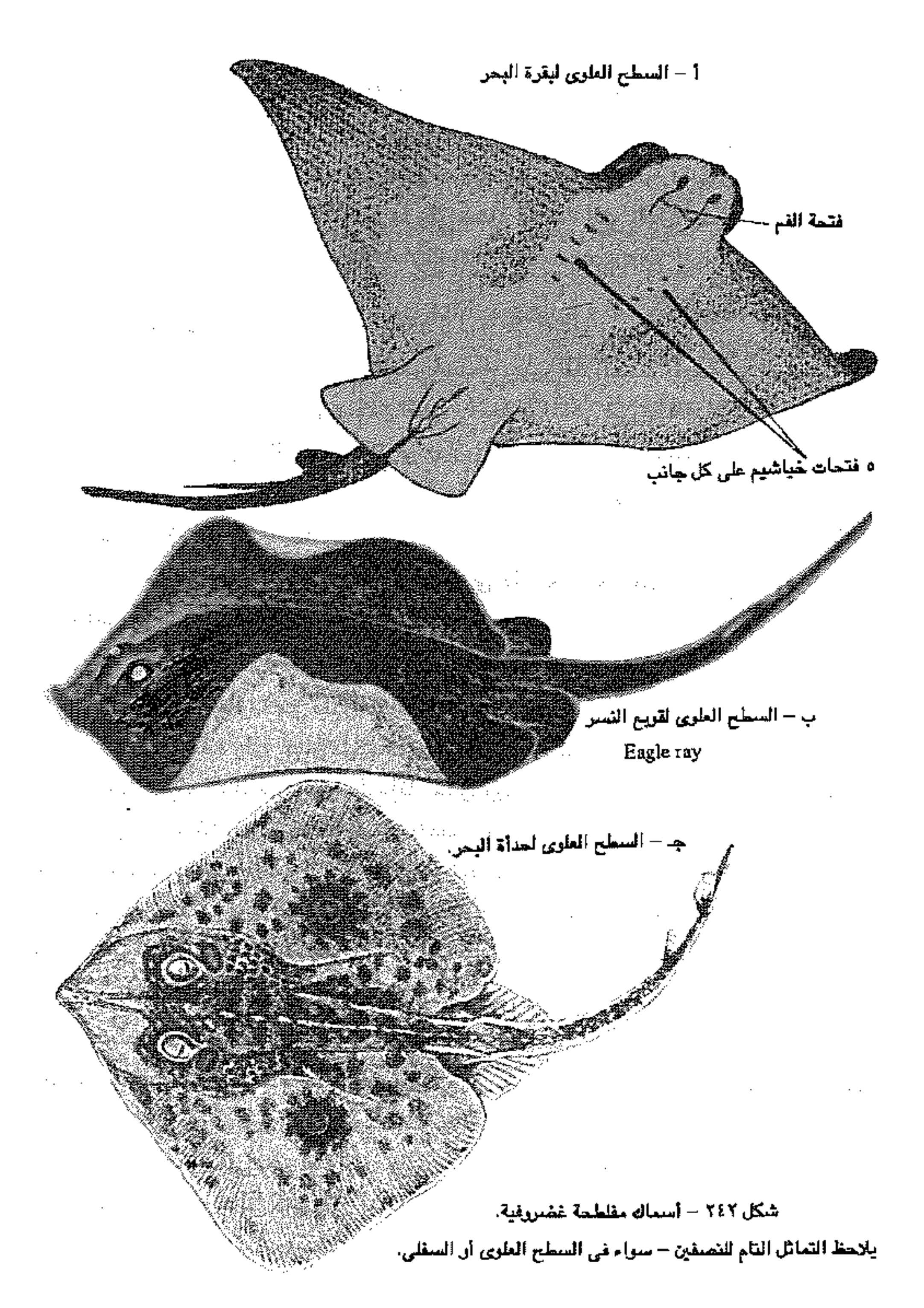
شكل ٢٣٨ - أطوار نمو سمكة موسى.
(Sole - *Solea*)



شكل ٢٣٩ – سمكة يمنى Pleuronectes Platessa

شكل ٢٤٠ – سمكة يسرى Citharus Lingulata

شكل ٢٤١ – سمكة موسى



شكل ٢٤٢ – أسماك مفلطحة غضروفية.

يلاحظ التماثل التام للنصفين – سواء فى السطح العلوى أو السفلى.

إن النوع المسمى «سمك موسى» فى مراحل تطوره، وتحوله من سمكة رأسية إلى سمكة مفلطحة – وفى وجود سمكة يمنى وسمكة يسرى – وعدم تماثيل مكان العينين – والاتجاه الرأسى للفم – لهو حقا – نوع عجيب من السمك.

والآن أترك للقارىء أن يحكم على مدى صحة – أو عدم صحة – ما قيل عن نشأة سمك موسى فى ضوء المعلومات السابق ذكرها وفى ضوء القاعدة التى تقول: تطور الجنين يروى ما حدث فى الماضى من تطور عرقىّ Ontogeny recapitulates Phylogeny !!

غرق الفرعون :

نعود إلى الطريق الذى انشق فى البحر ليسمح بمرور هذ الحشد الهائل من بنى إسرائيل (٦٠٠،٠٠٠) مع بقرهم وغنمهم. كان اتساع المجرى المائى فى هذا المكان – وهو اتصال البحيرة المرة الصغرى بالبحيرة الكبرى – حوالى ١،٥ كيلومترا (شكل ٢٣٦) فلاشك أن عرض الطريق الذى انشق كان ١٠٠ – ٢٠٠ مترا. واستغرق عبورهم من العشاء حتى نصف الليل أى ٦ – ٨ ساعات تقريبا.

«ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا. لا تخاف دركا ولا تخشى». (طه – ٧٧)

والإسراء هو السير ليلا – وهذا يؤيد ما قلناه سابقا (ص ٩٣٩) من أن بنى إسرائيل بدأوا فى اليوم العاشر العودة من جبل عتاقة متجهين شمالا فوصلوا عند الغروب إلى منطقة البحيرات المرة حيث رأوا غبار مركبات فرعون عن بعد فاتجهوا شرقا ووصلوا إلى ساحل البحر، وردا على ما قاله بنو إسرائيل **«إنا لمدركون»** كانت الطمأنينه بقوله تعالى **«لا تخاف دركا»** أى لن يلحقكم فرعون وجنده من خلفكم. وكان خطر آخر يتهدد بنى إسرائيل وهو أن يدفعهم فرعون بجنوده ناحية البحر ليغرقهم ويتخلص منهم وهذا خطر أكبر من الإدراك. وكان الرد عليه بقوله تعالى **«ولا تخشى»** أى ولا تخشى الغرق – فالطريق الذى شُق فى البحر كان جافا **«طريقا فى البحر يبسا»**.

وهكذا سار موسى عليه السلام فى الطريق الذى شُقَّ فى البحر وتبعه بنو إسرائيل. ولما وصل موسى إلى الضفة الشرقية وقف عندها يتابع مرور بنى إسرائيل حتى يتأكد من عبورهم جميعا سالمين. عندئذ أراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر ثانية بعصاه ليعود الماء كما كان حتى لا يعبر فرعون وجنوده ويلاحقونهم. كل ما كان فى ذهن موسى حينئذ هو منع فرعون من الوصول إلى بنى اسرائيل حتى لا يفتك بهم أو يعيدهم إلى مصر للعبودية ثانية. ولكن الله سبحانه وتعالى كان يدبر أمرا آخر بالإضافة إلى إنجاء بنى إسرائيل. فأمر موسى ألاَّ يُغلق البحر

«واترك البحر رهوا». (٢٤ – الدخان)

ورهواً من رها بمعنى سكن. ويقال رها البحر سكن ويقال أيضا رها الرجل أى فتح بين رجليه (المعجم الوسيط جـ ١ ص ٣٨٠) فيكون المعنى اترك البحر ساكنا على حاله مفتوحا كما هو.

ومع تباشير الفجر وصل فرعون وجنده إلى البحر فوجد طريقا مفتوحا فى البحر وقد عبر منه بنو إسرائيل إلى الضفة الأخرى. ولعل فرعون فكر وقال فى نفسه: حقا إن موسى ساحر ماهر وما أعظم سحره إذ استطاع أن يشق هذا الطريق فى البحر! ولكنه نسى أن يغلقه خلفه حتى لا نتبعه. إذا فلنتبعهم ونمسك بهم!

«فأتبعهم فرعون بجنوده». (٧٨ – طه)

«فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا». (٩٠ – يونس)

لاشك أن فرعون تردد بعض الشىء قبل الدخول فى طريق البحر هذا. وليختبر الأرض أمر صفا من المركبات الحربية أن تتقدمه. فلما رآها تسير على القاع بطريقة طبيعية اقتحم هو بعربته الملكية وتبعته باقى عربات الجيش. ولا بأس من أن نحسب المساحة التى كان يشغلها الجيش. فلو فرضنا أن الستمائه عربة تسير فى قافلة عرضها ١٠ عربات يكون طولها ٦٠ عربة. وبحساب خمسة عشر مترا لكل عربة يبلغ طول القافلة ٩٠٠ مترا أى تقريبا كيلومترا واحدا. ولما كان عرض المعبر المائى هو ١,٥ كم فإن جيش فرعون يمكن وجوده بأكمله فى القاع ويفصله عن الشاطىء من كل ناحية ٢٥٠ مترا تقريبا (شكل ٢٤٣).

لم يكن موسى عليه السلام مكلفا بأن يشير إلى البحر بعصاه حتى ينطبق على فرعون وجنوده كما تقول التوراة. إذ لم تكن المسافة ولا الوقت – بداية الليل – يسمحان بأن يتبين إن كان آخر مركبات فرعون قد دخل إلى الطريق أم لا. ولاشك أن عين الله الساهرة هى التى تولت هذا الأمر. وسارت المركبات حتى لم يبق على أول عربة لتبلغ الشاطىء الشرقى إلا قليلا والعربات كلها توسطت قاع البحر غاصت عجلات مركبات الصف الأول فتوقف الركب كله ريثما يتم رفع العجلات من الطين الذى غاصت فيه. وفى ذلك الوقت بدأ البحر ينطبق والتحم جانبا الماء فغرق الجميع.

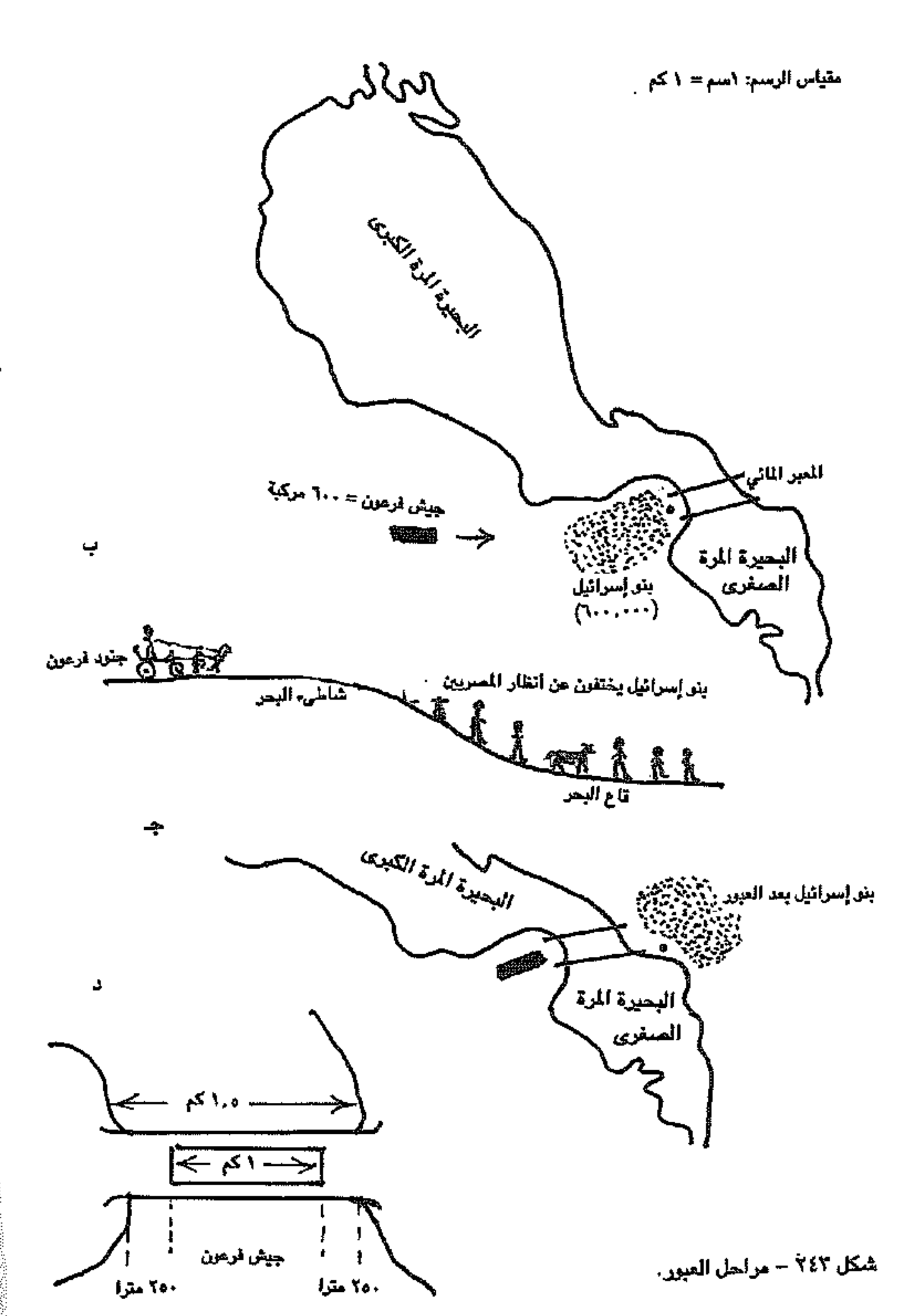
«فغشيهم من اليم ما غشيهم. وأضل فرعون قومه وما هدى». (٧٨ – ٧٩ – طه)

«وأزلفنا ثم الآخرين. وأنجينا موسى ومن معه أجمعين. ثم أغرقنا الآخرين».

(٦٤ – ٦٦ الشعراء)

«فأخذناه وجنوده ونبذناهم فى اليم وهو مليم». (٤٠–الذاريات)

وتقول التوراة عن هذا الموقف (خروج ١٤ : ٢٣): وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم جميع



شكل ٢٤٣ – مراحل العبور.

خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر وكان فى هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين فى عمود النار والسحاب وأزعج عسكر المصريين وخلع بكر مركباتهم حتى ساقوها بثقلة فقال المصريون: نهرب من إسرائيل لأن الرب يقاتل المصريين عنهم. فقال الرب لموسى: مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم. فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة فدفع الرب المصريين فى وسط البحر فرجع البحر وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون. لم يبق منهم ولا واحد فخلَّص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين ونظر إسرائيل المصريين أمواتا على شاطىء البحر. ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذى صنعه الرب بالمصريين فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبده موسى.

إيمان فرعون :

قلنا إن الماء غطى الجميع بما فيهم فرعون وأدرك فرعون أنه غارق لا محالة. هنا فقط ولينجو بحياته أعلن إيمانه:

«حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين. فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية». (٩٠ – ٩٢ – يونس)

وهكذا أعلن فرعون إيمانه حين رأى العذاب وعاين الغرق. وكان فى هذا استجابه لدعاء موسى الذى سبق ذكره ص ٩١٨.

«ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم». (٧٨–يونس)

واستجاب الله لدعاء موسى وهارون **«قال قد أجيبت دعوتكما»** فلم يؤمن فرعون إلا – كما نقول – فى الوقت الضائع – حين لا ينفع الإيمان **«فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا»**. وفعلاً نعى الله عليه إيمانه هذا. ورد عليه باستفهام للإنكار والتوبيخ. **«آلآن»** بمعنى هل كل الآيات السابقة لم تكن كافية لتجعلك تؤمن والآن وأنت فى سكرات الموت تؤمن؟

«وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن». (من الاية١٨ –النساء)

أخرج ابن جرير والبيهقى عن أبى هريرة رضى اله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال لى جبريل عليه السلام: لو رأيتنى يامحمد وأنا أغط فرعون بإحدى يدى وأدس من الحال فى فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له! (تفسير الألوسى جـ ١١ ص ١٨٢). وعن أبى أمامة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى جبريل عليه السلام: ما أبغضتُ شيئا

من خلق الله تعالى ما أبغضت إبليس يوم أمر بالسجود فأبى أن يسجد وما أبغضت شيئا أشد بغضا من فرعون. حين قال: أنا ربكم الأعلى ولقد جعلت أدس فى فيه من الطين حين قال ما قال (ابن كثير البداية والنهاية جـ ١ ص ٢٧٣) وروى فى تفسير الألوس برواية أخرى عن نهايته: فلما كان يوم الغرق خفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص فينجو فأخذت قبضة من حمأة فضربت بها فى فيه فوجدت الله تعالى عليه أشد غضبا منى.

روى الترمذى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر. أى مالم تبلغ روحه حلقومه فيكون بمنزلة الشيء الذى يتغرغر به. وفى النهاية يمكن القول إن صيغة إيمان فرعون – حتى فى وقت الغرغرة هذا – كانت صيغة ملتوية. فلم يقل: آمنت بأنه لا إله إلا الله. بل تلفظ بصيغة تدل على إيمان ظاهرى رغبة فى النجاة من الغرق. فقال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل. أى أنه إنما يقلدهم. وما دام أن إلههم قد أنجاهم فهو سينجيه أيضا. وما هكذا يكون الإيمان الحقيقى النابع من القلب.

وعلت الصيحات والاستغاثات مختلطة بصهيل الخيل وضجيج ارتطام المركبات بعضها ببعض حين دفعتها المياه المتلاطمة. فكان صوتا عاليا واستدار بنو إسرائيل ليروا المشهد الرهيب. جنود الفرعون وهم يغالبون الموج الهادر وحتى من كان منهم يحسن العوم فإنه لم يستطع أن يقاوم الموجات الغاضبة. ورأوا الرؤوس تغوص فى الماء. ولا تظهر إلا أيادى ممتدة إلى أعلى. لم تلبث هى الأخرى حتى غاصت. وبعد ساعة أو بعض ساعة هدأ البحر وبدأت بعض الجثث والأقواس والسهام الخشبية ومقاعد المركبات تطفو على سطح الماء.

«فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم». (٤٠ – الذاريات)

أى آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان .

«واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين».

(٣٩ – ٤٠ – القصص)

وسرت همسات بين بنى إسرائيل أن فرعون قد غرق ولكن بعضهم لم يصدق وقالوا : ما مات. لعظمته عندهم وجبروته فلم يصدقوا أن مثله ممكن أن يغرق. فأمر الله سبحانه وتعالى البحر فألقى جثته على الساحل . قالوا فرآه بنو اسرائيل وتأكدوا من أنه فرعون من درعه المذهّب. فكان فى موته عبرة لمن يأتون بعده من الأمم لأن كثيرا من الناس يغفلون عن ملاحظة آيات الله فى الكون:

«فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية. وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون». (٩٢–يونس)

وسنعود (ص٩٦٩) لتوضيح معنى «لمن خلفك آية».

ترنيمة الخروج :

تقول التوراة (إصحاح ١٥ خروج): حينئذ رنم موسى وبنو إسرائيل هذه التسبيحة للرب وقالوا:

أُرنِّـم للرب فإنه قد تعظم. الفرس وراكبه طرحهما فى البحر.

الرب قُوَّتى ونشيدى، وقد صار خلاصى. هذا إلهى فأمجده.

إله أبى فأرفِّعة. الرب رجل الحرب. الرب اسمه.

مركبات فرعون وجيشه ألقاهما في البحر. فغرق أفضل جنوده المركبية فى بحر سوف تغطيهم اللجج. قد هبطوا فى الأعماق كحجر.

يمينك يارب تحطم العدو. وبكثرة عَظَمتك تهدم مقاوميك.

ترسل سخطك فيهدمهم كالقش.

تجمدت اللجج فى قلب البحر. قال العدو. أتبع. أُدرك. أقسم غنيمة.

تمتلىء منهم نفسى. أجرد سيفى. تفنيهم يدى

نفختَ بريحك فغطاهم البحر. غاصوا كالرصاص فى مياه غامرة.

من مثلك بين الآلهة يارب. من مثلك معتزا فى القداسة مخوفا بالتسابيح.

صانعا عجائب. تمد يدك فتبتلعهم الأرض.

ترشد برأفتك الشعب الذى فديته.

تهديه بقوتك إلى مسكن قدسك.

يسمع الشعب فيرتعدون. تأخذ الرعدة سكان فلسطين.

حينئذ يندهش أمراء أدوم. أقرباء مؤاب تأخذهم الرجفة.

يذوب جميع سكان كنعان تقع عليهم الهيبة والرعب.

بعظمة ذراعك يصمتون كالحجر حتى يعبر شعبك يارب.

حتى يعبر الشعب الذى اقتنيته.

تجيء بهم وتغرسهم فى جبل ميراثك. المكان الذى صنعته يارب لسكنك. المقِدس الذى هيأته يداك يارب. الرب يملك إلى الدهر والأبد.

فإن خيل فرعون دخلت بمركباته وفرسانه إلى البحر. وردَّ الرب عليهم ماء البحر. وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة فى وسط البحر.

فأخذت مريم أخت هارون الدف بيدها وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص. وأجابتهم مريم. رنموا للرب فإنه قد تعظم. الفرس وراكبه طرحهما فى البحر.

والآن لنتوقف هنيهة لنلقى نظرة سريعة على الأحداث التى مرت ونفكر فى تتابعها بهذا الترتيب الذى حدثت به لنرى كيف كان التدبير الإلهى لإخراج بنى إسرائيل – وهم عُزَّل من أى سلاح – من قبضة ملك جبار – ذى جند وسلاح وطغيان وغرور. كان حرياً – لولم يغرق – أن يلاحقهم أينما كانوا – ويقضى عليهم أو يعيدهم – فكان لابد من هلاكه!

وهنا تجىء المفارقة أو المعادلة الصعبة كما يقال – فهو لابد أن ينشغل عنهم بشىء ما حتى لا يمنعهم من بدء مسيرتهم. فكانت ضربة موت الأبكار – لتشغله بعض الوقت ثم يفيق ليلاحقهم . وكان من اللازم ألا يسير بنو إسرائيل فى هذه الفترة الى أرض منبسطة. فكان تدبير الله أن يتخبطوا فى مسيرتهم جنوبا إلى إيثام ثم شمالا إلى البحيرات المرة. المكان المقرَّر للقاء. ويظن فرعون أنه قد تمكن منهم. ويظن بنو إسرائيل أنهم قد أحيط بهم. وتأتى المعجزة فى الوقت المناسب فينشق البحر ويدلف منه بنو اسرائيل وكل همهم أن ينجوا من فرعون. ويتمنون أن ينطبق البحر ليمنع فرعون من اللحاق بهم. ولكن ها هو فرعون يدخل فى الطريق مسرعا ليلحقهم. وانخلعت قلوب بنى إسرائيل. إلا أن موسى كان واثقا من نصر الله حينما قالوا له إنا لمدركون قال كلا إن معى ربى سيهدين. وحينما ساورته نفسه أن يضرب البحر ليفصل بينهم وبين مطارديهم. أمره الله قائلا: اترك البحر رهوا . فامتثل لأمر ربه. مع أنه رأى العدو يدخل طريق البحر ويقترب. وما زاده ذلك إلا إيمانا وثقة بالله. واكتملت المعجزة فى الوقت المناسب. بعد أن كان فرعون وجميع جنوده فى وسط البحر. فانطبق الماء عليهم وغرقوا أجمعين. أى تدبير هذا! إنه تدبير الله العزيز الحكيم – **«والله عزيز ذو انتقام»**.

«فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين».

(١٣٦ – الاعراف)

«فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين. فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين».

(٥٥ – ٥٦ – الزخرف)

«فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا». (١٠٣–الأسراء)

ويمن الله على بنى إسرائيل بهذه النعمة

«وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون». (٥٠–البقرة)

وكان يوم نجاة موسى وبنى إسرائيل هو يوم عاشوراء. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٩٢٤) قول ابن عباس: قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء. فقال: ما هذا اليوم الذى تصومونه؟ فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبى صلى الله

عليه وسلم لأصحابه: أنتم أحق بموسى منهم فصوموه (تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٣١).
وروى عن الطبراني قوله: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خلق الله يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمنا. وخلق فرعون في بطن أمه كافرا (تفسير الألوسي جـ ١٢ ص ١٨٤).

لا بأس من أن نعيد التأكيد على أن الفرعون الذي غرق هو رمسيس الثاني. خلافا لما يقول به كثير من الباحثين من أن رمسيس الثاني هو فرعون التسخير وأن مرنبتاح هو فرعون الغرق وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل في أول هذا الجزء (ص ٦٦٧ وما بعدها). وتأتي الآيات في سورة النازعات لتوضِّح أن الفرعون الذي طغى وسخَّر وعذَّب هو نفسه الذي كذَّب وتكبَّر وتجبَّر وادعى الألوهية. فكان جزاؤه أن نكَّل الله به:

«هل أتاك حديث موسى. إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى. اذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتخشى فأراه الآية الكبرى. فكذب وعصى. ثم أدبر يسعى. فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى. فأخذه الله نكال الآخرة والأولى. إن في ذلك عبرة لمن يخشى». (١٥ – ٢٦ – النازعات)

والنكال هو التنكيل وهو العذاب الذي يردع من يراه أو يسمعه ويمنعه من ارتكاب ما يفضي إليه. ونكال الآخرة هو الإحراق بالنار: **«ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب»**. أما التنكيل في الدنيا فكان بالإغراق. وذلك ما أجمع عليه كافة المفسرين (الألوسي جـ ٣٠ ص ٣٠ القرطبي جـ ١٩ ص ٢٠٢...).

كذلك الآيات التي لخَّصت قصة موسى وفرعون في سورة الدخان تدل على أنه فرعون واحد من أول الأمر لآخره:

«ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم. أن أدُّوا إليَّ عباد الله إني لكم رسول أمين. وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين. وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون. وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون. فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون. فأسر بعبادي ليلا إنكم متبعون. واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونَعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوما آخرين. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين. ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين. من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين».
(١٧ – ٣٠ – الدخان)

والإيجاز الشديد الذي ذكر في سورتي المزمل والذاريات يشير إلى فرعون واحد:

«..كما أرسلنا إلى فرعون رسولا. فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً».

(١٥ – ١٦ – المزمل)

«وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين. فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون. فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم». (٣٨-٤٠-الذاريات)

الآية فى جثة فرعون :

أمر الله البحر بأن يلفظ جثه فرعون. فقذفت الأمواج بجثته على الشاطىء.

«فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية. وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون». (٩٢-يونس)

وقد ذهبنا فى ص ٩٥٣ أن إيمان فرعون لم يكن إيمانا حقيقيا. بل كان هدفه هو النجاة من الغرق. وكأنما قال فى نفسه إذا كانت هذه الكلمة هى التى ستنجينى من الغرق فلا بأس من أن أقولها! ولذلك قيل – تهكما – مادمت كنت تريد النجاة فاليوم ننجيك ببدنك وسمى لفظ البحر للجثة نجاة مجازا. ويقول الألوسى (تفسيره جـ ١١ ص ١٨٣) المعنى نجعلك على مرتفع من الأرض كى يراك بنو إسرائيل فيعرفوا أنك قد مُتَّ. وروى عن محمد بن كعب: كانت له درع من ذهب فعرف بها. وقيل إنها كانت من اللؤلؤ! ولا يخفى مافى هذه الأقوال من مبالغات إذ الذهب من المعادن اللينة التى لا تصلح لصنع الدروع ولا اللؤلؤ أيضا يصلح لذلك. ولا بأس إن كان على درعه الشعار الملكى أو اسمه مكتوبا بالذهب ذلك أن بنى إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق وقالوا: هو أعظم شأنا من ذلك فألقاه الله على مرتفع من البحر حتى شاهدوه. وقيل إنهم ضرعوا إلى الله يسألونه مشاهدة فرعون غريقا فأبرزه لهم فرأوه جسدا لا روح فيه. فلما رأوه قالوا نعم يا موسى هو فرعون وقد غرق فخرج الشك من قلوبهم وابتلع البحر فرعون كما كان (تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٣٨٠). وهذه الأقوال أيضا فيها مبالغات.

نأتى إلى قوله تعالى «**لمن خلفك**» قالوا بأنها تعنى: أى تكون لبنى إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك (تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٣١ والألوسى جـ١١ ص ١٨٣) وقد سبق أن أرجحنا أن المجرى المائى الذى انشق كان حوالى ١,٥ كم. ومن المسلَّم به أن الجثة قد لفظها البحر على الضفة الغربية ولو كانت على الضفة الشرقية – لأغرى ذلك نفرا من بنى إسرائيل على التمثيل بجثة الفرعون الذى سخَّرهم وعذَّبهم سنين طويلة. أو على الأقل لبقيت الجثة عدة أيام قبل حملها وتحنيطها ولنهشت السباع والضباع بعض أجزائها ولظهر أثر ذلك فى الجثة. ولما كان بنو إسرائيل على الضفة الشرقية فمن المستحيل عليهم تبين ملامح جثة أو علامات فى درعه على مثل هذا البعد. قد يقال إنه جاء فى سورة البقرة.

«وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون». (٥٠-البقرة)

وقيل فى تفسيرها معناه بأبصاركم. وقيل أى ببصائركم للاعتبار لأنهم كانوا فى شغل عن الوقوف والنظر بالأبصار (تفسير القرطبى جـ ١ ص ٣٩٢). وقد قلنا آنفا إنه يستحيل تبين

ملامح الوجه أو قسماته على مثل هذا البعد. بل يكفى أن ينظروا الماء وهو ينطبق عليهم من الجانبين والعربات وهى تتخبط بعضها فى بعض بفعل الموج ثم الجثث وهى تطفو على سطح الماء ليتأكدوا من غرق الفرعون معهم. ثم إن بنى إسرائيل لا ينطبق عليهم وصف «خلفك» لأنهم معاصروه. وقد ورد لفظ «خلف» فى القرآن الكريم – مرتين أخريين:

«فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب». (١٦٩-الأعراف)

أى جاء من بعد هذا الجيل من بنى إسرائيل جيل آخر (تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٦٠)

«فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة». (٥٩-مريم)

وذكر فى هذه الآية الأنبياء نوح وإبراهيم وإسرائيل عليهم السلام. ثم جاء من بعدهم خلف أى قرون أو عقب (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ١٠٩).

من هذا يتضح أن بنى إسرائيل لا ينطبق عليهم وصف «لمن خلفك» لأنهم جيل معاصر لفرعون والمقصود جيل تالٍ. ولكن أى جيل؟ تلك هى القضية – ولنعرف من هو الجيل الذى سيكون إنجاء البدن آية له علينا أن نعرف ماتم بشأن الجثة بعد أن لفظها البحر. وعلينا أن ندرك أنه فى الوقت الذى كتبت فيه هذه التفاسير (الألوسى توفى ١٢٧٠ هجرية أى ١٨٦٢ ميلادية وابن كثير توفى ٧٧٤ هجرية أى ١٣٧٦ ميلادية) لم تكن جثث فراعين مصر قد اكتشفت فكان مفهوما أن جثة هذا الفرعون بعد أن لفظها البحر قد تحللت أو تم تحنيطها ودفنت – فليس من أحد آخر سيراها بعد بنى إسرائيل. وفى عام ١٨٨١ ميلادية تم اكتشاف خبيئة الدير البحرى وكان من بين الفراعين الذين وجدت مومياواتهم مومياء رمسيس الثانى إذ وجدت محنطة وبدأت أجيال أخرى غير جيل العبور من بنى إسرائيل يرونها لتكون آية لهم أيضا.

ننجيك ببدنك :

من المؤكد أن جنديا كان فى مؤخرة الجيش ولعله كان يحسن السباحة فنجا وأمسك بحصان قد نجا هو الآخر فامتطاه وأسرع بقدر ما يستطيع إلى العاصمة برزعمسيس وأخبر ولى العهد مرنبتاح وهامان اللذين كانا يتوليان الأمر فى غياب الفرعون أخبرهم بالمصيبة التى حدثت. وتم إخطار كبير كهنة القصر وعدد من رجال البلاط وسارع الجميع إلى مسرح الأحداث ورأوا بعض الجثث متناثره على الشاطىء وعرفوا جثة الفرعون. فوضعوه على عربة جنازية محاطا بما يليق بجلال الفرعون الإله! وسألوا الجندى عن حقيقة ما حدث فأخبرهم أنهم كانوا يطاردون بنى إسرائيل ولم يكن يفصلهم عن مؤخرتهم إلا مسافة قليلة. ثم بدأ بنو إسرائيل يختفون عن أنظارهم شيئا فشيئا (شكل ٢٣٨ ب – ص ٩٥٢) فظنوا أنهم يلقون بأنفسهم فى البحر هربا من فرعون واستمر هذا طوال الليل ولما بدأ ضوء الفجر يظهر اتضح

ملامح الوجه أو قسماته على مثل هذا البعد. بل يكفى أن ينظروا الماء وهو ينطبق عليهم من الجانبين والعربات وهى تتخبط بعضها فى بعض بفعل الموج ثم الجثث وهى تطفو على سطح الماء ليتأكدوا من غرق الفرعون معهم. ثم إن بنى إسرائيل لا ينطبق عليهم وصف «خلفك» لأنهم معاصروه. وقد ورد لفظ «خلف» فى القرآن الكريم - مرتين أخريين:

«فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب». (١٦٩-الأعراف)

أى جاء من بعد هذا الجيل من بنى إسرائيل جيل آخر (تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٦٠)

«فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة». (٥٩ - مريم)

وذكر فى هذه الآية الأنبياء نوح وإبراهيم وإسرائيل عليهم السلام. ثم جاء من بعدهم خلف أى قرون أو عقب (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ١٠٩).

من هذا يتضح أن بنى إسرائيل لا ينطبق عليهم وصف **«لمن خلفك»** لأنهم جيل معاصر لفرعون والمقصود جيل تالٍ. ولكن أى جيل؟ تلك هى القضية - ولنعرف من هو الجيل الذى سيكون إنجاء البدن آية له علينا أن نعرف ماتم بشأن الجثة بعد أن لفظها البحر. وعلينا أن ندرك أنه فى الوقت الذى كتبت فيه هذه التفاسير (الألوسى توفى ١٢٧٠ هجرية أى ١٨٦٢ ميلادية وابن كثير توفى ٧٧٤ هجرية أى ١٣٧٦ ميلادية) لم تكن جثث فراعين مصر قد اكتشفت فكان مفهوما أن جثة هذا الفرعون بعد أن لفظها البحر قد تحللت أو تم تحنيطها ودفنت - فليس من أحد آخر سيراها بعد بنى إسرائيل. وفى عام ١٨٨١ ميلادية تم اكتشاف خبيئة الدير البحرى وكان من بين الفراعين الذين وجدت مومياواتهم مومياء رمسيس الثانى إذ وجدت محنطة وبدأت أجيال أخرى غير جيل العبور من بنى إسرائيل يرونها لتكون آية لهم أيضا.

ننجيك ببدنك :

من المؤكد أن جنديا كان فى مؤخرة الجيش ولعله كان يحسن السباحة فنجا وأمسك بحصان قد نجا هو الآخر فامتطاه وأسرع بقدر ما يستطيع إلى العاصمة بررعمسيس وأخبر ولى العهد مرنبتاح وهامان اللذين كانا يتوليان الأمر فى غياب الفرعون أخبرهم بالمصيبة التى حدثت. وتم إخطار كبير كهنة القصر وعدد من رجال البلاط وسارع الجميع إلى مسرح الأحداث ورأوا بعض الجثث متناثره على الشاطىء وعرفوا جثة الفرعون. فوضعوه على عربة جنازية محاطا بما يليق بجلال الفرعون الإله! وسألوا الجندى عن حقيقة ما حدث فأخبرهم أنهم كانوا يطاردون بنى إسرائيل ولم يكن يفصلهم عن مؤخرتهم إلا مسافة قليلة. ثم بدأ بنو إسرائيل يختفون عن أنظارهم شيئا فشيئا (شكل ٢٣٨ ب - ص ٩٥٢) فظنوا أنهم يلقون بأنفسهم فى البحر هربا من فرعون واستمر هذا طوال الليل ولما بدأ ضوء الفجر يظهر اتضح

لهم أن بنى إسرائيل لم يكونوا يلقون بأنفسهم فى البحر كما ظنوا بل كانوا يسيرون فى طريق يابس مشقوق فى البحر والماء على كل جانب كالجبل العظيم. ساروا فيه دون أن تبتل لهم قدم وكان آخرهم قد أصبح فى الضفة الأخرى، وقال لهم الفرعون إن هذا الطريق من سحر موسى وحثَّنا لنسرع بدخوله واللحاق ببنى إسرائيل واندفع بعربته وخلفه باقى العربات وكادوا يلحقونهم لولا أن العربات الأولى قبل النهاية بقليل انكسرت دواليبها وغاصت عجلات بعضها فى الطين وتوقف سير الركب كله ونزل الجنود ليدفعوا العربات المتوقفة جانبا حتى يمر باقى الجيش بعرباته. وفى هذه الأثناء كان آخر فرد من بنى إسرائيل قد عبر إلى الضفة الشرقية والجيش بأكمله فى قاع البحر. وبعد ذلك كانت الكارثة. إذ أن الماء على جانبى الطريق بدأ يعود لحالته الطبيعية وانطبق الجانبان على الفرعون والمركبات والجنود وغرق الجميع.

لم يصدقوا ما حدثهم به الجندى، ولكن ماهى الجثث تؤكد صدق روايته. واستقر الرأى على أنه يجب إخفاء الحقيقة عن الشعب إذ يحط من هيبة الملك أن يقال إنه فشل فى اللحاق بعبيده – بنى إسرائيل – بل ومات غرقا هو وجنوده أثناء مطاردتهم! وتشاوروا فيما يقولونه للناس، ولعلهم رأوا أن يقولوا إن عاصفة ترابية شديدة هبت عليهم فاختنقوا من شدة التراب أو أن وباء تفشَّى فى الجنود فأهلكهم وكذلك مات الفرعون. وصدَّق المصريون ما قيل لهم واستراب البعض فى صدق تلك المقولة.

وتم تحنيط جثة الفرعون العظيم حسب ما هو متبع من إفراغ الجثة من الأحشاء ووضع ملح النطرون ليمتص الماء من الأنسجة. ثم دهن الجثة بالعطور والراتنجات والمراهم لتحفظ للجلد حيويته ونضارته ثم يحشى البطن والصدر بنشارة الخشب والزهور، ثم تبدأ عملية لف الجثة بالكتان. ولعل الكهنة المشرفين على عملية التحنيط لاحظوا بقاء الذراع اليسرى مثنية ومرفوعة عن الصدر وهو وضع غير معتاد بالنسبة لجثة ليس فيها حياة فأحكموا ربطها إلى الصدر فى الوضع المفروض فى الجثث المحنطة وهو أن تكون الذراع اليسرى فوق اليمنى والإثنتان ملتصقتان بالصدر وتم ربط اليدين إلى الجثة بشرائط من الكتان الرقيق طبقة بعد طبقة – وفى النهاية وُضع الكفن الخارجى من قماش عرضه ١٫٥ مترا وطوله ٤٫٥ مترا. ثم وُضع القناع الذهبى على الوجه والأكتاف. ثم وضعت المومياء فى كفن ذهبى على شكل الجسم. وهذا بدوره وضع داخل تابوت خشبى. وكل هذا وُضع فى التابوت الأخير وهو من حجر الجرانيت.

كل ذلك تم فى العاصمة بررعمسيس. ثم نقل التابوت بواسطة مركب فى النيل إلى طيبة يصحبها مراكب أخرى فيها مرنبتاح والكهنة والوزراء والعظماء ورست السفن على الشاطىء الغربى للنيل. ثم سحب التابوت على بكرات خشبية إلى المقبرة التى كان قد أعدها رمسيس الثانى لنفسه فى وادى الملوك. وفى كل هذه المراحل كانت تتلى الصلوات وتؤدى الطقوس

الجنازية المناسبة.

وبهذا انتهت حياة فرعون من أعظم الفراعين. إن لم يكن أعظمهم إطلاقا. وإن كان الستار لم يسدل نهائيا على قصته. إذ قدر له أن يعود إلى مسرح الأحداث من جديد فى عصرنا الحالى.

مما لاشك فيه أن التعتيم الكامل على كارثة بهذا الحجم كان أمرا مستحيلا. إذ أعطيت جثث الجنود الغرقى - والتى لفظها الموج - لذويهم لدفنها. ولعل الأهالى لاحظوا زرقة فى الوجه والجسد دلالة على أنهم ماتوا غرقى. كذلك لابد أن من قاموا بعملية تحنيط جثث الجند وهم من الكهنة الصغار - قد لاحظوا وهم يستخرجون الرئة أنها مملوءة بالماء. وعُرفت الحقيقة. وذاعت سرا بين الشعب. واكتشف الناس أن الفراعين ماهم إلا بشر مثل سائر البشر. ولاشك أن ما تسبب فى وفاة الجند هو نفسه الذى سبب موت رمسيس الثانى أى مات غرقا. فأين ألوهيته التى ادعاها. بل وأين آباؤه الآلهة! وبدأ الشعب يفكر. إنهم يفرضون على الشعب تقديم القرابين للآلهة - ومنهم الفرعون - فى كل مناسبة فيقتطعون من قوتهم وقوت أبنائهم ويقدمونها طائعين إذ أوهموهم أن هذه القرابين ضرورية حتى تستجيب الآلهة لدعواتهم. ولكن هاهم الجنود قد غرقوا ولم تنفع ابتهالاتهم إلى الآلهة. بل لقد غرق الفرعون نفسه. وكان يدعى أنه إله. ألم يستنجد بالآلهة؟ فلماذا لم ينجدوه؟ وإذا كانت الآلهة قد عجزت عن نجدة ابنها فهل تنجدهم هم فى أى شدة أو تستجيب لأى دعاء!

عشرات من هذه الأسئلة بدأت تدور فى عقول الناس. وأدى ذلك إلى الانتقاص من هيبة الفراعين. وكردّ فعل لهذا انتشرت جماعات اللصوص. وزادت جرأتها على سرقة المقابر الملكية وشجعهم على ذلك ما كانت تحويه من كنوز عظيمة من حلى وأثاث جنزى. ولعله كان فى قرارة أنفسهم أنهم يستردون ما سبق أن أخذه هؤلاء الملوك وهم أحياء منهم ومن آبائهم وأجدادهم. وضُبط اللصوص وعوقبوا أكثر من مرة ثم صارت هذه العملية مهنة الكثيرين حتى إن مقابر كل ملوك الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين فيما بعد قد نُهبت ولم يسلم منها سوى مقبرة أمنحتب الثانى ومقبرة توت عنخ آمون الشهيرة. ومن مظاهر استهزاء الناس بالفراعنة هو تمثيلهم فى رسوم مجونية بعيدة عن الأدب. مثال ذلك رسم يمثل رمسيس الثالث على شكل أسد يلعب الشطرنج.

واستمر نهب المعابد والمقابر وتزايد. ووجهت الاتهامات إلى عمدة طيبة الغربية ورئيس الشرطة والمسئول عن سلامة المقابر وتمت معاقبة بعض المسئولين كما هو مُدوّن فى برديات موجودة بالمتحف البريطانى. ولكن السرقات استمرت. واستقر رأى كبير كهنة آمون على الحفاظ على جثث الفراعنة وبالذات جثة رمسيس الثانى فأعيد لفها فى كفن خارجى جديد ووُضعت فى تابوت خشبى عادى للتمويه وتم دفنه فى مقبرة والده سيتى الأول مع مجموعة

أخرى من جثث الفراعنة السابقين وسُجِّل على الكفن أن ذلك تم فى اليوم الخامس عشر من الشهر الثالث فى السنة ٢٤ من حكم رمسيس الحادى عشر. ولما كان رمسيس الحادى عشر هو آخر فراعنة الأسرة العشرين وحكم ٢٧ سنة فإن العام التى أعيد فيه تكفين ودفن جثة رمسيس الثانى كان فى عام ١٠٩٨ ق. م أى بعد وفاته بـ ١٢٧ سنة. ولكن العبث بالمقابر الملكية لم يتوقف. وفى عصر الأسرة الحادية والعشرين حينما توفى كبير كهنة أمون «بينودجيم الثانى» قرر زملاؤه الكهنة إنهاء العبث بجثث الفراعنة فجمعوا جثثهم واتخذوا من دفن كبير الكهنة ستارا ودفنوا الجميع فى قبر الملكة «إنحابى» بالدير البحرى والذى تم توسعته ليتسع لجميع جثث الفراعنة منذ عصر الأسرة الثامنة عشرة. وأغلقوا القبر – وسجلوا أن ذلك قد تم فى السنة العاشرة من حكم الملك «سيامون» فى عام ٩٦٩ ق . م وردموا المدخل تماما وضيعوا المعالم حوله حتى لا يستدل عليه اللصوص. فبقى القبر الجديد سالما من عبث اللصوص لأكثر من ٢٨٠٠ سنة ونُسى تماما وسمى «خبيئة الدير البحرى» ويحتوى على جميع المومياوات ومن بينها مومياء رمسيس الثانى.

أين الآيـة ؟

يمكننا أن نقول إن من عرف بغرق فرعون عدد محدود هم رجال البلاط والكهنة وإن تسرب النبأ إلى بعض العامة. المهم أن الفرعون توفى كما توفى غيره من الفراعين الذين سبقوه. وعلى العموم فقد بلغ من العمر أرذله. بلغ ٩٠ عاما وحكم مصر ٦٧ عاما ولذلك لم يستغرب الناس وفاته. ومن عرف أنه غرق أثناء مطاردته لبنى إسرائيل وراجع سابق تعنته معهم ورفضه إطلاق سراحهم أيقن أن الله كان مع بني إسرائيل ونصرهم عليه وكان فى غرقه أثناء مطاردته لهم آية ودليل بالغ على انتصار الحق فى النهاية مهما بلغت قوة الظلم فى البداية. وكان إغراق فرعون من النعم التى مَنَّ الله بها على بنى إسرائيل.

«وإذ فرقنا بكم البحر وأغرقنا آل فرعون». (٥٠ – البقرة)

إلى هنا والغرق فى حد ذاته هو الآية. وحتى لو لم توجد جثته فيكفى أن هذا الفرعون الذى تكبر وتجبر وعذب وسخر قد غرق – وهذا فى حد ذاته آية. بقى أن نعرف معنى قوله تعالى.

«فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون». (٩٢ – يونس)

ولنعرف الآية المقصودة علينا أن نستكمل ما حل بهذا البدن الذى أنجاه الله.

قلنا إن مومياوات الفراعنة قد أعيد دفنها فى خبيئة الدير البحرى فى عام ٩٦٩ ق . م وطمست الرمال مدخل القبر ونُسِىَ الأمر. ومرت قرون. وفى عام ١٨٧٢ عثر فلاح مصرى هو وإخوته مصادفة على مدخل خبيئة الدير البحرى وأخفوا اكتشافهم وظلوا يترددون على المقبرة

سرا يأخذون منها ماخف وزنه وغلا ثمنه مثل الجواهر والحلى والأوانى التى تحنط فيها الأحشاء وغيرها ويبيعونه ويقتسمون ثمنه. وكما يقال. إذا اختلف اللصوص ظهر المسروق. فقد اختلف الإخوة وراح أحدهم إلى قسم البوليس واعترف بالأمر بعد أن كانت قد مرت ١٠ سنوات على اكتشافهم له. وفى ٦ يوليو عام ١٨٨١ ذهب مسئولون من هيئة الآثار المصرية ونزلوا إلى المقبرة وبواسطة ٣٠٠ من العمال أمكنهم فى مدة يومين نقل كل محتويات خبيئة الدير البحرى من جميع مومياوات الفراعين وأثاث جنازى فى باخرة إلى القاهرة حيث أودعت فى المتحف المصرى فى بولاق. ويقول خبير الآثار إبراهيم النواوى إنه فى عام ١٩٠٢ بعد نقل مومياء رمسيس الثانى قام بفك اللفائف لإجراء الكشف الظاهرى على المومياء ولمعرفة ما يوجد تحت اللفائف وهل هناك مجوهرات أو تمائم أو غير ذلك والذى حدث هو أن اليد اليسرى للملك رمسيس الثانى ارتفعت إلى أعلى بمجرد فك اللفائف وهى فعلا تبدو لافتة النظر بالنسبة لغيرها من المومياوات (الفرعون الذى يطارده اليهود - كتاب اليوم - سعيد أبو العينين - ص ٦٠). وشكل ٢٤٤، ٢٤٥ يبين اليد اليسرى هى مرفوعة وهو وضع غير مألوف بالنسبة للمومياوات الأخرى التى بقيت أيديهم - بعد فك اللفائف مطوية فى وضع متقاطع فوق صدورهم. كما هو واضح من مومياء مرنبتاح (شكل ٢٤٦). ومما قاله أحد علماء الاثار عند مشاهدته للمومياء : عجيب أمر هذا الفرعون الذى يرفع يده وكأنه يدرأ خطرا عن نفسه!! ولعل قائل هذه الكلمات وهو يلقيها - مجازا أو تهكما - لم يخطر بباله أنه قد أصاب - دون أن يدرى - كبد الحقيقة. وأنه قد قدم التفسير المحتمل لهذا الوضع الغريب لليد اليسرى لمومياء رمسيس الثانى. وتصورنا لما حدث منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام وبالتحديد قبل ٣٢٢٣ عاما (١٢٢٥ ق . م + ١٩٩٨ م) هو كما يلى:

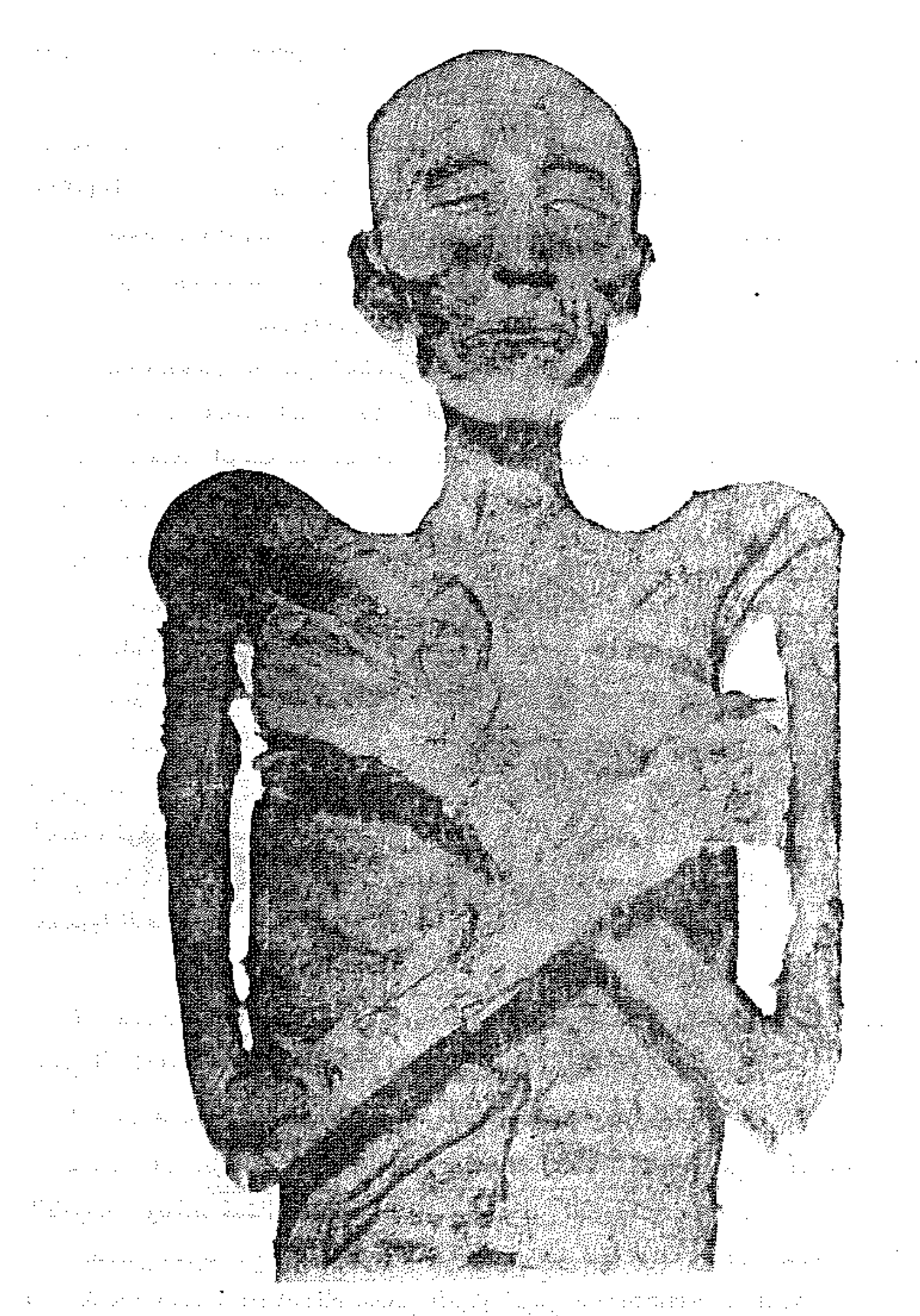
قلنا إن فرعون - وجيشه يتبعه - وصل إلى شاطىء البحر فوجد طريقا مشقوقا وسط الماء. فسار فيه وتبعه الجيش بجميع عرباته. وبدت على وجوه الجميع بسمة الانتصار فما هى إلا ساعة أو بضع ساعة ويتم اللحاق ببنى إسرائيل الهاربين وتتم إعادتهم إلى مصر ثانية. ولكن قبل النهاية بقليل بدأت قوائم الخيل وعجلات المركبات تغوص فى الوحل. ونزل الجنود ليدفعوا العربات المكسورة جانبا لتمر العربات الأخرى. وغاصت البسمة من وجه رمسيس الثانى وبدأ القلق يتملكه - لماذا فى هذه المنطقة بالذات بدأ الوحل؟ وقد مرت منه جموع بنى إسرائيل وبقرهم وماشيتهم وفيها من الثيران ما هو أثقل من المركبات ولم تغص أرجلهم فى القاع. ولم يجد بدأ من الانتظار حتى ينتهى جنوده من تخليص مركبته من الوحل. ونظر. ولم يصدق عينيه. ما هذا؟ إنها موجة هائلة من المياه قادمة نحوه. ياللهول. لقد بدأ البحر ينطبق. والمياه قادمة تجاهه هادرة مزمجرة. وبحركة لا شعورية رفع يده اليسرى ممسكة بدرعه يتقى بها موجة المياه المندفعة نحوه وكانت لطمة المياه من الشدة وقبضة يده من القوة بحيث حدث تقلص فى عضلات ذراعه الأيسر وثبتت ذراعه ويده على هذا الوضع - ولما غشيته المياه



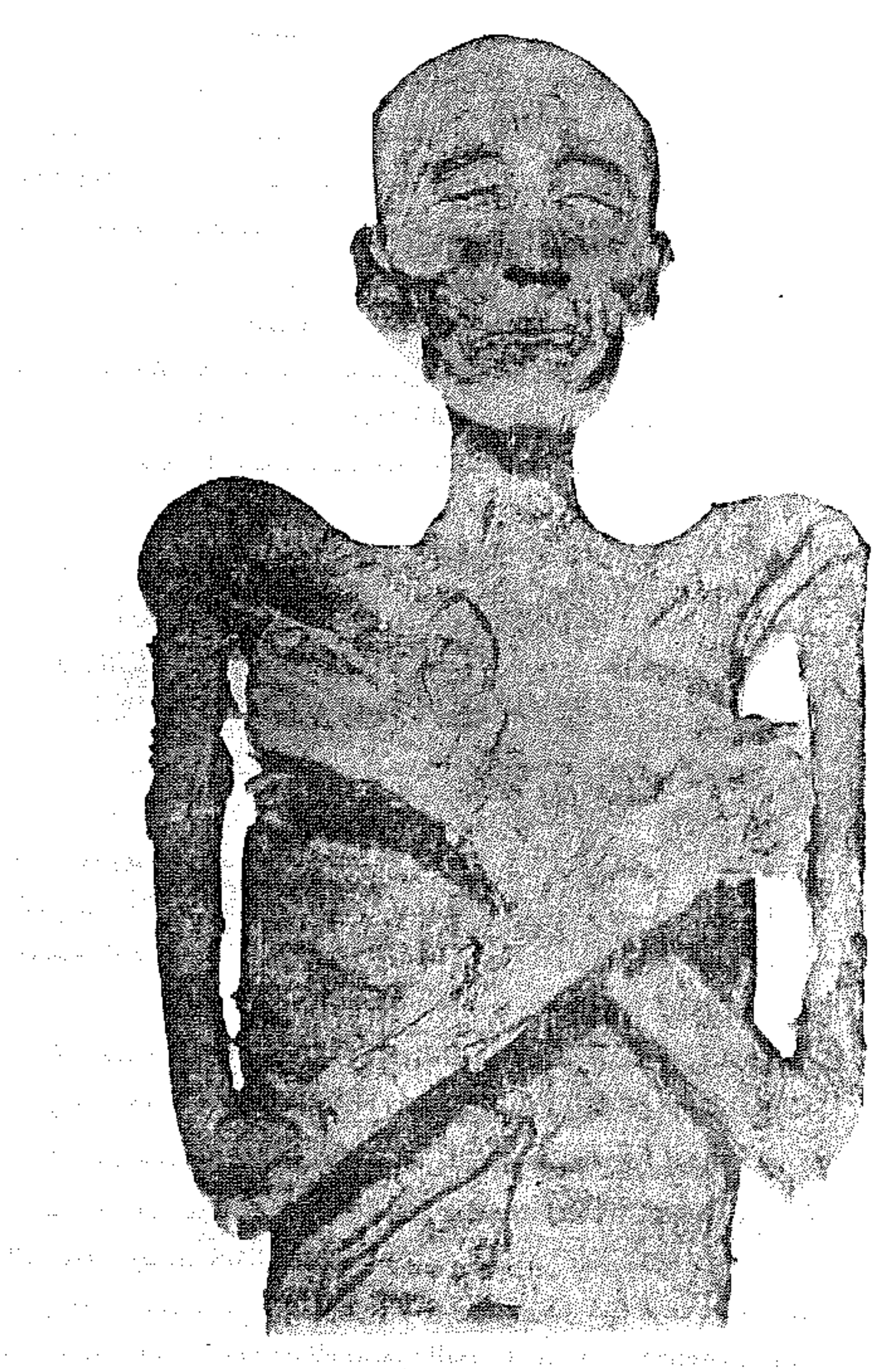
شكل ٢٤٤ –
مومياء رمسيس الثاني. منظر أمامي.



شكل ٢٤٥ – مومياء رمسيس الثاني. منظر جانبي يوضح اليد اليسرى مرفوعة
وهو وضع مغاير لجميع المومياوات الأخرى.



شكل ٢٤٦ – مومياء مرنبتاح واليدان متقاطعتان ومستريحتان على الصدر.



شكل ٢٤٦ - مومياء مرنبتاح واليدان متقاطعتان
ومستريحتان على الصدر.

وفارقته الحياة ظلت يده على هذا الوضع!

ولا بأس من أن نتوقف قليلا لنذكر التغيرات التى تحدث فى الجثة – أى جثة – بعد الوفاة. ومن المعروف طبعا أن العضلات هى التى تسبب الحركة فى الكائن الحى. (شكل ٢٤٧أ) والعضلة تتكون من خلايا عضلية. والخلية العضلية تتكون من خيوط عضلية وهى نوعان خيوط سميكة وخيوط رفيعة مرتبة فى تبادل على طول العضلة (شكل ٢٤٧ ب). وعند الرغبة فى تحريك مفصل ما يصدر أمر من المخ يسرى فى العصب ويصل إلى العضلة المسئولة عن حركة المفصل. والتيار الكهربى الصادر من المخ ينتج عنه تفاعلات كيمائية متعددة فى موضع الاتصال العصبى العضلى تنتهى بأن تنشط خميرة خاصة تسبب تكسر بروتين معين هو .A.T.P فيعطى الطاقة اللازمة للحركة فتنزلق الخيوط العضلية السميكة متداخلة بين الخيوط العضلية الرفيع فيقصر طول الخلية العضلية أى يحدث انقباض العضلة وتحدث الحركة المطلوبة. (شكل ٢٤٨).

بعد الوفاة تحدث فى الجسد المراحل التالية :

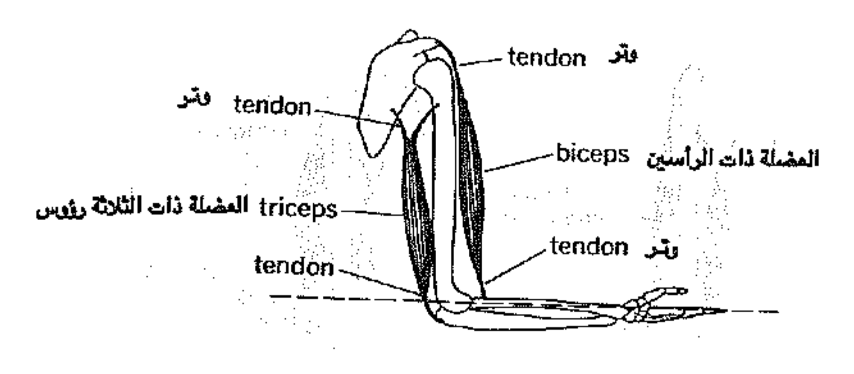
١ – بعدما تغادر الروح الجسد تقف كلية أى إشارات صادرة من المخ وترتخى جميع عضلات الجسم وهذا يسمى **الارتخاء الأولى** Primary Flaccidity .

٢ – بعد ساعتين تبدأ مادة الـ A.T.P فى التكسُّر (تماما مثلما يحدث عند صدور أمر بانقباض العضلة) وينتج عن ذلك انقباض عضلات الجسم كلها وهذه تسمَّى مرحلة **التيبُّس الرمِّى** Rigor Mortis . ويحدث التيبس فى ترتيب بدءا بالرأس وانتهاء بالقدم. فتتيبِّس عضلات الوجه والرقبة ثم الصدر فالذراعين ثم الفخذين وأخيرا عضلات الساقين. ويستمر التيبس الرمى لمدة ١٢ ساعة تقريبا ويصعب إحداث أى تغيير فى وضع الأعضاء أثناءه ولذلك يقوم من حضروا الوفاة بقفل جفون العينين أثناء الارتخاء الأولى حتى لا تظل العينان مفتوحتين فيما بعد.

٣ – بعد ذلك تبدأ البروتينات المكونة للعضلات فى التحلل وترتخى العضلات ثانية وهذا يسمى **الارتخاء الثانوى** Secondary Flaccidity ويبدأ أيضا من الرأس إلى القدم.

٤ – ثم يعقب ذلك المرحلة الأخيرة وهى التعفُّن Putrefaction .

هذه هى المراحل التى يمر بها الجسد فى حالة الوفاة العادية. أما فى حالات الوفيات غير الطبيعية – ولنأخذ كمثال حالات الانتحار. والشخص الذى يقدم على الانتحار يكون فى حالة توتر عصبى شديد يبلغ أقصاه فى اللحظة التى يزهق فيها روحه ويحدث انقباض فى الحال فى عضلات الجسم كلها وذلك يسمى التوتر الرمِّى Cadaveric Spasm (بدلا من الارتخاء الأولى) – ويعقبه التيبُّس الرمى وتظل العضلات منقبضة. وكثيرا ما يجد الأطباء الشرعيون يد



شكل ٢٤٧ أ – العضلات.

٢ خلايا عضلية تحت الميكرسكوب تبين التخطيط العرضي

خلية عضلية

خلية عضلية

خلية عضلية

Z line

H zone

I band

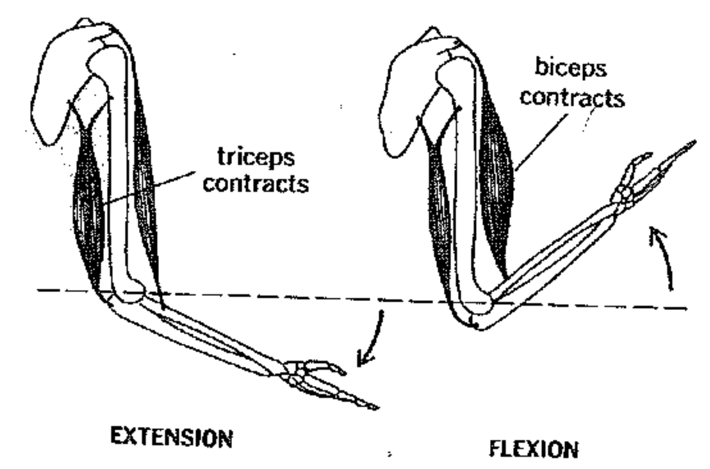
A band

Z line

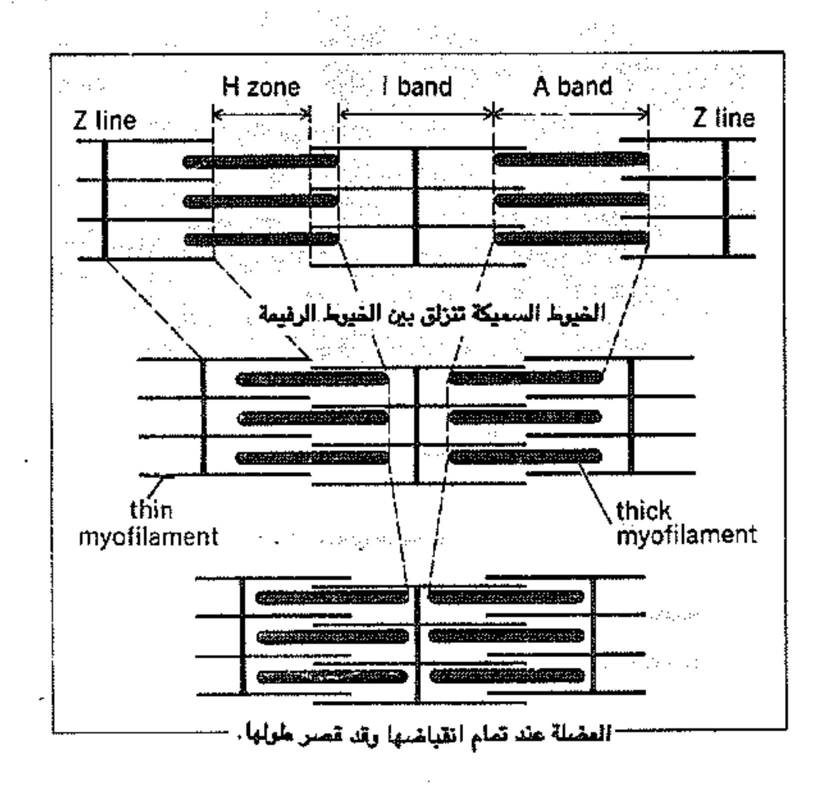
خيوط رفيعة

خيوط سميكة

شكل ٢٤٧ ب – التركيب الميكرسكوبي للعضلة.



المضلة ذات الراسين تنقبض فترفع الذراع.



العضلة عند تمام انقباضها وقد قصر طولها.

شكل ٢٤٨ – ما يحدث عند انقباض العضلة.

المنتحر قابضة على المسدس المصوب إلى الرأس ولا يمكن تخليص المسدس إلا بعد أن يحدث الارتخاء الثانوى. كذلك قد يجدون يد القتيل وقد قبضت على قطعة من ملابس القاتل أو خصلة من شعره ويكون هذا أول الخيط الذى يتبعه المحققون لتحديد شخصية القاتل فيقبض عليه وينال جزاءه. كذلك فى حالات الغرق يحدث توتر رمى فى اللحظات الأخيرة وكثيرا ما توجد أيدى الغرقى قابضة على قطعة صغيرة من الخشب أو حفنة من طين القاع.

وذلك ما حصل لرمسيس الثانى فى لحظة الغرق. إذ بلغ به التوتر العصبى الشديد أقصاه فحدث التوتر الرمًى وتيبَّست يده اليسرى على الوضع التى كانت فيه ممسكة بالدرع تتقى به المياه. ولعل لطمة المياة كانت من الشدة بحيث أفلتت الدرع من قبضة يده ولكن اليد ظلت فى هذا الوضع وحدث التوتر الرمى وأعقبه التيبُّس الرمى. وكان المفروض أن يحدث الارتخاء الثانوى بعد ١٢ أو ٢٠ ساعة. ولعله حدث فى كل أجزاء الجسم إلا فى اليد اليسرى فقد بقيت عضلاتها فى الانقباض الذى كانت عليه لحظة الغرق. ولاحظ المحنطون ذلك. وكلما وضعوا الذراع إلى جانبه أو ضمُّوها إلى صدره عادت لترتفع ثانية إلى هذا الوضع. وتم التحنيط ودهنت الجثة بالزيوت والرتنجات والمراهم وتسرب بعضها إلى العضلات والمفاصل. وأصبحت العضلات مثل المطاط واحتفظت المفاصل بنعومتها. وكلما أعادوا اليد إلى الصدر ارتفعت ثانية. فأحكموا ربطها إلى الصدر باللفائف التى كانت تلف بها الجثة. وظلت مربوطة إلى صدره. ومرت قرون وقرون وأكثر من ثلاثة آلاف عام. ولما عثر على الجثه فى خبيئة الدير البحرى ونقلت إلى متحف بولاق وقام خبير الآثار عام ١٩٠٢ بفك الأربطة قفزت اليد إلى الوضع الذى تيبست عليه لحظة الغرق وهى ممسكة بالدرع ليحمى الفرعون نفسه من لطمة موجة المياه القادمة نحوه!

نحن الآن أمام ظاهرة فريدة لايوجد مثلها فى مومياوات الفراعين الآخرين. ولم يتمكن أحد من علماء الآثار تفسيرها ولا يستطيع الطب الشرعى أن يفسِّر لماذا لم يحدث الارتخاء الثانوى فى هذه اليد بالذات. وكيف احتفظت العضلات بخاصية الانقباض أو اكتسبت خاصية مطاطية بحيث تعيد اليد إلى هذا الوضع بعد ما يزيد عن ثلاثة آلاف سنة. إن قطعة من المطاط الحقيقى لو ظلت مشدودة لمائة عام فمن المؤكد أنها ستفقد خاصيتها المطاطية ولن تعود إلى الإنكماش ثانية. فما بالنا بعضلة مفروض ألا تنقبض إلا بأمر صادر من المخ. وحدث بها توتر رمى أعقبه تيبس رمى. ثم لا يحدث – كما هو مفروض – ارتخاء ثانوى. وتظل الخيوط السمكية والرفيعة محتفظة بترتيبها وخاصيتها لعدة آلاف من السنين. وما إن يتم فك لفائف الكتان عن اليد حتى تنزلق الخيوط السمكية بين الخيوط الرفيعة فيقصر طول العضلة وترتفع اليد. أليس هذا خرقا لكل ما هو معروف من نواميس الطبيعة؟ وتعريف المعجزة أنها خرق لنواميس الطبيعة. ولايكون أمامنا إلا التسليم بأن اليد اليسرى لرمسيس الثانى هى الآية. «ومن خلفك» هم الأجيال منذ بداية هذا القرن وتحديدا منذ عام ١٩٠٢ عندما اتخذت يد

رمسيس الثانى هذا الوضع بعد فك اللفائف عنها. وإن كان كثير من الناس قد غفلوا عن مغزاها إلى أن تم لفت النظر إليها.

«فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية. وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون».

وصدق الله العظيم

بقيت كلمة هى قوله تعالى:

«النار يعرضون عليها غدوا وعشيا. ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب». (٤٦-غافر)

وجميع المفسرين يرون أن هذا العرض يكون فى البرزخ بالإضافة إلى أشد العذاب الذى سيدخله آل فرعون يوم القيامة. فيكون العرض على النار غدوا وعشيا نوعا من عذاب القبر. وفى حديث صخر بن جويرة عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الكافر إذا مات عرض على النار بالغداة والعشى ثم تلا: النار يعرضون عليها غدوا وعشيا. وإن المؤمن إذا مات عرض روحه على الجنة بالغداة والعشى. (تفسير القرطبى جـ ١٥ ص ٣١٩).

إن الشعور بالاختناق الذى يحسه من يغرق هو نوع من العذاب يقرب من العذاب بالنار وإذا كان العذاب بنار جهنم - وهو أشد العذاب - مؤجلا إلى يوم القيامة فهل النار التى يعرض عليها آل فرعون فى البرزخ يضاف إليها استمرار الشعور بالاختناق فى لحظة الغرق التى حدثت منذ آلاف السنين؟ إن فرعون وجنده هم الآن فى حياة البرزخ . وأغلب الظن أن أرواحهم - غداة وعشيا - تعاين لحظة الغرق الرهيبة التى مرت بها منذ ثلاثة آلاف عام وتشعر بالاختناق مضافا إلى العرض على النار - وها هى يد رمسيس الثانى لا تزال مرفوعة. كأنما تدفع عنه موجة المياه القادمة نحوه لتغرقه! كأنه حلم فظيع أو كابوس مخيف يتكرر باستمرار إلى أن تقوم الساعة!

نقطة أخيرة قبل أن نترك موضوع رمسيس الثانى فقد اقترح البعض تحليل مومياء رمسيس الثانى وتقدير نسبة الملح فى الأنسجة للحصول على دليل على غرقه فى ماء البحر المعروف بملوحته. ولكن ما سبق أن ذكرناه فى مراحل التحنيط أن الجثة - بعد إفراغها من الأحشاء - تملأ بملح النطرون المركز يجعل مثل هذا التحليل غير مجدى.

مرنبتـــاح

بعد أن انتهى مرنبتاح من دفن جثة والده - رمسيس الثانى - فى طيبة عاد إلى عاصمة البلاد فى الشمال - بررعمسيس - وباشر مهامه كملك لمصر. وقد قابل المصريون تولية

مرنبتاح بالفرح والسرور، كما جاء فى قصيدة أشرف بنفسه على كتابتها (بردية ساليبه ١ – الأدب المصرى القديم – سليم حسن جـ ٢ ص ٢٢٣) تقول القصيدة:

افرحى أيتها الأرض قاطبة، قد جاء زمن الخير، فقد أقيم سيد على كل الممالك، وأتى الشهود إلى مكانه، وهو الذى يحكم ملايين السنين، عظيم فى ملكه مثل «حور تبن رع» محبوب «آمون» الذى يفيض على مصر بالأعياد «ابن رع، مرنبتاح» منشرح بالصدق، إيه أيها الأتقياء، تعالوا وشاهدوا، قد قضى الصدق على الكذب، وفر المذنبون على وجوههم، وولىّ الطامعون أدبارهم، والماء ثابت لا ينقص، والنيل يحمل فيضانا عظيما، والأيام أصبحت طويلة والليالى لها ساعات محدودة، والشهور تأتى فى مواقيتها، والآلهة منشرحون سعداء القلب والحياة تمر فى ضحك وعجب.

ولو تعمقنا فى معانى القصيدة لوجدنا فيها تعريضا خفياً بعهد رمسيس الثانى وإشارة إلى النكبات أو الضربات التى حلت بمصر والمصريين فى أواخر عهده نتيجة رفضه المتوالى لطلب موسى عليه السلام بخروج بنى إسرائيل، فجملة **«والماء ثابت لاينقص والنيل يحمل فيضانا عظيما»** فيها إشارة إلى الشدة التى أخذ الله بها مصر من نقص المياه والجدب ونقص المحاصيل وهو ما ذكرناه فى ص ٩٠٢، كذلك جملة **«والأيام أصبحت طويلة والليالى لها ساعات محدودة»** فيها إشارة إلى آية الظلام (ص ٩١٦) والتى استمر الظلام التام لمدة ثلاثة أيام متصلة وكأنه يقول إن الأيام أصبحت لها ساعات محدودة فلا يستمر الظلام كما حدث فى الماضى، وجملة **«والشهور تأتى فى مواقيتها»** فيها إشارة إلى آية الطوفان (ص ٩٠٦) إذ لم يحدث أن نزل على أرض مصر مثل هذا البَرَد الكثيف وفى مثل هذا الوقت من السنة فكأن الشهور قد اختل توقيتها فهو يتغنى بأنها أصبحت تأتى فى مواعيدها المعتادة.

وحتى القصيدة المسماة بلوح مرنبتاح أو لوح إسرائيل (ص ٦٧٠) والتى تشيد بانتصار مرنبتاح على الشعوب المحيطة، فيها بعض الفقرات التى تشير إلى سوء الأحوال بمصر فى السنوات الأخيرة من حكم رمسيس الثانى، فمما جاء بالقصيدة (الأدب المصرى القديم، سليم حسن – جـ ٢ ص ٢١٩): «الملك مرنبتاح – الثور القوى، **إنه الشمس التى بددت الغيوم التى كانت تخيم على مصر** وقد جعل مصر **تشاهد أشعة الشمس ثانيه** ويطلق سراح الجم الغفير الذين كانوا **معتقلين** فى كل إقليم **وليتمكن من تقديم قرابين للمعابد وليجعل البخور يدخل أمام الآلهة..»** وهو ما يشير إلى أن رمسيس الثانى كان قد قبض على بعض الأفراد ولعلهم ممن آمنوا بموسى! كما أن تأليه رمسيس الثانى لنفسه قد جعل الناس تتراخى فى تقديم القرابين للآلهة الأخرى.

تولى مرنبتاح الحكم وفى اعتقاده أن بنى اسرئيل بعد نجاحهم فى الخروج من مصر لابد قد توجهوا إلى فلسطين وبدأ يعد العدة لتكوين جيش جديد للانتقام لموت والده، إما بإعادة بنى

إسرائيل لمصر صاغرين أذلاء كما كانوا أو إبادتهم كلية فى فلسطين واستئصال شأفتهم من الأرض. وبدأ العمال يصنعون مركبات حربية جديدة وأدوات حرب من فئوس وسيوف ودروع. ثم بدأ فى إعداد الجند وتدريبهم. وكان يزمع أن يقود الجيش إلى فلسطين. إلاَّ أن خطرا خارجيا بدأ يتهدد البلاد وكان عليه أن يقضي على هذا الخطر أولا قبل التفكير فى الانتقام من بنى إسرائيل.

كان الخطر الخارجي يتمثل في عدوين: الليبيين من الغرب وشعوب البحر من الشمال والشمال الغربي. وكان هذان العدوان موجودين أيام رمسيس الثاني ولكن ما كان له من هيبة وسلطان منعهما من التفكير في الإغارة على الحدود المصرية. إلا أن السنين الأخيرة من عهد رمسيس الثاني كانت سنى تدهور مستمر وقد انتهزت القبائل القاطنة على حدود مصر الغربية – وهم عدة قبائل تزعمهم شيخ قبائل «ربو» أو «ليبيو» والتى حورت فيما بعد إلى «ليبيا» – الفرصة وأخذوا يزحفون على الأراضى الواقعة على حافة الدلتا ومكثوا هناك واحتلوا الواحات البحرية وواحة الفرافرة. وتحالف معهم شعوب البحر وكانوا عدة جماعات أهمهم الشرادنة القادمين من شردينيا أو سردينيا . كان يدفع الجميع قحط نزل ببلادهم كما تعرضوا لضغط هجرات آرية من جنوب أوروبا نزلت سواحل أفريقيا الشمالية. وفي عهد مرنبتاح استمر تقدم هذه القبائل من ناحية الغرب ووصل الليبيون حتى الفرع الكانوبى للنيل وهو آخر فرع من ناحية الغرب واحتلوا وادى النطرون إلى الشمال الغربى من منف. وكان غرضهم الاستيطان فى مصر كما فعل الهكسوس من قبل فأحضروا معهم زوجاتهم وأطفالهم وماشيتهم (مصر فى العصور القديمة. محمد شفيق غربال . ص ١١٦) وأدرك مرنبتاح خطورة الحال. فجمع جيشه وسار به لملاقاة العدو. ودارت بين الفريقين معركة حامية انتهت بانتصار المصريين. وطارد مرنبتاح فلول المنهزمين حتى معاقلهم المنيعة في ليبيا . وكان عدد القتلى من العدو ٨٤٨١ والأسرى ٩٣٧٦ وكانت الأسلاب تعد بعشرات الألوف من الأسلحة والخيل وقطعان الماشية والدروع.

أما عن الأحداث فى منطقة الشرق الأدنى فإن الحيثيين تعرضوا لهجمات شديدة من شعوب البحر وأرسلوا يستنجدون بحلفائهم فى مصر وأرسل لهم مرنبتاح مددا من القمح فى السنة الرابعة من حكمه ولكنه لم يرسل إليهم جنودا لإنشغاله بتأمين حدوده من ناحية الغرب. واشتدت وطأة الهجمات على خاتى حتى فقدت استقلالها بل وانتهت كدولة من دول الشرق الأدنى القديم. وحدثت بعض الثورات ضد مصر فى سوريا وفلسطين ويقال إن مرنبتاح سيَّر حملة وأخضع الشعوب الثائرة وكان من بينهم قبائل بنى إسرائيل وقد ضمن ذلك فى لوح مرنبتاح والذى سبق ذكره بالتفصيل (ص ٦٧٤) وملخص ما ذكرناه أن مرنبتاح إما أنه ذهب إلى فلسطين ووجد بعض قبائل العابيرو وهم أقرباء بنى إسرائيل فقضى عليهم وظن أنه قضى

على بنى إسرائيل (لأن بنى إسرائيل كانوا فى سيناء فى ذلك الوقت) أو أنه عندما لم يجدهم فى فلسطين ظن أنهم قد ماتوا جوعا وعطشا فى الصحراء فادعى أنه أبادهم. أو أنه لم يقم أصلا بأى حملة فى سوريا وفلسطين وكان مجرد ذكر ذلك في لوح مرنبتاح نوعاً من افتخار الفراعين المشهور عنهم وليقال عنه أن كانت له انتصارات فى الشرق كما حقق الانتصار على الليبيين فى الغرب.

ولم يدم حكم مرنبتاح إلا عشر سنوات وخلفه ابنه سيتى التالى.

ونترك الآن مصر ونعود إلى مسرح الأحداث في سيناء حيث بنو إسرائيل قد عبروا وبدأوا مسيرتهم إلى «الأرض الموعودة» فلسطين.

الفصل الثامن

فــى سينـــاء

سبق أن ذكرنا (ص ٩٣٩) أن مكان العبور كان عند نقطة التقاء البحيرة المرة الصغرى بالبحيرة المرة الكبرى، وانشق البحر لموسى عليه السلام وعبر هو وبنو إسرائيل وغرق فرعون وجنده، وكان ذلك فى العام ١٢٢٥ ق. م، وكان عمر موسى وقتذاك ٦٠ عاما، وذكرنا (ص ٩٥٥) أن بنى إسرائيل بعد نجاتهم أخذوا يتغنون بترنيمة للرب شكرا على خلاصهم من فرعون، وذكرنا قول التوراة (إصحاح ١٥ خروج ٢٠) فأخذت مريم النبية أخت هارون الدف بيدها وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص، وأجابتهم مريم. رنموا للرب فإنه قد تعظم. الفرس وراكبه طرحهما فى البحر... ويعلق أهل الكتاب المسيحيين على هذه الفقرة إن هذه أول امرأة يطلق عليها لفظ نبية (تفسير الكتاب المقدس جاميسون وفاوست ص ١٥) كما يقولون إن الرقص كان رقصا موقرا للتعبير عن العبادة ومع أن ذلك كان ملائما لعصر موسى إلا أنه لم يجد مطلقا قبولا فى العبادة فى الكنيسة المسيحية (تفسير الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين جـ ١ ص ٢٣٧).

واضح أن بنى إسرائيل بهذه الترانيم التى كانوا يرددونها بين الحين والآخر – وفيها يقولون: تأخذ الرعدة سكان فلسطين حينئذ يندهش أمراء أدوم. أقرباء مؤاب تأخذهم الرجفة. يذوب جميع سكان كنعان. تقع عليهم الهيبة والرعب... كانوا يرغبون أن يسمعها بدو الصحراء الذين يقطنون المناطق التى يمرون بها وتشيع قصة غرق فرعون مصر – رمسيس الثانى – أثناء مطاردته لبنى إسرائيل فتسمعها شعوب الدول المجاورة وتأخذ الرهبة قلوبهم فيتأكدوا أن بنى إسرائيل فى حماية ربهم ويفت ذلك من عضدهم فلا يبدون مقاومة كبيرة عندما يبدأ بنو إسرائيل فى دخول الأرض.

وقلنا إن موسى عليه السلام رأى ألا يتجه إلى فلسطين مباشرة إذ هى واقعة تحت النفوذ المصرى وحتما سيلاحقهم مرنبتاح هناك لينتقم منهم لمصرع والده. ولعل موسى فكر أول ما فكر فى الذهاب إلى الجبل الذى كلمه عنده ربه – ليشكر الله على تأييده له أثناء مجابهته مع فرعون وليشكره على الآية الكبرى بإغراق فرعون وجنده إذ كان كل ما يطمع فيه هو الخروج ببنى إسرائيل من مصر والفرار من الفرعون. أما أن يهلك الفرعون أيضا فهذا مالم يكن يخطر ببال، فهى نعمة كبرى توجب الشكر. كذلك مما لاشك فيه أن اتجاهه للذهاب إلى الجبل كان وحيا من الله سبحانه وتعالى ليتلقى الرسالة والشريعة إذ أن ما نزل منهما لم يكن إلا تعليمات بسيطة أثناء وجودهم بمصر.

كانت سيناء منذ أقدم العصور من أوفر مصادر الثروة لمصر فيها مناجم الذهب والنحاس والأحجار الكريمة ولا تزال المناجم باقية حتى الآن وإن كانت قد أصبحت فقيرة فى إنتاجها لكثرة ما أخذ منها. ولكنها منذ عصر الأسرات الأولى (٣٢٠٠ ق. م.) كانت زاخرة بالحياة يقطنها عمال المناجم وأسرهم وبعض البدو وتتولى الحاميات المصرية حمايتهم وحماية القوافل المارة هناك.

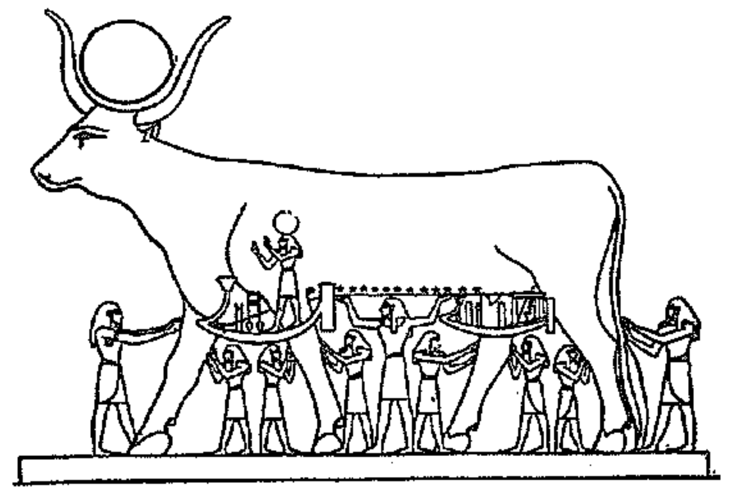
ومنذ القدم كان إله القمر «سين» هو الإله الذى يعبده البدو فى تلال سيناء ولعل اسم «سيناء» مشتق من اسمه. ثم فى عهد الدولة الوسطى أصبحت الإلهة المصرية «حاتحور» هى المعبودة فى هذه المنطقة وأقيمت لها معابد هناك. وصورها المصريون أولا على هيئة بقرة يزين رأسها قرص الشمس بين قرنى البقرة وكانت تعتبر رمزا للحنان وإلهة الحب. كما أنها هى السماء التى تخيلها الفنان المصرى على هيئة بقرة يمسكها إله الهواء «شو» وعلى بطنها النجوم وسفينة الشمس (شكل ٢٤٩). أو فى صورة امرأة تحنو على الأرض ولها جناح يزينه قرص الشمس (شكل ٢٥٠). كانت مجاورة بنى إسرائيل للمصريين هذه السنين الطوال قد جعلتهم يتأثرون بما يرونه فى المعابد من تماثيل. وأحدث ذلك شرخا عميقا فى داخلهم واهتزت عقيدة التوحيد فى نفوسهم.

بعد مسيرة يومين فى سيناء مر بنو إسرائيل على جماعة من عمال المناجم المصريين يتعبدون للإلهة «حاتحور» (شكل ٢٥١). وقد قام عالم الآثار البريطانى «بترى» فى عام ١٩٠٤ برحلة استكشافية فى هذه المنطقة وعثر على بقايا المعبد الذى كان قد أقامه رمسيس الثانى للإلهة «حتحور» فى هذه المنطقة – عبارة عن جزء من واجهة المعبد وعدة أعمدة مكسرة (شكل ١٥٠ ص ٧٢٥).

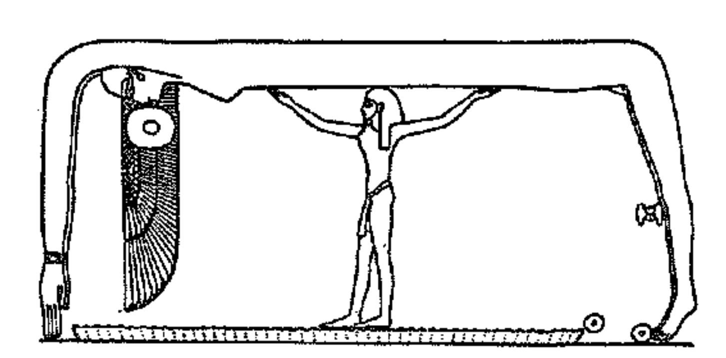
وما إن رأى بنو إسرائيل العمال يتعبدون للإلهة «حاتحور» حتى ظهر ما ترسخ فى عقلهم الباطن فقالوا لموسى عليه السلام:

«اجعل لنا إلها كما لهم آلهة...». (١٣٧–الأعراف)

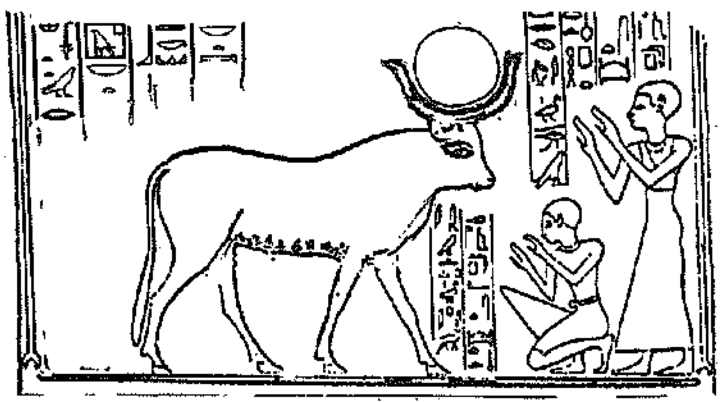
فدلَّ هذا القول منهم على أنهم لم يتخلصوا بعد من وثنية قدماء المصريين. ويماثله هذا ما حدث من بعض الأعراب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما خرج فى غزوة حنين. وكان لهم فى الجاهلية شجرة خضراء ينوطون بها سلاحهم أي يعلقونه ولذلك سُميت ذات أنواط وكان الكفار يخرجون إليها يوما فى السنة يعظمونها. فلما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الشجرة قال له بعض الأعراب: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال عليه الصلاة والسلام. الله أكبر قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى «اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون» لتركبن سنن من قبلكم حذو القُذَّة بالقذة حتى إنهم لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه (تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٩٧). والقذَّة ريش السهم وهو مثل



شكل ٢٤٩ – السماء على هيئة بقرة يمسكها إله الهواء «شو»
وآلهة أخرى. وعلى بطنها النجوم وسفينة الشمس (من مقبرة سيتي الأول).



شكل ٢٥٠ – السماء على هيئة امرأة يحملها «شو»
وعليها الشمس على هيئة قرص مجنح



شكل ٢٥١ – شخصان يتعبدان للإلهة «حاتحور»

يضرب للشيئين يستويان ولايتفاوتان.

لما قال بنو إسرائيل لموسى «**اجعل لنا إلها كما لهم آلهة**» ساءه هذا القول وقال لهم إنكم قوم جاهلون وهؤلاء القوم الذين رأيتموهم ستدمَّر أصنامهم لأن ما يعملونه هو باطل. ثم قال فى صيغة سؤال استنكار ونفى إنه لا يجوز له أن يوجههم لإله آخر غير الله سبحانه وتعالى – وهو الذى فضلهم على العالمين.

«وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم. قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة. قال أنكم قوم تجهلون. إن هؤلاء متبَّر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون. قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضَّلكم على العالمين. وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يُقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم».

(١٣٨ – ١٤١ – الأعراف)

وراح موسى يذكرهم بأن الله هو الذى أنجاهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم فى مصر العذاب ليل نهار ويسخرونهم فى المبانى ويقتلون أبناءهم الذكور وكانت نجاتهم من كل هذا اختبارا من الله لهم ولكى يعلموا أنه هو وحده الحق. وقيل إن الخطاب فى الآية الأخيرة **«وإذا أنجيناكم»** مُوجَّه ليهود عصر النبى صلى الله عليه وسلم أى واذكروا إذ أنجينا أسلافكم. ويحتمل أن المقصود به بنى إسرائيل وأنه استمرار لتأنيب موسى لهم لِمَا قالوا ولكن القرآن الكريم عبَّر عنه بخطاب مباشر من الله سبحانه وتعالى لهم لكون اللوم المباشر أشد وأقسى. وعَدَلَ بنو إسرائيل عن مطلبهم هذا لما زجرهم موسى ونهاهم عنه.

المياه المرة Marah.

تقول التوراة (خروج ١٥: ٢٢) ثم ارتحل موسى بإسرائيل وساروا ثلاثة أيام فى البرية ولم يجدوا ماء. فجاءوا إلى مارة (وهو اسم عبرى معناه مرارة ويُظن أنها هى المكان المعروف حاليا عين حوارة فى وادى الإمارة شمال عيون موسى. وماء هذه العين مر جداً). ولم يقدروا أن يشربوا ماء من مارة لأنه مر. فتذمر الشعب على موسى قائلين: ماذا نشرب؟ فصرخ إلى الرب.. فأراه الرب شجرة فطرحها فى الماء فصار الماء عذبا. هناك وضع له فريضة وحكما وهناك امتحنه. فقال إن كنت تسمع لصوت الرب إلهك وتصنع الحق فى عينيه وتصغى إلى وصاياه وتحفظ جميع فرائضه فمرضا مما وضعته على المصريين لا أضع عليك فإنى أنا الرب شافيك.

ويقول مفسرو أهل الكتاب إن ذلك كان امتحانا من الرب حتى يعلموا أن الله هو الذى سييسر لهم كل احتياجاتهم المادية بشرط إطاعة الله والثقة فيه وتأدية الفرائض التى فرضها.

إيليم Elim

ثم سار بنو إسرائيل إلى الجنوب قليلا وأتوا الى بلدة إيليم وهي حاليا عيون موسى وتقول التوراة (خروج ١٥ : ٢٧): وهناك اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة فنزلوا هناك عند الماء. وهذه الاثنتا عشرة عينا كانت موجودة بنفسها فهي غير الاثنتي عشرة عينا التي فجرها موسى لهم عندما ضرب الحجر وسيأتي ذكر ذلك فيما بعد.

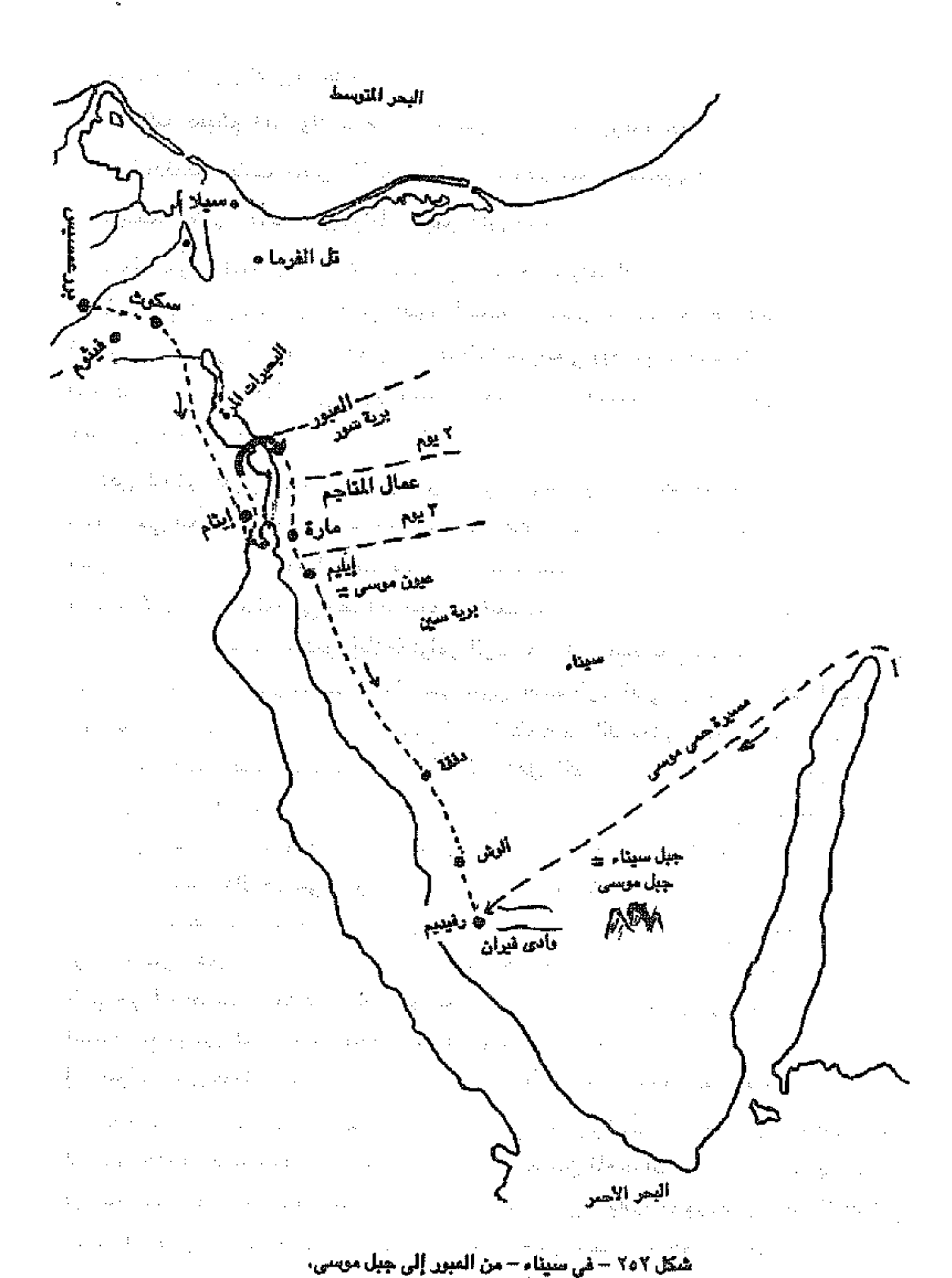
المن والسلوي Manna & Quail

ثم ارتحل بنو إسرائيل جنوبا وساروا في المنطقة الجدباء المسماة برية سين. وكل من يدرس جغرافية سيناء يعلم أنها اليوم – كما كانت في ذلك الماضي البعيد – ليس بها أمطار كافية والكمية التي تنزل عليها لا تكفي إلا لنمو بعض الأعشاب والكلأ التي تصلح للماشية والماعز. ومن هذا فإن اعتماد البدو الذين يتجولون فيها يكون على ألبان الماشية للشرب ولعجن الدقيق ليكون خبزا. وفي أحيان قليلة قد تذبح الماشية لأكل لحومها. ولكن هذا ما كان يتجنبه بنو إسرائيل إذ لو نفذت الماشية والغنم لماتوا جوعا وعطشا لذلك كان جل اعتماد بني إسرائيل في برية سيناء على الألبان ومنتجاتها وكان الماء ضروريا.

وتقول التوراة (خروج ١٦ : ١) وأتى كل جماعة بني إسرائيل إلى برية سين في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني بعد خروجهم من أرض مصر. فتذمر كل جماعة بني إسرائيل على موسى وهارون في البرية وقال لهما بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع. فكلم الرب موسى قائلا: سمعت تذمر بني إسرائيل كلمهم قائلا: في العشية تأكلون لحما وفي الصباح تشبعون خبزا وتعلمون أني أنا الرب إلهكم.

وفي المساء جاءت ريح تدفع معها أعداداً كبيرة من طائر السمان حتى غطت المكان كله وتساقط عليهم فأمسكوا به وذبحوه وطبخوه وأكلوا. وأمروا أن يأخذ كل واحد كفاية يومه ولا يدخر شيئا لأن كل يوم سيأتيهم مثله إلا يوم السبت فلن يأتيهم ولكن يوم الجمعة سيأتيهم ضعف ما يأتي كل يوم حتى يمكنهم أن يدخروا ليوم السبت.

وفي الصباح مع سقوط الندى إذا وجه الأرض كله قد تغطى بالمن. وهو شيء أبيض مثل الدقيق أو مثل رقائق الذرة (Corn flakes) ولم يعرفوا ما هو فسألوا موسى فقال لهم هو الخبز الذي أعطاكم الرب لتأكلوا. وقيل طعمه مثل الرقاق بالعسل. وكان يجب جمعه في الصباح الباكر قبل أن يذوب ويصبح سائلا بفعل أشعة الشمس. وأُمروا أن يأخذوا منه مقدار عمرٍ لكل شخص (العُمر مكيال للأشياء الجافة مثل الحبوب وهو يوازى ٨,٥ لتر تقريبا – قاموس الكتاب المقدس ص ٨٠٣). كما أمروا أن يأخذوا منه كفاية يومهم وألا يختزنوا منه أو يدخروا ليوم تال لأنهم سيجدونه في صباح كل يوم ما عدا السبت فيجب عليهم أن يدخروا له من يوم الجمعة وسيجدون فيه ضعف ما يأتيهم في الأيام الأخرى.



شكل ٢٥٢ – في سيناء – من العبور إلى جبل موسى.

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى :

«وأنزلنا عليكم المن والسلوى، كلوا من طيبات ما رزقناكم». (٥٧ - البقرة)

«وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى». (٨٠ - طه)

«وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى». (١٦٠ - الأعراف)

تقول التوراة (خروج ١٦ : ٢٧) ستة أيام تلتقطونه وأما اليوم السابع ففيه سبت لا يوجد فيه لأن للرب اليوم سبتا. وحدث فى اليوم السابع أن بعض الشعب خرجوا ليلتقطوا فلم يجدوا فقال الرب لموسى: إلى متى تأبون أن تحفظوا شرائعى ووصاياى انظروا إن الرب أعطاكم السبت. لذلك هو يعطيكم فى اليوم السادس خبز يومين اجلسوا كل واحد فى مكانه لايخرج أحد من مكانه فى اليوم السابع. فاستراح الشعب فى اليوم السابع.

لكن البعض كان يغريهم الطمع ويدخرون فى يوم غير يوم الجمعة مخالفين بذلك أمر موسى فكانوا فى الصباح يجدونه وقد تولد عنه دود فأنتن. فسخط عليهم موسى. أما ما كانوا يخزنونه يوم الجمعة ليوم السبت لاينتن أو يتولد عنه دود. وواضح أن رغبتهم فى اختزان الطعام كان عن عدم ثقة فى وعد الله بأنه فى الغد سيأتيهم بطعام مثله. فكان عقابهم أن ينتن وكان هذا درسا عمليا ليتعلموا إطاعة أوامر الرب. كما أنه تأكيد على حرمة يوم السبت كعطلة أسبوعية وعدم الانشغال فيه بأى عمل آخر سوى عبادة الرب التى فرضها فى هذا اليوم. كما كان ذلك أيضا درسا عمليا لتعويدهم على الثقة الكاملة فى الله تعالى وأنه هو وحده الذى يرزق الناس وأن عليهم التوكل عليه حق التوكل. ويقول أهل الكتاب إن الدلائل تشير إلى أن المن كان أمرا فريدا ليس له شبيه بين المنتجات الطبيعية وقد أعده الله خصيصا لبنى إسرائيل طوال ما كانوا فى سيناء. ولما كان المن هو معجزة من الرب كانت إرادة الله أن تبقى ذكراه فى قلوب الأجيال القادمة وقال موسى (خروج ١٦ : ٣٢) هذا هو الشيء الذى أمر به الرب. ملء العُمِر منه يكون للحفظ فى أجيالكم لكى يروا الخبز الذى أطعمتكم فى البرية حين أخرجتكم من أرض مصر. وقال موسى لهارون خذ قسطا واحدا واجعل فيها ملء العُمر منًّا وضعه أمام الرب فى الحفظ فى أجيالكم. وكما أمر الرب موسى وضعه هارون (وفى المستقبل وُضِع هذا القسط مع لوحى الشهادة فى تابوت العهد). وأكل بنو إسرائيل المن أربعين سنة حتى جاءوا إلى طرف أرض كنعان. ولمّا عبروا نهر الأردن إلى الأرض الخصبة فى غربه توقف نزول المن.

حاول بعض علماء الغرب إيجاد تفسير علمى للمن والسلوى. يقول (وارنركيللر The Bible as History P. 122) إن المن والسلوى ليسا نوعا من المعجزات بل هى أمر عادى الحدوث فى سيناء وما علينا إلا سؤال أفراد البدو فى سيناء ليجيبوا بأنها موجودة فى عصرنا الحالى. وطائر السمان معروف. وهجرات الطيور من الشمال إلى الجنوب وبالعكس معروفة كذلك. وكان خروج بنى إسرائيل من مصر فى الربيع وهو وقت الهجرات الكبرى للطيور من وسط أفريقيا

شديد الحرارة إلى الشمال المعتدل وهناك طريقان للهجرة. أحدهما من غرب أفريقيا إلى أسبانيا والثانى من شرقها عبر سيناء والبحر المتوسط إلى البلقان. وردا على هذا التفسير نقول إن هجرات الطيور لها وقت محدد. وموسمها – كما هو معروف لدى سكان شمال الدلتا – لا يزيد عن شهر واحد أو شهرين فى السنة. فاستمرار وجود السمان أى السلوى – على مدار السنة – هو بلاشك معجزة من الله سبحانه وتعالى.

أما عن المن فقالوا إن بدو سيناء يجدونه حتى الآن فى وقت انبلاج الصبح على هيئة حبيبات – مثل قطرات الندى – على الحشيش والأحجار وأفرع الأشجار. وفى عام ١٨٢٣ نشر عالم النبات الألمانى إهرنبرج G. Ehrenberg مقالا قال فيه إن المن ما هو إلا إفراز شجرة الطرفاء (Tamarisk trees) عندما تثقب أوراقها حشرة معينة موجودة فى سيناء هى حشرة Plant - louse. وفى عام ١٩٢٣ قام عالمان فى النبات هما فردريك سيمون بودنهيمر وأوسكار تيودور من الجامعة العبرية فى القدس ببعثة استكشافية فى وسط سيناء وأثبتا صحة ما قاله إهرنبرج وأنه بدون الوخز الذى تحدثه هذه الحشرة لا يتكون المن إطلاقا – أما عندما تثقب الحشرة أوراق النبات فإن العصارة اللزجة تخرج منها وعندما تسقط على الأرض تكون بيضاء اللون وبعد فترة تصبح صفراء مائلة إلى البنى. وطعم هذه العصارة حلو مثل العسل. وبعد شروق الشمس بقليل تصبح الحشرة خامدة ولا يتم إفراز منٍّ جديد وتنشط حشرة النمل فتأكل المن ويختفى. ولكن وُجد أن كمية المن تختلف باختلاف فصول السنة – فتكثر فى الشتاء إذ ينمو هذا النوع من النبات فى الشتاء وخاصة إذا كان الشتاء كثير الأمطار.

وعلى كلٍّ فما توصل إليه العلماء بهذا الخصوص لا يقدح فى كون المن كان معجزة من الله لإطعام بنى إسرائيل فى صحراء سيناء القاحلة فليس من الضرورى أن تكون المعجزة خرقا تاما لما هو موجود. فطوفان نوح ما هو إلا مطر وماء ينبع من الأرض. وكلاهما معروف وظاهرة طبيعية ولكن المعجزة كانت فى كميته بحيث أغرق الأرض. والريح الصرصر العاتية التى أهلكت قوم عاد. ما هى إلا ريح ولكن المعجزة كانت فى شدتها واستمرارها ٧ أيام و٨ ليال متواصلة. وبالمثل فإن كان المن موجودا كإفراز طبيعى من نبات معين فى سيناء فهذا لا ينتقص من المعجزة. لأن وجوده بكميات كبيرة تكفى لإطعام ٦٠٠ر٠٠٠ فرد – وكل يوم على مدار السنة – ومضاعفة كميته يوم الجمعة حتى يمكن تخزين ما يحتاجونه لطعام يوم السبت كل هذه تدل على تدخل العناية الإلهية سواء فى توفير النبات الملائم لإفرازه فى كل مكان ساروا فيه أو الحشرة التى تثقب الأوراق حتى تخرج العصارة. وما دامت العناية الإلهية قد وُجدت فهذه هى المعجزة.

اثنتا عشرة عينا :

استمر بنو إسرائيل فى سيرهم إلى الجنوب ومرُّوا على دفقة وألوش. ثم وصلوا إلى

«رفيديم» Rephidim وهو اسم عبرى معناه «متسعات» وهى «وادى فيران» حاليا. وكان الماء الذى يحملونه قد نفذ. فخاصم الشعب موسى (خروج ١٧ : ٢) وقالوا اعطونا ماء لنشرب. فقال لهم موسى لماذا تخاصموننى. لماذا تُجربون الرب. وعطش هناك الشعب إلى الماء. وتذمر الشعب على موسى وقالوا: لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش. فصرخ موسى إلى الرب قائلا: ماذا أفعل بهذا الشعب بعد قليل يرجموننى. فقال الرب لموسى: مُرّ قدام الشعب وخذ معك من شيوخ إسرائيل وعصاك التى ضربت بها النهر خذها فى يدك واذهب. ها أنا أقف أمامك على الصخرة فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب. ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل ودعا اسم الموضع «مسَّة ومريبة» (Massah and Meribah) من أجل مخاصمة بنى إسرائيل ومن أجل تجربتهم للرب قائلين أفى وسطنا الرب أم لا؟ – ومسَّة اسم عبرى معناه تجربة ومريبة اسم عبرى معناه خصام لأنهم استرابوا فى قدرة الرب.

وضرب موسى عليه السلام الحجر فتفجَّرت منه اثنتا عشرة عينا. عين لكل سبط من أسباط إسرائيل الاثنى عشر. فشربوا وملأوا أوعيتهم.

وقد ذكر ذلك فى القرآن الكريم :

«وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم. كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين». (٦٠-البقرة)

قال بعض المستشرقين إن الماء فى هذه المنطقة من سيناء – عند وادى فيران – يوجد تحت طبقة رقيقة من الحجر الجيرى لاتزيد عن قدمين. محاولين الإيهام بأن الأمر لم يكن معجزة إلهية بل كان شيئا طبيعيا! ويروى وارنركيللر (الإنجيل كتاريخ ص ١٢٣) أن الچنرال چارڤيس C.S. Jarvis الحاكم البريطانى لسيناء فى الثلاثينيات من هذا القرن أخذ عددا من قوات الهجانة تحت إمرته إلى وادى فيران وراحوا يحفرون فى الرمال أمام صخرة يرشح من تحتها ماء. وأخذ الحماس أحد الجنود وراح يضرب الرمل بالفأس بقوة. وفى إحدى المرات أخطأ وجاءت الضربة على الحجر نفسه وأطاحت بكسرة منه فاندفع الماء بقوة من مكانها وصاح الباقون: الله أكبر الله أكبر. لقد حاكيت موسى عليه السلام! – وحتى لو كانت هذه الرواية صحيحة. فلا شك أنها – بالمصادفة – كانت صخرة تحتجز وراءها كمية أو نبعا للمياه. أما معجزة موسى عليه السلام فكانت فى تفجر الماء من أى صخرة يضربها ضربة بسيطة بعصاه وتتفجر منها المياه بعدد معين – هو اثنتا عشرة عينا – على عدد الأسباط وبكمية تكفى أعدادهم الغفيرة ومعهم مواشيهم أيضا.

قيل حجر مُعيَّن مربع من الطور على قدر رأس الشاة يلقى فى جوالق ويُرحل به. وقيل هو

حجر بعينه ولذلك ذكر بلفظ التعريف – وإذا نزلوا وضع فى محلتهم. وقالوا كان حجرا مربعا تطَّرِد من كل جهة ثلاثة عيون إذا ضربه موسى. وإذا استغنوا عن الماء ورحلوا جفت العيون. وقيل إن موسى أُمر أن يضرب أى حجر شاء وهذا أبلغ فى الإعجاز (تفسير القرطبى جـ ١ ص ٤٢٠).

محاربة العماليق :

كان يسكن وادى فيران – رفيديم – أناس من العماليق (انظر الجزء الثانى. ص ١٩٥ و ٣٨٧). يقول أهل الكتاب إن الله سلطهم على بنى إسرائيل ليحاربوهم كنوع من العقاب الإلهى على كثرة تذمرهم. فقال موسى ليشوع بن نون – وهو فتى من بنى إسرائيل كان قوى الإيمان يلازم موسى – وهو الفتى المشار إليه فى القرآن الكريم بقوله تعالى : وإذ قال موسى لفتاه... فى سورة الكهف. قال موسى ليشوع (خروج ١٧ : ٨) انتخب لنا رجالا واخرج حارب عماليق. وغداً أقف أنا على رأس التلة وعصا الله فى يدى. ففعل يشوع كما قال له موسى ليحارب عماليق وأما موسى وهارون وحور (زوج مريم أخت موسى) فصعدوا على رأس التلة. وكان إذا رفع موسى يده أن إسرائيل يغلب وإذا خفض يده أن عماليق يغلب. فلما صارت يدا موسى ثقيلتين أخذا حجرا ووضعاه تحته فجلس عليه ودعم هارون وحور يديه الواحد من هنا والآخر من هناك فكانت يداه ثابتتين إلى غروب الشمس. فهزم يشوع عماليق وقوّمه بحد السيف. وجاء فى تفسير الكتاب المقدس (جـ ١ ص ٢٣٩): لا يعنى ذلك أن الفرقة التى كانت تحارب كانت ترى يدى موسى مرفوعتين أو أن بركة الله لهم كانت تتوقف على وضع يدى موسى. بل كما أن اليدين المرفوعتين تشيران إلى القلب المرفوع لله فى صلاة شفاعية فكذلك هما تعلمان الناس قيمة الصلاة واعتماد الإنسان الكلى على الله وحده. وتدعيم هارون وحور يدى موسى بمعنى أنهما إذا سندا جسمه شجعا فكره وروحه ليصلى. ولو أن جاميسون وفاوست (تفسير الانجيل الكامل. ص ١٧) يرى أن هذا لا يفسر معنى الإمساك بالعصا فى يده وفى رأيهم أن العصا ترمز إلى أفعال الله الحافظة وأن رفعها فيه تذكير للمحاربين بهذه الحقيقة ويشجعهم. وما نراه فى هذا الأمر هو أن موسى عليه السلام لم يشأ أن يشترك فى القتال بنفسه إذ علم أنه لو أصيب فكل بنى إسرائيل هالكون فى البرية ولكنه علم أن مشاركته من بعيد مشاركة رمزية ستشد من أزر المحاربين فلا يضعفوا فى القتال. فكان أن وقف على رأس التل رافعا يده وممسكا بالعصا. وهى عملية متعبة إذا استمرت وقتا طويلا فكان المحاربون إذا رأوا جَلَدَ موسى على هذا الوضع اشتد حماسهم وقويت عزيمتهم على القتال ومرت ٦ ساعات أو أكثر وانتصف النهار وجاء العصر والمعركة لا تزال دائرة وموسى عليه السلام لا يزال رافعا يده إلى أعلا ممسكا بالعصا. ولكن هناك حد لاحتمال الجسم البشرى فبدأت عضلاته تتعب ويده تكاد تسقط فيتجلد ويرفعها وجاء هرون وحور ليساعداه فى بقاء يده مرفوعه حتى انتهت

المعركة عند غروب الشمس بانتصار المحاربين من بنى إسرائيل.

وقل الرب لموسى اكتب هذا تذكارا فى الكتاب وضعه فى مسامع يشوع. فإنى سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء. فبنى موسى مذبحا للرب (خروج ١٧ : ١٥).

زيارة حمي موسي :

كان قد مضى على موسى منذ خروجه ببنى إسرائيل من مصر قرابة ثلاثة أشهر وقدَّر أن مرنبتاح لم يدر بخلده أن بنى إسرائيل قد اتجهوا جنوبيا فى سيناء إذ هو لم يلاحقه حتى الآن فاطمأن إلى أنه لن يطارده فى المستقبل وعلم كذلك أن المحطة التالية هى الجبل الذى كلمه ربه عنده أثناء عودته من مدين منذ خمس سنوت. وما كان له أن يأتى إلى الجبل إلا أن يؤمر بذلك ويؤذن له من الله سبحانه وتعالى. وأدرك أن إقامته فى رفيديم ستطول بعض الشىء. فأرسل فى طلب زوجته وولديه من مدين وكنا قد ذكرنا (ص ٨٤٤) أن موسى كان قد أرسلهم لحميه فى مدين حتى لا يشغلوه عن مهمته مع فرعون - ولاشك أن زوجة موسى قد حكت لأبيها أن زوجها - موسى - قد اختاره الله نبيا. كما أنه ولا شك قد سمع عن الآيات التى أجراها الله على يديه فى مصر - من القوافل التى كانت تسافر بين البلدين. ولعل نفسه قد تاقت لرؤية زوج ابنته بعد أن أصبح نبيا. فلما وصله رسول منه لم يشأ أن يرسل ابنته وحفيديه بل رافقهم إلى حيث موسى. ونختصر ما جاء فى التوراة (١٨ خروج): وأتى يثرون حمو موسى وابناه وامرأته إلى موسى فى البرية وقصَّ موسى على حميه كل ما صنع الرب بفرعون والمشقة التى أصابتهم فى الطريق ففرح يثرون وقال: مبارك الرب الذى أنقذكم من أيدي المصريين ومن فرعون وأخذ يثرون محرقة وذبح ذبائح قربانا وشكرا.

وكان موسى عليه السلام يقعد من الصباح إلى المساء فى مجلس ويأتى الشعب يسألونه عن أمور دينهم فيُعرفهم فرائض الله وشريعته. وكان أيضا يقضى فيما ينشأ بينهم من منازعات. ورأى يثيرون أن هذا إرهاق لموسى وتحميل له فوق طاقته. فنصحه بالاقتصار فى مجلسه على تعليم بنى إسرائيل أمور الدين والشريعة. أما الأمور الأخرى والمنازعات المدنية فأشار عليه أن يتخير أشخاصا «صالحين يخافون الله أمناء مبغضين الرشوة» ويقيمهم عليهم يفصلون بين الناس فى المنازعات العادية وإذا أعضلتهم مشكلة لجأوا إلى موسى. فسمع موسى لصوت حميه وفعل كل ما قال واختار موسى ذوى قدرة من جميع إسرائيل وجعلهم رؤساء على الشعب ورؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات فكانوا يقضون للشعب كل حين. الدعاوى العسرة يجيئون بها إلى موسى وكل الدعاوى الصغيرة يقضون هم فيها. ثم لما ارتحلوا من عند جبل سيناء (ص ١٠٣٧) صرف موسى حماه فمضى إلى أرضه (خروج ١٨ : ١٣ - ٢٧).

وواعدنا موسى:

ثم سار موسى عليه السلام ببنى إسرائيل من رفيديم - باتجاه جنوب شرق ونزلوا قرب الجبل الذى كلمه الله عنده أثناء عودته من مدين وقد سبق أن ذكرنا أن الله كان قد أخبره وقتذاك (ص ٨٣٢) بأن هذا الوادى مقدس:

«فلما أتاها نودى يا موسى. إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى».

(١١ - ١٢ - طـه)

وفى هذه المرة أعاد الله تذكيره بأن هذا الجبل مقدس وأمره أن يقيم عليه حدودا من كل ناحية وأن يحذر الشعب من أن يصعدوا الجبل: كل من يمس الجبل يقتل قتلا. لا تمسه يد بل يرجم رجما أو يرمى رميا. بهيمة كان أم إنسانا لا يعيش (التوراة خروج ١٩ : ١٢). وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى عليه السلام أن يصعد إلى الجبل وسيبقى فيه ثلاثين ليلة ليتلقى الشريعة كاملة من الله.. فأخبر موسى أخاه هارون بذلك وطلب منه أن ينوب عنه ويتولى أمور بنى إسرائيل أثناء غيابه وأن يصلح أمرهم.

«وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين».

(١٤٢ - الأعراف)

ويقول ابن كثير (تفسيره جـ ٢ ص ٢٤٣) حينئذ استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون عليه السلام نبى شريف كريم على الله له وجاهته وجلاله. ولا نرى أن المعنى هو نهى هارون نفسه عن الفساد بل المقصود أنه لو أفسدت فئة أو مجموعة فعليه ألا يتبع سبيلهم ولا يوافقهم على أهوائهم ولا يكون عونا لهم بسكوته عما يفعلون.

وبعد أن استخلف موسى أخاه هارون فى بنى إسرائيل ذهب لميقات ربه. وتروى كتب التفسير أن موسى عليه السلام كان قد وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أن يأتيهم بكتاب من عند الله فيه أحكام شريعتهم. فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب. فأمره الله أن يصوم ثلاثين يوما وهو شهر ذى القعدة. ذكر القرطبى فى تفسيره جـ ١ ص ٣٩٦) إن صوم الثلاثين يوم كان وصالا (أى صيام النهار والليل) وإن كان الأنبياء يواصلون الصوم إلاّ أن عامة الناس غير مأمورين به. وخاصة فى شريعة الإسلام. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إياكم والوصال إياكم والوصال. تأكيدا فى المنع (أخرجه البخارى). وعن أبى سعيد الخدرى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر. قالوا فإنك تواصل يارسول الله. قال: لست كهيئتكم إنى أبيت لى مطعم يطعمنى وساق يسقينى. وهذه إباحة لتأخير الفطر إلى السحر ومنع من اتصال يوم بيوم.

بعد أن أتم موسى عليه السلام صيام الثلاثين يوما وهو شهر ذى القعدة أنكر خلوف فمه فتسوَّك فقالت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك. فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة. وأخرج الديلمى عن ابن عباس: لما أتى موسى ربه وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين يوما كره أن يكلم ربه وريح فمه ريح فم الصائم فتسوَّك فأوحى إليه: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك. ارجع فصم عشرة أيام ثم ائتنى ففعل ما أمره به ربه. فتم ميقات ربه أربعين ليلة. ونُصَّ على ذلك لئلا يُتَوهم أن العشرة داخله فى الثلاثين.

«وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولاتتبع سبيل المفسدين».

(١٤٢ – الأعراف)

«وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة..». (٥١ – البقرة)

التجلى الإلهى :

لما صام موسى الأربعين ليلة كان يقترب من ربه أكثر. وكان موسى بتكليم الله له يزداد حبا فى ربه أكثر. ودفعه هذا الحب الإلهى لطلب المستحيل فسأل الله الرؤية (أنبياء الله. أحمد بهجت. ص ٢٣١).

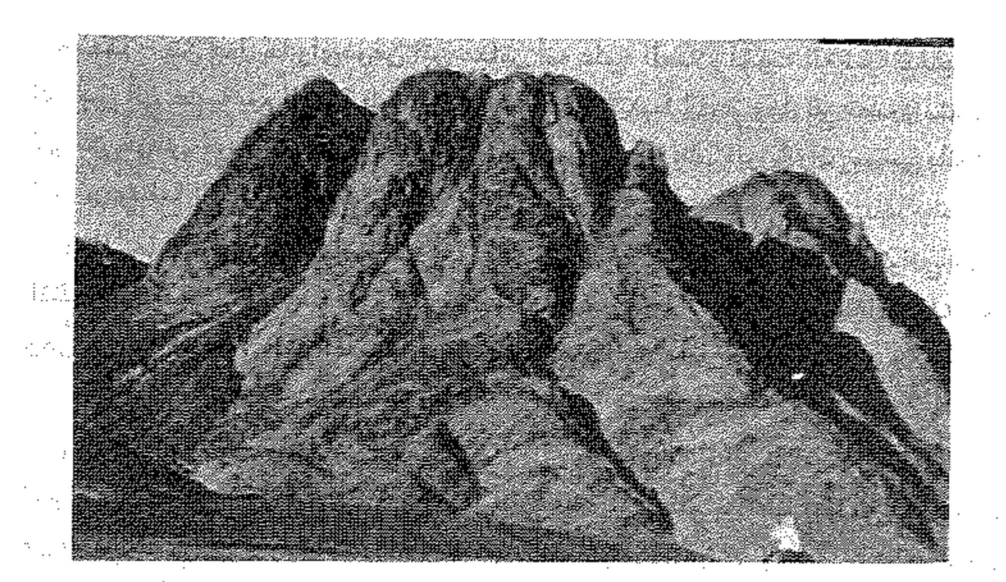
«ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك. قال لن ترانى».

(١٤٣ – الأعراف)

وهكذا كان رد الله سبحانه وتعالى على طلب الرؤية أن قال الله تعالى **«لن ترانى»** فالطبيعة البشرية لا تحتمل التجلى الإلهى. فى حديث قدسى أخرجه الترمذى عن ابن عباس: قال الله تعالى: يا موسى لن ترانى. إنه لن يرانى حى إلا مات ولا يابس إلا تدهده ولا رطب إلا تفرق. إنما يرانى أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم (الإتحافات السينة فى الأحاديث القدسية – محمد المدنى – ص ٣٨). وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن المؤمنين يرون الله سبحانه وتعالى فى الدار الآخرة لقوله تعالى:

«وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة». (٢٢ –٢٣ – القيامة)

هذا فى الآخرة. أما فى الدنيا فلا يستطيع شىء مهما عظم أن يصمد لنوره عز وجل ولذلك قال الله سبحانه وتعالى لموسى أن ينظر إلى الجبل فإن استقر مكانه وبقى على حاله حين يتجلى له الله. فقد يتحمل هو أيضا هذا الموقف. وتجلى ربه للجبل بالكيفية التى أرادها الله عز وجل فتفتت الجبل وصارت قمته ترابا مدكوكا (شكل ٢٥٣ – أ ، ب) وخر موسى مغشيا عليه



شكل ٢٥٣ أ – جبل موسى فى سيناء.

شكل ٢٥٣ ب – تصور لما كان عليه الجبل قبل التجلى الإلهى.

– صعقا – من هول ما رأى. وعن ابن عباس أنه عليه السلام أخذته الغشية عشية يوم الخميس إلى عشية يوم الجمعة فلما أفاق قال سبحانك تنزيها لله عز وجل عن تصور مشابهته لأى شيء وطلب موسى التوبة من الله على إقدامه على سؤال طلب الرؤية وأقر موسى بأنه أول المؤمنين بعظمة الله وجلاله وبأنها لايمكن لبشر أن يدركها:

«ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرَّ موسى صعقا. فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين».

(١٤٣ – الأعراف)

وفى الحديث الصحيح من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تُخيروا بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأرفع رأسى فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أصعق فيمن صعق فأفاق قبلى أم حوسب بصعقته الأولى. أو قال كفته صعقته الأولى. (تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٢٧٩).

تختلف رواية التوراة عما سبق ذكره وفى نفس الوقت تعكس نزعتهم لتجسيد الإله. ففى الإصحاح ٣٣ خروج: ١٨ جاء: فقال موسى أرنى مجدك قال لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش. وقال الرب هو ذا عندى حل فتقف على الصخرة ويكون متى أجتاز مجدى أنى أضعك فى نقرة في الصخرة وأسترك بيدى حتى أجتاز ثم أرفع يدي فتنظر ورائى وأما وجهى فلا يرى. وتستكمل (خروج ٣٤ : ٥) فنزل الربُ فى السحاب فوقف عنده هناك ونادى باسم الرب. فاجتاز الرب قدامه. ونادى: الرَّب الربُّ إله رحيم ورؤوف بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء حافظ الإحسان إلى ألوف. غافر الإثم والمعصية والخطيَّة فأسرع موسى وخرَّ إلى الأرض وسجد.

بعد أن قال الله تعالى لموسى **«لن ترانى»** وكان ما كان من التجلي للجبل وخر موسى صعقا ولما أفاق تاب إلى الله. فقال له الله إنه قد اصطفاه واختاره على الناس لتنزل عليه التوراة وهى رسالة موسى. وكذلك اصطفاه بتكليمه إياه وأمره أن يكون من الشاكرين على شرف الإصطفاء والتكليم.

«قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين. وكتبنا له فى الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين».

(١٤٤ – ١٤٥ – الأعراف)

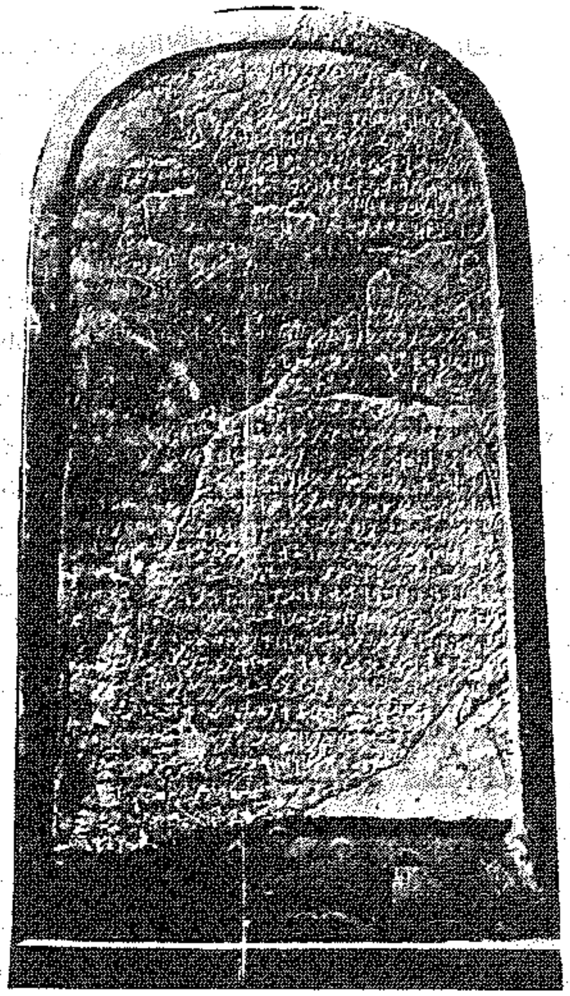
الألــواح :

وكتب الله له فى الألواح تفصيل الشريعة من الحلال والحرام والعبادات والشرائع والأحكام والمواعظ. أى «**من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء**» وروى فى الخبر أن جبريل عليه السلام قبض عليه بجناحه فمر به فى العلا حتى أدناه فسمع صريف القلم حين كتب الله له الألواح. ذكره الترمذى.

وفى **عدد الألواح** قيل لوحين. ولعل ذلك أخذاً عن التوراة إذ تقول (خروج ٣٢ : ١٥) فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة فى يده لوحان مكتوبان على جانبيهما . ومن هنا كانا مكتوبين. واللوحان هما صنعة الله والكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين. وفى رأينا أن لوحين اثنين – مهما عظما وكبرت أبعادهما – كما قالوا ١٢ ذراعا × ١٠ أذرع – مع العلم أن تابوت الشهادة – وقد وضعا فيه – كانت أبعاده ٢,٥ × ١,٥ ذراعا (ص ١٠١٠ ,١٠١٤) – ما كانا ليتسعا لكل ما أنزل على موسى وكما نص القرآن الكريم «**من كل شيء – وتفصيلا لكل شيء**» ولذلك فمن المرجّح أن الألواح كانت أكثر من ذلك فى العدد وهذا ما نص عليه القرآن الكريم حينما قال: «**وكتبنا له فى الألواح**» والجمع هو ثلاثة فأكثر.

وعن مادتها قيل الكثير: تقول التوراة (خروج ٣٤ : ١) ثم قال الرب لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما . وعن هذا القول أخذ المفسرون الإسلاميون فقالوا: أمر الله موسى أن يقطعهما من صخرة صمّاء ليّنها له فقطعها بيده. ولعل كاتبى التوراة وهم يكتبونها فى المنفى فى العراق كانوا متأثرين بما يرونه من الكتابة المسمارية على ألواح الطين سواء النيىء أو المحروق أو الحجارة (شكل ٢٥٤) لذلك تصوّروا الألواح التى أعطيت لموسى على هذه الصورة كما يتضح من شكل ٢٥٥ . وحددوا عددها بلوحين اثنين باعتبار أن تحمل اليد الواحدة لوحا واحدا. وجاء فى تفسير القرطبى (جـ ٧ ص ٢٨١). ويروى أنهما لوحان وجاء بالجمع لأن الاثنين جمع ويقال رجل عظيم الألواح إذا كان كبير عظم اليدين والرجلين. ولا نرى هذا الرأى لأن المشهور عن الجمع هو ثلاثة فأكثر. ولا نقول: وقف التلاميذ ونحن نقصد اثنين. وحتى المثال الذى أورد فهو أكثر من ثلاثة لأن عظم اليدين والرجلين أربعة وحتى لو كان المقصود اليدين أو الرجلين فلا يُتصور أن يكون للرجل أكثر من لوحين لأى منهما حتى لو ذكرت جمعا . فالمثال لا يقاس عليه ما نحن بصدده. وما دام القرآن الكريم قد قال «الألواح» فهى إما ثلاثة أو أكثر.

وأما عن كونها كانت مصنوعة من الحجارة – والكل قد نقل ذلك عن التوراة – فما نظن أن لوحا من الحجارة – مهما كان رقيقا – حتى يستطيع المرء حمله فى يد واحدة – ما كانت أبعاده تزيد عن متر × ١/٢ متر. واللوح بهذه الأبعاد لايتسع للكثير ولهذا نرى أنها لم تكن من الحجارة – أخرج ابن أبى حاتم عن جعفر بن محمد عن جده عن النبى صلى الله عليه وسلم



شكل ٢٥٤ – أحد الألواح الحجرية وجدت في أرض مؤاب.



شكل ٢٥٥ – تصور أهل الكتاب لتلقى الألواح ويلاحظ تشابه الألواح مع الشكل السابق.

أنه قال: الألواح التى أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة وعن الحسن أنها كانت من خشب نزلت من السماء (تفسير الألوسى جـ ٩ ص ٥٧) وهذا ما يرجحه الألوسى، ونرى أيضا أنها كانت رقيقة للغاية حتى ليمكن تشبيهها بما يسمى فى عصرنا الحالى «قشرة خشب» وبهذا تكون خفيفة للغاية بحيث يمكن لليد الواحدة أن تحمل منها عشرة أو أكثر كهيئة «ملزمة» من كتاب وبهذا تتسع صفحاتها لما نص عليه القرآن الكريم «**من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء**» وخاصة أننا لو راجعنا ما فى التوراة من تفاصيل عن بيت العبادة والشرائع والأحكام نجدها مكتوبة فى مائة صفحة بالخط الصغير. وقد يؤيد هذ الرأى قوله تعالى: «**والطور وكتاب مسطور فى رق منشور**» (١ – ٣ – الطور) والكتاب المسطور قيل القرآن. وقال الكلبى التوراة وقيل اللوح المحفوظ. والمعنى الأخير ينفيه وصف منشور إذ معناه أنه معرض للنظر. وما يرجح أن المقصود هو التوراة هو أن القَسَم كان بالطور وهو الجبل الذى كلم الله موسى عليه والتوراة هى التى أنزلت كتابا مسطورا والقرآن الكريم لم ينزل كذلك بل قال الله تعالى : «**ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين**». (٧ – الأنعام) لذلك فإن الأقرب هو أن الكتاب المشار إليه هو التوراة – ووصف بأنه فى رق منشور. والرق الشىء الرقيق. مثل رق الدُّفّ أو جلد رقيق يكتب فيه.

عن ابن عمر أن عليا كرم الله وجهه قال: خلق الله تعالى آدم بيده وخلق جنة عدن بيده وكتب الألواح بيده. وأضاف بعضهم: وخلق جبريل بيده وخلق عرشه بيده. وكتب الكتاب الذى عنده لايطلع عليه غيره بيده.

«**وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء**».

(من الآية ١٤٥ – الأعراف)

«**أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون**».

(من الآية ١٥٤ – لأعراف)

وأشهر ما عرف بأنه مكتوب فى الألواح هى «الوصايا العشر». إلا أن موسى عليه السلام تلقى أيضا أحكم الشريعة بالتفصيل وطريقة بناء بيت العبادة والتنظيمات الخاصة بالكهنة من حيث اختيارهم وملابسهم والطقوس التى يقومون بها بكل تفصيل.

أ – الوصايا العشر (The Ten Commandments) – خروج ٢٠ :

١ – أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمام وجهى.

٢ – لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولاصورة ما مِمَّا فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض. ولا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك إله غيور.

أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع من أعدائى وأصنع إحسانا إلى ألوف من أحبائى وحافظى وصاياى.

٣ - لا تحلف باسم الرب إلهك باطلا. لأن الرب لا يبرىء من ينطق باسمه باطلا.

٤ - اذكر يوم السبت لتقدسه. فى ستة أيام تعمل وتنجز كل أعمالك واليوم السابع سبت الرب إلهك لاتصنع فيه عملا أنت وابنك وبنتك وعبدك وبهيمتك وأمتك ونزيلك الذى داخل أبوابك لأن الرب خلق السموات والأرض والبحر وكل ما فيها فى ستة أيام وفى اليوم السابع استراح لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه.

٥ - أكرم أباك وأمك لكى يطول عمرك فى الأرض التى يعطيك الرب إلهك.

٦ - لا تقتل.

٧ - لا تزن.

٨ - لا تسرق.

٩ - لا تشهد على قريبك شهادة زور.

١٠ - لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما هو لقريبك.

(ب) - **بيت العبادة** : لم يكن مناسبا أن يبنى بالطوب أو الحجارة لأن بنى إسرائيل كانوا كثيرى التنقل كما أن وجودهم فى سيناء كان وجودا مؤقتا ينتهى بحلول الوقت المناسب لدخولهم الأرض. لذلك وجب أن يكون بيت العبادة متنقلا يسهل فكه وحمله ثم إقامته. وكان يشمل:

١ - الفناء الخارجى يحيط به سور وبالفناء مذبح المحرقة والمغسلة (أو المرحضة).

٢ - خيمة الاجتماع وفى داخلها المسكن.

٣ - يتكون المسكن من المقدس وبه المائدة والمنارة ومذبح البخور.

٤ - قدس الأقداس وبه التابوت.

٥ - تعليمات خاصة بالكهنة وثيابهم ومواردهم.

(جـ) - **الشريعة اليهودية :**

ونذكر بعضها فيما يلى.

١ - الاعتراف والتطهير.

٢ - الحلال والحرام فى الأكل.

٣ - الزواج والطلاق.

٤ – الأعياد.

٥ – الزكاة.

٦ – الصوم.

٧ – الصلاة.

٨ – زيارة بيت المقدس.

وليس هنا مجال ذكر تفاصيل ذلك ولمن يريد التوسع يمكنه قراءة الكتب المتخصصة. غير أن هناك أمر نود أن نشير إليه وهو قوله تعالى :

«وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون». (٥٣ – البقرة)

فما هو الفرقان الذى جاء معطوفا على الكتاب في هذه الآية ؟

الفرقان :

الفرقان فى اللغة كل ما فرق به بين الحق والباطل وسمى يوم بدر يوم الفرقان « **وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان».** (٤١ – الأنفعال)

إلا أن كثيرا من المفسرين يرون أن الفرقان هو القرآن. وجاء فى المعجم الوسيط: الفرقان كتاب الله تعالى – ومنها جاء قوله تعالى : «**تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**». (١ – الفرقان)

وفى معنى قوله تعالى : «**وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان**» قال أبو اسحق الزجاج الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره باسمين تأكيدا وقال ابن زيد الفرقان انفراق البحر له حتى صار فرقا فعبروا. وقيل الفرقان الفرج من الكرب لأنهم كانوا مستعبدين ومنها قوله تعالى: «**إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا**» أى فرجا ومخرجا. وقال ابن بحر والمعنى آتينا موسى الكتاب الفرقان والواو قد تزاد فى النعوت كقولنا فلان حسن وطويل وواضح أن هذه الأقوال ما هى إلا اجتهادات تقريبية ولا يزال الباب مفتوحا لاجتهادات أخرى.

والمعروف أن التوراة هى ما أنزل على موسى وجاء عيسى عليه السلام مصدقا بها. لقوله تعالى«**وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة**»(٤٦ – المائدة). والتوراة التى أنزلت على موسى عليه السلام تشمل الأسفار الخمسة الأولى: التكوين والخروج والعدد واللاويين والتثنية. أما باقى التوراة فقد كتب بعضها أنبياء مثل سفر المزامير وهى مزامير داود عليه السلام أى الزبور – وأسفار كتبها حفاظ التوراة.

والتوراة تشمل الوصايا العشر وأحكام الشريعة وقيل: الوصايا العشر هى الفرقان وأحكام الشريعة هي الكتاب (د. محمد شحرور. الكتاب والقرآن. ص ٦٤). وقد يثور تساؤل: ماذا عن الفرقان الذى أنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم؟ قيل إن القرآن الكريم فيه وصايا عشر هى

ما جاءت في **سورة الأنعام** الآيات ١٥١ – ١٥٣:

«قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم :

١ – ألا تشركوا به شيئا.

٢ – وبالوالدين إحسانا.

٣ – ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم.

٤ – ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

٥ – ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون.

٦ – ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده.

٧ – وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفسا إلا وسعها.

٨ – وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى.

٩ – وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون.

١٠ – وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون.

والفواحش في الوصية ٤ تشمل نكاح المحارم. والشذوذ الجنسى والزنا.

والوصية ٩ – وبعهد الله أوفوا – تشمل كل تعهد ظاهر أو باطن فى المعاملات بين الناس ويندرج تحتها إلتزام الأمانة فى المعاملات وتصبح السرقة من المحرمات وكذلك الرشوة والاختلاس.

فإذا عدنا إلى ما قيل عما أنزل على موسى عليه السلام **«وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان»** فالفرقان هو الوصايا العشر والكتاب هو أحكام الشريعة الأخري التى سبق ذكرها فى الصفحة السابقة. والله أعلم.

عبادة العجل :

قلنا سابقا (ص ٩٨٥) إن موسى عليه السلام استخلف أخاه هارون فى بنى إسرائيل وأخبره أنه سيذهب لملاقة ربه ثلاثين يوما ليتلقى منه الألواح والشريعة. ولما طُلِبَ من موسى أن يتم المدة بعشر ليال لتصبح أربعين ليله تأخر موعد عودته. كان السامرى فى هذه الأثناء قد أخذ الحلى التى كان بنو إسرائيل قد استعاروها من المصريين قبيل الخروج وهو ما ذكرناه (ص ٩١٩) وصهرها وصنع لهم عجلاً له خوار وقال لهم هذا إلهكم وإله موسى. لقد قال موسى إنه ذاهب لملاقاة ربه ولكنه نسى أن ربه هنا – وهو هذا العجل – وليس هناك عند الجبل . وافتتن بالعجل أناس كثيرون من بنى إسرائيل. ولما تأخر موسى عن موعد عودته زاد

هذا من شكوكهم وظنوا أنه لن يعود وزاد إقبالهم على عبادة العجل. وأخبر الله موسى بما فعل السامرى من إضلالهم

«قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى». (٨٥–طه)

تقول التوراة (خروج ٣٢) ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لانعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم واتونى بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه عجلا مسبوكا. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر. فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه ونادى هارون وقال غدا عيد للرب. فبكروا فى الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للَّعب. فقال الرب لموسى اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك. زاغوا سريعا عن الطريق الذى أوصيتهم به. صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر.

وهذا افتراء من كاتبى التوراة على نبى الله هارون. وقد نفى عنه القرآن الكريم هذه الفرية إذ نص على أن السامرى هو الذى أضلهم وأثبت أن هارون قد استنكر منهم هذا الفعل.

«ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى». (٩٠–طه)

نعود إلى موسى عليه السلام وقد أخبره ربه عما فعل قومه فى غيابه فغضب موسى وأسرع عائدا.

«فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً». (٨٦–طه)

وكان أسف موسى ناتجا من أن هذا الشعب قد أكرمه الله بالآيات والمعجزات وخلَّصه من يدى فرعون الذى كان يسومهم سوء العذاب وشق لهم البحر وأغرق فرعون أمام أعينهم. هذا الشعب ما إن أبطأ عليه موسى حتى ارتدوا للوثنية وعبدوا عجلا كما رأوا المصريين يعبدون عجل أبيس (ص ٧٣٢).

«وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم». (٩٣–البقرة)

تعبيرا عن تمكن هذه العبادة فى قلوبهم وكأنما تغلغلت عبادته فى أجسامهم كما يتغلغل الماء فى الأعضاء بعد شربه.

ولما اقترب موسى من مكان قومه سمع صوت الدفوف والغناء والرقص. ولما اقترب أكثر رأى فى وسط الدائرة عجلا ذهبيا له صوت يخرج منه هو أشبه بخوار الثور والراقصون يدورون حوله. وصاح موسى بغضب قائلا

«بئسما خلفتمونى من بعدى». (من الآية ١٥٠ – الأعراف)

كان فى إمكان موسى عليه السلام أن يقتص من المتسبب فى هذه الفتنة فقد أخبره الله سبحانه وتعالى أن السامرى هو السبب **«وأضلهم السامرى»** ولكنه أراده تحقيقا علنيا حتى يكون القوم مقتنعين بعدالة الحكم الذى سيصدره فالجريمة عظيمة وخطيرة. وهى جريمة الردة عن عبادة الله الواحد الأحد – والعقوبة لابد ستتناسب مع عظم الجرم وستكون عقوبة قاسية. وبدأ التحقيق. هنا يمكن تشبيه ما حدث بتمرد فيه متمردون وزعيم للتمرد وجهة منوط بها المحافظة على الأمن. وبدأ بسؤال المتمردين أولا وهم ذلك النفر من بنى إسرائيل الذين عبدوا العجل. ثم سؤال هارون وقد استخلفه موسى على القوم وكان منوطا به نهيهم عن الضلال ومنعهم من ارتكابه. ثم فى النهاية سؤال زعيم المتمردين أى المتسبب فى الضلال وهو السامرى ليدافع عن نفسه.

توجّه موسى بخطابه إلى من ضلوا من بنى إسرائيل موبخا لهم فى صيغة سؤال نفى حتى تكون إجابتهم إقرارا لما يقوله من أن الله قد وعدهم وعدا حسنا. وعدهم بتخليصهم من العذاب الذى كانوا فيه بمصر وأوفى الله بوعده وزيادة على ذلك أغرق عدوهم حتى لا يلاحقهم فى المستقبل :

«قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا...»

وأتبع ذلك بسؤال آخر هو لماذا أخلفوا وعدهم له بألا يعبدوا إلا الله ؟ وهنا بين لهم أن ضلال الأقوام قد يكون بسبب طول المدة بينهم وبين نبيهم فتنسى تعاليمه أو تحرف وفى هذه الحالة قد يكون لهم بعض العذر فيرسل الله إليهم رسولا يحيى فى نفوسهم تعاليم الله ويعيدهم إلى التوحيد أما إذا تم الضلال على قرب عهد من النبى فهنا يحل عليهم غضب الله ويكونون مستوجبين لعذابه.

«أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى».

(٨٦ – طه)

وجوابهم على هذا التساؤل سيكون بأنه لم يطل العهد بهم فإن نبيهم لا يزال موجودا بينهم فلا يبقى إلا الاحتمال الآخر وهو أنهم – أو كأنهم أرادوا أن يحل عليهم غضب من ربهم أى أنهم بفعلهم هذا أصبحوا مستحقين أن يحل عليهم غضب من ربهم.

كان جوابهم أن الأمر لم يكن باختيارهم وأن إخلافهم الموعد الذى بينهم وبينه – وهو الثبات على دين الله – كان فوق قدرتهم فإن السامرى هو الذى أضلهم بأن صنع من الذهب والفضة التى أخذوها من المصريين وسموها «أوزارا» أى أثقالا لأنها كانت كثيرة وقد تعنى آثاما لأنهم استعاروا هذه الحلى بحجة أنهم سيحتفلون بعيد لهم وعبادة ربهم فى البرية ولم يعيدوها لأصحابها. قال بعض المفسرين إن هارون عليه السلام أمرهم بإلقاء الحلى فى حفرة فيها نار لأنها لا تحل لهم. وذكر الألوسى (تفسيره جـ ١٦ ص ٢٤٧) ما روى عن ابن عباس من أن هارون قال لهم إنما تأخر موسى عنكم لما معكم من حلى القوم وهو حرام عليكم. فالرأى أن نحفر حفرة ونجعل فيها نارا ونقذف فيها ما معنا. وقيل إن السامرى وضع فى الحفرة قالب عجل دون أن يدروا. وجعل القوم يأتون بما معهم فيقذفونه فيها وجاء السامرى ومعه تراب من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام وأقبل إلى النار وقال لهارون عليه السلام: يا نبى الله أألقى ما فى يدى؟ فقال نعم وهو يظن أنه بعض الحلى مثل ما جاء به غيره. فألقى السامرى هذه القبضة من أثر الرسول وقال كن عجلا جسدا له خوار فكان البلاء والفتنة.

ينفى أغلب المفسرين أن الحلى تحولت إلى عجل حقيقى له خوار ولذلك لا نوافق على ما ذكره الأولوسى من أن موسى قال: إلهى هذا السامرى صاغ لهم العجل فمن نفخ فيه الروح؟ والمقصود أن الله قد سهل للسامرى فعله ليختبر بنى إسرائيل ويظهر لهم أن الإيمان لم يرسخ بعد فى قلوبهم إلا أن البعض قالوا إن ما كانوا يرونه من حمرة فى جسمه هى حمرة الذهب وليست حياة حقيقية ولذلك قيل «عجلا جسدا» أى جسما لا روح فيه. وقال آخرون «جسدا» أى جثة ذا لحم ودم (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ٢٤٧). وَجَهَدَ آخرون أنفسهم لتفسير الخوار من تمثال ليس فيه روح فقالوا (أنبياء الله – أحمد بهجت. ص ٢٣٣) إن السامرى كان فيما يبدو نحاتا محترفا أو صائغا سابقا فصنع العجل مجوفا من الداخل ووضعه فى اتجاه الريح بحيث يدخل الهواء من فتحته الخلفية ويخرج من أنفه فيحدث صوتا يشبه خوار العجول الحقيقية ويقال إن سر هذا الخوار أن السامرى كان قد أخذ قبضة من تراب سار عليه جبريل عليه السلام حين نزل إلى الأرض فى معجزة شق البحر أى أن السامرى أبصر بما لم يبصروا به فقبض قبضة من أثر الرسول (جبريل عليه السلام) فوضعها مع الذهب وهو يصنع منه العجل. وكان جبريل عليه السلام لا يسير على شىء إلا دبت فيه الحياة فلما أضاف السامرى التراب إلى الذهب وصنع منه العجل خار كالعجول الحقيقية. وعاد الذين ينفون الحياة عن العجل وينفون أن يكون الخوار ذاتيا وليس بفعل الريح – يقولون إننا نعلم أن التراب إذا أضيف إلى الذهب وصُهر انفصل التراب من الذهب وترك تجويفا فى مكانه وأغلب الظن أن السامرى استخدم هذا التراب، كأى تراب آخر، فى صنع تجويف داخل العجل، بحيث تحول الذهب إلى تمثال له صوت. والحقيقية أن الأمر لا يحتاج لهذا المجهود فى نفى الحياة عن العجل إذ أن

القضية هى أنه حتى لو كان الخوار ذاتيا وحتى لو كانت دبت فيه حياة حقيقية فهل يجوز لبنى إسرائيل أن يعبدوه؟ وهكذا تجاوز القرآن الكريم عن هذه المسألة فقال «**عجلا جسداً له خوار**» وترك الأذهان تفسر هذا الخوار كما تشاء. بفعل الريح أو دبت فيه الحياة – وأثبت أن هذا العجل لا يصح أن يكون إلها على أى وجه لأنه لا يتكلم إذا خوطب ولو سألوا شيئا لا يرجع عليهم بجواب بل يخور فقط ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرا ولا يملك أن ينفعهم بشىء. ووضع ذلك فى صيغة سؤال استنكار وتقبيح لفعلهم هذا:

«قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى. فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى. أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا».

(٨٧ – ٨٩ طه)

ونلاحظ دقة اللفظ القرآنى. فهو قد نسب صُنع العجل للسامرى «فأخرج». ولم يقل لهم السامرى إن هذا هو إلهكم فوافقوه وفى هذه الحالة يكون قد ضُلِّلَ بهم. ولكن هذه الفئة التى اتبعت السامرى كانت تميل بطبعها إلى الضلال إذ ما أن رأوا العجل حتى أسرعوا لعبادته والفاء تعنى التعقيب بلا تراخى «فقالوا» هذا هو الإله. أى أن الضلال فى دخيلتهم ولم يكن ينتظر إلا أن يروا العجل حتى يفصحوا عن ضلالهم. بل وإمعانا فى ضلالهم لم يقولوا هذا هو إلهنا تعبيرا عن أنفسهم فقط ولم يكتفوا بأن يقولوا لمن لم يتبعوهم هذا هو إلهكم بل راحوا يحثونهم على الضلال ويوهمونهم أن هذا هو إلههم وإله موسى. وإن كان موسى قد قال إنه ذاهب لملاقاة ربه فهو قد نسى لأن إلهه هنا. وهكذا انتهى التحقيق مع من ضلوا بنتيجة.. مؤداها أن رأس الفتنة هو السامرى ولكنهم هم أنفسهم لا يقلون عنه فى الجرم والضلال. ولم يتبين لموسى عليه السلام ما يفعل بهم فأرجأ أمرهم لما بعد انهاء التحقيق مع الأطراف الأخرى.

انتقل موسى بعد ذلك إلى سؤال هارون خليفته فى قومه وكان قد حدد له طريقة عمله حين قال له..

«اخلفنى فى قومى. وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين».

وكان الغضب قد بلغ بموسى مداه وأخذته الغيرة على دين الله حدا لا يوصف فلم يتمالك نفسه إلا وقد ألقى الألواح من يده. قالوا بعضها انكسر واعترض الآخرون بأنه مهما كان من غضبه فإن احترام كتاب الله واجب فلا يلقى بشدة فينكسر. وفى رأينا أن الإلقاء لا يستدعى العنف فى الفعل وإن كان يفيد العجلة. فقد قيل لأم موسى «فألقيه فى اليم» ولا يُتصوَّر أن تلقى الأم وليدها بشدة وإن كانت قد وضعته فى اليم بسرعة – كذلك نقول ألقى عليه السلام أى حياه وتفيد السرعة أيضا أى حياه فور رؤيته.. هكذا وضع موسى عليه السلام الألواح

على الأرض بسرعة فكأنه ألقاها. وتقول التوارة (خروج ٣٢ : ١٩) وكان عندما اقترب من المحلة أنه أبصر العجل والرقص فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما فى أسفل الجبل. وفى الإصحاح ٣٤ : ١ – ثم قال الرب لموسى انحت لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما. وعلى كُلٍّ فقد وصلنا سابقا (ص ٩٩١) إلى أنها كانت رقائق من خشب فلا تنكسر عند إلقائها.

بعد أن ألقى موسى عليه السلام الألواح من يده أمسك بمقدمة رأس هارون وجرَّه إليه تعنيفا له ولسؤاله عما حدث خشية أن يكون قد قصر فى نهيهم عن الضلال.

«وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه». (من الآية ١٥٠ – الأعراف)

وسأله عما منعه أن يردهم عن الغيّ إذ رآهم قد ضلوا وما منعه أن يتبع طريق موسى فى الحفاظ على دين الله

«قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألاّ تتبعن. أفعصيت أمرى».

(٩٢ – ٩٣ – طه)

والأمر كان: **«أصلح ولا تتبع سبيل المفسدين».**

رأى هارون حدة غضب موسى وكما يقولون يتطاير الشرر من عينيه. فأراد أن يرقق قلبه ويلطف من حدة غضبه فاختار لفظا يذكر بالأخوة ويعبر عن الحنان فقال **«يابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى»** ويفهم من هذا أن موسى أمسك أولا بلحية هارون – ولعل هارون كان أطول منه – فلما خفض رأسه من أثر جذب اللحية أمسك بشعر رأسه وجذبه إليه. وروى أن موسى عليه السلام كان غضوبا واستبدت به الغيرة على دين الله ففعل ما فعل فى هارون مع أنه نبى أيضا.

كان هارون قد نهاهم عن عبادة العجل حين رآهم قد فتنوا به لما رأوا من خواره وأخبرهم أن ربهم هو الرحمن وطلب منهم أن يتبعوا قوله ويطيعوا أمره. فلم يسمعوا له وقالوا له سنظل على عبادة العجل حتى يعود إلينا موسى لنرى رأيه. فاعتزلهم هارون، هو ومن بقوا على إيمانهم.وأثبت القرآن الكريم موقف هارون هذا. وبذلك ينفى ما ادعته التوراة أن هارون هو الذى صنع لهم العجل (خروج ٣٢).

«ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى. قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى». (٩٠–٩١–طه)

دفع هارون عن نفسه تهمة عصيان الأمر إذ سأله موسى أفعصيت أمرى؟ وقدم دفاعين: قال إن القوم استضعفوه ورأوه هو ومن معه من المؤمنين قلة وضعافا وكادوا يثورون عليهم ولما نهاهم عما فعلوه من عبادة العجل كادوا يقتلونه وطلب منه ألا يظن أنه مخطىء ولا يجعله فى

عداد الظالمين وألا يعاقبه لأن ذلك سيشمت به الأعداء إذ يقولون هذا هارون قد عارضنا وناله عقاب من موسى فيفرحوا بذلك.

«وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه. قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين».

(١٥٠ – الأعراف)

أما الدفاع الثانى الذى أبداه هارون فهو خشيته من أن لو قام هو ومن بقوا على إيمانهم بمنع الضالين من عبادة العجل واستعمل العنف معهم لقام قتال بين الفريقين. ويقع قتلى وتثور الأحقاد ويثأر أقارب القتلى لقتلاهم فتكون فُرقة فى بنى إسرائيل وقد تلومنى على ذلك وتقول إنه كان الواجب على أن أنتظر عودتك لتتصرف أنت بما ترى.

«قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرَّقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى». (٩٤ – طه)

قَبِل موسى عليه السلام اعتذار أخيه. وأراد أن يستغفر ربه عما فعل بأخيه قبل أن يستجلى الأمر **«قال رب اغفر لى»** وكذلك طلب المغفرة لأخية بما يُعد ذنبا إذ لم يستطع منع الفتنة **«ولأخى»** وفى هذا الضم ترضية لهارون عليه السلام ورفع للشماتة عنه.

«قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين».

(١٥١ – الأعراف)

بقى سؤال رأس الفتنة وهو السامرى

«قال فما خطبك يا سامرى». (٩٥ – طه)

أى ما شأنك وما هذا الأمر الخطير المنسوب إليك فقال مدافعا عن نفسه إنه رأى مالم يره باقى القوم وقد ذكرنا سابقا ما قيل من أنه قبض قبضة من التراب الذى مر عليه حافر فرس جبريل عليه السلام. فهى من أثر الرسول – وألقاها فى الحلى المذابة – وزينت له نفسه هذا الفعل ليرى ما يحدث. وهو بهذا يتنصل من مسئولية فعله وأن القبضة من الأثر وما فيها من قوة إحياء كانت هى السبب المباشر وأن كل ذنبه أن نفسه قد سولت له إلقاءها على الذهب المنصهر. وكان هذا كذبا منه إذ هو الذى صنع قالبا على هيئة العجل ووضعه فى الحفرة أو أنه عند عمل الحفرة – ولعله هو الذى تطوَّع بحفرها – جعلها على هيئة عجل وسواء دبت فيه حياة أم كان يخور بفعل الريح فإن القوم اتبعوه وعبدوا العجل وحدثت المعصية وكان هو المدبر لها. لم يكن موسى عليه السلام فى حاجة لكل هذا التحقيق ليصل إلى النتيجة فقد أطلعه الله عليها من قبل إذ قال له وهو فى الجبل **«فإنا قد فتنا قومك وأضلهم السامرى»**. ولكن موسى أراد أن يكون تحقيق على الملأ حتى يتقبلوا ما يحكم به. وانتهى التحقيق وكان الحكم متضمنا

ثلاثة بنود :

بند خاص بالرأس المدبر وهو السامرى.

و بند يتعلق بجسم الجريمة وهو تمثال العجل.

و بند ثالث يختص بالذين اتبعوا السامرى وعبدوا العجل.

كان الحكم على السامرى من شقين. عقاب دنيوى وعقاب فى الآخرة وناهيك عن عقاب الآخرة الذى لن يتخلف عنه ولن يخلفه، ولم يفصح عنه حيث أنه معروف سلفا وهو نار جهنم.

أما العذاب الدنيوى فلم يكن حكما بالإعدام لأن حكم الأعدام يقصر من أمد الحياة الدنيا والله يريد له عذابا أليما فى الدنيا وأن تطول معاناته بطول بقائه فى الدنيا. قالوا إن الله رماه بداء عضال لا يكاد يمس أحداً أو يمسه أحد إلا حُمَّ من ساعته حمى شديدة. فتحاشاه الناس وتحاشاهم وكان يصيح بأعلى صوته لا مساس أى لا تمسونى، وتلافى الناس ملاقاته ومكالمته ومؤاكلته ومبايعته وغير ذلك مما يعتاد جريانه بين الناس من المعاملات. ويقول الألوسى (تفسيره جـ ١٦ ص ٢٥٥) وصار بين الناس أوحش من القاتل اللاجىء إلى الحرم ومن الوحشى النافر فى البيداء. وهام فى البرية لايجد أحدا من الناس.

«قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لامساس وإن لك موعدا لن تخلفه».

(٩٧ – طه)

«لن تُخْلَفَه» أى لن يخلفك الله تعالى ذلك الوعد بل ينجزه لك. وقرئت لن تُخلِفه بكسر اللام أى لا تملك أن تتخلف عنه.

لا تذكر التوراة شيئا عن السامرى وتنسب صنع العجل إلى هارون وقد نفى القرآن الكريم عنه ذلك. وقال المستشرقون إن السامرى اشتقاق من السامرة (شمرون العبرية) فى فلسطين ولم يكن بنو إسرائيل قد دخلوها بعد لينسب أحد إليها ليقال له شمرونى أو شامرى أو سامرى. يقصدون أن الإسم اختراع وليس حقيقة. ويرد الأستاذ رؤوف أبو سعده (من إعجاز القرآن – جـ ٢ ص ٢٩) قائلا: إن اسم السامرى لاشأن له بالسامرة فى فلسطين بل هو من عشيرة شمرون وبالرجوع إلى التوراة (عدد ٢٦ : ٢٣) نجد بنو يساكر بن يعقوب هم: تولاع وفوة وياشوب وشمرون. فهو شمرونى أو شامرى أى سامرى، ويقول إن الإسم يحمل أيضا معنى عدم المس والاحتراز من المس واللمس إذ أن شَمَرَ العبرية معناها حفظ وصان وحَرَزَ و «شَمَرَه مِن» معناها «احترز مِن» وتوقَّى فإذا قلت شمرنى بإضافة ضمير المفعول للمتكلم كما فى العربية تصبح شمرنى أى توقَّنى فإذا كان المخاطب جمعا قيل شمرونى أى توقونى أو تحاشونى أى لا مساس التى جاءت فى القرآن الكريم. فالاسم يشير إلى عشيرته وإلى الجزاء الذى ناله بسبب دوره فى صنع العجل وعبادته. وهذا وجه من وجوه إعجاز اللفظ فى القرآن الكريم إذ تحمل كلمة سامرى هذين المعنيين.

أما فيما يتعلق بجسم الجريمة وهو العجل فقد ذكره القرآن الكريم:

«وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً».
(٩٧ - طه)

والكلام هنا موجه إلى السامرى بصفته هو الذى صنع العجل وأول من عبده ولذلك قيل **«إلهك»** - و **«ظلت»** أصلها ظللت وحذفت اللام الأولى للتخفيف. وقيل إن موسى عليه السلام برده بالمبرد ثم أحرقه بالنار ثم ذراه فى البحر حتى لا يبقى منه أثر.

وتقول التوراة (خروج ٣٢ : ٢٠) ثم أخذ العجل الذى صنعوا وأحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء وسقى بنى إسرائيل - وكأنما ليشربوه حقيقة بعد أن أشربوا عبادته فى قلوبهم كما ذكر القرآن الكريم.

بقى أن نعود إلى هؤلاء الذين ضلوا وارتدوا عن عبادة الله وتبعوا السامرى فعبدوا العجل. لنعرف ماذا كان جزاؤهم. وكان هؤلاء قد أفاقوا من غفوتهم وتنبّهوا إلى أنهم قد ارتكبوا أكبر معصية بعبادة العجل :

«ولما سُقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين».
(١٤٩-الأعراف)

وسقط فى أيديهم تعبير عن شدة الندم لأن النادم إذا اشتد ندمه عضَّ يده - ويقال عضَّ أصابع الندم - فتكون يده مسقوطا فيها أو أسقط فيها أو **«سقط فى أيديهم»**. وتبينوا أنهم قد ضلوا واتضح ذلك لهم وكأنهم قد رأوه بأعينهم. قالوا لئن لم يرحمنا ربنا بإنزال التوبة المكفرة لذنبنا ويغفر لنا خطيئتنا لنكونن من الخاسرين. ولكن هل يكفى أن يطلبوا التوبة بألسنتهم هكذا ليتوب الله عليهم وهم قد ارتكبوا أكبر الذنوب؟ قد يجعل ذلك الناس فى المستقبل يتجرؤون على حدود الله مادامت التوبة بهذه البساطة. إذن لابد من جزاء يردع كل من تسول له نفسه الإشراك بالله. وهكذا جاء الحكم قاسيا ورادعا. يتناسب مع عظم الجرم.

«إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين».
(١٥٢ - الأعراف)

بينت هذه الآية أن هؤلاء الذين عبدوا العجل قد غضب الله عليهم وسينزل بهم عقاب ينالهم. وقيل اختصارا **«سينالهم غضب من ربهم»** وهذا العقاب سيسبب لهم ذلة فى الحياة الدنيا. ثم أوضحت آية من سورة أخرى نوع العذاب الذى حكم الله به عليهم فى الحياة الدنيا. والكفر بعد الإيمان ردة. والردة حدها القتل. وأخبرهم موسى بما أمر الله به فى شأنهم حتى يتوب الله عليهم فلا ينالهم عذاب فى الآخرة :

«وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ».
(٥٤ - البقرة)

وأجمع المفسرون على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده، قيل فقاموا وقتل بعضهم بعضا حتى قيل لهم كُفُّوا. وقيل وقف الذين عبدوا العجل صفا ودخل عليهم الذين لم يعبدوه بالسلاح فاستسلم لهم عبدة العجل فقتلوهم وسمى استسلامهم للقتل قتلا لأنفسهم على سبيل المجاز. أو هى مثل «ولا تلمزوا أنفسكم» أى يلمز بعضكم بعضا أى كان الأمر أن يقتل بعضهم بعضا، وقيل لما بلغ عدد القتلى سبعة آلاف تاب الله على المذنبين الذين لم يُقتلوا إذ هم رضوا بالقتل جزاء لما اقترفوه من ذنب فرفع عنهم القتل. وأُخبِروا أن من قُتل احتُسب شهيدا عند الله ومن لم يُقتل فقد تاب الله عليه. وقيل أوحى إلى موسى: ما يحزنك . أما من قُتل فهو حى عندى يُرزق وأما من بقى فقد قبلت توبته فسُرَّ بذلك موسى وبنو إسرائيل رواه ابن جرير بإسناد جيد.

«فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم. فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم».
(٥٤ – البقرة)

«ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا».
(١٥٣–النساء)

تقول التوراة (خروج ٣٢ : ٢٦) إن بنى لاوى هم الذين أوكل إليهم قتل عبدة العجل فقالوا: وقف موسى في باب المحلَّة وقال من للرب فإلىَّ. فاجتمع إليه جميع بنى لاوى. فقال لهم هكذا قال الرب إله إسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب إلى باب فى المحلة واقتلوا كل واحد أخاه (أى حتى لو كان أخاه) وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه (أى حتى لو كان صاحبه أو قريبه) ففعل بنو لاوى بحسب قول موسى ووقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلف رجل. ويقول أهل الكتاب إن بنى لاوى – وهم عشيرة موسى وهارون – بتمسكهم بعبادة الرب وغيرتهم على دينه استحقوا أن يكونوا هم فى المستقبل سبط الكهنوت.

وهكذا انتهت فتنة عبادة العجل وزالت شدة الغضب عن موسى عليه السلام وكان كما ذكرنا من قبل قد ألقى الألواح من يده – فعاد وأخذها. قيل لما ألقى الألواح تكسرت فصام أربعين يوما فَرُدَّ عليه ما فيها و أعطى لوحين جديدين فيهما ما فى اللوحين الأولين بعينه فكأنهما نسخة منهما.

«ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون».
(١٥٤ – الأعراف)

ويقول البعض الأرجح أنها لم تكسر «**وفى نسختها هدى**» أى ما هو مكتوب فيها ومنسوخ عليها هدى ورحمة للذين يخافون أشد الخوف.

تقول التوراة (خروج ٣٢ : ٣٠) إن موسى ذهب للقاء ربه فأعطاه لوحين آخرين:

وكان فى الغد أن موسى قال للشعب أنتم قد أخطأتم خطيَّة عظيمة فأصعد الآن إلى الرب لعلى أكفر عن خطيتكم. فرجع موسى إلى الرب وقال آه قد أخطأ هذا الشعب خطية عظيمة وصنعوا لأنفسهم آلهة من ذهب والآن إن غفرت خطيتهم وإلا فامحنى من كتابك الذى كتبت. فقال الرب لموسى من أخطا إلى أمحوه من كتابى. والآن اذهب اهد الشعب إلى حيث كلمتك. (وفى ٣٤ : ١) ثم قال الرب لموسى انحتْ لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتبُ أنا على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما.

الاعتذار عن فتنة العجل :

كان آخر شيء فى فتنه العجل أن الله أمر موسى أن يأتيه فى ملأ من بنى إسرائيل ليعتذروا عن عبادة العجل (تفسير ابن كثير. جـ ٢ ص ٢٤٩) فاختار موسى من قومه سبعين رجلا أمرهم أن يصوموا ويتطهروا وينطلقوا معه إلى الجبل ليعتذروا عما فعل باقى القوم من عبادة العجل ويسألوه المغفرة. ففعلوا وخرجوا معه. وأمرهم بالبقاء فى سفح الجبل وأن يدعوا الله ليغفر لقومهم. وتقدم هو لمناجاة ربه وليطلب المغفرة أيضا.

«واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا...». (١٥٥-الاعراف)

فلما فرغ من كلام ربه عاد إليهم وزفَّ إليهم البشرى بأن الله قد تاب على الجميع. وكان الواجب أن يسجدوا لله شكرا على ما امتن به عليهم وعلى قومهم من قبول توبتهم. ولكنهم طلبوا رؤية الله جهرة حتى يتأكدوا صِدقَه.

«وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون». (٥٥-لبقرة)

وقَبْلَ أن يخبرهم موسى باستحالة هذ الأمر. حتى بالنسبة له وهو نبى الله ورسوله وأنه سبق أن طلب ذلك وكان الرد «**لن تراني**» وتجلى الله للجبل فدك وأنه هو نفسه لم يتحمل هذا الموقف فخر صعقا. قبل أن يشرح لهم ذلك كانت قد أخذتهم الرجفة وماتوا لتوهم ولحظتهم. فهؤلاء الذين ذهبوا للاعتذار عن ذنب ارتكبه قومهم إذا بهم هم أنفسهم يرتكبون ذنبا أكبر بطلبهم رؤية الله جهرة فكان جزاءهم الموت. وراح موسى يناشد ربه ويدعوه ويتضرع إليه قائلا لو شئت أهلكتهم من قبل أن نخرج إلى الميقات وأهلكتنى أيضا معهم بمحضر من بنى إسرائيل. ولعل موسى عليه السلام شعر بحرج من أنه لوعاد بدونهم يتهمه قومه بأنه هو الذى قتلهم. لذلك كانت هذه المناشدة والضراعة. ثم وصفهم بأنهم سفهاء وتساءل.. **«أتهلكنا بما فعل السفهاء منا»** والسؤال سؤال استعطاف وثقة بلطف الله عز وجل. ثم بعد ذلك أرجع الأمر كله لله ولمشيئته فمن شاء الله له الهدى اهتدى. ومن شاء له غير ذلك ضل. فالله هو الولى وهو القائم بأمور الكون كله ثم فى النهاية طلب المغفرة والرحمة لأن الله هو خير الغافرين.

«قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى. أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء. أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين». (١٥٥ – الأعراف)

واستجاب الله لضراعة موسى.. فأحياهم جميعا:

«ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون». (٥٦ – البقرة)

تدعى التوراة أن هؤلاء السبعين رأوا الله سبحانه وتعالى إذ جاء فيها (إصحاح ٢٤ خروج): وقال لموسى اصعد إلى الرب أنت وهارون وناداب وأبيهو (وهما الابن الأول والثانى لهارون) وسبعون من شيوخ إسرائيل واسجدوا من بعيد ويقترب موسى وحده إلى الرب وهم لا يقتربون وأما الشعب فلا يصعد معه. ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل. ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء فى النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى إسرائيل. فرأوا الله وأكلوا وشربوا. ولما رأى أهل الكتاب أن ما جاء فى هذه الفقرة يتعارض مع ما جاء فى (٢٣ : ٢٠) «لأن الإنسان لا يرانى ويعيش» قالوا: ولذلك فإن ما رآه أولئك الرجل لم يكن إلا قبسا من ذاته ومع ذلك فقد كان هذا لطفا ظاهرا صنعه الله معهم حتى أنهم يرونه كذلك ولا يموتون (تفسير الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين جـ ١ ص ٢٥٣) ويقول جاميسون وفاوست (تفسير الانجيل. ص ١٠٦) إن ما رأوه هو رمز لمجده وبهائه كشفه لهم ورأوا عرشه مصنوعا من الياقوت الأزرق وهو أغلى أنواع الأحجار الكريمة – . ولعل هذا خير مثال يوضح نزعتهم إلى تجسيد الإله! إذ هو سبحانه وتعالى كما قرر فى قرآنه **«ليس كمثله شىء»** و **«لاتدركه الأبصار».**

كذلك تذكر التوراة أن بنى إسرائيل فى وقت لاحق شهدوا تجلى الله على الجبل وسمعوا تكليم الله لموسى. ولكن عن بعد – إذ جاء فى إصحاح خروج ١٩ : ٩ – فقال الرب لموسى ها أنا آت إليك فى ظلام السحاب لكى يسمع الشعب حينما أتكلم معك فيؤمنوا بك أيضا إلى الأبد ثم جاء ما معناه أن الله أخبره أن يأمر بنى إسرائيل بأن يتطهروا لمدة يومين «لأنه فى اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء. وتقيم للشعب حدوداً من كل ناحية قائلا احترزوا من أن تصعدوا إلى الجبل أو تمسوا طرفه» وفعلوا كما أمر الرب «وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا. فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة (أى المحل الذى كانوا نازلين فيه). وأخرج موسى الشعب من المحله لملاقاة الله. فوقفوا فى أسفل الجبل وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جدا فكان صوت البوق يزداد اشتدادا جدا. وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت. ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل. ودعا الله موسى إلى رأس الجبل. فصعد موسى فقال الرب لموسى انحدر حذر

الشعب لئلا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون فقال موسى للرب لا يقدر الشعب أن يصعد الى جبل سيناء لأنك أنت حذرتنا قائلا أقم حدودا للجبل وقدسه.

وتفسيرنا لما ذهبوا إليه من أن بنى إسرائيل شهدوا التجلى الإلهى على جبل سيناء وسمعوا صوت الرب وهو يتكلم مع نبيه موسى هو كما يلى: من المعروف أن بنى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى عاشوا طوال عمرهم فى مصر المعروفة بشمسها الدافئة وقلة مطرها وندرة الرعد والبرق. وعايشوا المصريين وهم يقدسون «رع» إله الشمس. وسمعوا من القادمين من العراق وبالذات من مناطقها الشمالية الجبلية ويكثر فيها الرعد والبرق أنهم هناك يقدسون آلهة الربوات (انظر الجزء الثانى ص ١٩٨) فوق قمم الجبال وأنها تحدث الناس وتحثهم على تقديم القرابين فى المعابد. لذلك فإن بنى اسرائيل لما كانوا فى جبال سيناء التى ترتفع عن سطح البحر بحوالى ٢٦٠٠ مترا وجبل موسى بالذات يبلغ ارتفاعه أكثر من ٢٠٠٠ مترا. وفى الشتاء يحفه الضباب وتكثر الرعود والبروق والصواعق وهو شىء لم يروه من قبل فقفزت إلى أذهانهم آلهة الربوات التى تحدث عنها القادمون من العراق وفسروا ما رأوه من أن الرب نزل بنفسه على الجبل فى وسط السحاب. أما ما يدَّعونه من سماع صوت الرب وهو يكلم موسى كصوت بوق فمن المعروف أن الريح عند اشتداد سرعتها تحدث أصواتا ولذلك يقال عواء الريح. وصوَّرت لهم خيالاتهم أنها كلام الرب مع موسى بلغة لا يفهمونها!

لا بأس من أن نأخذ هنا وقفة قصيرة لنعرف كيف وجد «دير سانت كاترين» فى هذه المنطقة من جبل موسى. ذلك أنه فى العصور المسيحية الأولى لجأ عدد من الرهبان والنساك إلى وادى فيران وبنوا مكانا للتعبد فى سفح جبل موسى وأقاموا هناك. وكان بدو سيناء كثيرا ما يغيرون على الرهبان للسلب والنهب. ولما اعتنق الامبراطور قسطنطين المسيحية قامت والدته – القديسه هيلينا بزيارة القدس عام ٣٢٧م – وعلمت بما يلاقية الرهبان فى سيناء فأمرت ببناء يقيمون فيه ليحميهم وفى عام ٥٣٠م قام الامبراطور البيزنطى جوستنيان ببناء سور قوى حول المعبد الموجود فى سفح جبل موسى. وفى العصور الوسطى بنيت كنيسة داخله وعرف المكان بدير سانت كاترين. وما هو جدير بالذكر أيضا أن عالم اللاهوت الألمانى كونستانتين فون تيشندورف عثر فى دير سيناء عام ١٨٥٩ على نسخة من الكتاب المقدس مخطوطة على الجلود – وهى المشهورة باسم « مخطوطة سينا» وترجع إلى القرن الرابع الميلادى وتحتوى على الإنجيل وأجزاء من العهد القديم. وقد أخذها القيصر كهدية وأعطى الدير منحة مقدارها ٩٠٠٠ روبل. ثم أخذت النسخة طريقها إلى مكتبة سان بطرسبرج. وفى العام ١٩٣٣ اشتراها المتحف البريطانى من الحكومة السوفيتية بمبلغ ١٠٠,٠٠٠ جنيه استرلينى.

بيت العبادة Tabernacle

لقد سبق أن ذكرنا (ص ٩٩١) أن الألواح كان بها الوصايا العشر والشريعة. ومن تعاليم الشريعة بناء بيت العبادة. وكان تنقل بنى إسرائيل الدائم فى سيناء سببا فى أن يكون بيت العبادة متنقلا. يمكن فكه عند الارتحال - وحمله أثناء المسيرة ثم إقامته فى المكان الجديد الذى ينزلون فيه. ومن أهم مكونات بيت العبادة الخيمة التى تسمى بخيمة الاجتماع ذلك أن موسى عليه السلام كان - بعد إنشائها - يناجى ربه فيها ولم يكن الوحى ينزل عليه إلا فيها ومن هنا جاءت تسميتها بخيمة الاجتماع لأنه كان يجتمع بالوحى فيها. وأطلق اسم خيمة الاجتماع على بيت العبادة بأكمله. وكان من أهم مكونات خيمة الاجتماع «المقدس» وسمى أيضا «المسكن» إذ تقول التوراة (خروج ٢٥ : ٨) إن الرب أمر : «فيصنعون لى مقدسا لأسكن فى وسطهم» وكان المسكن عبارة عن خيمة أصغر داخل خيمة الاجتماع وتحتوى على التابوت أو تابوت الشهادة - وبعض أثاث آخر سنذكره فيما بعد.

كذلك كان من مكونات بيت العبادة عند بنى إسرائيل المذبح الكهنوتى أو مذبح المحرقة - إذ كانت القرابين لا تقبل إلا إذا ذبحت عليه ولا يجوز لأحد أن يقدم ذبيحة عليه إلا الكاهن اللاوى. ولنقارن هذا بالتيسير فى شريعة الإسلام إذ أن ذبائح الصدقات أو النذور تذبح فى أى مكان وبواسطة أى شخص وتوزع على الفقراء والمحتاجين وينال مقدمها الأجر والثواب من الله وله أن يأكل جزءا منها أيضا. عن قتادة أن موسى قال لربه: رب إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ويؤجرون عليها وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق أحدهم بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها نارا فأكلتها. وإن ردت عليه تركت فتأكلها السباع والطير وأن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم رب فاجعلهم أمتى. قال تلك أمة أحمد.

أما عن تابوت الشهادة فقد حفظت فى داخله التوراة والألواح وكان بنو اسرائيل - فيما بعد - يقدمونه فى الحروب أمامهم إعلانا عن تأييد الله لهم فينتصرون. كذلك كان مما أمر به الرب صنع أبواق وكان لهذه الأبواق مهام عدة وسيجىء فى الجزء الخامس إن شاء الله دورها فى فتح مدينة أريحا. إذ تقول التوراة إن هذه المدينة لما استعصت عليهم ظلوا يضربون الأبواق سبعة أيام متواصلة فسقطت أسوار المدينة وتم لهم فتحها.

لذلك فقد رأينا لزاما أن نذكر شرحا مبسطا عن هذه الأمور كلها. غير أنه يتعين أن نناقش أولا التشابه الموجود بين بعض الطقوس الدينية التى نصت عليها التوارة وبعض الطقوس التى كانت تقام فى معابد مصر الفرعونية. الأمر الذى جعل البعض يشك فى أنها من التعاليم الدينية التى أنزلت على موسى وجعلت عالما مثل سيجموند فرويد يقول إن الديانة الموسوية مشتقة من ديانة أخناتون.

كما أن أونجر (قاموس الكتاب المقدس ص ١٠٢٩) يرى أن تأثر بني إسرائيل بالفكر الديني المصرى القديم بدأ منذ اللحظات الأولى لقدومهم إلى مصر وأن ذلك بدأ بيوسف الصديق نفسه إذ زَوَّجه فرعون من أسنات بنت كاهن أون (الجزء الثالث ص ٤٩٠) وأنه تعبيرا عن الاحترام الذى كان يكنه للكهنة فإنه في السنوات السبع العجاف لم يمس ممتلكاتهم. كما يرى أن يوسف – رغبة فى تثقيف نفسه – بدأ يتردد على كليات اللاهوت المقامة فى المعابد ومن هنا تسرب الفكر الدينى الفرعونى إلى ديانة بنى إسرائيل. ولكننا لا نرى هذا الرأى. وإن كان يوسف قد تردد على معابد قدماء المصريين فقد كان ذلك «بحكم وظيفته» لمعرفة احتياجاتهم من الحبوب والمؤن. ولئن حضر أحيانابعض الاحتفالات الدينية فبصفته «نائب الملك» وليس بغرض تثقيف نفسه . إذ هو نبى كريم يوحى إليه من ربه – وهو القائل عن نفسه لصاحبى السجن: «ذلكما مما علمنى ربى» وليس لمن علمه ربه أن يستزيد من منهل آخر. فضلا عن أن يكون هذا المنهل الآخر هو الثقافة الوثنية لقدماء المصريين. وقد سبق أن ذكرنا (جـ٣ ص ٥٦٣) تأثر الفكر المصرى القديم بديانة التوحيد التى كان عليها يوسف إذ من المؤكد أنه جعل زوجته تؤمن بديانة التوحيد التى كان عليها وهى ديانة يعقوب وإسحق وإبراهيم عليهم السلام. وقلنا إن فكر التوحيد بدأ يتسرب إلى المصريين أنفسهم وأن ذلك كان له أثر فى نشأة ديانة أخناتون التوحيدية فيما بعد.

غير أنه فى المقابل – وعلى مر السنين بعد عصر يوسف عليه السلام – تأثر بنو إسرائيل بالفكر الدينى المصرى القديم وعلى مدى ما يزيد عن أربعة قرون تشبعوا بما كانوا يرونه من طقوس تقام فى معابد آلهة المصريين. وأعجبوا بملابس الكهنة الزاهية الألوان فتوهموا أن هذه الطقوس جزء مكمل أو من مستلزمات الدين وأصبح فى تصورهم أن عبادة الرب لا تكون إلا بمثل هذه «الشكليات». ولما كان الأمر كذلك وتغلغل فى قلوبهم حب هذه الطقوس فقد نزل بها الوحى وجعلها فريضة عليهم. وسنرى أن ذلك كان شبه عقوبة لهم لأنها كانت عملية غاية فى الصعوبة سواء فى صنع مكوناتها أو فى ممارساتها. فالكاهن له لباس معين والكاهن الأعظم له لباس آخر مكون من رداء وجبة وصدرة مرصعة بالأحجار الكريمة والملابس مكلفة إذ هى موشاة بالذهب. ولكن ألم تكن هذه رغبتهم! وحينما صعب عليهم التقيُّد بكثير من هذه الشرائع كان لابد من إجبارهم عليها. فكان نتق الجبل فوقهم والتهديد بوقوعه عليهم كما سيجىء فيما بعد (ص ١٠٢٨). ونقارن هذا بالبساطة التى يتسم بها الإسلام. فليس فيه كهنة ولا ثياب معينة وإمام المصلين يمكن أن يلبس جبة أو جلبابا أو قفطانا أو بدلة وصلاته وصلاة من يؤمهم مقبولة. وحتى لا يشترط أن تكون الصلاة فى المسجد بل الصلاة جائزة فى أى مكان والحديث الشريف: جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا. ولعلنا الآن ندرك معنى الدعاء الذى ورد فى القرآن الكريم «ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا».

وعلى كل حال فإن هذه الطقوس التى فرضت على بنى إسرائيل لم تكن تمس جوهر الدين وهو التوحيد المنصوص عليه فى أول الوصايا العشر: أنا الرب إلهك. لا يكن لك آلهة أخرى. لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا تسجد لها ولا تعبدها لأنى أنا الرب إلهك.

والآن لنتذكر ما جاء فى التوراة بخصوص إنشاء بيت العبادة (خروج ٢٥): وكلم الرب موسى قائلا : كلم بنى إسرائيل أن يأخذوا لى تقدمة (أى ما يقدمونه. أى تبرع) من كل من يحثه قلبه تأخذون تقدمتى: ذهب وفضة ونحاس وأسمانجونى (حجر كريم يشبه الياقوت لونه أزرق ضارب إلى الحمرة) وأرجوان (لون صباغة يشمل البنفسجى والقرمزى أو الأحمر) وقرمز وبوص. وشعر معزى وجلود كباش وجلود تُخسْ (حيوان) وخشب سنط وزيت للمنارة وأطياب لدهن المسحة وللبخور العطر وحجارة جزع وحجارة ترصيع للرداء والصدرة. فيصنعون لى مقدسا **لأسكن فى وسطهم** بحسب ما أريك من مثال المسكن ومثال جميع آنيته هكذا تصنعون ويصنعون تابوتا من خشب السنط وفى التابوت تضع الشهادة التى أعطيك (ولذلك سمى تابوت الشهادة أو تابوت العهد) وتصنع غطاء للتابوت وتصنع الخيمة. **وأنا أجتمع بك هناك وأتكلم معك** من على الغطاء من بين الكروبين (تمثالى الملاكين) اللذين على تابوت الشهادة بكل ما أوصيك به إلى بنى إسرائيل. وتصنع مائدة ومسكن وحجاب ومذبح.

لا ندرى إن كان اختيار الصناع قد أوحى به من الله أم أنه كان فراسة من موسى عليه السلام ولكن التوراة تقول: وقال موسى. قد دعا الرب بصلئيل بن أورى بن حور فى سبط يهوذا وملأه من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعة ولاختراع المخترعات ليعمل فى الذهب والفضة والنحاس. ونقش حجارة للترصيع ونجارة الخشب وجعل فى قلبه هو وأهولياب بن أخيساماك من سبط دان ليصنعا كل عمل النقاش والحائك الحاذق والطراز وكل عمل النساج. وجاء كل الحكماء الصانعين كل عمل المقدس كل واحد من عمله الذى هم يصنعونه (خروج ٣١ ، ٣٥).

خيمة الاجتماع Tent of Meeting

وهى تحوى ثلاثة أشياء المسكن – الخيمة – الغطاء:

المسكن مصنوع من البوص المبروم المطرَّز (أى المشغول مثل الحصير) ملَوَّن بلون أسمانجونى (أزرق شديد الزرقة) على لون أرجوانى بالإضافة إلى ألواح من خشب السنط للسقف وكل الألواح مغطاة بالذهب. ولألواح الجوانب قواعد من فضة ترتكز عليها. والمسكن ينقسم إلى **المقدس و قدس الأقداس** وبينهما ستارة تسمى الحجاب من بوص مبروم منسوج مثل الحصير بلون اسما نجونى و٤ أعمدة تحمله مطلية بالذهب – والمقدس فى الأول ويحتوى على المنارة على اليسار. ومائدة خبز الوجوه على اليمين ومذبح البخور فى الوسط يلى ذلك الحجاب ثم قدس الأقداس وبه التابوت المسمى تابوت الشهادة.

وسنكتفى بالأشكال ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩ التى تبين أبعاد بيت العبادة وارتفاع السور وعدد الأعمدة وطريقة تثبيتها فى الأرض. وكل ذلك جاء بالتفصيل الشديد فى التوراة فى ثلاثة إصحاحات (خروج ٢٥، ٢٦، ٢٧).

والخيمة فوق المسكن جوانبها من بوص مبروم منسوج مثل الحصير أما السقف فمصنوع من شعر الماعز. ويأتى الغطاء فوق الخيمة وهو مصنوع من جلود والكباش والتيوس لوقايتها من الشمس والمطر (شكل ٢٥٩ ب).

تابوت العهد : Ark of the Covenant, (شكل ٢٦٠)

جاء ذكر التابوت مرتين فى القرآن الكريم. مرة التابوت التى وضعت أم موسى فيه وليدها وألقته فى اليم وكان مصنوعا من البوص – أما تابوت العهد فقد جاء ذكره عندما طلب بنو إسرائيل من نبى لهم أن يجعل لهم ملكا فاختار لهم – بإيحاء من الله – طالوت:

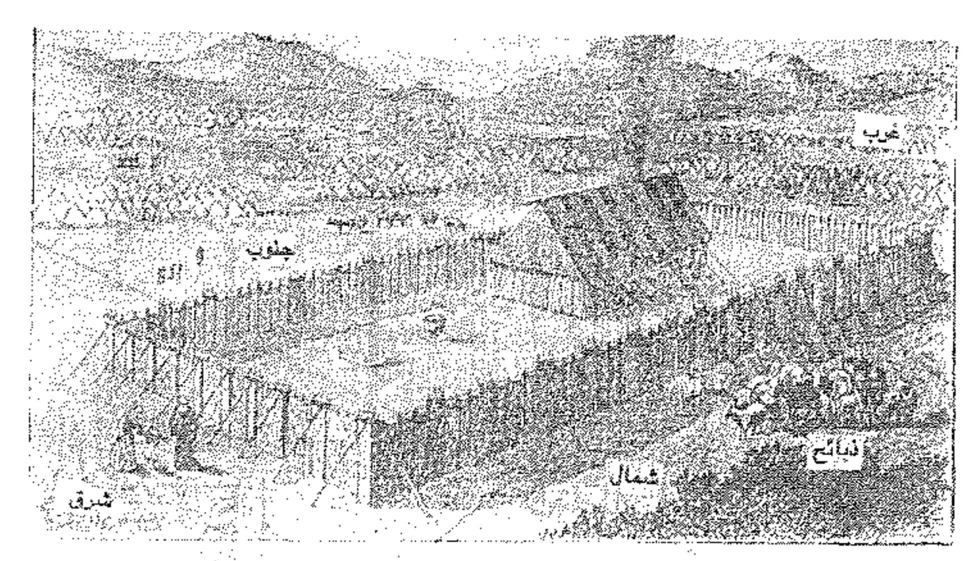
«وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة». (٢٤٨ – البقرة)

وسيأتى ذكر ذلك فى الجزء الخامس إن شاء الله. وكان هذا التابوت عبارة عن صندوق صنعه موسى عليه السلام بإرشاد من الله تعالى. طوله ٥ر٢ وعرضه ٥ر١ وارتفاعه ٥ر١ ذراعا (شكل ٢٦٠). وكان مصنوعا من خشب السنط ومغطى بصفائح ذهب نقى من داخل ومن خارج ويحيط بأعلاه إكليل من ذهب فوقه غطاء من ذهب نقى وفوق كل طرف من الغطاء كروب من ذهب – والكروب هو تمثال ملاك. ويرى أهل الكتاب أن وجود الكروبين فوق التابوت هو لتظليل ظهور مجد الله عن الناظر (قاموس الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين . ص ٧٧٩) ويمثل الكروبان حضور الرب وسكناه بين الكروبين وإعلان صوته من بينهما وهناك يجتمع مع الشعب (المرجع السابق ص ٢٠٩). وكان فى التابوت الوعاء الذى يحتوى على المن. والألواح (ألواح العهد) ثم وضع بجانبها. عصا هارون التى أفرخت (وسيأتى شرح ذلك فيما بعد. ص ١٠٥٥) ثم كتاب التوراة وكذلك عصا موسى. وكان للتابوت حلقتان من ذهب فى كل جانب يوضع فيهم عصوان من خشب السنط المغطى بالذهب لحمل التابوت.

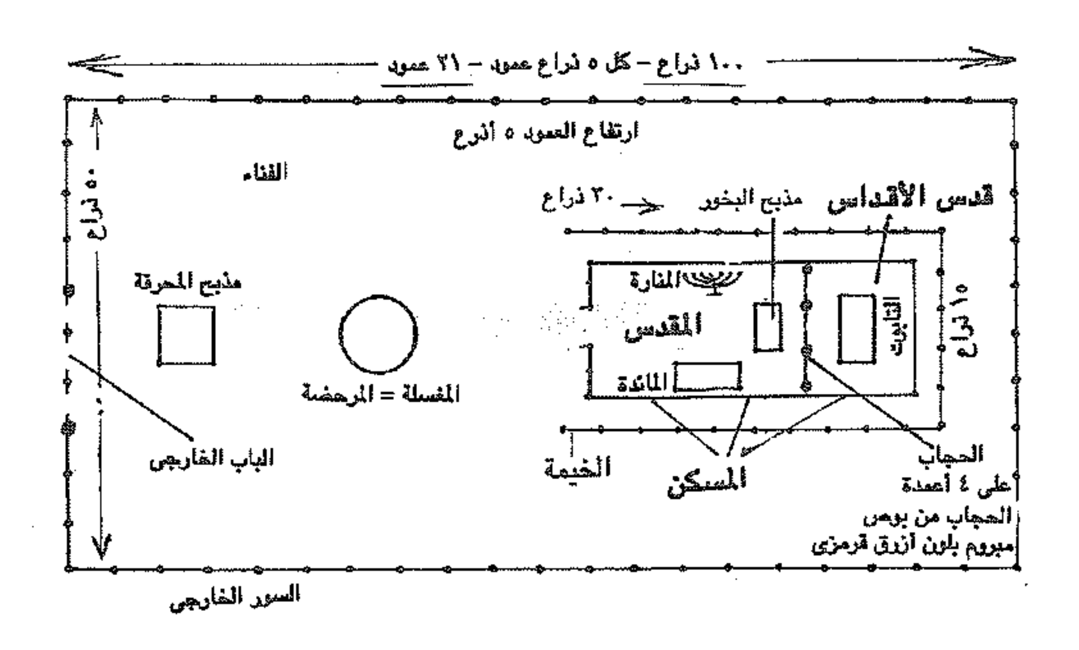
والتابوت هو الأثاث الوحيد الموجود فى قدس الأقداس أما خارج الحجاب فيوجد داخل المسكن ثلاثة أشياء: مائدة خبز الوجود والمنارة ومذبح البخور.

مائدة خبز الوجود أو الوجوه : Table of the Bread of the Presence

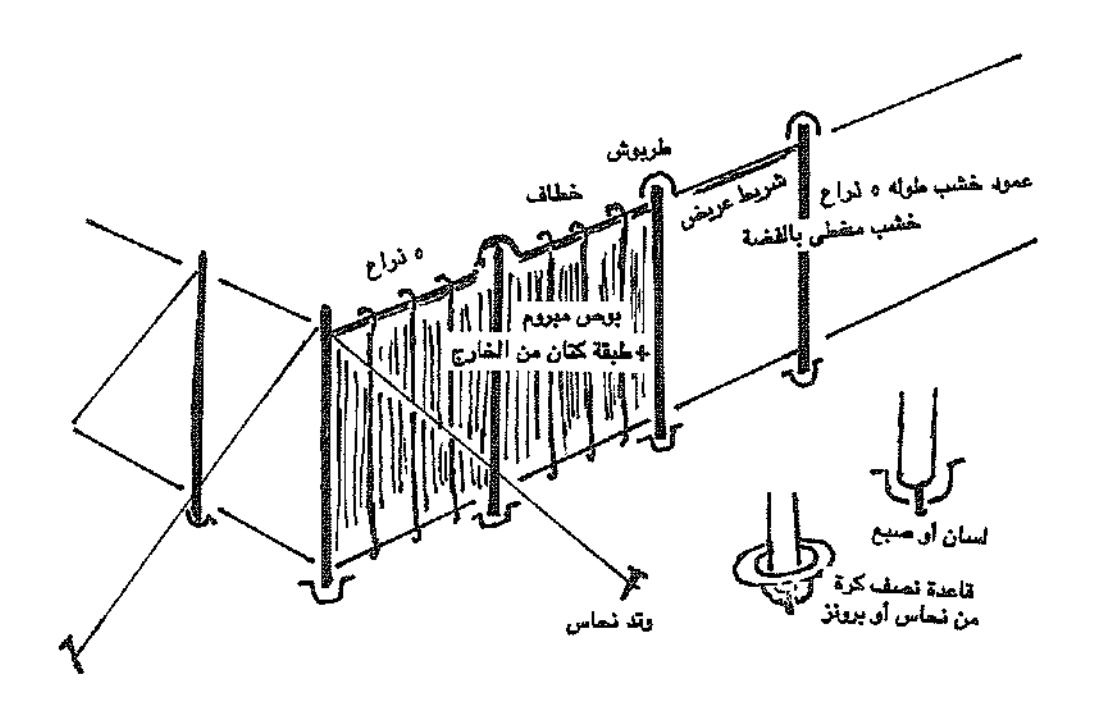
وهى مصنوعة من خشب السنط ومغطاة بالذهب النقى وطول المائدة ذراعان وعرضها ذراع واحد وارتفاعها ١,٥ ذراعا (شكل ٢٦١) ولها حاجب (حاجز) من ذهب بعرض شبر حواليها وفى كل ركن من الأركان يوجد إكليل من ذهب. ولها فى كل زاوية حلقة من ذهب ولها عصوان



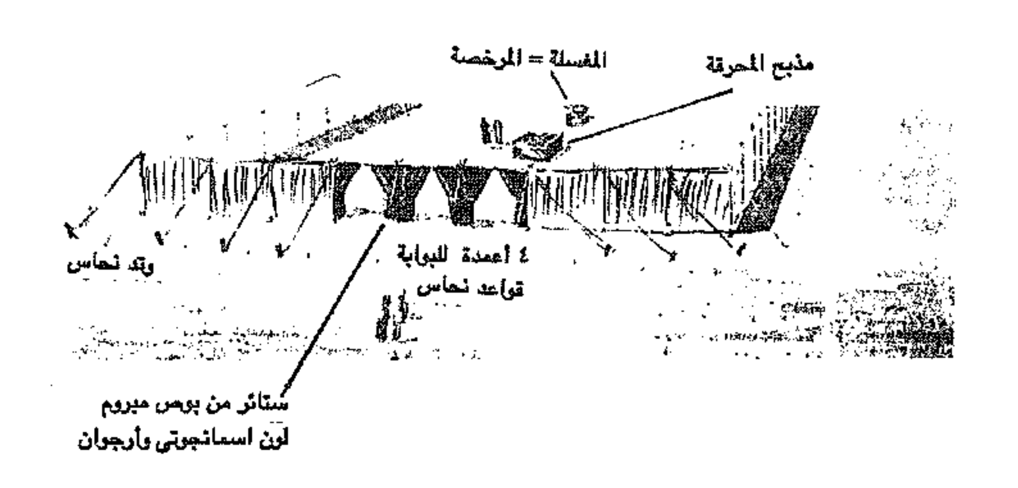
شكل ٢٥٦ أ – الخيمة والساحة حولها والسور الخارجي والذبائح بقربها ثم مساكن جموع بني إسرائيل.



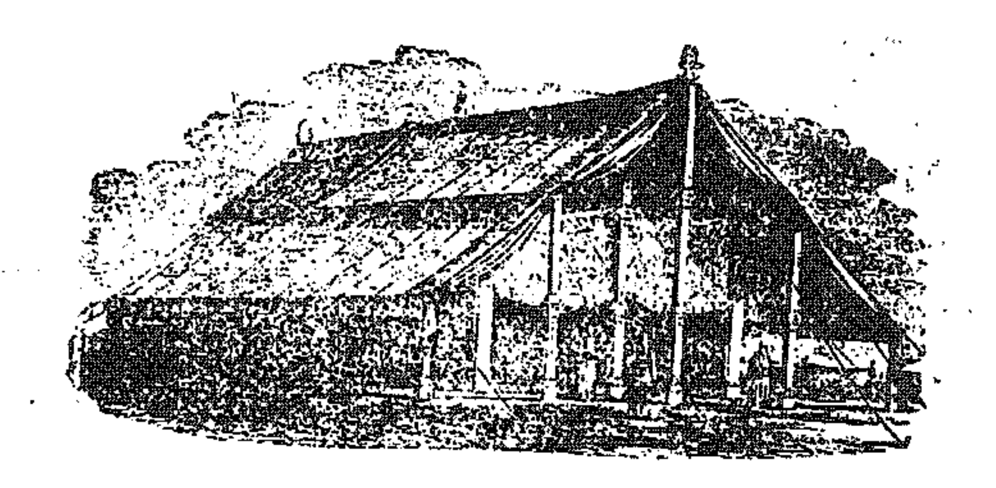
شكل ٢٥٦ ب رسم تخطيطي لبيت العبادة.



شكل ٢٥٧ – السور الخارجي لخيمة الاجتماع.



شكل ٢٥٨ – الباب الخارجي.



شكل ٢٥٩ أ – المسكن داخل خيمة الاجتماع.

نقلا عن قاموس الكتاب المقدس ، دار الثقافة ، ص ٣٥٢

الخيمة شعر ماعز

جلد كباش وتيوس
الغطاء بدون جوانب

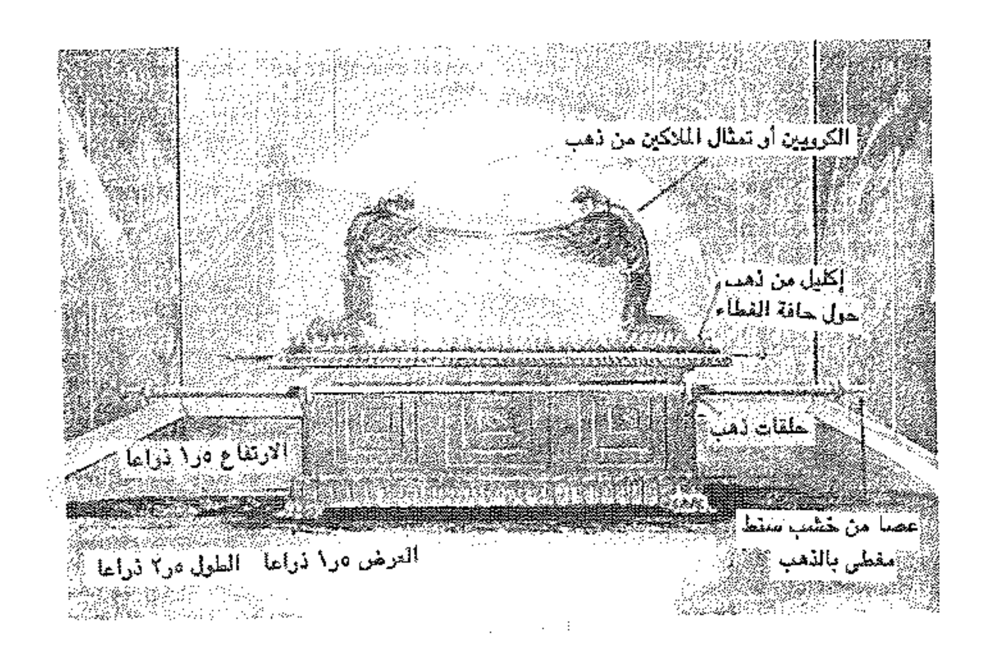
المسكن
الواح خشب

قواعد نحاس

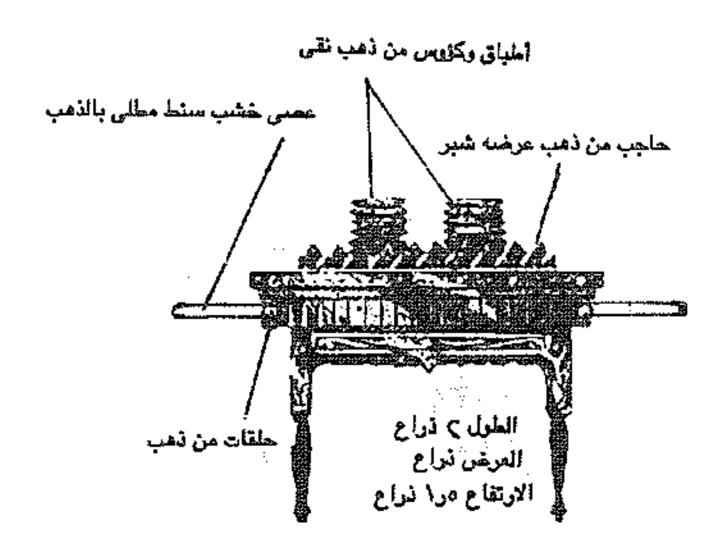
باب المسكن ستارتين

جوانب الخيمة
بوص مبروم منسوج مثل الحصر

شكل ٢٥٩ ب – قطاع رأسي.



شكل ٢٦٠ – تابوت العهد.



شكل ٢٦١ – مائدة خبز الوجوه
(كلها من خشب سنط مغطى بالذهب).

من خشب السنط المغطى بالذهب لحمل المائدة. ومكان المائدة على يمين الداخل إلى المقدس فى خيمة الإجتماع. أما أدوات المائدة التى توضع عليها فكانت عبارة عن صحاف وأكواب وكؤوس وإبريق كلها من الذهب الخالص. أما الخبز الذى كان يوضع عليها والذى سميت باسمه فهو خبز القطير الذى كان يصنع كل يوم سبت ويقدم على المائدة ساخنا وكان يُقدم منه ١٢ رغيفا بعدد الأسباط الاثنى عشر. ولم يكن يحل لأحد أن يأكل منها إلا الكهنة وهم فى المقدس. وكان بنو قهات هم الذين يصنعون هذا الخبز ويهيئونه كل يوم سبت. ويقول قاموس الكتاب المقدس (جماعة اللاهوتيين. ص ٣٣٦) إن الأرغفة الإثنى عشر ترمز إلى صلة مستمرة بين يهوه وبين شعبه فهو واهب المنح والخيرات التى يستمتعون بها فى حضرته ويستخدمونها لخدمته.

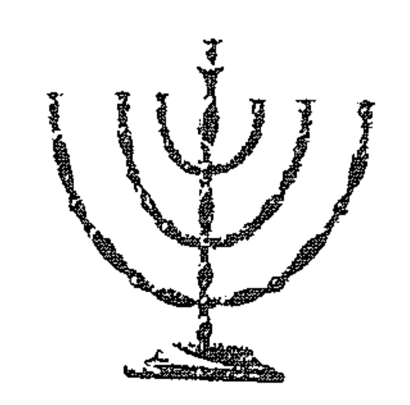
المنارة Lampstand (شكل ٢٦٢) :

وتوضع على يسار الداخل فى مقابل المائدة وهى مصنوعة من الذهب الخالص. وتتكون من قاعدة وعمود أوسط ويخرج من كل جانب ثلاث شعب أو أفرع مقوسة ترتفع بارتفاع العمود الأوسط. وينتهى كل منها بكأس صغير هو السراج حيث يوضع زيت الزيتون النقى وكل سراج يسع $\frac{1}{2}$ لتر زيتاً تقريبا. ويتم إيقاد المنارة فى العشية عند تقديم قربان المساء وفى الصباح يتم ملؤها بالزيت وقت تقديم قربان الصباح. ومن مكملات المنارة ملاقط وأحواض تستعمل لأخذ قطع الفحم من المذبح لوضعه بجانب فتيل القطن والنفخ فيه حتى يشتعل نارا لإيقاد سرج المنارة.

مذبح البخور Altar of Incense (شكل ٢٦٣) :

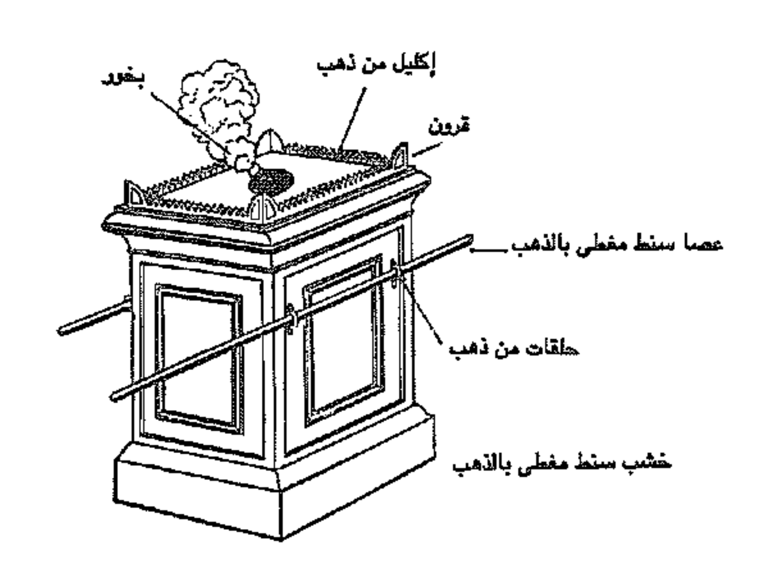
ويوضع فى نهاية المقدس فى الوسط قبل الحجاب الذى يؤدى إلى قدس الأقداس. وهو مصنوع من خشب السنط وأبعاده ١ × ١ ذراعا وارتفاعه ذراعان وسطحه وجدرانه كلها مغطاة بذهب نقى. وله من فوق إكليل حلية من ذهب وقرون فى الزوايا. وفى الأركان توجد ٤ حلقات من ذهب وعصوان مغطاتان بالذهب لحمله. وقد شرحت التوراة (خروج ٣٠ : ٣٤) طريقة صنع البخور: وقال الرب لموسى: خذ لك أعطارا: ميعة وأظفاراً وقنَّة عطرة ولبانا نقيا. تكون أجزاء متساويه وتصنعها بخورا عطرا صنعة العطار مُملَّحا نقيا مقدَّسا وتسحق منه ناعما وتجعل منه قدام الشهادة فى خيمة الاجتماع حيث أجتمع بك. قدس أقداس يكون عندكم والبخور الذى تصنعه على مقاديره لا تصنعوا لأنفسكم. يكون عندك مقدسا للرب. كل من صنع مثله ليشمَّه يقطع من شعبه.

وكان هارون هو المكلف بوضع البخور على المذبح وكان وقت البخور هو فى الصباح عند إطفاء المنارة ، وفى المساء عند إيقادها. ومن شعائر عيد الغفران أن يدخل الكاهن الأعظم إلى قدس الأقداس بمبخرة قد أُخذت نارها من مذبح البخور ثم يلقى عليها بالبخور ويدخل بها قدس الأقداس كما جاء فى التوراة (لاويين ١٦ : ١٢): ويأخذ ملء المجمرة جمر نار عن المذبح



شكل ٢٦٢ – المنارة.

نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس . أونجر . ص ١٢٤٢



شكل ٢٦٣ – مذبح البخور.

نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس . أونجر . ص ١٢٤٢

من أمام الرب وملء راحتيه بخورا عطرا دقيقا ويدخل بهما إلى داخل الحجاب ويجعل البخور على النار أمام الرب فتغشى سحابة البخور الغطاء الذى على الشهادة. وهذه أيضا أحد شعائر ذبيحة الخطيّة التى تُقدم للتفكير عن الذنوب.

والمباخر الصغيرة (شكل ٢٦٤) كثيرة الشكل ولكل كاهن مبخرته. وتصنع من النحاس أو البرونز

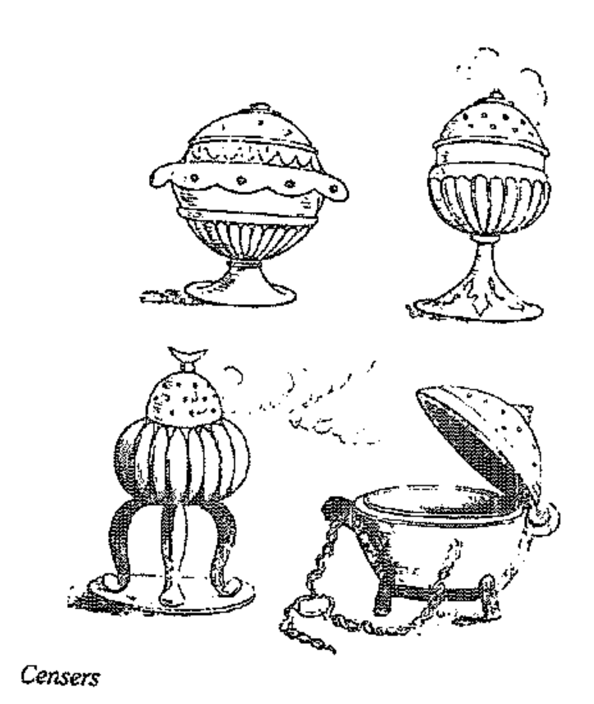
المغسلة أو المرحضة Laver (شكل٢٦٥).

وكما جاء فى التوراة (خروج ٣٠ : ١٧) وكلم الرب موسى قائلا: وتصنع مرحضة من نحاس وقاعدتها من نحاس للاغتسال وتجعلها بين خيمة الاجتماع والمذبح وتجعل فيها ماء. فيغسل هارون وبنوه أيديهم وأرجلهم منها عند دخولهم إلى خيمة الاجتماع يغسلون بماء لئلا يموتوا. أو عند اقترابهم إلى المذبح للخدمة ليوقدوا وقودا للرب يغسلون أيديهم وأرجلهم لئلا يموتوا. ويكون لهم فريضة أبدية له ولنسله فى أجيالهم.

مذبح المحرقة Altar of Burnt Offering (شكل ٢٦٦، ٢٦٧).

وكان يوضع فى أول الفناء بعد المدخل الرئيسى وكان مصنوعا من خشب السنط وأبعاده ٥ × ٥ ذراعا وارتفاعه ٣ أذرع. وهو مجوف ومغطى بصفائح من نحاس. وله قرون على زواياه الأربع مصنوعة من الخشب ومغطاة بالنحاس أيضا. وكانت معلّقة به من الداخل فى منتصف المسافة من القاع للسطح شبكة من النحاس لوضع النار عليها وشبكة من أعلا لوضع القربان المحرقة عليها. وللمذبح ٤ حلقات من نحاس يدخل فى كل اثنتين منها عصا من خشب السنط (مغطاة بالنحاس) لحمله. أما نار المذبح فتقول التوارة إن الله قد أشعلها فى البداية فى أول مرة قدمت فيها ذبيحة محرقة ثم استمرت مشتعلة لا تنطفى لأن الذبائح كانت تقدم بدون انقطاع فينسكب دمها على النار دائما ويتصاعد الدخان بصفة متواصلة. وإن كنا نرى أنه أثناء انتقال بنى إسرائيل من مكان إلى مكان آخر وعند حمل المذبح لابد سيكون مطفأ إذ من الصعب حمله وهو مشتعل. وعن أول اشتعال له تقول التوراة (لاويين ٩: ٢٢) ثم رفع هارون يده نحو الشعب وباركهم وانحدر من عمل ذبيحة الخطية والمحرقة وذبيحة السلامة ودخل موسى وهارون إلى خيمة الاجتماع ثم خرجا وباركا الشعب فتراءى مجد الرب لكل الشعب وخرجت نار من عند الرب وأحرقت ما على المذبح المحرقة والشحم فرأى جميع الشعب وهتفوا وسقطوا على وجوهم.

وملحقات المذبح من القدور والمناشل (قطعة من معدن فى رأسها خطاف ينشل بها اللحم من القدور) ومجامر (الوعاء الذى يوضع فيه البخور) ومراكن (جمع ركوة وهى الدلو الصغير) كل هذه مصنوعة من نحاس.



Censers

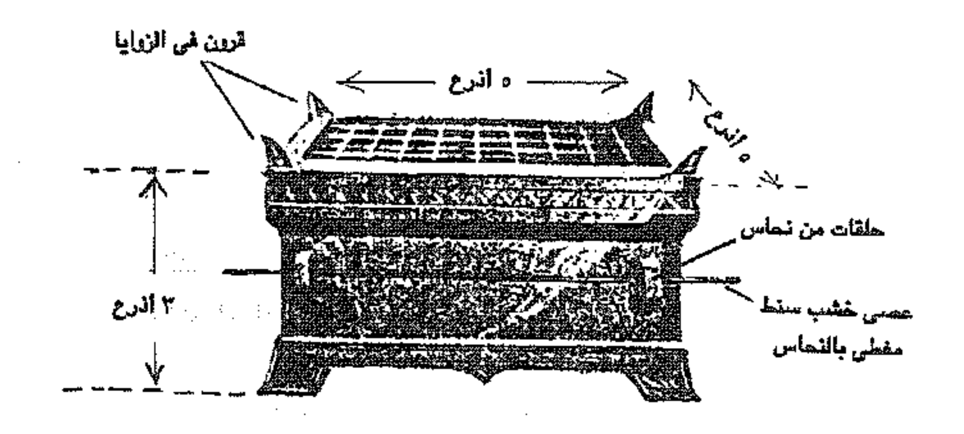
شكل ٢٦٤ – مباخر صغيرة.

نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس ـ أونجر ـ ص ٦١٦



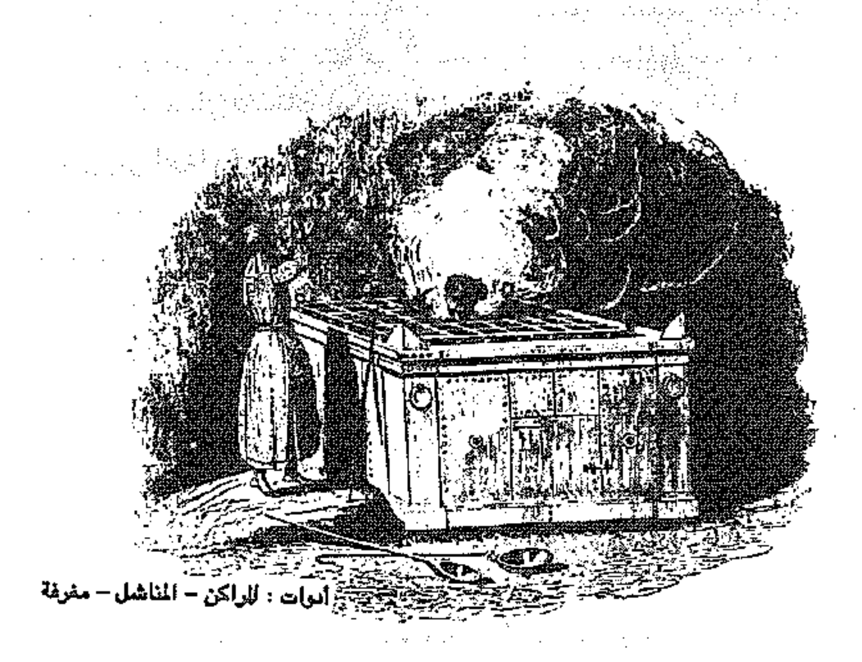
شكل ٢٦٥ – المغسلة (المرحضة).

نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس ـ أونجر ـ ص ٧٥٨



شكل ٢٦٦ – مذبح المحرقة (خشب سنط مغطى بالنحاس من داخل وخارج).

نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس ، أونجر ، ص ٤٨



شكل ٢٦٧ – كاهن أمام مذبح المحرقة.

نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس ، أونجر ، ص ١١٠٥

الكهنة وثيابهم :

في الشريعة التي أنزلت على بني إسرائيل يُختار الكهنة من سبط لاوى وبالذات من عائلة هارون بشرط ألا يكون في الشخص المختار أي عيب أو تشويه جسدي، وكان البكر فقط يمكنه أن يكون كاهنا عظيما. وكان الكاهن يتقيد في حياته ومعيشته بقواعد لم تكن تفرض على غيره من اللاويين أو من عامة الشعب، وقد عُين هارون كاهنا أعظم في احتفال رسمي كما سيجيء فيما بعد (ص ١٠٢٤).

وكانت واجبات الكهنة هي الذبائح اليومية والأسبوعية والشهرية والسنوية وعدا ذلك فإنهم يخدمون في الاحتفالات والتطهير ويعتنون بالآنية المقدسة والنار المقدسة وأثاث المقدس، وكانوا يطلقون الصوت في الأبواق المقدسة ويحملون تابوت العهد ويُفسرون الشريعة للشعب ويقومون باستشارة الرب لمعرفة إرادته في الأمور الكهنوتية أو بعض الأمور السياسية. وكان تعيين الكاهن وتقديسه يحتفل به احتفالا عظيما يدوم سبعة أيام ويجرى تقديم الذبائح والاغتسال ولبس الثياب المقدسة ونضح الدم والدهن والزيت.

أما ثياب الكهنة فقد حددتها التوارة وتختلف حسب رتبة الكاهن فالكاهن العظيم له ثياب معينة (شكل ٢٦٨) تختلف عن الكاهن العادى (شكل ٢٦٩). وأول الثياب هو **قميص** من كتان يمتد من العنق إلى الكعبين وأكمام ضيقة (شكل ٢٧٠) وفوق القميص **جبة الرداء** (Robe of the Ephod) وهي بدون أكمام وفتحتها في الوسط من الأمام وحوافها مطرزة حتى لا تنسل. وذيل الجبة من أسفل محلى برمانات (من قماش) وجلاجل من ذهب على التوالي.

ثم نأتي إلى **الرداء** Ephod (شكل ٢٧١) وهو مصنوع من كتان منسوج ومُحلًّى بخيوط من ذهب وأسمانجوني وهو مكون من قطعتين قطعة أمامية وقطعة خلفية تصلان إلى ما تحت الركبة بقليل. والقطعتان موصولتان على الأكتاف بخيوط من كتان مجدول بالذهب ويوجد حجرين من العقيق اليماني، واحد على كل كتف منقوش على كل واحد أسماء ٦ من الأسباط تذكرة لهارون بأنه يمثل الأسباط الإثني عشر. ويوجد حزام أو **منطقة** يربط على الخصر ثم تأتي بعد ذلك **الصدرة** وتسمى أيضا صدرة القضاء (شكل ٢٧٢) وكانت تصنع من الكتان الموشى بالذهب، وأبعادها شبر في شبر وهي مثنية (قطعان مطبقتان) ومرصعة بأربعة صفوف من أنواع مختلفة من الحجارة الكريمة. في كل صف ثلاثة أحجار والمجموع ١٢ حجرا على كل حجر اسم من أسماء الأسباط الاثنى عشر. وفي كل ركن حلقة من ذهب تثبت من أعلى بضفائر مجدولة من ذهب إلى الرداء عند الكتفين ومن أسفل بشرائط زرقاء اللون تثبت في الرداء فوق الحزم وهكذا فإن الصدرة مثبتة في الرداء لا تنزع عنه. والصدرة يلبسها الكاهن الأعظم فقط. ثم أخيرا **غطاء الرأس**: وهي إما إكليل (أي تاج) من الذهب للكاهن الأعظم أو قلنسوة (مثل العمامة) بلون أزرق للكهنة الآخرين .



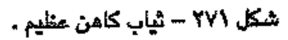
شكل ٢٦٩ – كاهن عادى. *Jewish priest*
نقلا عن القاموس الجديد للكتاب
المقدس . أونجر . ص ١٠٣٤

شكل ٢٦٨ – كاهن عظيم *Jewish high priest*
نقلا عن القاموس الجديد للكتاب
المقدس . أونجر . ص ١٠٣٠

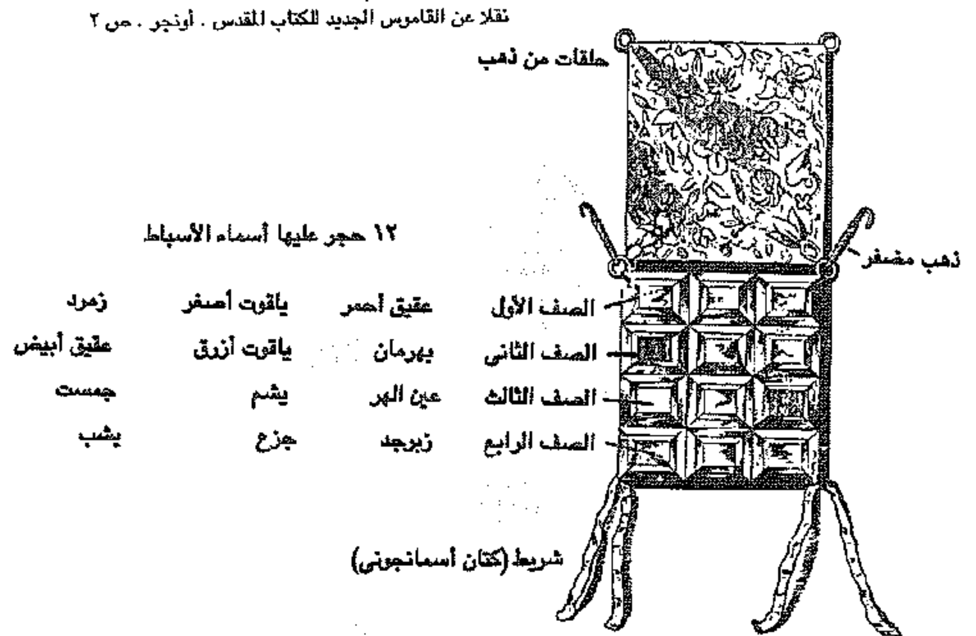


Long coat worn by priests

شكل ٢٧٠ – قميص الكهنة.
نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس . أونجر . ص ١٠٣٧



شكل ٢٧١ – ثياب كاهن عظيم .
نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس . أونجر . ص ٢



شكل ٢٧٢ – صدرة القضاء . نقلا عن القاموس الجديد للكتاب المقدس . أونجر . ص ١٠٢٩

التدشين والافتتاح : (خروج ٤٠)

تقول التوراة إن الرب أمر موسى أن يقيم المسكن وخيمة الاجتماع ويضع فيها تابوت الشهادة ويستره بالحجاب ثم يضع المائدة والمنارة والمذبح ويوقد سرج المنارة ثم تأتى عملية التقديس أى المسح بالدهن: فيأخذ دهن المسحة ويمسح المسكن وكل ما فيه ومذبح المحرقة والآنية والمائدة وباقى المحتويات. وتستمر التوراة (٤٠ : ١١) وتُقدِّم هارون وبنيه إلى باب خيمة الاجتماع وتغسلهم بماء وتلبس هارون الثياب المقدسة وتمسحه وتقدسه ليكهن لى. وتُقدِّم بنيه وتلبسهم أقمصة. وتمسحهم كما مسحت أباهم ليكهنوا لى ففعل موسى بحسب كل ما أمره الرب. هكذا فعل. وكان فى الشهر الأول من السنة الثانية فى أول الشهر أن المسكن أقيم أى أن بنى إسرائيل كانوا قد مضى عليهم فى سيناء للآن سنة كاملة. ثم يشرحون كيف كان الرب يقرر لهم مدة البقاء فى المكان الذى يحلون فيه وموعد الرحيل هكذا (خروج ٤٠ : ٣٤) ثم غطت السحابة خيمة الاجتماع وملأ بهاء الرب المسكن فلم يقدر موسى أن يدخل خيمة الاجتماع لأن السحابة حلت عليها وبهاء الرب ملأ المسكن. وعند ارتفاع السحابة عن المسكن كان بنو إسرائيل يرتحلون فى جميع رحلاتهم وإن لم ترتفع السحابة لا يرتحلون إلى يوم ارتفاعها لأن سحابة الرب كانت على المسكن نهارا وكانت فيها نار ليلا أمام عيون كل بيت إسرائيل فى جميع رحلاتهم. وفى المكان حيث حلت السحابة هناك كان بنو إسرائيل ينزلون. حسب قول الرب كان بنو إسرائيل يرتحلون وحسب قول الرب كانوا ينزلون. جميع حلول السحابة على المسكن كانوا ينزلون. وإذا تمادت السحابة على المسكن أياما كثيرة كان بنو إسرائيل يحرسون حراسة الرب ولا يرتحلون (عدد ٩ : ١٨).

ثم كُلِّف كل سبط بتقديم قرابينهم بواسطة الرؤساء أمام المذبح فى كل يوم سبط. والقربان يتكون من طبق واحد من فضة ومنفحة (مثل القصعة) من فضة كلتاهما مملوءتان دقيقا ملتوتا بزيت وصحن واحد مملوء بخورا وثور واحد وكبش واحد وخروف واحد وتيس واحد. هذه لذبيحة الخطية. ولذبيحة السلامة ٢ ثور ٥ كبش ٥ تيس ٥ خروف.

وهكذا تقدم فى اليوم الأول سبط يهوذا بهذا القربان واليوم الثانى سبط يساكر والثالث زبولون - ٤ - رأوبين ٥ - شمعون ٦ - جاد ٧ - سبط أفرايم ٨ - سبط منسى ٩ - سبط بنيامين ١٠ - سبط دان ١١ - سبط أشير ١٢ - سبط نفتالى. وبهذا كملت شعائر تدشين بيت العبادة وخيمة الاجتماع.

وفى ١٤ من ذلك الشهر - أى بعد يومين من انتهاء الأسباط من تقديم القرابين - حل موعد الاحتفال بعيد الفصح وأمر الرب موسى بإقامته فى وقته «فكلم موسى بنى إسرائيل أن يعملوا الفصح فعملوا الفصح فى اليوم الرابع عشر من الشهر بين العشاءين حسب كل ما أمر الرب.. (عدد ٩ : ٢).

تنصيب هارون عليه السلام كاهنا أكبر لبني إسرائيل :

تم تنصيب هارون عليه السلام كاهنا أكبر لجماعة بنى إسرائيل فى احتفال علنى أقامه موسى أمام خيمة الاجتماع. تقول التوراة (لاويين ٨): وكلم الرب موسى قائلا: خذ هارون وبنيه معه والثياب ودهن المسحة وثور الخطية والكبشين وسل الفطير واجمع كل الجماعة إلى باب خيمة الاجتماع. ثم قال موسى للجماعة هذا ما أمر الرب أن يفعل. فقدم موسى هارون وبنيه وغسلهم بماء وجعل عليه القميص ونطقه بالمنطقة وألبسه الجبة وجعل عليه الرداء وشد زنار (حزام) الرداء. ووضع عليه الصدرة ووضع العمامة على رأسه ووضع على العمامة صفيحة الذهب الإكليل المقدس كما أمر الرب. ثم أخذ موسى دهن المسحة ومسح المسكن وكل ما فيه ونضح على المذبح سبع مرات وجميع آنيته والمرحضة (أى المغسلة) وقاعدتها لتقديسها وصب من دهن المسحة على رأس هارون ومسحه لتقديسه. ثم قدم موسى بنى هارون وألبسهم أقمصة ونطقهم بمناطق وشدَّ لهم قلانس كما أمر الرب. ثم جيء بثور الخطية (أى ثور قربان للتكفير عن الخطايا) ووضع هارون وبنوه أيديهم على رأسه وذبحه موسى وأخذ من دمه ومسح المذبح. وأخذ الشحم الذى على الأحشاء وأوقده على المذبح أما الجلد واللحم والفرث فتم إحراقها خارج المحلة. ثم جيء بكبش المحرقة ووضع هارون وبنوه أيديهم على رأس الكبش وذبحه موسى ورش الدم على المذبح وتم حرق الكبش كله. ثم جيء بكبش ثان هو كبش الملء وأيضا وضع هارون وبنوه أيديهم على رأسه وذبحه موسى وأخذ موسى من دمه وجعل على شحمة أذن هارون اليمنى وعلى إبهام يده اليمنى وعلى إبهام رجله اليمنى وكذلك فعل مع بنيه ثم رش الدم على المذبح. أما شحم الإلية وشحم الحوايا (حول الأحشاء) فوضعه للحرق على المذبح. ومن الدم الذى على المذبح نضح موسى على ثيابه وعلى ثياب هارون وثياب بنيه وأمرهم بطبخ اللحم على باب خيمة الاجتماع ويأكلونه مع الخبز والباقى يحرقونه بالنار. وأمرهم ألا يخرجوا ٧ أيام من باب خيمة الاجتماع وهكذا اكتملت طقوس تطهير هارون وبنيه وتقديسهم.

وفى اليوم الثامن دعا موسى هارون وبنيه وشيوخ إسرائيل وقام هارون بذبح ذبيحة خطية تكفيرا عن الشعب وذبح ذبيحة المحرقة وذبح ذبيحة السلامة كل ذلك عمله كما علمه موسى وعمله معه من قبل.

جزاء مخالفة الطقوس: وكان المطلوب إجراء هذه الطقوس بدقة تامة والالتزام الشديد بترتيبها وفى المكان المحدد لها. وحدث أن ابنى هارون: ناداب وأبيهو أخذ كل منهما مجمرته وجعلا فيها نارا ووضعا عليها بخورا وقربا أمام الرب – وهذا شيء لم يأمر به الرب. وتقول التوراة (لاويين ١٠ : ٢) فخرجت نار من عند الرب وأكلتهما فماتا. ويقول أهل الكتاب (تفسير الكتاب المقدس جـ ١ ص ٢٩٦) أنهما فعلا ذلك بمقتضى رأيهما الخاص وليس بمقتضى أمر موسى. كما أنهما لم يأخذا النار من على المذبح النحاسى بل قَرَّبا «نارا غريبة» كما أن تقديم

البخور على المذبح الذهبي كان من واجبات رئيس الكهنة وكان تقدمهم على أبيهم في هذا الشأن وفي أول مرة يتم فيها عمل هذه الطقوس يعتبر تطفلا وإخلالا خطيرا. كما أن الوقت المحدد لتقديم البخور (صباحاً ومساء) لم يكن قد حان بعد. ويرجح أهل الكتاب أنهم فعلا كل تلك المخالفات لأنهما كانا تحت تأثير خمر أو مسكر مع أن الكهنة محرم عليهم تعاطي الخمر إذ جاء (لاويين ١٠ : ٨) وكلم الرب هارون قائلا خمرا ومسكرا لاتشرب أنت وبنوك معك عند دخولكم إلى خيمة الاجتماع لكي لا تموتوا. فرضا دهريا في أجيالكم – أي يسري هذا الحظر على كل الأجيال القادمة. ويلفت أهل الكتاب النظر إلى أن هذا كان أمرا مباشرا من الله لهارون وليس عن طريق موسى دلالة على أهميته الشديدة.

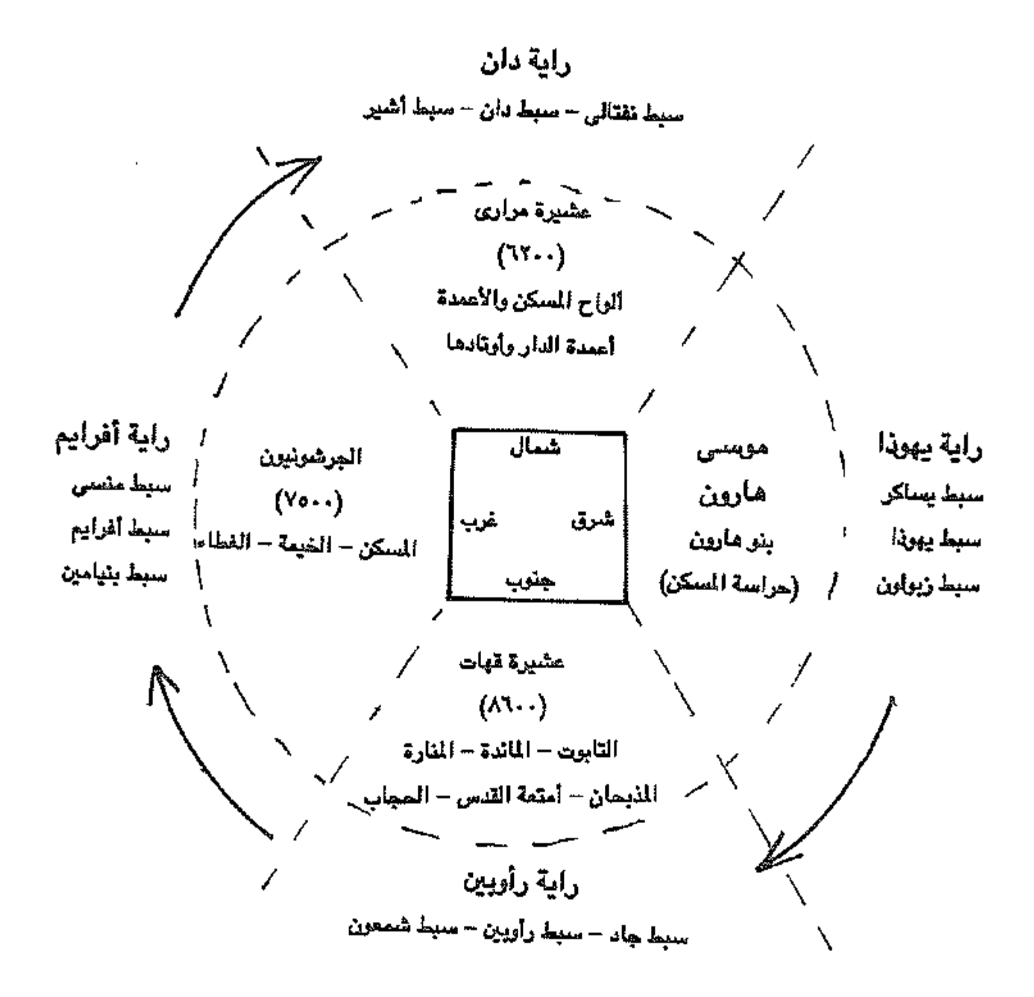
وتحدد لكل سبط مكان إقامة (شكل ٢٧٣) فاللاويون يقيمون حول خيمة الاجتماع لأنهم الموكلون بحراستها عند النزول في محلة وحملها عند الارتحال. والشكل يبين مكان نزول عشائر اللاويين ومهامهم. أما الأسباط الاثنا عشر فينزلون حول الخيمة عن بعد. ثلاثة أسباط في كل جانب من جوانب الخيمة الأربعة. وعند الارتحال يبدأ النازلون إلى الشرق بالتحرك أولا ثم باقي الأسباط في اتجاه عقرب الساعة أي النازلون في الجنوب يليهم الغرب وأخيرا النازلون إلى الشمال.

الأبواق (جمع بوق) :

لقد رأينا أن نقدم شرحا لماهية الأبواق هذه حتى يكون القارئ على علم بما قد يقرأ عنه من تصرفات جيراننا في إسرائيل اليوم. ففي شكل ٢٧٤ صورة منقولة عن جريدة الأخبار يوم ١٩٩٦/١٢/١٣ والخبر بجوارها يقول إن آلاف اليهود المتطرفين احتشدوا في مظاهرة طالبوا فيها بإعادة قدسية يوم السبت والالتزام الصارم بالعطلة في هذا اليوم. وقد سبق أن ذكرنا (ص ١٠٠٧) دور ضرب الأبواق في فتح مدينة أريحا. تقول التوراة (عدد ١٠ : ١): وكلم الرب موسى قائلا: اصنع لك بوقين من فضة فيكونان لك لمناداة الجماعة. وإذا ضربوا بواحد يجتمع إليك الرؤساء رؤوس ألوف إسرائيل وإذ ضربتم هتافا ترتحل المحلات النازلة إلى الشرق وإذا ضربتم هتافا ثانية ترحل المحلات النازلة إلى الجنوب. وأما عندما تجمعون الجماعة فتضربون ولا تهتفون. وبنو هارون الكهنة يضربون بالأبواق فتكون لهم فريضة أبدية في أجيالكم. وإذا ذهبتم إلى حرب في أرضكم على عدو يضرُّ بكم تهتفون بالأبواق فتُذكرون أمام الرب إلهكم وتُخلَّصون من أعدائكم. وفي يوم فرحكم وفي أعيادكم ورؤوس شهوركم تضربون بالأبواق على محرقاتكم وذبائح سلامتكم فتكون لكم تذكارا أمام إلهكم. أنا الرب إلهكم.

ويمكننا من هذا أن نلخص مهمة ضرب الأبواق في الآتي :

١ – المناداة على شيوخ ورؤساء إسرائيل لتبليغهم أمرٍ ما.



شكل ٢٧٣ – توزيع الأسباط حول خيمة الإجتماع.

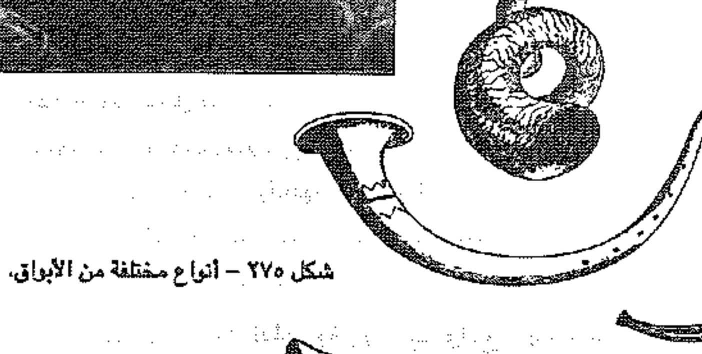


شكل ٢٧٤

مجموعة من اليهود أمام حائط المبكى ينفخون

فى الأبواق مطالبين باحترام حرمة يوم السبت.

(جريدة الأخبار ١٣/١٢/١٩٩٦)



شكل ٢٧٥ – أنواع مختلفة من الأبواق.



شكل ٢٧٦ – كهنة ينفخون الأبواق فى أحد الأعياد.

٢ – المناداة على الجماعة كلها للارتحال مع تنظيم ذلك بارتحال الأسباط النازلين فى شرق بيت العبادة ثم النازلين إلى الجنوب.

٣ – فى الحروب لشد الأزر وطلب العون من الرب.

٤ – فى الأفراح والأعياد واحتفال أوائل الشهور ومحرقات ذبائح السلامة.

ويمكن اعتبار ضرب الأبواق عند اليهود مثل دق أجراس الكنائس عند المسيحيين. وكان البوق قبل ذلك يصنع من قرن كبش أو قرن ماعز. ولما نزلت الشريعة أمروا بصنعها من الفضة. وخصص أبناء هارون لينفخوا هم فى الأبواق دون سواهم. وكان كاهنان موكلان بذلك كل كاهن ينفخ فى بوق حسب ماورد سابقا. وكان عيد اليوبيل يعلن عنه بنفخة طويلة فى الأبواق.

ورفعنا فوقهم الطور :

لقد ذكرنا سابقا طريقة عمل بيت العبادة وطريقة عمل ثياب الكهنة ورأينا كم هى مكلفة لكثرة تطريزها بخيوط من الذهب وكم هى معقدة فى طريقة صنعها. كما سنرى فى أحكام الشريعة بعض أنواع العقاب القاسية. ولعلها كانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن تكون كذلك لتتناسب مع قسوة قلوبهم وكثرة تمردهم على نبيهم. ولم يطيقوا تطبيق هذه الأحكام والشرائع بدقة فكان من اللازم إجبارهم على الإلتزام بها.

«وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة. وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون». (١٧١ – الأعراف)

وقبل أن نتطرق إلى شرح نتق الجبل أو رفعه يلزم أن نذكر شيئا عن الأحكام التى لم يطيقوا تنفيذها.

قلنا إن أحكام الشريعة التى أنزلت على موسى عليه السلام ليطبقها على بنى إسرائيل كانت فيها بعض الشدة لتتناسب مع طباعهم. وهكذا جاءت شريعة بنى إسرائيل متسمة بالسمات الآتية:

أ – كثرة المحرمات.

ب – كثرة الخطايا وضرورة تقديم قربان لغفرانها.

جـ – كثرة مسببات النجاسة.

د – التشدد فى بعض أحكام المعاملات.

أ – المحرمات :

«فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا». (١٦٠–النساء)

ويشير القرآن الكريم إلى هذه المحرمات فى قوله تعالى :

«وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم. ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون». (١٤٦-الأنعام)

وقد ذكرت التوراة بالتفصيل (لاويين ١١) هذه المحرمات :

وكلم الرب موسى وهارون قائلا لهما: كلِّما بنى إسرائيل قائلين هذه هى الحيوانات التى تأكلونها: واختصارا ولسهولة بيانها يمكن تقسيمها للآتى:

١ - **حيوانات البحر** : «كل ما شق ظلفا وقسمه ظلفين ويجتر من البهائم فإياه تأكلون. إلا هذه فلا تأكلوها» أى أن المباح يجب أن يكون مشقوق الظلف ويجتر. وعلى ذلك:

- الجمل والوبر: محرمة لأنها غير مشقوقة القدم ولو أنها تجتر.

- الخنزير محرم : ولو أنه مشقوق الظلف ولكنه لا يجتر فلا يؤكل ولا تلمس جثته.

- وحرمت الشحوم كما أشار القرآن الكريم فى الآية المذكورة. واستثنى من التحريم الشحم الموجود على الظهر أو بين الأمعاء أو شحم الإلية المختلط بعظم العصعص. وقيل إنه لما نزلت هذه الآية قال اليهود: لسنا أول من حُرِمت عليه هذه الأشياء. وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم وَمن بعدَهما عليهم السلام حتى انتهى التحريم إلينا - يقصدون أن ينفوا البغى الذى وصفوا به وكان سببا للتحريم. وقد ذكرنا فى الجزء الثالث (ص ٤٢٩ - ٤٣٠) الحديث الشريف المتعلق بذلك.

- وتحرم السباع والكلاب والسنانير.

- ويحرم أكل الأرانب وما شابهها من القوارض آكلة العشب لأنها ذات أظافر وليست ذات أظلاف مشقوقة.

- يحرم الدم. وما اقتطع من لحم بهيمة وهى حية وما ذبح قربانا لصنم.

- القوارض: (لاويين ١١: ٢٩) ابن عرس والفأر والضب والحرذون والورل والحرباء هذه هى النجسة من الدبيب الذى يدب على الأرض. كل من مسها بعد موتها يكون نجسا إلى المساء وكل ما وقع عليه واحد منها بعد موتها يكون نجسا. من كل متاع خشب أو ثوب أو جلد. كل متاع تنجس بها يلقى فى الماء ويكون نجسا إلى المساء ثم يطهر. وكل متاع خزف وقع فيه منها فكل ما فيه يتنجس وأما هو فتكسرونه لأن ما يأتى عليه ماء من كل طعام يكون نجسا. التنور والموقدة يهدمان. إنها نجسة وتكون لكم نجسة. ولنا أن نتصور فى الصحراء والفئران أو الحرباء أو ما شابهها موجودة بكثرة وقد تدخل إلى التنور وتموت فيه فيكون لزاما هدم التنور بأكمله.

وتستمر التوراة: إلا العين والبئر تكونان طاهرتين. لكن ما مسّ جثتها يكون نجسا وإذا وقعت واحدة من جثتها على شيء من بذر زرع فهو طاهر. وإذا مات واحد من البهائم التى هى طعام لكم فمن مسَّ جثته يكون نجسا إلى المساء. ومن أكل من جثته يغسل ثيابه ويكون نجسا إلى المساء ومن حمل جثته يغسل ثيابه ويكون نجسا إلى المساء. ونلمس هنا التوسع فى مفهوم النجاسة.

وكل دبيب يدب على الأرض فهو مكروه لا يؤكل (الزواحف والثعابين والدود) كل ما يمشى على بطنه وكل ما يمشى على أربع مع كل ما كثرت أرجله لا تأكلوه لأنه مكروه.

٢ - **الطيور** - وهذه تكرهونها من الطيور لا تؤكل: النسر والأنوق والعقاب والحدأة والغراب والنعامة والباز والبوم والغواص والكركى والبجع واللقلق والببغاء والهدهد والخفاش وكل دبيب الطير الماشى على أربع فهو مكروه لكم. ما عدا هذا تأكلونه ماله كراعان فوق رجليه يثب بهما على الأرض (الإصبع فى الساق ولا تلامس الأرض) كما فى الدجاج والأوز والبط والسمان والعصافير تؤكل. الجراد على أجناسه يؤكل.

٣ - **حيوان البحر**: وهذا تأكلونه من جميع مافى الماء: كل ماله زعانف وحرشف فى المياه فى البحار وفى الأنهار فأياه تأكلون. لكن ما ليس له زعانف وحرشف من كل نفس حية فى البحار والأنهار فهو مكروه لكم من لحمه لا تأكلون.

وبناء عليه فالسمك الذى ليس له زعانف وقشور (فلوس) مثل القرموط وسمك القرش وثعبان الماء لا تؤكل والأخطبوط والجمبرى والسرطان والمحار لا تؤكل.

ونقارن هذا بما ورد فى القرآن الكريم عما حرم على المسلمين:

«إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله. فمن اضطر غير باغ ولاعاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم». (١٧٣ - البقرة)

«ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه». (١٢١ - الأنعام)

«حرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب».

(من الآية ٢ - المائدة)

وهذه المحرمات الأخيرة فما لُحقَ منها وفيه روح أى تحركت بأى حركة تدل على بقاء الحياة فيها وذبحت أصبح الأكل منها حلالا. وحتى مع كل هذا فمن اضطر لأكل أى من المحرمات لحفظ حياته فلا يأثم والله غفور رحيم.

ب - الخطايا :

الخطايا فى الشريعة اليهودية كثيرة - ومعظمها لا يكفى لغفرانه الندم والتوبة إلى الله بل لابد من تقديم قربان أو ذبيحة.

- **الطمث** نجاسة وكل شيء مقدس لا تمس.

- **الولادة** إذا كان ذكرا تكون نجسة سبعة أيام وفى اليوم الثامن يتم ختان الطفل ثم تظل ٣٣ يوماً نجسة مدة النفاس كل شيء مقدس لا تمس. وإذا كانت بنتا تكون نجسة أسبوعين ونفاسها ٦٦ يوما. وبعد انتهاء النفاس تأتى بخروف حولى محرقة وفرخ حمامة أو يمامة ذبيحة خطية إلى باب خيمة الاجتماع إلى الكاهن فيقدمها أمام الرب ويكفر عنها فتطهر. فإن كانت فقيرة تأخذ يمامتين أو فرخى حمام واحد محرقة والثانى ذبيحة خطية.

البَرَصْ. مرض عضال ويسمى أحيانا «ضربة البرص». وجاء فى قاموس الكتاب المقدس (عن دار الثقافة - ص ١٧٠) أنه غير الجذام المعروف. إلا أنه فى النسخة الانجليزية من الكتاب المقدس New American Standard Bible اسمه Leprosy أى جذام. كما أن قاموس الكتاب المقدس بالإنجليزية «أونجر Unger» ذكره على أنه Leprosy أى الجذام . على أى حال فإن المرض يبدأ بنتوءات (أورام) فى الجلد أو بياض كالقوباء Leucodermia وبعد قليل تتآكل حوافها وتصير شبه قرحة وإذا ظهر اللحم تحتها يعتبر المريض نجسا أما إذا غطى المرض الجسم كله ولم يظهر فيه لحم فيعتبر الشخص طاهرا. وقد يصيب المرض الذقن أو الأنف أو سقف الحلق أو عقد الأصابع. وسنرى فيما بعد (ص ١٠٤١) أن مريم لما تكلمت ضد أخيها موسى عليه السلام أصابها الرب بضربة البرص. ودعا موسى الله كى يشفيها فشفاها.

فإذا قرر الكاهن أن درجة إصابة الشخص من النوع الذى يسبب نجاسة فإنه يتم حجر صحى على المصاب خارج المحله أى خارج مكان إقامة الجماعة ويعتبر كأنه فى عداد الأموات. وبعد مدة إذا قرر الكاهن أن الجذام أو ضربة البرص قد برئت يتم التطهير خارج المحلة فيؤخذ عصفوران حيان وطاهران وخشب أرز ويذبح أحد العصفورين فى ماء جارٍ (عين ماء جارية أو نهر) ويغمس خشب الأرز فى دم العصفور وينضح به على المصاب سبع مرات ثم يُطلق العصفور الحى ليطير على وجه الصحراء كرمز لعودة الحياة للمصاب بعد شفائه من المرض. ثم يحلق جميع شعر المصاب حتى حواجبه وتغسل ثيابه فتطهر. ثم يؤخذ خروفين صحيحين ونعجة واحدة حولية ودقيق تقدمة ملتوتة بزيت ويقف الشخص أمام باب خيمة الاجتماع ويقوم الكاهن بذبح خروف ويقربه ذبيحة إثم مع الزيت وينضح من دم الذبيحة والزيت على المصاب. ثم يقدم الكاهن الخروف الثانى ذبيحة خطية. ثم تُقدم ذبيحة المحرقة.

جـ - النجاسة :

كانت الأشياء التى تسبب النجاسة كثيرة ولكل منها طريقة للتطهر منها. ويمكن تقسيمها إلى الأنواع الآتية :

١ – نجاسة بسبب الحيوانات المحرمة. وكما فى الإسلام فإن الميتة والمنخنقة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع كل ذلك إذا مات يحرم أكله إلا أنه فى الفكر اليهودى مثل هذه الحيوانات تعتبر نجسة ويتنَّجس من يلمسها. كذلك كل حيوانات البحر والبر والقوارض التى سبق ذكرها فى المحرمات تعتبر نجسة وهناك خلاف بين طوائف أهل الكتاب حول ما إذا كانت نجسة أيضا وهى حية أم تتنجس بعد وفاتها فقط. كذلك كل ما ذبح لأوثان (وما ذبح على النصب). كذلك ما قطع من لحم حيوان وهو حى.

٢ – نجاسة الميت – فجثة الانسان – سواء مات ميتة طبيعية أو قتل – تسبب نجاسة الخيمة (أو الحجرة) التى مات بها لمدة سبعة أيام وكل الأوانى التى كانت بها وكل الأشخاص الذين كانوا بها أو دخلوها. كما يسبب النجاسة أيضا لمسُ جثة إنسان مات فى الخلاء أو مس عظام ميت أو قبره. وكل من أصبح نجسا بإحدى هذه الطرق فإنه ينقل نجاسته إلى كل شىء يمسه أو كل شخص يلمسه ولكن هذه النجاسة (المنقولة) تكون مؤقتة أى تبقى للمساء فقط وتزول بغروب الشمس.

٣ – نجاسة لمس الحيوانات الميتة أو الحيوانات النجسة تبقى إلى المغرب ولكن الشخص نفسه يجب أن يغتسل ويغسل ثيابه.

٤ – نجاسة بسبب إفرازات جسدية: من مجرى البول والمجارى التناسلية سواء كانت بسبب طبيعى مثل الجماع أو دم الحيض أو دم وإفرازات النفاس – أو بسبب مرضى مثل مرض سلس البول أو السيلان. وهى تستدعى الاغتسال وغسل الثياب وإذا استمرت الإفرازات أكثر من أسبوع يلزم تقديم ذبيحة خطيّة وذبيحة محرقة.

د – أحكام المعاملات:

وهى كثيرة جداً وجاءت بالتفصيل فى التوراة نذكر بعضا منها فقط لبيان قسوة أحكامها وصعوبة تطبيقها:

– من ضرب أباه وأمه يقتل قتلا.

– من شتم أباه أو أمه يقتل قتلا.

– من سرق إنسانا وباعه أو وجد فى يده يُقتل قتلا.

– الشاهد الذى يكتم شهادته يرتكب خطية.

– حلف اليمين وعدم الوفاء به ويسمى الحلف الطائش يُعتبر خطية.

وفى الحالتين الأخيرتين يأتى إلى الرب بذبيحة عن خطيته، أنثى من الأغنام نعجة أو عنزا من الماعز ذبيحة خطية فيكفر عنه الكاهن من خطيته وإن كان فقيرا يأتى بيمامتين أو فرخى حمام إحداهما ذبيحة خطية والأخرى محرقة، وإن لم يجد فيأتى بقربان دقيق ولا يضع عليه زيتا ولالبانا فيقبض منه الكاهن ملء قبضة ويوقده على المذبح.

– إذا أخطأ أحد سهوا فى أقداس الرب يأتى إلى الرب بذبيحة لإثمه كبشا صحيحا من الغنم ويدفعه إلى الكاهن فيكفر عنه فيُصفح عنه. وإذا أخطأ وعمل واحدة من جميع مناهى الرب التى لا ينبغى عملها ولم يعلم كان مذنبا وحمل ذنبه فيأتى بكبش صحيح من الغنم ذبيحة إثم فيكفر عنه الكاهن من سهوه الذى سها وهو لا يعلم فيُصفح عنه (لاويين ٥ : ١٧). ونقارن هذا بما جاء فى الحديث الشريف: رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.

– إذا جحد شخص وديعة أو أمانة أو اغتصب من صاحبه أو وجد لُقطة وجحدها أو حلف كاذبا على شيء فإنه يرد المسلوب الذى سلبه أو المغتصب الذى اغتصبه أو الوديعة التى أودعت عنده أو اللُّقطة التى وجدها أو كل ما حلف عليه كاذبا – فإنه يعوِّضه برأسه ويزيد عليه خُمسه إلى صاحبه (أى يرد الوديعة مضافا إليها ٢٠٪) ويأتى إلى الرب بذبيحة لإثمه كبشا صحيحا من الغنم ذبيحة إثم إلى الكاهن. فيكفِّر عنه الكاهن أمام الرب حتى يُصفح عنه فى الذنب الذى ارتكبه (لاويين ٦ : ٣).

د – **يوم السبت** : ذكرنا ص ٩٩٢ أن رابع الوصايا العشر كانت «اذكر يوم السبت لتقدسه» وكان الالتزام به من أبرز الواجبات الدينية وليس خطيئة أكبر من خطيئة عدم حفظ حرمة يوم السبت. وقد أوصى موسى عليه السلام بالتفرغ التام عن العمل يوم السبت ومدته من غروب شمس يوم الجمعة إلى غروب شمس يوم السبت. وفيه يحرم كل ما يشعر بالسعى فى الرزق والانشغال بحرفة أو صناعة. ويحرم حتى إيقاد النار إلاّ أن إبقاء النار التى أشعلت قبل دخول يوم السبت جائز ويحل الانتفاع بها يوم السبت نفسه. ويحرم أى تبادلات تجارية كما يحرم عقد الزواج فيه.

هـ – القرابين :

القربان جزء هام من الشريعة اليهودية ووضع له موسى نظاما دقيقا ومفصلا. وحَصرَ تقديم الذبائح فى الكهنة. وكانت القرابين تقدم فى مناسبات كثيرة: للتوبة والاعتراف والكفارة والتكريس والشكر على السلامة أو النجاح وغير ذلك. والقرابين تقدم من الحيوانات المستأنسة الطاهرة وتشمل من البقر الثيران الفتية والكبيرة ومن الغنم أى من الضأن والماعز ما كان حوليا أى ابن سنة أما الفقراء فيمكنهم تقديم زوج يمام أو فرخى حمام.

أما القرابين من الحبوب فكانت تقدم كدقيق معجون بالزيت بعد أن تخبز أقراصا ملتوتة بزيت أو رقاقا مدهونة بزيت. أما ما يسمى بـ «خبز الوجوه» وهو ما يوضع على مائدة الرب كل يوم سبت. فكان يُصنع أقراصا سميكة ولا تكون ملتوته بالزيت بل كان يوضع عليها بعض اللبان. أما باكورات الحبوب فقد كانت تقدم بشكل فريك مشوى وجريش. وكان الزيت يعد من التقدمات الفاخرة المحترمة.

– **كيفية تقديم الذبائح** : كان مُقرِّب الذبيحة يضع يده على رأسها ويعترف بالخطيئة ثم

يذبحها هو أو الكاهن ثم يتم سلخ الذبيحة وتقطيعها ويحرقون ما أمر الرب بحرقه على المذبح. والباقى يتم التصرف فيه حسب أوامر الرب وهناك نوعان:

- قربان يقدم كله للرب. وهذا يحرق بأكمله ويسمى قربان محرقة.

- قربان يخصص قسم منه للرب ويحرق. وقسم آخر للكهنة أو لهم ولمقدم القربان كما فى القرابين التى تقدم فى الأعياد أو ذبيحة الشكر وذبيحة السلامة.

أما ذبيحة الخطيئة وهى ما تقدم للتكفير عن الخطايا فهذه لا يسمح لمقدم الذبيحة أن يأكل أى جزء منها لأن مُقدمها وقد ارتكب خطيئة فهو يتقدم بها وهو معترف بعدم استحقاقه للشركة مع الرب فلا يأكل منها وتتميز هذه الذبيحة من الجهة الطقسية عن غيرها برش الدم على قوائم البيت وعلى زوايا المذبح الأربع وعلى قوائم باب الدار الداخلية وعلى قرون المذبح الأربعة. ثم تحرق الجثة. فإذا كان السبب وقوع الجماعة فى خطيئة فإنها تسمى **ذبيحة خطيئة الجماعة**. ويزيد فيها أن الكاهن يأخذ من دم الذبيحة وينضح بإصبعه على وجه غطاء تابوت الشهادة سبع مرات والذبيحة تكون ثورا. أما الخطايا الشخصية فقربانها يسمى «**ذبيحة إثم**» وهذه تكون غالبا كبشا أو تيسا من الماعز.

وهكذا نرى أن التكفير عن الخطايا لايكون بالاستغفار فقط والندم. بل لابد من الاعتراف أمام الكاهن والتطهير بتقديم ذبيحة.

نتق الجبل ورفعه فوقهم :

شق على بنى إسرائيل تطبيق كثير من أحكام الشريعة بحذافيرها وبدأوا فى عدم تنفيذها وطلب الله من موسى أن يُذكرهم بها وينفذوها حسب ما وَعدوا.

«وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون. ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين». (٦٣ - ٦٤ - البقرة)

«وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا». (٩٣ - البقرة)

«وإذا نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم. خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون». (١٧١ - الأعراف)

ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم...». (من الآية ١٥٤ - النساء)

وعن ابن عباس (تفسير الألوسى جـ ١ ص ٢٨٠) أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة وما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم وأبوا قبولها فأُمر جبريل بقلع الطور فظلله

فوقهم حتى قبلوا وكان على قدر عسكرهم – فرسخا في فرسخ! ونتق الشيء رفعه من مكانه ليرمي به (المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٩٠٧). وقيل – أمر الله جبريل عليه السلام فقلع الجبل ورفعه عليهم كأنه غمامة أو سقيفة وظنوا أنه سيقع عليهم وتيقنوا أنهم إن لم يُنفِّذوا أحكام الشريعة فإنه سيسقط عليهم لأن الجبل لن يبقى معلقا في الجو إلى الأبد وهي معجزة أخرى أظهرها الله لهم ليمتثلوا لأوامره وقيل إن قبلتم وإلا ليقعن عليكم. فوقع كل منهم ساجدا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل. فرحمهم الله وكشفه عنهم فقالوا ما سجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنا فكانوا يسجدون كذلك. (تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٠٤) وقيل الطور هو الجبل المعيَّن المعروف بهذا الإسم. وعن ابن عباس الطور هو ما أنبت من الجبال ومالم ينبت فليس بطور

وقد خالف السيد رشيد رضا في تفسير المنار ما ذهب إليه الجمهور في نتق الجبل ورفعه حسب ما سبق شرحه وقال إن ذلك إكراه والقاعدة هي «**لا إكراه في الدين**» وقال إن النتق معناه الزلزلة والزعزعة وليس بالضرورة الرفع. ووافقه على هذا الرأي الأستاذ عبدالوهاب النجار (قصص الأنبياء، ص ٢٥١) وزاد بأن قال إن الظلة كل ما أظلك سواء كان فوقك أو في جانبك وهو مرتفع وله ظل. وفوقهم لاتعني بالضرورة فوق الرأس واستشهد بالآية: «**وإذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم**» بأن فوقكم هنا تعني من أعلى الوادي وأسفل تعني من أسفل الوادي. كما قال سيادته إن الجبل لاتعني كل الجبل بل أن بعض الجبل يطلق عليه الجبل مجازا. كقول المرء وقفت على الجبل وهو لم يقف إلا على موضع قدميه من الجبل. ويقول الحاج وقفت على جبل عرفات وهو لم يقف إلا على جزء منه. وخلص من هذا كله أنه من المحتمل أن زلزالا أصاب الجبل فاهتز وتزعزع جزء منه ومال ووقع ظله على بني إسرائيل فظنوا أن الجبل سيقع عليهم. ويقول إن التوراة ذكرت نتق الجبل كما يلي (خروج ١٩): وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذي في المحلة.. وارتجف كل الجبل جدا... ولما رأى الشعب ذلك ارتعدوا ووقفوا من بعيد.

وما نراه هو أن الحدثين مختلفان. فما ذكرته التوراة كان لتأييد موسى فيما يبلغ عن ربه إذ تقول: فقال الرب لموسى ها أنا آت إليك في ظلام السحاب لكي يسمع الشعب حينما أتكلم معك فيؤمنوا بك أيضا إلى الأبد... فانحدر موسى من الجبل إلى الشعب وأمرهم بالتطهر وغسل ثيابهم وقال للشعب كونوا مستعدين وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا.. وارتجف كل الجبل جدا..وقد سبق ذكر ذلك في ص ١٠٠٥ أما ما ذكره القرآن الكريم من نتق الجبل «**فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم**» فكان بعد أن أوتوا الشريعة ومضت مدة ولم يطبقوها فكان التهديد

بالهلاك إذا لم ينفذوا أحكامها. فكانت هذه آية أخرى غير التى ذكرتها التوراة، وكان رفع الجبل آية للردع والتخويف ولا يعنى ذلك إكراها. بل هو تخويف حتى تكون هناك استجابة ويتمشى ذلك مع مفهوم قوله تعالى :

«وما نرسل بالآيات إلا تخويفا». (٥٩ - الإسراء)

وكان وقت الحدث الأول المذكور فى التوراة هو فى اليوم الثالث من نزولهم بجوار جبل موسى أما نتق الجبل المذكور فى القرآن الكريم فكان قرب نهاية مدة إقامتهم فى هذه المحلة وكانت قد حدثت فتنة السامرى وانتهت.

لقد رأينا الآن كم كانت التكاليف والتشريعات شاقة وصعبة التنفيذ فلم تستطع الغالبية العظمى من بنى إسرائيل الالتزام بها وظلت الأجيال المتتالية - جيلا بعد جيل - ملزمة بتنفيذها وهى لا تطيقها وقد جاء فى سورة الأعراف خطاب إلى اليهود المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم برفع كل هذه التكاليف عنهم لو اتبعوه:

«ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم». (١٥٧ - الأعراف)

والإصر هو الثقل الذى يُعجز صاحبه عن الحراك. والغل هو القيد الذى كانت يد الأسير تربط به إلى عنقة وهى استعارة عن شدة التكاليف التى كانوا مكلفين بها بمقتضى شريعتهم. ولكن قلة فقط هى التى أسلمت وبقى الآخرون مكبلين بهذه الأغلال حتى يومنا هذا.

وكان من رحمة الله بالمسلمين أن علّمهم دعاء يدعون به ليخفف الله عنهم ولا يفرض عليهم التكاليف الشاقة التى كانت على أهل الديانات السابقة:

«... ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا. ربنا ولاتحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا. ربنا ولاتحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا...». (٢٨٦ - البقرة)

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: أوتيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهن نبى قبلى (تفسير القرطبى جـ ٣ ص ٤٣٤).

كان قد مضى على بنى إسرائيل فى سيناء عام كامل وشهر وعشرون يوما وكان آخر محلاتهم هو بجوار جبل موسى حيث تلقى موسى عليه السلام أحكام الشريعة وأقام دار العبادة المتنقل المتمثل فى المسكن وخيمة الاجتماع.

الارتحال من جبل موسي :

وتقول التوراة (عدد ١٠ : ١١) وفى السنة الثانية فى الشهر الثانى فى العشرين من الشهر ارتفعت السحابة عن مسكن الشهادة. فارتحل بنو إسرائيل. وارتحلوا حسب الترتيب التالى:

(انظر شكل ٢٧٣ ص ١٠٢٦). أولا راية محلة بنى يهوذا (الشرق) وبنى يساكر وبنى زبولون. ثم أنزل المسكن فارتحل بنو جرشون حاملو خيمة الاجتماع وبنو مرارى حاملو ألواح المسكن وعوارضه ثم محلة رأوبين (الجنوب) وشمعون وجاد. ثم ارتحلت عشيرة قهات حاملو أدوات خيمة الاجتماع. ثم ارتحلت الجماعات التى فى الغرب وهم أفرايم ومنسى وبنيامين وأخيرا دان ونفتالى وأشير. ويكون التشكيل أثناء المسيرة هكذا (شكل ٢٧٧): التابوت فى المقدمة يحمله أبناء هارون وخلفه مباشرة يسير موسى وهارون عليهما السلام ثم ثلاثة أسباط فالمسكن ثم ثلاثة أسباط ثم أثاث المقدس ثم الستة أسباط الباقية. وارتحلوا من جبل الرب مسيرة ثلاثة أيام وتابوت عهد الرب راحل أمامهم ليلتمس لهم منزلا. وكانت سحابة الرب عليهم نهارا. وكان موسى يدعو: قُم يارب فلتتبدد أعداؤك ويهرب مبغضوك من أمامك.

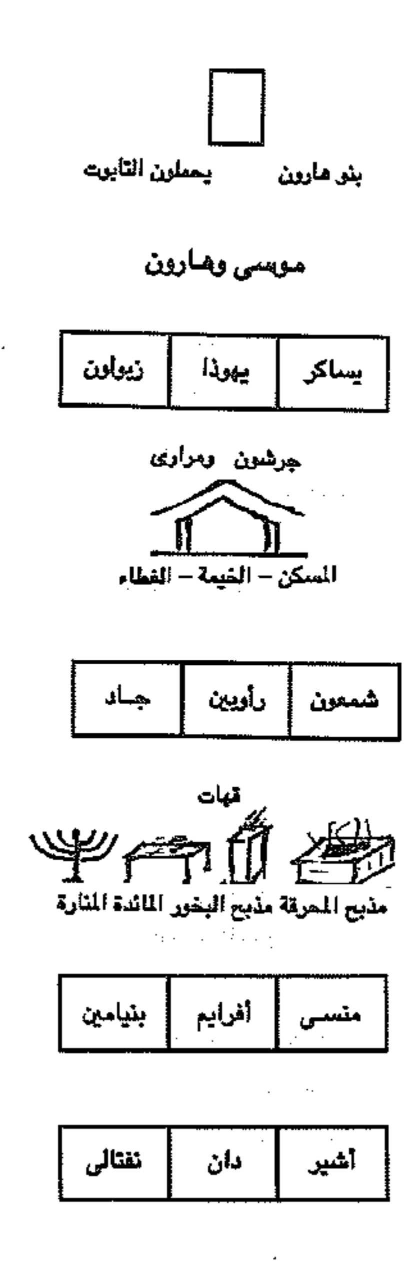
سبق أن ذكرنا (ص٩٨٤) أن حما موسى قد جاءه فى رفديم ومعه زوجة موسى وولداه ولما ارتحل بنو إسرائيل من جبل موسى وصاروا قرب خليج العقبة رأى حمو موسى أن مدين صارت قريبة فأعرب عن رغبته فى العودة إلى أرضه. وتقول التوراة إن موسى عليه السلام قال له: إننا راحلون إلى المكان الذى قال الرب أعطيكم أياه. اذهب معنا فنحسن إليك فقال لا أذهب. بل إلى أرضى وعشيرتى أمضى - (عدد ١٠ : ٢٩) وتركهم عائدا إلى مدين.

وأقاموا المسكن والخيمة ونزلوا فى مكان قرب خليج العقبة (شكل ٢٧٨). ويبدأ بعض الأفراد يشتكون ويتذمرون. فاشتعلت نار فى طرف المحلة فى خيام هؤلاء الذين تذمروا. ولجأ الشعب إلى موسى. فصلى موسى إلى الرب فخمدت النار ودعى اسم ذلك المكان تبعيرة Taberah وهو اسم عبرى معناه «**اشتعال**».

وتقول التوراة (عدد ١١) وعاد بنو إسرائيل يشتكون وبكوا وقالوا: من يطعمنا لحما. قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجانا والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم والآن قد يبست أنفسنا. ليس شىء غير أن أعيننا إلى هذا المن.

«وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير. اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم». (٦١-البقرة)

وُعبر عن المن والسلوى بطعام واحد لتكراره كل يوم. والبقل والقثاء والعدس والبصل معروف. وقيل الفوم هو الحنطة - قال ابن عباس وغيره. وقيل هو الثوم والثاء أبدلت فاء كما يقال جدث وجدف أى القبر وقرأ ابن عباس وثومها. وأيا كان الأمر فإن ما طلبوه كان مستحيلا فى حالتهم حيث أن رمال الصحراء لا تساعد على نموه كما أن زراعته تستدعى طول الإقامة حول أماكنه حتى ينضج وهم فى ترحال دائم ليدخلوا الأرض كما أمر الله. لذلك استنكر الله منهم هذ الطلب بقوله «**أتستبدلون...**» فالمن والسلوى التى أعطاهم الله هى خير من



شكل ٢٧٧ – ترتيب بنى إسرائيل أثناء الارتحال.

عدة وجوه: فهى من عند الله وخصيصا لهم. وهى دائمة لا تنضب ولا يتعبون فى زراعتها أو صيدها كما أنها ألذ طعما ولعلها كانت أسهل هضما وتعطى طاقة أكثر لتناسب المشقة فى الترحال الدائم فى الجبال والوديان. وكان الرد «**اهبطوا مصراً**» كأنه للتعجيز إذ لا توجد أمصار قريبة. ومن قالوا «**إهبطوا مصر**» كأنه يقال لهم إن كنتم تريدون ما اشتهيتم من أطعمة ألفتموها أثناء إقامتكم فى مصر فعودوا إلى مصر. وهم طبعا لن يفعلوا لما لا قوه فيها من تعذيب وتسخير – **أو أن** مطلبهم هذا مؤجل إلى أن يدخلوا الأرض وبها الأمصار – التى يجدون فيها بغيتهم. وفعلا حينما عبروا الأردن فيما بعد مع يشوع. انقطع المن والسلوى.

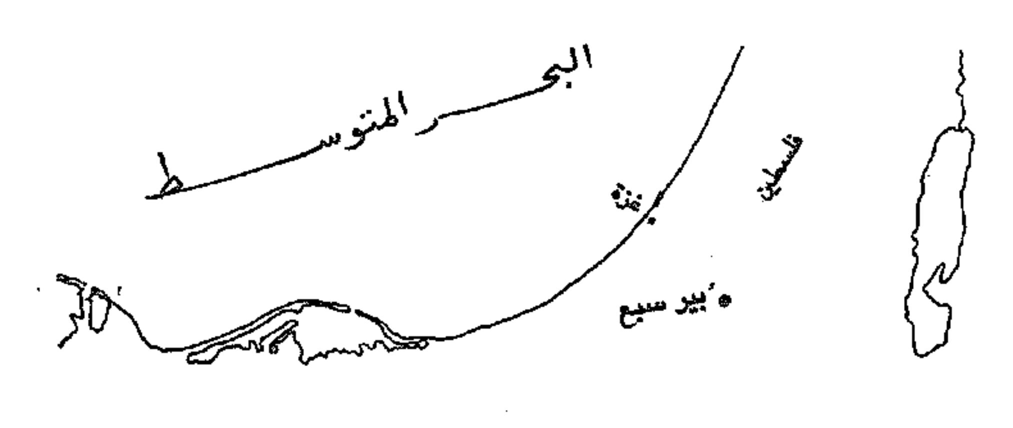
تضيف التوراة أن فئة أخرى تذمرت من قلة اللحم الذى يأكلونه وقالوا: قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجانا. وبكى الشعب فى خيامهم وسمع موسى بكاءهم.

وهنا لجأ موسى إلى الله يشكو إليه من بنى إسرائيل وأن حملهم أصبح ثقيلا عليه وإن كان كاتبو التوراة قد عبّروا عن هذا بطريقة فيها شىء من الحدّة (عدد ١١ : ١١): فقال موسى للرب لماذا لم أجد نعمة فى عينيك حتى أنك وضعت ثقل جميع هذا الشعب على. ألعلّى حبلت بجميع هذا الشعب أو لعلى ولدته حتى تقول لى احمله فى حضنك كما يحمل المربى الرضيع؟ لا أقدر أنا وحدى أن أحمل جميع هذ الشعب لأنه ثقيل علىّ. وتقول التوراة إن الله أمر موسى أن يختار سبعين رجلا من شيوخ إسرائيل ويأتى بهم إلى خيمة الاجتماع. ففعل ذلك وحلت عليهم الروح وبهاء الرب فتنبأوا أى صاروا أنبياء. (وإن كنا نرى أنهم أصبحوا مثل الأولياء) وحملوا عنه بعض العبء عما يلاقى من شعب بنى إسرائيل.

أما الفئة التى تذمرت من قلة اللحم فإن الله أوحى إلى موسى أنه سيعطيهم لحما ليأكلوا ليس يوما واحدا بل شهرا كاملا. قالوا: فخرجت ريح من قبل الرب وساقت سلوى من البحر وألقتها على المحلة نحو مسيرة يوم من هنا ومسيرة يوم من هناك حوالى المحلة ونحو ذراعين فوق وجه الأرض فقام الشعب كل ذلك النهار وكل الليل وكل يوم الغد وجمعوا السلوى وإذ كان اللحم بعدُ بين أسنانهم قبل أن ينقطع نزل عليهم غضبٌ من ربهم ومات هؤلاء الذين اشتهوا اللحم وتذمروا. ولأنهم دفنوهم فى قبور هناك فقد سُمِّىَ المكان «**قبروث هتأوة**» أى «**قبور الشهوة**».

تذمر مريم وهارون :

ثم ارتحل بنو إسرائيل مسيرة يومين أو ثلاثة أخرين فأتوا إلى «**حضيروت**» Hazeroth والمرجح أنها «عين خضرة» الحالية فى وادى خضرة قرب الطرف الشمالى لخليج العقبة جنوب غرب إيلات بستين كيلو مترا. هنا بدأت مريم تحرض هارون واتحد الاثنان فى التمرد على قيادة موسى للجماعة ولعلهما شعرا لكونهما أكبر سنا من موسى أنهما أحق بالقيادة منه ولكنهما اتخذا من زواجه من امرأة كوشية مجالا للتكلم عليه. واختلف مفسرو أهل الكتاب فى



شكل ٢٧٨ – الارتحال من جبل موسى.

جنسية هذه الزوجة الثانية. قيل كوشية تعنى حبشية وإن كان من الصعب تفسير كيفية مجيئها للعيش مع بنى إسرائيل. وقيل هى مديانية. وقيل من عرب شمال الجزيرة. ولم تكن صفورة زوجته وأم ولديه قد ماتت بعد وهذا يدل على أن تعدد الزوجات عند اليهود جائز شرعا إلا أن حاخامات اليهود حرموه فيما بعد (الأديان والمذاهب. عبدالرزاق محمد ص . ١٧٢). ولتبرير ثورة مريم وهارون على قيادة موسى قال بعضهم (تفسير الكتاب المقدس. جاميسون وفاوست. ص ١٧٦) إنه لمَّا أشار حمو موسى (ص ٩٨٤) عليه بأن يختار رجالا «صالحين يخافون الله» ويجعلهم رؤساء على الشعب لم يختر من بينهم مريم وهارون. كذلك لما شعر موسى بعبء المهمة التى ألقيت على عاتقه (الصفحة السابقة) وأمره الله باختيار ٧٠ رجلا وحل عليهم بهاء الرب وتنبأوا وبدأوا فى معاونته فى إدارة شئون الشعب لم يكن من بينهم مريم وهارون. وقد يكون الرد على ذلك بالنسبة لهارون هو أنه نبى فعلا وهو وزير موسى فهو أعلى درجة من هؤلاء السبعين. ثم إنه هو رأس السلطة الدينية فى بنى إسرائيل وهو الكاهن الأكبر وبنوه يعاونونه. فليس له سبب ليتذمر إلا أن يكون اسمه قد أقحم فى هذا التمرد دون أن يكون مشتركا فيه فعلا ويؤيد هذا أن جزاءاً مالم ينله. أما مريم فلعل تعيين امرأة فى منصب رئاسى ما كان ليلقى قبولا لدى جموع بنى إسرائيل وخاصة فى هذه المرحلة من حياتهم. ولهذا كان جزاؤها صارما.

تقول التوراة (عدد ١٢ : ٤) فقال الرب لموسى وهارون ومريم اخرجوا أنتم الثلاثة إلى خيمة الاجتماع ففعلوا فنزل الرب فى عمود سحاب ووقف فى باب الخيمة وعنَّف مريم وهارون. ولما ارتفعت السحابة عن الخيمة إذا مريم برصاء كالثلج. واستعطف هارون موسى ألا يصيبه ما أصاب مريم. ودعا موسى ربه قائلا: اللهم اشفها فقال الرب: تحجز سبعة أيام خارج المحلة وبعد ذلك ترجع فحجزت مريم خارج المحلة سبعة أيام ثم شفاها الله فأرجعت إلى المحلة بعد أن برئت من البرص.

جاء فى هذا الإصحاح عن موقف موسى من هذا التمرد (فقرة ٣): «أما الرجل موسى فكان حليما جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض». وقد أثارت هذه الجملة جدلاً كبيرا بين مفسرى الكتاب المسيحيين حتى أن بعضهم قال إن هذا الاصحاح لم يكتبه موسى بنفسه إذ لا يعقل أن يمدح نفسه هكذا. وهذا يقابل المبدأ الإسلامى «ولا تزكوا أنفسكم». وآخرون رأوا فيه العكس تماما وقالوا إن ذلك دليل على وحى الكتاب المقدس. إذ هو يسجل موقف موسى بصدق وأنه لم يقل كلمة واحدة ليدافع بها عن نفسه بل ترك أمر تبرئته لله تعالى وفى الوقت الذى يستحسنه (تفسير الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين. جـ ١ ص ٣٦٩).

بعد انتهاء هذه الفتنة صدر أمر الرب بالارتحال إلى فاران. وكالمعتاد تم فك المسكن وخيمة الاجتماع وتحرك الركب بالتنظيم السابق شرحه فى شكل ٢٧٧ . وسار بنو إسرائيل مسيرة عشرة أيام حتى برية فاران Paran وكانت هذه هى المحطة الأخيرة قبل دخول الأرض.

وتقع برية فاران شمال سيناء وتمتد حتى برية صين Zin التى تفصلها عن البحر الميت وفى غربها تقع قادش أو **قادش برنيع** فنزلوا بها. وكانت تدعى من قبل عين مشفاط. وهى حاليا عين قديرات حوالى ٨٠ كم جنوب بير سبع. (أونجر. قاموس الإنجيل ص ٧٣١)

الاستعدادات النهائية لدخول الأرض :

نزل بنو إسرائيل فى قادش برنيع فى برية فاران ونصبوا المسكن وخيمة الاجتماع وبدأ موسى عليه السلام يعمل الترتيبات اللازمة لدخول «الأرض المقدسة» التى وعدها الله لهم. وكان من الضرورى قبل اقتحام الأرض من أمرين :

١ - **الاستطلاع** لمعرفة قوة العدو وقوة استحكاماته وطبيعة الأرض.

٢ - **الإحصاء والتعبئة العامة**: لإعداد القوة اللازمة ومعرفة عددها وتنظيمها بتقسيمها وتوزيع الرئاسات عليها.

وهى خطوات لاشك أنها كانت تتم بتوجيه من الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام.

١ - الاستطلاع :

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك :

«ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقال الله إنى معكم». (من الآية ١٢ - المائدة)

وَنَقَبَ بمعنى فتَّش وفحص ونقَّب مبالغة فى الفحص والتفتيش وفى القرآن الكريم **«فنقبوا فى البلاد هل من محيص»** والنقيب كبير القوم المعنى بشؤونهم والجمع نقباء (المعجم الوسيط جـ ٢ ص ٩٥٢).

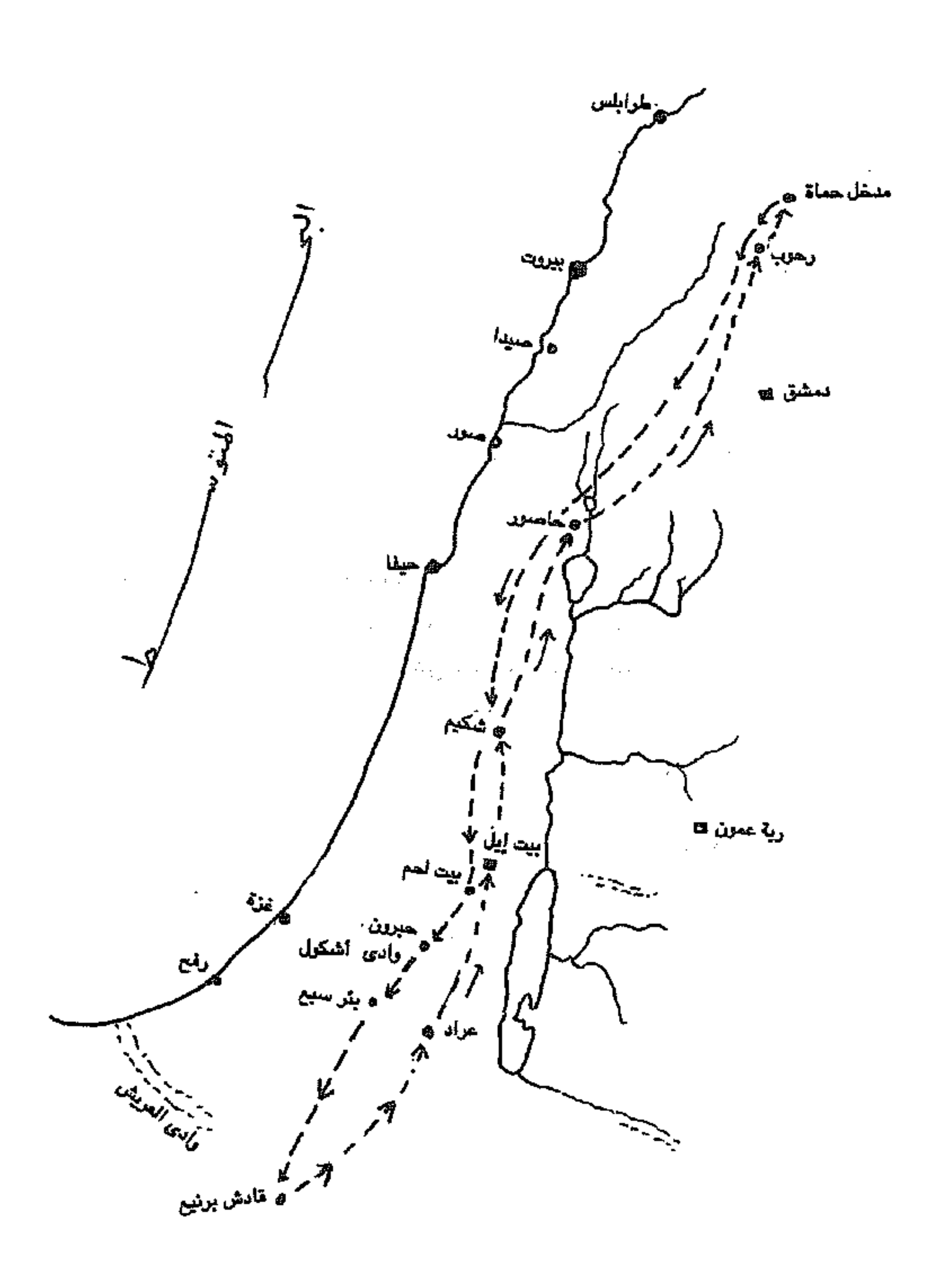
وتقول التوراة (عدد ١٣): ثم كلم الرب موسى قائلا: أرسل رجالا ليتجسسوا أرض كنعان التى أنا معيطها لبنى إسرائيل. رجلا واحدا لكل سبط من آبائه ترسلون. كل واحد رئيس فيهم. فأرسلهم موسى من برية فاران حسب قول الرب. كلهم رجال هم رؤساء بنى إسرائيل وهذه أسماؤهم:

١ - من سبط رأوبين — شموع بن ذكُّور.
٢ - من سبط شمعون — شافاط بن حورى.
٣ - من سبط يهوذا — كالب بن يُفَنَّة.
٤ - من سبط يساكر — يجال بن يوسف .
٥ - من سبط أفريم — هوشع (= يشوع) بن نون.

٦ – من سبط منسى	جدِّى بن سوسى.
٧ – من سبط بنيامين	فلطى بن رافو .
٨ – من سبط زبولون	جَدّئيل بن سودى.
٩ – من سبط دان	عَمِّيئيل بن جِملِّى.
١٠ – من سبط أشير	ستور بن ميخائيل.
١١ – من سبط نفتالى	نحيى بن وفسى.
١٢ – من سبط جاد	جاؤئيل بن ماكى.

وتستمر التوراة : فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان وقال لهم اصعدوا من هنا إلى الجنوب واطلعوا الجبل وانظروا الأرض ماهى. والشعب الساكن فيها أقوى هو أم ضعيف قليل أم كثير. وكيف هى الأرض التى هو ساكن فيها أجيدة أم رديئة. وما هى المدن التى هو ساكن فيها أمخيمات أم حصون. وتشددوا فخذوا من ثمر الأرض. وأما الأيام فكانت أيام باكورات العنب. وسار النقباء الإثنا عشر من برية فاران وعبروا برية صين إلى أرض كنعان (شكل ٢٧٩) وساروا حتى رحوب أو بيت رحوب وهى مدينة فى جنوب لبنان فى سهل البقاع ثم عادوا فى اتجاه الجنوب وأتوا إلى حبرون (مدينة الخليل الحالية) وبجوارها وادى مشهور بزراعة العنب فقطفوا عنقودا كبيرا من العنب وحملوه معهم «وعنقود العنب» بالعبرية يسمى أشكول لذلك يسمى «وادى أشكول» وأخذوا شيئا من الرمان والتين ليكون ذلك تأكيدا على خصب الأرض وغناها بالفواكه والثمار ويكون ذلك حافزا لبنى إسرائيل ومشجعا لهم على تحمل مصاعب اقتحام الأرض. وتقول التوراة (عدد ١٣ : ٢٣) وأتوا إلى وادى أشكول وقطفوا من هناك زرجونة بعنقود واحد من العنب وحملوه على عصا بين اثنين مع شىء من الرمان والتين. ويرى بعض المفسرين أنه من المستبعد أن يكون عنقود واحد بهذا الحجم بحيث يحمله اثنان على عصا والأرجح أنه كانت شجرة عنب بعناقيدها وهذا أدعى لعدم ذبول العنب حتى يعودوا. ووادى أشكول أو وادى العنب يقع جنوب غرب حبرون (الخليل) وهو من أخصب المناطق ولا يزال العنب يزرع به حتى الآن وثماره كبيرة الحجم حتى إن عنقودا من العنب يزن ٥ أو ٦ كيلو جراما يعتبر عاديا.

استغرقت بعثة التجسس ذهابا وإيابا أربعين يوما. فى هذه الأثناء كان موسى عليه السلم يقوم بمهمة الإحصاء والتعبئة استعدادا لدخول الأرض.



شكل ٢٧٩ – مسيرة الاثنى عشر نقيبا للاستطلاع داخل أرض كنعان.

١ - الإحصاء والتعبئة :

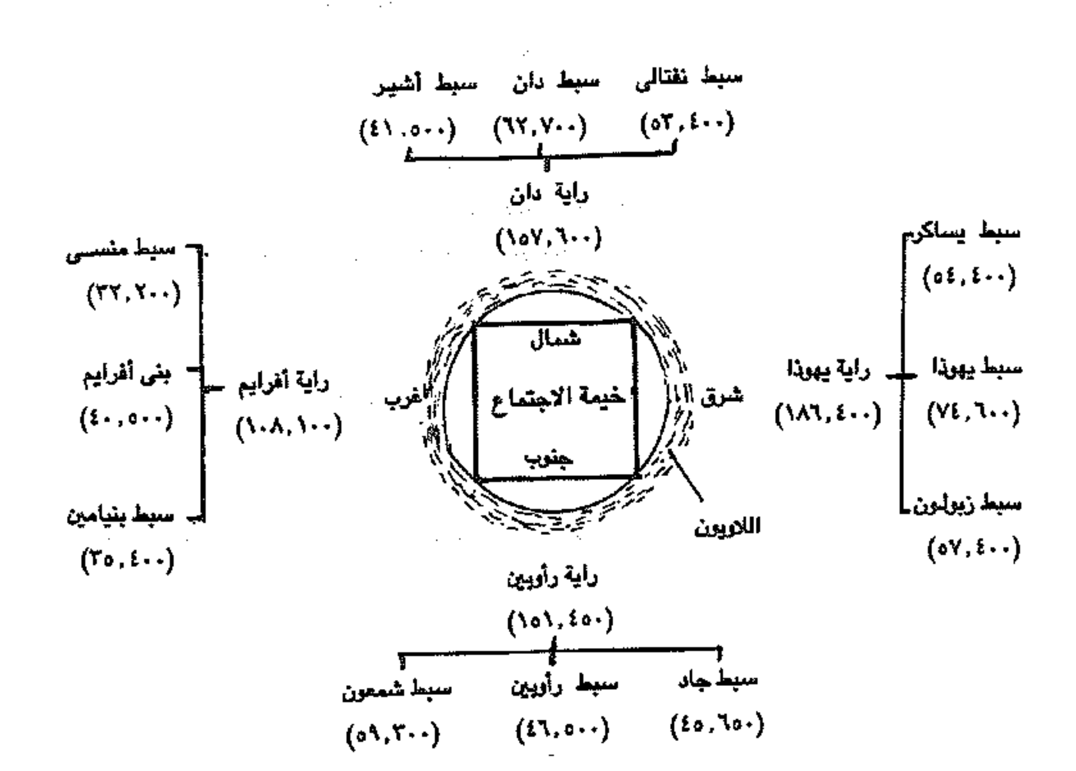
هذا هو الأمر الثاني اللازم قبل دخول أى معركة ليعرف المهاجم مدى قُوته. والعدد الكبير مصدر قوة. ولكن أهم منه هو الإيمان بالله والتوكل عليه ليتم النصر. وصحيح أن فئة قليلة قد تغلب فئة كثيرة بإذن الله إلا أن الاستعداد بالقوة الكبيرة على قدر الاستطاعة أمر مطلوب كذلك

وهكذا صدر أمر الله تعالى لموسى بعمل الإحصاء والتعبئة. تقول التوراة (سفر العدد): وكلم الرب موسى فى خيمة الاجتماع فى أول الشهر الثانى فى السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر قائلا: احصوا كل جماعة بنى إسرائيل بعشائرهم وبيوت آبائهم بعدد الأسماء كل ذكر برأسه من ابن عشرين سنة فصاعدا كل خارج للحرب فى إسرائيل. تحسبهم أنت وهارون ويكون معكما رجل من كل سبط. أما سبط لاوى فلا تعده بين بنى إسرائيل بل وَكِّل اللاويين على مسكن الشهادة وجميع أمتعته. هم يحملون المسكن وكل أمتعته وهم يخدمونه وحول المسكن ينزلون. فعند ارتحال المسكن ينزله اللاويون وعند نزول المسكن يقيمه اللاويون والأجنبى (أى من غير اللاويين) الذى يقترب يقتل. وينزل بنو إسرائيل كل فى محلته. كل عند رايته بأعلام حول خيمة الاجتماع (حسب شكل ٢٨٠) وتذكر التوراة عدد الذكور أكبر من ٢٠ سنة فى كل سبط هكذا:

بنو رأوبين	٤٦,٥٠٠	بنو أفرايم	٥٤,٥٠٠
بنو شمعون	٥٩,٣٠٠	بنو منسى	٣٢,٢٠٠
بنو جاد	٤٥,٦٥٠	بنو بنيامين	٣٥,٤٠٠
بنو يهوذا	٧٤,٦٠٠	بنو دان	٦٢,٧٠٠
بنو يساكر	٥٤,٤٠٠	بنو أشير	٤١,٥٠٠
بنو زبولون	٥٧,٤٠٠	بنو نفتالى	٥٣,٤٠٠

فيكون العدد الكلى هو ٦١٧,٥٥٠ وقد أثارت هذه الأعداد الضخمة شكوكا عند بعض الباحثين عن مدى صحتها. وقد سبق أن أدرجنا (ص ٦٨٣) مسألة حسابية وكانت نتيجتها أن عدد الذكور البالغين كان يزيد قليلا عن ٢٠٠,٠٠٠. ولا يعقل أن يتم خروجهم جميعا للحرب فلاشك أن من تم تجنيدهم فعلا كانوا - على أقصى تقدير - النصف أى ١٠٠,٠٠٠. وهو عدد كبير جدا بمقاييس ذلك الوقت.

وبهذا تمت كل الترتيبات اللازمة لدخول الأرض وبقى فقط وصول النقباء الإثنى عشر لتكون المعلومات التى أتوا بها أساسا لوضع خطة الاقتحام الفعلى.



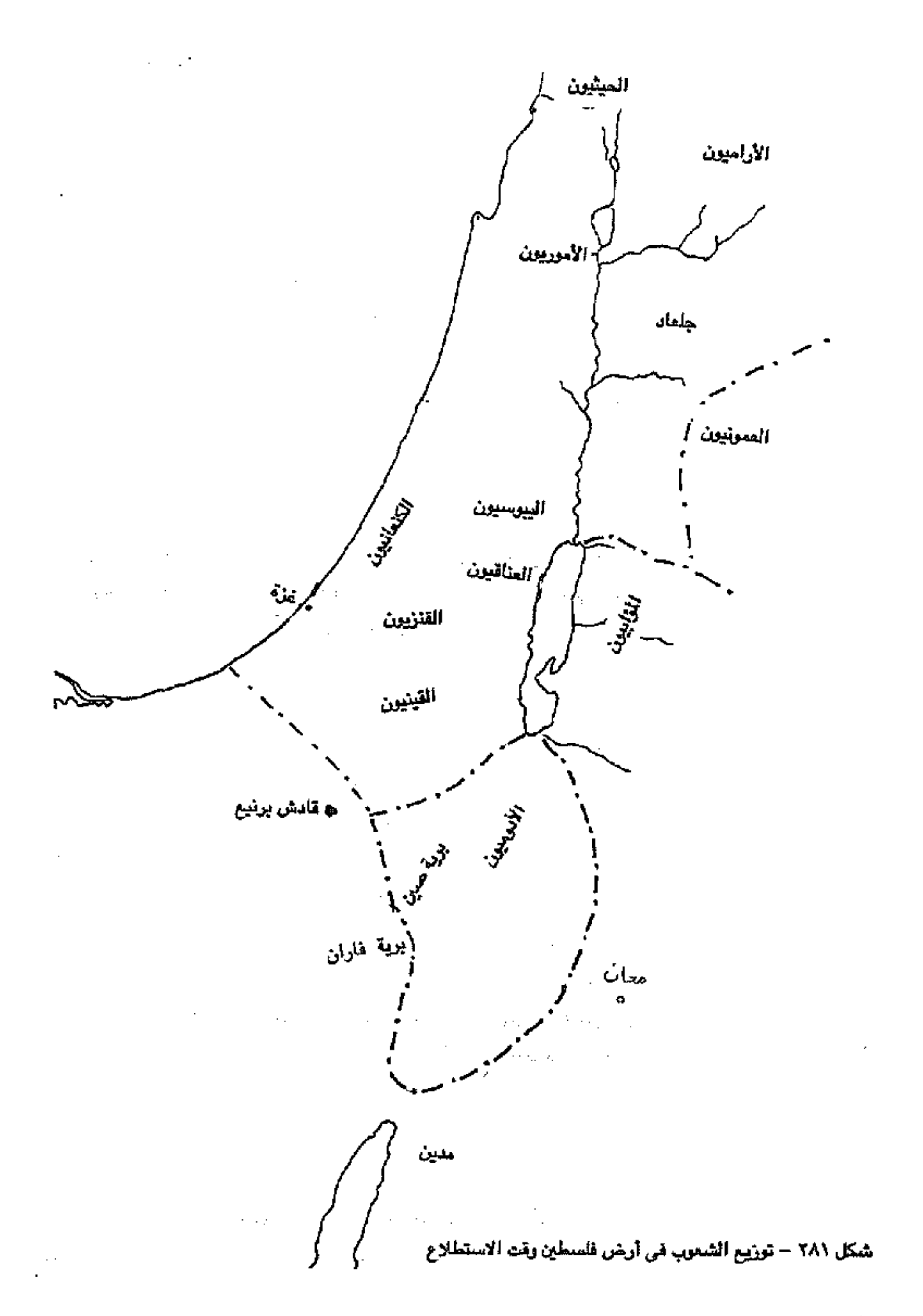
شكل ٢٨٠ – إحصاء الأسباط الاثنى عشر وتوزيعهم حول خيمة الاجتماع.

الانهزام من الداخل !

بعد أن أتم النقباء الإثنا عشر مهمتهم في الاستطلاع عادوا بعد أربعين يوما . وتقول التوراة (عدد ١٣ : ٢٦): فساروا حتى أتوا إلى موسى وهارون وكل جماعة بنى إسرائيل فى قادش برنيع فى برية فاران وردوا إليهما خبرا وإلى كل الجماعة وأروهم ثمر الأرض وقالوا قد ذهبنا إلى الأرض التى أرسلتنا إليها وحقا إنها تفيض لبنا وعسلا وهذا ثمرها غير أن الشعب الساكن فى الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة جدا . وأيضا قد رأينا بنى عناق هناك. العمالقة ساكنون فى أرض الجنوب والحيثيون واليبوسيون والأموريون ساكنون فى الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن (شكل ٢٨١). ولكن كالب بن يفنة (نقيب سبط يهوذا) قال إننا نصعد ونمتلكها لأننا قادرون عليها . وأما الرجال الذين صعدوا معه فقالوا لا نقدر أن نصعد لأنهم أشد منا فأشاعوا مذمة الأرض التى تجسسوها فى بنى إسرائيل قائلين الأرض التى مررنا فيها لنتجسسها هى أرض تأكل سكانها . وجميع الشعب الذى رأينا فيها أناس طوال القامة. وقد رأينا هناك الجبابرة بنى عناق من الجبابرة فكنا فى أعيننا كالجراد وهكذا كنا فى أعينهم. وتمضى التوراة فى تصوير موقف بنى إسرائيل من الدعوة لدخول الأرض هكذا (عدد ١٤): فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة وتذمر على موسى وعلى هارون وقال لهما كل الجماعة: ليتنا متنا فى أرض مصر أو ليتنا متنا فى هذا القفر. ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف. تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة. أليس خيرا لنا أن نرجع إلى مصر؟ فقال بعضهم لبعض نقيم رئيسا ونرجع إلى مصر. فسقط موسى وهارون على وجهيهما أمام كل معشر جماعة بنى إسرائيل. ويشوع بن نون وكالب بن يفنة من الذين تجسسوا الأرض مزقا ثيابهما . وكلّما كل جماعة بنى إسرائيل قائلين: الأرض التى مررنا فيها لنتجسسها الأرض جيدة جدا جدا . إن سُر بنا الرب يُدخلنا إلى هذه الأرض ويعطينا إياها أرضا تفيض لبنا وعسلا. إنما لا تتمردوا على الرب ولا تخافوا من شعب الأرض لأنهم خبزنا (أى سنأكلهم إن حاربناهم). قد زال عنهم ظلهم والرب معنا . لا تخافوهم.

ولكن جماعة بنى إسرائيل هددوا يشوع وكالب بالرجم بالحجارة لموقفهما وتحبيذهما اقتحام الأرض. وكان أكثر خوف بنى إسرائيل من بنى عناق وذريته ويُسمَّون العناقيون. وقد كانوا يوصفون بالجبابرة لطول قامتهم وشدة بأسهم فى الحرب وكانوا يسكنون فى جنوب فلسطين بين القدس والخليل. وقد أشار إليهم القرآن الكريم فى قول بنى إسرائيل لموسى «**إن فيها قوما جبارين**» كما سيأتى ذكره بعد قليل وراح موسى يناشد قومه ويحثهم على دخول الأرض التى وعدها الله لهم ونهاهم عن التخاذل والنكوص عن دخولها لأنهم بذلك سيكونون من الخاسرين

«يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين». (٢١ – المائدة)



شكل ٢٨١ – توزيع الشعوب فى أرض فلسطين وقت الاستطلاع

ولكنهم لم يسمعوا لقول موسى وأصروا على موقفهم المتخاذل خوفا مما سمعوه عن بنى عناق – الجبابرة – الساكنين فيها:

«قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون». (٢٢ – المائدة)

أى أنهم اشترطوا أن يستسلم قومها أولا ويخرجوا منها وبعد ذلك يدخلون هم بسلام وهذا شيء محال إذ هو يتنافى مع سنن الله فى الكون إذ لابد من المجاهدة وسيكون الله عونا لهم فيكون النصر من نصيبهم ويدخلوا الأرض ولكنهم أرادوا أن يدخلوها بدون جهاد وبدون أى مشقة!

وهنا يشير القرآن الكريم إلى حث يشوع بن نون وكالب بن يفنة لبنى إسرائيل لدخول الأرض وأن يتوكلوا على الله وأن الله سيكون فى جانبهم يؤيدهم – إذا كانوا مؤمنين حقا – فتكون الغلبة لهم:

«قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين». (٢٣–المائدة)

والمفهوم من كلمة «**يخافون**» أى يخافون الله. والمراد رجلان من النقباء الإثنى عشر «**أنعم الله عليهما**» بقوة فى الإيمان. ولكن بعضهم فسرها بأن المقصود رجلان من بنى إسرائيل لأن بنى إسرائيل هم الذين كانوا يخافون العدو. وآخرون تمادوا فى التفسير وقرأها «يُخافون» بضم الياء فيكون الرجلان من الجبابرة وادعوا أنهما آمنا بموسى وراحا يشجعان بنى إسرائيل. وقالوا أقوالا أخرى (تفسير الألوسى. جـ ٦ ص ١٠٧) غير مستساغة.

ولكن بنى إسرائيل ظلوا على موقفهم الرافض لدخول الأرض وأنه ما دام الجبارون – أهلها – موجودين فيها فإنهم لن يدخلوها أبداً ثم ختموا رفضهم بقول فيه استهانة واستهزاء بموسى وجرأة بالغة على الله سبحانه وتعالى:

«قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها. فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون». (٢٤ – المائدة)

وكان هذا معصية كبرى. إذ وصفهم الله – على لسان موسى – بعد ذلك بالقوم الفاسقين. وهنا أسقط في يد موسى إذ ماذا يفعل مع هذا الشعب العنيد ضعيف الهمة فاتر الإيمان أو فاقده. فلم يكن أمامه سوى أن يلجأ إلى الله ويشتكى إليه:

«قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين». (٢٥ – المائدة)

أى أنه لا يجيبه إلا نفسه وأخيه فقط. ولعله لم يذكر الرجلين اللذين كانا يحثان بنى

إسرائيل على الدخول (يشوع وكالب) لأنها لن يزيدا من واقع الأمر شيئا أو لأنه - بعد ما رأى من تخاذل الجميع - لم يعد واثقا فى انضمامهما إليه فأفاد بما هو واثق منه: نفسه ونفس أخيه. وطلب من الله أن يقضى بينهما (هما وبنى إسرائيل) بحكمه أو أن يباعد بينهما حتى لا يلحقهما عذاب ينزله بهم.

تقول التوراة (عدد ١٤ : ١١): وقال الرب لموسى: حتى متى يُهيننى هذا الشعب وحتى متى لا يصدقوننى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم. إنى أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيّرك شعبا أكبر وأعظم منهم (أى شعبا من ذرية موسى) - ولكن موسى عليه السلام راح يتوسل إلى الله حتى لا يهلك بنى إسرائيل فقال: فالآن لتعظم قدرة سيدى. الرب طويل الروح كثير الإحسان يغفر الذنب والسيئة. اصفح عن ذنب هذا الشعب كعظمة نعمتك - فقال الرب قد صفحت حسب قولك ولكن جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية وجربونى الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولى لن يروا الأرض التى حلفت لآبائهم وجميع الذين أهانونى لا يرونها. قل لهم حَىٌّ أنا يقول الرب لأفعلن بكم كما تكلمتم فى أذنى (عندما قالوا: أو ليتنا متنا فى هذا القفر). فى هذا القفر تسقط جثثكم. جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعدا الذين تذمَّروا علىَّ. لن تدخلوا الأرض التى رفعت يدى لأسكنكم فيها ماعدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون: وأما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة فإنى سأدخلهم فيعرفون الأرض التى احتقرتموها. فجثثكم أنتم تسقط فى هذا القفر. وبنوكم يكونون رعاة فى القفر أربعين سنة. أنا الرب قد تكلمت. لأفعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة. فى هذا القفر يفنون ويموتون. فمات الرجال الذين أشاعوا المذمَّة الرديئة على الأرض بالوباء وأما يشوع بن نون وكالب بن يفنة فعاشا (عدد ١٤ : ٣٨).

ويختصر القرآن الكريم هذا الموقف فى قوله تعالى:

«قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين». (٢٦-المائدة)

وقرئت بوقف بعد عليهم «محرمة عليهم» فيكون التحريم مطلقا. وتكون الأربعون سنة ظرف زمان للتيه كعقوبة أخرى. وقرئت بوقف بعد أربعين سنة فتكون الأربعون سنة هى فترة التحريم والتيه صفة لفترة التحريم المؤقت وعليهم بعد ذلك أن يدخلوها. وهذا ما حدث فعلا.

لما علم بنو إسرائيل بما حكم به الله عليهم - وهو التيه فى الصحراء أربعين سنة حتى يموت كل من نكص عن تنفيذ أمر الله بدخول الأرض. ومات بالوباء النقباء العشرة الذين تكلموا ضد اقتحام الأرض وكانوا سببا فى التخاذل. عندئذ. أدرك بنو إسرائيل أن الأمر جد فندموا. وتقول التوراة (عدد ١٤ : ٣٩): ولما تكلم موسى بهذا الكلام إلى جميع بنى إسرائيل

بكى الشعب جدا. ثم بكروا صباحا وصعدوا إلى رأس الجبل قائلين هو ذا نحن. نصعد إلى الموضع الذى قال الرب عنه فإننا قد أخطأنا فقال لهم موسى لماذا تتجاوزون قول الرب؟ فهذا لاينجح. لاتصعدوا لأن الرب ليس في وسطكم لئلا تنهزموا أمام أعدائكم. إنكم قد إرتددتم عن الرب فالرب لا يكون معكم. لكنهم تجبروا وصعدوا إلى رأس الجبل فنزل العمالقة والكنعانيون الساكنون في ذلك الجبل وضربوهم وكسّروهم.

وهكذا أضاف بنو إسرائيل إلى عصيانهم الأول بعدم دخول الأرض عصيانا آخر بعدم الرضوخ لأمر الله ومحاولة أخذ الأرض حالا. ولما نهاهم موسى عن ذلك عزموا أن يقوموا بذلك بأنفسهم وكان من الطبيعى أن تفشل المحاولة وتقع بهم الهزيمة.

ويلخص القرآن الكريم موقف بنى إسرائيل هذا في الآية التالية:

«ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا. وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل. فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم..».

(١٢ - المائدة)

فقد أخذ الله العهد على بنى إسرائيل وأخذ ميثاقهم «**وقال الله إنى معكم**» تكملة وخطاب إلى بنى إسرائيل – وهذا ما قاله أغلب المفسرين – ولا عبرة بضعيف القول من أنه خطاب للإثنى عشر نقيبا إذ لا يستقيم المعنى أن يكون إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وما بعدها خاصا بالإثنى عشر نقيبا فقط. فإذا كان الأمر كذلك يتبدى وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم فى جملة «**وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا**» إذ تصبح فى هذه الحالة جملة إعتراضية ويكون الهدف منها الإشارة إلى ما ورد تفصيلا فى التوراة عن أسماء هؤلاء الإثنى عشر نقيبا. ومسيرتهم وهدفهم فى استطلاع الأرض والإتيان بخبر أهلها. فالقرآن الكريم وهو أساسا كتاب هداية وإيمان لم يشأ إدراج هذه التفاصيل فأشار إليها بهذه الجملة الاعتراضية القصيرة. ولتكون عونا على فهم المضمون الإيمانى لباقى الآية – إذ كان قوله تعالى لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة عن إيمان صادق لوجب الإيمان بكل ما يأمرهم به الرسل وعليهم مؤازرتهم ومناصرتهم. هنا تأتى «**وأقرضتم الله قرض حسنا**» وجلُّ المفسرون قالوا أى الإنفاق فى سبيل الخير. وما نراه أن القرض الحسن المقصود هنا هو الجهاد فى سبيل الله ومؤازرة موسى عليه السلام فى دعوته لهم لدخول الأرض فمن قتل. فقد جاد بروحه فى سبيل الله . وإذا كان إنفاق المال فى سبيل الله هو نوع من الإقراض لله تعالى فإن بذل الروح أعظم درجة فهو القرض الحسن. ويكون المقابل لذلك تكفير سيئاته وإدخاله فى الآخرة جنات تجرى من تحتها الأنهار. ومن عاش وقد أصيب فى جسده أو سلم فسيكفّر الله عنه سيئاته ويدخله الأرض التى وعدها

لهم، وهى غنية بالثمار وافرة المياه فهى أيضا جنات تجرى من تحتها الأنهار. وفى ختام الآية تحذير من نقض الميثاق والكفر به ومن لم ينفذه فقد ضل سواء السبيل. وفيه إشارة لما حدث من بنى اسرائيل إذ أحجموا عن مناصرة نبيهم ومؤازرته وبخلوا وضنوا بأرواحهم وقالوا «**إنا هـا هنا قاعدون**» فكان هذا منهم كفرا ونقضا للميثاق. وكان جزاؤهم اللعنة «**فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم**» وتمثلت اللعنة فى حرمانهم من دخول الأرض أربعين سنة يتيهون فى الأرض.

وعاد بنو إسرائيل إلى «قادش برنيع» وبدأت سنوات التيه.

الفصل التاسع

فى التيه

مما لاشك فيه أنها كانت صدمة كبيرة لبنى إسرائيل لما علموا بأنهم قد حُكم عليهم بالبقاء فى سيناء مدة أربعين سنة أخرى. كان قد مضى عليهم منذ خروجهم من مصر سنة وحوالى أربعة أشهر وكانوا قد بدأوا يتذمرون من المعيشة فى الصحراء والوديان والجبال ويمنون أنفسهم بقرب دخول الأرض وإذا بهم يُفرض عليهم البقاء أربعين سنة كاملة فى سيناء! ولكن لم يكن أمامهم إلا الرضوخ لأمر الرب. وها هم قد جربوا أن يدخلوا الأرض رغما عن تحذيرات موسى فنالوا جزاءهم هزيمة على أيدى العمالقة والكنعانيين.

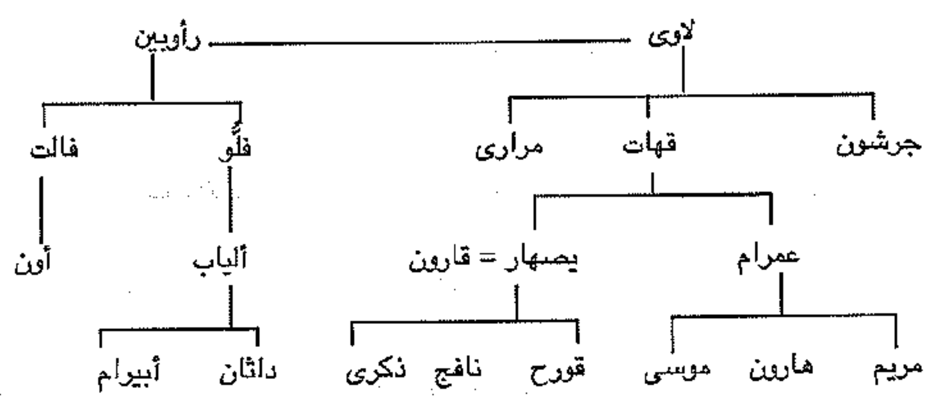
كذلك مما لاشك فيه أن موسى عليه السلام قد خاب أمله فى هذا الشعب الذى أوكل إليه أمره. لقد كان فى ظنه أنهم – وقد ذاقوا الذل والعبودية فى مصر سنوات طويلة – سيكونون حريصين على دخول الأرض وأنه ما إن يأمرهم بذلك حتى يأخذهم الحماس لتحقيق الحلم الذى طالما راود خواطرهم ويمتثلوا لأمره. ولكنهم تخاذلوا وعصوا أمر ربهم حتى استحقوا غضبه وحكم عليهم بالتيه أربعين سنة – وهو معهم. كانت سنه تقارب الثانية والستين. أى لن يغادر سيناء إلا وقد زاد عن المائة سنتين!

عكف موسى عليه السلام على بنى إسرائيل يُرسِّخ فيهم القيم الدينية التى أنزلت. إذ الواضح أنهم لم يستوعبوها حق الاستيعاب فى السنة وعدة أشهر التى أنقضت منذ أخذ الألواح من ربه عند الجبل. ولكن ها هى السنون الطوال أمامه – أربعون سنة – فوجَّه إهتمامه كله إلى الشباب إذ هم جيل المستقبل الذى سيحمل عبء دخول الأرض ويجب أن يكون مسلحا بالإيمان الكامل. وهكذا بدأ يشرح لهم التعاليم ويفسر لهم الأحكام يعاونه فى ذلك هارون وفتاه يوشع بن نون والسبعون رجلا الذين أمره الله باختيارهم وحلَّ عليهم بهاء الرب فتنبأوا كما تقول التوراة أو أصبحوا كالحواريين وانتشروا بين جموع بنى إسرائيل يعلمونهم الكتاب ويدرِّسونه لهم ولأبنائهم وأكد موسى على بنى إسرائيل ضرورة الالتزام بالشريعة وأحكامها.

تقول التوراة (عدد ١٥:٣٢) ولما كان بنو إسرائيل فى البرية وجدوا رجلا يحتطب حطبا فى يوم السبت فقدمه الذين وجدوه إلى موسى وهارون فوضعوه فى المحرس لأنهم لم يعرفوا ماذا يُفعل به. (لم تكن قد نزلت بعد العقوبة المقررة لمن يعمل يوم السبت) فقال الرب لموسى: قتلا يقتل الرجل. يرجمه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة. فأخرجه كل الجماعة إلى خارج المحلة ورجموه بحجارة فمات كما أمر الرب.

ثورة قورح :

لقد سبق أن ذكرنا (ص ٨٧٠) شجرة نسب أبناء لاوى بن يعقوب عليه السلام ومنها يتضح أن قارون (يصهار) هو أبو قورح، ولا بأس من إعادة شجرة النسب ثانية مع توسيعها بعض الشيء لنعلم من انضم إلى قورح فى ثورته.



كان قارون هو عم موسى - فقورح هو ابن عم موسى، وذكرنا ماحدث لقارون من خسف الأرض به وبداره وماكان بها من كنوز. وحُرِمَ ابنه قورح من الثروة التى كان يمنِّى نفسه بالتمتع بها بعد وفاة والده وأحدث ذلك جرحا غائرا فى نفسه ولكنه كتمه. ولما صدر أمر الخروج خرج مع بنى إسرائيل إذ لم يعد يربطة شيء بأرض مصر. ولعله كان يمنى نفسه طوال المسيرة فى سيناء أنه ما إن يصل إلى «الأرض الجديدة» حتى يعمل بهمة ونشاط - كما فعل والده من قبل - ولا بأس من التعاون مع سكان الأرض - حتى يكوِّن ثروة أخرى، ولكن ها قد تأخر دخول الأرض لا سنة واحدة أو اثنتين، بل أربعين سنة. هنا تحركت الأفعى داخله وراحت تبث سمومها فأفرزت سخطا على موسى وعلى قيادته، لاندرى إن كان قد بدأ يفكر فى العودة بالشعب إلى أرض مصر ثانية ويسلمه إلى فرعون مصر ويعمل نفس الدور الذى عمله والده ويكنز الأموال. المهم أن الثورة على موسى اختمرت فى رأسه وراح يجمع حوله الأعوان. ولئن كانت هذه دوافعه فقد كان لمن جمعهم حوله دوافعهم. فإن داثان وأبيرام وأون هم من نسل رأوبين، الابن البكر ليعقوب، ويشعرون أنهم أولى من موسى بالمكان الممتاز فى الشعب.

تقول التوراة (عدد ١٦:١) وأخذ قورح بن يصهار بن قهات بن لاوى وداثان وأبيرام ابنا أليآب وأون بن فالت بنو رأوبين يقاومون موسى مع أناس من بنى إسرائيل ٢٥٠ رؤساء الجماعة، فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما: كفاكما، إن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفى وسطها الرب فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب. فلما سمع موسى سقط على وجهه ثم كلم قورح وجميع قومه قائلا غدا يعلن الرب من هو له ومن المقدَّس حتى يقربه إليه. افعلوا هذا. خذوا لكم مجامر، قورح وكل جماعته واجعلوا فيها نارا وضعوا عليها بخورا أمام الرب غدا

فالرجل الذى يختاره الرب هو المقدَّس. وواضح من شجرة النسب أن قورح هو واحد من اللاويين الذين اختارهم الرب لخدمة المسكن وخيمة الإجتماع ولكنه كان يطمع فى الكهانة أيضا – ولذلك قال موسى موجها الكلام لقورح ومن التف حوله من اللاويين: أقليل عليكم أن إله إسرائيل أفرزكم من جماعة إسرائيل ليقربكم إليه لكى تعملوا خدمة مسكن الرب وتطلبون أيضا كهنوتا؟ وأرسل موسى فى طلب داثان وأبيرام ليسمع منهما فرفضا القدوم إليه وأرسلا يقولان: أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض لبنا وعسلا لتميتنا فى البرية حتى تترأس علينا كذلك لم تأت بنا إلى أرض تفيض لبنا وعسلاً ولا أعطيتنا نصيب حقول وكروم.

واغتاظ موسى وطلب من قورح وجماعته أن يأخذوا مجامرهم كما أمر. ففعلوا واجتمعوا أمام باب خيمة الاجتماع. فتراءى مجد الرب على الجماعة وكلم موسى وهارون قائلا ابتعدوا عن هذه الجماعة فإنى أفنيهم فى لحظة وكلَّم الشعب قائلا اطلعوا من حوالى مسكن قورح وداثان وأبيرام. فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التى تحتهم وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال وانطبقت عليهم الأرض وبادوا. وخرجت نار من عند الرب وأكلت الـ ٢٥٠ رجلا الذين قرَّبوا البخور. وأمر أن يأخذ أليعازار بن هارون المجامر التى كانت فى أيديهم ويعملها صفائح مطروقة غشاء للمذبح فتكون علامة لبنى إسرائيل أى تذكرة لكل من تسوِّل له نفسه التمرد على موسى وهارون وقيادتهما.

وبدأت جماعة من بنى إسرائيل من الأسباط الأخرى تتذمر وتتهم موسى وهارون قائلين: أنتما قتلتما شعب الرب. فحل عليهم غضب الرب. وفشا بينهم وباء يميتهم فأمر موسى هارون بأن يأخذ مجمرته ويجعل فيها نارا من على المذبح وبخورا ويسرع إلى وسط الجماعة ليكفِّر عنهم فامتنع الوباء بعد أن مات ١٤,٧٠٠ أربعة عشر ألف وسبعمائة عدا الذين ماتوا مع قورح بانخساف الأرض والـ ٢٥٠ الذين أكلتهم النار أمام باب خيمة الاجتماع.

وهكذا انتهى التمرد الذى قاده قورح ضد موسى وهارون. وكأنما أراد الله أن يُظهر حق هارون فى الكهنوت لباقى الأسباط بطريقة عملية. فأمر أن تؤخذ عصىٌ على عدد الأسباط – ١٢ عصا – ويكتب اسم كل سبط على عصاه ويكتب اسم هارون على عصا سبط لاوى ثم توضع العصى فى خيمة الاجتماع أمام التابوت فالرجل الذى تخضرُّ عصاه يكون هو الذى اختاره الرب. ففعلوا كذلك. وفى اليوم التالى أخرج موسى العصىَّ ليشاهدها جميع بنى إسرائيل فرأوا أن عصا هارون قد اخضرَّت وأزهرت وأنتجت لوزا. وقال الرب لموسى رُدَّ عصا هارون إلى أمام تابوت الشهادة لأجل الحفظ علامة لبنى التمرد فتكُفَّ تذمراتهم. فوُضعت عصا هارون التى أفرخت داخل التابوت.

واطمأن موسى إلى أن بنى إسرائيل – بعد هذا الدرس القاسى – لن يحاولوا التمرد على هارون أو عصيانه كما فعلوا حينما استخلفه فيهم من قبل عندما ذهب لميقات الأربعين يوما مع ربه فعبدوا العجل.

منازل التيه :

استمر بنو إسرائيل يرتحلون فى سيناء وتذكر التوراة (عدد ٣٣:١٧-٣٧) أسماء الأماكن التى نزلوا فيها وهى تربو على ٢٠ منزلا لم يتمكن الجغرافيون أو علماء الآثار من تحديد موقعها على الخريطة الجغرافية. ذلك أنها لم تكن قرى تُسكن سكنا دائما. بل كانت منازل ينزلون بها ويعطونها إسما ثم يرتحلون إلى غيرها. وقد وردت فقرة فى التوراة (تثنية ٢:١٤) تقول: والأيام التى سرناها من قادش برنيع حتى عبرنا وادى زارد كانت ٣٨ سنة حتى فنى كل الجيل رجال الحرب من وسط المحلة كما أقسم الرب. وقد فهم البعض معنى هذه الفقرة على أن بنى إسرائيل أمضوا هذه الـ ٣٨ سنة فى قادش برنيع. وفى رأينا أن هذا فهم خاطىء لأن الفقرة تشير إلى مكان بدء التيه من قادش برفيع - وحينما قاربت الأربعون سنة على الانتهاء كانوا عند وادى زارد. أما ما بين هاتين النقطتين فلا تشير إليه هذه الفقرة. والحقيقة أنه يستحيل أن تتوافر مقومات الحياة لكل هذا العدد (٦٠٠,٠٠٠) أو المراعى اللازمة لمواشيهم فى بقعة محدودة كهذه. بل لابد من الارتحال الدائم وراء الكلأ للماشية فجابوا سيناء من شمالها إلى جنوبها. ومما لاشك فيه أن أياً من هذه المنازل ماكانت لتزيد الإقامة فيه عن عامين. وحالما كانوا ينزلون فى منزلٍ كان بنو لاوى يقيمون المسكن وخيمة الاجتماع لنزول الوحى على موسى عليه السلام ولإقامة العبادات والطقوس الدينية الأخرى ولاحتفالات الأعياد. وحينما ينوون الرحيل يتم فك الدار وخيمة الاجتماع ويحملها بنو لاوى ويسير الركب كله حتى يروا منزلا آخر يستقرون به عاما أو عامين.

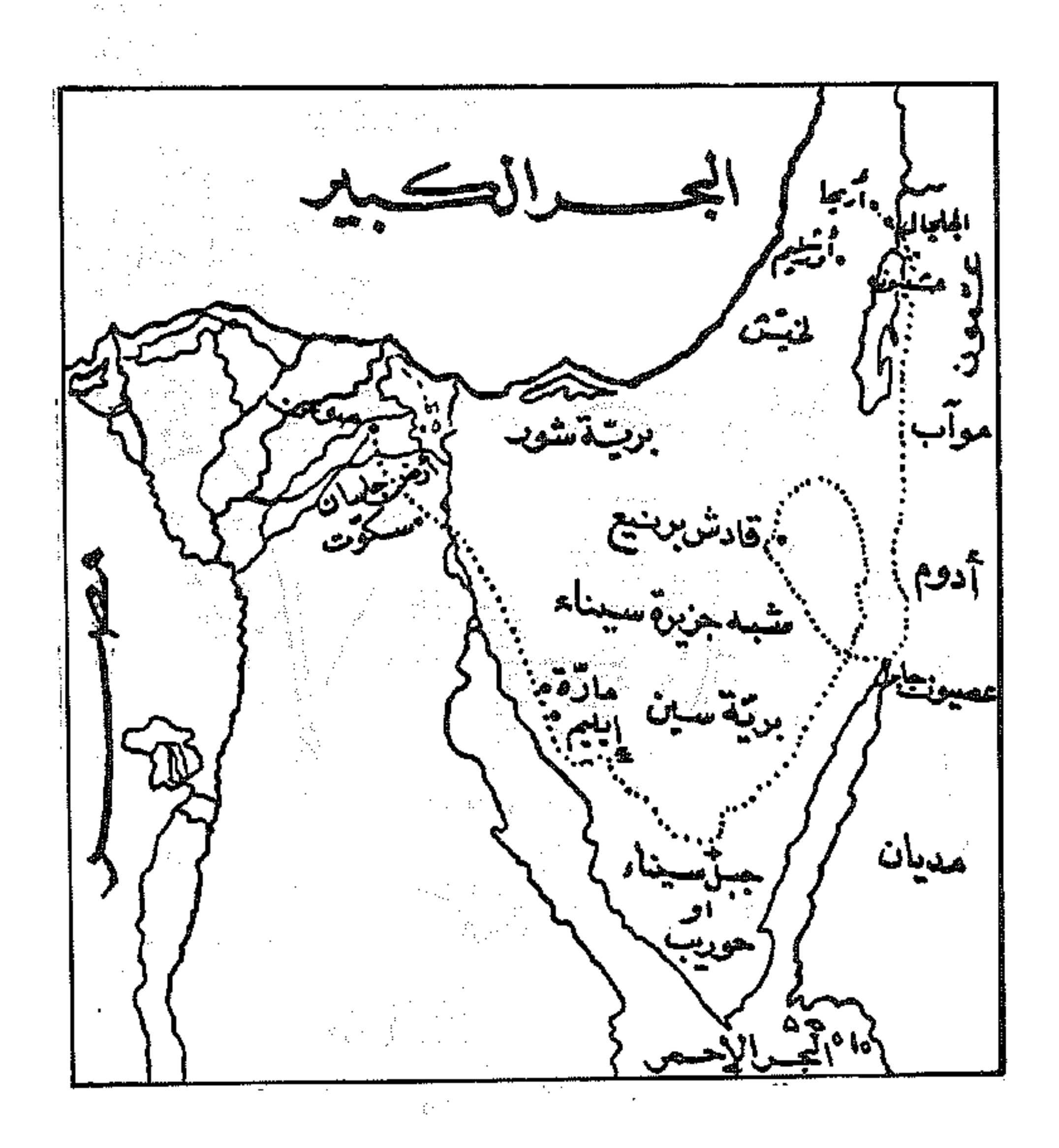
ويختلف علماء الآثار والتاريخ فى تقديراتهم لمواقع الأماكن التى نزل بها بنو إسرائيل أثناء وجودهم فى سيناء وبذلك يختلف خط السير المذكور فى كتاب عن كتاب آخر ويمكن تصنيف خطوط السير المختلفة إلى مجموعتين: الأولى يمكن تسميتها بنظريات التمركز حول قادش برنيع والثانية يمكن تسميتها بنظريات التيه فى كل سيناء.

أ - التمركز حول قادش برنيع :

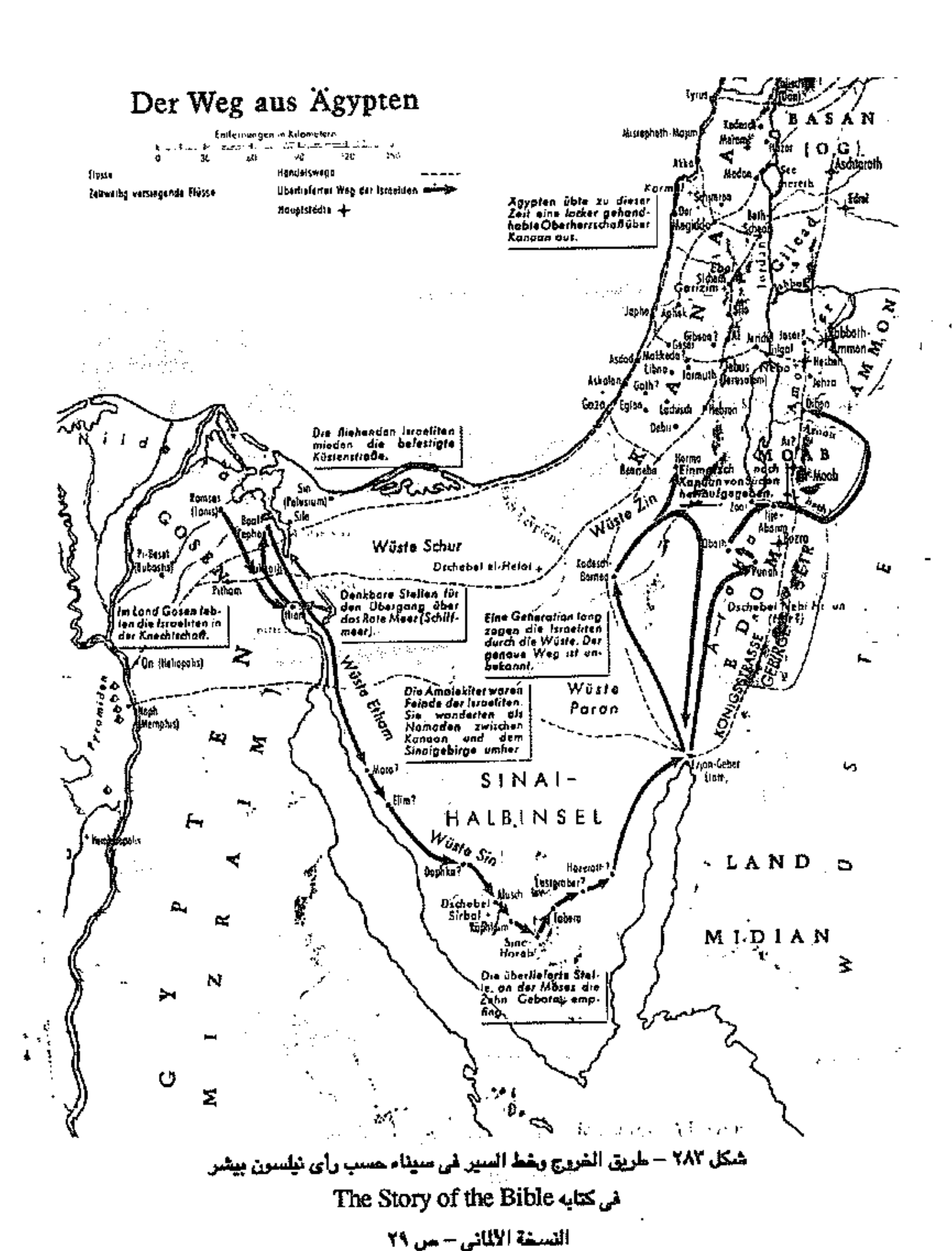
يرى أصحاب هذه النظريات - كما سبق أن ذكرنا آنفا أن بنى إسرائيل أمضوا معظم الوقت - ٣٨ سنة - متخذين من قادش برنيع مركزا لهم يتجولون حولها في البرية. ويتبنى هذا الرأى.

١ - قاموس الكتاب المقدس (جماعة اللاهوتيين ص٢٢٨). وخط السير من وجهة نظرهم مبين فى شكل ٢٨٢. وهو يسير فى دائرة بعكس عقارب الساعة.

٢ - نيلسون بيشر (The Story of the Bible, p.29) وهو تقريبا نفس المسار السابق إلاَّ أنه يعكس اتجاه السير فيجعله مع عقارب الساعة (شكل ٢٨٣).



شكل ٢٨٢ – خط السير فى سيناء كما ورد فى تفسير الكتاب المقدس (تأليف جماعة اللاهوتيين – ص ٢٣٨).



شكل ٢٨٣ – طريق الخروج وخط السير فى سيناء حسب رأى نيلسون بيشر

فى كتابه The Story of the Bible

النسخة الألماني – ص ٢٩

٣ – **ميريل أونجر** Merril F.Unger (قاموس الكتاب المقدس ص ٣٧١، ٣٨٤) وهو نفس خط السير – كما هو مبين فى شكل ٢٨٤، وإن لم يوضح عليه اتجاه الدوران.

وهذه الآراء الثلاثة تقول إن بنى إسرائيل قد أمضوا ٣٨ عاما حول قادش برنيع استنادا إلى فقرة التوراة التى ذكرناها أعلاه (تثنية ٢:١٤). ويشرح أونجر سنوات التيه بأن بنى إسرائيل انتشروا فى المنطقة حول قادش برنيع يتجولون فيها كجماعات متفرقة ثم تلاقى الجميع ثانية فى قادش برنيع مستندا إلى الفقرة (عدد ٢٠:١) **وأتى بنو إسرائيل إلى الجماعة كلها وأقام الشعب فى قادش وماتت مريم ودفنت هناك**. وهذا كان فى نهاية سنوات التيه. وكما قلنا سابقا إن ذلك لا يعنى أن بنى إسرائيل ظلوا فى قادش برنيع طوال الـ ٣٨ سنة. كما أن التوراة (عدد ٣٣:١٤) قد ذكرت حوالى ٢٠ منزلا نزلها بنو إسرائيل فى سيناء ولا يمكن تصوُّر وضع جميع هذه الأماكن على الخط الموصل من قادش برنيع إلى عصيون جابر على الطرف الشمالى لخليج العقبة. كما لا يمكن تصوُّر النزول بها جميعا فى فترة السنتين الباقيتين من سنوات التيه إذ أن ذلك يعنى أن إقامتهم فى أى منها ماكانت لتزيد عن شهرين وهذا مستحيل عمليا. وهو مايجعل النظريات الأخرى أكثر قبولا وهى مايمكن تسميتها:

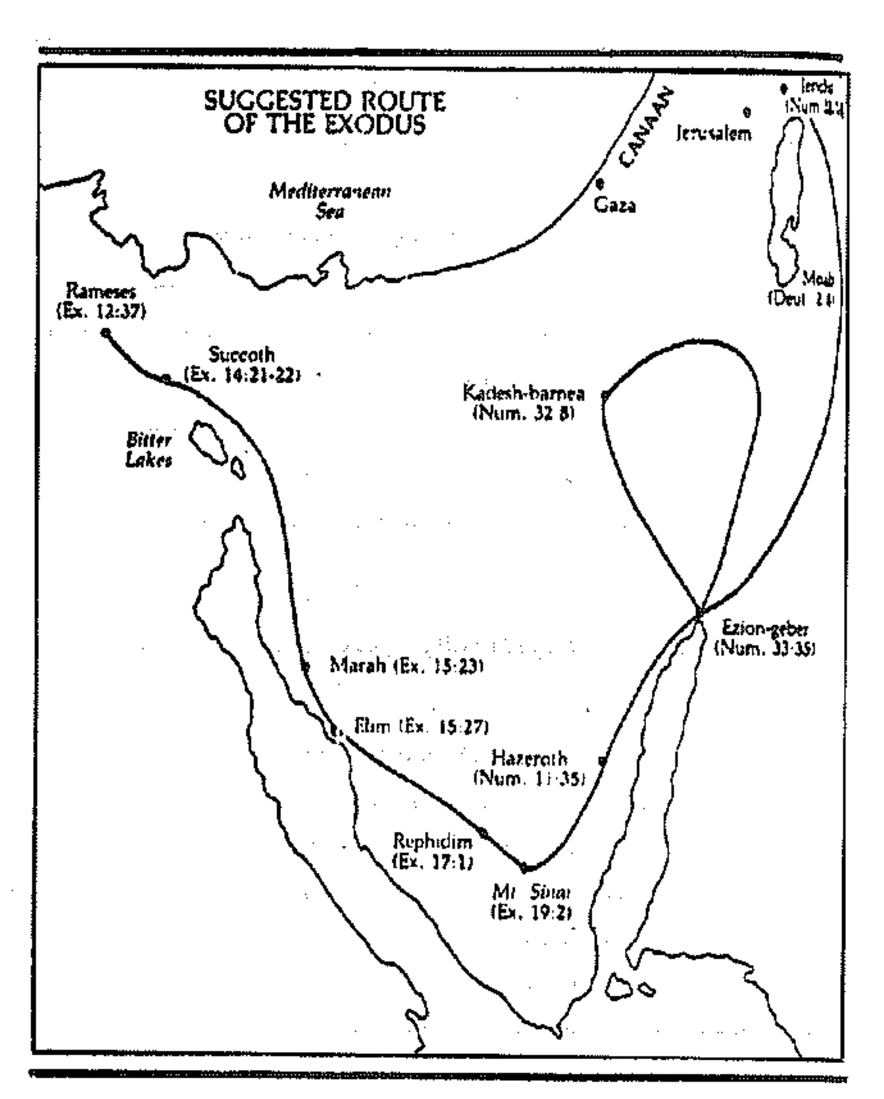
ب – نظريات التيه فى كل سيناء :

ولغويا تاه فى الأرض ضل وذهب متحيرا. والتيه المفازة لا علامة فيها يُهتدى بها (المعجم الوسيط جـ١ ص٩٢). وجاء فى القرآن الكريم:

«فإنها محرمة عليهم أربعين سنة. يتيهون فى الأرض». (٢٦ – المائدة)

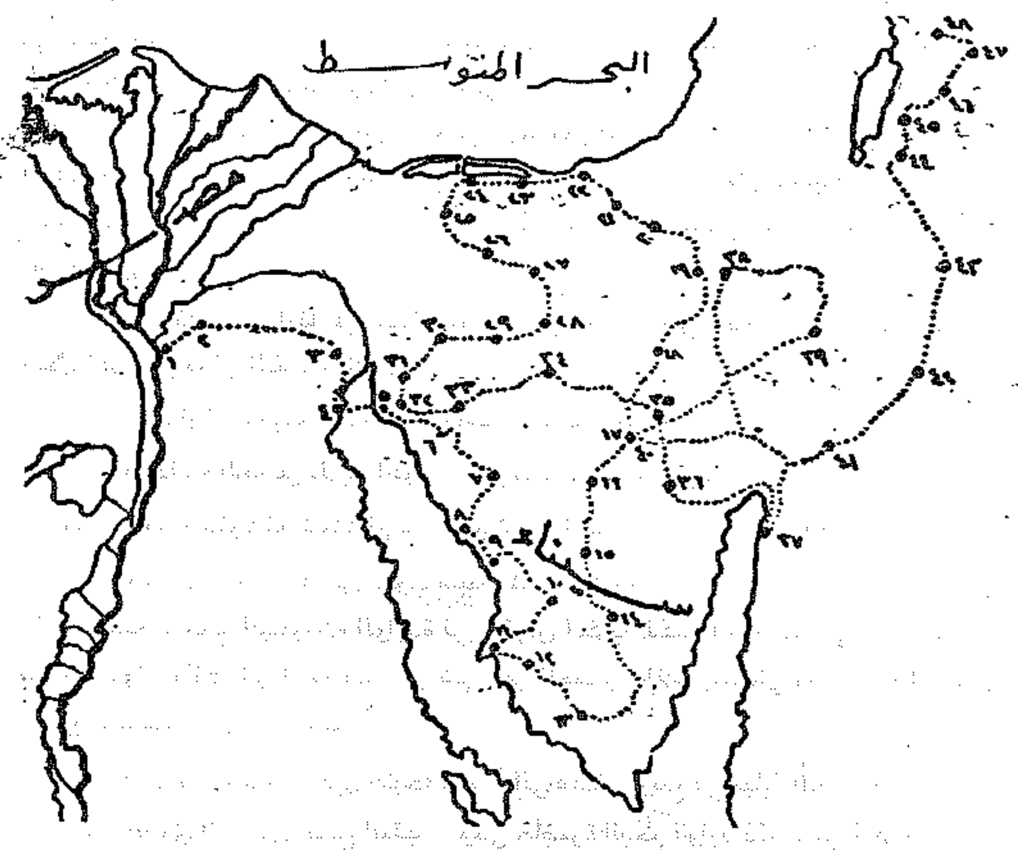
والتمركز حول مدينة معينة لا يعتبر تيها فضلا عن أن مدينة قادش برنيع تقع على طريق القوافل فلا تعتبر تيها. كما أن ذلك قد يُغرى بتسرب بعض الأفراد أو الجماعات – مع القوافل – إلى البلدان المجاورة وخاصة لطول المدة – ٤٠ عاما – وهذا ماكان موسى عليه السلام – بلاشك – يحرص على عدم حدوثه. لذلك فإنه بعد أن رفض بنو إسرائيل دخول الأرض وفُرض عليهم التيه فإنه قادهم من قادش برنيع إلى صحراء سيناء الواسعة. ومعالمها متشابهة ومن البديهى أن عمود الدخان وعمود النار اللذين كانا يهديانهم الطريق – كما يقولون – قد اختفيا. فظلوا يدورون فى الوديان والسهول بين الجبال على غير هدى حتى إذا قاربت السنوات الأربعون على الانتهاء هداهم الله إلى طريق قادش برنيع ثانية لدخول الأرض من الجنوب كما كانت خطتهم.

١ – **فى هذا الإطار تأتى نظرية الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم** (مصر والشرق الأدنى القديم، جـ٥ ص١٦٤) والمسيرة كما ارتآها موضحة فى شكل ٢٨٥. واعتراضنا عليها يتمثل فى جعله معظم منازل التيه فى شمال سيناء الذى تخترقه كثير من طرق القوافل. مما يعرِّض بنى إسرائيل لاكتشاف أمرهم وسهولة تتبعهم بقوات الفرعون الجديد (مرنبتاح أو



شكل ٢٨٤ – المسيرة فى سيناء كما يراها أونجر ميريل

وهى تشبه شكل ٢٨٣ لنيسلون بيشر.



شكل ٢٨٥ – طريق الخروج ومسيرة سيناء والتيه حسب رأى الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم .

(مصر والشرق الأدنى القديم جـ٥ ص ١٦٤).

١ – بررعمسيس
٢ – سكوت
٣ – ايثام
٤ – فم الحيروث
٥ – برية شور
٦ – برية ايثام
٧ – مـارة
٨ – ايليـم
٩ – البحر الأحمر
١٠ – برية سين
١١ – دفقة
١٢ – الوش
١٣ – رفيديم
١٤ – جبل سيناء
١٥ – برية فاران
١٦ – تابيراه = تيمرة
١٧ – كبروت حتاوة
١٨ – حضيروت
١٩ – قادش برنيع
٢٠ – رمون باريز
٢١ – لبنة
٢٢ – رصة
٢٣ – كهلاتة = قهيلاتة
٢٤ – جبل شافار
٢٥ – حرادة
٢٦ – ماكيلوث
٢٧ – ملهاث
٢٨ – طرح
٢٩ – متكة
٣٠ – حشمونة
٣١ – بيروت
٣٢ – موسيرويث
٣٣ – بانيا (بني يعقان)
٣٤ – هوجا جدجاد (جدجدة)
٣٥ – يوتباثة اتيباثة
٣٦ – ابرونا
٣٧ – عزيون جابر
٣٨ – قادش برنيع
٣٩ – جبل هور
٤٠ – كبروت حتاوة
٤١ – زلمونة
٤٢ – بونون
٤٣ – أوبوت
٤٤ – تيم
٤٥ – وادى زرد
٤٦ – أر
٤٧ – ياهص
٤٨ – يزجة

خلفاؤه) وإعادتهم إلى مصر أو القضاء عليهم وخاصة أن كتب التاريخ تذكر أن مرنبتاح قد جرَّد فى السنة الخامسة من حكمه حملة إلى فلسطين ولو كانت منازلهم فى شمال سيناء لكان قد عرف مكانهم ولكان ما ادعاه فى اللوح المعروف باسمه من إبادته لبذرة بنى إسرائيل – قد حدث فعلا ولكان قد قُضِىَ على بنى إسرائيل ولما كان لهم ذكر بعد ذلك – أو على الأقل لكان قد أعادهم إلى مصر. ولكن لأن منازلهم فى التيه كانت فى وسط وجنوب سيناء فقد عَمِىَ عن مكانهم وكانوا بعيدين عن متناول يده وكان ما ذُكر فى لوح مرنبتاح مجرد ادعاء وتفاخر من النوع المعروف عن الفراعنة.

٢ – من هنا يأتى رأينا فى خط سير بنى إسرائيل فى سيناء كما هو موضح فى شكل ٢٨٦ وهو يحقق النقاط التالية:

أ – سعة دائرة التيه بحيث يمكن أن توضع عليها جميع الأماكن التى وردت فى التوراة.

ب – بعد دائرة التيه عن طريق القوافل حتى تأمن مطاردة الفراعين.

حـ – الاتجاه جنوبا ثم شمالا ثم جنوبا ثم شمالا ثانية وهو ما يعنى تيها فعليا.

د – جعلنا قهيلاته فى أقصى جنوب سيناء لأن قهيلاته تعنى بالعبرية «مجمع» وبهذا ينطبق عليها كلمة «مجمع البحرين» الواردة فى القرآن الكريم لمكان إلتقاء موسى عليه السلام بالخضر، وإن كانت التوراة لم تذكر أى شىء عن الخضر إطلاقا وبالتالى فإن جميع المؤرخين الغربيين لم يذكروا أى شىء عنه.

هـ – كانت آخر محطة – قبل التوجه شمالا إلى قادش برنيع فى نهاية التيه – هى عصيون جابر عند الطرق الشمالى لخليج العقبة – وهى حاضرة البحر الوارد ذكرها فى القرآن الكريم – وأهلها الذين اعتدوا على حرمة يوم السبت فمسخوا قردة وخنازير – وبالطبع لا نتوقع أن يذكر أهل الكتاب ذلك الأمر بل تجاهلوه كلية.

لذلك فإن ما نراه فى طريق السير فى سيناء يحقق أكبر قدر من الحقائق الدينية الثابتة فى القرآن الكريم ويحقق أكبر عدد من الأماكن التاريخية الواردة فى التوراة.

نعود ثانية إلى بنى إسرائيل فى قادش برنيع وقد رفضوا دخول الأرض وحُكِم عليهم بالتيه. وكانت ثورة التمرد التى تزعمها قورح وتم القضاء عليها كما سبق ذكره.

بعد ذلك ارتحل بنو إسرائيل – بقيادة موسى عليه السلام – جنوبا فوصلوا إلى **«رثمة»** وهى تقع إلى الشمال قليلا من «عين خضراء» أو «عين الأخضر» الحالية التى تقع حوالى ٤٠كم شمال جبل موسى وفيها حدثت قصة البقرة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم وسميت باسمها أول سورة بعد الفاتحة.



شكل ٢٨٦ – المسيرة فى سيناء فى فترة التيه كما يراها مؤلف هذا الكتاب .

قصة البقرة :

جاءت قصة البقرة فى القرآن الكريم مبتدئة بقوله تعالى :

«وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة...».

(٦٧ – البقرة)

والقصة حسب تسلسلها الزمنى كما وردت فى كتب التفاسير (وعلى سبيل المثال، تفسير ابن كثير جـ١ ص١٠٨) قال عبيدة السلمانى: كان رجل من بنى إسرائيل عقيما لا ولد له وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم ثم أصبح عليهم حتى تسلّحوا وركب بعضهم على بعض فقال ذوو الرأى منهم والنهى: علام يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا إلى موسى عليه السلام يسألونه المشورة:

«وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ماكنتم تكتمون».

(٧٢ – البقرة)

فلما جاءوا إلى موسى عليه السلام قال لهم :

«إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة». (٦٧ – البقرة)

لقد جاءوا يسألونه بشأن قتيل لم يعرفوا قاتله فكانت الإجابة على غير ماتوقعوا إذ قال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة!! وظاهر الأمر أنه لا علاقة بما جاءوا يسألونه عنه وذبح البقرة أو هكذا بدا لهم. والمؤمنون حقا – مادام نبيهم يقول لهم إن الله يأمركم بكذا فليس لهم أن يبحثوا فى الرابطة بين هذا وذاك، بل الواجب عليهم أن يسارعوا إلى تنفيذ ما أمر الله به، وذلك ماجاء فى قوله تعالى:

«إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون». (٥١ – ٥٢ النور)

صحيح أن هذه الآية نزلت فى المنافقين فى المدينة إلا أنها – مثل كثير من آى القرآن الكريم – تقرر قاعدة عامة للعلاقة بين المؤمنين ورسولهم فى كل زمان ومكان، وهكذا كان على بنى إسرائيل وقد احتكموا إلى موسى – رسولهم – وقال لهم إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة – أن يقولوا سمعنا وأطعنا ويذبحوا بقرة – أى بقرة – وينتظروا بعد ذلك مايشير به رسولهم. ولكن اللجاجة والجدل طبع فى بنى إسرائيل وخلق من أخلاقهم ولعله الخوف من أن يصيبهم مكروه من ذبح البقرة لما علق فى نفسوهم من تقديس المصريين لها. فقالوا لموسى: أتسخر بنا، وماكان لرسولٍ أن يسخر من قومه، وخاصة أن الموقف موقف جدٍّ، قتيل لم يعرف قاتله والقوم على وشك الاقتتال، لهذا نفى موسى عليه السلام ذلك عن نفسه فقال معاذ الله أن أكون كما توهمتم لأن من يسخر فى مثل هذا الموقف لاشك يكون من الجاهلين.

«قالوا أتتخذنا هُزوًا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين».

(٦٧ - البقرة)

كان الواجب - وقد أكد لهم أن الأمر ليس فيه هزل وأن هذا فعلا أمر من الله. أن يبادروا إلى تنفيذ الأمر. ولكنهم بطبيعتهم المراوغة لم يصدقوه فى قرارة أنفسهم للمرة الثانية وأرادوا أن يستوثقوا. فكان سؤالهم الثانى دالا على سوء أدبهم فى مخاطبة نبيهم إذ قالوا ادع لنا ربك. بدلا من أن يقولوا ادع لنا ربنا أو ادع لنا الرب. فكأنهم قالوا فى أنفسهم إن كان هناك أمر فهو من ربك أنت فادعوه يبين لنا ماهية هذه البقرة. هل هى بقرة عادية أم لها مواصفات خاصة.

«قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى». (من الآية ٦٨ - البقرة)

فأجابهم بأن الله يقول لهم إنها بقرة **«لا فارض»** وهو اسم للمُسنَّة التى انقطعت ولادتها من الكبر. **«ولا بكر»** أى الصغيرة التى لم تلد. متوسطة بين هذا وذاك أى عوان بينهما. وهى التى ولدت بطنا أو بطنين.

قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون».

(٦٨ - البقرة)

كان المفروض وقد قال لهم نبيهم **«فافعلوا ماتؤمرون»** أن يسارعوا ويذبحوا أى بقرة متوسطة العمر. وهذا أمر هين إذ البقر المتوسط العمر كثير. ولكن بنى إسرائيل عادوا إلى تعنتهم - لشكهم فى جدية الأمر - فسألوه عن لونها.

«قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها». (من الآية ٦٩ - البقرة)

وهنا كان الجزاء من نفس العمل. فماداموا يتشددون فقد رد الله عليهم بتشدد أيضا. ولكنه لم يكن تشددا مرهقا لهم. فالبقر الأصفر كثير. صحيح أن هناك اللون البنى والأبيض والأسود والأحمر. والأصفر موجود ولكنه قليل والأصفر الفاقع موجود ولكن بدرجة أقل وخاصة لو كان صفارها يسر من ينظر إليها.

«قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين».

(٦٩ - البقرة)

إلى هنا وكان الواجب أن يذبحوا أى بقرة صفراء فاقعة اللون ولكن التعنت وصل بهم إلى درجة أن سألوا موسى عليه السلام للمرة الثالثة وطلبوا تبيانا أوضح بأن تذكر أوصاف أخرى:

«قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون». (٧٠ - البقرة)

قال المفسِّرون إنه لولا قولهم «**وإنا إن شاء الله لمهتدون**» وأرجعوا الاهتداء إلى مشيئة الله لما اهتدوا أبدا. وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس عن أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: لو لم يستثنوا لما تبينت لهم آخر الأبد (تفسير الألوسى جـ١ ص ٢٩٠).

قال لهم موسى عليه السلام إن الله يقول إنها بقرة ليست مذللة بالحراثة. ذلك أن البقرة إذا حرثت الأرض ثار تراب وغطى جلد البقرة وبان الشقاء والذل عليها فأصبحت ذلولا ولكن هذه البقرة «**لا ذلول**». وهى أيضا ليست مُعدَّة للعمل فى السواقى لتسقى الحرث والزرع «**ولا تسقى الحرث**». كما أنها سالمة صحيحة لا عيب فيها وليس فيها ما يشوهها «**لا شيه فيها**» أى ليست فيها بقع بيضاء ولا سوداء ولا حمراء وهذا يتفق مع ما وصفت به قبلا من أنها صفراء فاقع لونها تسر الناظرين.

«**قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مُسلَّمة لا شيَة فيها. قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وماكادوا يفعلون**». (٧١ - البقرة)

أدركوا أنهم أكثروا من طلب الأوصاف فأصبح الأمر صعبا. فالبقر كله للحرث وسقى الأرض وما من بقرة إلا وفيها بقعة من لون آخر. وأنهم بكثرة أسئلتهم قد صعَّبوا الأمر على أنفسهم. فبدأوا فى البحث عن البقرة التى تنطبق عليها هذه الأوصاف. قالوا وجدوها - بعد الجهد والمشقة - عند يتيم بار بوالدته واشتروها منه بثمن غالٍ. ومن المبالغات ما قيل من أنهم اشتروها بملء جلدها دنانير أو بوزنها ذهباً أو غير ذلك. وقولهم لموسى عليه السلام «**الآن جئت بالحق**» يدل على عدم توقيرهم الكامل لنبيهم كأن ماقاله لهم من قبل كان باطلا. وإن كان بعضهم يرى أن المعنى هو أن ماسبق لم يُظهر الحق كمال الظهور أما الآن فقد كملت الأوصاف. فلما وجدوا البقرة واشتروها ذبحوها. وقيل كانوا مترددين فى ذبحها خوفا من الفضيحة على أنفسهم فى معرفة القاتل منهم.

بعد ذلك تجىء الآية التى تذكر سبب هذه القصة:

«**وإذ قتلتم نفسا فادَّارأتم فيها والله مخرج ماكنتم تكتمون**». (٧٢ - البقرة)

وما داموا قد احتكموا إلى نبيهم ليسأل الله حتى يُعرف القاتل. فإن الله سيوضح لهم الحقيقة وسيخرج لهم ما كان يكتمه أهل القاتل ومن كانوا يتستَّرون عليه ويريدون أن يلقوا بالتهمة على رجل آخر. وقال الله تعالى لهم اضربوه بجزء من لحم البقرة - أى جزء منها أى ببعضها ولم يكن تحديد الجزء مُهمًا فالمعجزة حاصلة بأمر الله من إحياء القتيل عند ضربه ببعضها. قال السدى فضربوه ببعضها فعاش القتيل وقال قتلنى فلان. قال آخرون قتلنى فلان ابن أخى. ثم مات ثانية.

«فقلنا اضربوه ببعضها. كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون».

(٧٣ – البقرة)

ولعل بعضا من بنى إسرائيل كانوا يشكُّون فى البعث بعد الممات فأراد الله أن يجعل من هذه الحادثة مجالا لإظهار قدرة الله سبحانه وتعالى على إحياء الموتى أو لعلهم أخبروا بأن القتيل هو الذى سيخبر باسم قاتله فلم يصدقوا أنه يحيا بعد موته. ولما كان الإحياء بعد الموت من أعظم الآيات لذلك قيل **«ويريكم آياته»** أو لأن الإحياء بعد الموت فيه آيات متعددة أو لأن رؤيتهم لآية الإحياء كأنهم لمسوا قدرة الله فى جميع آياته فى الكون. وهى ظاهرة لكل من يعقل وبإدراكها والتيقن منها يكتمل العقل. أو لعلكم تعقلون مايتبع الإحياء فى الآخرة بعد الموت من ضرورة الحساب على الأفعال.

نعود ثانية إلى ما أشرنا إليه من أن القرآن الكريم قد بدأ القصة بأمر الذبح ولعل ذلك مرجعه إلى أن بعضا من بنى إسرائيل كان لايزال تقديس البقرة – كما كان عند قدماء المصريين – عالقا فى نفوسهم فأراد الله بذلك أن يزيل أى بقايا من هذا الأثر.

ونذكر الآن قصة البقرة مكتملة كما وردت فى القرآن الكريم.

«وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ماتؤمرون. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين. قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون. قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلَّمة لاشيه فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون. وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ماكنتم تكتمون. فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون». (٦٧ –٧٣ – البقرة)

تذكر التوراة قصة ذبح البقرة ولكن بطريقة مغايرة (عدد ١٩: ١ – ١٠) إذ يذكرون أنها كانت للتكفير عن خطيئة الجماعة.

وكلم الرب موسى وهارون قائلا: هذه فريضة الشريعة التى أمر بها الرب قائلا. كلِّم بنى إسرائيل أن يأخذوا إليك بقرة حمراء صحيحة لا عيب فيها ولم يعل عليها نير . ونلاحظ أن هذه الأوصاف هى نفس ماجاء فى القرآن الكريم ولكن بدلاً من صفراء قالوا حمراء. ولا عيب فيها هى **«مسلمة لا شيه فيها»** ولم يعل عليها نير. والنير هو الخشبة المعترضة فوق عنق الثور أو البقرة لجر المحراث أو غيره – وهو ما عبر عنه القرآن الكريم **«لا ذلول تثير الأرض ولا**

تسقى الحرث». ولعل كاتبى التوراة عند إعادة كتابتها فى السبى لم يهتدوا إلى السبب فى ذبح البقرة فجعلوها تكفيرا عن خطيئة الجماعة إذ يستمر القول: فتعطونها لألعازار الكاهن فتُخرَج إلى خارج المحلَّة وتُذبح قدامه ويأخذ ألعازار الكاهن من دمها بإصبعه وينضح من دمها إلى جهة وجه خيمة الاجتماع سبع مرات. وتحرق البقرة أمام عينيه ويحرق جلدها ولحمها ودمها مع فرثها ويأخذ الكاهن خشب أرز وزوفا (الزوف نوع من العشب. انظر ص٢٨٦) ويطرحها فى وسط حريق البقرة ثم يغسل الكاهن ثيابه ويرحض جسده بماء وبعد ذلك يدخل المحلة ويكون الكاهن نجسا إلى المساء. والذى أحرقها يغسل ثيابة بماء ويرحض جسده بماء ويكون نجسا إلى المساء. ويجمع رجل طاهر رماد البقرة ويضعه خارج المحلة فى مكان طاهر فتكون لجماعة بنى إسرائيل فى حفظ ماء نجاسة إنها ذبيحة خطية والذى جمع رماد البقرة يغسل ثيابه ويكون نجسا إلى المساء. ويقول أهل الكتاب (تفسير الكتاب المقدس، جماعة اللاهوتيين. ص٣٨٤) إن ذلك كان لازما لإزالة النجاسة الناتجة عن تمرد قورح وجماعته.

بعد رثمة انتقل بنو إسرائيل جنوبا إلى رمون فارص، ثم إلى لبنة ومعناها بالعبرية بياض ثم إلى رسة ومعناها ندى ثم ساروا جنوبا أكثر حتى قاربوا الطرف الجنوبى لشبه جزيرة سيناء ونزلوا هناك وسمُّوا المكان «قهيلاته» وهو اسم عبرى معناه مجمع ولعل ذلك كان لقربه من تجمع أو التقاء خليجي السويس والعقبة. وهنا جرت قصة موسى عليه السلام والخضر. والتى لم يرد فى التوراة أى ذكر عنها.

بعد إخماد ثورة قورح والعقاب الذى نزل به وبمن انضموا إليه كان موسى عليه السلام واثقا أن بنى إسرائيل لن يتمردوا على هارون لو غاب هو عنهم بعض الوقت. فتركهم وذهب ليستزيد من علم الله.

موسى والخضر :

يدَّعى بعض المؤرخين أن موسى الذى رافق الخضر هو غير موسى عليه السلام وقالوا هو موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب وقيل موسى بن أفرايم بن يوسف. وذكر الألوسى أن أحد الصحابة قال لابن عباس إن أحد بنى يهود يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى بنى إسرائيل فقال كذب عدو الله ثم ذكر حديثا طويلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هو فيه نص على أنه موسى بنى إسرائيل (تفسير الألوسى جـ١٥ ص٣١٠). وقيل تجاهل أهل الكتاب قصة الخضر لإنكارهم تعلم نبى من غيره وخاصة أنه موسى عليه السلام نبيهم لظنهم أن ذلك ينقص من قدره. وهذا تعصب أعمى. فكل نبى يفضُل قومه فى علمه وفى قربه من الله ولكن ذلك لا ينفى أن يكون هناك علم لم ينبئه الله به واختص به عبدا آخر من عباده. سواء كان

ذلك العبد نبيا أو مجرد رجل صالح فالله يختص برحمته وعلمه من يشاء من عباده. وكان الخضر كما قال عنه سبحانه وتعالى:

«عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما».

(٦٥ – الكهف)

ويرجع الألوسى إنكار أهل الكتاب لقصته أنه لما غاب عنهم ظنوا أنه ذهب يناجى ربه ويتعبد ولما عاد لم يوقفهم على حقيقة غيبته لعلمه بقصور فهمهم وأوصى فتاه بكتم ذلك عنهم أيضا. ويجوز أن يكون أعلمهم بحقيقة غيبته وبقصته مع الخضر ولكن لم يتناقلوها جيلا بعد جيل لتوهمهم أن فيها حط من قدر النبوة التى عليها موسى عليه السلام. ويمكن إضافة سبب آخر وهو أنه عليه السلام لم يخبرهم خشية أن بعضا منهم قد ينفلت إلى «القرية» ويبحث عن الجدار المقام حديثا ويأخذ الكنز الذى تحته – وهو ميراث اليتيمين.

وسبب القصة ما ورد فى الصحيحين عن أبى بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن موسى عليه السلام قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه فأوحى إليه إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يارب فكيف لى به قال تأخذ معك حوتا فتجعله فى مِكتل (زنبيل يعمل من الخوص) فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمٌّ. (تفسير القرطبى جـ١١ ص١٠). حينئذ صمم موسى عليه السلام ملاقاة ذلك العبد الصالح مهما أرهقه البحث عنه ومهما طالت مدة ترحاله فى الأرض بحثا عنه:

«وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا».

(٦٠ – الكهف)

والحقب زمان من الدهر غير محدود والمعنى مهما طال الوقت حتى يبلغ ذلك المكان والفتى المشار إليه هو هوشع بن نون والذى سمى فيما بعد يشوع بن نون – من سبط أفرايم وكان أحد النقباء الاثنى عشر (ص ١٠٤٢) وهو أحد الرجلين اللذين أنعم الله عليهما وكانا يحثّان بنى إسرائيل على دخول الأرض (ص ١٠٤٩). كما أن موسى عليه السلام أوكل إليه محاربة العماليق فى وادى رفيديم (ص ٩٨٣). فى أول أمره كان خادما لموسى وقيل لازم موسى ليتعلم منه وسُمِّى فتاهُ ولكنه كان حُرا. وسنرى فيما بعد أن موسى عليه السلام – قبل وفاته – استخلفه لقيادة بنى إسرائيل وهو الذى قادهم ودخل بهم الأرض (الجزء الخامس إن شاء الله).

مجمع البحرين :

اختلف المفسرون فى تحديد مكان **«مجمع البحرين»** يقول الألوسى والطبرى: روى عن مجاهد وقتادة: البحران بحر فارس والروم (أى بمفهومنا الحالى الخليج الفارسى والبحر

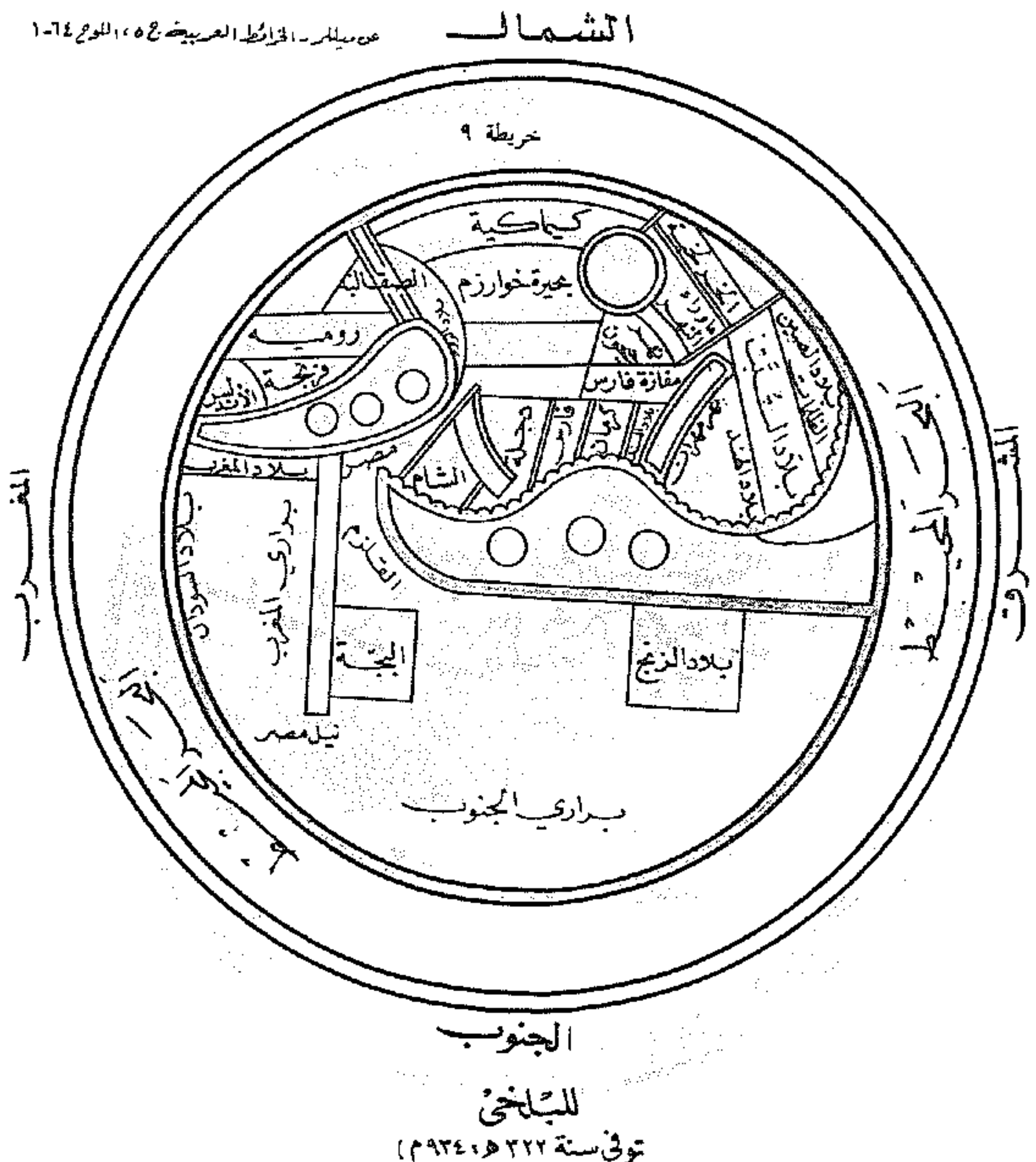
المتوسط) وقالوا: ملتقاهما مما يلى المشرق ولعل المراد مكان يقرب فيه التقاؤهما وإلا فهما لا يلتقيان إلا فى البحر المحيط وهما شعبتان منه (تفسير الألوسى جـ ١٥ ص ٣١٢). وذكر أبو حيان أن مجمع البحرين يلى بر الشام. وقال محمد بن كعب القرظى: هو عند طنجة حيث يجتمع البحر المحيط والبحر الخارج منه من دبور إلى صبا. وقال أُبىّ إنه بإفريقية. وروى عن السدى: البحران هما الكر والرس بأرمينية. وقيل بحر القلزم (البحر الأحمر) وبحر الأزرق (لا يوجد على الخرائط بحر اسمه الأزرق). وقيل هما بحر ملح وبحر عذب وملتقاهما فى الجزيرة الخضراء فى جهة المغرب.

ولو نظرنا إلى الخرائط فى أشكال ٢٨٧- ٢٨٨- ٢٨٩ وهى مرسومة فى أعوام ٩٣٤ و ١١٦٤ و١٥٥٠ميلادية على التوالى أدركنا كم كانت المعلومات الجغرافية فى ذلك الوقت مشوشة وغير دقيقة إذ تجمع كل الخرائط على أن اليابسة يحيط بها ماء هو البحر المحيط ولا يلتقى به إلا بحر الروم (البحر المتوسط) عند طنجة فى المغرب وبحر الصين فى الشرق. فلا عجب أن المعلومات الجغرافية فى ذلك الوقت لم تساعدهم على فهم المعنى الحقيقى لمجمع البحرين. إذ المعلومات المتاحة حاليا تجعل مايفهم من «مجمع البحرين» بداهة ولأول وهلة هو مكان إلتقاء خليجى السويس والعقبة (شكل ٢٩١) ولكن ذلك لم يكن معروفا فى زمانهم إذ لو نظرنا إلى الخرائط السابقة نجدهم يرسمون الطرف الشمالى للبحر الأحمر مدببا بفرع واحد (شكل ٢٨٧ – ٢٨٨) وحتى الخريطة التى رسمها هـ . ڤايسل فى القرن السادس عشر بعد الميلاد (شكل ٢٨٩) لا يبين فيها تفرع البحر الأحمر إلى خليجيه. ونفس الشيىء فى خريطة الجغرافى الهولندى أبراهام أورتيليوس المرسومة فى عام ١٥٩٥ (شكل ٢٩٠). ولكن هذا التفرع موجود منذ ملايين السنين وإن لم يدركه علماء الجغرافيا. والإشارة إليه فى هذه الآية دليل على أن القرآن الكريم وحى من الله سبحانه وتعالى:

«وإنك لتُلقَّى القرآن من لدن حكيم عليم». (٦ – النمل)

إذ لم تعرف هذه المعلومات إلا بعد نزول القرآن بأكثر من ستمائة عام. ولعل بنى إسرائيل وقد نظروا من مكان عالٍ فرأوا بحرا إلى الشرق وبحرا إلى الغرب فأدركوا أنهما لابد يجتمعان ولذلك سمَّوا المكان الذى كانوا ينزلون فيه «مجمع» وبالعبرية «قهيلاته». وتركهم موسى عليه السلام وسار جنوبا ووصل فعلا إلى «مجمع البحرين».

ولعلنا بهذا قد أدركنا سبب كثرة أقوال المفسرين الأوائل فى هذا الشأن وما نعتبره الآن شططا فى التفسير – والحقيقة أنهم قد اجتهدوا على قدر معطيات العلوم التى كانت متوافرة فى أوقاتهم. ولما أعيت بعضهم الحيل إذ وجدوا إلتقاء البحرين فى المغرب أو فى الصين أو فى أرمينية فى حين أن موسى عليه السلام كان فى سيناء. فافترضوا أن البحرين هما موسى والخضر أى أنهما بحران من المعرفة وقال آخرون إن شخصية الخضر هى شخصية اعتبارية أورمزية.



شكل ٢٨٧ – خريطة العالم كما رسمها «البلخي»

(توفى سنة ٣٢٢ هـ – ٩٣٤ م)

ويلاحظ جعله طرف البحر الأحمر (القلزم) مدببا بفرع واحد .

صورة الأرض

للشريف الأدريسي المتوفى ٥٦٠ هـ - ١١٦٤م



شكل ٢٨٨ – خريطة العالم كما رسمها «الشريف الإدريسي»

(توفى سنة ٥٦٠ هـ – ١١٦٤ م) .

ويلاحظ شكل الجزء الشمالي للبحر الأحمر فى استوائه

من الشرق للغرب إلا من انحنائه بسيطة مقابل سيناء .



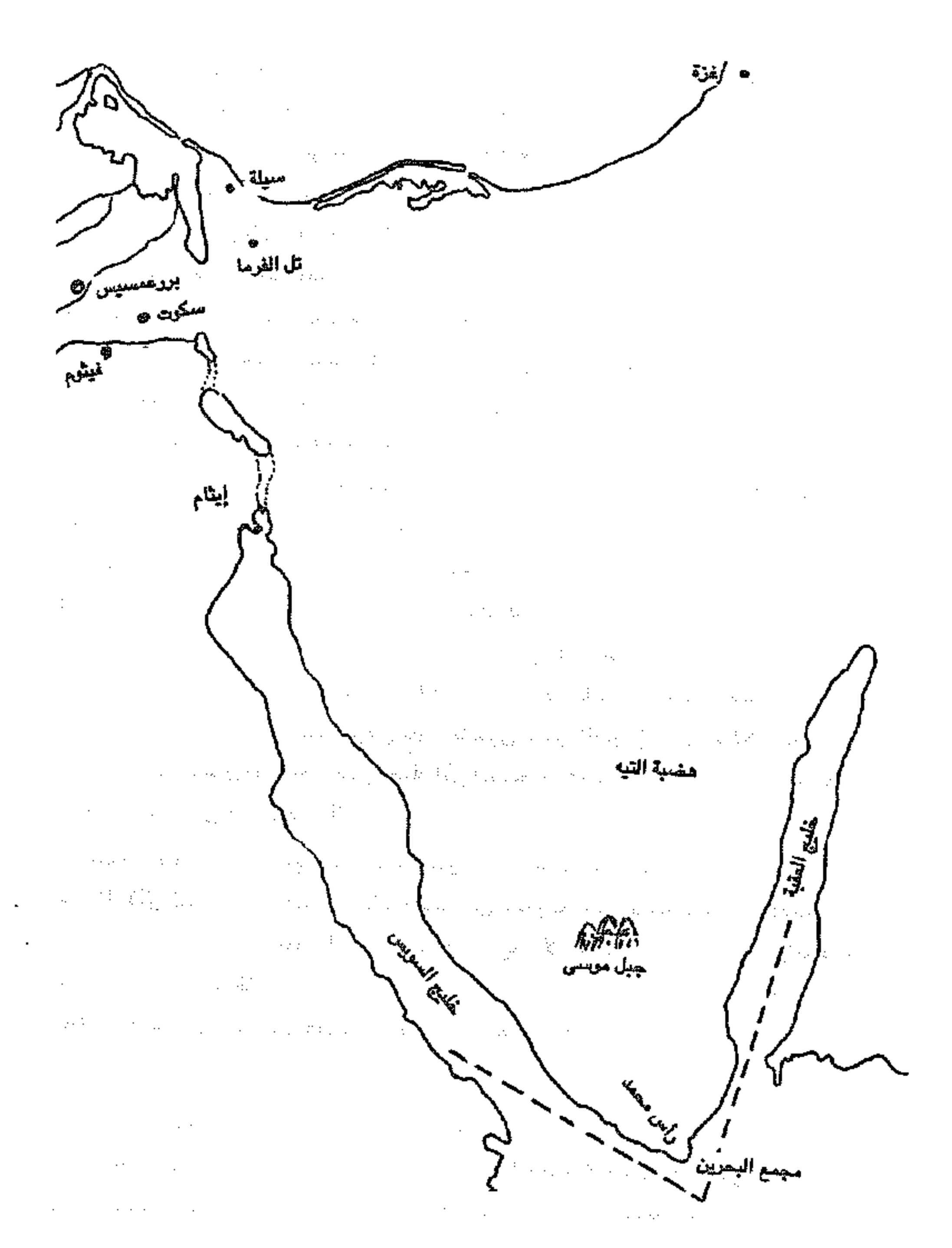
شكل ٢٨٩ — خريطة الشرق الأدنى والأوسط كما رسمها

هـ . ڤايسل H. Weisel عام ١٥٥٠ م .



شكل ٢٩٠ – خريطة مصر وسيناء كما رسمها الجغرافي الهولندي أبراهام أورتيليوس عام ١٥٩٥ م .

(نقلا عن كتاب أطلس مصر القديمة – لجون بينز وجاروميير مالك ص ٢٣).



شكل ٢٩١ – مجمع البحرين حسب المفهوم الحالي .

قلنا إن موسى عليه السلام أُعْلِم بأن مكان لقائه بالعبد الصالح هو المكان الذى سيفقد فيه الحوت، ولعل موسى لم يشأ أن يطلع فتاهُ على هذا الأمر إذ قدَّر أن فتاة سيخبره عن ذلك حال حدوثه لغرابته، وسارا، حتى مجمع البحرين، وجلس موسى فى ظل صخرة ليستريح فأخذته غفوة. قيل: فبينا هو فى ظل صخرة إذ أصاب ماء البحر الزنبيل الذى فيه الحوت فتحرك الحوت، قيل بعد أن كان ميتا وقيل كان مملَّحا وقيل كان قد أُكِل نصفه ولكن بقدرة الله عادت له الحياة وتحرك فى الزنبيل فقلبه فانفتح غطاؤه وتسرب الحوت إلى البحر، ويوشع بن نون يتعجب من أمر هذا الحوت وكيف دبت فيه الحياة ولعله ظن أن الحوت لم يكن قد مات موتا كاملاً فما إن طاله ماء البحر حتى تحرك، ولما استيقظ موسى لم يخبره الفتى بما حدث إذ نسى هذا الأمر أو لعله ظن أن الأمر ليس بهذه الأهمية حتى يخبره به. فمعهما من الزاد أنواع أخرى، أو لعله ظن أن موسى لن يصدِّقه إذا أخبره، فكان نسيان موسى أن يخبر فتاه بأهمية هذا الأمر دافعا لنسيان الفتى أن يخبره بمكانه، ولذلك نسب النسيان إليهما معا «نسيا حوتهما»، وسار الاثنان حتى تجاوزا ذلك المكان، وبعد مدة شعرا بالتعب والجوع فقال موسى ليشوع آتنا غداءنا فقد تعبنا فى هذا اليوم بما فيه الكفاية. فقال يشوع: أتذكر الصخرة التى جلسنا عندها لنستريح فقد نسيت أن أخبرك بأمر عجيب حدث، ذلك أن السمكة قد دبَّت فيها الحياة وتسرَّبت من السلة وفقدت فى البحر ولقد أنسانى الشيطان أن أذكر لك هذا الأمر. قال موسى هذا هو الأمر الذى كنت أبتغيه لأنه أمارة المكان الذى سألتقى فيه بالعبد الصالح، وطلب منه أن يعود به إلى المكان الذى به هذه الصخرة وسارا عائدين نفس الطريق الذى سلكاه بأن قصَّا أثر أقدامهما فى الرمال وتتبَّعاها حتى وصلا إلى الصخرة وهناك وجد موسى العبد الصالح الذى آتاه الله رحمة من عنده وعلَّمه الله من لدنه علما.

«فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا. فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا. قال ذلك ماكنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا. فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنَّا علما».

(٦١ - ٥٦ - الكهف)

لم يذكر القرآن الكريم اسم ذلك العبد الصالح ولكن كتب التفسير تجمع على اسم الخِضر بكسر الخاء أو الخَضر بفتحها. وقال مجاهد سمى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضرَّ ما حوله. وروى الترمذى عن أبى هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما سُمِّى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز تحته خضراء، والفروة هنا وجه الأرض. قال القرطبى هذا حديث صحيح غريب (تفسيره، جـ ١١ ص١٦). والخضر نبى عند الجمهور. وقيل هو عبد

صالح غير نبى. وردٌ على ذلك بأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحى فهو نبى. كما أن الإنسان لا يتعلم ولا يتَّبع إلا مَن فوقَه ولا يجوز أن يكون فوق النبى من ليس بنبى. وقالوا الرحمة فى هذه الآية النبوة و «علما من لدنا» أى علم الغيب. قيل كان علمه معرفة بواطن الأمور قد أوحيت إليه.

من المؤكد أن موسى عليه السلام لما رأى العبد الصالح عن بُعد طلب من فتاه – يشوع – أن ينتظره فى مكانه أو يتجول فى المنطقة المحيطة إذ هو سيبقى فى صحبة الخضر يوما أو يومين ثم يعود ليلقاه فى نفس المكان.

قالوا لما لقى موسى الخضر ألقى عليه السلام فقال الخضر وعليك السلام يانبى بنى إسرائيل فقال موسى وما أدراك بى؟ قال: الذى أدراك بى ودلَّك علىَّ. قال موسى: إن ربى أرسلنى إليك لأتبعك وأتعلم من علمك. ووضعه فى صيغة سؤال للملاطفة والمبالغة فى حسن الأدب «هل اتبعك». فقال الخضر إنك لن تستطيع أن تصبر على ماتراه لأن الظواهر التى هى علمك لا تعطيك كل الحقيقة وستظن أن ما أفعله خطأ ولن يَسَعَك السكوت عليه ولن تستطيع السكوت على أفعال لا تدرى ما حقيقة خبرها وخفاياها. فقال موسى إنه بإذن الله سيكون صابرا ولا يعصى أمره. فاشترط الخضر على موسى ألا يسأله عن شيئ يراه وينكره حتى يكون الخضر هو المبتدئ من تلقاء نفسه بشرحه.

«قال له موسى هل أتبعك على أن تُعَلمن مما علمت رشدا. قال إنك لن تستطيع معى صبرا. وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا. قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا. قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيئ حتى أحدث لك منه ذكرا». (٦٦ – ٧٠ – الكهف)

وسارا معا حتى أتيا مرفأ صغيرا تمر به السفن التى كانت تتاجر بين ميناء السويس التابع لمصر وموانى الصومال المسماة بلاد پونت وهو طريق بحرى معروف لتبادل التجارة ولعل السفن كانت ترسو بالمرفأ بضعة أيام للتزود بالمياه. ومن المحتمل أنه كان قرب رأس محمد الحالية فى الطرف الجنوبى لشبه جزيرة سيناء.

قيل عرف أصحاب السفينة الخضر فأركبوهما بدون أجرة فلما ركبا السفينة عمد الخضر إلى أحد ألواحها فخلعه ثم رقَّعه. وهنا قال موسى للخضر أفعلت ذلك لتغرق السفينة وأصحابها منكرا عليه هذا الفعل وأن هذا أمر منكر لأنه يضر بالقوم. فذكَّره الخضر بالشرط الذى اشترطه عليه لمرافقته وهو أن لا يكون موسى البادئ فى تكلمته عن شيئ يفعله. فاعتذر موسى لأنه نسى هذا الشرط وأنه كان من الصعب عليه وفوق طاقته أن يرى مافعله ويسكت عنه.

«فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت

شيئا إمرا. قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا. قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا». (٧١ - ٧٣ - الكهف)

فى صحيح البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: وكانت الأولى من موسى نسيانا - ونزلا من السفينة ومشيا على البر فلقيا غلاما حسن الهيئة يلعب مع غلمان فى مثل سنه فأخذه الخضر وقالوا ذبحه بسكين كانت معه وقيل ضربه بحجر فقتله وهنا لم يتمالك موسى إلا أن قال للخضر إنه قد قتل نفسا طاهرة من الذنوب - لأنه غلام لم يُكلَّف بعد - دون أن يكون ذلك قصاصا لقتله نفساً. وهذا شيىء منكر، بل أكثر إنكارا من الأمر الأول، فقال له الخضر ألم أقل لك من قبل إنك لن تستطيع صبرا على أفعالى؟ للمرة الثانية اعتذر موسى بأن الأمر كان فوق طاقته وأخبره برغبته فى استمرار مصاحبته على أن تكون هذه هى المرة الأخيرة التى يخالف الشرط الذى بينهما فإذا بدأ بسؤاله عن شيىء آخر فعله فللخضر العذر بعدها إن رفض مصاحبة موسى وأن يكون عليه لوم وفى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: رحمة الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجَّل لرأى العجب ولكن أخذته من صاحبة ذمامة ولو صبر لرأى العجب. والذمامة الإشفاق من اللوم، وفى البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: يرحم الله موسى لَوَدِدنا أنه صبر حتى يقص علينا من أمرهما. (تفسير القرطبى جـ١١ ص٢٣).

«فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا. قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا. قال إن سألتك عن شيىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا». (٧٤ - ٧٦ - الكهف)

وقبل الخضر اعتذار موسى وسمح له بالبقاء معه ومصاحبته وسارا حتى جاءا إلى قرية وكان الجوع والتعب قد نال منهما. وكان أهلها - كما بدا من تصرفهم - بخلاء، فمن الكرم وحسن الخلق دعوة الغريب للطعام دون أن يطلب - يلى ذلك أن يطلب الغريب الضيافة فتجيبه، ولكن أن يطلب الاستضافة ويأبى القوم ذلك فهو منتهى البخل أو هو لؤم يوجب الازدراء، وطلب الخضر وموسى من أهل القرية أن يُضَيِّفوهما فرفضوا. وقيل «استطعما أهلها» تفيد معنى طلب الضيافة أكثر من مرة فكأنهم طلبوا الضيافة من هذا وذاك ورفض أهل القرية جميعا «أبوا أن يُضَيفوهما» تفيد معنى استنكار فعلهم هذا. بعد ذلك جلس الخضر وموسى إلى جوار جدار يستريحان ووجد الخضر أن الجدار يكاد يسقط فأصلحه وقوَّم ما مال منه وبنى ماكان سقط فعلا. ولم يتمالك موسى نفسه فقال للخضر لِمَ لم تطلب على ذلك أجرا فكأنه يريد الأجر حتى يمكنهما شراء ما يحتاجان من طعام مادام أهل القرية رفضوا أن يضيفوهما - أو أن أهل القرية لا يستحقون أن يُعمَلَ لهم هذا العمل - وهو إقامة الجدار - مجانا. فقال له الخضر لقد وجب الفراق بينى وبينك حيث أنك قد ابتدأت بالحديث عن هذا الأمر وقد كان الشرط فى المرة

السابقة أنك لو فعلت لم يكن عليَّ لوم فى طلب فراقك. وقبل أن يفارقه أخبره أنه سيفسِّر له سبب ما عمله من أعمال أنكرها موسى عليه.

«فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه. قال لو شئت لتخذت عليه أجرا. قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا».

(٧٧ – ٧٨ – الكهف).

راح الخضر يخبر موسى بما صعب عليه فهمه من تصرفاته وهو مالم يستطع عليه صبرا فكان يستنكره. أخبره بالأمر الأول وهو أن السفينة مملوكة لأناس فقراء يعملون فى نقل البضائع فى البحر. وكان هناك ملك ظالم كلما رأى سفينة جديدة وجيدة الصنع وليس بها عيب استولى عليها ظلما واغتصابا. فأراد الخضر بإظهار عيب فيها أن يصرفه عنها وبذلك تبقى لأصحابها وهى مصدر رزقهم. أما الغلام فكان أبوه وأمه مؤمنين أما هو فكان كافرا أو أن الغلام طُبِعَ كافرا ولو عاش وكبر فإن أبواه لحبهما له كانا سيتبعانه فى كفره وطغيانه أو على الأقل سيكدِّر حياتهما بكفره وطغيانه ويكون سببا فى إرهاقهما. وبعض الأطفال يظهر طغيانهم وجبروتهم منذ الصغر وحتى قبل أن يبلغوا سن التكليف ويتعوذ الناس بالله منهم إذ يكبرون. فأراد أبواه أن يُبدلهما الله ولداً أزكى منه وأرقّ طباعا فيكون بارا بهما ولا يرهقهما بطغيانه وكفره. ثم أخبره بالأمر الثالث وهو أن الجدار كان لغلامين يتيمين فى القرية وكان تحته مال دفنه أبوهما ليكون عدة لهما فى المستقبل وكان هذا الرجل صالحا. والرجل الصالح يُحفظ فى ذريته وتعم بركته أجيالا منهم ولو سقط الجدار الآن لانكشف المال ولأخذه أهل المدينة لضعف اليتيمين عن مقاومتهم. فكانت إرادة الله أن يبقى الجدار قائما – بما فعله الخضر – حتى يكبر الغلامان ويصبحا أشداء فيستخرجا كنزهما بأن يسقط الجدار أو أن يزمعا إعادة بناء الدار فيهدما الجدار ويكتشفا ماخبَّأه لهما والدهما من مال فينتفعا به. وهذا من رحمة ربهما بهما. وأخبر الخضر موسى أنه لم يفعل هذه الأشياء بناء على اجتهاده أو من تلقاء نفسه وإنما هى رحمة من الله بأصحابها وختم الخضر مقالته بأن قال وهذا هو تفسير هذه الأشياء التى لم تُطق ولم تستطع عليها صبرا. وحُذِفت التاء تخفيفا للنطق فصارت «تسطع».

«أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا. وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا. فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رُحما. وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا».

(٧٩ . ٨٢ – الكهف)

وقيل إن موسى عليه السلام لما أنكر أمر خرق السفينة نودى: ياموسى أين كان تدبيرك هذا وأنت فى التابوت مطروحا فى اليم. فلما أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكزك المصرى وقضائك عليه. فلما أنكر إقامة الجدار نودى: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر (تفسير القرطبى جـ١١ ص ٣٣).

وهكذا انتهت قصة الخضر مع موسى عليهما السلام. وتبقى العبرة فى أن المرء مهما علم وازداد علما فهناك من هو أعلم منه والله فوق الكل عليم خبير.كذلك فإن الدروس المستفادة من قصة الخضر – كما نراها – هى:

١ – لا بأس من اتخاذ الحيلة لدفع ظلم أو مضرة. فإن كان نظامُ حكمٍ يصادر الثروات فالواجب إخفاء مظاهر اليسر والغنى.

٢ – قد يكون الولد سببا فى شقاء الوالدين. وكم من ولد أرهق أبويه بمطالبه أو بانحرافه – وكما قال الله تعالى: **«إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم»**. (١٤ – التغابن). وقد تتولى الحوادث والأمراض القيام بما قام به الخضر من قتل الغلام. فيجب على المرء التسليم بحكمة القدر واحتساب ماراح عند الله. وأن يطلب **«خيرا منه زكاة وأقرب رحما»**.

٣ – أما حفظ مال اليتيم فهو واجب كما أمر الله سبحانه وتعالى: **«ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده»** (١٥٢ – الأنعام). ولا يبتغى الأجر إلا من الله.

وعاد موسى إلى الصخرة – لا ندرى كم استغرقت صحبته للخضر ولعله كان يوما واحدا فى ضُحاه ركبا السفينة ثم نزلا منها. ثم فى القرية قتل الغلام وفى آخر النهار أقام الجدار وكان فراقه للخضر وعاد. فوجد يشوع ينتظره لا ندرى هل أخبر موسى فتاه بقصته مع الخضر أم لا. أغلب الظن أنه لم يفعل. وعادا إلى بنى إسرائيل فى قهيلاته.

ثم ارتحل بنو إسرائيل واتجهوا شمال شرق فوصلوا إلى **جبل شافر** وشافر اسم عبرى معناه جَمَال، ولعله أحد الجبال المجاورة لمنطقة شرم الشيخ الحالية وهى منطقة مشهورة بجمالها. كان قد مضى على بنى إسرائيل فى التيه قرابة خمسة عشر عاما وبقى خمس وعشرون سنة تنقلوا فيها بين حوالى عشرة منازل هى (شكل ٢٨٦ ص ١٠٦٢): حرادة – مقهيلوت – تاحت – تارح – مثقة – حشمونة – مسيروت – بنى يعقان – حور الجدجاد – بطبات – ثم **عبرونة** وعبرونة اسم عبرى معناه ممر أو مقابل واسمها الحالى عين دفية على بعد ١٠كم شمال غرب إيلات (قاموس الكتاب المقدس ص٦٠٠). ثم ارتحلوا من عبرونة ونزلوا فى **«عصيون جابر»** على الطرف الشمالى لخليج العقبة إلى الغرب من ميناء إيلات الحالى. وهى آخر محطة فى التيه. كان كل الجيل الذى عارض موسى فى دخول الأرض قد مات إلا من بعض أفراد قلائل. ونشأ جيل جديد شب منذ بدايته على حياة الحرية فى الصحراء والجبال ولم تفسده سنوات العبودية فى مصر وطوال هذه السنوات الأربعين كان موسى يعكف على تعليمه

أحكام التوراة والشريعة. لم يشهد هذا الجيل الآيات العظام التى شهدها الجيل السابق. لم يشهد الآيات التى أتى بها موسى فرعونَ مصر. ولم يشهد معجزة شق البحر ولا غيرها من الآيات. وكانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يُشهِدهم آية رادعة حتى يلتزموا بتعاليم الشريعة فى قابل أيامهم.

القردة والخنازير :

خُصِّص يوم السبت – فى بنى إسرائيل – لعبادة الرب وأخذ عليهم العهد والميثاق الغليظ بتنفيذ شريعة الله فيما يختص بحرمة يوم السبت وغير ذلك من الشرائع.

«وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا». (١٥٤ – النساء)

ومن الوصايا العشر التى تلقاها موسى عليه السلام من ربه كانت الوصية الرابعة وقد سبق أن ذكرناها ص ٩٩٢ – تقول: اذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأمّا اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك. لا تصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك.. وكان الحكم قاسيا على من يعمل فى يوم السبت. وقد ذكرنا سابقا (ص ١٠٥٢) عثورهم على رجل من بنى إسرائيل يحتطب حطبا يوم السبت فقُبض عليه وأخذوه إلى موسى وهارون. فقال الرب لموسى «قتلا يقتل الرجل» يرجمه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة ففعلوا ومات الرجل (إصحاح ١٥ عدد: ٢٥).

لقد شرع الله فى كل ملة يوما فى الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة فشرع الله للمسلمين يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذى أكمل الله فيه الخليقة واجتمعت فيه النعمة وتمت على عباده ويقال إن الله شرع ذلك لبنى إسرائيل أيضا على لسان موسى فعدلوا عنه واختاروا السبت لأنه اليوم الذى لم يخلق فيه الرب شيئا من المخلوقات فألزمهم به فى التوراة ووصاهم أن يتمسكوا به ويحافظوا عليه وظلوا متمسكين به إلى أن بعث عيسى بن مريم ويقال إنه ظل محافظا على يوم السبت حتى رُفع وأن النصارى من بعده فى زمن قسطنطين هم الذين تحوّلوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود (تفسير ابن كثير جـ٢ ص٥٩١) وسيحكم الله بينهم يوم القيامة فى ذلك:

«إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون». (١٢٤ – النحل)

كان بعض بنى إسرائيل – أثناء إقامتهم فى عصيون جابر – يعملون فى صيد السمك. وكان ما يصيدونه فى جميع أيام الأسبوع – عدا يوم السبت – يكفيهم فكانوا يأكلون منه يوم السبت ولكن الله سبحانه وتعالى أراد اختبارهم لإظهار مدى حرصهم على تنفيذ أمره بعدم الانشغال بأى عمل فى يوم السبت غير العبادة. وقد تم مثل هذا الاختبار أيضا المسلمين

المحرمين بالحج ومُحَرّم عليهم صيد البر فقال الله تعالى:

«يأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب. فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم. يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حُرم». (٩٤ - المائدة)

فالحكمة هي أن الله يريد أن يُظهر من يخافه بالغيب ويتقه في نفسه. لذلك كما روى عن مقاتل كانت الوحوش - وهم مُحرِمُون في عمرة الحديبية - تغشاهم في رحالهم وكانوا متمكنين من صيدها أخذا بأيديهم أو طعنا برماحهم. فكان ذلك اختبارا من الله لهم.

وذلك نفس ماحدث لبني إسرائيل إذ جعل الله الحيتان تأتي لهم يوم السبت ظاهرة على وجه الماء قريبة من الشاطيء. أما في الأيام الأخرى - يوم لا يسبتون - لا تكون كذلك ويتكبدون بعض المشقة في صيدها. فكان هذا اختبارا لهم من الله سبحانه وتعالى وليكون حجة عليهم ولبيان عدم تمسكهم بتنفيذ أوامر الله في غير ذلك من الأمور. ولعلهم كانوا بقايا الجيل القديم الذي دأب على التذمر وعصيان موسى منذ خروجهم من مصر ولذلك وصفوا بالفسق. وقام هؤلاء النفر بالاحتيال على صيد الحيتان يوم السبت وحتى لا يبدو الأمر مخالفة صريحة لأوامر الله وضعوا شصوصا وحبائل وشباكا قبل يوم السبت حتى إذا جاءت الحيتان على عادتها في الكثرة يوم السبت علقت بتلك الشصوص أو منعتها الحبائل من العودة للبحر ثانية فإذا جاء الليل وانقضى السبت أخذوها وأكلوا منها وباعوا ماتبقى. وواضح أن مافعلوه كان تحايلا على أمر منع الصيد في يوم السبت. وقام فريق ينهونهم عما يفعلون ويحذرونهم من غضب الله فقال فريق آخر لهم. لماذا تعظونهم وأنتم تعلمون أنهم قد استحقوا غضب الله وأن الله سيهلكهم أو يعذبهم عذابا شديدا. ورد عليهم الفريق الأول بأنهم يعظونهم لعلهم يرجعون عن فعلهم المخالف لأمر الرب وحتى لا يكونوا قد أخطأوا بسكوتهم عن المعصية إذ رأوها. كما أنهم ينهونهم عن المنكر حتى يكون ذلك معذرة إلى ربهم حتى لا يوقع بهم ماقد ينال المخطئين من عذاب. ولكن هؤلاء النفر ظلوا في غيِّهم سادرين وتكبروا على النصح. ولعل الله لم يعجل لهم العذاب فأغراهم هذا على التمادي في المعصية. وعادت الفئة الملتزمة بتعاليم الله يذكرونهم بما حُرم عليهم من عمل يوم السبت ولكن هؤلاء كانوا قد نسوا تعاليم الشريعة أو أنهم أهملوها كأنهم قد نسوها. فأنزل الله بهم عذابا أليما وأنجى الله الفئة التي كانت تنهى عن السوء.

«واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدُون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم. كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون. وإذ قالت أمّة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون. فلما نسوا ماذُكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون. فلما عتوا عن مّا

نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين». (١٦٣ - ١٦٦ - الأعراف)

والخطاب هنا موجه إلى اليهود الذين كانوا فى المدينة يجاورون رسول الله صلى الله عليه وسلم - يذكرهم بقصة أصحابهم الذين خالفوا أوامر الله. ومن الجدير بالذكر أن التوراة لم تذكر شيئا عن قصتهم إطلاقا ولعل كاتبى التوراة حرصوا على عدم تدوين أى شىء يشير إليها إذ أن فيها مايسىء إليهم إذ مُسِخَ بعض أفرادهم قردة وخنازير.

قالوا وفى يوم من الأيام رأوا أن أحدا من هؤلاء الخاطئين لم يخرج من بيته. فنظروا إليهم من فوق الجدران فإذا هم قردة وخنازير. عن قتادة أن الشبان صاروا قردة والشيوخ خنازير ففتحوا الباب ودخلوا عليهم فعرفت القردة أنسابها من الإنس ولم تعرف الإنس أنسابهم من القردة. فجعلت القردة تأتى نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكى فيقول ألم ننهكم؟ فتقول برأسها نعم (تفسير القرطبى جـ٧ ص٣٠٦). وظلوا ثلاثة أيام لا يأكلون ولا يشربون وماتوا ولم يعقبوا نسلاً. وفى صحيح مسلم حديث رواه عبد الله بن مسعود أن قوما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير: أهِىَ مما نسخ؟ فقال: إن الله لم يهلك قوما أو يعذب قوما فيجعل لهم نسلا وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك. وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل.

«ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين».

(٦٥ - ٦٦ - البقرة)

فجعل الله هذه القرية عبرة لما حولها من القرى ولكل من عاصرها من بنى إسرائيل ولكل من سيأتى خلفهم من الزمان وعظة لمن يريد أن يتقى عذاب الله ونقمته.

ولقد كان من رحمة الله بأمة محمد صلى الله عليه وسلم أنه لم يجعل العمل محرّما فى يوم الجمعة. إذ يمكن للمسلمين أن يعملوا مايشاءون من عمل فى يوم الجمعة فإذا نودى لصلاة الجمعة تركوا ما بأيديهم من عمل وذهبوا إلى الصلاة الجامعة فى المساجد. ثم بعد الصلاة يمكنهم أن يعودوا ثانية إلى أعمالهم:

«يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعَوْا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون».

(٩ - ١٠ - الجمعة)

الفصل العاشر

ماقبل دخول الأرض

كانت آخر قرية من منازل التيه هى «عصيون جابر» وهى «حاضرة البحر» وقضى بها بنو إسرائيل مايقرب من عامين وقد ذكرنا ماحدث بها من مخالفة شريعة الرب في عدم الانشغال بعمل سوى عبادة الرب فى يوم السبت، وكانت الفئة التى خالفت ومُسخت قردة وخنازير هى ماتبقى من الجيل القديم الذين عصوا وقالوا لموسى «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» فكان أن حكم عليهم بالموت فى البرية. وكان جيل الشبان يرى الكهول يموتون ويرى بنو إسرائيل يهيمون فى صحراء سيناء الواسعة ولعله لم يكن يدرك لذلك سببا فقد كانوا لم يُولدوا بعد أو صغارا لم يُكلَّفوا ولم يدركوا لماذا أو كيف تكون مخالفة أوامر الرب. ولكن ماحدث فى قرية عصيون جابر أوضح لهم غاية الوضوح جزاء مخالفة أوامر الشريعة ولعل هذا الدرس كان لازما لهم إذ أنهم هم الجيل الذى سيقع عليه عبء دخول الأرض.

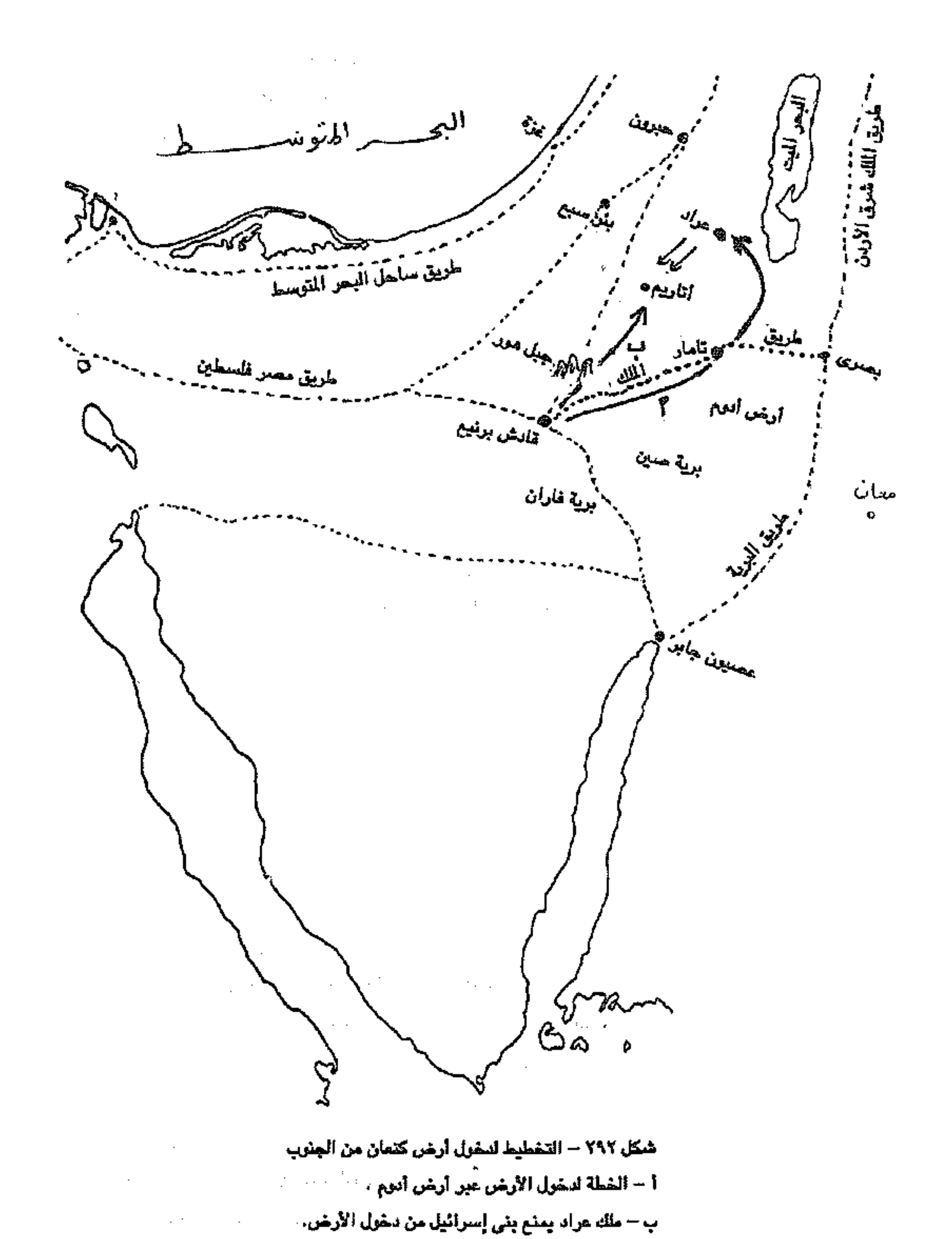
فى قادش برنيع ثانية :

بعد عصيون جابر سار بنو إسرائيل فى اتجاه شمال غرب. كانت برية صين Zin إلى يمينهم وبرية فاران Paran إلى يسارهم حتى وصلوا إلى قادش برنيع التى كانوا فيها من قبل حين رفضوا دخول الأرض وفرضت عليهم سنوات التيه ولعل هذا ماجعل بعض المؤرخين يتبنون فكرة أن بنى إسرائيل قد أمضوا ٣٨ سنة فى قادش برنيع (ص ١٠٥٦) والحقيقةأنهم تجولوا فى مسيرة واسعة فى وسط سيناء وجنوبها ثم عادوا ثانية إلى قادش برنيع استعدادا لدخول «الأرض» من الجنوب كما كانوا ينوون. وفى قادش برنيع ماتت مريم ودفنت هناك.

وتقول التوراة (عدد ٢٠:٢) ولم يكن ماء للجماعة فاجتمعوا على موسى وهارون وخاصم الشعب موسى وكلموه قائلين: ليتنا فنينا فناء إخوتنا أمام الرب لماذا أتيتما بجماعة الرب إلى هذه البريّة لكى نموت فيها نحن ومواشينا. وتدَّعى التوراة أن موسى وهارون جمعا بنى إسرائيل أمام صخرة وقال لهم موسى: اسمعوا أيها المردة أمِّن هذه الصخرة نخرج لكم ماء؟ (أى أنه غير مؤمن بخروج ماء من الصخرة). ثم تقول ورفع موسى يده وضرب الصخرة بعصاه مرتين فخرج ماء غزير فشربت الجماعة ومواشيها وتمضى التوراة فتقول: فقال الرب لموسى وهارون من أجل أنكما لم تؤمنا بى حتى تقدسانى أمام أعين بنى إسرائيل لذلك لا تُدخِلان هذه الجماعة إلى الأرض التى أعطيتهم إياها (عدد ١٢:٢٠). وهذا موقف غريب من كاتبى التوراة تجاه موسى وهارون. فموسى عليه السلام سبق أن ضرب الحجر بعصاه قبل

ذلك عشرات المرات وكان يخرج منه الماء في كل مرة وليس هناك من سبب يجعله يشك في خروج الماء في هذه المرة. أما أن عدم دخول موسى وهارون الأرض كان «عقابا» لهما فهذا غير صحيح. وهارون كان أكبر سنا من موسى وتوفي قبله. أما موسى فقد حمل عبء بنى إسرائيل – وما أثقلهم من عبء – منذ خروجهم من مصر – وقادهم عبر سيناء وتحمل كثرة تذمرهم – وتحمل عبء التيه – أربعين سنة – معهم. وسنرى أنه أوصلهم إلى مشارف الأرض. وحارب الأموريين واستولى على المناطق الواقعة شرق الأردن وعلم الله أن دخول الأرض غرب النهر ستكون مهمة صعبة وقتال متواصل فكانت مشيئته أن يقوم بهذا العبء من يخلفه وهو فتاه يشوع بن نون. ويعود بعض أهل الكتاب فيقولون (تفسير الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين جـ١ ص٣٨٦) إن خطأ موسى أن الكبرياء أخذ بنفس موسى فدعا الشعب «بالمردة» ووضع نفسه مكان الله ناسيا أن «غضب الإنسان لا يصنع بر الله». وبذلك بيَّن أنه لم يعد عنده الاحتمال المطلوب لقيادة الشعب إلى أرض الموعد. ولما رأوا أن هذا السبب قد يبرر حرمان موسى من دخول الأرض ولكنه لا يبرر ذلك بالنسبة لهارون عادوا فقالوا: وقد وقف هارون وموسى معا في هذا العمل فحكم عليهما بالعقاب معا! وكان هارون قد سقط في خطأ شنيع من قبل (يقصدون ثورة مريم وهارون على موسى – ص ١٠٣٩). مع أن هذا قد حدث من فترة طويلة وتم العفو عنه في حينه كما ذكرت التوراة. فلاداعي لافتراء «عقاب» ما من الله على نبيين كريمين. وقد أوضحنا آنفا لماذا لم يُتح لهما دخول الأرض.

كانت سنوات التيه الأربعون قد انقضت لتبدأ المرحلة الأخيرة لدخول «الأرض الموعودة» وكانت تلك هي أخطر المراحل وأدقها. كان موسى عليه السلام يدرك أن بنى إسرائيل ليس لديهم الأسلحة التي تمكنهم من محاربة الجيوش النظامية الموجودة عند أمراء الدويلات القائمة في أرض كنعان لذلك فقد ارتأى أن يفاجئهم من حيث لا يتوقعون. فوضع خطة لدخول الأرض من عند الطرف الجنوبي للبحر الميت في الممر المعروف بطريق أدوم. ولكن ذلك يستدعي المرور في أرض أدوم (شكل ٢٩٢). فأرسل رسلا من قادش برنيع إلى ملك أدوم (عدد ١٤:٢٠) يقول له: هكذا يقول أخوك إسرائيل. قد عرفت كل المشقة التي أصابتنا. إن آباءنا انحدروا إلى مصر وأقمنا في مصر أياما كثيرة وأساء المصريون إلينا وإلى آبائنا فصرخنا إلى الرب فسمع صوتنا وأرسل ملاكا وأخرجنا من مصر وها نحن في قادش مدينة في طرف تخومك دعنا نمر في أرضك. لا نمر في حقل ولا في كرم ولا نشرب ماء بئر. في طريق الملك نمشي لا نميل يمينا ولا يسارا حتى نتجاوز تخومك. فقال له أدوم لا تمر بي لئلا أخرج للقائك بالسيف. فقال له بنو إسرائيل: في السكة نصعد وإذا شربنا أنا ومواشيَّ من مائك أدفع ثمنه. لا شيء. أمر برجلي فقط. فقال لا تمر. وخرج أدوم للقائه بشعب غفير وبيد شديدة. وأبى أدوم أن يسمح لإسرائيل بالمرور في تخومه فتحول إسرائيل عنه.



شكل ٢٩٢ – التخطيط لدخول أرض كنعان من الجنوب

أ – الخطة لدخول الأرض عبر أرض أدوم .

ب – ملك عراد يمنع بني إسرائيل من دخول الأرض.

وطريق الملك المشار إليه فى هذه الفقرة هو الطريق الرئيسى الذى كان يربط بين الدويلات المختلفة. ولعله كان أكثر الطرق تمهيدا واتساعا بحيث يتيح للملك وحاشيته – أو وجنوده فى حالة الحرب – المرور فيه بسهولة ولذلك سمى طريق الملك وتسميه المراجع الأجنبية King's Highway. وكانت الطرق السريعة فى المنطقة كما هى مبينة فى الشكل السابق. ولعل خطة موسى عليه السلام كانت السير شرقا فى طريق الملك عبر أدوم فيظن ملك عراد أنهم قد صرفوا النظر عن مهاجمة أرضه. وعند تامار يترك بنو إسرائيل طريق الملك ويتخذون طريقا فرعيا يتجه شمالاً وعند الطرف الجنوبى للبحر الميت يتجهون شمال غرب عبر أحد الوديان ثم ينقضون على عراد من جهة الشرق. والخطة بهذه الطريقة كانت توحى باحتمالات النجاح والاستيلاء على منطقة جنوب فلسطين بأقل الخسائر لولا أن ملك أدوم رفض بشدة مرور بنى إسرائيل فى أرضه.

ولا يأخذنا العجب من هذا الموقف الذى اتخذه ملك أدوم من بنى إسرائيل بالرغم من أنهما «أولاد عمومة» إذ أن «أدوم» أو «عيسو» جد الأدوميين هو أخو «يعقوب» أو «إسرائيل» جد بنى إسرائيل وكان المتوقع مساعدتهم أو على الأقل إجابة مطلبهم وهو مجرد المرور فى أرضهم. ولكن لعل الأدوميين لم ينسوا كيف أخذ يعقوب البكورية من أخيه عيسو (الجزء الثالث ص٤٠٢) ثم كيف نال بركة إسحق وأصبح نبيا. من هنا كان العداء لبنى إسرائيل. ولعلهم خشوا أن يكون طلب المرور مجرد حجة لدخول أرضهم والاستيطان بها. أو أنهم إذا انهزموا من الكنعانيين ارتدُّوا وشاركوهم أرضهم. من هنا كان إصرار ملك أدوم على رفض مرور بنى إسرائيل من أرضه.

رأى موسى عليه السلام أنه لا مفر من دخول أرض كنعان من الجنوب. فرحل بنو إسرائيل من قادش برنيع شمالا وأتوا إلى جبل هور الذى يقع فى أقصى الجنوب من أرض فلسطين على حدود الدويلة التى يحكمها ملك عراد.

وفاة هارون عليه السلام :

تقول التوراة (عدد ٢٠:٢٤) وكلَّم الرب موسى وهارون فى جبل هور على تخم أرض أدوم قائلا يُضَمُّ هارون إلى قومه لأنه لا يدخل الأرض التى أعطيت لبنى إسرائيل لأنكم عصيتم قولى عند ماء مريبة. خذ هارون وألعازار ابنه واصعد بهما إلى جبل هور. واخلع عن هارون ثيابه (ثياب الكهنوتية) وألبس ابنه ألعازار إياها فيُضَمّ هارون ويموت هناك. ففعل موسى كما أمر الرب وصعدوا إلى جبل هور أمام أعين كل الجماعة. فخلع موسى عن هارون ثيابه وألبس ألعازار ابنه إياها. فمات هارون هناك على رأس الجبل ثم انحدر موسى وألعازار عن الجبل فلما رأى الجماعة أن هارون قد مات بكى جميع بيت إسرائيل على هارون ثلاثين يوما.

قال عمرو بن ميمون إن بنى إسرائيل اتهموا موسى بقتل هارون. ولجأ موسى إلى الله

ليبرِّئه أمام بنى إسرائيل فأوحى الله إليه أن أنطلق بهم إلى قبره فإنى باعثه حتى يخبرهم أنه مات موتا ولم تقتله. فانطلق بهم إلى قبر هارون. فناداه ياهارون فخرج من قبره ينفض التراب عن رأسه فقال له أنا قتلتك؟ قال لا والله ولكني مت. فعادوا وانصرفوا (عرائس المجالس للثعلبى ص٢٢٠) وواضح أن ذلك من الموضوعات. وتقول التوراة (عدد ٣٨:٣٣) ومات هارون فى جبل هور فى السنة الأربعين لخروج بنى إسرائيل من أرض مصر فى الشهر الخامس فى الأول من الشهر وكان هارون ابن ١٢٣ حين مات فى جبل هور. وفى هذه الفقرة معلومة غير دقيقة هى مايتعلق بتحديد عمر هارون بـ ١٢٣ سنة. إذ معروف أن هارون يكبر موسى بثلاث سنوات - وقد سبق أن ذكرنا (ص ٨٤٦) قول التوراة «وكان موسى ابن ثمانين سنة وهرون ابن ثلاث وثمانين سنة حين كلما فرعون» - وبالرجوع إلى جدول حياة موسى (ص ١١٢١) نجد أنه عند وفاة هارون كان موسى عمره ١٠٥ سنة وبذلك يكون عمر هارون عند وفاته هو ١٠٨ سنة وليس ١٢٣.

محاولة دخول الأرض من الجنوب :

كانت شعوب المنطقة قد استشعرت خطر بنى إسرائيل لذلك فقد اتخذوا أهبتهم لصدهم. وكان ملك عراد يسكن فى جنوب فلسطين فمملكته هى أولى الممالك المعرضة للغزو ولاشك أن عيونه وجواسيسه أخبروه بوصول جموع بنى إسرائيل إلى جبل هور على حدوده وذهب لمقاتلتهم. تقول التوراة (عدد ١:٢١) ولما سمع الكنعانى ملك عراد الساكن فى الجنوب أن إسرائيل جاء فى طريق أتاريم (أتاريم مدينة فى النقب بين عراد وجبل هور) حارب إسرائيل وسبى منهم سبيا. فنذر إسرائيل نذرا للرب وقال إن دفعت هؤلاء القوم إلى يدى أحرِّم مدنهم وأدمِّرها. فسمع الرب لقول إسرائيل ودفع الكنعانيين فحرَّموهم ومدنهم فدعى اسم المكان «حُرمة». ولا نظن أن بنى إسرائيل قد تغلبوا على ملك عراد ودمروا مدنه إذ لو كان ذلك صحيحا لتقدَّموا ودخلوا أرض كنعان من هذا الاتجاه. والحقيقة هى ماذكرته التوراة من أن ملك عراد حارب إسرائيل وسبى منهم سبيا وذلك لايكون إلا بعد أن يكون قد هزمهم. وهكذا فشل مشروع اقتحام الأرض من الجنوب فارتد بنو إسرائيل وعزموا على دخول الأرض من جهة الشمال شرق.

الدوران حول أدوم :

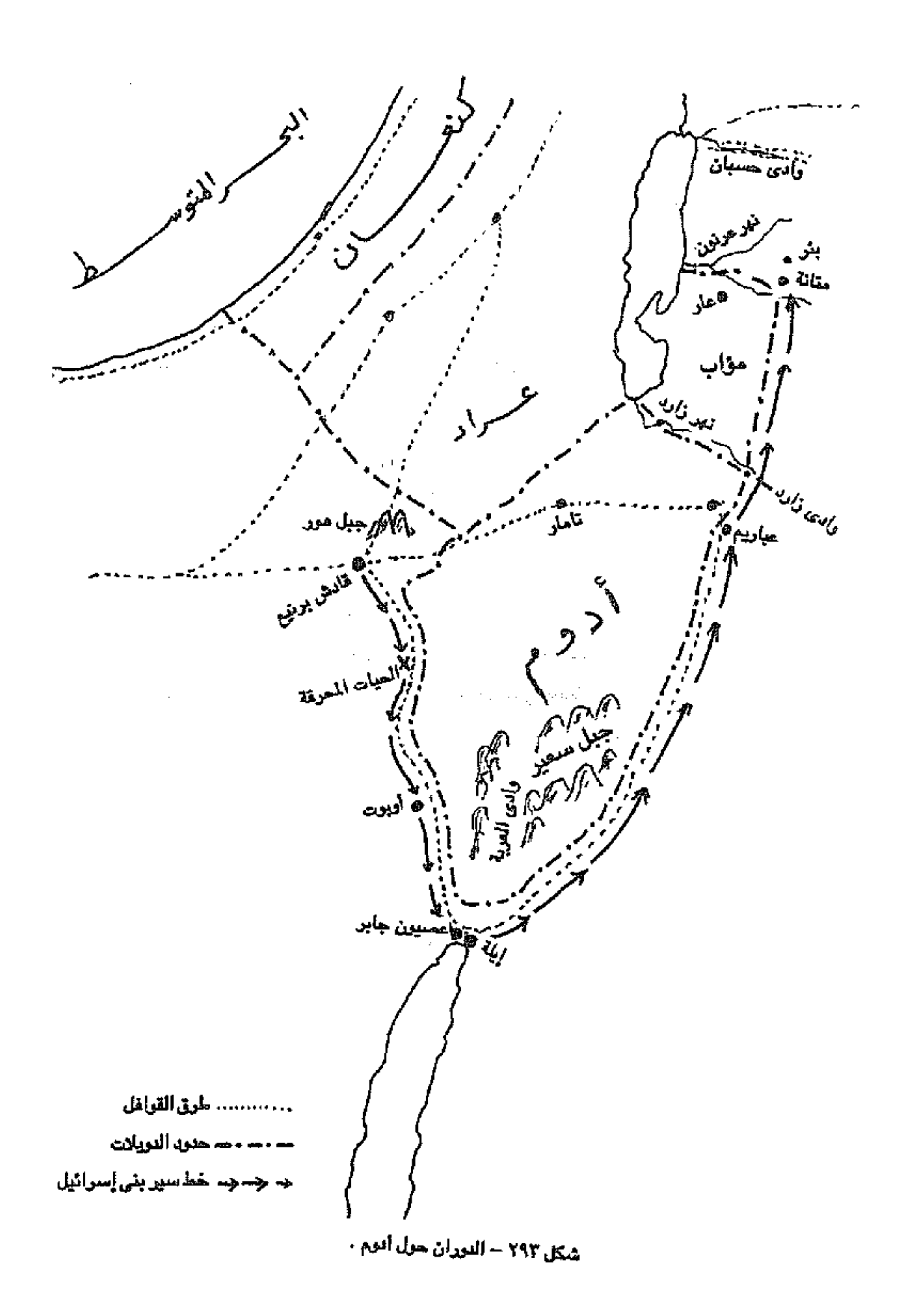
ارتد بنو إسرائيل إلى جبل هور ثم ساروا جنوبا على حدود أدوم ليدوروا حولها لأن ملكها رفض مرورهم بأرضه كما سبق أن ذكرنا. وتقول التوراة (عدد ٤:٢١) فضاقت نفس الشعب فى الطريق وتكلم الشعب على الله وعلى موسى قائلين لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت فى البرية لأنه لا خبز ولا ماء وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف (يقصدون المن والسلوى !). - وهذا التذمر أدَّى إلى وقوع عقاب إلهى فى صورة ضربة الحيَّات - فأرسل الرب على الشعب

«الحيات المحرقة» فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من إسرائيل (وسم هذه الحيات كان يرفع حرارة المصاب حتى ليحس أنه يحترق): فأتى: الشعب إلى موسى وقالوا قد أخطأنا إذ تكلمنا على الرب وعليك. فَصَلِّ إلى الرب ليرفع عنا الحيات. فصلى موسى لأجل الشعب فقال الرب لموسى اصنع لك حية من نحاس وضعها على راية فكل من لُدِغَ ونظر إليها يحيا ففعل موسى كذلك وكان متى لدغت حية إنسانا ونظر إلى حية النحاس يحيا. ويقول أهل الكتاب إن ذلك يوضح أنه إذا توافر الإيمان الحق كان الخلاص وقد وُضعت حية نحاسية في هيكل سليمان كتذكرة لما حدث. ولكن الحية النحاسية بعد أن كانت رمزا لبعث الإيمان في النفس – بدأ بنو إسرائيل يقدسونها وصارت موضوعا للعبادة لذلك فإن حزقيا الملك (٧٠٠ ق.م.) كسرها ودقها ناعما (وارنر كيللر. ص١٤٦). وقد وجد عالم الآثار الإسرائيلى بنود رونذبرج إحدى الحيات النحاسية في حفرياته في بلدة تمنة في وادى العربة.

بعد ذلك سار بنو إسرائيل في اتجاه خليج العقبة ووصلوا إلى **أوبوت** Oboth وهي كلمة عبرية تعنى «قُرب الماء» ومكانها اليوم «عين الويبة». ثم وصلوا إلى **عصيون جابر** ثم **إيلة** على الطرف الشمالى لخليج العقبة وكانت هذه المسيرة من جبل هور إلى خليج العقبة طولها حوالى ١٦٠كم. ثم التفوا حول جبل سعير وساروا باتجاه شمال شرق (شكل ٢٩٣) كان جبل سعير إلى يسارهم وظلوا يدورون حول جبل سعير أياما كثيرة مترددين هل يعبرونه ويفاجئون الأدوميين ويخترقون أرضهم من الجنوب إلى الشمال حتى يصلوا إلى أرض كنعان مادام ملك أدوم قد رفض طلبهم بالمرور سلما في أرضه. وكلَّم الرب موسى قائلا (تثنية ٢) كفاكم دورانًا بهذا الجبل. تحوَّلوا نحو الشمال وأَوْصِ الشعب قائلا أنتم مارون بتخم إخوتكم بنى عيسو الساكنين في سعير فاحترزوا جدا. لا تهجموا عليهم لأنى لا أعطيكم من أرضهم ولا وطأة قدم لأنى لعيسو قد أعطيت سعير ميراثا. طعاما تشترون منهم بالفضة لتأكلوا وماء أيضا تبتاعون منهم بالفضة لتشربوا.

ونفَّذ بنو إسرائيل أوامر الرب وساروا على حدود أدوم من الشرق ولم يحتكوا بهم حتى وصلوا إلى **عباريم** ثم عبروا **نهر زارد** وجاءوا إلى بلدة **متَّانة** على الحدود الشرقية لمؤاب على الشاطىء الشمالى لنهر عرنون ويحتمل أن تكون هى «خربة المدينة» الحالية وقال الرب لموسى (تثنية : ٩) لا تُعاد مؤاب ولا تُثر عليهم حربا لأنى لا أعطيك من أرضهم ميراثا. لأنى لبنى لوط قد أعطيت عار ميراثا (عار إحدى المدن الكبرى في مؤاب على حدودها الشمالية على حافة وادى أرنون أو عرنون).

ونفذ بنو إسرائيل أوامر الرب وساروا على حدود مؤاب الشرقية ولم يعادوا المؤابيين أبناء مؤاب بن لوط (الجزء الثانى ص٣٣٤) وعبروا نهرا أرنون وأتوا إلى **بئر**. وقال الرب لموسى اجمع الشعب فأعطيهم ماء. حينئذ ترنَّم بنو إسرائيل بهذا النشيد: «اصعدى أيتها البئر. أجيبوا



شكل ٢٩٣ – الدوران حول أدوم .

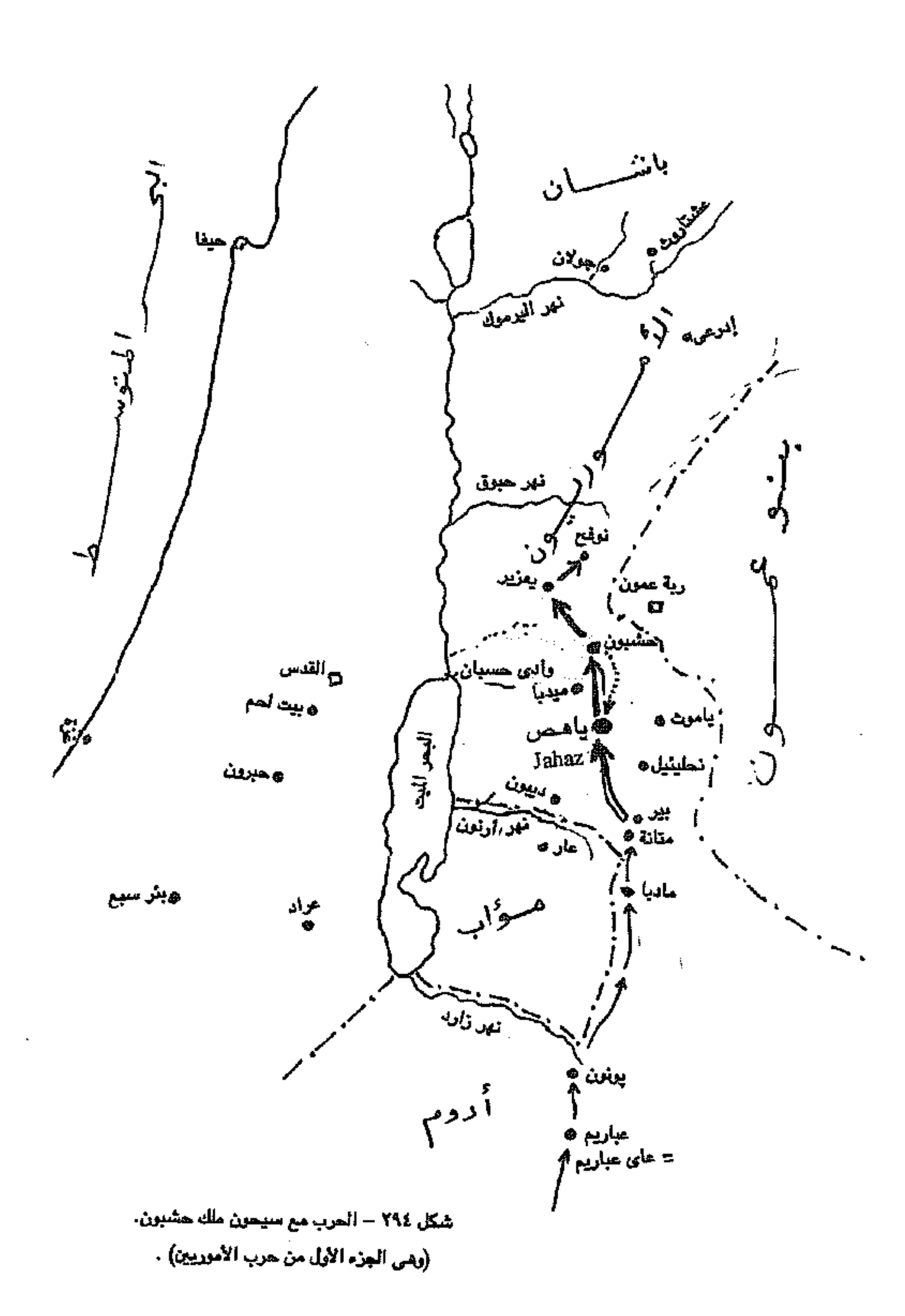
لها. بئر حفرها رؤساء، حفرها شرفاء الشعب بصولجان بعصيهم». ويفهم من هذا أن بنى إسرائيل قد حفروا هذه البئر بعصيِّم وكان الرؤساء أصحاب الصولجان يشرفون على عملية الحفر حتى تمت وتدفق الماء منها غزيرا. وهذا يعنى أن دور عصا موسى وضرب الحجر لتتفجر منه المياه قد انتهى – وأن لبنى إسرائيل أن يعتمدوا على أنفسهم فى تدبير مايلزمهم من ماء للشرب أو لمواشيهم سواء بحفر الآبار أو بمياه الأنهار.

كان بنو عمون يسكنون الأرض التى إلى الشرق من «بئر» والأموريون إلى اليسار أى جهة الغرب. وكلم الرب موسى (تثنية ٢:١٨) قائلا: فمتى قربت إلى تجاه بنى عمون لاتعادهم. ولا تهجموا عليهم لأنى لا أعطيك من أرض بنى عمون ميراثا لأنى لبنى لوط قد أعطيتها ميراثا (عمون هو الابن الأصغر للوط. الجزء الثانى. ص ٣٣٦). قوموا اعبروا وادى أرنون. قد دفعتُ إلى يدك سيحون ملك حشبون الأمورى وأرضه. ابتدئ تملَّك وأثِر عليه حربا. فى هذا اليوم أبتدئ أجعل خشيتك وخوفك أمام وجوه الشعوب تحت كل السماء. الذين يسمعون خبرك يرتعدون ويجزعون أمامك.

والمنطقة شمال نهر عرنون كانت فى الأصل من أراضى مؤاب التى كانت تمتد من وادى نهر زارد جنوبا حتى وادى حسبان عند الطرف الشمالى للبحر الميت وكانت حشبون ضمن أملاك مؤاب ولكن الأموريين حاربوا مؤاب الأول وغلبوهم وسبُوا بناتهم وانتزعوا منهم المنطقة من وادى حسبان حتى نهر أرنون أى حوالى نصف أرضهم. وقد أجرى عالم الآثار سيجفريد هورن حفريات فى منطقة حشبون بين عامى ١٩٦٨ – ١٩٧١ وكذلك العالم لورانس جيراتى فى أعوام ١٩٧٤ – ١٩٧٦ وأثبتا أن هذه المنطقة كانت آهلة بالسكان فى الفترة بين القرنين ١٢ ق.م. وحتى القرن ١٤ الميلادى (قاموس أونجر الجديد. ص٥٦٥).

محاربة الأموريين :

تقول التوراة (عدد ٢١:٢١) وأرسل إسرائيل رسلا إلى سيحون ملك الأموريين قائلا: دعنى أمر فى أرضك. لا نميل إلى حقل ولا إلى كرم ولا نشرب ماء من بئر فى طريق الملك نمشى حتى نجاوز تخومك. فلم يسمح سيحون لإسرائيل بالمرور فى تخومه بل جمع جميع قومه وخرج للقاء إسرائيل فى البرية – هنا نجد أن بنى إسرائيل لجأوا إلى الخدعة وأرادوا إظهار المهادنة حتى يدخلوا أرض الأموريين ثم ينقضوا عليهم فيغلبوهم بأقل الخسائر وخاصة أن تسليح بنى إسرائيل كان يقل كثيرا عن تسليح الأمم الأخرى. ولكن هذه الطريقة لم تفلح وخرج ملك سيحون لمحاربة بنى إسرائيل. وكان اللقاء فى مدينة **ياهص** Jahaz (شكل ٢٩٤) فضربه إسرائيل بحد السيف وملك أرضه من أرنون حتى الطرف الشمالى للبحر الميت . وكما قلنا سابقا إن هذه المنطقة كانت أصلا من أملاك مؤاب وكان من العار أن أخذها منهم الأموريون. لذلك قال بنو إسرائيل عند امتلاكها هذا النشيد :



شكل ٢٩٤ – الحرب مع سيحون ملك حشبون.

(وهي الجزء الأول من حرب الأموريين) .

ايتوا إلى حشبون فتُبنى وتُصلح مدينة سيحون.

لأن نارا خرجت من حشبون. لهيبا من قرية سيحون.

أكلت عار مؤاب . أهل مرتفعات أرنون .

ويل لك يا مؤاب. هلَكت يا أمة كموش.

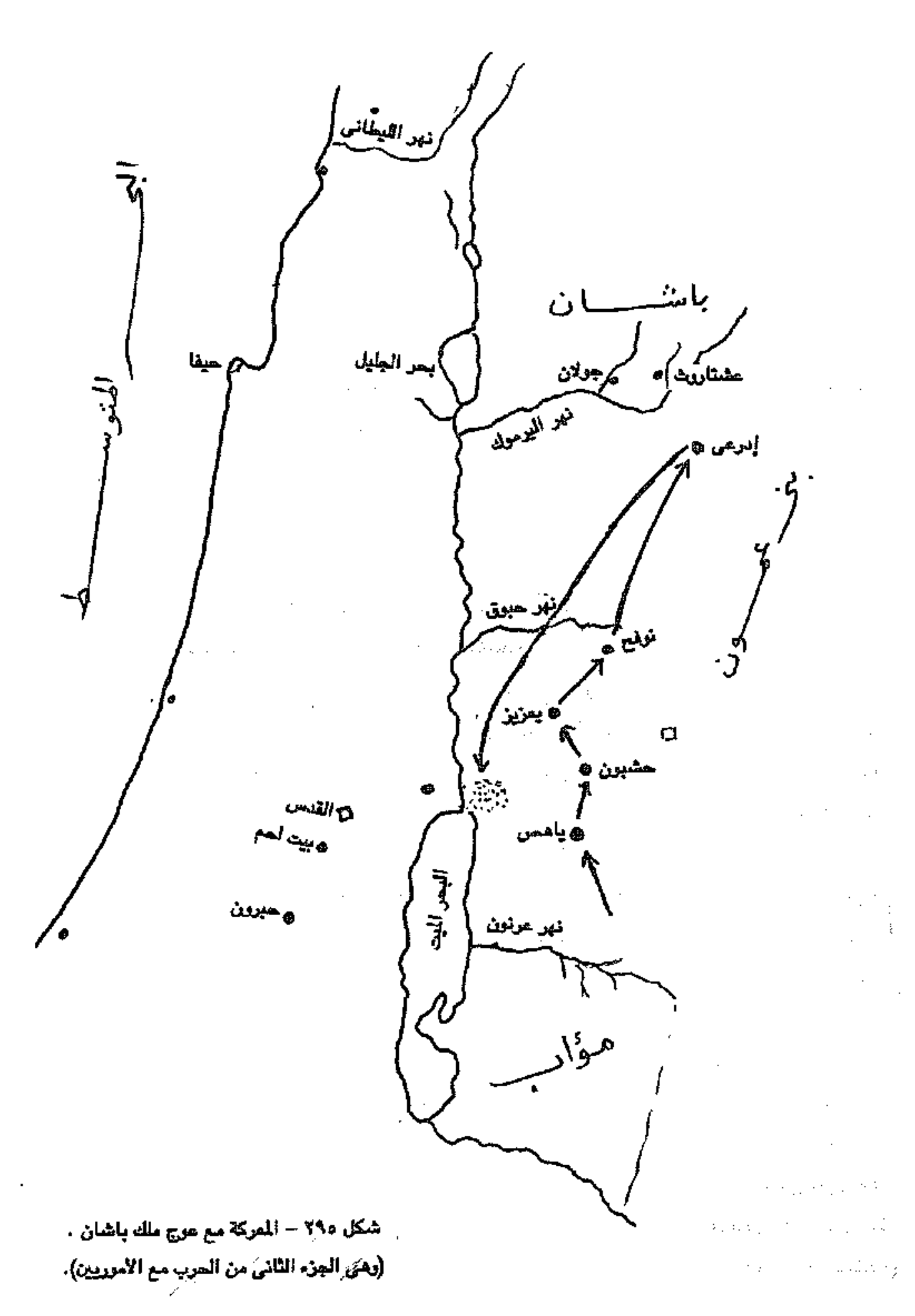
قد صيَّر بنيه هاربين وبناته فى السبى لملك الأموريين سيحون .

لكن قد رميناهم. هلكت حشبون إلى ديبون وأخربنا إلى نوفح التى إلى ميدبا.

وكموش هو إله المؤابيين وقد سمُّوا به «أُمة كوش» وسمى كموش «رجس المؤابيين». وكان من طقوس عبادته تقديم الأولاد ذبائح له. وكان له صلة بملكوم أو مولك إله العمونيين الذى كانت تقدم له هو أيضا ذبائح من الأولاد.

وكان بنو إسرائيل يخربون المعابد بالذات إذ كان الأموريون وثنيين وكان من آلهتهم «رشف» إله النار و«دجان» إله الخصب والطعام و«حدد» أو «أدد» و«رمان» أو «رمانو» إله الرعد والمطر والعواصف.

ولاشك أن بنى إسرائيل قد غنموا بعض الأسلحة من الأموريين. وكان انتصارهم على الأموريين أول النجاحات التى لاقوها. وهذا ماشجعهم على الاستيلاء على كل المنطقة حول حشبون. وأرسل موسى (عدد ٢١:١٢) رسلا ليتجسس **يعزير** Jazer ثم استولى عليها – ثم على **نوفح** Nophah . ثم عبر نهر حبوق. وسار فى اتجاه الشمال صوب أرض باشان شرقى بحر الجليل. وباشان معناها خصيب وكانت مراعى باشان مشهورة بخصبها. وكان عوج ملك باشان يتخذ من مدينة عشتاروث (٣٠ كم شرق بحر الجليل) مركزا له. فخرج لملاقاة بنى إسرائيل ودارت المعركة فى بلدة **إدرعى** Edrei (شكل ٢٩٥). فقال الرب لموسى لا تخف منه لأنى دفعته إلى يدك مع جميع قومه وأرضه فتفعل به كما فعلت بسيحون ملك الأموريين. فضربوه وبنيه وجميع قومه حتى لم يبق له شارد وملكوا أرضه (عدد ٢١:٣٥). وقد ذكرنا سابقا (الجزء الثانى ص١٩٧) أن العماليق هم من نسل مالوق بن لود بن نوح. ومن خط السير المفترض لارتحالهم نرى أنهم مروا بهذه المنطقة من جنوب غرب سوريا – أرض باشان (الجولان حاليا). والعماليق ينتمون إلى إنسان العصر البرونزى المتوسط (٢٢٠٠ – ٢٠٠٠ ق.م.) وقد ارتحلت فرقة منهم جنوبا واستقروا فى الجزيرة العربية عند تفجر الماء من بئر زمزم (جـ٢ ص٣٠٢) وذابوا فى الأقوام هناك. وفرقة ارتحلت إلى سيناء. وقد ذكرنا أن بنى إسرائيل حاربوهم عند رفديم (وادى فيران – ص ٩٨٣) وانتصروا عليهم وأبادوهم. كان عوج ملك باشان وقومه هم بقايا العماليق. وإلى هذا تشير التوراة (تثنية ٣:١١) فتقول: إن عوج ملك باشان وحده بقى من بقية الرِّفائيين (المراجع الإنجليزية تترجم الرفائيين إلى giants أى عمالقة)



شكل ٢٩٥ – المعركة مع عوج ملك باشان .
(وهى الجزء الثانى من الحرب مع الأموريين).



Dolmen in the Golan Heights

شكل ٢٩٦ – أحد الباحثين بجوار «سرير عمالق»
ويوجد حطام كثير منها فى مرتفعات الجولان .

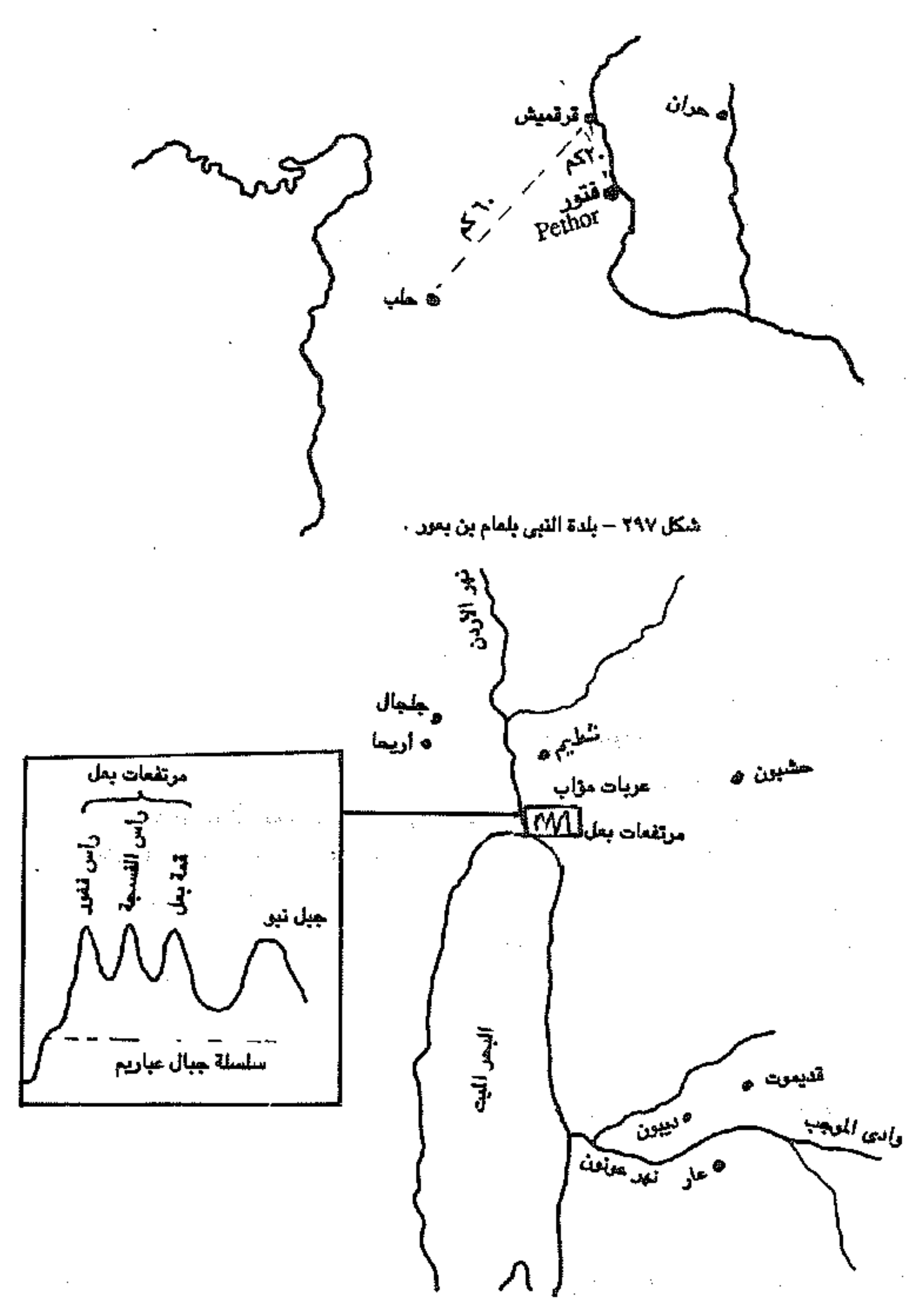
هو ذا سريره، سرير من حديد. أليس هو في ربة بني عمون (عمان الأردن حاليا) طوله تسع أذرع وعرضه أربع أذرع بذراع رجل. وقد اكتشف الأثريون مئات من هذه «السرر» عبارة عن قطعة ضخمة من حجر البازلت الصلد ٩ أذرع × ٤ أذرع ترتكز على ٤ قطع حجارة أصغر ترفعها عن الأرض ويسميها الناس «سرير العملاق» (شكل ٢٩٦). ويرجح الأثريون أنها أضرحه أو قبور مكشوفه لهؤلاء العمالقة. وقد وجدت مئات منها في الجولان والتي هي أرض باشان. وهذا يؤيد ما ذُكر من أن عوج ملك باشان كان آخر العمالقة. وقد أبادهم بنو إسرائيل. حتى لم يبق لهم شارد كما ذكرنا أعلاه.

بعد أن استولى موسى وبنو إسرائيل على أرض باشان عادوا ونزلوا في السهل المقابل لمدينة أريحا عبر نهر الأردن وهذا السهل يسمى **«عربات مؤاب»** وبدأوا يُعدُّون العدة لعبور نهر الأردن إلى «الأرض الموعودة» التي أصبحت على مرمى البصر. لقد أمَّنوا ظهرهم فهزموا الأموريين واستولوا على أرضهم. وهادنوا بني عمون ومؤاب واحترموا سيادتهم على أرضهم ولم يهاجموهم كما أمر الرب. ولكن حدث من مؤاب أمر لم يكن متوقعا ولا كان في الحسبان.

«بلعام بن بعور» «نبي فتور» :

بالرغم من أن بني إسرائيل كانوا قد تجنبوا الاشتباك مع مؤآب إلا أن بالاق بن صِفُّور ملك مؤاب انزعج من اكتساح بني إسرائيل للأموريين ثم لما عادوا ونزلوا في شرق الأردن مقابل أريحا ظن أنهم سيتقدمون صوبه للاستيلاء على أرضه. تقول التوراة (عدد ٢٢:٢) ولما رأى بالاق بن صفور جميع مافعل إسرائيل بالأموريين فزع فقال مؤاب لشيوخ مديان. الآن يلحس بنو إسرائيل كل ماحولنا كما يلحس الثور خضرة الحقل! كان المؤابيون قد فشت فيهم عبادة الأوثان وكانوا يعبدون إلها اسمه «كيموش». وكان العمونيون يعبدون إلها اسمه «ملكوم» وكانوا يقدمون أبناءهم ذبائح له كما سبق أن ذكرنا. وكان المديانيون أيضا قد ضلوا وعبدوا الأوثان. ولعل المؤابيين ظنوا أن بني إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام لن يتركوا أيا من الشعوب التي تعبد أصناما في حالها وأنهم إن عاجلا أو آجلا لابد مكتسحوهم فرأوا أن يستبقوا الأمور فاتصلوا بشيوخ مدين واتفقوا معهم على أن يعملوا على إضعاف بني إسرائيل باستعداء الرب عليهم.

بلعام بن بعور كان نبيا في فتور Pethor – وإن كان البعض يرى أنه كاهن فقط – وكان يعيش في قومه. ويحتمل أن مدينة فتور مكانها الآن تل الأحمر – ٢٠كم جنوب قرقميش على الضفة الغربية للفرات الأعلى (شكل ٢٩٧) وكان مشهورا بتقواه وبأن دعاءه مستجاب. فأرسل بالاق رسلا إليه يدعوه قائلا: هو ذا شعب قد خرج من مصر هو ذا قد غَشيَ وجه الأرض وهو مقيم مقابلي فالآن تعالي والعن لي هذا الشعب لأنه أعظم مني لعله يمكننا أن نكسره فنطرده من الأرض لأني عرفت أن الذي تباركه مبارك والذي تلعنه ملعون – ولعل بالاق كان يطمع في



شكل ٢٩٧ – بلدة النبي بلعام بن بعور .

شكل ٢٩٨ – مباركة بلعام بن بعور لبنى إسرائيل .

استرداد النصف الشمالى من مملكته الذى استولى عليه الأموريون فلما استولى عليه بنو إسرائيل وجدها فرصة ليعيده إلى سيطرته فأراد أن يُضعِفَ بنى إسرائيل بالدعاء عليهم ولعنهم حتى يستطيع أن يتغلب عليهم.

وانطلق شيوخ مؤاب وشيوخ مديان وفى أيديهم حُلوان العرافة وأتوا إلى بلعام وكلَّموه بكلام بالاق فطلب منهم أن يمهلوه إلى الغد حتى يستشير الرب. وأُوحى إلى بلعام ألاَّ يذهب معهم ولا يلعن شعب بنى إسرائيل لأنه شعب مبارك. وفى الصباح أخبرهم أن الرب لم يسمح له بالذهاب معهم. فعاد الوفد إلى بالاق وأخبروه أن بلعام رفض طلبه. فعاد بالاق وأرسل رسلا أكثر وأعظم فأتوا إلى بلعام وألحُّوا فى مجيئه معهم وأغروه بهدايا أكثر. ورفض بلعام قائلا: ولو أعطانى بالاق مِلء بيته فضة وذهبا لا أقدر أن أتجاوز قول الرب فى أى عمل صغير أو كبير وطلب منهم امهاله الليلة لينظر ما يأمر به الرب. يرى أهل الكتاب (تفسير الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين. ص٢٩٢) أن ذلك التصرف من بلعام كان خطأ فقد سبق أن أُعلنت له إرادة الرب فكان عليه أن يكرر فى الحال رفضه السابق. إذ أنه لم تكن هناك أية حقيقة جديدة يمكن أن تبرر إعادة فتح الموضوع. لكن على مايبدو أن بلعام كان قد مال قلبه للذهاب معهم لما رأى كثرة الهدايا هذه المرة فأراد أن يستشير الرب «لعله» يسمح له بالذهاب معهم وحتى لو لم يفعل مايطلبونه. فإن هذا الموقف منه يدل على عدم الولاء الكامل لله. وكان طلبه مشورة الرب مُعبِّرا عن شهوة خفية للحصول على هذه العطايا الثمينة. وكأنما أراد الله أن يعطيه فرصة أخرى. فرأى بلعام فى المنام أن الرب يقول له: إذا أتى الرجال ليدعوك فقم اذهب معهم إنما تعمل الأمر الذى أكلمك به. هنا كان الواجب على بلعام – أن يفهم المغزى الحقيقى لإرادة الرب إذ مادام قد أعلنه أن يتكلم بما يكلمه به الرب فهذا معناه عدم الموافقة على التكلم بما يطلبونه فيتعين عليه ألا يذهب معهم. ولكنه – لرغبته فى الذهاب معهم ليكون من حقه الهدايا التى عرضوها – عَمِىَ عن إرادة الرب وقام بلعام صباحاً وركب أتانه (الأتان أنثى الحمار) وانطلق مع رؤساء مؤاب. وتقول التوراة (عدد ٢٢:٢٢): فحمى غضب الرب لأنه منطلق معهم ووقف ملاك الرب فى الطريق ليقاومه وتوقف الأتان فضربه بلعام فسار قليلا ثم اعترضه الملاك ثانية فجنح إلى حائط حقل كروم وضغطت رجل بلعام بالحائط فضربها. ثم لما اعترضها ملاك الرب للمرة الثالثة ربضت وأبصر بلعام ملاك الرب واقفا فى الطريق شاهرا سيفه فسجد بلعام على وجهه وقال أخطأتُ والآن إن قبح فى عينيك فإنى أرجع فقال له الملاك اذهب مع الرجال وإنما تتكلم بالكلام الذى أكلمك به فقط.

فلما سمع بالاق بمجىء بلعام خرج لاستقباله وقال بلعام هأنذا قد جئت إليك. الكلام الذى يضعه الله فى فمى به أتكلم. وانطلقا معا إلى قرية «حصوت» وذبح بالاق بقرا وغنما وأولم وليمة لبلعام وفى الصباح أخذ بالاق بلعام بن بعور. وأصعده إلى قمة **بعل** (إحدى القمم فى سلسلة جبال عباريم – شكل ٢٩٨) ورأى من هناك شعب بنى إسرائيل.

وأمر بلعام بعمل الشعائر المطلوبة من بناء سبعة مذابح وتقديم قرابين (سبعة ثيران وسبعة كباش) ووقف على إحدى القمم العالية بحيث يرى الشعب، ولقَّنه الرب مايقول فقال: كيف ألعن من لم يلعنه الله ويبارك بنى إسرائيل. وقال بالاق جئت بك لتلعنهم فإذا بك تباركهم. هلُمَّ إلى مكان آخر لتلعنهم فذهبوا إلى **رأس الفسجة** وعملوا نفس الشعائر ونطق بلعام ويبارك بنى إسرائيل أيضا وغضب بالاق وطلب منه الانتقال إلى مكان ثالث ليلعنهم فانتقلوا إلى **رأس فغور**. وبنى أيضا سبعة مذابح وقدَّم سبعة ثيران وسبعة كباش قربانا وتكلم بلعام ويبارك بنى إسرائيل للمرة الثالثة. وغضب بالاق بن صفور - ملك مؤاب على بلعام وقال له جئت بك لتلعنهم وهو ذا أنت باركتهم ثلاث مرات. فالآن اهرب إلى بلدك. فقال له بلعام: لقد أخبرت رسلك بأنك لو أعطيتنى ملء بيتك فضة وذهبا فلا أقدر أن أتجاوز قول الرب لأعمل خيرا أو شرا من نفسى فالذى يتكلم به الرب إياه أتكلم.

نبوءات بلعام: قال بلعام: وحى الذى يسمع أقوال الله ويعرف معرفة العلىّ الذى يرى رؤيا القدير وهو مكشوف العينين. أراه ولكن ليس الآن. أبصره ولكن ليس قريبا. يبرز كوكب من يعقوب ويقوم قضيب من إسرائيل فيحطم طرفى مؤاب ويكون أدوم ميراثا ويكون سعير أعداؤه ميراثا. ويصنع إسرائيل ببأس ويتسلط الذى من يعقوب. (وهذه النبوءة تنطبق على داود التى انتصر على مؤآب وأدوم). بعد ذلك لم يعد بلعام إلى بلده فتّور بل رافق شيوخ مديان إلى بلادهم.

محاربة المديانيين :

كانت جموع بنى إسرائيل بجوار شطِّيم. فبدأ شباب بنى إسرائيل يترددون على القرية ويزنون مع بنات مؤاب والبنات المديانيات الموجودات بالقرية. بل وبدأ بعضهم يسجد لآلهتهن. فغضب الرب وأوحى إلى موسى بأن يقوم رئيس كل سبط بقتل الأفراد الضالين فى سبطه. وسلط الله عليهم وباء قتل منهم الكثيرين. وكلَّم الرب موسى قائلا (عدد ٣١:١) انتقم لبنى إسرائيل من المديانيين ثم تُضَمُّ إلى قومك (أى تموت). فكلَّم موسى الشعب قائلا: جردوا منكم رجالا للجند فيكونوا على مديان. ألفا واحدا من كل سبط. فاختير اثنا عشر ألفا مجرَّدون للحرب وأمَّر عليهم فينحاس بن ألعازار الكاهن وسار بهم ومعه أمتعة المقدس وأبواق الهتاف وتوجهوا جنوبيا شرقى أدوم إلى أرض مدين شرق خليج العقبة وقتلوا ملوكهم وقتلوا كل الذكور. **وبلعام بن بعور قتلوه** بالسيف وسبى بنو إسرائيل نساء مدين وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم ومواشيهم وكل أملاكهم وأحرقوا جميع مدنهم. وكانت الغنائم ٦٧٥,٠٠٠ رأس غنم ومن البقر ٧٢,٠٠٠ ومن الحمير ٦١,٠٠٠ والسبايا النساء ٣٢,٠٠٠.

أشار الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم إلى قتل بنى إسرائيل لبعض الأنبياء بقوله:

«قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم صادقين». (٩١ – البقرة)

ولعل بلعام بن بعور نبى فتور كان أول الأنبياء الذين قتلهم بنو إسرائيل. يتَّهم أهل الكتاب (تفسير الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين ص٣٩٩) بلعام بأنه أقنع المؤابيين والمديانيين أنهم يمكنهم أن يفوزوا ببغيتهم فى إضعاف إسرائيل عن طريق إغراء شباب بنى إسرائيل للوقوع فى الفساد وعبادة الأصنام التى تجعل الله لا يؤيدهم بنصره. ولا نظن أن بلعام يحرِّض على الفساد بمثل هذه النصيحة. إلا أن يكون أنه لما لم يحصل على الهدية من بالاق أوغرَ صدره على بنى إسرائيل. ففعل مافعل وبذلك كان قتله قصاصا عادلا. وما نراه هو أن بلعام قد تخلى عن الله فتخلى الله عنه. ولعل بلعام خشى أن يعود وحده إلى بلده فى الفرات الأعلى خشية أن يوقع به بالاق فى الطريق ويقتله. والأنبياء لا يخشون أحدا إلا الله ولو كان مقدرا له القتل فلن يفلته منه أى تدبير يفعله. كما أن الأنبياء لا يخطون خطوة إلا بأمر الله. ولعله لم يستشر ربه فى تَوَجُّهه إلى مدين بدلا من بلده الأصلى. ولكن على مايبدو كان بلعام قد بدأ يتصرف من تلقاء نفسه. ورأى أنه بمرافقة شيوخ مدين العائدين إلى بلدهم سيكون فى حمايتهم وفى مأمن من غدر بالاق. فى حين أن هذا التصرف كان فيه حتفه وانطبق عليه قوله تعالى:

«قل إن الموت الذى تفرُّون منه فإنه ملاقيكم». (٨ – الجمعة)

ولاشك أن جنود بنى إسرائيل بقيادة فينحاس بن ألعازار قد تعرفوا عليه وظنوا أنه قد انحاز إلى أعدائهم فقتلوه بالرغم من أنه رفض إغراءات بالاق بأن يلعنهم وباركهم ثلاث مرات.

بعد انتصار بنى إسرائيل على مدين خاف المؤابيون ولم يعودوا يشكلون أى مشكلة بالنسبة لبنى إسرائيل. وتفرغ موسى للخطوة التالية وهى:

الاستعدادات الأخيرة لدخول الأرض :

كان الكنعانيون يتوقعون الغزو من الجنوب وبعد هزيمتهم لبنى إسرائيل قرب جبل هور (ص١٠٨٨) وما رأوه من اتجاه بنى إسرائيل فى سيرهم نحو الجنوب – ظنوا أنهم صرفوا النظر عن دخول الأرض وأنهم عائدون إلى سيناء للاستطيان بها واسترخى القوم فى كنعان ولم يهتموا بمعرفة مايجرى فى شرق الأردن لظنهم أنها المناوشات العادية التى كانت تجرى بين المؤآبيين والأموريين.

وبدأ بنو إسرائيل فى اتخاذ الاستعدادات النهائية لدخول الأرض من الشرق وكانت هذه الاستعدادات تشمل :

أ – التعبئة العامة الأخيرة .

ب – وضع قواعد تقسيم الأرض بعد الاستيلاء عليها .

أ – التعبئة العامة الأخيرة :

نتيجة لما حدث لبنى إسرائيل أثناء التيه فى سيناء أربعين سنة وهى مدة طويلة تغير حجم الأسباط تغيرا كاملا فقد مات جيل بأكمله ونشأ جيل جديد ولا يمكن لقائد حصيف أن يدخل معركة معتمدا على بيانات إحصائية لحجم قواته من أربعين سنة لذلك صدر الأمر بإحصاء جديد لتقدير عدد رجال الحرب القادرين على حمل السلاح لغزو فلسطين ودخول الأرض وامتلاكها. وكان الحد الأدنى لسن التجنيد هو ٢٠ سنة كما فى الإحصاء الأول: (عدد ٢٦:١) ثم كلم الرب موسى وألعازار بن هارون الكاهن قائلا: خذ عدد كل جماعة بنى إسرائيل من **ابن عشرين سنة** فصاعدا حسب بيوت آبائهم كل خارج للجند فى إسرائيل فكان الإحصاء هكذا:

١ – سبط رأوبين	٤٣,٧٣٠	٤ عشائر	٧ – بنو أفرايم	٣٢,٥٠٠	٤ عشائر
٢ – سبط شمعون	٢٢,٢٠٠	٥ عشائر	٨ – بنو منسى	٥٢,٧٠٠	٤ عشائر
٣ – بنو جاد	٤٠,٥٠٠	٧ عشائر	٩ – بنو بنيامين	٤٥,٦٠٠	٧ عشائر
٤ – سبط يهوذا	٧٦,٥٠٠	٨ عشائر	١٠ – بنو دان	٦٤,٤٠٠	عشيرة واحدة
٥ – بنو يساكر	٦٤,٣٠٠	٤ عشائر	١١ – بنو أشير	٥٣,٤٠٠	٦ عشائر
٦ – بنو زبولون	٦٠,٥٠٠	٣ عشائر	١٢ – بنو نفتالى	٤٥,٤٠٠	٤ عشائر

وكان مجموع الجند من بنى إسرائيل ٦٠١,٧٣٠ وقد سبق أن أبدينا رأينا (ص ١٠٤٥) فى مصداقية هذه الأرقام.

وكان سبط لاوى المعدودون من **ابن شهر** فصاعدا هو ٢٣,٠٠٠ وبالطبع سبط لاوى لا يُجنَّدون لأنهم يخدمون الرب. وكان اللاويون ثلاث عشائر: جرشون وقهات ومرارى.

ب – قواعد تقسيم الأرض :

تقول التوراة (عدد ٥٢:٢٦) ثم كلَّم الرب موسى قائلا لهؤلاء تُقْسم الأرض نصيبا على عدد الأسماء. الكثير تُكثر له نصيبه والقليل تُقلِّل له نصيبه كل واحد حسب المعدودين منه يعطى نصيبه. إنما بالقرعة تُقسم الأرض. حسب أسماء أسباط آبائهم يملكون حسب القرعة.

وحدثت مشكلة إذ أن أحد رؤساء عشائر منسى – وهو صلفحاد توفى ولم يكن له أبناء ذكور بل كانت له ٣ بنات تظلمن إلى موسى عليه السلام إذ لم يعط لهن نصيب. فكلَّم الرب موسى وأنزل القاعدة الشرعية: أيما رجل مات وليس له ابن تنقلون ملكه إلى ابنته وإن لم يكن له إبنة تعطوا ملكه لإخوته. وإن لم يكن له إخوة تعطوا ملكه لإخوة أبيه وإن لم يكن لأبيه إخوة تعطوا ملكه لنسيبه الأقرب إليه من عشيرته فيرثه فصارت لبنى إسرائيل فريضة كما أمر الرب موسى (عدد ٦:٢٧). ونلاحظ هنا فرقا بين اليهودية والإسلام. ففى الشريعة اليهودية تحجب الإبنة الإخوة عن الميراث. وفى المذهب السنى يكون للإخوة نصيب فى الميراث إذا لم يكن

للمتوفى أبناء ذكور. ولكن الشيعة يفسرون الآية الواردة فى هذا الشأن تفسيرا يجعل الإخوة لا يشاركون ابنة أو بنات المتوفى فى الميراث.

كذلك لم يعط لعشائر سبط لاوى نصيب فى الأرض عند التقسيم (تثنية ١٨): لايكون للكهنة اللاويين قسم ولا نصيب مع إسرائيل. يأكلون وقائد الرب ونصيبه. وهذا هو حق الكهنة من الشعب الذين يذبحون الذبائح بقرا كانت أو غنما يعطون الكاهن الساعد والفكين والكرش. وتعطيه أول حنطتك وخمرك وزيتك وأول جزاز غنمك لأن الرب إلهك قد اختاره من جميع أسباطك لكي يقف ليخدم باسم الرب هو وبنوه.

لجنة تقسيم الأرض :

وكلم الرب موسى قائلا (عدد ٣٤:١٦) هذان اسما الرجلين اللذين يقسمان الأرض لكم: ألعازار الكاهن ويشوع بن نون ورئيساً واحدا من كل سبط تأخذون لقسمة الأرض:

من سبط يهوذا : كالب بن يفنة

من سبط شمعون : شموئيل بن عَمِّيهود .

من سبط نبيامين : أليداد بن كسلون .

من سبط بنى دان : بُقِّى بن يجلى.

من سبط منسى : حَنِّينيل بن إيفود .

من سبط أفرايم : قموئيل بن شِفطان .

من سبط زبولون : أليصافان بن فرناخ .

من سبط يساكر : فلطيئيل بن عزَّان .

من سبط أشير : أخيهود بن شلومى .

من سبط نفتالى : فدهئيل بن عَمِّيهود .

هؤلاء هم الذين أمرهم الرب أن يقسموا لبنى إسرائيل فى أرض كنعان.

وأما بنور رأوبين وبنو جاد فكلَّموا موسى وألعازار الكاهن ورؤساء الجماعات قائلين (عدد ٣٢): إن وجدنا نعمة فى عينيك تعطنا أرضا فى شرق الأردن وعينوا له المناطق بالإسم حسب شكل ٢٩٩ – اعطنا هذه الأرض ولا تُعَبِّرنا الأردن. فغضب موسى وقال لبنى جاد وبنى رأوبين: هل ينطلق إخوتكم إلى الحرب وأنتم تقعدون ههنا. لماذا تصدُّون قلوب بنى إسرائيل عن العبور إلى الأرض. وذكرَّهم بأن الذين ثبطوا الناس عن الحرب عند قادش برنيع غضب الرب عليهم. وكان جزاؤهم أن يموتوا فى البرية. فقالوا نحن نعبر معهم. ونحارب معهم حتى ينتصروا

ويتملكوا الأرض وبعد هذا لا نقتسم معهم لأننا نأخذ نصيبنا من الأرض شرق نهر الأردن. وعلى هذا الشرط وافق موسى عليه السلام على طلبهم إذ لم يكن فيه نكوص عن دخول الأرض. كذلك طلب ٣ عشائر من عشائر منسى الأربعة مثل هذا الطلب. فعين لهم موسى مناطق فى شرق الأردن. وهكذا أصبح اقتسام الأرض غرب النهر على ٩,٥ سبط وفى شرقه على ٢,٥ سبط.

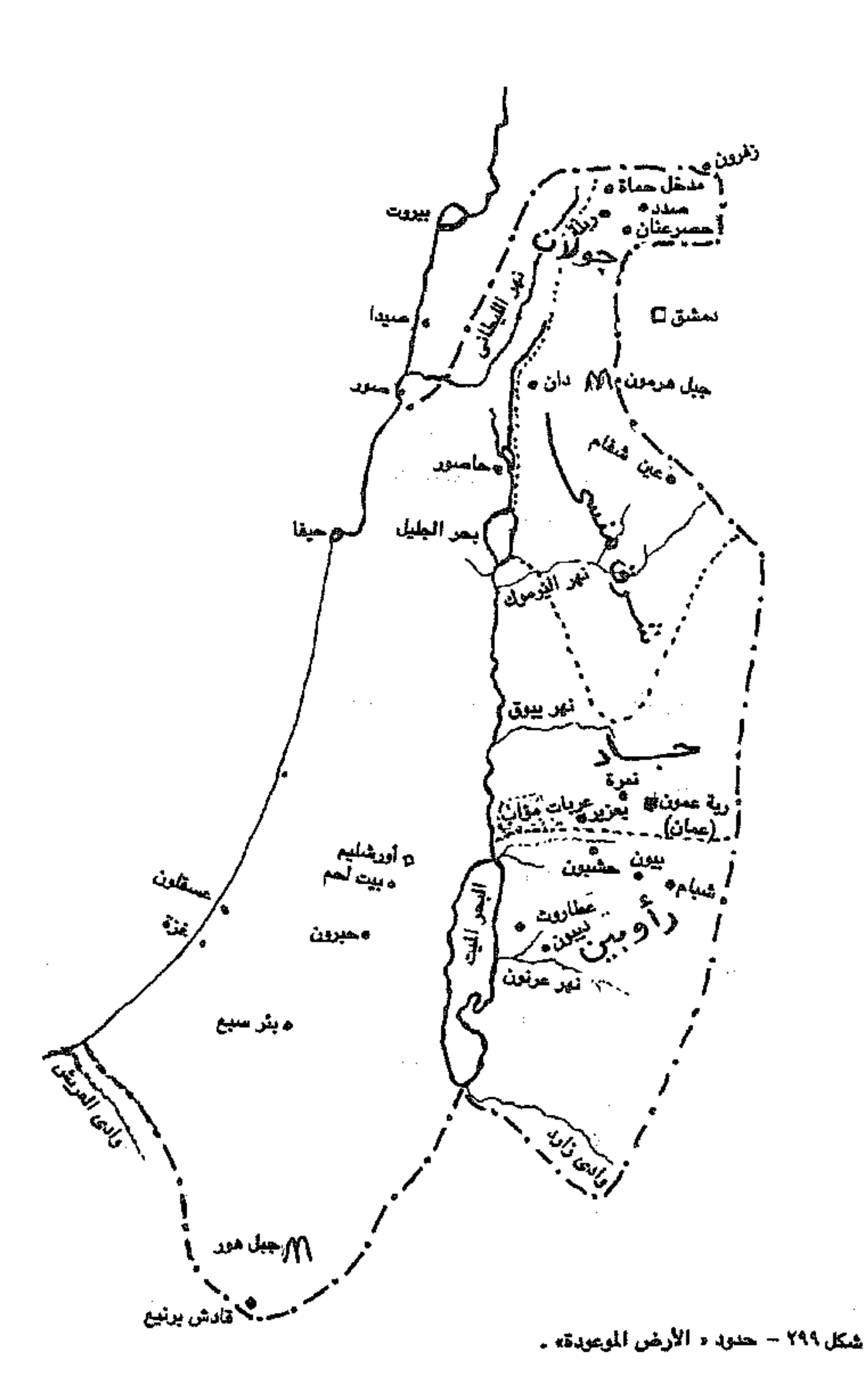
حدود الأرض :

بدلا من إطالة الشرح فإن الخرائط أكثر توضيحا. وشكل ٢٩٩ يبين لنا أنه فى المفهوم الإسرائيلى **«الأرض الموعودة»** تشمل فلسطين كلها بما فيها الضفة الغربية بأكملها. وشرق الأردن وجنوب لبنان والجولان! ونرى أن الحدود الشمالية تمتد فى الشرق لتشمل منابع ووادى الليطانى وهى من أخصب المناطق لوفرة المياة بها. أما «إسرائيل الكبرى» فهى من النيل إلى الفرات كما يدَّعون فى الوقت الحاضر.

وكلم الرب موسى فى عربات مؤاب قائلا: كلِّم بنى إسرائيل وقل لهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخربون جميع مرتفاتهم (أى معابدهم التى كانت تقام على مرتفعات وتسمى زقورات. انظر الجزء الثانى ص١٨٧). وتقول التوراة (تثنية ٣:٢٥) وتضرع موسى إلى الرب قائلا: دعنى أعبر وأرى الأرض الجيدة التى عبر الأردن. هذا الجبل الجيِّد ولبنان. ولكن الله أمره: لا تعد تكلمنى أيضا فى هذا الأمر. اصعد إلى رأس الفسجة (أحد قمم الجبال العالية فى مرتفعات بعل. شكل ٢٩٨) وارفع عينيك إلى الغرب والشمال والجنوب والشرق وانظر بعينيك لكن لا تعبر هذا الأردن.

استخلاف يشوع :

أدرك موسى عليه السلام أن مهمته قد انتهت. فقد أخذ بيد بنى إسرائيل وأخرجهم من مصر وسار بهم إلى سيناء وأعطاهم شريعة الرب ثم تغرّب معهم فى البرية ٤٠ سنة وهاهو قد وضع أقدامهم على أعتاب الأرض التى وعدها الله لهم. وحارب معهم حتى تملكوا الأرض الواقعة فى شرق الأردن. وأدرك أن أجله قد اقترب موعده فكلم الرب قائلا: ليوكِّل الرب رجلا على الجماعة لكى لا تكون الجماعة كالغنم التى لا راعى لها. فقال الرب لموسى: خذ يشوع بن نون - رجلا فيه روح. وضع يدك عليه وأوقفه قدام ألعازار الكاهن وقدام كل الجماعة وأوصه أمام أعينهم. واجعل من هيبتك عليه لكى يسمع له كل جماعة بنى إسرائيل. ففعل موسى كما أمر الرب. وقال له الرب: وأما يشوع فأوصه وشدِّده وشجعه لأنه هو يعبر أمام هذا الشعب وهو يقسم لهم الأرض.



شكل ٢٩٩ – حدود « الأرض الموعودة» .

وتقول التوراة (تثنية ١٤:٣١) وقال الرب لموسى، هو ذا أيامك قد قربت لكى تموت، ادع يشوع وقفا فى خيمة الاجتماع لكى أوصيه. فانطلق موسى ويشوع ووقفا فى خيمة الاجتماع. فتراءى الرب فى الخيمة فى عمود سحاب ووقف عمود السحاب على باب الخيمة وأوصى يشوع بن نون وقال تشدَّد وتشجَّع لأنك أنت تدخل ببنى إسرائيل الأرض التى أقسمت لهم وأنا أكون معك.

الوصية الأخيرة لموسى عليه السلام (خُطب الوداع الثلاث)

كانت الوصية الأخيرة لموسى عليه السلام من الطول بحيث استغرقت ثلاثة أيام فى إلقائها وتكونت من ثلاث خطب. ألقى كل واحدة منها على قمة من قمم جبال بعل الموجودة على الضفة الشرقية لنهر الأردن عند الطرف الشمالي للبحر الميت (شكل ٢٩٨) فى المنطقة المعروفة بعربة مؤاب وقف موسى يرنو ببصره إلى الأرض عبر الأردن والتى كان يتمنَّى أن يدخلها - ولكن شاءت إرادة الله أن يدخلها خلفه يشوع بن نون - ويمكننا تلخيص هذه الخطب التى ذكرت فى التوراة (سفر التثنية) فى الآتى:

الخطبة الأولى :

بدأ موسى عليه السلام الخطبة بمقدمة تاريخية ذكَّر فيها بنى إسرائيل - أو بالأحرى سرد فيها لهذا الجيل من بنى إسرائيل - الأحداث التى مرت على آبائهم وفضل الله عليهم إذ أخرجهم من مصر وأهلك عدوَّهم. ثم جاءوا إلى البرِّية، وأنزل الله عليه ألواح الشريعة والأحكام. وراح يسرد عليهم ما أخطأوا به إلى الرب ولكن الرب عفا عنهم. ثم كيف أرسل الاثنى عشر نقيبا ليتجسسوا فى الأرض وكيف رفض آباؤهم دخول الأرض فكان التيه أربعين سنة. ولما انقضت داروا حول أدوم ومروا بجوار مؤاب وبنى عمون ولم يعادوهم. ثم حاربوا الأموريين وهزموهم واستولوا على أرضهم ثم حاربوا المديانيين وهزموهم وخربوا ديارهم وغنموا منهم الغنائم والسبايا.

بعد هذه المقدمة انتقل موسى عليه السلام إلى صلب الخطاب الأول وهو يحث على عبادة الرب وحده وعدم الإشراك به والبعد عن عبادة الأصنام وتحطيم الأصنام التى يجدونها فى الأرض التى يدخلونها. ويمكن تلخيص الخطبة الأولى فى النقاط التالية:

١ - التأكيد على عبادة الرب وحده وعدم الإشراك به :

فالآن ياإسرائيل اسمع الفرائض والأحكام التى أنا أعلمكم لتعملوها لكى تحيوا وتدخلوا وتمتلكوا الأرض التى الرب إله آبائكم يعطيكم. لا تزيدوا على الكلام الذى أنا أوصيكم به ولا تنقصوا منه. احفظوا وصايا الرب إلهكم التى أنا أوصيكم بها. أعينكم قد أبصرت ما فعله الرب بكل من ذهب وراء بعل فغور (إله الكنعانيين) أباده الرب من وسطكم. وأما أنتم الملتصقون بالرب فجميعكم أحياء. قد علّمتكم فرائض وأحكام كما أمرنى الرب إلهى لكى تعملوا بها فى الأرض التى أنتم داخلون إليها فاحفظوا واعملوا واحفظ نفسك جيدا لئلا تزول من قلبك. وعلمها أولادك وأولاد أولادك. لا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالا منحوتا شبه ذكر أو أنثى أو شبه بهيمة ما مما على الأرض أو شبه طائر مما يطير فى السماء. ولئلا ترفع عينيك إلى السماء وتنظر الشمس والقمر والنجوم فتسجد لها وتعبدها. احترزوا من أن تنسوا عهد الرب إلهكم وتصنعوا لأنفسكم تمثالا منحوتا صورة كل ما نهاك عنه الرب إلهك.

أشهد عليكم اليوم السماء والأرض - أنكم إن فعلتم ذلك - أنكم تبيدون سريعا عن الأرض ويبددكم الرب فى الشعوب فتبقون عددا قليلا بين الأمم التى يسوقكم الرب إليها.

ملحوظة: لم يلتزم بنو إسرائيل بهذه الوصية ونفذ فيهم تهديد موسى كما جاء فى القرآن الكريم:

«وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم. وقطعناهم فى الأرض أمما».

(١٦٧ - الأعراف)

لا تصنعوا آلهة من خشب أو حجر مما لا يُبصر ولا يسمع ولا يأكل ولا يشم.

تذكر عندما يُضيّق عليك وتُصيبك كل هذه الأمور فى آخر الأيام ترجع إلى الرب إلهك وتسمع لقوله لأن الرب رحيم لا يتركك ولا يُهلكك. لقد علمتم مافعل الرب فى مصر من آيات لتعلم أن الرب هو الإله. ليس آخر سواه. فاعلم اليوم وردّد فى قلبك أن الرب هو الإله فى السماء من فوق وعلى الأرض من أسفل. ليس سواه - وهو نفس المعنى الذى جاء فى القرآن الكريم:

«وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم».

(٨٤ - الزخرف)

٢ - تحطيم الأصنام فى الأرض التى يفتحونها :

هذه هى الفرائض والأحكام لتعملوها فى الأرض التى أعطاك الرب. تُخَرِّبون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التى ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال وتحت كل شجرة

خضراء وتهدمون مذابحهم وتُكسِّرون أنصابهم وتحرقون سواريهم بالنار وتُقطعون تماثيل آلهتهم وتمحون اسمهم من ذلك المكان.

٣ – عدم الإنصياع لأى دعوة لعبادة الأصنام :

إذا أغواك سرا أخوك ابن أمك أو ابنتك أو امرأتك أو صاحبك قائلا نذهب ونعبد آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولك فلا ترض منه ولا تسمع له. ولا تشفق عليه ولا تَرِقّ له بل قتلا تقتله. يدك تكون عليه لقتله ثم أيدى جميع الشعب أخيرا. ترجمه بالحجارة حتى يموت لأنه التمس أن يُطرحك عن الرب إلهك الذى أخرجك من مصر.

إذا سمعت عن إحدى مدنك التى يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها قولا قد خرج أناس من وسطك قائلين نذهب ونعبد آلهة أخرى. فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتُحرِّمها بكل مافيها مع بهائمها بحد السيف وتحرق بالنار المدينة وكل أمتعتها.

٤ – التأكيد على التوحيد :

اسمع ياإسرائيل. الرب إلهنا واحد. فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قُوَّتك. ولتكن هذه الكلمات التى أنا أوصيك بها اليوم على قلبك وقُصَّها على أولادك وتكلم بها حين تجلس فى بيتك وحين تمشى فى الطريق وحين تنام وحين تقوم واربطها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك.

٥ – تكرار التحذير من عبادة آلهة أخرى :

الرب إلهك تتقى. وإياه تعبد. وباسمه تحلف. لا تسر وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التى حولكم لئلا يحمى غضب الرب عليكم فيبيدكم عن وجه الأرض. لا تعبد آلهتهم لأن ذلك شرك لك. إن قلت فى قلبك هذه الشعوب أكثر منى فلا تخف منهم . لا ترهب وجوههم لأن الرب إلهك وسطك إله عظيم وسيدفعهم الرب أمامك ويوقع بهم اضطرابا حتى يفنوا. تماثيل آلهتهم تحرقون بالنار. لا تشته فضة أو ذهبا مما عليها وتأخذ منها لأنها رجس ولا تُدخل رجسا إلى بيتك. تُكسِّرون أصنامهم وتقطعون سواريهم. لا تعط لهم عهدا ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم. بنتك لا تعط لابنه وبنته لا تأخذ لابنك لأنهم سيفتنونهم فيعبدوا آلهة أخرى.

٦ – خير الدنيا فى الإيمان بالله وحده :

أعلم أن الرب إلهك هو الله الإله الأمين الحافظ العهد والإحسان لمن يحبونه ويحفظون وصاياه. والذين يعملون بأحكامه يحبهم ويباركهم فيكثر ثمرة بطنك وثمرة أرضك قمحك وزيتك ونتاج بقرك وإناث غنمك. لايكون عقيم ولا عاقر فيك ولا فى بهائمك. ويرد الرب عنك كل مرض.

٧ – ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان :

تذكر كيف سار بك الرب هذه الأربعين سنة فى القفر لكى يجربك ليعرف مافى قلبك أتحفظ

وصاياه أم لا. فأذلّك وأجاعك وأطعمك المن لكى يعلّمك أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. بكل مايخرج من فم الرب يحيا الإنسان.

متى شبعتم فى الأرض التى تملكونها تُبارك الرب لأجل الأرض الجيدة التى أعطاك. احترز من أن تنسى الرب إلهك ولا تحفظوا وصاياه وأحكامه وفرائضه. فإذا شبعت وبنيت بيوتا جيدة وكثرت بقرك وغنمك وكثرت لك الفضة والذهب يرتفع قلبك وتنسى الرب. ولئلا تقول فى قلبك قوتى وقدرة يدى اصطنعت لى هذه الثروة. بل اذكر الرب أنه هو الذى يعطيك قوة لاصطناع الثروة.

٨ – تنتصر على الشعوب بخطاياهم :

لأجل إثم هذه الشعوب يطردهم الرب من أمامك. ليس لأجل برِّك وعدالة قلبك تدخل لتمتلك أرضهم بل لأجل إثم أولئك الشعوب يطردهم الرب من أمامك.

٩ – التهديد بغضب الرب إذا عبدوا آلهة أخرى :

حذَّرهم موسى عليه السلام من أن ينصرفوا عن الرب : والرجل الذى يذهب ليعبد آلهة أمم أخرى وأصنامهم تحل عليه كل اللعنات ويمحو الله اسمه من تحت السماء وتناله الضربات وأمراض . وأرضه تصبح كبريت وملح لا تُزرع ولا تنبت ولا يطلع فيها عشب. واذكر كيف اشتعل غضب الرب على أمم واستأصلهم الرب من أرضهم مثل سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم (مدن قوم لوط انظر الجزء الثانى ص-٣٣٠) لأنهم ذهبوا وعبدوا آلهة أخرى وسجدوا لها.

١٠ – باب التوبة مفتوح :

واستكمل موسى قائلا : ومتى أتت عليك كل هذه الأمور فإن رجعت إلى الرب إلهك وسمعت لصوته حسب كل ما أنا أوصيك به أنت وبنوك بكل قلبك وبكل نفسك. يردُّ الله إلهك سبيك ويرحمك ويعود فيجمعك من جميع الشعوب الذين بدَّدك إليهم الرب إلهك. إن يكن قد بدَّدك إلى أقصاء السموات فمن هناك يجمعك ويأتى بك إلى الأرض التى امتلكها آباؤك فتمتلكها ويحسن إليك ويكثرك ويجعل الرب إلهك كل هذه اللعنات على أعدائك وعلى مبغضيك الذين طردوك – وكان فى هذا القول نبوءة بالسبى نتيجة ضلال بنى إسرائيل وعبادتهم لآلهة أخرى. ثم أرسل الله لهم أنبياء فى المنفى أعادوهم إلى عبادة الله فأعادهم الله لأرضهم ثانية.

ونجد أن موسى عليه السلام فى هذه الخطبة ركَّز على أمرين اثنين – عبادة الله وحده وعدم عبادة الأصنام. وأعاد ذلك وكرره مرات ومرات حتى يرسخ فى الأذهان.

ب – الخطبة الثانية :

أعاد موسى عليه السلام فى أول هذه الخطبة أيضا التأكيد على ضرورة التمسك بعبادة الرب – وعدم صنع وعبادة الأوثان أو الانسياق وراء الشعوب الأخرى وعبادة أصنامهم وآلهتهم

وكان يتخلَّل ذلك تذكيرهم بما لاقوه فى مصر من صنوف العذاب وما منَّ الله به عليهم من إخراجهم من مصر وإهلاك عدوهم. وكان يكرر أيضا تذكيرهم بما نال آباءهم عندما كانوا يعصون الرب أثناء مسيرتهم فى سيناء. ثم أتبع ذلك بالنقاط التالى :

١ - كرر عليهم **الوصايا العشر** وأكد على ضرورة الالتزام بها.

٢ - **تذكيرهم بالأعياد** التى يحتفلون بها **وضرورة تقديم قرابين** للرب.

٣ - ثم حثهم على الزكاة وهى تُعطَى للاويين لأنه كما قال الرب: سبط لاوى ليس له قسم ولا نصيب مع إسرائيل. يأكلون وقائد الرب ونصيبه. الرب هو نصيبه.

٤ - تحريم السحر والعرافة :

لا يوجد فيك من يعرف عرافة ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر ولا من يسأل جانا أو تابعه ولا من يستشير الموتى لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب. وبسبب هذه الأرجاس التى ترتكبها الشعوب الأخرى الرب إلهك طاردُهم من أمامك. هم يسمعون للعائفين والعرَّافين. وأما أنت فلم يسمح لك الرب إلهك بهذا (العائف المتكهن بالطير أو غيرها - القاموس المحيط جـ٣ ص١٧٩).

٥ - أنبياء فى المستقبل :

يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلى. له تسمعون ويجعل الله كلامه فى فمه فيكلمكم بكل ما يوصيه به الرب . وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسم الرب كلاما لم يوصه به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى.

٦ - التنبؤ بملوك من بنى إسرائيل ووصيته لهم :

متى أتيت إلى الأرض التى يعطيك الرب إلهك وامتلكتها وسكنت فيها فإن قلت أجعلُ علىَّ ملكا كجميع الأمم الذين حولى فإنك تجعل عليك ملكا الذى يختاره الرب إلهك. من وسط إخوتك تجعل عليك ملكا. لا يحل لك أن تجعل عليك رجلا أجنبيا ليس هو أخاك. ولكن لا يُكثِّر له نساء لئلا يزيغ قلبه. وفضة وذهبا لا يُكثِّر له كثيرا (وهو تحذير من طغيان الملوك) وعندما يجلس على كرسى مملكته يكتب لنفسه نسخة من هذه الشريعة فى كتاب من عند الكهنة اللاويين فتكون معه ويقرأ فيها كل أيام حياته لكى يتعلم أن يتقى الرب إلهه ويحفظ جميع كلمات هذه الشريعة وهذه الفرائض ليعمل بها لئلا يرتفع قلبه على إخوته ولئلا يحيد عن الوصية يمينا أو شمالا لكى يطيل الأيام على مملكته هو وبنوه فى وسط إسرائيل.

٧ - التوصية بإقامة بيت للعبادة :

وأوصى موسى الشعب وشيوخ إسرائيل قائلا: احفظوا جميع الوصايا التى أنا أوصيكم بها اليوم. فيوم تعبرون الأردن إلى الأرض التى يعطيك الرب إلهك تقيم لنفسك حجارة كبيرة وتكتب

عليها جميع كلمات هذا الناموس. تقيمون هذه الحجارة فى جبل عيبال وتُكلِّسها بالكلس وتبنى هناك مذبحا للرب مذبحا من حجارة لا ترفع عليه حديدا. من حجارة صحيحة تبنى مذبح الرب وتُصعد عليه محرقات للرب وتذبح ذبائح سلامة وتأكل هناك وتفرح أمام الرب إلهك وتكتب على الحجارة جميع كلمات هذا الناموس نقشا جيدا - وقد وجدت فى فلسطين شرائع كثيرة بعضها مُسجّل على حجارة وبعضها على طبقة من الجير.

٨ - استنزال اللعنات على مرتكبى الخطايا :

وأوصى موسى قائلا: هؤلاء يقفون على جبل جرزيم لكى يباركوا الشعب حين تعبرون الأردن: شمعون ولاوى ويهوذا ويساكر ويوسف وبنيامين. وهؤلاء يقفون على جبال عيبال لكى يلعنوا: رأوبين وجاد وأشير ودان وزبولون ونفتالى. وجبلا جرزيم وعيبال جبلان لا يفصل بينهما إلا واد ضيق بالقرب من شكيم (نابلس الحالية) وجبل عيبال اليوم يسمى جبل السلامية شرق نابلس وارتفاعه ٣٠٧٧ قدما.

ويقول اللاويون بصوت عال لجميع قوم إسرائيل :

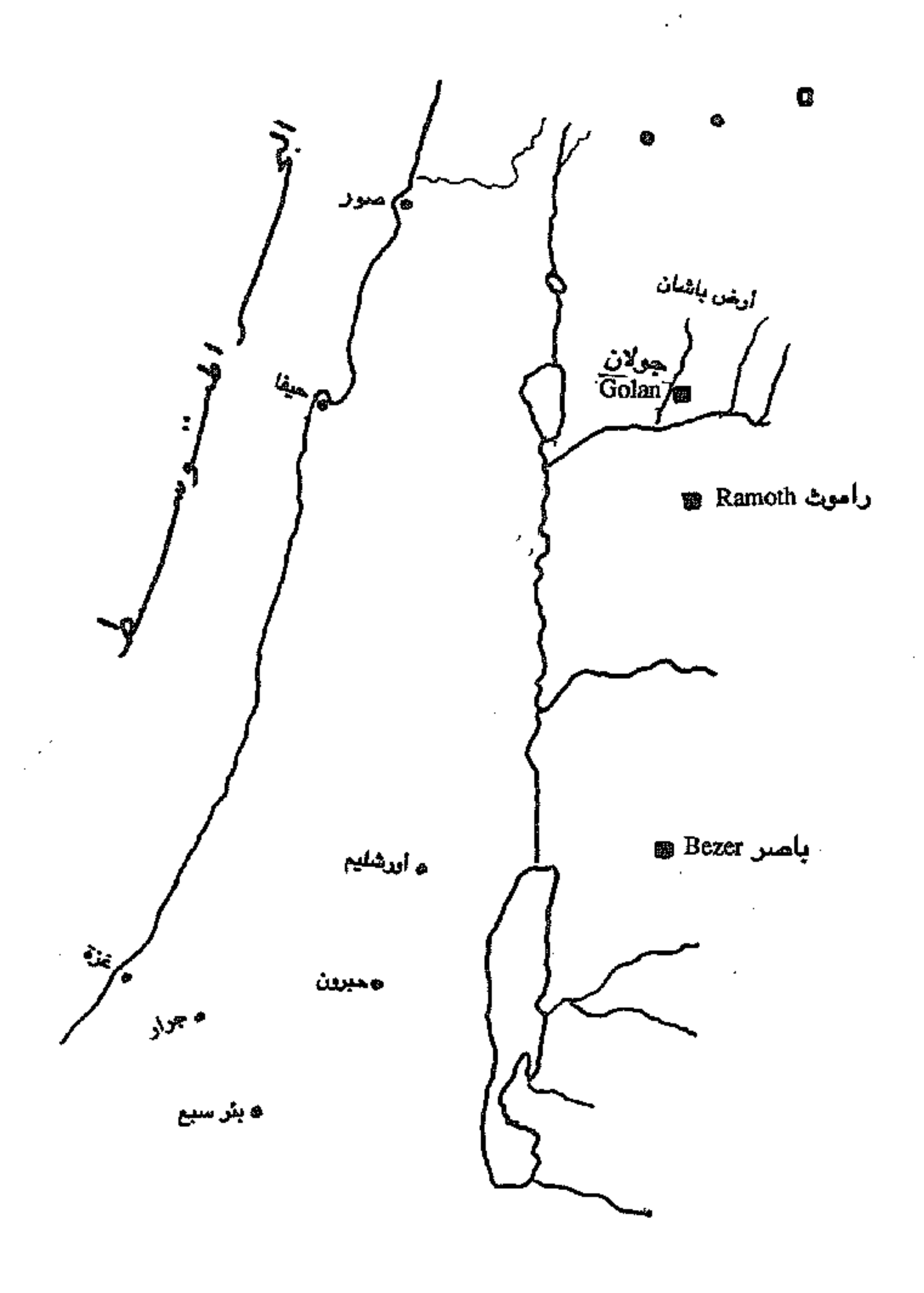
- ملعون الإنسان الذى يصنع تمثالا منحوتا أو مسبوكا. ويجيب جميع الشعب آمين :
- ملعون من يستخف بأبيه وأمه. ويجيب الشعب : آمين .
- ملعون من ينقل تخم صاحبه (حدود الحقول). آمين.
- ملعون من يعوّج حق الغريب واليتيم والأرملة . آمين.
- ملعون من يضطجع مع امرأة أبيه . آمين.
- ملعون من يضطجع مع أخته بنت أبيه أو بنت أمه. آمين.
- ملعون من يضطجع مع حماته . آمين.
- ملعون من يضطجع مع بهيمة ما . آمين .
- ملعون من يقتل قريبه فى الخفاء. آمين.
- ملعون من يأخذ رشوة لكى يقتل نفس دم برىء. ويقول الشعب آمين.
- ملعون من لا يقيم كلمات هذا الناموس ليعمل بها. ويقول جميع الشعب آمين.

جـ - الخطبة الثالثة :

تضمنت هذه الخطبة - وهى الأخيرة - خمسة أمور: ١ - تحديد مدن الملجأ ٢ - الحث على دخول الأرض. ٣ - مباركة الأسباط. ٤ - كتابة التوراة وحفظها ٥ - النشيد الختامى.

١ - مدن الملجأ :

وهى مدن قُصِدَ بها أن يلجأ إليها مرتكب القتل الخطأ دون تعمد فيصبح آمنا ولا يحق لولى الدم مطاردته هناك أو أخذ ثأره منه. أما القاتل المتعمد والذى يلجأ إليها فإنه لا يتمتع بهذه



شكل ٢٠٠ – مدن الملجأ شرق الأردن .

الحماية. وقد شرح موسى عليه السلام ذلك فقال: (تثنية ١٩:١-١٤) تفرز لنفسك ثلاث مدن في وسط أرضك فتكون لكى يهرب إليها من ضرب صاحبه بغير علم وهو غير مبغض له. ومن ذهب مع صاحبه في الوعر ليحتطب فاندفعت يده بالفأس ليقطع الحطب وأفلت الحديد من الخشب وأصاب صاحبه ومات. فهو يهرب إلى إحدى تلك المدن فيحيا لئلا يسعى ولى الدم وراءه حين يحمى قلبه ويدركه ويقتله. وإن وسَّع الرب تخومك وأعطاك جميع الأرض فزد لنفسك أيضا ثلاث مدن على هذه الثلاث. ولكن إذا كان إنسان مبغضا لصاحبه فكمن له وقام عليه وضربه ضربة قاتلة ثم هرب إلى إحدى تلك المدن يرسل شيوخ مدينته ويأخذونه من هناك ويدفعونه إلى ولى الدم فيموت. وقد عيَّن لهم موسى عليه السلام المدن الثلاث في شرق نهر الأردن كالآتى (تثنية ٤:٤٣) شكل ٣٠٠:

١ – باصر Bezer في البرية في أرض السهل في أرض رأوبين.

٢ – راموث Ramoth في جلعاد لبنى جاد.

٣ – جولان Golan في باشان لسبط منسى.

ثم ترك أمر تحديد المدن الأخرى لهم بعد الاستيلاء على الأرض.

٢ – الحث على دخول الأرض :

وتكلم موسى بهذه الكلمات لجميع إسرائيل (تثنية ٣١) وقال لهم: أنا اليوم ابن مائة وعشرين سنة لا أستطيع الخروج والدخول بعدُ والرب قال لى لا تعبر هذا الأردن. يشوع عابر قدامكم كما قال الرب. تشدَّدوا وتشجَّعوا. لاتخافوا ولا ترهبوا وجوه أعدائكم لأن الرب إلهك سائر معك لا يُهمِلك ولا يتركك. ودعا موسى يشوع وقال له أمام أعين جميع إسرائيل: تشدَّد وتشجَّع لأنك أنت تدخل مع هذا الشعب إلى الأرض وأنت تقسمها لهم والرب سائر أمامك هو يكون معك لا يُهملك ولا يتركك. لا تخف ولا ترتعب.

٣ – مباركة الأسباط : (تثنية ٣٣).

وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى إسرائيل قبل موته كل سبط باسمه:

– **رأوبين** : ليحيى رأوبين ولا يمت ولا يكن رجاله قليلون.

– **يهوذا** : يارب اسمع صوت يهوذا وات به إلى قومه. بيديه يقاتل لنفسه فكن عونا له على أضداده. ولم يذكر اسم **شمعون** وكان هذا تنبؤا بزوال هذا السبط وفعلا فقد ذاب سبط شمعون في يهوذا وكانت أرضه في وسط أرض يهوذا.

– وعن **لاوى** قال : حفظوا كلامك وصانوا عهدك. يضعون البخور في المحرقة والقرابين في المذابح. يارب بارك قوَّته وارتض بعمل يديه. وحطِّم متون مقاوميه ومبغضيه حتى لا يقوموا.

وعن **بنيامين** قال: حبيب الرب يسكن لديه آمنا . يستره طول النهار وبين منكبيه يسكن.

وعن **يوسف** قال: مباركة من الرب أرضه بنفائس السماء بالندى واللجة الرابضة تحتُ ونفائس مُغَلاَّت الشمس ونفائس مُنْبَتات الأقمار. ومن مفاخر الجبال القديمة. ومن نفائس الإكام الأبدية. ومن نفائس الأرض وملئها. ورضى الساكن فى العلِّيقة (الرب) فلتأت على رأس يوسف وعلى قمة نذير إخوته (وكانت الأرض التى خصصت لسبط يوسف متنوعة الجغرافية: تلال ووديان وغابات وسهول ومياه وفيرة فأعطت غلة وافرة من جميع المحاصيل). بكر ثوره زينة له وقرناه قرنا ريم بهما ينطح الشعوب معا إلى أقاصى الأرض. هما ربوات **أفرايم** وألوف **مَنسَى**، وكانت الأرض من نصيب أفرايم ومنسى ولدى يوسف مثمرة وتميز عن إخوته ورفيع الشأن (قمة نذير إخوته – والرئم حيوان ذو قرون قوية شديد البأس).

– **زبولون ويساكر**: افرح يازبولون بخروجك وأنت يايسّاكر بخيامك. إلى الجبل يدعوان القبائل. هناك يذبحان ذبائح البر لأنهما يرتضعان من فيض البحار وذخائر مطمورة فى الرمل. وهذا وعد لزبولون بنجاح تجارته ووعد ليساكر بنجاح زراعته وبيته.

وعن **جاد** قال: مبارك الذى وسَّع جاد كلبوة سكن وافترس الذراع من قمة الرأس ورأى الأول لنفسه لأنه هناك قسما من الشارع محفوظا فأتى رأسا للشعب يعمل حق الرب وأحكامه مع إسرائيل. وكان جاد يسكن فى الجبال وهى تحتاج لسرعة وقوة وذلك كان دعاء له بذلك ويأخذ أكثر قسط من الغنائم وجاء لمعاونة الأسباط فى حربها لدخول كنعان.

وعن **دان** قال: دان شبل أسد يثب من باشان.

ولنفتالى قال: يانفتالى اشبع رضى وامتلىء بركة من الرب وامك الغرب والجنوب. وقد أعطى سبط نفتالى الأرض الخصبة الواقعة جنوب وغرب بحر الجليل.

ولأشير قال: مبارك من البنين أشير. ليكن مقبولا من إخوته ويغمس فى الزيت رجله. حديد ونحاس مزاليجك وكأيامك راحتك . وكانت أرضه مشهورة بالزيتون. ويحثه على أبواب ومزاليج لحماية نفسه من العدو القادم من الشمال.

وختم موسى عليه السلام بركته للأسباط بقوله: ليس مثل الله إذا كنت مستقيما . يركب السماء فى معونتك. الإله ملجأ فيطرد من قدامك العدو فيسكن إسرائيل آمنا وحده. طوباك يا إسرائيل من مثلك ياشعبا منْصورا بالرب.

٤ – كتابة التوراة وحفظها :

وكتب موسى التوراة وسلمها للكهنة بنى لاوى حاملى تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل وأمرهم موسى قائلا. فى نهاية السبع سنين وفى ميعاد سنة الإبراء فى عيد المظال (فى هذا العيد يصنعون مظلات أو عرايش من جريد النخل الأخضر – ويقيمونها فى أفنية

الدور والشوارع والميادين وعلى أسطح المنازل ويدخل تحتها المحتفلون بالعيد إحياء لذكرى خروجهم من مصر وذكرى تجمعهم فى سكوث إذ عملوا هذه المضلات انتظارا لوصول باقى جموع بنى إسرائيل حتى تبدأ المسيرة). حينما يجيء جميع إسرائيل لكى يظهروا أمام الرب إلهك. تقرأ هذه التوراة أمام كل إسرائيل فى مسامعهم. اجمع الشعب الرجال والنساء والأطفال والغريب الذى فى أبوابك لكى يسمعوا ويتعلموا أن يتقوا الرب إلهكم ويحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة وأولادهم الذين لم يعرفوا يسمعون ويتعلمون أن يتقوا الرب إلهكم.

وأمر موسى اللاويين قائلا: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم - ثم قال مُوجِّها الكلام لجموع الشعب: ليكون هناك شاهدا عليكم. لأنى أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة. هو ذا وأنا بعدُ حى معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحرى بعد موتى. اجمعوا إلىَّ كل شيوخ أسباطكم وعرفاءكم لأنطق فى مسامعهم بهذه الكلمات وأشهد عليهم السماء والأرض. لأنى عارف أنكم بعد موتى تفسدون وتزيغون عن الطريق الذى أوصيتكم به ويصيبكم الشر فى آخر الأيام لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم.

وماكتبه موسى عليه السلام هو الأسفار الخمسة الأولى وهى: تكوين - خروج - لاويون - عدد - تثنية. وهى **التوراة** Torah - وتسمى أيضا **أسفار الشريعة** Book of the law - وتسمى كذلك Pentateuch التى تتكون من مقطعين يونانيين: Pente أى خمسة و Teuchos أى سفر أو مجلد. أما باقى أسفار العهد القديم Old Testament فلم يكتبها موسى وهى تتكون من أسفار الأنبياء (المتقدمين والمتأخرين) وهى تتميز بالسرد التاريخى للأحداث ولذلك تسمى بالكتب أو الأسفار التاريخية. أما الجزء الثالث من العهد القديم فيسمى كتب الحكمة ويشمل مزامير داود وأمثال سليمان ونشيد الإنشاد وهى أسفار يغلب عليها الطابع الأدبى نثرا وشعرا.

٥ - النشيد الختامى :

وقال الرب والآن اكتبوا لأنفسكم هذا النشيد وعلِّم بنى إسرائيل إياه. ضعه فى أفواههم لكى يكون هذا النشيد شاهدا على بنى إسرائيل لأنى أدخلهم الأرض التى أقسمت لآبائهم. تفيض لبنا وعسلا فيأكلون ويشبعون ويسمنون ثم يلتفتون إلى آلهة أخرى ويعبدونها ويزدرون بى وينكثون عهدى. فمتى أصابته شرور كثيرة وشدائد يجاوب هذا النشيد أمامه شاهدا لأنه لا يُنسى من أفواه نسله.

فكتب موسى النشيد. ونطق فى مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيد إلى تمامه.

انصتى أيتها السموات فأتكلم. ولتسمع الأرض أقوال فمى.

إنى باسم الرب أنادى.

اعطوا عظمة لإلهنا. إن جميع سبله عدل. إله أمانة لاجور فيه وعادل هو.

ياشعبا غبيا غير حكيم. ألرب تكافئون بهذا؟ أليس هو عَملك وأنشأك؟

اذكر أيام القدِم. وتأملوا سنى دور فدور (سنى التيه والدوران فى سيناء).

اسأل أباك فيخبرك. وشيوخك فيقولون لك.

هكذا الرب وحده اقتاده. أركبه على مرتفعات الأرض فأكل ثمار الصحراء.

وأرضعه عسلا من حجر وزيتا من صخر الصوان.

سمنت وغلظت واكتسيت شحما.

فرفض الإله الذى عمله. ذبحوا لأوثان ليست آلهة.

فرأى الرب وقال أحجب وجهى عنهم.

أجمع عليهم شرورا وأنفذ سهامى فيهم إذ هم خاوون من جوع ومنهكون من حمى.

أرسل فيهم أنياب الوحوش.

إنهم أمة عديمة الرأى ولا بصيرة فيهم.

لو عقلوا لفطنوا بهذه وتأملوا آخرتهم.

كيف يطرد واحد ألفا لولا أن الله سلَّمهم.

لأن من جفنة «سدوم» جفنتهم. ومن كروم «عمورة» عنبهم. عنب سم ولهم عناقيد مرارة.

إن يوم هلاكهم قريب لأن الرب يدين شعبه وعلى عبيده يشفق

اسمعوا قوله: أنا أنا هو وليس إله معى. أنا أميت وأحيى سحقت وإنى أشفى.

إنى أرفع إلى السماء يدى وأقول حىٌّ أنا إلى الأبد.

أرد نقمة على أعدائى وأجازى مبغضى.

تهللوا أيها الأمم لأنه يصفح عن شعبه.

وهذا النشيد يتكلم عما يحدث لدولة إسرائيل فى المستقبل. وأنهم سيضلون فيسلط عليهم بذنوبهم من يذلهم. ثم ينفِّذون تعاليم الرب فيعفو عنهم ويقف معهم ضد أعدائهم.

وبهذا النشيد اختتم موسى خطبه الثلاث والتى تضمنت وصيته إلى بنى إسرائيل قبل وفاته وأشهد الله عليهم وأشهدهم على أنفسهم أنه قد بلَّغهم ما أمر به الرب بتمامه. ونصحهم وكرر النصح. بالتمسك بعبادة الله وتنفيذ شرائعه. وحذَّرهم. وكرر التحذير من الانسياق وراء آلهة الأمم الأخرى وعبادتها. وأصبح موسى عليه السلام مستعدا للقاء ربه.

وفاة موسى عليه السلام :

وتقول التوراة (تثنية ٣٤) وصعد موسى من عربات مؤاب إلى رأس الفسجة الذى فى قبالة أريحا (جبل نبو Nebo) فأراه الرب جميع الأرض وقال له الرب هذه هى الأرض التى أقسمت لإبراهيم وإسحق ويعقوب قائلا لنسلك أعطيها. قد أريتك إياها بعينيك ولكنك إلى هناك لا تعبر. ومات هناك موسى عبد الرب. ودُفِن ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم. وكان موسى ابن ١٢٠ سنة حين مات ولم تكل عيناه ولا ذهبت نضارته. فبكى بنو إسرائيل موسى ثلاثين يوما فكملت أيام بكاء مناحة موسى.

وكانت وفاة موسى عليه السلام على مانرى فى عام ١١٦٠ ق.م. تقريبا إذ كان مولده فى عام ١٢٨٠ ق.م.

روى مسلم عن أبى هريرة (تفسير القرطبى جـ٦ ص ١٣١) قال: أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلما جاءه صكَّه ففقأ عينه فرجع إلى ربه فقال: أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت. قال فرد الله إليه عينه وقال ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة قال: أى رب ثم مه؟ قال ثم الموت. قال فالآن فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية حجر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلو كنتُ ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر. ولاشك أن ذلك من الموضوعات – فقد وُصف قبر هود عليه السلام فى حضرموت أنه أيضا تحت «كثيب أحمر» كما سبق أن ذكرنا فى الجزء الأول (ص ١٤٧). ولعلها كانت إرادة الله سبحانه وتعالى ألا يُعلَمَ مكان قبره حتى لا يُفتن به بنو إسرائيل ويقدسوه أو يعبدوه لما هو معروف عنهم من سرعة انحرافهم عن التوحيد الصحيح.

وبهذا تنتهى قصة موسى وهارون عليهما السلام:

«ولقد مننَّا على موسى وهارون. ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم. ونصرناهم فكانوا هم الغالبين. وآتيناهما الكتاب المستبين. وهديناهما الصراط المستقيم. وتركنا عليهما فى الآخرين. سلام على موسى وهارون. إنا كذلك نجزى المحسنين إنهما من عبادنا المؤمنين».

(١١٤ – ١٢٢ – الصافات)

وصدق الله العظيم.

جدول حياة رمسيس الثانى

ق . م .	عمر رمسيس	سنة الحكم	الأحـــــداث
١٣١٥	٠		مولد رمسيس الثانى
١٣٠٧	٨		قائد فخرى للجيش
١٣٠٥	١٠		اشتراكه رسميا مع والده فى الحكم وتعيينه مديرا للإنشاءات
١٣٠٢	١٣		إعلانه وليا للعهد
١٣٠١	١٤		تزوج من نفرتارى
١٣٠٠	١٥		احتفال لتتويجه مشاركا فى الحكم مع والده
	١٦		ولادة ولده خعمواست الأول ووفاته
	١٧		ولادة ولده آمون خرخبشف الأول ووفاته .
١٢٩٢	٢٣		تولى الحكم بمفردة بعد وفاة والده. وزواجه من «إست نفرت».
	٢٤	١	ولادة ابنه آمون حرونمف ووفاته .
١٢٩٠	٢٥	٢	ولادة ابنه بارع حرمنف الأول ووفاته.
١٢٨٩	٢٦	٣	نقل العاصمة إلى بررعمسيس .
	٢٧	٤	حملته فى فلسطين ولبنان ووصوله إلى نهر الكلب.
١٢٨٧	٢٨	٥	معركة قادش الشهيرة.
١٢٨٥	٣٠	٧	مولد موسى وتبنى إست نفرت له.
		٨	ثورة فى فلسطين تم إخمادها .
	٣٣	١٠	البدء فى بناء معبد أبى سمبل الكبير.
١٢٨٠	٣٥	١٢	مولد خعمواست الثانى.
		١٣	مولد بارع حرا منف الثانى.
		١٤	مولد رعمسسو .
		١٥	مولد منتو حرشف
١٢٧٥	٤٠	١٧	مولد مرنبتاح موسى عمره ١٠ سنوات
١٢٧٠	٤٥	٢٢	خعمواست ١٠ سنوات وأصبح معلوما أنه ولى العهد مرنبتاح عمره ٥ سنوات وموسى ١٥ سنة وخروجه من القصر
١٢٦٩	٤٦	٢٣	المعاهدة مع الحيثيين

تكملة جدول حياة رمسيس الثانى

ق . م .	عمر رمسيس	سنة الحكم	رمسيس الثانى	موسى
١٢٦٩	٤٦	٢٣	المعاهدة مع الحيثيين	موسى عمره ١٦ سنة
١٢٦٨	٤٧	٢٤	الانتهاء من بناء معبد أبى سمبل الكبير	
١٢٦٥	٥٠	٢٧	خعمواست عمره ١٥ سنة	
١٢٦٢	٥٣	٣٠	العيد الثلاثينى الأول وإعلان خعمواست (١٨ سنة) وليا للعهد	عمر موسى ٢٣ سنة
١٢٦١	٥٤	٣١	زلزال النوبة وتصدع معبد أبى سمبل	
١٢٥٨	٥٧	٣٤	زواجه من ابنه ملك «خيتا»	
		٤٠		عمر موسى ٣٣ سنة
		٤٥		
١٢٤٥	٧٠	٤٧		عمر موسى ٤٠ سنة
١٢٤٢	٧٣	٥٠		
١٢٤٠	٧٥	٥٢	....	قتل المصرى والخروج إلى مدين عمر موسى ٤٥ سنة
١٢٣٧	٧٨	٥٥		
١٢٣٦	٧٩			
١٢٣٥	٨٠	٥٧	وفاة خعمواست وأصبح مرنبتاح وليا للعهد وعمره ٣٨ سنة	
١٢٣٢	٨٣	٦٠		
١٢٣٠	٨٥	٦٢	اللقاء الأول مع موسى وهارون	عودة موسى من أرض مدين (٥٥ سنة)
		٦٣		
		٦٤		
		٦٥		الآيات فى مدة ٥ سنوات (انظر جدول حياة موسى)
		٦٦		
١٢٢٥	٩٠	٦٧	غرق رمسيس الثانى	الخروج وعمر موسى ٦٠ سنة

جدول حياة موسي عليه السلام (١)

الحدث المعاصر	سنة ق . م	عمر موسى	موسى عليه السلام
	١٢٨٢		مولد هارون
رمسيس الثانى عمره ٣٠	١٢٨٥	٠	مولد موسى وتبنى إيست نفرت له.
مولد خعمواست	١٢٨٠	٥	موسى لايزال فى القصر .
مولد مرنبتاح	١٢٧٥	١٠	" " " " "
خعمواست وليا العهد	١٢٧٠	١٥	خروج موسى من القصر وانضمامه لبنى إسرائيل
المعاهدة مع الحيثين		١٦	
رمسيس الثانى ٥٣ سنة العيد الثلاثينى الأول		٢٣	
	١٢٥٥	٣٠	
	١٢٤٥	٤٠	
	١٢٤٠	٤٥	قتل المصرى وخروج موسى إلى أرض مدين
وفاة خعمواست وأصبح مرنبتاح وليا لعهد	١٢٣٥	٥٠	
عمر رمسيس الثانى ٨٥ سنة (السنة ٦٢ من الحكم)	١٢٣٠	٥٥	عودة موسى – نوفمبر ١٢٣٠ تقريبا اللقاء الأول مع فرعون ديسمبر ١٢٣٠ الآيات بواقع آية كل ٦ شهور تقريبا
	١٢٢٩		يوم الزينة تقريبا مايو ١٢٢٩
			الطوفان تقريبا ديسمبر ١٢٢٩
	١٢٢٨		الجراد تقريبا مايو ١٢٢٨
			القمل تقريبا نوفمبر ١٢٢٨
			الضفادع تقريبا فبراير ١٢٢٧
	١٢٢٧		الدم تقريبا أغسطس ١٢٢٧
			البعوض تقريبا ديسمبر ١٢٢٧
			وباء المواشى تقريبا أبريل ١٢٢٦
	١٢٢٦		الظلام تقريبا أغسطس ١٢٢٦
عمر رمسيس الثانى ٩٠ سنة	١٢٢٥	٦٠	موت الأبكار تقريبا مارس ١٢٢٥
(السنة ٦٧ من الحكم)	١٢٢٥	٦٠	الخروج تقريبا أبريل ١٢٢٥

جدول حياة موسى عليه السلام (٢)

الحدث المعاصر	سنة ق.م	عمر موسى	موسى عليه السلام
غرق رمسيس الثانى	١٢٢٥	٦٠	الخـــروج
(عمره ٩٠ عاما)			
وتولى مرنبتاح الحكم			
عمره ٥٠ عاما	٢ يوم	بعد الخروج	المرور على عمال المناجم «اجعل لنا إلها»
وحكم ١٠ سنوات	٥ يوم		المياه المرة
	١٥ يوم		إيليم
	١,٥ شهر		دفقة – المن والسلوى
	٢,٥ شهر		مسه ومريبة. وادى فيران «اثنتا عشرة عينا»
			محاربة عماليق
	٣ شهر		زيارة حمو موسى وعودة الزوجة والأولاد
	٦ شهر		عند جبل موسى
	٧ شهور		٤٠ ليلة. التجلى الإلهى
	٨,١٠ شهر		بنو إسرائيل يعبدون العجل
	٩		٧٠ رجلا الميقات
		٦١ شهر	اشتهاء اللحم . قبروث
		٦١,٣	حضيروت
		٦١,٦	قادش برنيع
		٦١,٧	إرسال الاثنى عشر نقيبا
			الاحصاء والتعبئة
		٦١,٨,١٠	عودة الجواسيس ورفض دخول الأرض
	١٢٢٣	٦٢	بدء التيه
	١٢١٨	٦٣	ثورة قورح
غارات الليبيين فى السنة	١٢٢٠	٦٥	رثمة وقصة البقرة
٥ من الحكم		٦٨	رمون فارص
موت مرنبتاح (٦٠) وتولى	١٢١٥	٧٠	لبنة
سيتى الثانى		٧٢	رسة
(٦ سنة)		٧٤	قهيلاته مجمع البحرين – الخضر
أمنموس بوصاية باى ١٢٠٩	١٢٠٩	٧٦	جبل شافر
(سنة واحدة) ١٢٠٨	١٢٠٧	٧٨	حرادة
سابتاح مرن بتاح	١٢٠٥	٨٠	مقهيلوث

جدول حياة موسى عليه السلام (٣)

أحداث مصر	سنة ق . م	عمر موسى	أحداث بنى إسرائيل
سابتاح مرون بتاح	١٢٠٥	٨٠	مقهيلوث
}	١٢٠٣	٨٢	تاحت
	١٢٠٢	٨٣	
الملكة تاوسرة – ستبن تن موت	١٢٠١	٨٤	تارح
(٨ سنة) ↑	١١٩٩	٨٦	مثقة
	١١٩٧	٨٨	حشمونة
↓ -١١٩٤-	١١٩٥	٩٠	مسيروث
ست نخت (٢ سنة) -١١٩٢-	١١٩٣	٩٢	بنى تعبان
	١١٩١	٩٤	حور الجدجاد
↑ رمسيس الثالث		٩٦	بطبات
(٣١ سنة)		٩٨	عبرونة
	١١٨٥	١٠٠	عصيون جابر = حاضرة البحر
		١٠٢	انتهاء التيه
		١٠٣	قادش برنيع – وفاة مريم
	١١٨١	١٠٤	خطاب إلى ملك أدوم بالمرور فى أرضه
	١١٨٠	١٠٥	جبل هور – وفاة هارون
		١٠٦	الاتجاه جنوبا – وادى الحيات
		١٠٧	عصيون جابر مرة ثالثة – وإيلة
		١٠٨	المسيرة شرق أرض أدوم
	١١٧٥	١١٠	محاربة الأموريين فى حشبون .
	١١٧٣	١١٢	محاربة الأموريين فى باشان.
	١١٧٠	١١٥	محاربة المديانيين
		١١٨	التعبئة العامة الأخيرة
		١١٩	قواعد ولجنة تقسيم الأرض
↓	١١٦٥	١٢٠	الوصية الأخيرة ووفاة موسى عليه السلام
وفاة رمسيس الثالث – ونهاية الأسرة الـ ١٩	١١٦١		

يتبع بإذن الله الجزء الخامس وبه داود وسليمان عليهما السلام وباقى أنبياء وملوك بنى إسرائيل.

مراجع

إضافة إلى المراجع التى ذكرت فى الجزء الأول.

١ - الآثار المصرية فى وادى النيل. چيمس بيكى. مترجم . مراجعة دكتور محمد جمال الدين مختار: خمسة أجزاء.

٢ - الآلهة والناس فى مصر. ڤرانسواز دونان وكرستيان زڤى كوش. ترجمة فريد بورى مراجعة د. زكية طبوزادة. دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٩٦.

٣ - الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية. محمد المدنى. دار الجيل بيروت . لبنان.

٤ - الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة جـ١ ، ٢ سليم حسن. مطبوعات كتاب اليوم عن مؤسسة أخبار اليوم ١٩٩٠.

٥ - الأديان فى القرآن. دكتور محمد بن الشريف دار المعارف بمصر ١٩٧٠.

٦ - الإرتباط الزمنى والعقائدى بين الأنبياء والرسل. دكتور محمد وصفى. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة. ١٩٦٥.

٧ - الفرعون الذى يطارده اليهود بين التوراة والقرآن. سعيد أبو العينين. كتاب اليوم عن دار أخبار اليوم. ١٩٩٧.

٨ - المدخل إلى الأديان والمذاهب. العميد عبد الرازق محمد أسود. دار السيرة. دار العربية للموسوعات. بيروت. لبنان. ١٩٨١.

٩ - تفسير الإمام القرطبى. دار احياء التراث العربى. بيروت. لبنان ٢٠ جزءاً. ١٩٩٥.

١٠ - تفسير الكتاب المقدس. جماعة اللاهوتيين برئاسة دكتور فرنسس داڤدس. دار منشورات النفير. بيروت. لبنان. ١٩٨٦.

١١ - دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة. موريس بوكاى دار المعارف. ١٩٧٧.

١٢ - قاموس الكتاب المقدس. دكاترة بطرس عبد الملك. چون ألكساندر طومسون. إبراهيم مطر. دار الثقافة.

١٣ - فى ظلال القرآن . الصبر . الشيخ سيد قطب.

١٤ - مصر القديمة . سليم حسن . جـ ٦ ، ٧.

١٥ - مصر والشرق الأدنى القديم. د. نجيب ميخائيل إبراهيم. ستة أجزاء . مطبعة الإسكندرية. ١٩٥٧.

١٦ – موسى مصريا. سيجموند فرويد ترجمة محمد العزب موسى. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. المكتبة الثقافية. ١٩٦٩.

17. A History of Ancient Egypt. Nicholas Grimal Blackwell, 1997.
18. An Atlas of Ancient Egypt. John Baines and Jarmoir Malek, Phaidon, Oxford, 1958.
19. Egypt of the Pharaohs. Sir Alan Gardiner, Oxford at the Clarendon Press, 1961.
20. Moses, Paraoh of Egypt, the Mystery of Akhenaten resolved. Ahmed Osman. Grafton Books, London, Glasgow. 1990.
21. Pheraoh Triumphant, the Life and times of Ramesse II. K.A. Kitchen. The American University in Cairo Press, 1990.
22. Ramesses the Great, the Pharaoh and his time. Rita E. Freed, 1982.
23. Ramesside Inscriptions Translated and Annonated. K.A. Kitchen, Blackwell Publishers, vol. I&II.
24. The Ancient Near East vol I&II Amelie Kuhrt. Routledge. London & New York, 1997.
25. The Ancient Near East. James B. Pritchard. Princeton University Press, Oxford, 1958.
26. The Bible as History. Warner Keller. Bantam Books, New York London, 2nd ed., 1982.
27. The Obelisks of Egypt. Labib Habachi. The American University Press in Cairo. 1988.
28. New Commentary on the Whole Bible. Jamieson, Fausset & Brown. Tyndale House Publishers. Wheaton, Illnois. 1990.
29. New Unger's Bible Dictionary. Merrill F. Unger. Moody Press, Chicago. 1988.

هــذا الكتاب

هذا هو الجزء الرابع من سلسلة «قصص الأنبياء والتاريخ» ويختص بقصة موسى وهارون عليهما السلام. وهى من أطول قصص الأنبياء. فضلا عن ذلك كان لزاما الإجابة على سؤال كثر الجدل بشأنه: من هو فرعون موسى؟ وبلغت النظريات التى وضعت عشرا. وإن كان الرأى قد استقر أخيرا على أن رمسيس الثانى هو فرعون التسخير إلا أن الخلاف لايزال محتدما حول فرعون الخروج: هل هو رمسيس الثانى أيضا أم ابنه مرنبتاح؟

وكان لابد من دراسة ماكتبه رمسيس الثانى على آثاره العديدة المنتشرة فى جميع أنحاء مصر لنخرج منها بتحليل عن شخصيته ولمعرفة سبب التسخير الذى أنزله ببنى إسرائيل. وللوصول إلى دلائل مادية على ادعائه الألوهية ليتأكد لنا أنه هو القائل: أنا ربكم الأعلى

من هو قارون؟ من هو هامان؟ من هو مؤمن آل فرعون؟ من هى امرأة فرعون التى امنت؟ أمور لم يتصدى لها كتاب من قبل . وهذا الكتاب يجيب عنها .

إضافة إلى ذلك فإن الكتاب يُفصِّل عملية الخروج Exodus ومكان انشقاق البحر وغرق الفرعون وهى أمور اختلف العلماء حولها كذلك. وقد أدرجنا شرحا لما حدث لجثة رمسيس الثانى حتى وصلت إلى المتحف المصرى لنصل إلى حقيقة معنى قوله تعالى: «فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية». وما هى هذه الآية؟

ثم نأتى إلى المسيرة الطويلة فى سيناء. وقد اختلف العلماء كذلك حولها وخاصة فى فترة التيه. وسيلمس القارىء مقدار ماتحمل موسى عليه السلام من كثرة تذمر بنى إسرائيل وتمردهم. وكيف صبر عليهم وقادهم حتى أوصلهم إلى مشارف «الأرض الموعودة» والتى لم يُقدَّر له أن يدخلها وكانت هذه مهمة خلفه – يشوع بن نون – وهو ما سيجىء فى الجزء الخامس إن شاء الله مع قصة داود وسليمان عليهما السلام وباقى أنبياء بنى إسرائيل.

المؤلــف

سعر النسخة عشرون جنيهاً